

التمرّد

قصة الأرجون

تأليف مناحم بيجن

تقديم اللواء حسن البدرى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٨

نصوص ودراسات فى الصهيونية | ١



الغلاف بريشة محمــد قطــب

نصوص ودراسات فى الصهيونية | ١



قصة الارجون

تأليف
مناحم بيجن

تقديم

اللواء الركن حسن البدرى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٨

تقديم

١ ـ عن المؤلف

ليس هناك أصوب من العودة الى الاسس التى تقوم عليها العقيدة الصهيونية ·· لكشف دعائمها الثلاث وهى : دعوى التفوق العرقى ، والتوسع لتحقيق اسرائيل الكبرى ، واعتناق العنف كهدف ووسيلة لتحقيق هذا التوسع ·

وبهذه الدعائم الثلاث ·· تنطبق مبادىء الصـهيونية مع مبادىء الفاشية التى اعتنقت مقولة التفوق العرقى ، ومبدأ المجال الحيوى ، كما استخدمت العنف والارهاب لتحقيق الأهداف الجائرة ··

فأساس مقولة شعب الله المختار ·· تستند فى مضمونها الى فلسفة ألمانية فاشية حين نادت بالتفوق العنصرى للشعب الآرى ، وهى تهدف ـ كما يؤكد مفكرو الصهاينة أنفسهم ـ الى « اقتراح الانسان الأسمى من البشر » ·

وفى هذا المجال يبرز مناحم بيجن كواحد من أشد الدعاة الى فكرة التفوق الصهيونى ، وحق اليهود فى أرض المعاد ، والمنـاداة بأن القــوة فوق الحق ، وأن الغاية تبرر الوسيلة ، وأنه لا وسـيلة لتحقيق الغاية الصهيونية سوى العنف وحمل السلاح بصفة دائمة ·· **« ومن يمت منكم وهو يحارب العرب ·· فسوف يبقي خالدا فى مخيلة اليهود »** ·

ثم يقول مناحم بيجن أنه « **بالدم والنار والدموع والرماد سـوف يظهر عرق بشرى جديد ، هو عرق اليهود** » .

ويضفى بيجن على هذا التشبيه النظرى بين صهيونيته والفاشية بعدا عمليا آخر .. بقوله .. « **أنتم الاسرائيليون يجب الا تأخذكم شفقة أو رحمة عندما تقتلون عدوكم .. يجب أن تقضـوا عليه حتى ندمر ما يسمى بحضـارة العرب ، التى سـوف نشيد على أنقاضها حضارتنا اليهودية** » .

هكذا كشف بيجن عن الجانب الفاشى للصهيونية ، كما كشف عن ذلك الارتباط الوثيق بين الوجود الفعلى لاسرائيل .. وبين الاعتماد عـلى القوة المطلقة لاقامة وصيانة هذا الوجود ..

فالذين عملوا على اقامة الدولة الصهيونية ــ ومنهم بيجن ــ أدركوا فى الوقت نفسه استحالة قيامها دون الاعتماد على السلاح .. وبرروا تلك الضرورة فى كافة كتبهم وخطبهم ــ بدءا بكتـاب تيودور هرتزل عن الدولة الصهيونية الذى دعا فيه الى حمل السلاح ضد بحر المشـاكل التى سوف تثيرها محاولات تحول دون بناء الدولة الصهيونية . ومن بعد هرتزل نادى فلاديمير جابوتنسكى ــ أستاذ بيجن ــ بدعوته الى اعتناق العنف المطلق ، وملء وجدان شباب الصهاينة بالروح العسكرية ، وشحن نفوسهم بالأفكار الفاشية ، داخل المنظمات العسكرية التى عمـل على اشباعها وصبغها بالصبغة الدموية ، والعنف المطلق ..

وعندما قامت اسرائيل .. دعا حاييم وايزمان ــ أول رئيس لها ــ الى العنف والارهـاب ، ثم زاد عليه أول رئيس لحكومتها ــ دافيـد بن جوريون ــ فرسم لهذا الارهاب سياسة ووضع له خطة ، ولم ينس أن يؤكد بأن « **اسرائيل لا تستطيع العيش الا بقوة السلاح** » .

أما مناحم بيجن .. فقد فاق كل هؤلاء فى المغالاة والتطرف حتى قال عنه بن جوريون نفسه .. « عندما أسمعه يتحدث يخيـل الى أننى استمع الى هتلر أو موسولينى » .. بل أنه كشف عن نوع جـديد من الوجودية بقوله .. « **انا احارب .. اذن فانا موجود** » .. ثم قوله .. « **كن أخى والا قتلتك !** » ..

ولم يعتنق بيجن أى مبدأ لتأمين الأهداف الصهيونية سوى مبـدأ

العنف ، فمن وجهة نظره « **ان الاساليب الارهابية قد اشبعت رغبة جارفة مكبوتة لدى اليهود** » ..

وبفضل هذه الآراء ترسخت نزعة فاشية عسكرية فى قطاع له وزنه من المجتمع الاسرائيلى الجديد ، وتفشت فيه حتى صارت المحور الذى تدور حوله الحياة الصهيونية .. فالدولة قد قامت بالعنف ، وهى تحيـــا بالعنف ، وتزن كافة الامور بميزان العنف ، وتنظر الى جميع القضايا بمنظار العنف .. ثم تتباهى بأن شـــعبها ليس الا تجمعا لنخبة من المحاربين ..

تلك هى حقيقة الفاشية فى الحركة الصـــهيونية ، ودور النزعة العسكرية العدوانية فى انشاء واستمرار الكيان الصهيونى ، على نحو ما يكشف عنه بيجن فى هذا الكتاب .. اذ يقول .. «**فعنصر العنف والقوة جزء لصيق بالحركة الصهيونية ، والعدوان مســـــألة جوهرية وليست عارضة** » ..

ويعتبر مناحم بيجن أن سياسته هى امتدادللحرب وأداة لها ، اذ يؤكد بأنه .. « **لن يكون هناك سلام لشـــعب اسرائيل ، ولا فى أرض اسرائيل ، ولن يكون سلام للعرب ايضا ، ما دمنا لم نحرر وطننا بأكمله ، حتى ولو وقعنا مع العرب معاهدة صلح** » ..

والواقع أن بيجن قد أجاب هنـــا على تساؤل أستاذه جابوتنســكى « **هل حدث أن تخلى شعب ما عن أرضه برغبته الخالصة ؟ .. اذن فلن يقبل العرب ذلك .. الا تحت ضغط الاجبار والقسر** » !! ..

فهل هناك أوضح من هذه النية على استمرار العدوان حتى يحقق بيجن وصقوره قيام الامبراطورية الصهيونية المنشودة ؟ .. بدءا بقرار التقسيم ، وعبر خطوط هدنة رودس ، وحتى الحدود الآمنة لعام ١٩٦٧ ثم ما سوف يتلوها من توسعات على النهج العدواني المتصاعد الذى تطل منه الفاشية الصهيونية بوجهها العسكرى القبيح لتحقيق مجالها الحيوى فى الوطن العربى ، وترسيخ الوجود العرقى الاستيطانى المنغلق فى قلبه .. واذا ما عجز هذا الوجه العسكرى عن بلوغ هدفه فلا غضاضة من أن يسفر الاجرام عن وجهه الذى جسده مناحم بيجن .. بعصابة الارجون .. وعصابة الشتيرن فى الأربعينات .. ثم سجل قصته فى هذا الكتاب .. فلم ينس من مخازيه شيئا .. حتى دير ياسين .. جريمته الدموية فى

حق الانسانية ، تلك المجزرة التى يندى لهـــا الجبين خجلا ٠٠ فى حين لا يجد بيجن أية غضاضة فى معرض حديثه عنها أن يتفاخر بقـوله ٠٠ **« لقد أسهمت مذبحة دير ياسين مع غيرها من المجازر الأخرى فى تفريغ البلاد من ٦٥٠ ألف عربى » !! ٠٠**

وكانت دير ياسين قرية وادعة مطمئنة بجوارها للقدس الشريف ، يقطنها نحو ٤٠٠ عربى ، وفى يوم الجمعة ٩ أبريل ارسل بيجن زبانيته من الارجون والشتيرن لمباغتة هذه القرية ٠٠ ففتكوا بنحو ٢٥٠ من أهلها أكثرهم من النساء والأطفال والعجائز ٠٠ ثم ألقوا بجثثهم فى بئر القرية امعانا فى بطشهم ٠٠ أما القلة التى نجت من المجزرة فراحوا يطوفون بهم شوارع القدس ، بعد أن عبأوهم حفاة عراة فى العربات ليتشفى الصهاينة بمنظرهم الذليل ٠

وعندما ثار الضمير العالمى على بربريتهم وفداحة جرمهم ، لم يجد بيجن عذرا يتذرع به الا قوله ٠٠ **« لولا دير ياسين لما قامت اسرائيل » !!**

ولم تكن جريمته فى دير ياسين هى الاولى أو الاخيرة فى قاموس جرائمه ٠٠ فهناك عشرات الجرائم المماثلة ٠٠ بل والاشـــد منها هولا ونكالا ٠

وظل بيجن يعامل العرب بعقلية « الجيتو » ، وكل ما تنطوى عليه من نوازع البغى الذى ملأ بواطن ضـــميره بالاهوال التى تعرض لها هو وأسلافه فى أوروبا على امتداد القرون ٠٠ وما كان للعرب يد فيها ٠

ولم تثمر محاولته الخروج من وراء جدران عقدة « الجيتو القديم » فى وارسو ، الا بتطبيق جيتو جديد للعرب فى فلسطين ٠٠ وقد عميت بصيرته عن أن يرى وسيلة للتعامل مع العرب ــ أصحاب البلاد الشرعيين ــ الا من خلال القوة ٠٠ القوة الغاشمة على الدوام ٠٠ وبلا أدنى رحمة أو شفقة ٠

وبموجب هذا المنطق ٠٠ نادى بيجن بالانغلاق العنصرى ، وبالنقاء العرقى ، وبالتمييز التام للهوية اليهودية على الآخرين ، عن طريق الانطواء الذاتى ، ورفض التعايش مع الغير فى أرض اسرائيل ، فهذا التعايش يشكل من وجهة نظره وإقرانه وصمة شائنة فى الصـــيرورة الصهيونية النقية ٠

ويتطلب هذا النقاء العنصرى ·· نزوح كل من هو غير يهـودى عن أرض المعاد ، فالشعب المختار لن يحقق مصيره المميز الا بعد حشده بكامل عدده فى اسرائيل التى لن يقيم فيها سواه ··

لهذا اتبع دعاة التفوق العنصرى من الصهاينة وعلى رأسهم بيجن ·· منهج اجبار عرب فلسطين على النزوح ·· بالإرهاب ·· ثم التنكيل ·· ثم المجازر الدموية ··

ويكشف بيجن عن ذلك فى كتاب التمرد ـ قصة الارجون ـ **ومن خلال التعصب الاعمى الذى ينحدر به الى تبرير الجريمة يستند الى نصوص التوراة ليجد الذريعة لمجزرة دير ياسين ، فى نص لسفر الخروج يقول « فانى ادفع الى يديك سكان الأرض ، فتطردهم من أمامك ، ولا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدا · ولا يسكنوا فى أرضك لئلا يجعلوك تخطىء » ··**

ومن الطبيعي أن يجد بيجن فى المتاجرة بالدين ستارا يخفي به جوهره الحقيقى ·· وينبئنا التاريخ ·· بأن سـائر الحالمين بالسيطرة والتسلط عن طريق القوة ·· قد دأبوا على استغلال الدين كستارة لاخفاء سوءاتهم اللا انسانية ··

ان تاريخ بيجن الشائن ·· الذى يكشف هـذا الكتاب عن أسوأ فتراته ، يؤكد أن للرجل وجهة نظر تاريخية متعصبة ، اسـتقاها من التوراة ، ودعمها بتعاليم أستاذه جابوتنسكى ، ثم صاغها فى عقيـدة توراتية تجد سندها في ثلاثة مصادر رئيسية هي : غطرسة القوة ·· والتعصب الأعمى ·· وازدراء الغير ··

وهكذا انطبق مفهوم بيجن للحل النهائي للمشكلة العـربية فى فلسطين مع مفهوم هتلر للحل النهائى للمشكلة اليهودية فى المانيا ·· فالهدف واحد ·· وهو القضاء على العنصر البشرى غير المرغوب فيـه وتصفيته نهائيا ·· ثم لا ينسى وهو يحقق ذلك أن يتستر بنصوص من التوراة لحجب ما يقترف وعصابته من آثام ·

ويخصص بيجن الكثير من أوراق هذا الكتاب فى متابعة وقائع هذا العنف الذى اقترفه واقرانه فى حق العرب ·· بيد أن هذا الادمان على العنف لم يكن ضد العرب وحدهم ·· بل تخطاهم أيضا الى غيرهم ·· فما أن اقترب الانتداب البريطانى من نهايته ، وتضعضع التحالف بين الامبريالية البريطانية والاستعمار الصهيونى ، وانفرط عقده بعد أن

يحقق أغراضه ، حتى انقض بيجن ومنظمته الارهابية شبه العسكرية على الحامية البريطانية ، بل وعلى السلطات المدنية البريطانية فى فلسطين أيضا ·· فنسف مراكزها وبطش بقضاتها وجنودها ، وألهب ظهورهم بالسياط ، بل ونصب لهم المشانق ، على نحو ما يفتخر به فى هـذا الكتاب ·· حتى وضعت السلطة الحاكمة مكافأة لمن يأتيها برأسه ·

***

ولد مناحم بيجن فى بلدة برسـت ليتوفيسك ببولنـدة عـام ١٩١٣ ، ودرس القانون فى جامعـة وارسـو ، وبعـد تخرجـه لم يمارس المحاماة طيلة حياته · وفى عام ١٩٣٨ التقى بالزعيم الصهيونى المتطرف « فلاديمير جابوتنسكى » الذى عينه ممثلا للحركة الصـهيونية التصحيحية على مستوى الدولة ·· وبمجرد أن اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية انخرط فى صفوف الجيش البولندى ، ثم انتقل الى الاتحاد السوفيتى ·· ونفى فى سيبيريا حتى فر منها الى ايران فالعراق · ثم دخل بيجن فلسطين عام ١٩٤٢ بطريقة غير شرعية متسللا اليها من شرق الأردن حيث كان يعمل فى صفوف الحلفاء ·· وبموافقة قائده المباشر الذى غض الطرف عن انفصـاله عن وحـدته وعبوره نهر الاردن ·· ثم التحق بالارجون ، حيث أعلن أنه رجل حرب ، وأنه يثق فى النصر ، وأنه لن يتراجع ··

وسرعان ما تربع على قمة منظمة الارجون زفاى ليومى (المنظمـة العسكرية القومية) التى ترى فى اسرائيل الكبرى حقا مشروعا لليهود ·· وأنها أرض وعدها الله لشعبه المختار ·· واتخذ شعارا للارجون يمثل « خريطة عظيمة المساحة تمتد من النيل الى الفرات ، وتجثم فوقها بندقية جاهزة للانطلاق ومن تحتها كلمتا (راك كاخ) أى « هكذا فقط » ·

ومنذ انضمام بيجن الى منظمة بيتار فى بولنده عام ١٩٢٩ وحتى تولى قيادة الارجون عام ١٩٤٢ وهو يعمل على استقطاب العناصر شديدة التطرف الى الحركة الصهيونية ، وصهرها فى تنظيم عسكرى يركز كل طاقاته للاسهام فى انشاء (اسرائيل الكبرى) ، وتفريغ أرضـها من أصحابها العرب تحقيقا لنبوءة القدماء ··

وبقيام دولة اسرائيل الكبرى أجبر بن جوريون ـ الارجون ـ على الاندماج فى جيش الدفاع رغم معارضة بيجن بالقول والعمل ·· ووقعت

حادثة السفينة « التاليتا » الشهيرة التى يتناولها فى هذا الكتاب من وجهة نظره . « وبانتهاء الحرب .. شكل بيجن مع بعض الصقور حزب حيروت ليحمل شعار الإرجون ويعمل على استكمال اغتصاب الارض العربية المتاخمة .

وبعد قيام دولة اسرائيل استمر بيجن من موقع المعارضة يؤكد أن الدولة الصهيونية الوليدة لن تتخلى عن تصميمها على احتلال أرض عربية جديدة ، ولن تكتفى بما اغتصبته من أراضى فلسطين ، لانه جزء يسير من الارض لا تشكل التراث القومى اليهودي الذى يجب أن يمتــد من « النيل الى الفرات » .

وتبلورت جهود بيجن من موقع المعارضة ايضا فى تنشيط العناصر الرئيسية للبرنامج الصهيونى بزيادة الانطواء على الذات ، والانفراد العنصرى .. واغتنام كل الفرص المواتية للتوســع حتى اسرائيــل الكبرى .

وهكذا تبنى بيجن البرنامج الذى وضعه استاذه جابوتنســكى بحذافيره ، وسار بحزب حيروت على نهج خطواته ، ثم اندمج مع بقيــة العناصر التحريفية والارهابية لتظهر جميعها على مسرح السياسة الاسرائيلية منذ عام ١٩٤٩ تحت زعامته .. وراح يتصدر الحملات الانتخابية ويلقى الخطب الغوغائية التى تسبقها مواكب عرض العضــلات ، تماما كما كان يفعله هتلر بألمانيا فى نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات .

واتخذ بيجن وصقوره فى طريق المغالاة والتطرف .. فتنكبوا سبيل الديمقراطية المعتدلة ، واعتنقوا العنف لتحقيق غايتهم .. وهكذا جنح حزب حيروت الى أقصى يمين الأحزاب الاسرائيلية ، ونادى بالعــداء لكل ما هو ليس صهيونى .. عداء حتى الموت ، والتوسع أينما وجد اليه سبيل .. توسع بغير حدود .. وتركيز الجهود .. كل الجهود .. حتى تصبح اسرائيل القوة المحلية ذات اليد العليا والكلمة المطاعة فى المنطقة .. كما نادى باقتصاد حر ، ومحاربة الإشتراكية والاستعمار الصغير .

والواقع أن حزب حيروت تحت زعامة بيجن لم يختلف عن بقيــة الاحزاب الصهيونية الأخرى من ناحية ارتباطاته الخارجية ومنظماته التى تضم العديد من يهود الشتات .. ومن خلال تلك الارتباطات ــ المشبوهة ــ يتضح الوجه الحقيقى لحزب حيروت .. فاكثر المؤيدين له من يهــود

جنوب أفريقيا ·· بلاد التفرقة العنصرية التي تلتقى مع أفكار حيروت فى بؤرة واحدة ·

واستمرت قوة حيروت تتصاعد مع فشل الاحزاب الحاكمة وانتشار الشائعات عن فساد ذمم زعمائها ·· وجمع بيجن الكثير من الناقمين عليهم لصفه ·· واضعا نصب عينيه أن تظل السياسة الخارجية ومسالة التوسع والنقاء العنصرى لدولة اسرائيل تحتل المرتبة الاولى من فكره ، وتمتص القدر الاكبر من أنشطته واهتماماته ··

ولم يكل بيجن من الدعوة الى التوسع ، وشن الضربات ضد العرب أينما وحيثما توفرت الفرصة · وبعد العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وقف بيجن يشيد بالعدوان ، ويشدد على ضرورة احتواء المكاسب الأرضية كمنطلق لفرض الاستسلام على العدو (العرب) ··· « **فالعدو يجب اخضاعه والقضاء عليه** · »

وكان الخط الاستراتيجى لمناحم بيجن خلال الكنيست الثالث فى أعقاب العدوان الثلاثى يقوم على النقاط التالية :

- انجاز عمل عسكرى يستهدف كل التراب الفلسطينى ·
- العمل الدائم لتدمير القوى والأنظمة العربية ·
- التحالف العضوى مع الامبريالية الدولية لتنفيذ المصلحة المشتركة ·

وفى يونيو ١٩٦٧ كان بيجن أكثر السياسيين الاسرائيليين حماسا لاشعال الحرب « **لأن الهجوم على العرب لا يعتبر عدوانا وانما دفاع عن النفس** » · على حد زعمه ·

ولم يقتصر حماس بيجن للحرب على مجرد التحريض ، بل بذل غاية جهده ·· لتهيئة الوضع السياسى الاسرائيلى فدعا بالحاح الى تشكيل حكومة تكتل قومى ·

ودخل بيجن وحزبه فى هذه الحكومة لأول مرة ، واستمر بها الى أن لاح فى الأفق احتمال قبول الحكومة لمبادرات أو مشاريع مفاوضات حول الاراضى العربية المحتلة ، فسارع هو وأنصاره الى الانسحاب الفورى من الحكومة ·

وفى ٢٦ مايو ١٩٦٨ القى بيجن كلمة فى افتتاح المؤتمر التاسع

لحركة حيروت أكد فيها .. « **أنه على اسرائيل أن تفرض سيادتها الرسمية على جميع الأراضى العربية المحتلة التى تم تحريرها من حكم الأجانب غير الشرعى** » .

وقال بيجن : « **ان شرط الأمن الأساسي هو الاحتفـــاظ بسيطرة اسرائيل على المناطق ، والاستيطان الواسع النطاق فى مناطق الضفة الغربية (يهودا والشمرون) وغزة وهضبة الجولان وشبه جزيرة سيناء** » .

وفى الثامن من نوفمبر ١٩٧٠ افتتح مناحم بيجن المؤتمر العاشر لحركة حيروت وأشار الى مشروع السلام الذى وضعه ، والذى أصر فيه على ضرورة المفاوضـات المباشرة ، وتحقيق تكامل اسرائيل ، وضـمان السيطرة على قواعد العرب .

ثم اكد فى ختام المؤتمر : « **أنه من اجل ضمان سيادة اسرائيل على جميع المناطق المحررة ، يجب أن يطبق عليها القانون والقضـاء والادارة الاسرائيلية** » .

وفى ١٣ سبتمبر ١٩٧٣ تم التوقيع على ميثاق التكتل (الليكود) بين ممثلى حيروت والاحرار ، وبين المركز الحر والقائمة الرسمية وحركة العمل من أجل اسرائيل الكاملة . وكان برنامج التكتل الجديد هو :

١ – **استمرار احتلال الأرض العربية ، وتثبيت هذا الاحتلال قانونيا .**

٢ – الهيمنة العسكرية الإسرائيلية على دول المواجهة العربية .

٣ – الاستيطان الواسع النطاق فى كل الأراضى المحتلة .

وبانتصار العرب فى حرب رمضـان المجيدة وجد مناحم بيجن والليكود فرصته للقفز الى السلطة ، فراح يشن حملة عارمة على حزب العمل ، اتهمه فيها بالانحدار باسرائيل الى حافة التدمير الكامل .

وأصبح واضحا أن المقدمات الضرورية لتولى مناحم بيجن السلطة أصبحت قائمة بفضل الاضطرابات التى سـادت اسرائيل والتخلخل الذى أصاب المعراخ الحاكم وانعكاس هـذا التخلخل على موقف جمهور الناخبين الذين أصابهم زلزال رمضان بتصدع ملموس .

وهكذا جاءت انتخابات الكنيست الثامن فى ديسمبر ١٩٧٣ لكى تفصح عن تحرك باتجاه اليمين فى الخريطة السياسية الاسرائيلية ، الأمر الذى تحقق فى انتخابات الكنيست التاسع فى مايو ١٩٧٧ .

وعندما تولى بيجن رئاسة الحكومة فى يونيو ١٩٧٧ .. أثير سؤال .

هل تغير هذا الارهابى القديم بفعل السنين حتى اصبح جديرا بأن يكون رجل دولة مسئول ؟ .

ولم يأت برنامج الليكود بجديد .. اذ ظل يعبر عن الاتجاهات الأساسية الثابتة لمناحم بيجن على امتداد الربع قرن المنصرم التى تنادى (بأن حق الشعب اليهودى فى أرض اسرائيل غير قابل للنقاش ، وهو مرتبط بحقه فى الأمن والسلام ، ولهذا وجب أن يرفض كل مشروع يسفر عن تقسيم أرض اسرائيل المحررة بصورة نهائية) .

أما التطلع الى السلام فيعنى توقيع معاهدات سلام عن طريق المفاوضات المباشرة مع الأطراف المعنية دون شروط مسبقة ، ومع الاحتفاظ بحق اسرائيل فى ممارسة السيطرة على مناطق محررة سبق ان استخدمها الأعداء ، ويمكن أن يستخدموها مستقبلا لشن العدوان .

أما استيطان شعب اسرائيل على نطاق واسع فى اليهودية والسامرة (الضفة الغربية) وفى غزة وهضبة الجولان وسيناء .. فله فى نظر بيجن مرتبة القداسة .

***

بهذه الأفكار المتصلبة .. يطرح السؤال نفسه للمرة الثانية ..

« هل تغير بيجن الارهابى بفعل السنين .. فأصبح جديرا بأن يكون رجل دولة مسئول ؟

واليوم ، وقد مر أكثر من عام على فوز الليكود فى الانتخابات ، فقد انتكست الآمال التى تطلع الكثير من أعضاء حزب بيجن أن تتحقق على يديه بعد أن تسلم دفة الحكم .

كما خيم على اسرائيل قدر كبير من الحيرة .. وراح عدد من أعضاء الكنيست ورجال السياسة يظهرون امتعاضهم من سياسته ، ويعلنون عن فقدهم الثقة فى أسلوبه ومنهجه السياسى .

ويقول عضو الكنيست موشى شامير « ان جميع أخطاء الحكومات السابقة تكرر نفسها تحت قيادة بيجن ، وأن هناك خيبة أمل ويأسا من الزعامة الحالية .... »

***

بل ويردد وزير في حكومته « بأن الوضع لا يمكن أن يستمر ، لأن بيجن لم يعد يسيطر على زمام الأمور » .

***

ويصفه الكاتب الاسرائيلي المعروف « أورى افنيرى » فيقول : « اذا ما نظرنا الى صورة بيجن .. لشعرنا بميوله الانطوائيه ، وما توحيه أحزمة الصلاة اليهودية التى يعلقها فى ملابسه من أنه يعتنق مذهبا غامضا متطرفا .. ولعل حب بيجن الشديد للخطابة هو نوع من المظهرية التى ورثها عن أبيه . أما صبر بيجن مدة ٢٩ عاما وهو خارج السلطة .. فقد ورثه عن أمه .. وكان السبب فى ذلك هو خشية الاسرائيليين من أن يقودهم رجل متطرف مثل بيجن .. الى التهلكة » ..

فهذا المتطرف المتزمت قد أعطى الانطباع بأنه نسخة عصرية من القادة التوراتيين القدامى الذين عرضوا شعوبهم للدمار لأكثر من مرة نتيجة الانغلاق وضيق الأفق الفكرى .

***

ولقد التزم بيجن فى كل تصرفاته العامة والخاصة بفكر وأسلوب المنظمات الارهابية السرية .. وحتى بعد قيام الدولة واضفاء الشرعية الدولية عليها .. لم تنسجم شخصيته مع ما هو مفترض فى رجل الدولة ، إذ هو يشذ بهذه السمة عن بقية زعماء اسرائيل .. فعلى الرغم من اتفاق آرائهم جميعا على الأهداف المرحلية والغاية النهائية ، فإنهم حاولوا أن يكونوا فى تصرفاتهم رجال دولة .. الا بيجن فقد حالفه الفشل .. بل انه لم يحاول قط ...

أما ناحوم جولدمان ـ الرئيس السابق للمؤتمر اليهودى العالمى ـ فإنه يصف بيجن قائلا :

... « ساذج ، ويعانى من نقص فى الفهم السياسى .. فضلا عن أن التفاؤل الصبيانى يسيطر عليه .. فهو ما زال يحلم بقيام دولة اسرائيل الكبرى فى الحدود التى جاء ذكرها فى التوراة والانجيل » .

وأعرب ناحوم جولدمان عن أسفه لأن بيجن :

... « يظن أن بوسعه حل كل شىء من خلال تشبثه بما يعتقده هو شخصيا » .

***

لقد فقد بيجن هيبته .. وقل تأييد الجماهير له حتى اعترف هو نفسه بذلك خلال نقاش جرى داخل كتلة ليكود .. اذ علق بقوله : بأنه قد طرأ خراب في الحكومة .. !!

***

وهو يبدو اليوم انسانا مرهقا ، عاجزا عن تصريف الأمور ، بينما تطالبه قطاعات لها وزنها من الشعب بأن يبدى الجراة في احياء مبادرة السلام التى حملها الرئيس أنور السادات معه برحلته الجريئة الى القدس يوم ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ .. بعد أن كان سببا في تعثرها . اذ نراه بعد انتهاء محادثات السلام بالاسماعيلية في نهاية عام ١٩٧٧ يحدد موقعه بتقديمه مشروع سلام من جزئين :

في الجزء الأول : يقترح منح عرب الضفة الغربية وقطاع غزة الحكم الذاتى مع السماح لهم بتشكيل مجلس ادارى يرعى شئونهم ، في حين تظل شئون الامن والنظام العام في يد السلطة الاسرائيلية .

كما تنص مقترحاته على منح سكان الضفة الغربية وقطاع غزة حق الاختيار بين الجنسيتين ــ الاسرائيلية أو الاردنية ــ وما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات سياسية كانت أو مدنية ، ولم يغفل عن توسعاته .. فنص على حق الأسرائيليين في امتلاك اراض في تلك المناطق مقابل منح نفس الحق للعرب الذين يختارون الجنسية الاسرائيلية وان تتمسك اسرائيل بسيادتها الكاملة على يهودا والسامرة وقطاع غزة ويطالب « ادراكا منه لوجود مطالب أخرى » على حد تعبيره .. بابقاء مسألة السيادة في تلك المنطقة مفتوحة في الوقت الحالي ..

وأما تصوره بالنسبة للمدينة المقدسة .. فانه يقترح ان تظل كما هى ، مع ضمان حرية وصول أبناء جميع الديانات الى الأماكن المقدسة بها .

***

أما في الجزء الثاني : فقد تناول مسألة التسوية مع مصر في أربعة مطالب هى :

المطلب الأول : تجريد مناطق معينة في سيناء من السلاح ، على ألا يجتاز الجيش المصرى الممرات ، واستمرار سريان اتفاق خفض القوات على القوات المحصورة بين الممرات وقناة السويس .

المطلب الثاني : بقـاء المستوطنات الاسرائيلية فى أماكنها وفى وضـعها القائم ، على أن تكون مرتبطة بالادارة والقضاء الاسرائيلى كما تقوم القوات الاسرائيلية بحمايتها ٠

المطلب الثالث : أن تحدد فترة انتقالية لعدد من السنين يرابط خلالها جيش الدفاع الاسرائيلي وسـط سيناء مع ابقاء مطـارات وأجهزة انذار اسرائيلية لحين انتهاء هـذه الفترة الانتقالية والانسحاب للحدود الدولية ٠

المطلب الرابع : ضمان حرية الملاحة فى مضايق تيران ، على أن تعترف الدولتان في اعلان خاص بأن هذه المضايق هى ممر مائى دولى يجب أن يكون مفتوحا للملاحة لأية سفينة وتحت أى علم وأن يتم الاشراف على ذلك بواسطة قوات تابعـة للامم المتحدة ، ولا يمكن سحبها الا بموافقة الدولتين وبناء على قرار اجماعى لمجلس الامن ، أو بواسطة دوريات عسكرية مصريه اسرائيلية مشتركة ٠

الا أن مصر رفضت مشروعاته واقتراحاته هذه ، وما زالت متمسكة بمقترحاتها ٠٠ مما أدى الى تعثر مباحثات السلام ٠٠ بل الى تجميدها أيضا فى وقتنا الحالى ٠٠ ودفع بزعماء اليهود وساستهم وقطاعات واسعة منهم أن يهاجموا سياسة بيجن ٠٠ بل ويتظاهروا ضده معلنين سخطهم على تعنته ، وعدم مرونته ٠٠ وطالبوه أن ينتهز هذه الفرصة الذهبية لمبادرة السلام كى يصل بسفينة اسرائيل الى بر الامان ٠٠٠

***

لكن الرجل ظل متحجرا ٠٠ وكأنها نهايته ٠٠ اذ ألقت هذه المبادرة الجريئة فوق كاهله حملا ثقيلا ٠٠ وأوقعته فى ورطة تاريخية عويصـة ٠٠ فالتحدى الذى يقف أمامه هو السلام ٠٠ والواقع أن الرجل قد احتار وضاق عليه الخناق ٠٠ فهل يكون على مستوى الأحداث ٠٠ فيغير مبدأه العدوانى ، أم يترك تلك الفرصة النادرة تذروها الرياح ٠٠ ليعض من سيأتى بعده بنان الندم حسرة على ضياعها ؟ ويكشف بتعنته للعالم بأسره عن خيبته ودخائل طويته ٠٠ التى تبرزهـا الصفحة الأخيرة من كتابه « التمرد » حيث يقول : « **ان الأسلحة العبرية هى التى ستقرر حدود الدولة العبرية ٠٠ ولا يمكن أن نشترى السلام من أعدائنا بالمفاوضات ٠٠ فهناك نوع واحد من السلام يمكن أن يشترى ٠٠ « هو سلام القبور »** !!

٢ ـ هذا الكتـاب :

اكتظت أرفف المكتبات فى أعقاب الحرب العـالمية الثانية بكتب السير الذاتية على نحو ما تزدحم أرفف مخازن الأدوية اليوم بالعقاقير ... وبقدر ما تنوعت اشكالها ومضامينها اختلفت متونها وأهدافها بما يكشف عن جوهر مؤلفيها وخبيئة أنفسهم .. سوية كانت أم متطرفة ..

وعيب التطرف فى كل عهد ومكان أن المصاب به يقيم الباطل ثم يخترع له السند والحجة والمبرر ، واذا ما انكشف فساد موازينه بتضارب أحكامه فى القضايا المتشابهة ، راح يتهم الدنيا بأسرها أنها تتآمر عليه ، ويجـرم الجميع أصدقاء وأعداء على حد سواء .. أليس هو الملهم ، العليم ببواطن الأمور .. وكل من عداه طغمة من الأغبياء الجهلاء ، الذين لا يصلحون لشىء ..

فى هذا يتجسد الشبه الكبير بين كتاب مناحم بيجن ـ التمرد ـ وكتـاب أدولف هتلر ـ كفاحى ـ بالاضـافة الى تماثلهما فى الصياغـة والأسلوب .. نفس الفقرات الباردة المنفرة التى تحمل قدرا هائلا من الغرور والنرجسية ، وقدرا أكبر من الاستخفاف والزراية بالغير .

فمناحم بيجن يزعم فى كتاب « التمرد » ما سبق أن زعمه هتـلر فى « كفاحى » .. « **أن ثمة عنصرا ساميا وشعبا مسيدا ، وأن الدنيا كلها تتآمر عليه .. وانه والمتطرفين من شاكلته يقفون لحماية هذا الشعب المختار من الفناء ، ولهذا فهو يستحق مؤازرته وطاعته العمياء .. دون أى نقاش ، والا ضاع هذا الشعب ، وذهبت ريحه** » .

ولا يمل بيجن من تكرار مذبحة الستة ملايين الذين يزعم أن النازية

أحرقتهم في أفرانها خلال الحرب العالمية الثانية .. وهدفه الوحيد من تكرار هذه المقولة التي يكتنفها الشك من كل جانب أن يبث الخوف في قلوب الصهاينة .. الخوف الذي سوف يؤدي بهم الى زيادة الانغلاق العنصري .. فالانطواء .. فسوء الظن بالغير .. فسوء الظن بالنفس وهو أعلى مراتب الفطنة الصهيونية .. فالكراهية .. التي تدفع الى الحرب .. خاصة وأن من يحارب .. فهو موجود .. طبقا لمذهبه المعروف في الوجودية .

ويدور بيجن في هذه الحلقة المفرغة داخل صفحات كتابه الذي اختط فيه شريعة ملؤها الخسف والسخف ... شريعة تقضي بأن يربح هو اذا وقعت العملة على وجهها ، أما اذا وقعت على الوجه الآخر فيخسر العرب !

ولم يسلم أحد من قلمه الحقود ... حتى غلاة الصهاينة أمثال تيودور هرتزل وحاييم وايزمان ودافيد بن جوريون وموشي شرتوك وجولدا مائير .. فتارة هم انهزاميون جبناء .. وتارة خونة وعملاء .. ودائما عجزة وبلهاء .. لا يصلحون لشيء .

وحتى أصدقاء الصهاينة من الجوييم ، هؤلاء الذين بذلوا كل جهدهم لتنفيذ مخطط الصهيونية الجائر اللا أخلاقي ، من أمثال آرثر بالفور صاحب الوعد الشهير ، وونستون تشرشل وهاري ترومان ، بل والصهيوني العتيد اللورد صمويل ، أول مندوب سام بريطاني في فلسطين ، وهو الذي غير وجهها العربي الصبوح ، وغرس بذرة الصهيونية الخبيثة في أرضها الطاهرة .. لم يسلم أحد من هؤلاء من قلم بيجن واتهاماته لهم بمعاداة السامية ، أو بالعمالة المزدوجة ..

وفي ديباجة الكتاب يقول : « **انه كتبه اساسا لشعبه خشية أن ينسى اليهود مرة أخرى - كما نسوا من قبل وبصورة ضارة - تلك الحقيقة الواضحة .. أنه توجد هناك أشياء أخرى أثمن من الحياة وأفظع من الموت** » .

ثم يغرق بيجن في التطرف ، ويسوق التهديد السافر لغير اليهود فيقول .. « **لقد ولدت من الدم والنار والدمع والرماد فئة جديدة من الجنس البشري لم تكن معروفة للعالم طوال ما يربو على الألف وثمانمائة عام .. تلك هي فئة اليهودي المحارب** » .

وعندما يقدم نفسه لقرائه يقول بيجن .. « **كل أشخاص الرواية يصفون المؤلف بأنه الارهابي الأول في أرض اسرائيل** » ولقد صدق بيجن في ذلك ..

ثم يثير السؤال .. « **هل كانت هناك كراهية في تصرفاتنا ؟** » ويجيب « **نعم** » ثم يؤكد **أن هذه الكراهية هي القوة الدافعة للارتقاء في تاريخ العالم !** » مخالفا بذلك كل تعاليم السماء عن المحبة والسماحة والتراحم الذى يفرق الانسان عن الحيوان .

ويستطرد بيجن على امتداد نيف وأربعمائة صفحة في شرح دوره البارز في اقامة دولة اسرائيل حتى يخال القارىء أن الصهيونية لم تنجب سواه .. ولكنه يغفل أو يتغافل عن حقيقة أنه كان آخر من جاء الى فلسطين .. وأن الزمن الذى أتاحته الفرصة أمامه لم يكن كافيا لانجاز ولو بعض ما يزعم في هذا الكتاب ، ذلك لأن أهم الانجازات أو أغلبها كان قد تحقق فعلا على يد من سبقوه على امتداد نصف القرن الذى سبق وصول بيجن الى فلسطين فى يونيو ١٩٤٢ ، بدءا بمخطط اقامة الدولة العنصرية المنغلقة الذى وضعه تيودور هرتزل عام ١٨٩٧ أثناء المؤتمر الصهيونى الأول بمدينة بال السويسرية ، ثم مرورا بقيام المؤسسة العسكرية الصهيونية الأولى فى فلسطين ــ البارجيورا ثم الهاشومير هاتسعير عام ١٩٠٧ ، فوعد بالفور عام ١٩١٧ ، فالهاجاناه عام ١٩٣٠ ، فالوكالة اليهودية عام ١٩٢٢ ، فمشاريع التقسيم بدءا بتقرير لجنة بيل الملكية عام ١٩٣٧ ، وما صاحب كل ذلك من التدابير التى فرضتها سلطات الأمن لغرس الكيان الصهيونى واقامة المؤسسات الاسرائيلية فى أرض فلسطين العربية .

والواقع أن القارىء سوف يخرج من هذا الكتاب بانطباع واضح بأن مؤلفه لم يكن الا زعيما لعصابة اجرامية تعمل تحت الأرض .. وأنها كانت عصابة صغيرة .. يكتنف تمويلها وتموينها الريب ، وأنها عوضت عن هوان شأنها بالاغراق في التطرف والوحشية ، والمغالاة فى القسوة وسفك الدماء .. وأنها لم تترك عدوا ولا صديقا .. فنشرت الفساد فى الأرض ، وأذلت الناس على نحو ما يصفه بيجن بقوله .. « **اذا أنت أخضعت رجلا للدرجة الأولى من المعاناة فانه يظل يكافح لكي يعود الى نقطة البداية .. ولكنك اذا دفعته الى أسفل السلم فسوف لا يفكر فى العودة الى حالة اللا معاناة ، بل سوف يحلم فقط بالرجوع الى المرحلة السابقة مباشرة . ولعله يكون قد نسى ما يجرى وراء هذه المرحلة الأخيرة من مراحل المعاناة** » .

ولهذا كان طبيعيا أن ترصد السلطة الحاكمة ثمنا لرأس هذا الزعيم السفاح .

...

ويسجل بيجن قصة الأرجون فيتنكب سبيل الحق ·· ويطنب فى شأن التافه من الأمور حتى يثير الملل ، ثم يوجز فى شأن الأمور الهامة لدرجة الخلل ·· وذلك تبعا لقيمة الحدث فى اشباع نهمه الى النرجسية ·

ولا ينفك يتحدث عن أيام سجنه القصيرة فى معتقلات ستالين حتى تخاله لن يسكت أبدا ··· تماما مثلما فعل هتلر بفترة سجنه القصيرة فى كتاب « كفاحى » ··· أما كيف وصل من هذا السجن مرة واحدة الى فلسطين ··· وهو ما يستحق الشرح والاطالة ··· فتراه يقصر الحديث فيه على بضع كلمات لاتفهم فى نهايتها كيف انتهت به الطرق من سجن لوكيشكى السوفيتى قرب المحيط المتجمد الشمالى الى الحرية فى أرض فلسطين مرورا بميناء كرازنوفودسك على بحر قزوين ، ثم ميناء بهلوى بايران ، ثم عبر الجبال الشامخة حتى بغداد ، فالحبانية ، فعبر الأردن الى فلسطين ··· كل ما يقوله بيجن فى أمر هذه الرحلة العجيبة المريبة ··· **« ووصل قارب الحرية لينقلنا من السجن الى شاطىء الحرية ·· ونزلنا الى الشاطىء ··· فأصبحنا أحرارا ··· كما كانت زوجتى فى الطريق الى أرض اسرائيل يصحبها بعض الأصدقاء الصالحين »** ·

هذا هو كل الأمر ··· وكأننا فى زمن الخوارق أو بساط الريح ··· كيف خرج من سجن ستالين ذى القضبان العالية ؟ ··· وكيف خرجت زوجته من معتقل هتلر الذى لا أبواب له ·· وكيف اجتمع شملهما بهذه السرعة فى فلسطين فى أول يونيو ١٩٤٢ ··· ؟ ··· كلها أسئلة لا يقدم لها بيجن جوابا الا أن يقول ··· **« ان الانســـان فى التفكير والرب فى التدبير · لقد انتهى فصل وبدأ فصل آخر ، وقام القدر أزائى بدعـــابة عجيبة ! »** ثم يبقى للقارىء أن يظن فى كنه هذه الدعاية ما شاءت له الظنون ··

ويخرج علينا بيجن فى **الفصل الرابع** من كتابه بوجه جديد للوجودية لم يسبقه اليه أحد اذ يقول ··· **« اننا نحارب ، ولذا فنحن كائنون »** ·

وعندما يستطرد فى شرح معاناة اليهود فى رايخ هتلر ، ويتســاءل **« هل من المستطاع ابادة شعب بأسره ، وفى القرن العشرين ، وماذا عسى أن يقول العالم ؟ »** يذهب فى شرح حملة الابادة التى شنها هتلر فيؤكد ·· **« انهــا لم تحدث على حين غفلة ، فقد أعــد لها على مر السنين ، وأعد لها علميا · وبصورة منسقة ، حتى أعلن هتلر فى الرايشتاج عام ١٩٣٦ ان حربا أخرى تعنى نهاية اليهود فى أوربا »** ··· ويشد انتباه القارىء الى أن ذلك هو ما فعله بيجن وعصابته بعرب فلسطين ، فى القبو ، وبيت داراس ،

والزيتونة ، ودير ياسين ، ومئات غيرها من المذابح التى يندى لها جبين البشر ٠٠ ثم زاد بيجن على ما فعله هتلر ٠٠ فأنكر أن هناك شيئا اسمه شعب فلسطين ٠

ويصل بنا بيجن الى وعد بالفور فيؤكد أن هدف بريطانيا من اصداره لم يكن خدمة اليهود بل ٠٠ « **أن يظل اليهود أقلية فى فلسطين لا تتوفر لهم الحماية الا عن طريق سونكيات البريطانيين ٠٠ وتحقيقا لهذا المأرب كان البريطانيون ينوقون الى ادخال عدد محدود من اليهود الى فلسطين ــ لا أكثر من هذا العدد المحدود** » وهكذا جعل بيجن من لورد بالفور متآمرا آخر على الشعب اليهودى ، وواحدا من الذين عملوا غاية الجهد على عرقلة المخطط الصهيونى الموضوع لاستلاب فلسطين ٠٠ ويتغافل بيجن عن أن ادخال بعض اليهود الى فلسطين لتصبح لهم فيها جالية أقلية لم يكن يتطلب أن تصدر حكومة جلالة الملك جورج الخامس وعدا للمستر روتشيلد ٠٠ بل يتغافل أيضا عن أن هذه الأقلية كانت موجودة قبل صدور وعد بالفور ٠٠٠ وكانت كافية ليشرع البريطانيون سونكياتهم فى وجه العرب أصحاب البلاد الشرعيين ، حماية لهذه الأقلية اليهودية المحظوظة » ٠

ولا يذكر بيجن اسم « **عرب فلسطين** » الا مشفوعا بنعت « **الغزاة** » كما يؤكد ٠٠ « **أن الحل الأخلاقى الأمثل هو تفريغ الأرض منهم بكل الطرق والوسائل ٠٠٠ فالغاية تبرر الوسيلة** » ٠

ويعرض بيجن فى « **الفصل السادس** » لأهداف جيش المقاومة اليهودى فيقول ٠٠٠ « **ان مأربنا كان فى الواقع عكس الارهاب تماما ، فقد كان جوهر كفاحنا هو تخليص شعبنا من محنته الكبرى : الارهاب ٠ كيف كان لنا أن نستمر فى الحياة فى هذا العالم العدائى الذى يهاجم فيه اليهودى لأنه يهودى ؟ كيف كان لنا أن نظل أحياء بدون سلاح وبدون وطن ؟ لذلك قمنا نحن رجال الارجون لنثور ونحـــارب ، لا لنشيع الارهاب ، وانما لنقضى عليه ٠** »

ولكن سجل بيجن وعصابته فى القضاء على هذا الارهاب يطفح بأعتى درجات الارهاب ٠٠٠ تدمير الجسور والكبارى ، وتهديم البيوت ، وتفجير القطارات لسرقة ما تحمله من نقود وأسلحة ، ومباغتة المصــارف لنهب خزائنها ، ونسف ارتال السيارات على الطرق وذبح الأطفــال والنســاء والعجائز ، وبقر بطون الحوامل للمراهنة فيما بينهم على نوع الجنين ٠٠ ورغم كل هذه الفظائع فان بيجن يؤكد لنا انه لم يمتشق السلاح ليشيع

الارهاب ... وانما ليقضى على الارهاب ! نفس منطق السفكة المجرمين ... أمثال جون ديلنجر الأمريكى الذى بعد أن عاث فى الأرض فسادا وقتل المئات من الأبرياء بمدفعه الرشاش الذى لم تكن تهمد ناره صاح عندما أطبقت عليه الشرطة من كل حدب وصوب قائلا ... **اهذا جزاء من يدافع عن نفسه ووجاله فى هذا البلد ؟ »**

ولا تسلم أحكام القضاء من لسانه اللاذع ... فحتى مجلس الشورى البريطانى ـ ذو السمعة المحترمة فى كل أنحاء العالم ـ عندما قضى عام ١٩٢٩ بحق المسلمين فى ملكية مربط البراق الشريف بالاضافة الى ملكية الساحة المجاورة والمنطقة التى تطل على الحائط ، وصفه بيجن « **بالسفاهة البالغة** » وان لم يفته ... «**ان يشهد للقضاء البريطانى بمراعاة القانون**» .

وعندما أثارت أعماله الاجرامية استنكار العالم واشمئزازه ، وتسبب فى احراج الوكالة اليهودية حتى طلبت من الحاخام الأكبر تجريم هـــذه الأعمال ، لم يتورع بيجن رغم ادعائه بالتطرف فى الدين أن يهاجم الحاخام الأكبر نفسه .

ثم ينحدر بيجن فى تمجيد الذات حتى يبلغ القاع فى « **الفصـــل الثامن** » الذى اطلق عليه اسم « **رجل متعدد الاسماء** » فملأه بالنرجسية حتى الثمالة ... « **وهزأ بالحكومة بأن صادر كميات كبيرة من الأقمشة من مخازنها** » .. فأى هزء هذا الذى يكون بسرقة المخازن ونهب أملاك الغير

ويتحدث فى « **الفصل التاســع** » عن احتمالات الحرب الأهلية التى كادت جرائمــه أن تفجرها بعد أن أوقعت الوكالة اليهـــودية فى الحرج الشديد ، بل وجعلت الصهيونى العنيد تشرشل يهـــدد اذا لم توقف عصابة الارجون أعمالها ... « **فقد سبق لى ان قسمت فلسطين ، واستطيع أن أوحدها من جديد** » .

ومن بعد تشرشل يسوق بيجن رأى الياهو جولومب رئيس الهاجاناه فى جرائم الارجون ضد المدنيين العزل من السلاح ، وأثر ذلك على اليهود فى فلسطين فيقول .. : « **لقد جادلنى جولومب بأننى كنت اعلم اليهود الجبن بدلا من أن أبث فيهم الشجاعة** » .

وعندما يصل بيجن فى « **الفصل الحادى عشر** » الى حادثة السفينة « **التاليبنا** » وهو الاسم الصحفى لزيف جابوتنسكى ، وهى الحادثة التى أشعلت الحرب فعلا بين الارجون والهاجاناه ، « فان بيجن يختلق قصـــة

لم يسبقه اليها أحد من اليهود أو غير اليهود ·· اذ يؤكد ·· **« أن الحكومة هي التى قررت استخدام السفينة أثناء فترة الهدنة ، والا لما جاءت » ·**

وعن تهريب الأسلحة والذخائر أثناء فترة الهدنة رغم تعهده بالكف عن ذلك يقول ·· **« اما عن حظر الأمم المتحدة فقد كنا قادرين على معالجته بطريقة ما ، وعلى أية حال فالحكومة كانت تعرف ، وفى هذه الظروف لم تكن المسألة مسألة أخلاقيات » ·**

وعندما يتضح أن الحكومة لم تكن تعرف ، لانها بمجرد أن علمت فرضت أشد الاجراءات ·· يقول بيجن **« ينبغى أن نؤكد أنه ابتداء من هذه النقطة فى هذا التاريخ المحزن انبعثت سحابة الدخان الأسود بعد أن نشرت الحكومة المحلية بيانا بأن الارجون تحاول خرق الهدنة التى امرت بها الأمم المتحدة ، ولهذا وجدت الحكومة نفسها مضطرة ـ التزاما منها بمبادىء القانون الدولى ـ أن تدمر الأسلحة التى احضرتها الارجون الى اسرائيل مخالفة بذلك الهدنة »** ثم وقعت القطيعة بين بيجن وبن جوريون حتى ممات الأخير ·

ولكن بيجن بعد صفحات قليلة يتغافل عما قاله عن أن مسألة خرق الهدنة لم تكن مسألة « **أخلاقيات** » ، واذ يقول ·· » **« حانت ساعة الهدنة ـ الخامسة صباحا ـ وبينما كان رجالنا يقاتلون صدرت اليهم الأوامر بالانسحاب . ولكن الهدنة انتهكت بالطبع بمعرفة العرب » ·**
بهذا يقيم بيجن شريعته التى تقضى بأن يربح اذا وقعت العملة على وجهها ، وأن يخسر العرب اذا وقعت على وجهها الآخر ·

بل انه يقول فى صفحة لاحقة **« ان مراقبى الأمم المتحدة عندما جاءوا ليشاهدوا السفينة التالينا وهى تفرغ حمولتها من الأسلحة والذخائر طلبوا منا أن يصعدوا على ظهرها ، ولكننا أجبناهم فى مجاملة رقيقة أننا لن نسمح لهم بالمرور ، فانصرفوا بهدوء »** ولايرى بيجن فيما فعل أى خرق للهدنة ·· فالذى يخرقها هم العرب ·· بالطبع ! والمسألة من قبل ومن بعد مسألة « **أخلاقيات** » ·· ودونما حياء أو خجل يتصدى بيجن لجريمته التى لن يغتفرها له التاريخ ، والتى سوف تبقى قرينة لا تتقادم جدتها على اليهود ·· مثل قرينة اصرارهم على صلب السيد المسيح ·· ويزعم بيجن ·· **« ان ثمة فصائل عربية كانت تدافع عن قرية دير ياسين الوادعة ، وأنه وجه انذارا انسانيا اليها ·· ولكن دعاية العرب دبرت**

حملة لتلويث اسمنا ٠٠ الا أنها ساعدتنا من حيث لاتحتسب ٠٠ اذ اكتنف الذعر العرب في أرض اسرائيل ٠٠

أما رواية المسيو رونيـــه مندوب الصليب الأحمر الدولى ، وهو شاهد العيان على ما ارتكبه سفاكو الارجون بحق نساء القرية وأطفالها وشيوخها ٠٠ ثم القاء جثتهم ببئر القرية بعد المراهنة على جنس الأجنة فى أرحام الأمهات ٠٠ فهذه قصـــة أخرى ٠٠ « **فلولا دير ياسين لما قامت اسرائيل ، ولما حصلت على النقاء العنصرى المنشود** » وفى « **الفصـــل الثانى عشر** » يبكى بيجن حتى ينفطر قلبه الرهيف حزنا من عدد قليل من رجـــال البالماخ « **الذين لا يخالجنى أدنى شك اليوم أنهم جـاءوا للتجسس علينا** » ٠

هكذا حال المتطرفين المصابين بالنرجسية ٠٠ الكل يتربص بهم ويتجسس عليهم ٠٠ ولا شرفاء على ظهر الأرض الا هم ٠

وقبل أن يختم بيجن هذا الفصل يلقى بمكنون قلبه ويصب جام غضبه على الدنيا بأسرها فيقول ٠٠ « **ان من تتبع قصتى يعرف أن القدر لم يدللنى ، فمنذ شبابى الباكر قاسيت من الجوع وعرفت الحزن ، بل ان الموت احتضننى فى أرض الوطن ، وعلى الأرض الأجنبية على السواء ٠٠ الا اننى لم أبك لمثل هذه الأحداث** » ٠

ويعود بيجن فى مطلع « **الفصل الثالث عشر** » الى تكرار نغمة مذابح الابادة التى تعرض لها يهود أوربا ٠٠ « **فلم يبق على قيد الحيـاة من ١٧ مليون يهودى فى العالم بأسره سوى ١١ مليونا ، وابيد ثلث شعبنا جزافا ومن غير مقاومة** » ٠

ورغم ما يكتنف تلك المقولة من شك تاريخى وعلمى ، فقد نال غير اليهود ما هو أشد وأنكى ٠٠ اذ تعرض مسلمو البوسنه والهرسك لأهوال ونكال ، وسفكت دماؤهم كما سفكت دماء الكثيرين غيرهم فى شتى أنحاء الدنيا ، وبأعداد أضخم ٠٠ وما لنا نذهب بعيداً وهؤلاء عرب فلسـطين الذين جرت دماؤهم الزكية أنهارا على أرض فلسطين نتيجة المذابح التى اقترفها رجال الارجون والهاجاناه والبالماخ والشتيرن بحقهم ٠٠ ثم طردوا من بقى منهم أحياء ٠٠ ليظلوا لاجئين أبد الدهر ٠٠ معلقين بين الأرض والسماء ٠٠ فى حالة من البؤس والضياع أســـوأ من الموت ٠٠ ولكن بيجن يقول ان قضية طرد العرب من أرضـــهم وبيوتهم تقع على أكتاف الانتداب البريطانى ٠٠ « **ففى الفترة التى سبقت الغزو العربى ســنة**

١٩٤٨ كانت السلطات البريطانية هى التى حثت العرب على الهرب من الاقليم ، لكى يعودوا اليه منتصرين فيما بعد » • وهكذا يغسل بيجن يده من دم عرب فلسطين كما غسل بنتوس بيلاتوس يده من دم المسيح ••

ولا يصل بيجن بزعمه هذا الى نهاية الافتراء •• فهناك من فاقه فى هذا المضمار بقوله ان العرب أنفسهم هم الذين شجعوا الفلسطينيين على النزوح •• رغم صـــدور حكم محكمة بريطانية بفساد هذا الزعم وكذبه فان المهم فى مدرسة الافتئات الصهيونية أن تظل تكرر الاكذوبة حتى تصبح حقيقة •

وقبل أن يختم بيجن هذا الفصل الحافل بالاعترافات يسوق فقرة غريبة يقول فيها •• « **تحاول الهيئة المشروعة المعترف بها والمحترمة أن تبقى شرعية ومعترفا بها ومحترمة •• (يقصد الهاجاناه) ، كما تحاول الهيئة غير المشروعة ، المكافحة والمضطهدة (يقصد الارجون) أن تحقق الهدف الذى من أجله تصبح فى الواقع مكافحة ومضطهدة •**

بهذا يبرر بيجن لجاليلى وسنيح ــ زعمـــاء الهاجاناه ــ رفضــه الانضواء تحت رأية الوكالة اليهودية ، « **حتى تظل عصابته ــ الارجون ــ غير محترمة •• ومضطهدة !** » •

ويشجع بيجن جنـوده على الفســـاد فى الأرض فيقول لهم •• « **لقد كان هناك فى الامبراطورية النمسوية القديمة وسام خاص لأعمال البطولة التى يمارسها الجنود مخالفين لاصول الضبط والربط والانتظام العسكرى** » ويقصـــد بيجن من وراء ذلك أن يجعل من جنـــوده أفاقين ودهماء •

وللمرة الثانية ، يستعرض بيجن أحد جرائمه البشعة •• فيصف فى « **الفصل الخامس عشر** » كيف قام بنسف فندق الملك داود بالقدس •• ويكاد القارىء أن يحس بالخيلاء والزهو الذى شحن به بيجن أسطر هذا الفصل •• « **لقتله مائتى شـخص كان من بينهم عـدد من كبار الضباط البريطانيين ، وان كان أكثرهم من النزلاء الأجـانب الذين لا صـلة لهم بالقضية من قريب أو بعيد** » •

وفى مواجهة حملة الاشمئزاز العالمية التى أثارها الضمير الانسانى الحر ، بل والرأى العام اليهودى نفسه ، ضد هذه العملية البشعة يدافع بيجن عن جريمته تحت اسم « **الحق والباطل** » قائلا •• « **هبت الصحف**

اليهودية لمؤازرة الباطـل ، وكذا المؤسسات اليهودية التى انتابها الذعر (يقصد الوكالة اليهودية) ، والشخصيات التى ارتعدت فرائصـــها (يقصد دافيد بن جوريون) كانوا جميعا يصرخون ويصيحون وقد جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وقد أنهمكوا فى البحث عن أقوى كلمات الاستنكار ، وأعنف عبارات السباب ، واقذع ألفاظ المهانة » •

ثم يوجه بيجن شواظ كلامه الى بن جوريون مباشرة فيقول ٠٠ « **لقد عمل المستر بن جوريون على اعلاء صوت فرقة التشهير (الكورس)، اذ قال ان منظمة الارجون عدوة للشعب اليهودى ، وانها دائما تعارضه** »٠

ثم يسوق بيجن البيان الذى أذاعته الهاجاناه يوم ٢٣ يوليو ١٩٤٦ تستنكر جريمة نسف فندق الملك داود « **بسبب عملية عصابة الارجون المنشقة** » •

كل هذا الاستنكار والاشمئزاز والأسى « **هو الباطل فى رأى بيجن ٠٠ أما الحق فهو ما يقول ويفعل** » •

وفى الفصل « **السادس عشر** » يلمس القارىء لذة بيجن وهو يشرح أسلوبه فى جلد ضـباط بريطانيا العظمى والقبض على قضـاتها جزاء تجرئهم على اصدار الاحكام ضد القتلة من عصابة الارجون •

ثم يفرد فصلاً بعد ذلك لرثاء هؤلاء السفاكين القتلة الذين انتهت حياتهم التعسة على أعواد المشانق ٠٠ فيخص دوف جرونر بالجزء الأكبر من الرثاء ، ويفخر باعتراض جرونر على أن يحاكمه قضاته مستندا الى أنه « **لا يستطيع أي شخص أن ينقل الى شخص آخر اية حقوق تزيد على ما يمتلكه هو نفســه** » • ومع تسليمنا بأنه دفع قانونى لاغبار عليه ٠٠ أفلا ينطبق ذلك على وعد بالفور وحق العرب ٠٠ وهل يحق لبالفور أن ينقل ملكية فلسطين ــ التى لا يملكها ــ الى اليهود ٠٠ أم أن شريعة بيجن مازالت تقضى بأنه يربح اذا وقعت العملة على وجهها ، وأن يخسر العرب اذا وقعت على الوجه الآخر ؟

ثم لا يختم بيجن هذا الفصل قبل أن ينحدر إلى قاع الرذيلة عندما يسرد التفاصيل المشــــينة عن القبض على القـــاضى البريطانى الوقور ، المستر ويندهام ، بواسطة عصابة الارجون •

ويستهل بيجن « **الفصل الثانى والعشرين** » الذى أسماه « **مقابلات فى الخفاء** » بتأكيد أن سياسته الحربية العامة لم تكن سياســـة انتقام

« أما من حيث المشانق التى نصبها لجنود بريطانيا وضباطها ، فانه كان قد عقد العزم منذ البداية على تطبيق قانون الأخذ بالثأر » .

ولا يكلف بيجن خاطره ليشرح لنا الفرق بين الثأر والانتقام ... وعندما تؤكد الهاجاناه أن بعض عمليات الثأر هذه قد ارتكبتها الارجون لمجرد التباهى وجذب الأنظار يعترض بيجن بأن ذلك الاتهام يحط من قدره ... **« اذ يصوره وكأنه أى شىء الا أن يكون عاملا حاسما فى الموقف » .**

وعلى امتداد الصفحات الست عشرة التالية يكشف بيجن لأول مرة عن سر خطير لم يكن يتصور أحد من العرب امكان حدوثه .. فيصف جلوسه الى الدكتور رالف بانش سكرتير مجلس الوصاية الدولية وقتها ، ووسيط الأمم المتحدة بين العرب واسرائيل فى هدنات رودس عام ١٩٤٩ ... **« الذى كان منحازا قلبا وقالبا للصهيونية » .**

ونفهم من بيجن أن القاضى السويدى ساند ستروم رئيس لجنة الأمم المتحدة للتحقيق ، والدكتور الصينى فيكتور هو مساعد سكرتير الأمم المتحدة ، والدكتور رالف بانش ، اجتمع ثلاثتهم فى الخفاء مع بيجن وافراهام وشمويل - زعماء الارجون - يومى ٢٦ و ٢٧ يونيو ١٩٤٧ فى منزل الصهيونى يعقوب كوهين بتل أبيب .. بعيدا عن الأعين .. بعد أن استحلفوا بيجن ألا يذيع هذا السر أبدا ..

ويقول بيجن فى نهاية هذه القصة .. **« أن ثلاثتهم أبدوا تعاطفا شديدا مع اسرائيل ، بل ان الدكتور رالف بانش شد على يدى بحرارة فى نهاية الاجتماع مؤكدا أنه مع اسرائيل قلبا وقالبا .. فهو مثلنا من أقلية مطحونة منبوذة » .**

وفى **«الفصل الثالث والعشرين»** تقع عين القارىء على فقرة ملأها بيجن بالحقد على الانسانية اذ يقول فيها .. **« ذلك هو حال الدنيا : طريق مفجع تحف به الأهوال ، ولا طريق غيره » .**

ويزعم بيجن فى **« الفصل الخامس والعشرين »** أن ثمة **« غزوا عربيا »** لفلسطين حدث فى يناير ١٩٤٨ ، بينما تؤكد سجلات التاريخ أن فلسطين كانت تتعرض آنذاك لغزوة بربرية همجية تفوق فى بشاعتها ودمويتها غزوة التتار .

ويأتى دور الماريشال مونتجمرى رئيس أركان حرب الامبراطورية البريطانية وقتئذ ، والمستر ماكميلان المندوب السامى البريطانى فى فلسطين

ليبالا نصيبهما من قلم بيجن ... « **ثم لما رفع الجنرال باركر (قائد القوات البريطانية بفلسطين) صوت عذابه جلدنا ضباطه** » .

ويعترف بيجن أنه تلميذ هتلر النجيب فيقول .. « **ان وضـــع المتفجرات فى حوائط المبانى تحت ستر النيران أسلوب ألمانى استخدمناه بنجاح ضد أقوى المواقع الحصينة .. وتزداد فرص نجاح مثل هذه الهجمات فى أقليم كفلسطين** » .

وخشية أن ينسى القارىء شريعة بيجن التى قدمها فى صدر الكتاب وكررها كثيرا فى متنه ، يعيد تذكيره بها قرب نهايته فيقول .. « **ان تقســـيم أرض الوطن اجراء غير شرعى لن نعترف به أبدا .. ان توقيع الأفراد والمؤسسات على اتفاقية التقسيم باطل ولن يكون ملزما للشعب اليهودى .. فلابد أن تعود أرض اسرائيل الى شعب اسرائيل ، كلها .. والى الأبد** » .

وفى « **الفصل الثامن والعشرين** » يسوق بيجن فرية وافكا عظيما اذ يقول .. « **كان الهدف هذه المرة قطار ذخيرة بريطانيا فى طريقه من حيفا الى المثلث يحمل أطنانا من الأسلحة والذخائر النفيسة الى قوات القاوقجى زعيم العصابات العربيـــة .. ولم يصـــل القطار الى محطة الوصول .. بل أوقف عند الخضيرة ، واستولينا على كل ما فيه من أسلحة وذخائر ، هى التى قررت مصير يافا بعد ذلك** » .

هكذا يزعم بيجن أن بريطانيا كانت تمد القاوقجى بالأسلحة والذخائر بينما يعلم الجميع أنها ـ والملك عبد الله ـ كانت تطارده فى الأرض ، وتصر على أن يحل جيشـــه .. ثم لماذا يســـمى بيجن جيش القاوقجى « **عصابة** » ... ولماذا ينكر عليه حقه فى ذخائر وأسلحة الانتداب التى كانت مشاعا آنذاك لكل من يرغب فى الحصول عليها .. ولأى هدف استولى بيجن على القطار .. ليغتصب مدينة يافا العربية التى تركها قرار التقسيم للعرب ، ووافقت الوكالة اليهودية على ذلك .. ولكن لا عجب ، أليست شريعة بيجن أن يربح بوجه العملة ، وأن يخسر العرب بوجهها الآخر . ثم لا ينسى قبل أن يختتم كتابه أن يكيل لليهود السباب مثلما كاله آنفا لغير اليهود ، فيقول عنهم .. « **ان هذا الشعب لا يستحق تضحياتنا** » .

تبقى كلمة أخيرة ، فالكتاب بكل ما يحويه من رأى متطرف ،وجرائم مخزية ، وأعمال همجية . ومبررات زائفة ، وحجج سخيفة ، وموازين

فاسدة انما هو بضعة من وجدان مؤلفه الذى أخـــذته العزة باثمه حتى أعطبت فكره وحواسه ، وأسقمت روحه ووجـــدانه ٠٠ وقد نكون قد تأخرنا كثيرا فى تقـــديم مثل هـــذا الكتاب الذى ظهر فى عام ١٩٥١ للقـــارىء العربى حتى يسبر غور مؤلفـه ، وهو خصـــمه ، ويعـــلم حقيقة دخائله ٠٠ ولكنها فرصة ما تزال سانحة ، حتى بعد أن تحول ببيجن من رئيس عصابة الى رئيس حكومة ٠٠ فقد ظل هو نفس الرجل ٠٠ الذى يكشفه هـــذا الكتاب ٠٠ وقديما قال الحكماء ٠٠ « **ان الاناء ينضـــح بمـــا فيـــه** » ؟

اللواء الركن : حسن البدرى

التمرّد

مقدمة

لقد كتبت هذا الكتاب لشعبى ، أساسا ، خشية أن ينسى اليهودى مرة أخرى ـ كما نسى من قبل بصورة ضارة ـ تلك الحقيقة الواضحة : حقيقة أنه توجد هناك أشياء أخرى أثمن من الحياة وأفظع من الموت ·

الا أننى كتبت هذا الكتاب أيضا للأمميين غير اليهود خشية أن يكونوا غير راغبين فى أن يدركوا ـ أو خشية أن يبدوا استعدادا لأن يضربوا صفحا عن ـ حقيقة أنه قد ولدت من الدم والنار والدمع والرماد فئة جديدة من الجنس البشرى ، فئة لم تكن معروفة للعالم طوال ما يربو على ألف وثمانمائة عام ، تلك هى فئة « اليهودى المحارب » · ان ذلك اليهودى الذى كان يعتبره العالم ميتا ، وأنه دفن ولن يعود الى الحياة مرة ثانية ، قد هب من رقاده لأنه تعلم تلك « الحقيقة الواضحة » ، حقيقة الحياة والموت ، وأنه لن ينحدر قط ثانية الى الهوة ولن يختفى من على وجه الأرض ·

ومن بين قرائى الأمميين أود أن أوجه رسالة خاصة الى القارىء البريطانى ، فلسوف يطالع فى الصفحات التالية بعض كلمات قاسية عن شرذمة من حكامه وعن سياساتهم ومعتمديهم · ولقد يحس هذا القارىء بأن بعض هذه الانتقادات تقع عليه بلا مسوغ باعتبار أنه مواطن له حق الانتخاب فى دولة ديمقراطية ، فليس من عجب ، والأمر كذلك ، اذا ما شعر بالتحامل على المؤلف وعلى الكتاب على حد سواء · وعلى أية حال ، فان المؤلف قد حارب ضد السلطات البريطانية عددا من السنين ، وكانت الصحف البريطانية ، وكان أعضاء مجلس البرلمان ، والوزراء ، وقادة

الجيش وأمراء البحر ، والأساقفة ، والمحامون ، وكل أشخاص الرواية الذين يهيئون للمواطن العادى فرصة الاستحسان أو الاستهجان ، كان كل هؤلاء يصفون المؤلف بأنه « الارهابى رقم واحد » فى أرض اسرائيل ، التى كانت تسمى وقتئذ « فلسطين » ، والتى كانت تحكمها الحكومة البريطانية ٠

ولن أكدر أسماع قرائى البريطانيين باعادة كل الأسماء الأخرى التى كانت تستخدم لتوعيتهم فيما يتعلق بمؤلف هذا الكتاب ابان سنى الكفاح، ويستطيع القارىء ـ ان شاء ـ أن يختار ما يحلو له منهـا من بين قائمـة الشـتائم الدولية ٠ ومن الطبيعى ـ والأمر كذلك ـ أن كثيرا من القراء البريطانيين سوف يسألون باخلاص : ماذا عسى أن يستطيع هذا الرجل أن ينبئنا به ، وأية رسالة يجوز أن تأتى من عنده اللهم الا أن تكون رسالة كراهية وحقد ؟

ولنحاول ، من غير ما وجل أو مجاملة أو تحيز ، أن نفهم معنى كلمة « كراهية » المخيفة فى هذا السياق ٠ ولعل القارىء يود أن يسألنى : هل كانت هناك كراهية فى تصرفاتنـا ، أى فى تمردنا ضـد الحكم البريطانى لبلدنا ، وهل كان ذلك الانفعال المفصل فى هذا الكتاب من وصف الرجل الذى حمل على عاتقه عبء المسئوليـة ثم أخـذ يكتب عن حقائق التمرد فى أعقاب ذلك ؟

والاجابة ، حقا وصدقا ، على هذا السؤال هى « نعم » ٠

ولكن هل كانت كراهية الشعب البريطانى بهذا القدر ؟ والاجابة الصادقة على ذلك هى « لا » ٠

من البديهى أن أولئك الذين يحاربون لابد وأن يكرهوا شـيئا ما أو شخصا ما ٠ ولقد حاربنا ، وكان علينا أن نكره ، أولا وقبل كل شىء ، ذلك العجز عن الدفاع ، المخيف ، الذى ليس له ما يبرره والذى طال عليه العمر ، بالنسبة لشعبنا اليهودى المشرد عبر آلاف السنين ، وعبر العالم القاسى الذى كان العجز عن الدفاع عن أنفسهم بالنسبة لمعظم سكانه بمثابة دعوة دائمة لذبحهم ٠ لقد كان علينا أن نكره خزى تشرد شعبنا المهين ، وكان علينا أن نكره ـ كما ينبغى لأية أمة جديرة بهذا الاسم أن تكره وأن تظل تكره ـ حكم الأجنبى غير العادل فى حد ذاته ، القائم على غير حق ، حكم الأجنبى فى أرض أجدادنا ، فى بلدنا ٠ وكان علينـا أن نكره سد أبواب بلدنا فى وجوه اخوتنا الذين امتهنت كرامتهم وسفكت دماؤهم وهم يصيحون طلبا للنجدة فى عالم اصابه الصمم الأخلاقى ٠

كان طبيعيا أن نكره كل أولئك المسلحين بالأسلحة الحديثة ، المزودين بالمشانق والمقاصل العتيقة ، الواقفين في طريق الخلاص الطبيعي أمام شعبنا ، ينكرون عليه وسائل الدفاع الشخصي ، ويثبطون جهوده من أجل الاستقلال الوطني ، ويعرقلون سعيه من أجل استرجاع عزته القومية واستعادة احترامه الذاتي ، يفعلون كل ذلك من غير ما شفقة أو رحمة .

فمنذا الذي يدين أو يحرم كراهية الشر التي تنبثق من حب كل ما هو خير وعدل ؟ لقد كانت هذه الكراهية هي القوة الدافعة للارتقاء في تاريخ العالم — لم تكن سلاما ولكنها كانت سيفا لقضية تقدم البشرية — ولم تكن هذه الكراهية بالنسبة لقضيتنا نحن بأكثر أو بأقل من اظهار للشعور الانساني الأعلى ، ألا وهو الحب ، فانك اذا أحببت الحرية لابد وأن تكره العبودية ، واذا أحببت قومك فلا تستطيع الا أن تكره الأعداء الذين يسعون الى دمارهم ، واذا أحببت بلدك فانك لا تستطيع الا أن تكره أولئك الذين ينشدون اغتصابه ، أو بعبارة أوضح : اذا كنت تحب أمك أفلا تكره الرجل الذي يسعى الى قتلها ، أفلا تكرهه وتحاربه مضحيا بحياتك اذا دعت الحاجة ؟

هذه مسألة انسانية جوهرية في دنيا اليوم العاصفة الصارمة ، فليبحث كل انسان رزين في دخيلة نفسه ، وليجب الاجابة اللائقة به ،فان أمل كل شعب معلق ، أولا وآخرا ، باستعداد أبنائه للمخاطرة بأرواحهم « من أجل أمهاتهم » — من أجل الحرية التي يعشقها الانسان ، ومن أجل العبودية التي يكرهها والتي ينبغي له أن يكرهها باسم حبه للحرية .

لم يدر بخلد المؤلف أن يكتب هذه السطور الافتتاحية لكي يجعل الكلمات القاسية أقل مرارة ، ولكي يجعل الحقيقة المرة أكثر قبولا ، وانما كتبها ، كما كتب هذا الكتاب كله ، احقاقا للحق . ويلزمه الحق بأن يسأل نفسه في حضرة قارئيه ، الأميين منهم والمعادين على حد سواء ، هذا السؤال الفاحص : لئن قدر لشعبك أن يجد نفسه مرة أخرى في موقف مثل الموقف الذي كان فيه عندما كان عليك أن « تعمل في الخفاء » ، وأن تحارب وتصير « متمردا » مطاردا ، أفأنت على استعداد مرة أخرى لأن تفعل في هذا الظرف مثل ما فعلت من قبل ؟

والاجابة هي « نعم » ، قطعا

« م . ب . »

الفصل الأول
المدخل إلى الحرية

كانت تلك ليلة أول أبريل سنة ١٩٤١ في المبنى القديم الذى يطلق عليه اسم « لوكيشكي » في « ويلنو » وقد تمزق السكون العجيب الذى يخيم على الأماكن التي يقاسي فيها البشر ـ المستشفيات والسجون ـ اذ فتحت أبواب غرف السجن « الزنزانات » بين صرير الأقفال والمزالج وأنين الأبواب وهى تدور على الأعقاب ، وخرج النزلاء مثنى • كانوا حليقى الرءوس شاحبي اللون • اتجهوا الى مائدة صغيرة تتوسط الممر الطويل المظلم ، وكان يجلس الى المائدة رجلان صامتان ، وقد بسطت عليها كومة من بقايا ورق مما يمكن أن يؤخذ على أنه قسائم مغسلة الملابس أو فواتير مصلحة الضرائب •

كنت في تلك الليلة من بين الناس الذين استدعوا الى المائدة وسط ممر « لوكيشكي » • كنت واحدا من كثيرين ، واحدا من الآلاف وعشرات الآلاف الذين أغرقوا في بحر لجى من الأسى والدمار والبوار اكتسح أوروبا من الغرب الى الشرق عندما انطلق النازيون في اندفاعهم الجنونى نحو السيطرة على العالم وابادة الشعب اليهودى • اقتربت من المائدة مع رفاقى في غرفة السجن ـ وكانوا جمعا متباينا من الأشخاص غريبى الأطوار ، جمعتهم تطورات الحوادث الغريبة تحت سقف واحد • وعندما حل دورى أعلنت للمرة المائة أن اسمى « متاخم فولفوفيتش بيجين » • ولم يعرنى الرجلان الجالسان الى المائدة التفاتا • أخذ أحد الرجلين يبحث في كومة الأوراق الى أن وجد ضالته فقدمها الى زميله الذى قرأ بصوت عال :

« ترى اللجنة الاستشارية الخاصة لوزارة الشعب للشئون الداخلية أن مناحم فولفوفيتش عنصر ضـار فى المجتمع وتحكم بسجنه فى معسكر عمل تأديبى لمدة ثمانى سنوات » ٠

بحركة لا ارادية ، صدرت عنى عبارة « أول أبريل » ، فرمقنى الرجل الذى كان ممسكا بالورقة بنظرة حادة ولكنه قال فى أدب :

« تفضل بالتوقيع » ٠

فوقعت كما وقع كثير غيرى ممن فقدوا الشعور والاحساس ٠ ثمانى سنوات ، معسكر اعتقال فى جهة ما فى الشمال البعيد ! لقد كان كل شىء بعيدا وغامضا ٠ وكان عليك فى نفس الوقت أن توقع على « الايصال » . فوقعت عليه تماما كما يوقع المرء على قسـيمة المغسلة أو فاتورة مصلحة ضرائب البلدية ٠

كانت تلك ذروة فترة من الأيام القصيرة والليـالى الطويلة اتهمت خلالها ، بصورة تتسـم بالجدية ، بأننى كنت واحـدا من المساعدين ذوى الأهمية ، أى العملاء ، لبريطانيا العظمى ٠

أمضيت الأيام فى التجوال ـ وكان تجوالا ذا شقين : أولهما السير جيئة وذهابا من الحائط الى الحائط ، أو من النافذة الى البـاب ، وثانيهما شرود ذهنى فى الماضى وفى المستقبل المجهول ٠ ان مثل هذا التجوال يجعل السجين ينسى البيئة الطبيعية التى تحيط به ، ويساعده على نسج حقيقة معتمة لرغباته ، انه يجعل أيام سجنه قصيرة بدرجة أكبر مما قد يتخيله أولئك الذين لم يمارسوا قط مباهج غرفة السجن ٠ ان أيام السجن أشبه ما تكون بالحلم العابر ، ولعلها أن تكون أفضل الأيام الرتيبة التى يمكن أن يتخيلها الانسـان ، لأنها مليئة بالتطلعات ، فابتـداء من وقت اطلاق نفير الصباح عند بزوغ النهار الى أن تغرب الشمس يترقب السجين شيئاً ما بصفة دائمة ٠ ان الشعور بالأمل والرجاء شعور قوى غامر لمجرد أنه موجه الى أبسط الأمور وأيسرها فى حياة الانسان ، وهو يبدأ عند وجبة طعام غير مرضية وينتهى مع رفع دلو الشئون الصحية من غرفة السجن ٠ ونصيبنا من الوجبات غير المرضية ثلاث وجبات كل يوم ، وكلما كانت الوجبات أقل ارضاء وأدنى اشباعا ازداد تطلعنا اليها ٠ أما دلو الشئون الصحية فقد كان يرفع مرتين يوميا ، وحتى هذه العملية كانت هى الأخرى حدثا فى حد ذاتها ، فاذا ما أضفت الشرود الذهنى الذى لايستطيع أن يستمتع به أولئك العاجزون عن التفكير فانك ترى صـورة كاملة لسـاعات النهار بين

جدران السجن • كلا ، انها ليست تلك الأيام التى تصورها لنفسك عندما تكون حرا طليقا ، أياما بغير بداية أو نهاية • انها أيام وجيزة جدا ، أشبه بحلم عابر •

أما الليالى فانها مختلفة تماما ، فهى طويلة ، طويلة جدا • ولست أقصد تلك الليـالى التى يدعونك فيها وشأنك لتنام ، فالنوم فى السجن عميق جدا وهادىء جدا ، يستوى فى ذلك أن يكون على سرير حديدى ضيق أو على أرض ممتدة من الحجارة ، ولكننى أقصد تلك الليالى التى يحرم فيها السجين من نومه • لقد أطالت ليالى السـهاد هذه فى « لوكيشكى » فترة السجن للبعض ، وقصرت « أيام » البعض الآخر •• كانت تلك هى ليالى الجدل بين المحققين ومن يستجوبونهم ، ولم تكن تلك الليالى المقلقة تبدأ الا بعد أن يكون السجين قد استسلم للنوم بنحو ساعة أو ساعتين ، الا أنه لم يكن ليعلم أبدا متى أو كيف تنتهى !

وخـلال تلك الليالى الطويلة التى اسـتمر فيها الجدل والاستجواب أسهمت فى حوار متشعب تناول الثورة الروسية ، وبريطانيا والصهيونية ، و « هيرتزل » (١) و « يابوتينسكى » (٢) ، واجتماعات « وايزمان » (٣) مع « موسولينى » ، والكوميون الروسـية والكيبوتز اليهودية ، وحركات الشـباب الصهيونيـة ، و « ماركس » و « انجلز » ، و « بوخارين » و « ستالين » ، والرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ، كما تناول أسرار الحياة والموت ، والعلوم والاعتقاد بوجود الله ، والحرب الأسبانية الأهلية والجبهة الفرنسية الشعبية ، وتنـاول النظرية المثالية والفلسفة المادية • وأحيانا كانت المسألة مسألة مناقشة حرة أكثر منها مسـألة تحقيق واستجواب •

كان المحقق الذى اسـتجوبنى صغير السن ، طويـل القامة ، أنيق المظهر ، وكان مهذبا فى غالب الأحيان • ولم يكن شكه فى « ذنبى » بأكثر من شكى فى أن اتهاماته كانت هراء ، ومن ثم لم تكن هناك حاجة الى اثبات أو الى شهادة شهود ، بل كانت الحقائق التى لم أكن لأفكر فى انكارها كافية،

---

(١) دكتور « تيودور هيرتزل » (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) مؤسس الحركة الوطنية اليهودية الحديثة التى يطلق عليها اسم « الصهيونية » •

(٢) « فلاديمير يابوتنسكى » (١٨٨٠ ـ ١٩٤٠) الزعيم الوطنى اليهودى الذى كانت تعاليمه أساسا لقيام عصابة « ارجون تسفاى ليومى » •

(٣) دكتور « حاييم وايزمان » رئيس المنظمة الصهيونية بصفة دائمة على الأغلب من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٤٦ ، وأول رئيس لدولة اسرائيل •

فقد تعلمت ، منذ أيام شبابي الباكر ، من أبي ، الذي لقي مصرعه ـ كما علمت أخيرا ـ على أيدي النازيين وهو ينطق بشهادة الايمان بالله المرتبطة بالصلاة ، ويتغنى بالنشيد الوطني العبري « هاتيكفاه » ، أننـــا ، معشر اليهود ، سوف نعـود الى « أرض اسرائيـــل » (١) · لن « نذهب » أو « نسافر » أو « نأتي » ـ بل اننا سوف « نعود » ، وذلك هو الاختــلاف العظيم الذي تضمن كل شيء ·

فلما كبرت أصبحت ، وأنا طالب ، عاملا في « بيطار » · وكانت بيطار حـركة الشـباب الرائدة المشـهورة التي أفاض عليهـا « فلاديمير يابوتنسكي » ـ أعظم شخصية يهودية ، بعد هرتزل ، في عصرنا الحاضر ـ من حبه ومن عبقريته الفكرية · وفي السنة التي سـبقت نشـوب الحرب أصبحت رئيس الحركة في بولندا ـ ذلك البلد الذي يضم مليون يهودي ، نال منهم الفقر والاضطهاد ، يحلمون بصهيون · عمل أصدقائي معي على تعليم جيل جديد ليكون على أهبة الاستعداد للعمل من أجل اعادة بناء الدولة اليهودية ، بل من أجـل الكفاح وتحمل المشـاق والموت في سبيل اقامة هذه الدولة اذا دعت الحاجة · وبينما كنا منهمكين في تعليم الشباب وتنظيم عودتهم الى أرض اسرائيل ـ بدون تصاريح بريطانية ـ قامت في هذه الأرض أول قوة عبرية تبشر بالبعث الوطني اليهودي من جديد : تلك هي « ارجون تسـفاي ليومي » (٢) بقيـــادة « دافيد راتسيل » القائد الغامض العظيم ، ونائبه « ابراهام شتيرن » الجاد الهادىء المقنع ·

من هنـا بدأ أول هجوم مضاد على أولئك الذين كانوا يسعون الى هلاكنا · وتحقيقا لهذا الغرض كان انتاج أول أسلحة يهودية ، كما كان تكديس الأسلحة وتجنيد المدربين ونبذ سياسة « كبح النفس » التي كان

---

(١) « أرض اسرائيل » تعتبر منذ نزلت التوراة بمثابة وطن بني اسرائيل ، وكانت تضم بصفة دائمة ما عرف ، بعد ، باسم فلسطين على جانبي نهر الأردن ، أي أنها لم تكن تضم فلسطين الغربية فقط ، بل كانت تضم أيضا الأرض التي سبق أن كانت تحتلها ثلاث من القبائل العبرية الاثنتي عشرة ، وهي منسة ، وجاد ، وروبين ·

(٢) الكلمات العبرية الثلاث « ارجون تسفاي ليومي » تعني « المنظمة العسكرية الوطنية » ، وكان داعية خلق ارجون هو « فلاديمير يابوتنسكي » ـ السياسي والخطيب والشاعر والجندي ـ بعد « هرتزل » أعظم زعيم يهودي سياسي في العصر الحديث · فقد تنبأ بأن الشعب اليهودي لن يحقق استقلاله الوطني ما لم يكن مستعدا للحرب من أجله · واذ لم يستطع يابوتنسكي أن يقنع الزعامة الصهيونية في فترة ما بين الحربين العالميتين بالحاجة الملحة لانشاء جيش يهودي ، اضطر لمعالجة ذلك الأمر بنفسه فخلق « ارجون تسفاي ليومي » ·

الزعماء اليهود الهيابون ينتهجونها في وجه الهجمات العربية ، وكان فتح مداخل الدولة المسدودة عنوة ـ كان كل ذلك بالنسبة لى وللآلاف الكثيرة من الشباب عملا من أعمال العدل الفائقة ، وكان الاسهام فى هذه المهام شرفا عظيما وواجبا مقدســا ، واجبــا نحو بلدنا الذى كان الغير يهددون باغتصابه منا ، واجبا نحو شعبنا الذى كنا نشعر ، بل ندرك ، أنه على شفا هاوية الهلاك والدمار • لقد حاولنا أن نضطلع بواجبنا •

كان المحقق اللطيف الذى استجوبنى فى « لوكيشكى » يرى عملنا فى صورة مختلفة تماما ، كان افتراضه الأساسى هراء مذهلا محيرا ، الا أن الهيكل المنطقى الذى أقامه على هذا الأســاس كان هيكلا كاملا • وخلال ليالى التحقيق الطويلة قال لى الضابط الشاب :

« ان الصهيونيــة ، مهما اختلفت صــورها ، مهزلة وخداع ، انها مسرح عرائس (أراجوز) • وليس حقيقيا أنــكم تهــدفون الى اقامة دولة اسرائيلية فى فلســطين ، أو أنكم عازمون على جلب الملايين من اليهــود اليها • ان هذين الهدفين غير عمليين قطعا ، ويدرك الزعماء الصهيونيون هذه الحقيقة ادراكا تاما • ان هذا الحديث عن الدولة يخفى هدف الصهيونية الحقيقى ـ ألا وهو تحويل الشــباب اليهودى من صفوف الثورة فى أوروبا ووضعهم تحت تصرف الاستعمار البريطانى فى الشرق الأوسط • ذلك هو لب الصهيونية وجوهرها ، أما ما عدا ذلك فهو قشرة مصطنعة وضعت عن عمــد بغرض الخداع • وأما أنت يا مناحم فولفوفيتش فانك اما تعلم الحقيقة ولكنك واحد من المخادعين العامدين الذين يخــدمون بريطانيــا والبورجوازية العالمية ، أو أنك غير سليم النيــة ممن يعملون على صرف الجماهير عن واجبهم ، واجب القتال هنا ، نعم هنا ، ضد الاستغلال • ان ذنبك عظيم حقا على أية حال » •

حاولت أن أظهر خطأ وجهة نظره وأوضح أن دافع اليهود الى العودة الى أرض اسرائيل دافع حقيقى عميق الجذور • كيف يمكن أن يكون ذلك الدافع مجرد تمويه وقد تشبث به اليهود نحو ألفى سنة ، تشبثوا به من جيل الى جيل ، ثم انه دافع يرجع الى عدة قرون حيث لم يكن يحلم أحد بالرأسمالية والاشتراكية ؟ كيف يمــكن للصهيونية أن تــكون مهزلة بينما يقوم أساسها على العلاقات الروحية بين اليهود وأرض اسرائيل ، ثم انها استطاعت أن تعبر عن نفسها فى صلوات الملايين وتضحياتهــم الشخصية ؟ ألم يتنازل الآلاف ، فى وقتنا هذا ، عن الثروة والرخاء ، وعن

الدراسات الجامعية ، وعن مدارج العمل والحياة البراقة ، لكى يصبحوا عمالا عاديين فى أرض اسرائيل ؟

ذهبت جهودى سدى ، بل ان مجادلتى لم تفشل فى اقناعه فحسب ، ولكنها انتكصت كذلك وارتدت الى ، فكان جوابه :

« ان ما تقوله يدعم وجهة نظرنا ، فقد كان هناك ، بطبيعة الحال ، ميل بين اليهود نحو فلسطين ، وهو ناتج أسلوب معين من التعليم كان ، بدوره ، سببا من أسباب بعض التطورات التاريخية الخاصة ، وقد استغل هرتزل ذلك الميل يقينا لكى يمضى قدما فى ممارسة الواجب الذى عهدت به البورجوازية الدولية اليه ـ تحويل أنظار اليهود من واجبهم الثورى عن طريق التفكير الشيطانى فى الدولة • ما فائدة الانكار ؟ أما عن هجر الدراسات الجامعية فليس ذلك الا دليلا آخر على السمة الرجعية لحركتكم ، فالمهندس يجب أن يظل مهندسا ، والطبيب ينبغى أن يكون وثيق الصلة بمزاولة مهنة الطب ، والا فماذا أنتم فاعلون ؟ انكم تأخذون المفكرين فتطمسون عقولهم فى الطين • وبهذه المناسبة ، هنا سجين ينتمى الى الحزب السياسى هاشومير هاتسعير (١) ، انه يفاخر بان الصهيونية أقامت الكوميونات فى فلسطين • ياله من غر أبله كيف كان للصهيونية أن تقيم هذه الكوميونات ؟ انها أقامتها من أموال أصحاب الملايين الأمريكيين ! لا ، يا بيجين ، ان البلاغة لن تطمس الحقائق ، وما هذا القصص سوى تقليد أجوف • ان الصهيونية مهزلة ، وهى مسرح عرائس (أراجوز) » •

تركزت المناقشات ذات ليلة على الثورة باعتبار أنها الحل للمشكلة اليهودية ، ثورة على « البيروبيديان » (٢) وعلى « معاداة السامية » • أصر المحقق على أن انتصار الثورة خليق بأن يحل مشكلة القومية التى كانت المشكلة اليهودية جزءا منها ، ثم أعلن فى حدة : « الا أن الثورة تتطلب

---

(١) كان « هاشومير هاتسعير » هو حزب اليسار المتطرف فى الصهيونية ، وكان أعضاؤه يسعون الى انتهاز فرصة مزايا القومية اليهودية الراسخة بينما يبشرون بالعقيدة السياسية الماركسية الخالصة • ويشكل هؤلاء الأعضاء اليوم ، العنصر الأساسى فى حزب « مابام » فى اسرائيل حيث يواظبون على التبشير بمبادىء الشيوعية التى يظنون أن اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية قد سها اليوم عنها بصورة مخزية • وهم فئة موسرة ، متمسكة بالنظام ، منظمة تنظيما دقيقا ، وتتميز بالمرونة السياسية لدرجة اغتنام الفرص وتجنبها لتحقيق أهدافها •

(٢) هى الجمهورية اليهودية المستقلة ذاتيا التى أنشئت منذ عدة سنوات فى الاتحاد السوفيتى •

محاربين ، لا هاربين يفرون الى دولة لا وجود لها • لماذا لا تنضم الى الجبهة الشعبية التى تعمل على اقامة الموانع والسدود فى وجه طوفان الرجعية ؟ »

حاولت أن أشرح وجهة نظرنا مجازا :

تصور ، أيها القاضى ، أنك تسير فى الطريق ، وأنك رأيت منزلا تشبت فيه حريق ، فماذا تفعل ؟ لاشك أنك سوف تسارع الى طلب فرقة المطافىء • لكنك اذا سمعت على حين فجأة صراخ سيدة أو عويل طفل ينبعث من نفس المنزل ، أفتنتظر حتى يصل رجال المطافىء ؟ انك لن تنتظر ذلك قطعا ، بل لابد أنك ستندفع الى المنزل فى محاولة لانقاذ السيدة أو الطفل، وذلك هو موقفنا • لنفرض الآن أن الثورة هى الحل الحاسم للشعب اليهودى المشرد (ولو أن تجربة « البيروبيديان » أوضحت بأجلى بيان أنه حتى الاتحاد السوفيتى يدرك أننا ، نحن اليهود ، فى حاجة الى أرض خاصة بنا) ، أفلا ترى أنت أيضا أننا أشبه بالنساء والأطفال الذين حاصرتهم النيران فى ذلك المنزل الذى اندلعت فيه الحريق ؟ انك تعلم ماذا فعلته معاداة السامية بنا ، ان بيوتنا ليست هى التى تحترق وحدها ، ولكن عائلاتنا هى الأخرى تصلى النار واللهب • هل نستطيع أن ننتظر حتى يصل رجال المطافىء ؟ وماذا لو تأخر وصولهم ؟ كلا ثم كلا ، ان شعبنا ينبغى له أن ينجو الآن • لقد حاولنا اخراج قومنا من اللهب الى أرض الوطن • أفتظن أن هذا عمل غير صالح ؟

كنت أميل فى لحظات من هذا النوع الى ان استعين بالفصاحة ، الا أن ظروفى كانت تحول بينى وبين ذلك : غرفة خاوية ضيقة بالليل ، وأنا حليق الرأس ، طليق اللحية ، فكنت أجلس لا حول لى ولا قوة ، عاجزا عن عمل أى شىء فى مواجهة ممثل دولة بلغت الذروة فى القوة ، بل — أهم من ذلك — فى مواجهة نظرية لا تسمح بأدنى تأويل ، فما فائدة المجادلة ، وما جدوى البراهين ؟ الا أن الجو الذى كان يحيط بى ، فى مثل هذه اللحظات ، كان يبدو وكأنه أخذ ينحسر شيئا فشيئا ، حتى لقد كنت أشعر فى قرارة نفسى بأننى كنت أحقق مهمة ليست تخصنى أنا وحدى وحسب ، ولكنها كانت متعلقة بالدفاع عن قومى ، متضلة ببعثهم القومى مرة أخرى •

لكن سائلى كان يظل هادئا ساكنا ، ثم يضع حدا لمجادلتى الحامية بعبارة واحدة : « ان ذلك تشبث بالتافه من الأمور » •

استمرت مناقشتنا ليلة بعد ليلة ، وكان محققى يحتفظ عادة بهدوئه

وتأدبه ، بل أنه أحيانا ما كان يتلطف معى فى « فكاهة » فيقول على سبيل المثال :

« ان مثلك مثل السجناء الآخرين تماما • انهم بدلا من أن يقعدوا على مؤخراتهم ويفكروا برءوسهم ، يفعلون العكس » •

وكان يهتاج ، فى مناسبات قليلة ، لدرجة يثور بها غضبه فيضرب المائدة بقبضة يده ، ويستخدم ألفاظا كنت أنبهه الى أن القانون السوفيتى يمنعها صراحة • ولعل واحدة من هذه المناسبات تستحق أن أتناولها بالذكر :

استشهدت ذات ليلة بمادة من دستور الاتحاد السوفيتى ، فذكرته بأن الفقرة ١٢٩ من دستور ستالين تنص صراحة على أن الاتحاد السوفيتى سوف يهيىء المأوى لمواطنى الدول الأجنبية الذين اضطهدوا وعذبوا بسبب قتالهم فى صفوف التحرر الوطنى • وفيما يلى نص هـــذه الفقرة كما استطعت أن أتحقق منه فيما بعد •

« يقدم الاتحاد الســـوفيتى المأوى للمواطنين الأجانب المضطهدين بسبب دفاعهم عن مصالح العمـــال أو بسبب عملهم العلمى أو بسبب نضالهم من أجل التحرر الوطنى » •

وقد أكدت ــ وان كان ذلك ، والحق يقال ، فى أســلوب ساذج سليم النية ــ أنه « لا يحق لكم أن تلقوا بنا فى غياهب السجن ، بل ــ على العكس ــ يجب عليكم أن تقدموا لى ، وللناس الذين هم على شاكلتى ، المأوى والعون • اننا نطارد حتى الموت فيما وراء الحدود ، لا لسبب جنيناه الا أننا يهود ، ولأننا نحارب ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، من أجل حقوقنا الوطنية فى أرض اسرائيل • ان من حقنا وقد وجدنا أنفسنا فى الاتحاد السوفيتى ، أن نطالب بالمأوى وأن نجده » •

واذ تفوهت بهذه الكلمات ، تناوب اللونان الأحمر والأبيض الوجه الروسى على التعاقب ، ولم يعد ذلك الضابط المؤدب مؤدبا كما عهدته من قبل ، بل انه شدد من قبضة يده وجأر بصوته عاليا وهو يرغى ويزبد : « كف عن هذا الهراء أيها المحامى الأحمق (كيف تجرؤ على الاستشهاد بدستور ستالين ؟ انك تتصرف كما يتصرف ذلك الكلب المسعور ، عدو الانسانيه ، الجاسوس الدولى (ولقد تعجبت من ذا الذى يقصده !) بخارين ، ثم استطرد يقول : « انك تتكلم تماما كما يتكلم الخائن بخارين الذى دأب على الاستشهاد بماركس وانجلز ليدلل على صواب رأيه ، الا أنه

لا فائدة ، فقد علمنا ستالين أن تعاليم ماركس وانجلز وحدة لا تتجزأ ، وأنه لا يجوز الاستشهاد بها آحادا منفصلة عن سياقها ، مقتطعة من نصها الكامل » ، ثم استغرق فى الضحك مستهزئا وهو يقول : « هكذا ، يبدو أن عبقرية جديدة حلت الآن فى ويلنو ، تحـاول أن تقنعنى بفقرة من الدستور ! » .

ألجمتنى هذه الثورة الغاضبة التى جاءت على غير انتظار فلم أحر جوابا . انه كان مصيبا بالطبع فيما ذهب اليه من وجهة نظر واحدة ، تلك هى أن الاستشهادات اذا ما خرجت عن السياق الكامل فانها غالبا ما تتخذ صفة الخداع ، ولكننى أخبرته بأنه مع أن الدستور وحدة لاتتجزأ، الا أن هناك فقرات يمكن أن تعبر عن فكرة كاملة فى حد ذاتها دون أن تتأثر هذه الفقرات بالفقرات الأخرى أو تؤثر فيها ، وأن ما استشهدت به لم يكن جزءا من فقـرة ولكنه كان فقرة كاملة . لقد أشرت الى حق اللاجىء فى الاتحاد السوفيتى ، ولم تكن عندى أدنى فكرة للتعرض لأى شىء آخر كأسلوب الانتخاب لمجلس السوفييت الأعلى .

لم تكن لمجادلتى أية نتيجة ، فقد أصر سائلى على المقارنة « بالجاسوس الدولى بخارين » .

عندما سمعت ما تحدث به تلميذ الثورة الشيوعية هذا ، فى حدة وثورة ، عن المؤلف الشهير « لمبادىء الشـيوعية » ، بدأت أدرك أشياء كثيرة كنت من قبل فى حيرة من أمرها . أدركت ، مثـلا ، كيف أن « بخارين » هو وكثير غيره ممن هم على شاكلته قد انتهى بهم المطـاف الى الاعتراف بأنهم كانوا جواسيس وبأنهم كانوا أعداء للمجتمع السوفيتى .

لقد قرأنا جميعا كيف كان يظن أن الروس يستخدمون مخدرات غريبة لتنويم سجنائهم تنويما مغناطيسيا ولجعلهم يتصرفون وفقا لمشيئة سجانيهم ، الا أننى أدركت آنئذ أن ذلك كله محض افتراء أحمق ، فماذا بعد ؟ وكيف كان ذلك ؟ أهو الاجهـاد الجسمانى ؟ أم أنه أثر الضرب والتعذيب ؟ واننى لمستطيع أن أقول أن يدا لم تمتد الى قط طوال الوقت الذى أمضيته فى الاستجواب ، وذلك على الرغم من أننى كنت فى عداد « المجرمين السياسيين » الخطرين ، وعلى الرغم من أن « اللقاءات » أحيانا كانت عاصفة صاخبة ، ولم يشتك أحد قط من بين مئات السجناء ، الذين قابلتهم فيما بعد ، من سوء المعاملة البدنية ، وان كان قد أخبرنى عدد قليل منهم بأنهم سمعوا أن آخرين غيرهم قد تعرضوا للضرب . الا أننا اذا افترضنا أن الشرطة السوفيتية تلجأ أحيانا الى استخدام القوة ، فان

ضباط الأمن لم يلجأوا قط الى ذلك الأسلوب البربرى الهمجى من أساليب « الجدل المقنع » • لقد علمنا فى أرض اسرائيل ببعض اجراءات الشرطة التى تتسم بالقـوة ، وحتى شرطة الانتداب البريطانى « الديمقراطى » كانت تتخذ هذه الاجراءات • واذا نحن توخينا الأمانة فاننا لا نستطيع أن نبرىء شرطتنا اليهودية من بعض هذه الأساليب غير السائغة ! انه يصعب أن نضطر الى الاعتراف بها ، الا أنه لا جدال فى أن الشرطة فى كل مكان تشترك فى كثير من الأساليب •

كيف استطاعت الشرطة السوفيتية ، والأمر كذلك ، فى عمليات استجوابها ، أن تحقق نتائج لا يمكن لأية قوة بوليسية غيرها أن تفاخر بها ؟ وعلى سبيل المثال ، كيف أن المواطن السوفيتى الشاب الذى يحتمل أن يكون قارئا مثابرا من قراء « مبادىء الشيوعية » ينتهى به الأمر الى الإستنتاج القاطع بأن « بخارين » كان خائنا ؟ واجابة على هذا السؤال يجمل بنا أن نتأمل آراء «بخارين» نفسه وكثير غيره ممن شاركوه مصيره ، فاننا سوف نرى حينئذ رجلا انقلبت دنياه ، بأسرها رأسا على عقب من حوله على حين فجأة فوجد نفسه فى عزلة تامة ، عزلة طبيعية ، بل عزلة أمر من العزلة الطبيعية ـ تلك هى العزلة الذهنية والسياسية ، وهذه العزلة المزدوجة عزلة مطلقة • هكذا كانت عزلة الأصاغر قليلى الاعتبار من أمثالنا فى « لوكيشكى » ، وهكذا كانت عزلة الأكابر ذوى الأهمية فى سجن « لوبيشكى » بموسكو ، عزلة تامة بحيث لا تصل كلمة واحدة مما نقوله إلى كائن من كان فى العالم الخارجى • أما تلك الكلمات التى لا تحتمل أى تأويل ، والتى يريد هؤلاء أن يسمعها العالم ، فهى وحدها ، دون ما سواها، القادرة على اختراق جدران السجن • توجد فى بعض الدول ، فى أوقات معينة ، صحف غير شرعية تنشر الأنباء ووجهات النظر التى لا ترى الضوء فى الصحافة المشروعة • أما هنا فلا يمكن انتهاك حاجز الصمت ولا يستطيع أحد البتة أن يسمع أو أن يقرأ • ان المجاهرة التى تجرى داخل جدران السجون لا يقدر لها أن تثير أية حركة ثورية جديدة ، ولن تستطيع أية حركة قائمة بالفعل أن تتلقى الايحاء من هذا المصدر ، ومن ثم فان الايحاء بالسلوك الثورى يتبخر فينهار الأساس • يستطيع الثائر ان يرفع رأسه عاليا أمام من يتهمونه ومن يقاضونه ومن ينفذون الحكم فيه طالما كان يعلم أن من ورائه كثيرين يعلمون حقيقة موقفه ويتلقون كلمته ، وحينئذ تتحقق شخصيته بالفكرة التى تعتمل فيها • انه لا يخاف التعذيب ولا يهاب الموت لأنه يعتقد أن فكرته سوف تجد من يعبر عنها من بعده ، وأنها سوف تنتشر وسوف تنتصر •

ولكن ماذا اذا انهار هذا الاعتقاد من آساسه ، واذا ما اجبر على الاقتناع بأن عزلته عزلة مطلقة ، وبأن كائنا من كان لن يستطيع أن يرى أو يسمع حالا ، ولن يستطيع أن يرى أو يسمع على الاطلاق ؟ حينئذ يذوى استعداده للتضحية بذاته من أجل الفكرة ، يذوى ويموت فى قرارة نفسه ، فينهار العنصر الأهم فى تكوين الثائر ـ ذلك العنصر الذى يمده بالأجنحة يحلق بها كيفما شاء ، والذى يملأ قلبه بالقوة والصلابة ، وحينئذ يصبح أشد الثائرين تمجيدا وتفخيما ضارعا متوسلا يستحق الرثاء ، يلتمس الابقاء على حياته وقد نبذ النضال فى سبيل فكرته · حينئذ ، وحينئذ فقط ، تتهيأ له الفرصة لأن يتحدث الى العالم · واذا ما وعد ، بالاضافة الى ذلك ، صراحة أو ضمنا ، باعطائه فرصة للحياة من جديد بعد تنفيذ العقوبة عن أخطائه السابقة ، أو اذا ما ألمح اليه بأنه قد يصدر عفو فورى عنه فلا يقع تحت طائلة العقاب ، فانك سوف ترى أن « السر » فى قدرة الروس على انتزاع الاعترافات العلنية مع توجيه المتهمين الاتهامات الى أنفسهم ليس فى واقع الأمر سرا على الاطلاق ، وأنه ليس للكيمياء أى شأن فى ذلك ، وقد يكون للعنف شأن يسير فى هذا السبيل أو قد لايكون ان العامل الحاسم هو العامل النفسانى الذى يحدث أثره الواضح يقينا فى أولئك الذين ينتمون الى الدوائر الداخلية من فئة السوفييت الحاكمة ممن يختلفون مع زعمائهم لسبب أو لآخر ·

تأملت هذه الأمور كثيرا فى « لوكيشكى » ، وبخاصة عندما أعطيت فرصة هائلة للتفكر والتأمل عقب مجادلتى التى تناولت الدستور السوفيتى ، اذ عوقبت بسبعة أيام فى « الحبس الانفرادى » ولم يكن للعقوبة أى شأن بالمحقق الذى كان يستجوبنى · والحق أن السبب لم يكن متعلقا بذلك الأمر ، بل أنه كان سببا أخرق ، فقد استرق الحارس السمع وأنا أحكى فكاهة شلختية (أى بلغة اليهود الألمان) فيها تورية (أى كلام ذو معنيين) ، عن شخص أبله ، فظن الحارس أنى كنت أقصده وشكانى ـ وهكذا حكم على « بالحبس الانفرادى » · ولما لم يكن هناك سوى مسافة ثلاث خطوات ونصف الخطوة أحرك فى حدودها جسمى داخل غرفة السجن المثلثة ، العديمة النوافذ ، الكريهة الرائحة ، فقد كان على أن أستعيض عن الحركة البدنية بالرياضة الذهنية ·

كانت الساعات المائة والسبعون (الأيام السبعة) غير سارة بالمرة ، لم أتناول خلالها من الطعام غير الخبز الجاف والماء القراح ، بل كان هناك ما هو أسوأ من هذا الطعام ، اذ كانت الأقذار متراكمة بعضها فوق بعض بكميات كبيرة جدا ، وهذا دلو الشئون الصحية بالغرفة لم يرفع منها

أبدا • كانت أرضيه الغرفة من الحجارة الجرداء ، وكان على أن أتوسد ذراعى، فقد كانت الوسادة صغيرة ، جامدة ، موجعة • وكان الجو شديد الحرارة نهارا ، قارسا ليلا • زد على ذلك أن كانت تنادمنى في تلك الغرفة جالية مزدهرة من الفيران •

لكننى ، مع ذلك ، بقيت حيا • وكان زملائى السجناء فى قلق شديد من أجلى ، فان سبعة أيام فى « الحبس الانفرادى » فترة طويلة شاقة • ولأسباب لم تكن معلومة لنا كان أحد السجناء ، وهو لص صغير السن ، يقضى فترة سجنه مع « المسجونين السياسيين » • ومن الطريف أن هذا الفتى طالب بنصيب من أمتعتى ، وقد قال فى هذا الصدد انه كان متأكدا من أن شخصا ضعيفا مثلى لن يرجع حيا بعد قضاء سبعة أيام « هناك » لكن خاب ظن الفتى المسكين (وعلى أية حال فقد اقتسم زملاء له فى المهنة متعلقاتى الشخصية فيما بعد ، الا أن ذلك كان فى مناسبة أخرى) •

علمنى البقاء فى « الحبس الانفرادى » درسا فى القيم لن أنساه مدى الحياة ، فما أقل ما يحتاج اليه الانسان ، حتى الانسان المتمدين • لم تتوقف رياضتى الذهنية طوال الأيام التى قضيتها فى غرفة الحبس الانفرادى ، لكننى كنت أسبح فى الأحلام كلما فرضت الحقيقة المكدرة ـ حقيقة البيئة التى تكتنفنى ـ نفسها على • لم أكن أحلم بالعالم الحر ، أو بمنزل ملائم ، أو بحمام ساخن ، أو بنزهة خلوية فى الغابات ، أو بأى من النعم التى تمن بها الحرية على الانسان المتمدين • كلا ! بل كنت أحلم بغرفة السجن ، بالغرفة المرتج متراسها (ترباسها) حيث كانت الرفقة ، وحيث كانت حشيتى (مرتبتى) الهزيلة التى كنت أفترشها على الأرض الحجرية • قد لا تكون هناك درجات للسعادة ، الا أنه لا شك فى وجود تدرج فى المعاناة والمكابدة • اذا ما أخضعت رجلا للدرجة الأولى من المعاناة فانه يظل يكافح لكى يعود الى نقطة البداية التى بدأ منها ، ولكنك اذا دفعته الى درجات السلم السفلى فانه لا يفكر ، بعد ، فى العودة الى حالة عدم المعاناة ، بل انه سوف يحلم بالرجوع الى المرحلة السابقة مباشرة ، ولعله يكون قد نسى ما يجرى فيما وراء هذه المرحلة الأخيرة من مراحل المعاناة • ان الدرس الذى تعلمته يلقى المزيد من الضوء على كثير من مظاهر العصر الكريه المخيف الذى نعيش فيه •

عندما رجعت الى غرفة سجنى ، أبدى رفاقى الاشفاق على ، حتى ذلك اللص الصغير كان يبتسم لى ـ ولو أننى لم أكن أدرى ما اذا كان

يبتسم ليخفى خيبة أمله ! وكان الوسـخ الذى تراكم على فى « الحبس الانفرادى » يتناسب تناسبا عكسيا مع ما بقى من قوتى لدرجة أن أصحابى كان عليهم أن يساعدونى وأنا أغتسل ٠

انقضت أسابيع قليلة بعد الأيام السبعة التى أمضيتها فى «الحبس الانفرادى » ٠ ثم كان اعلان « أول فبراير » الذى أشرت اليه فى مستهل هذا الفصل والذى هيأ للسنوات الثمانى التالية من سـنى حياتى ٠ وسرعان ما انقضى شهران آخران ثم كان النشاط غير المألوف مرة أخرى فى لوكيشكى ٠ استدعينا من غرف سجننا ، الا أن الاستدعاء كان نهارا فى هذه المرة ، وأخبرنا بأن نجمع حاجياتنا ٠

حزمنا متعلقاتنا ، وبعد عديد من الاستجوابات والتسـجيلات المتنوعة تكدسنا فى عربة صغيرة سوداء ٠ كانت العربة تتسع لثلاثة اشخاص أو أربعة على الأكثر ، ولكننا حشرنا فيها حشرا ، وكنا اثنى عشر أو أكثر ٠ بدأ رجل يصرخ ، انه لا يستطيع ان يتنفس ٠ يالها من مبالغـة ! ان الحيوان الآدمى واحـد من أقوى المخلوقات ، انه لا يختنق بسهولة ٠ حقا ، لقد كانت الرحلة فى العربة غير مريحة ، الا أنها كانت قصيرة ، من السجن الى محطة السكك الحديدية ، وربما استغرقت خمس عشرة دقيقة ٠

عندما فتحت أبواب السجن ، ثم تحـركت العربة فى الشارع المهجور ، همس شخص ما : « هذه بداية الرحلة الى أرض اسرائيل » ٠

ايمان غير عادى ! ربما ، ومع ذلك فقد يكون الايمان أقـوى من الحقيقة ٠ ان الايمان يخلق الحقيقة !

الفصل الثانى

أرض آبائنا

كان القطار الطويل الممتد الذى حملنا فى اتجاه شمال شرقى فى اعماق روسيا خلوا من عربات البولمان ، فلقد كان قطار بضاعة ، وقد شحن فى كل عربة خمسون رجلا • بدأنا الرحلة فى أوائل شهر يونيو • الطريق طويل ، والقطار بطىء • وعندما وصلنا نبأ هجـوم هتلر على الاتحاد السوفيتى (وان مثل هذا النبأ لحرى بأن يخترق حواجز عربة السجن كنا قد قطعنا نصف الطريق • وكلما جد بنا السير كنا نمـر على قطارات تحمل المجندين الى جبهة القتال • وكانت تتبعنا قطـارات اخرى تحمل مثل حمولة قطارنا • انها هجـرة حقيقية لمخلوقات من البشر •

عندما وصلنا الى وجهتنا كانت الساعة الثانية صباحا (هكذا قيل لنا) ، الا أن ضوء النهار كان ساطعا • لقد كان المرء يستطيع ان يطالع كتابا ان كان لديه كتاب ليقرأه • واذ كان الأمر كذلك فقد استمتعنا بجمال « الليالى البيضاء » التى جعلت أيامنا المظلمة ضياء • وفى ليلة من ليالى الخريف ، بينما كنت ـ ذليلا مهموما ـ اشاهد فجر الشمال الرائع الذى يجعل الأرض تتوهج وكانما سلط عليها الف ضوء ، سمعت واحدا من رفاقى يئن ويتحسر ، وكان كسيحا بترت ساقاه • اشار الى الأفق البعيد قائلا : « يوجد أناس يبكون هناك أيضا •• » •

ليس فى نيتى ان أكتب عن الناس الباكين ، فان هذا الكتاب ليس محصصا للدموع ولكنه مخصص للتمرد ٠ انه ليس مكرسا للمنكودين ولكنه مكرس للمتمردين ٠ انه ليس وقفا على روسيا ومعسكرات العمل بها ولكنه وقف على أرض اسرائيل والكفاح من أجل التحرر من حـــكم الاجنبى ٠ ولكننى اذ اذكر كلمات الكسيح فانى أفعل ذلك بأمل ان تصل الى أسماع البعض ممن لديهم القدرة على تخفيف المعاناة ومسح دموع المنكوبين ٠ انا أعلم أن هذه ليست هى الأماكن الوحيدة فى الدنيا حيث يبكى الانسان ، كما أعلم كذلك أن الانجازات والمبانى العظيمة قامت على أيدى رجال حكم عليهم كما حكم على بثمانى سنوات ليتعلموا من جديد ٠ ان أرض الاقليم الذى أرسلت اليــه ســـجينا لم تطاها قدم رجل قبل خمس وعشرين سنة ، ولكنك تجد بها اليــوم السكك الحديدية والقناطر كما تجد ناتجا ضخما للموارد الطبيعية التى لم تستغل من قبل ٠ ولكن الثمن ، يالله ، الثمن !

أكتب هذه الكلمات الآن من غير انفعال شخصى ، ودون اعتبـــار لعقيدتى الخاصة ، وانما هى تهدف الى الحرية ــ حرية الفرد وسعادته ٠ ان مشاعرى الشخصية لا تمثل دورا ما فى هذه الحالة ٠ ان المكابدة التى كانت من نصيبى ما هى الا نقطة دقيقة فى بحر الدم والدمع الذى غرق فيه ستة ملايين من اليهود ٠ فأى مغزى لمتاعبى العـــابرة ازاء الكارثة العامة ؟ ان متاعبى ما أن تنتهى حتى تصبح بالنسبة لى تجربة ، وليس من شك فى أنها تشد العزائم وتشحذ الهمم ، ولكنها لا تعدو أن تكون كذلك ٠ ومن جهة أخرى ، لا أستطيع أن أنسى ، ولا ينبغى لأى يهودى أن ينسى ، حقيقتين أساســيتين ٠ شكرا للاتحـاد السوفيتى ، فقد نجا مئات الألوف من اليهود من أيدى النازيين ولو أن بعضهم كابد ابمـا مكابدة ، كما مات بعضهم فى غياهب السجن أو ظلمات المنفى أو معسكرات اللاجئين ٠

والحقيقة الثانية أنه عندما رأى الاتحاد السوفيتى ــ وان كان ذلك بصفة وقتية فقط ــ أن كفاحنا من أجل الاستقلال اليهودى فى فلسطين لم يكن رواية هزلية أملاها الاستعماريون البريطانيون ، وانما كان غرضا خطيرا خطر الموت ، موت المتمردين وأولئك الذين يضطهدونهم ــ عندما رأى الاتحاد السوفيتى ذلك ، قدم لنا المساعدة فى تحقيق المرحلة الاولى من استقلالنا ٠ ولقــد دهش العالم بسبب الذكريات الماضية التى كانت

للمناقشات فى « لوكيشكى » ايضاحا لها . كما دهش أيضا لأن المعونة السوفيتية كانت تأتينا فى آن واحد مع المعونة التى كانت الولايات المتحدة الأمريكيــة تقدمها لنــا • وسوف أحاول أن أفسر ، فيما بعد ، هذه المفاجآت . الا أن هذه هى الحقائق ولا يمكن أن ننســاها رغما عن حدوث تغيير مؤسف فى نفس الوقت ، ورغمــا عن تصــعيد نظريات محفــق « لوكيشكى » المخزية من جديد •

كما أننا لا نستطيع أن ننسى أن هناك معضلة دائمة تواجه البشرية ــ تلك هى كيفية الربط بين الدافع الى حرية الفرد وبين الكفاح من أجل العدالة الاجتماعية ، وكيفية التوفيق بينهما • ان حرية الفرد تدعو الى عدم تدخل الدولة فى حياته . ومع هــذا فان استبعاد عدم المســاواة غير العادل مستحيل دون وساطة المجتمع المنظم ، أو بعبارة أخرى دون وساطة الدولة • وليس يخامرنى شك فى ان الحل يمكن ان يوجد فى الوسط بين الأمرين المبالغ فيهما ، فخير الأمور الوسط • الا أن السؤال المحير الذى يواجه عقلاء العصر هو : أين يوجد هذا الوسط السعيد وكيف نستطيع أن نعثر عليه ؟

لقد كان واجب الثوار الفرنسيين أسهل من واجبنا بكثير • حقيقة . انهم كانوا يطالبون فى صوت واحد بالحرية والمساواة ، الا أن عدم المساواة الذى هبوا بثورتهم فى وجهه كان واضحا جليا وكان مستطاعا أن يصحح فعلا بجرة قلم • كان مستطاعا أن تستبعد الامتيازات الموروثة ، وكذلك ألقاب الأعيان والنبلاء وشعاراتهم • الا أن الحياة فى حد ذاتها تخــلق اختلافات حقيقية غير مرتبطة بالألقاب الموروثة أو بأية امتيازات أخرى مثل الامتيازات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فماذا عن هــذه الاختلافات ؟

ان البشرية لا تفتأ تبحث عن حل • والشعب السوفيتى لا يزال يبحث عن حل هو الآخر ، ولكنه لم يعثر عليه حتى الآن • ونتيجة للتجربة العملية فى دولتهم ، رفضوا فكرة الشيوعية الأساسية فكرة المساواة المطلقة • كما أن مبدأ « نفس الشيء لكل رجل » قد بطل العمل به هــو الآخر منذ وقت طويل ، وحل محله مبدأ « لكل وفقــا لعمله » ، ولكن الأعمال لىست جميعها بدرجة متساوية ولا يمكن أن تحدد ساعات العمــل وحدها قيمتها • ان لكل نــوع من أنــواع العمل فى الاتحاد السوفيتى صفته الخاصة به ، ولا يمكن تحديد قيمة العمل النوعية بمعرفة العمال

انفسهم ولكنها تقدر بمعرفة حكامهم ، أى بمعرفة الدولة • وهكذا يتقاضى عامل السكك الحديدية أجرا يقل كثيرا عما يتقاضاه النجم السينمائى • حقيقة هناك وعد سابق بأنه سوف يأتى يوم يحل فيه مبدأ « لكل وفقا لاحتياجاته » محل مبدأ « لكل وفقا لعمله » ، ولكن حتى هذا لا يحقق المساواة المطلقة ، لأن احتياجات الناس تختلف • وعلى أية حال ، يظل السؤال : منذا الذى يقرر ماهية هذه الاحتياجات : أهو الفرد نفسه ؟ أم يجب علينا أن نرجع مرة ثانية الى تلك السلطة العليا ــ الحكام والدولة ؟

ان العلاج الشامل لمساوىء المجتمع لم يتيسر الاهتداء اليه بعد ، رغم أن الكثيرين يزعمون أنهم استطاعوا الوصول اليه • وقد ضحت الشعوب السوفيتية تضحيات هائلة فى محاولاتها بحثا عنه ــ ضحت بحرية أفرادها ، وتلك حقيقة لا يمكن انكارها ، كما ضحت باشياء أخرى غيرها • وفضلا عن ذلك ، فان الدولة ان هى تعهدت بتوفير جميع احتياجات الشعب من الآلات اللازمة للصناعات الثقيلة الى الابر والخيط وفرش الأسنان والصابون واربطة الأحذية فلا مندوحة من أن تعمل على انتاج آلات الصناعة الثقيلة بادىء الأمر بينما ترجىء انتاج الصابون واربطة الأحذية بعض الوقت ، وذلك امر طبيعى ومنطقى • ولكن المنطق « والقانون » يصطدمان هنا بالظروف التى تجعل الحياة جديرة بالعيش • لا تتوقف ظروف العمل بالنسبة للملايين من الناس على الآلات الثقيلة ، ولكنها تتوقف أساسا على تلك الأشياء الصغيرة : زوج من الأحذية ، أو حتى مجرد رباط للحذاء • وعلى المرء أن يجرب افتقاره الى مثل هذه الأشياء التافهة لكى يقدر كم هى مهمة فى حياة الفرد اليومية وناهيك عن ذكر أهمية الافتقار الى الاحتياجات الأولية مثل كسرة من الخبز وقليل من السكر وجرعة من اللبن •

يستطيع المرء فى روسيا أن يدرك المعنى المفجع للعوز ، ومع هذا فانه يستطيع كذلك أن يدرك كيف يحترم الناس الذين رضوا بهذا العوز ويبجلهم ــ حتى ولو كان الرضى به قسرا وجبرا ــ فى بحثهم عن الدواء الذى يحتاجون اليه منذ أمد طويل • ان حدود معاناة البشر ــ المسلم فى أجزاء أخرى من العالم بانها حدود نهائية أو بأنها حدود اذا ماجاوزناها تصبح الحياة لا تحتمل ولا تطاق ــ قد امتدت فى الاتحاد

السوفيتي على صورة لا يمكن قياس أبعادها • ولا يعتبر امتداد حدود المعاناة أمرا سائغا . ولكن ينبغي لنا أن نذكر أن روسيا استطاعت أن تصمد للقبضة النازية الحديدية ، وأن تظل متماسكة تحت لكماتها القوية الى أن تمكنت ، آخر الأمر ، من تحطيمها •

ان درس الحياة في معسكر اعتقال من الدروس التي تنير العقول ولقد أصبح واضحا أن هذا الذي نطلق عليه اسم « الحياة المتمدينة » لا يعتبر أمرا ضروريا بل انه لا شيء أكثر من مجرد عادة ، ويستطيع المرء أن يخلص نفسه من عادات المدنية تماما كما يستطيع أن يمتنع عن التدخين ، بصعوبة في أول الأمر ، ثم يصبح الأمر سهلا فيما بعد ، ثم - أخيرا - منذا الذي يريد أن يدخن ؟ هناك في المعسكر عبارة تحمل هذه الفلسفة جميعا : « سوف تعتاد ذلك » • أو قد يقول المرء : « كيف تعود على الاستغناء عن كذا وكذا » ، وذلك هو الأمر الواقع فعلا • فعندما تجد حشرة القمل لأول مرة على جسمك يهتز كيانك ويثور ثائرك ، ولكن ذلك أمر قليل الأهمية ، سوف تتعود عليه • وسرعان ما تعتاد على الاستغناء عن قميص نظيف وعلى مئات القمل تغطى ذلك الذى كنت تسميه ملابسك الداخلية النظيفة • ان القملة الاولى مخلوق مخيف . أما القملة المائة فهي جار مقبول ، انها لم تعد ذلك الشيء المنفر ، انها أصبحت جزءا من كيانك ! هل يصعب عليك النوم بدون بيجامة : هراء وهذيان ، فبعد أسابيع قليلة سوف تتعلم كيف تنام في خرقة قذرة من قميصك وتتعلم كيف لا تخلع ملابسك اطلاقا . بل تنام في ملابسك ، وتنام - مع ذلك - نوما عميقا ! لا تستطيع أن تأكل دون أن تغسل يديك أولا • أنك سوف تكون شاكرا جدا لأى شيء تمسك به بيدك القذرة وتضعه في فمك ! ينبغي لك أن تنظف أسنانك بالفرجون صباحا ومساء • يا لسقط المتاع ! ما من فرجون يستطيع أن يقترب من أسنانك ، ومع هذا فسوف تعيش وسوف تتمنى أن لو تظل حيا ! تريد فراشا لتستريح عليه • عبث ! سوف تستلقى على الألواح ، وتنام على الدسر لا السرر ، على البلاط ، على الثلج ، على الارض ، وستنام نوما عميقا •

كلا ، ان المدنية ليست أمرا لازما • انك سوف تبرأ منها سريعا اذا ما اجبرت على ذلك ، ومع هذا - ويا للغرابة ! - فكلما تضاءلت المدنية من حياتك ازدادت رغبتك في أن تحيا ، لمجرد الحياة • ان

الانسان حيوان قوى ، وهو حينما ينحدر الى مستوى يقرب من المستوى البهيمى تظل رغبته فى الحياة مسالة جوهرية · انه يوائم نفسه لكل شيء الا الموت ·

لكن ·· هل من الضرورى خلق ظروف يفكر فيها الناس دائما فى الطعام رغم أنهم نسوا تماما كيف يكون طعم وجبة سائغة ؟ هل من الضرورى أن ينقلب الانسان الى نصف بهيم ؟ هل يجب أن تقوى رغبته فى أن يعيش على حساب ملذات الحياة ؟ ينبغى للمرء أن يركز على هذه الاسئلة حينما استطاع المجتمع ، مهما كان شكله ومهما كان تنظيمه · اما أن يجبر الانسان على أن يحيا كما لو كان نصف بهيم ، أو أن يتحمل معيشته على هذا المنوال · ان من المستحيل اجتناب تصور هذه الأسئلة عن الاماكن التى رآها الانسان بعينى راسه · لماذا ؟ لماذا ينبغى أن نذرف الدموع غزيرة فى نهر بيتشورا العظيم ؟ هل أصبح أولئك الذين يقررون مصير الملايين غير قادرين على ترويح حظ البؤساء على شاطئيه ؟

ان مصير واحد من هؤلاء البؤساء منقوش نقشا دقيقا فى مخيلتى ، وأشك فيما اذا كان لا يزال حيا يرزق · كان اسمه « جارين » (اسمه الحقيقى اسم يهودى لا أذكره) · لم ينشأ فى أول الأمر أن يتكلم لغته الأصلية ـ اللغة الشلختية ـ التى يتكلمها اليهود الألمان ، بل انه لم يسلم بأنه كان يهوديا ، فتكلمنا باللغة الروسية ، وتكلمنا طويلا · سبق أن كان عضوا عاما فى السياسة السوفيتية : أمينا عاما للحزب الشيوعى فى أوكرانيا ، ورئيس تحرير مساعد فى صحيفة برافدا · كان فى أيام شبابه الباكرة عضوا مخلصا للحزب الشيوعى ، الا أن عمله توقف فى سنة ١٩٣٧ المشئومة · قبض على « جارين » ووجه اليه الاتهام بارتكاب أشنع الجرائم الشائعة فى الاتحاد السوفيتى : « التروتسكية » · امتد التحقيق معه أربع سنوات ولكنه لم يقدم للمحاكمة · وفى سنة ١٩٤١ حكم عليه باقسى حكم ادارى : ثمانى سنوات فى « معسكر عمل تأديبى » . ثم أرسل الى شواطىء نهر بيتشورا ·· وهكذا جمعنا القدر سويا ·

أكد لى « جارين » أنه لم يكن من انصار تروتسكى ، وانه وهو طالب فى العشرينات من عمره كان قد مال الى الجانب التروتسكى فى مناظرة عامة كانت دائرة فى الحزب ، الا أنها كانت مناظرة مفتوحة معترفا بها ، وأن كثيرا من الطلبة الآخرين ممن يشغلون اليوم مناصب هامة فى الدولة كانوا قد حبذوا وجهة النظر نفسها · بعد ذلك ـ كما

اخبرنى جارين ـ لم تكن هناك اية صلة مع هذه التى نسمى «التروتسكية»، بل الواقع أنه كان يحارب « تروتسكى » . وقبل القبض عليه بعدة أيام كان قد نشر فى برافدا مقالا طويلا ضـــــد العقيدة التروتســـكية أو « الانحراف » ، وهو الاسم الذى كانت تعرف به . وكان المقال بعنوان « تقهقر الى المنشفية » ، وخلاصـــــته أنه يتهم « تروتســــكى » بترك « البولشفية » واعتناق « المنشفية » التى كان يهواها من قبل . الا أن اجابة المحققين الفورية عليه ، اذ استشهد بذلك المقال دفاعا عن نفسه ، كانت : « ان الرئاسة التروتسكية هى التى أمرتك بنشره لتغطية عملك الهدام للحزب والدولة » .

بقى « جارين » ، رغما عن كل هذه المحن ، سوفيتيا وطنيا . وفى أيام يوليو سنة ١٩٤١ فاض به الجزع من الأنباء الخطيرة التى كانت تتوالى من جبهة القتال . وعندما انفجر مسجون سياسى آخر ـ وكان شيوعيا حانقا ـ فاعرب عن الأمل فى أن يستمر الألمان فى تقدمهم لعله أن ينجو بنفسه ، زجره « جارين » ولامه لوما شديدا ورماه بالخيانة ، وكان نصيبه ، جزاء ذلك ، النعت المألوف فى المعســـــكر : « طفيـــلى » « حشرة » !

واذ كان « جارين » مخلصا للشيوعية فقد ظل يحارب عقيـــدتى الصهيونية . انه يذكر حربه ضد الصهيونية ، وبخاصة ضد الاشتراكيين الصهيونيين الذين يعتبر انهم يخونون الطبقة العاملة . لقد حارب ضدهم أيام شبابه فى « أوديسا » ولم يغير رأيه فيهم بعد . وابان أحاديثنـــا الطويلة التى كنا نتحدثهـــا ونحن مستلقون على أسرتنـــا الخشبية ، كان يحاول أن يقنعنى بأن الصهيونية ان هى الا الجانب المضاد لمعاداة السامية وكلتاهما قوميتان لاتتوافقان مع التقدم البشرى . ان التضامن الوطنى من اختراع البورجوازية ، وانما التضامن الحقيقى الوحيد هو تضامن العمال مع الناس على اختلافهم . ولم يكن ، بطبيعة الحال ، ليغفل عن مديحى المألوف على « خدماتى للامبريالية البريطانيه » ، وكان يدفع بأن فلسطين ملك خالص للعرب ، وأن الصهيونيين ما هـم الا مجرد أدوات يستخدمهـــا الاســـتعماريون البريطانيون لاخضـــــاع الطبقة البروليتارية العربية واضطهادها واستغلالها . كانت مناقشاتنا تجرى بأسلوب سهل الفهم ، الا أنها دائما ما كانت عاصفة صاخبة ، فالسجناء مثلهم كمثل الأطفال الصغار ، يحيطهم الرعب والفزع من كل جانب ، يمارسون العابهم فى تركيز غير مألوف أو يفقدون أعصابهم نهائيا فى مشادات عويصة .

الا أنه حدث ذات يوم ما نال من همة « جارين » . كنا نقوم بتفريغ شحنة قضبان ثقيلة من قارب عندما أهانه واحد من السجناء المجرمين ممن كانوا يعرفون باسم « أوركى » أو « زوليكى » . فقد نادى المجرم على « جارين » بأسلوب مهين قائلا : « يهودى قذر » ! لقد وقف « جارين » متحجرا مشدوها كأنما انطبقت السماء على الأرض . كانت هذه أشد لطمة نالها ، فلقد هوى من عليائه منذ زمن طويل ، لكن صعب عليه أن يحرد من مقامه : هو .. هو « يهودى قذر » ؟

كان « جارين » يعلم — كما كنا نعلم جميعا — أن الحكومة السوفيتية تحارب معاداة السامية فى اصرار صريح ، وكان محرضو معاداة السامية ، أو الحمقى الضالون ، هم دون سواهم — الذين يجادلون بالقول بأن الحكومة السوفيتية اما أن تكون « يهودية » أو « موالية لليهود » . والحق يقال ، ان الحكومة السوفيتية كانت معادية لاعداء السامية . وهى لا تعتبر معاداة السامية ظاهرة عنصرية فحسب ، بل تعتبرها أيضا — وربما كان ذلك بصفة خاصة — سلاحا خطيرا فى أيدى أعداء نظام الحكم السوفيتى . الا أن ذلك لم يمنع معاداة السامية التى تنبع من الكراهية الموروثة أو من الحقد الذى يأكل القلب . وعلى أية حال فانه من غير المستطاع أن تقاوم مظاهر معاداة السامية فى معسكر اعتقال . فالمعسكر عالم مغلق . يأخذك الحرس المسلحون الى مكانك فى موقع العمل ، ثم يعيدونك الى مكان نومك ، وهم لا يتدخلون فى المنازعات الداخلية . ولا تستطيع أن تقترب منهم ما لم يدعوك ، واذا شكوت لهم فلا جدوى من الشكوى ، بل ربما انقلبت وبالا عليك وأدت الى الاضرار بك . وسواء كنت مصيبا أو مخطئا فان رواية القصص ممنوعة — تلك هى الحكمة الاساسية فى كل سجن ، وهى كذلك ، بالتأكيد ، فى معسكر الاعتقال .

كان « جارين » يعرف هذا كله . وكان ذلك المخلوق التعس يعرف ، فضلا عن ذلك ، أنه واحد من أكثر الناس عرضة للكراهية فى المعسكر . لا لكونه يهوديا — فقد كان « الأوركى » على علاقة طيبة باليهود الآخرين — بل كان مكروها لانه من ذوى الفكر الراجح ولأنه شيوعى . وانه لقانون شائع أن السجناء المجرمين لا يطيقون المثقفين بين ظهرانيهم . انهم بلاء على السجين ذى العقل الثاقب الذى يزدريهم أو يبدو عليه أنه يفعل ذلك . ولم يكن « جارين » يزهو أو يستكبر ، الا أنه ما كان يستطيع أن ينسى الحواجز بينه وبين « الأوركى » أو « الزوليكى » فى فرقة العمال التى كنا أعضاء فيها .

وربما كانت كراهيتهم له أشد لأنه كان شيوعيا ، ومن ثم كان رمزا للحكومة • ولم تكن لتعنيهم مكانة الشخص الشيوعى فى حد ذاتها : « قوميسير » يصدر الأوامر ، أو سجين طريد ، «ستالينى» أو «تروتسكى» لقد كان كل ما يعنيهم هو أنه شيوعى وكفى ، وأن الفرصة قد أتيحت لهم لكى يثأروا لأنفسهم ، ولو بمقدار يسير ، من نظام الحكم المسئول عن حرمانهم وورطتهم •

هكذا يمكن تفسير ثورة الغضب « العربيد » تفسيرا منطقيا • ولكن ما نفع التفسير المنطقى ازاء الاكتئاب النفسى العميق ؟ لقد كان « جارين » محطما تحطيما شديدا ، لم يكن مجرد انسان بائس ، انه اتعس البؤساء، لقد تهشم كيان ايمانه ولم يحاول حتى أن يخفى ما ألم به • لقد شكا لى وكشف عن مكنون سره ، ثم سألنى : اذا كان الأمر كذلك ، فماذا كان الغرض من عمله كله ؟

يقال ان « هرتزل » تعرض لأزمة نفسية عندما سمع العربيدين (البلطجيه) يصيحون أثناء محاكمـــة « دريفوس » قائلين : « الموت لليهود ! » ، وكان وقتئذ صحفيا ناجحا ، فهدته تلك الأزمة الى فكرة الدولة اليهودية • ولكن أين « جارين » من « هرتزل » ؟ عندما قابلته كان محطما ، سقيم القلب ، زائغ البصر • لقد بدأت الأزمة النفسية التى أعادته الى قومه ثانية بعد عشرين سنة من الجحود والنكران حتى ولو كان ذلك العود لفترة قصيرة من الزمان ـ بدأت بصـــــيحة « يهودى قذر » •

بلغت الأزمة ذروتها ابان ما يعلقون عليه اسم « ايتيب » • وليست هذه الكلمة معروفة خارج الاتحاد السوفيتى ، بل انهـــا ليست معروفة تماما فى داخله اللهم الا فى معسكرات الاعتقال •

والمقصود من كلمة « ايتيب » هو نقل الســجناء من معســكر الى معسكر آخر • ويهاب السجناء هذا النقل كما يهابون الموت • يهـــابه السجناء جميعا ، يستوى فى ذلك « ديكس رقم ١ » ، أى السجين الذى قضى أقل من نصف المدة المحكوم بها عليه ويحصل على أقل نصيب من المئونة . كمـــا يستوى « الزعماء » ، وهم الملاحظون وقادة الجماعات • فما من أحد منهم يود أن ينتقل ـ لسبب بسيط ، هو أن النقل يكون دائما الى ما هو أسوأ ، بل ان التفكير فى الرحلة ، فى حد ذاته ، أشد رهبة •

تتم التنقلات برا وبحرا بصرف النظر عن الظروف الجوية ، ودائما ما تستغرق الرحلة عدة أسابيع • ولكى يمكن أن يفهم السبب الذى من أجله يفضل السجناء البقاء فى عشهم القذر الذى يزخر بالقمل والبراغيث أكثر مما يفضلون تغيير الجو وتجربة حظهم فى مكان آخر ، يكفى أن نذكر أن الشتاء فى المنطقة التى أكتب عنها يدوم أكثر من تسعة أشـــهر ، وتنخفض درجة الحرارة الى ما بين ٦٠ و ٧٠ درجة تحت الصفر ، ويتندر السكان المحليون بالطقس فى منطقتهم بقولهم ان طول الشتاء هنا تسعة أشهر فقط ، ويحل بعده فصل الصيف الذى يمتد طوله كيفما تشاء ! فليس من عجب — والأمـر كذلك — أن يـكون لكلمة « ايتيب » مغزاها العجيب •

التنقلات متعددة كثيرة الوقوع ، ولعل أحد أسبابها يتعلق بدواعى الامن ، بمعنى أنه يجب ألا يبقى نفس الاشخاص الساخطين سويا لفترة طويلة من الزمن • الا أن السبب الاساسى هو أن برنامج الانشاءات الحكومية يجب أن يستمر ، فالعمل الذى يجرى فى المعسكر بطىء نسبيا تحت الظروف القائمة ، الا أنه يجب أن يتم انجاز كل واجب • ثم ان البرنامج الانشائى فى القارة الأوروبية الآسيوية برنامج واسـع الانتشار ومتزايد ، فما ان يتم عمل حتى يبدأ عمل آخر ، وهكذا تخلو معسكرات وتمتلىء معسكرات أخرى ، ومن ثم كانت الحركة بين المعسكرات — شأنها شأن العمل نفسه — فى دورة دائبة •

لقد جمعت احدى حركات التنقلات هذه بينى وبين « جارين » • وقد بذل صديقى « كرول » ، الذى كان قد رقى الى درجة قائد فرقة (اسم يطلق سراحه من المعسكرات ، والمظنون أنه مات فى واحد منها بعد فوات بضع سنوات) ، محاولات مضنية كى يرفع اسمى من كشف «المسافرين» الا أن محاولاته ذهبت سدى ، بل ان « القمصان ذات الياقات » — ولها قيمتها فى المعسكرات حتى بالنسبة للملاحظين وقادة الجماعات — لم تشفع ، فقد صـدر الأمر بارسالنا الى الشـمال ولم يبـد « جارين » أية محاولة لرفع اسمه من القائمة — ذلك لأن بطاقته الشخصية التى كانت تحمل الحروف الثلاثة التى ترمز الى أنه « تروتسكى مضـــاد للثورة أوصدت جميع الأبواب والقلوب فى وجهه ، ثم انه لم يكن من أصـحاب القمصان ذات الياقات •

لحسن الطالع أن نقلنا حدث قبل أن يحل فصل الشتاء بقليل ، ومع هذا فقد كانت الظروف شاقة ، اذ سافرنا على سفينة نهرية صغيرة

معدة لحمل البضائع . لقد حشرنا فيها ، سبعمائة أو ثمانمائة نفس . وكان بالسفينة ثلاثة صفوف أو أربعة من الالواح الخشبية السميكة نستخدم للنوم ، وكان محظورا علينا أن نصعد الى ظهر السفينة الا باذن من الحرس المسلح ولقضاء الحاجة الجسمانية الملحة فقط . ولقضاء هذه الحاجة الملحة كان هناك دائما طابور طويل ، اذ كان عددنا بضع مئات ، ولم يكن هناك سوى محلين فقط لقضاء الحاجة . كانت المعدة فى تمرد دائم ضد الطعام أو ضد الافتقار الى الطعام ، وضد ماء النهر الآسن الذى كان علينا أن نتجرعه دون أن نستسيغه ، وكانت حشرة القمل تأكل منا اللحم ، وكانت الرائحة الكريهة تمزق الصدور . هكذا كان « الايتيب » .

وكان الناس أشد صعوبة من تلك الظروف الشاقة ، لأن «الأوركى» هنا لم يعودوا أولئك الذين كنت تشفق عليهم وترثى لحالهم . أو الذين كانوا قد بدأوا بالفعل يغيرون ما بأنفسهم فأحبوك واحترموك . لقد أصبح « الأوركى » هنا أغرابا ، وأصبحت أنت بالنسبة اليهم ذلك « المثقف » الذى يتخذونه هدفا للعناتهم البذيئة وفريسة لأيديهم المتلصصة . زد على ذلك ان « الأوركى » ، الذين كانوا بفضل أعدادهم يقررون الحياة فى المعسكر ، أصبحوا هنا ، فى جوف السفينة ، سادة مستبدين ، فقد كان من بين السبعمائة أو الثمانمائة سجين المنفيين نفر قليل من السياسيين ، وكان الحرس على ظهر السفينة بصفة دائمة ، لا يتدخل فى أية مشاكل مما قد يطرأ فى أعماق السفينة ، فهو أيضا يعرف « الأوركى » ويعرف أطوارهم .

فى هذا الجو ، بلغت أزمة « جارين » ذروتها . وفى ذات ليلة ـ أو لعله فى ذات يوم ، فمن يدرى ؟ ـ استيقظ « جارين » من غفوة وكان العرق البارد يلمع على جبينه . لقد اختفت الثلثمائة روبل التى كان يحتفظ بها . وليست ثلثمائة روبل بالمبلغ الكبير ، كما أنه لم يكن هناك على أية حال ، كثير مما يمكن أن يشترى بالنقود فى المعسكر . ومع هذا فان السجين يشعر بنوع من الاطمئنان للقليل من النقود الذى يحمله فى جيبه ، فلربما استطاع أن يشترى قليلا من التبغ أو قطعة من البسكويت الجاف . ولم يبق « لجارين » فى هذه الدنيا أى انسان يأمل فى أن ينال منه أى شىء ، فان زوجته ، وهى مدرسة فى الجامعة ، ألقى القبض عليها هى الأخرى باعتبار أنها « تروتسكية » . والواقع أنها نجحت لبعض الوقت فى تبرئة نفسها ، وبعد أن حاولت الانتحار كتبت الى ستالين ، الذى وصله خطابها بمعجزة ، فقبل التماسها وأمر بنقلها الى

احدى المستشفيات . وعند اعادة بطاقة الحزب اليها كان « جارين » نفسه لا يزال حـرا مطلق السراح ، الا أنه سرعان ما انهـار كل شيء . فألقى القبض على زوجته مرة أخرى . ولعلها أن تكون قد كتبت الى ستالين مزيدا من الخطابات ، الا أنه لم تظهر لذلك أية نتيجة . بعد ذلك مباشرة قبض على « جارين » هو الآخر فاختفى كل منهما عن ناظرى صاحبه . ثم نشبت الحرب بعدئذ ، وكانت الثلثمائة روبل هى كل ما يملك « جارين » الذى أصبح الآن لا يحتكم على شيء سوى الوسخ على جسده والألم يعتصر قلبه .

لكن الكرب الذى استبد به بسبب سرقة ما تبقى له من ثروته الضئيلة لم يكن هو السبب فى أزمته النفسية الأخيرة ، فلم يكن « جارين » ناقما على اللصوص ، بل ــ بالعكس ــ صرح لهم بأنه غير غاضب عليهم ، ولم يكن « الأوركى » يطيقون أن تقدم الشكاوى ضدهم الى الحرس . وكانت الشائعات تتردد الى أسماعنا قبل أن نبحر على نهر « بيتشورا » أن « الاوركى » يتعاملون مع الواشين الشاكين بالأسلوب الذى لا يستطيع معه هؤلاء أن يشتكوا منهم مرة أخرى ، كما سمعنا أن « الأوركى » يلعبون الورق من وقت لآخر ، وأنهم يتقامرون على « الرءوس » ، فاذا ما خسر احدهم رهانه كان عليه أن يفتدى مصيره بضحية مختارة .

كان « جارين » متأثرا ، من غير شك ، بهذه الروايات . واذ كان يتوجس خيفة فقد أقنع نفسه بأن « الأوركى » الذين سرقوا نقوده لابد أن يكون الشك قد ساورهم بأنه اشتكى منهم الى الحرس . بدأ يتخبل الأوهام ، وكلما مر على جماعة من المجرمين وهم يلعبون الورق ــ ولم يكن حظر اللعب بالورق مرعيا فى روسيا حتى فى السجون وفى معسكرات الاعتقال ــ ظن أنهم كانوا « يتقامرون على رأسه » . تعلق « جارين » بى لأيام وليال وهو أشبه ما يكون بالطفل الخائف . كلا ، أنه لم يفقد صوابه ، بل ظل كما كان أبدا ، المفكر اللامع ذا العقل الراجح ، ولما أفلحت فى جعله ينسى مخاوفه استطعنا أن نتحدث فى الأدب والفلسفة ، عن « دوستويفسكى » و « سقراط » . كان يفيض حكمة وفطنة ، الا أن شيئا ما قد ألم به آخر الأمر بصورة ظاهرة .

بينما كنا مستلقين على أسرتنا ، بدأ واحد من « الأروكى » ينزل على مهل من سريره على الرف العلوى . انكمش « جارين » ، الذى كان ينام الى جوارى ، واقترب منى ليحتمى بى ثم صرخ باللغة الشلختية :

« انه قادم ليقتلنى » ! نظرت الى حيث أشار . كان المنظر شريرا حقيقة . فقد كان الرجل يتحرك فى بطء شديد ، ملقيا ظلا ضخما فى شبه الظلمة التى كانت ظاهرة دائمة فى جوف السفينة . اقترب الرجل منا ، وكان ممسكا فى يده شيئا ما – شيئا لم نستطع أن نميزه . فى تلك السفينة وفى مثل هذا الجو المخيم عليها كان هذا المنظر ، بالنسبة لخيال رجل محطم الكيان واهى البنيان حتى أعماق نفسه ، كافيا لأن يجعله يظن أن نهايته قد اقتربت ، وأن « الأوركى » على وشك أن يقضى عليه . والواقع أن « الأوركى » لم يكن يفكر فى « جارين » ، ولم يكن الشىء الذى يحمله فى يده سوى ملعقة ، الا أن « جارين » انتابته نوبة من الفزع . لقد هدأت روعه بصعوبة بالغة ، الا أن روعه لم يكن ليهدأ حينئذ الا لفترة وجيزة .

ظل « جارين » موقنا أن « الأوركى » لن يصفحوا عنه ، وأن قضاءه أصبح محتوما ، وأنهم سوف يجهزون عليه ان عاجلا أو آجلا . وفى ذات ليلة – أو لعله فى ذات نهار – توجه « جارين » الى بمطلب مستغرب : « يا مناحم ، هل تذكر أغنية لوشوف ؟ » .

تفوه بالكلمة ، أول كلمة عبرية سمعتها منه ، وقد نطقها باللهجة « الاشكنازية » ، ولم أفهم ، على الفور ، الى أية أغنية كان يشير ، فانتابه الغضب نوعا ما .

« كيف أنك لا تذكرها ؟ انها تلك الأغنية التى اعتاد الصهيونيون أن يتغنوا بها فى أوديسا عندما كنت شابا : لوشوف . غنها لى ، فلربما كانت هذه آخر أيامى ، بل ربما كانت هذه آخر ساعاتى . وقد لا نلتقى ثانية . هلم ! غنها لى » .

كان فى السفينة عدة يهود غيرنا ، ولم يكونوا من السياسيين ، كما أنهم لم يكونوا فى عداد المجرمين . لقد قبض عليهم وهم يعبرون الحدود . كان من بينهم عضوان من شباب جماعة « بيطار » (١) وكانت أسرتهم قريبة من سريرى ، وكنا لا نزال قادرين على الغناء . فعلنا ما طلبه

(١) بيطار هو الاسم المختصر لعبارة « بريت ترمبلدور » ، منظمة الشباب التى أسسها « فالديمير يابوتسكى » ، وكان بيطار هو الحصن الذى اتخذ منه « باركوخبا » موقعا فى الثورة ضد الروم فى فلسطين فى القرن الثانى قبل الميلاد .

« جارين » ، غنينا له » « لوشوف » ، أى « حاتيفاه » ، السـلام الوطنى العبرى « لوشوف ليريتز أفوتينو » ــ « أملنا فى العودة الى ارض آبائنا » .

كانت السفينة متخذة وجهتها شمالا صوب المناطق شبه القطبية . ظلام دامس ، قذارة بعضها فوق بعض ، روائح كريهة ، براغيث وقمل . سبعمائة « أوركى » أشبه بالبهائم ، نفر قليل من اليهود ، حفنة من الحالمين بصهيون ، لماذا جاءوا الى هنا ؟ والى أين هم ذاهبون ؟ وفى اية مساعدة يأملون ؟ وكان بينهم يهودى ، أو بالأحرى ــ روسى من أصل يهودى ، لم يكن يفكر قط فى صهيون ، بل أنه لم يكن يؤمن قط بصهيون ، وانما كان يعظ طوال حياته بأن صهيون » رجعى » . وكان يخدم طوال حياته مبدأ آخر ، مبدأ المثل الاعلى العالمى الشامل ، يحارب فى سبيله من فوق المتاريس والحواجز ، فالقى « الروس البيض » القبض عليه وساموه سوء العذاب . واذ كان مخلصا فى خدمته فقد رقى حتى صار أمين اللجنة المركزية للحزب ، ثم مساعدا لرئيس تحرير صحيفة الحزب الوطنية اليومية . كم كان بعيدا عن صهيون ! وكم كان المكان الذى ساقنا اليه القدر والمصير بعيدا كذلك عن صهيون ! وكيف أن هذا الرجل وهو يظن أن قد حانت منيته قد طلب منا أن نغنى له اغنية صهيون !

غنينا .. ألم يسمع نهر « بيتشورا » ، الضارب لون مياهه الى الخضرة ، هذه الأغنية من قبل أبدا ؟ الم يسمع « الأوركى » قط أغنية عبرية قبل اليوم ؟ ومن جوف السفينة انبعثت الأغنية :

« لنعد الى أرض آبائنا » !

الفصل الثالث

إلى اللقاء في ظل الحرية

كان على ظهر هذه السفينة ، دون غيرها ، أن أعيدت الى حريتى ٠ كنا لا نزال فى الطريق الى هدفنا على المحيط المتجمد الشمالى عندما وصلت الأوامر باخلاء سبيل جميع المواطنين البولنديين ، فلقد وقع « سيكورسكى » اتفاقية مع « ستالين » ٠ وبحسب الترتيب الأبجدى كان اسمى أول اسم فى قائمة أولئك الذين كانوا على وشك الانطلاق أحرارا٠ صاح واحد من « الأوركى » :

« أنه يهودى وليس بولنديا » !

يا للأوركى التعس ! كان احتجاجه طبيعيا ، فليس هناك غيرة أشد من الغيرة من السجين عندما يطلق سراحه ٠ وهل ينتظر المرء من « الأوركى » أن يدرك الفرق بين الجنسية والقومية ؟

اقتربنا من الشاطىء ٠ وصل القارب ، قارب الحرية ، لينقلنا من سفينة السجن الى شاطىء الحرية ٠ نزلنا الى الشاطىء ٠ أصبحنا أحرارا ٠

قضينا عدة أيام فى معسكر الانتقال ثم رجعنا جنوبا فى نفس الطريق الذى أتينا منه ٠ مررنا على المعسكر الذى عاونت وأنا به فى بناء سكة الشمال ٠ كان قائد الجماعة « ماكاروف » واقفا على الشاطىء ٠

ـ « هيه ، أيها الرفيق ماكاروف ، كيف تسير الأمور ؟ وأين كرول ؟ »٠

— « كل شيء يسير على ما يرام ، وقد نقل كرول الى معسكر آخر ، ومن المحتمل أن يخلى سبيله حالا • وأنت ، هل أطلق سراحك ؟ •

— « نعم ، أيها الرفيق ماكاروف ، أنا الآن حر طليق • هل تذكر أنك كنت تظن أننا لن نرجع من الايتيب أبدا ؟ » •

— « اذكر ذلك جيدا أيها الرفيق بيجن • لقد كنتم سعداء الحظ أيها البولنديون ، ولكن من يدرى ؟ ربما خرجنا عاجلا ، فالحرب مستمرة وهم يتحدثون عن العفو » •

— « حظا سعيدا لك أيها الرفيق ماكاروف • آمل أن يصدر العفو عنك عاجلا • حظا سعيدا ، والى اللقاء فى ظل الحرية » •

مضينا فى طريقنا صوب الحرية سيرا على الأقدام ، طورا ، وعلى قطارات البضاعة أو على قطارات الركاب ونحن متعلقون بجوانبها ، طورا آخر ، جنوبا ، ثم جنوبا • ولم تتوقف العجائب • كنت أبحث عن أختى ، فهى الاخرى كانت فى المنفى وان لم يكن قد حكم عليها بالسجن • كيف السبيل الى العثور عليها ؟ ان روسيا واسعة ممتدة ، واللاجئون يعدون بالملايين • نعم ، لقد وجدتها ، عثرت عليها بمحض الصدفة ، كما وجدت بعضا من اصدقائى • أرسلت أول برقياتى الى أرض اسرائيل ثم تلقيت اول برقية من أرض اسرائيل ، وكان اسم زوجتى بين الموقعين عليها •

تذكرت آخر نبأ كان قد وصلنى منها • قبل أن أرحل شمالا من « لوكيشكى » سمح لنا بزيارة وداع واحدة من أحد الاقارب ، وجاءتنى فتاة صغيرة بدلا من زوجتى • انها « بولا ديستس » من جماعة « بيطار » • وقد خلدت بولا اسمها ، فيما بعد ، فى الحرب ضد النازيين • صارت واحدة من الأعوان الرئيسيين لزميلى وصديقى « يوسف جلازمان » بطل حى يهود » ويلنو ، وماتت كما مات هو الآخر وسلاحهما فى أيديهما حتى آخر لحظة • جاءت « بولا » لتزودنى « بالمعلومات . ولما كان حتما علينا أن نتكلم لغة يستطيع الحارس أن يفهمها فقد تكلمنا باللغة البولندية ، وكان هذا ما قالته بولا : « تبعث اليك خالتك بمحبتها » ثم تمتمت باللغة العبرية : « فى الصابونة خطاب » • وكان الحراس قد شقوا الصابونة شقين على امتداد طولها ، الا أن الرسالة كانت محشورة فى أحد الشقين، وهكذا أمكن أن تصل الرسالة الى الجهة المقصودة حتى فى سجن روسى ! افادتنى هذه الرسالة بأن زوجتى كانت فى طريقها الى أرض اسرائيل يصحبها بعض الأصدقاء الصالحين • وجدت راحة كبيرة فى هذا النبأ وقتئذ • لكن يا لهـــا من مخاطـــرة أقدمت عليها تلك الفتاة ! لو أنهم

امسكونى والرسالة فى الصابونة ، اذن لربما كان جزائى سبعة أيام أخرى فى الحبس الانفرادى • أما هذه الفتاة ٠٠ ؟

بعد عدة أشهر من التجوال التحقت بالجيش البولندى ، فوجدت جوا من معاداة السامية ومن السباب والمهانة ، الا أن تلك الفترة لم تدم طويلا • تحركنا جنوبا • ميناء « كرازنوفودسك » على بحر قزوين ، ميناء « بهلوى » الفارسى الصغير طريق الغزاة الفرس • عبرنا الجبال الشامخة • بابيلون ،بغداد ، بحرية الحبانية • ولم أكن أعلم آنئـــذ أن قبر قائد « ارجون تسفاى ليومى » يقع على قيد خطوات قليلة ، فقد قتل , دافيد رازيل » بينما كان يؤدى مهمة خاصة للجيش البريطانى • كنت أنا على قيد الحياة ، وكان لى أمل فى أن أضع نفسى تحت تصرفه ، وأن أحارب تحت قيادته •

هنا كانت امارة شرق الأردن « ارثنا وتراثنا » • حقول فسيحة ممتدة امتداد البحر • أدركت وقتئذ لماذا كان الروم يسمون هذا الجزء من أرض اسرائيل « بالستينيا سالوتاريس » ، فقد كانت هذه الأرض فى تلك الايام مخزن غلال الشرق الأوسط ، وهى اليوم ، ورغم الاهمال، ما زال ينبثق فيهــا الكلأ الأخضر من تحت الحجـارة التى تغطى الحقول المترامية ، ينبثق طويلا يانعا بهيجا • وتكاد المنطقة أن تكون خالية تماما • هنا وهناك على الرقعة الفسيحة تجد كوخ بدوى أو ترى جملا • وعندما تقترب من الأردن نفسه فانك تستطيع أن ترى قليلا من الناس وقليلا من حقول القمح • الضفة الشرقية من الأرض هى أرض اسرائيل • وقفت بنا القافلة الحربية ، استرحنا قليلا ، تركت السيارة وخضت فى الكلأ ورشفت من عبير حقول أرض وطنى •

« جميل أن تكون هى أرض الوطن ! » ــ ذلك ما قاله أحد الجنود من غير اليهود وكان يقف بجانبى •

وعندما تكلم تذكرت كيف أن موظف التسجيل فى معسكر الانتقال على شاطىء « بيتشورا » أخبرنى بقوله : « ســـيطلق سراحك يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٨ » •

لم يكن البقاء وقضاء السنوات حتى سنة ١٩٤٨ فى فرقة «ماكاروف» أو « يرمينكى » بالشىء الجذاب ، ومع هذا فمن منــــا يستطيع أن يتنبأ بمصيره ؟ اننا الآن فى صيف عام ١٩٤٢ ــ « فقط » عام ١٩٤٢ ــ ولا أزال هنا على الضفة الشرقية لنهر الأردن •

تذكرت « جارين » . انى أتذكره الآن ، وانى لأعجب ، ترى هل لا يزال حيا ؟ هل سمع أننا عدنا الى أرض آبائنا ، وأصبحنا شـــعبا حرا فيها ؟ هل ســمع أن هنـــاك تمردا فى اسرائيل (لقد كتبت صحيفة « برافدا » أحيانا عن أعمال المتمردين) ؟ وهل سمع بقيام دولة اسرائيل ؟ وهل سمع ان الدوله الكبرى التى كان يعمل فى خدمتها ، والتى كانت تحارب الكفاح من أجل قيام دولة يهودية ، قد ساعدت آخر الأمر ، فى المضمار الدولى ، على قيام هذه الدولة ؟ ربما هيأت له هذه الغرائب بعض الاطمئنان ، على الأقل ، وهو يعانى من الآلام .

انتهى فصل ، وبدأ فصل آخر . وقد قام القدر ازائى بدعابة عجيبة ، ففى أوائل شهر يونيو سنة ١٩٤١ كنت قد بدأت رحلتى شمالا من « لوكيشكى » ، وفى مستهل شهر مايو سنة ١٩٤٢ وصلت أرض اسرائيل . ألقى القبض على ، واتهمت ، وحوكمت ، ونفيت لكونى «عميلا» للامبريالية البريطانية . فماذا كان من أمر هذا العميل البريطانى ؟ لدى وصول هذا العميل مع الجيش البولندى الى اسرائيـــل قدمت الشرطة البريطانية ثمنا لراسه أكبر مكافأة قدمتها للقبض على أولئك الذين كانوا يحاولون تحطيم الحكم البريطانى فى أرض اسرائيل (ذلك هو « السجل » الوحيد الذى سطرته ، وسوف أظل ما حييت أفاخر به دائما) .

وفى الفصل الجديد ، لعب القدر ضدى لعبة ماكرة أخرى . كان العمل التآمرى غير معروف لى قبل أن أنغمس فيه قهرا . لم أكن أعرف من العمل فى الخفاء (تحت الأرض) أكثر مما قرأت فى كتاب وقع فى يدى عرضا ، ولم يسبق أن فكرت فى أنى سوف أحارب فى الخفاء لأنى كنت دائما أفضل الجهر على السر ، فى كل شىء ، ومع هذا .. !

الانسان فى التفكير والرب فى التدبير . كنت أعمل حتى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٨ فى الفرقة . لم تكن فرقة « ماكاروف » أو «يرمينكى» ولم يكن مجال عملها على شواطىء نهر « بيتشورا » . لم أقم بمد سكة حديدية لنقل الفحم ، بل كانت الفرقة التى أعمل بها فرقة المتمردين العبريين ، وكان مجال عملها على شواطىء نهر الأردن ، وكانت تشق طريق الحرية لاسرائيل !

الفصل الرابع

إننا نحارب ، ولذا فنحن كائنون

(١)

كانت هناك حقيقتان سائدتان لتقرير حالة الشعب اليهودى عندما كانت الحرب العالمية الثانية فى ذروتها . فقد كان هتلر يبيد الملايين من اليهود فى أوروبا ، وعلى الرغم من ذلك ظلت بريطانيا محتفظة بأبواب الوطن القومى اليهودى موصدة فى وجوه اليهود .

لم تكن التقارير عن حملة الابادة فى أوروبا واضحة وصوحا تاما فى بادىء الأمر ، وكان نشر تلك التقارير بطيئا ، ولم يكن هناك أدنى شك فى أن مؤسسات الصليب الأحمر والممثلين الديبلوماسيين للدول المحايدة ، وفى أن المخابرات البريطانية قبل كل شىء - حيث اتضح أن واحدا من عملائها كان يعمل فعلا فى القيادة العامة للقوات الألمانية - كانت تعلم ، يقينا ، الهدف الذى كان هتلر يرمى اليه من نقل اليهود من هولندا وبلجيكا ، ومن « وارسو » و « لودز » . ومع هذا التزمت تلك الهيئات الصمت ، ولم يكن أحد يستطيع أن يتكهن بأسباب هذا الصمت !. وتبقى تلك الحقيقة ، وهى أنه بعد انقضاء عدة أشهر من بدء حملة الابادة تسربت التقارير الأولى عن « الفصائل الخاصة » الثانية التى كانت قد صدرت اليها الأوامر بألا تترك يهوديا على قيد الحياة فى أى مكان فى جميع الأراضى التى يحتلها الألمان .

كان كثير من اليهود ، كذلك ، فى شك من هذه التقارير . ولا غرابة فى هذا ، فانه يصعب على أى انسان طبيعى أن يصدق أن

والديه أو اطفاله أو اخوته وأخواته قد اختفوا من الوجود هكذا ، وكأنهم أغنام سيقت الى المذبح ! والعادة أن المرء يصدق ما يريد أن يصدقه ، ولكن حتى العائلات المحكوم عليها بالهلاك لم يريدوا أن يصدقوا ، وهم وقوف بجانب القبور التى أمرهم النازيون بأن يحفروها ، ان هذه القبور كانت لهم أنفسهم ، بل انهم كانوا يعتقدون حتى آخر لحظة أنهم قد ينجون من الموت بكيفية ما . عندئذ استغرب القليلون من ان اليهود فى بقية العالم لم يصدقوا بالمقابر الكثيرة فى « بونارى » ، كما أنهم لم يصدقوا بمحرقة أجساد الموتى فى « تريبلنكى » (١) . انهم كانوا يسائلون أنفسهم : هل من المستطاع ابادة شعب بأسره ، وفى القرن العشرين ؟ ماذا عسى أن يقول العالم ؟

يا لهم من سذج بسطاء ! انهم لم يستطيعوا ان يدركوا أن الروح العلمية والتقدم العلمى فى القرن العشرين هما قطعا اللذان جعلا ابادة شعب بأسره أمرا ممكنا . زد على ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أنه طالما ان الشعب اليهودى هو الذى تعرض للابادة فان العالم سوف يظل بلا حراك .

ان ملاك النسيان مخلوق مبارك . ان مجرد لمس أجنحته كفيل بأن يضمد جراحنا . ان قدرتنا على أن ننسى لها فى جميع تفاصيلها أهمية قدرتنا على أن نتذكر ، وذلك هو السبب الذى من اجله ينبغى لنا الا نغضب أو ندهش من أننا ، رغم انقضاء سنوات قليلة فقط على هذه المذبحة العالمية التى لا يوجد لها نظير فى تاريخ البشرية ، نجد هناك كثيرا منا ممن نسوها بالفعل ، ولكننا لا نتجاسر أن نستسلم لهذا النسيان . اننا ، من أجل مستقبلنا ، بل وربما من أجل مستقبل البشرية ، لا نتجاسر أن ننسى ما حدث لنا فى هذا القرن ، قرن المدنية الآلية ، فى قلب أوروبا « المتحضرة » !

ان حملة الابادة لم تحدث على حين غفلة ، فقد أعد لها على ممر السنين ، أعد لها علميا وبصورة منسقة ، حتى لقد أعلن هتلر فى الرايشستاج عام ١٩٣٦ : « ان حربا أخرى سوف تعنى نهاية اليهود

(١) « تريبلنكى » ، فى أوروبا الشرقية . كانت واحدة من عدة مجازر بشرية شاسعة أقيمت على أيدى الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية لابادة اليهود . ويقدر عدد اليهود من الرجال والنساء والأطفال الذين ذبحوا وحرقت أجسادهم فى هذا المكان وحده بنحو مليون تقريبا . وقد صنفت ملبوسات الضحايا ومتعلقاتهم بعناية تامة لتكون فى خدمة الاقتصاد الألمانى . وعندما دخلت قوات الحلفاء وجدت من بين الأدلة الأخرى على التدابير الألمانية المحكمة أن هناك ستين الف زوج من أحذية الأطفال التى اخذت من صغار اليهود قبل ذبحهم .

في أوروبا » · كما بدأ الألمان في عام ١٩٣٩ يعدون « منطقة معينة من الأرض لاقامة اليهود » قريبا من « لوبلان » ، وتحدثت الصحف الألمانية عن مخطط لنقل جميع اليهود الى دولة في قلب أفريقيا أو في جزيرة مدغشقر ، ثم بعد ذلك جاءت الانباء باقامة أحياء ضيقة مختلفة لليهود تصاحبها أعمال اراقة الدم ، كما رتبت المذابح « الصغرى » والاهانات الكبرى ، التي كانت — في الواقع — التجارب المبدئية التي احكم تدبيرها · وقد وجهت هذه التجارب لاختبار رد الفعل لدى اليهود و « العالم » على حد سواء ، وكان فقط ، بعد أن انحط اليهود في حياتهم الدنيا الى قيمة « التراب » ، أن ذبحوا بالملايين وتحولوا الى رماد ·

خطوة فخطوة ، ومرحلة بعد مرحلة ، أحال السفاح الألماني شعبنا الى شراذم مذعورة مفككة ، تكافح فقط لتحيا ، غير مدركة أن الأمل في الحياة هو أن يكون المرء مستعدا للتضحية بحياته · كما كان يختبر رد الفعل لدى العالم الذى افترض أنه ، بالنسبة لهذه التجربة ، لم يكن يبالي باراقة الدم اليهودي · ولم يكن مخطئا في تقديره ، فبعد ان انضحت هذه الأهوال للعالم استطاع المستر « باجيت » العضو الاشتراكي في البرلمان البريطاني أن يؤكد في محكمة هامبورج لمجرمي الحرب أن حرب جيش الجنرال النازي « ماينشتاين » وسلوكه في بولندا كانا لائقين (في بولندا التي اصطبغت مياه أنهارها باللون الأحمر لدم مئات الآلاف من اليهود !) · كان المستر « باجيت » محاميا معروفا ، له وزنه وله اعتباره في بريطانيا قبل أن يمارس مهنته في تلك المحاكمة · لم يبدأ هتلر القتل الجماعي دفعة واحدة ، بل انه زج باليهود في غياهب السجون أولا حتى أدرك اللامبالاة من جانب العالم ثم حكم عليهم بالموت جوعا ، ولم يحرك العالم ساكنا فأنشب أظافره وكشر عن أنيابه ، ولم يظهر العالم دهشة أو استنكارا · وهكذا استمر خطوة خطوة الى أن وصل الى الذروة في غرف الغاز ، وكان هتلر قد أعد الغاز السام أصلا على جبهة القتال ليستخدمه اذا ما لاءمته الظروف ، الا أنه رغم تحرج موقفه العسكري من عام لآخر فقد كان الشعب الوحيد الذى تجاسر أن يستخدم معه الغاز هو الشعب اليهودي في غرف الغاز ·

اللامبالاة » ذلك هو الخطر ! قد تزعم البشرية أنها كانت تحرز تقدما ، على الأقل ، عندما يمكن اثارتها من أجل غبن وقع على شخص « دريفوس » في باريس ، أو على « ساكو » و « فانتزيتي » في أمريكا ، أو على « ديمتروف » في برلين · ان الانسانية سوف تعود الى ظلام الوحشية اذا ما بقيت غير ملقية بالا لمصير الملايين ممن هم على شاكلة

« دريفوس » ، أو اذا ما اخفقت ــ كما اخفقت خلال هذه السنوات المخيفة ــ فى ايجاد « اميل زولا » واحد ٠ واذا كانت الانسانية عموما يتهددها ذلك العدو المعروف باسم « اللامبالاة » فما اشد هذا التهديد للشعب اليهودى ! وذلك هو السبب الذى من أجله تنبهنا للتحذير الخطير لليهود ، وللأمميين غير اليهود على حد سواء ، فى كلمات « كيبلنج » الخالدة : « خشية أن ننسى ! » ٠

ان هذه الدعوى ــ دعوى النسيان ــ ليست بالشيء الجديد ٠ والواقع اننى انما أردد النداء الذى أصدرناه بعد أن تأكدت من صحة التقارير التى تلقيناها عن اراقة الدم اليهودى تأكيدا تاما ، ولكن ذلك النداء ذهب أدراج الرياح وقتئذ ٠ وكان أولئك الذين اصموا آذانهم باصرار عن صيحة الدم اليهودى الذى كان يصبغ أنهار أوروبا هم مواطنو المستر « باجيت » ، حكام « الوطن القومى للشعب اليهودى » ، حكام أرض الوطن العبرى البريطانيين ٠

ولا يستطيع المرء أن يذكر أن أولئك الذين رسموا السياسة البريطانية للشرق الأوسط في ذلك الوقت لم يكونوا يريدون انقاذ اليهود ، بل الأصوب أن يقال انهم ارادوا عدم انقاذ اليهود حقا ٠ ربما كان الرجل الانجليزى العادى لا يبالى بالأرواح اليهودية التى تزهق ــ شأنه فى ذلك شأن أى شخص آخر من غير اليهود فى العالم ٠ ولكن أولئك الذين حكموا فلسطين والشرق الأوسط لم يكونوا أبدا « غير مكترثين » ٠ لقد كانوا مهتمين اهتماما بالغا بتحقيق اقصى تخفيض ممكن في عدد اليهود المحتمل أن يطلبوا دخول أرض اسرائيل ٠ انني أكتب هذا لا لأجعل منه قضية ، ولا لأحدد وجهة نظرى بالنسبة للحكومة البريطانية أو مسلكها ازاءنا ، ولكنى اقرر الحقيقة ٠ وما من شك عندى فى أن اى رجل أمين من رجال الدولة البريطانيين ممن أبلغوا فعلا بسياسة الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت يستطيع أن يسلم بأن غرض السياسة البريطانية فى أرض اسرائيل ابان سنوات الحرب العالمية الثانية كان العمل على تخفيض عدد اليهود الراغبين في الدخول الى أدنى حد ممكن ٠ وقد قال « راندولف تشرشل » ذات مرة ان أباه كان يتحاشى مقابلة الدكتور « وايزمان » أثناء الحرب ٠ والمفروض أن « وينستون » قال فى هذا الصدد : « كلما أراه لا أستطيع النوم ليلا » ، ومع هذا فانه كان يستطيع أن يرى الدكتور وايزمان وينال ــ مع ذلك ــ قسطه من الراحة ليلا ٠ كان يستطيع أن يفتح أبواب اسرائيل لأولئك الذين كانوا على وشك ان ينقلوا رغما عنهم الى المحرقة لحرق أجسادهم فى

« أوشفتز » والذين جاء « وايزمان » اليه متوسلا من أجلهم أو من أجل بعضهم على الأقل ·

لـكنه لم يفعـل ذلك وتحاشى مقابلة وايزمان ، وذبح اليهود ــ بالملايين ، رجالا ونساء وأطفالا ــ طبقا للمخطط الألمانى · وفى عنف مخيف ساعد المخطط الألمانى على تحقيق الخطة البريطانية الأساسية ازاء أرض اسرائيل بوسيلة بشعة غير متوقعة ·

منذ أمد بعيد أرادت السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط أن تضم فلسطين الى الامبراطورية . فقد قال لى مستر « ايفان جرينبرج » رئيس تحرير صحيفة جويش كرونيكل (رجل ضحى بمستقبل عمله من أجل مبادئه) فى حديث طويل جرى بيننا عندما كنت أعمل فى «المقاومة» ، أن اباه « ال · جى · جرينبرج » ، أحـد أعوان « هرتزل » البـارزين ومبعوثه الخاص الى مصر للاعداد للجنة تحقيق العريش ، كان قد أخبره لورد « كرومر » المعتمد البريطانى فى مصر حينئذ بأنه : «عندما تنهار الامبراطورية العثمانية ، التى سوف تنهـــار قطعا ان عاجلا أو آجلا ، فاننا ينبغى أن نأخذ فلسطين » ·

كان ذلك فى أوائل القرن العشرين · والواقع أن اهتمام بريطانيا المباشر بمصير أرض اسرائيل بدا واضحا بالفعل فى القرن التاسع عشر، ويفسر ذلك سبب وجود كثير من الانجليز بين « الصهيونيين » الذين سبقوا » هرتزل ، كما يفسر أيضا سبب اهتمام بريطانيا فى تلك الأيام بحماية اليهود الذين كان يضطهدهم السلطان ·

تقتضى العبقرية الغربية التى تتسم بها السياسة البريطانية أن تضفى على المصالح البريطانية صورة خارجية هى صورة المثل الأعلى العام. قال «دزرائيلى» مرة عن المستر «جلادستون» : اننى لا أعارض أن يمسك صــديقى النبيل (كرت الآس الخامس) تحت كمه ، ولكنى أحتج على تلميحه بأن اللورد هو الذى وضعه هناك » · وانها لعبقرية عجيبة من رجال الدولة البريطانيين الا يجعلوا ذلك « الآس الخامس » يبدو مشروعا وعادلا فحسب ، بل يجعلونه أيضا يبـدو وكأنه عمل مقدس ! لقد مال الحظ الى جانب بريطانيا فى القرن التاسع عشر ، وكان تحالف «مترنيخ» الثلاثى تحالفا غير مقدس · كان نظام الحكم القيصرى نظاما رجعيا بلاشك، وكان حكم السلطان فظيعا بلا جدال · وقفت بريطانيا الى جانب التقدم، وكان « القفاز » ملائما لليد · كانت اليد تدلل وتربت ثم تغزو · ومضت بريطانيا من بأس الى بأس ــ اليد فى القفاز ، مع التقدم الانسانى ·

كان تمرد اليونانيين ضد مضطهديهم الأتراك واحدا من مظاهر

التحرر التى لا تقهر · وكان جميلا أن تقدم المساعدة الى شعب صغير ، الا ان ذلك كان مما يستوجب الاهتمام أيضا · ان اضعاف الباب العالى ـ لا تدميره والروس أقوياء ، وانما مجرد اضعافه فقط ـ لا يترتب عليه شيء سوى صالح التقدم وصالح بريطانيا · هل كانت غلطة بريطانيا أن يتضمن معنى مساعدة التقدم عندها مساعدة بريطانيا أيضا ؟ ان تقديم الملجأ للمنفيين السياسيين المضطهدين واجب انسانى مقدس · لقد أعطى الثائرون الروس ملجأ فى بريطانيا · وهذا عمل نبيل ، كما انه سياسة سليمة · وقد ساعد ذلك على اضعاف القوة الكبرى من الداخل ـ تلك القوة التى تتطلع الى الفسطنطينية والهند · انه فى الواقع يفيد التقدم الانسانى بكيفية واضحة ، كما يفيد بريطانيا ، ولا يمكن أن يوجه اللوم الى بريطانيا اذا ما مضى الاثنان ـ بريطانيا والتقدم ـ يدا فى يد · أى شيء أكثر انسانية من بسط الحماية لليهود المضطهدين ـ شعب التوراة ـ ضد قسوة «قائمى المقام » الأتراك ؟ واذا كان ذلك من شأنه ـ كما حدث فعلا ـ أن يعود بفوائد امبريالية ، فما هو الرأى فيه ؟ كانت القوى جميعا تتطلع الى التدخل فى شئون تركيا (رجل أوروبا المريض » · تدخلت فرنسا نيابة عن الكاثوليك ، وتدخلت روسيا لمصلحة الكنيسة اليونانية ، وطالب الألمان بحقوق البروتستانت ، ثم ان علاقتهم كانت على اية حال علاقة مودة مع السلطان ، وكانوا يخططون لسكة حديد برلين ـ بغداد · فماذا بقى بعد ذلك لبريطانيا ؟ اليهود ! وبهذه المناسبة ، لمن كانت فلسطين لليهود بطبيعة الحال · لقد ورد ذلك فى الكتاب المقدس (لكن ، « يا مستر جرينبورج ، يجب أن تأخذ بريطانيا فلسطين ») ·

انني لاأقدم هذا التحليل بروح ناقدة للسياسة البريطانية ، فأنا لا أنكر أن سياسة بريطانيا كثيرا ما أفادت الانسانية ، الا أنه أحيانا ما يحدث العكس · زد على ذلك أن من الانصاف ان نسأل : أهى سياسة بريطانيا وحدها التى تعمل بهذا الأسلوب ؟ هل الحكومة البريطانية هى الوحيدة التى تستغل معنى التقدم والحرية والعدل فى متابعة سياستها ؟ طبعا لا !

فى أرض اسرائيل أيضا لعبت اللعبة نفسها ، الا أن اللعبة انتهت هنا بمأساة · لقد أرادت بريطانيا أرض اسرائيل لها لأنها تقع عند الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، ولأنها على ملتقى طرق القارات الثلاث، ولأنها تتحكم فى أحـــد شاطئى قناة السويس ،ولأنها تقع على جانب الطريق الى الهند ، ولأنها ·· الخ · ربما كانت هناك أسباب كثيرة هامة· كانت فلسـطين مطمع حكام العـالم جميعا منذ « بختنصر » · لـكن اذا

أرادت قوة كبرى اقليما ما فهل تأخذه هكذا ؟ هل تضمه اليها عنوة ؟
انها لا تفعل ذلك اذا كانت قوة حاذقة .

ولذا فان السياسة البريطانية كانت على أهبة الاستعداد لتساند
مثلا أعلى عظيما يمكن بريطانيا من السيطرة على فلسطين دون أن تبدو
كذلك . وكان ذلك المثل الأعلى جاهزا فى اليد ، فان اليهود الذين وعدتهم
التوراة بفلسطين كانوا مضطهدين ، وكانوا يريدون وطنا . وكان المثل
الأعلى سائغا واذن فلتعد بريطانيا اليهود بوطن فى فلسطين . **لا تعدهم
بفلسطين وطنا** . لكن تعدهم بوطن فى فلسطين ! تأخذ بريطانيا فلسطين،
ويكون لليهود وطن فيها .. ان مثل هذه السياسة خليقة أيضا بأن تساعد
المصالح البريطانية فى أمريكا ، لأن لليهود نفوذا هناك .

لكن ماذا لو أن كثيرا من اليهود أرادوا أن يذهبوا الى وطنهم القومى؟
لم يكن هذا الاحتمال موضع اهتمام كبير لدى بريطانيا فى أول الأمر .
وفضلا عن ذلك ، كان الرأى السائد فى العالم حينئذ أن اليهود يفضلون
الأعمال الادارية والأعمال التجارية على الأعمال اليدوية ، وانهم سوف
لا يرغبون فى ترك محالهم التجارية ومكاتبهم من أجل شظف الحياة
ومشقتها في صحراء فلسطين وتلالها الجرداء وأرضها الحجرية . وفيما خلا فئة
قليلة من المثاليين والمعوزين ، سوف يبقى لجهود اليهود حيث هم . وعلى
أية حال ، فانه اذا ما ازداد عدد اليهود زيادة أكثر مما ينبغى فان هناك
العرب ، وهم مستعدون دائما لاثارة الشغب . قد يكون اليهود تجارا
مهرة ، اما أن يكونوا جنودا أو محاربين فان مجرد التفكير فى هذا كان
كافيا ليجعل الاداريين ، البريطانيين يضحكون ملء أفواههم . ان اليهود
لم يستخدموا الأسلحة منذ آلاف السنين ، وان هؤلاء الذين لم يذهبوا ،
بعد ، الى فلسطين يسهل ارهابهم ، وأولئك الموجودين فيها فعلا سوف
يتطلعون الى بريطانيا لحمايتهم . هكذا اتضحت معالم الخطة : العرب
يتمردون على « الغزو الأجنبى » اذا دعت الضرورة ، واليهود يظلون الى
الأبد أقلية مهددة فى فلسطين . كل من العرب واليهود يجب أن تتوافر
لهم الحماية ضد بعضهم البعض عن طريق السونكيات البريطانية .

(٢)

تلك هى خلاصة الفكرة التى تضمنها وعد « بلفور » بوجه
التقريب . هكذا دبرت خطة الانتداب البريطانى ، وهكذا تطورت
السياسة البريطانية فى أرض اسرائيل حتى بلغت ذروتها ابان الحرب
العالمية الثانية . كانت الخطة واضحة متماسكة فى مآربها وفى محتواها
على حد سواء . وتحقيقا لمآربها كان البريطانيون يتوقون لدخول عدد

محدود من اليهود فى أرض اسرائيل ـ لا أكثر من هذا العدد المحدود ٠ وماذا يفعل المرء فى مسألة كهذه ؟ فى مسألة كهذه يوقع المرء بين المتطرفين والمعتدلين ، أما من حيث رد الفعل اليهودى فقد كان اليهود مهرة فى ادارة الأعمال ولكنهم ليسوا كذلك فى الشئون السياسية كما تكهن البريطانيون وكانوا فى تكهنهم هذا صائبين ٠ وعلى أية حال ، لم يبلغ اليهود درجة من الحذق تكفى لأن يدركوا أهمية اختيار زعمائهم ٠

حتى هذا المخطط ـ الذى اعتبره المخطط البريطانى الرئيسى ـ ظهر أنه لم يكن كافيا لمواجهة الموقف فى أوربا فيما بين الحربين ، تلك القارة التى كانت منغمسة فى الكراهية ، غارقة فى الدم ٠ ففى بولندا كان ملايين اليهود محاطين بمعاداة الســامية العنيفة ، وفى دول البلطيق والبلقان كان مئات الآلاف من اليهود يلمسون معاداة السامية تنمو من حولهم نموا سريعا ٠ وكان من الطبيعى أن يتجه الى أرض اسرائيل عشرات الآلاف من شباب اليهود الذين لم يتمكنوا من أن يجدوا لأنفسهم مكانا فى حياة الدول التى كانوا يعيشون فيها ، رغمــا عن قدراتهم ورغما عن درجاتهم الجامعية ودبلوماتهم ٠ ان جموع اليهود كانت تعمل المستحيل لكى تذهب الى أرض اسرائيل ٠

ماذا عسى أن يحدث ؟ ان عملية توطين جموع اليهود الدافقة كانت تهديدا كامنا للسيطرة البريطانية فى مؤتمر القــاهرة عام ١٩٢١ الذى شهده « تشرشل » مع « تى ٠ اى ٠ لورنس » ، حيث حددت معالم خطوط السياسة البريطانية في الشرق الأوسط تحديدا واضحا ٠ قال «تشرشل» : « ان الأسماء التى يطلقها أمراء وملوك العرب على أنفسهم ليست ذات بال طالما أنهم يفعلون ما نشاء وقتما نشاء » ٠ لكن هل يمكن أن يقال نفس الشيء عن اليهود ؟ يبدو أن خطرا حقيقيا كان يكمن هنا ٠

ان من السهل أن تثار المشاغبات والهجمات العربية ، الا أن ثمارها ينبغى أن تجنى بعناية فائقة ٠ لقد أعد جهازان على درجة كبيرة من الاعتبار، أولهما « لجنة التحقيق » ـ ومنها سلسلة كاملة جاءت وراحت ٠ لقــد أضافت هذه اللجان مزية سيكولوجية من حيث ظهورها بمظهر الحــكم المنصف الذى لا يحابى والذى يؤكد ، ثم يؤكد من جــديد ، أن هناك جانبين من « الحقوق » المتعارضة فى فلسطين ، ومن ثم تبرز الحاجة الماسة الى وجود سلطة الانتداب بصفة دائمة فى فلسطين لتكون بمثابة طرف ثالث (حكم) يتخذ القرارات ٠ وكانت « الورقة البيضاء » ثانية هذين الجهازين ـ ومنها صدر عدد كبير يعلن ، فى أسلوب قضائى مفصل ، الحجج

والمبررات المتنوعة التي تسند سياسة ابقاء اليهود بعيدا عن فلسطين ، وتحد من تطوير أولئك الموجودين هناك بالفعل ٠

تكررت دورة هذه الأحداث المرة تلو المرة ، مما شجع العرب ـ وأحيانا كان ذلك بطريقة سافرة ـ على شن الهجمات على اليهود ، فتأتى بعدئذ لجنة تحقيق بتقريرها ، ثم تنشر ورقة بيضاء ، وتوقف الهجرة أو تخفض الى الصفر ، على الأغلب ٠

استولى « هتلر » على السلطة فى يناير سنة ١٩٣٣ ، فانتفضت المجتمعات اليهودية فى أوروبا واهتز كيانها ، واتجهت موجة جديدة من المهاجرين صوب فلسطين ، ولكن مجراها لم يدم ، وسرعان ما أجفلت ٠ وفى سنة ١٩٣٦ ، وبينما كان الضغط اليهودى على فتح أبواب أرض اسرائيل بالغا ذروته ، نشبت اضطرابات دامية فى فلسطين ، ودامت هذه الاضطرابات ، وصعب وضع نهاية لها ٠ « شنت » هذه الاضطرابات لتلقى الرعب فى قلوب المترددين ، و « استمرت » لكى تخلق عذرا لقفل الأبواب ٠ عقدت لجنة ملكية ، ثم عقدت لجنة ثانية ، وأخيرا صدرت فى شهر مايو سنة ١٩٣٩ ورقة بيضاء ارتبطت باسم ابن « رمزاى ماكدونالد » ٠ وكان مقررا أن تكون هذه الورقة ورقة نهائية بقصد تحطيم آمال الشعب اليهودى بصورة نهائية فيما يتعلق بفلسطين ٠ شبت الحرب العالمية الثانية بعد أربعة أشهر ، ووقع ملايين اليهود فى الشراك ، أو كادوا ، على أيدى قناصيهم اللذين لا يرحمان ، « هتلر » و « هملر » ، فى ذلك الوقت ، فماذا بعد ؟ ٠

لم يمثل هذا أية مشكلة جديدة حقا فى نظر رجال « هوايت هول » ٠ ان حل مسألة فلسطين كان منتهيا حينئذ ، فقد هيأت الورقة البيضاء كل شىء ، ثم انها عملت أخيرا على تصفية المطلب اليهودى فى فلسطين بأن وعدت بالسماح للدفعة الأخيرة البالغ عددها نحو ٧٥٫٠٠٠ شخص بدخول الاقليم فى مدة أقصاها سنة ١٩٤٤ ، وكانت هذه الدفعة تتضمن ٢٥٠٠ من اليهود الألمان التعساء ٠ وبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ يجىء « الاستقلال » القائم على أساس « صداقة بريطانيا التقليدية للعرب » وبضمان معاهدة بين حكومة جلالة الملك والحكومة الشرعية الجديدة فى البلاد ٠ وفى هذا أيضا لا ينبغى أن ينسى اليهود ٠ وتستطيع بريطانيا ، فضلا عن ذلك ، أن تزعم أنها قامت بالتزاماتها جميعا ، فيحصل اليهود على الاستقلال الثقافى والحقوق المتساوية ، ونصيب متناسب (الثلث تقريبا) فى الحكومة ٠ ستقدم لهم الحماية ، و « يحكم » العرب ٠ وسوف يراعى البريطانيون ٠ بوصفهم مستشارين ، أنهم يحكمون كما ينبغى أن

يكون الحكم • كان ذلك واضحا كله ، وانما بقى ضمان تطبيق المخطط الذى كان يعرف منذ ذلك الوقت باسم « القانون » •

تكمن الصعوبة فى رغبة اليهود النكدة فى النجاة بأرواحهم والهرب من « هتلر » • وسرعان ما تبدد أى اعتقاد هاجع بأن حدود أوروبا المغلقة سوف تحول دون هربهم ، فان « أرجون تسفاى ليومى » ، التى جلبت – بالاشتراك مع الحزب التنقيحى الصهيونى ومنظمة شباب بيطار – عدة آلاف من المهاجرين ، « غير الشرعيين » الى البلاد ، لم توقف نشاطها اطلاقا ، حاولت السلطات البريطانية ، جاهدة أن ترهب العالم بالوصف البشع للأحوال على ظهر سفن اللاجئين ، سفن توابيت الموتى القديمة الخربة التى كانت تعج باللاجئين حتى الحافة ، وكان القنصل البريطانى فى « كونستانزا » ، الذى زار واحدة من هذه السفن ، قد ذكر فى تقرير له أن أى رجل انجليزى لايمكن أن يرضى بالسفر فى مثل هذه الظروف غير الصحية • الا أن النقل ظل مستمرا •

لم تدخر دول أوروبا الشرقية أى جهد دبلوماسى لايقاف المساعدات المفتوحة وغير الرسمية التى كان يتلقاها منظمو الهجرة من الوكالات الحكومية أو الرسمية فى هذه الدول • وكان الفان من اليهود الذين وصلوا الى الحدود الرومانية يحملون تأشيرات عبور رومانية على جوازات سفرهم التى كانت تحمل تأشيرات خروج « بوليفية » قد ردوا على أعقابهم على اثر الضغط البريطانى الذى تعرض له « سبلينسكو » وزير الخارجية الرومانى • الا أن ذلك لم يمنع بعضا من هؤلاء من اجتياز الحدود والانضمام الى يهود أخر من تشيكوسلوفاكيا والنمسا ورومانيا فى محاولة أخرى للوصول الى أرض اسرائيل (١) •

ومرة أخرى ، وصلت الى الموظفين البريطانيين أنباء من عدد كبير من السفن الايطالية الرابضة فى ميناء « تريستا » ، وعن وجود كثير من السياح اليهود فى تلك الميناء • وكان واضحا أن اليهود ما كانوا ليقلعوا عن الفكرة ، بل انهم كانوا يخططون لعملية « غزو » واسعة النطاق من المهاجرين غير الشرعيين •

---

(١) وقد أفلحوا فى الوصول الى أرض اسرائيل فى رحلة «سيكاريا» التى نظمها المستر « امرى يابوتنسكى » ابن منشىء «ارجون» •

حينئذ كانت « الهاجاناه » (١) ــ وهى أكثر من أرجون ثراء ، وكانت تدعمها موارد الوكالة اليهودية » (٢) ــ قد أصبحت هى الأخرى ، عاملة فى ميدان الهجرة ٠

ومع هذا لم نتردد براعة الحكومة البريطانية ٠ لقد قاومت التعاطف مع اليهود الفارين من غرف الغاز بالأسئلة الموعز بها فى مجلس العموم البريطانى مثل : هل يعلم الوزير أن الألمان يحشدون السفن فى تريستا لنقل اعداد كبيرة من اليهود الى فلسطين بصفة غير شرعيـــة لكى يخلقوا المشاكل لبريطانيا العظمى فى الشرق الأوسط ؟ ٠

ما هى الاجراءات الوقائية التى يرى الوزير اتخاذها ؟ ٠

كانت الدعاية الحكومية على أهبة الاستعداد لاطلاق سيل من المبررات، وفضلا عن ذلك فقد أبلغت السلطات البريطانية العالم أنها ليست قاسية فظة غليظة القلب ، بل انها مكتئبة حقاً من أجل هذا الشعب التعس ، كما أوعزت بأن تلك الحرب التى كانت تخوضها انما خاضتها أساسا من أجل « هذا الشعب التعس » ، وأعربت الحكومة عن الأمل فى أن يتمكن « هؤلاء الناس » من العودة ثانية الى أوطانهم «بعد أن تضع الحرب أوزارها» ٠ أما « الجواسيس الألمان » فلن يسمح لهم بأن ينفذوا الى الشرق الأوسط

---

(١) كانت الهاجاناه منظمة تحت اشراف اللجنة التنفيذية الصهيونية ، وكان الغرض من انشائها أساسا هو تهيئة مايشبه الحماية البوليسية للمستعمرات اليهودية المختلفـــة فى فلسطين ٠ وكان أفرادها يشكلون من أهل المستعمرات أنفسهم ، بالاضافة الى عدد صغير من الاداريين المتفرغين ٠ وقد عارض الزعماء الصهيونيون ، وبخاصة أعضاء اليسار ، بشدة فى قيامها بعمل ذى طابع عسكرى مما كانوا يتخيلون أنه خليق بأن يرتبط بالرجعيين واليمينيين، ومن ثم فان «يابوتنسكى » عندما طالب بجيش يهودى وصفه اليسار بأنه « من أنصـــار المذهب الحربى » وبأنه «فاشيستى » لأنه يتجاسر على التفوه بمثل هذه الفكرة الخبيثة ٠ ان كثيرا من هؤلاء اليساريين الصهيونيين صادفتهم ، بطبيعة الحال ، تجربة الديموقراطـــية الأوروبية الشرقية المريرة حيث كان الرجل الذى يسيطر على الجيش دائما ما يحرز الأغلبية الديموقراطية ٠ والواقع أن أصول الهاجاناه تمتد الى زمن رجال الحراسة اليهود القدمـــاء (شوميرين) الذين كانوا يقومون على حراسة المستعمرات اليهودية فى عهد الحكم التركى ضد العصابات العربية وماشابهها من السفاحين والنشالين ٠

(٢) يجوز للقارىء ، من الناحية العملية ، أن يعتبر اصطلاح « الوكالة اليهودية » بمثابة الاسم الوظيفى الذى كانت تطلقه الحكومة البريطانية على « المنظمة الصهيونية » ٠ ان شبكة المنظمات التى كانت مجتمعة تحت امرة المنظمة الصهيونية أو مشتركة معها ، والتى كانت خاضعة ــ بصورة ما ــ لسيطرة اللجنة التنفيذية اليهودية ، غالبا ما يشير اليها المؤلف باعتبار أنها مؤسسات يهودية » ٠

فيعرضوا المصالح البريطانية ـ التى تطابق مصالح البشرية ـ للخطر فى الحرب • وقد أبلغ المندوب السامى البريطانى فى القدس باستخدام هذا الجدل المنطقى (اتجاه جديد للأسلوب التجارى القديم فى المثالية) لتبرير السياسة الجديدة ـ سياسة اعادة المهاجرين اليهود غير الشرعيين ثانية الى « أوروبا هتلر » •

(٣)

لم تدم ثمرة المأساة المحتومة طويلا حتى تم نضجها ، فقد وصلت السفينة « اشتروما » الى مواجهة شاطىء أرض اسرائيل تحمل أكثر من سبعمائة مهاجر كانوا يحاولون ، رغما عن الحصار ورغما عن التحذير . أن يدخلوا الاقليم •• وطبقا للتعليمات أرجعت السفينة الى النقطة التى أبحرت منها فى رومانيا • وفى منتصف الطريق غرقت السفينة وغرق معها جميع من كانوا على ظهرها ولم يعرف السبب الذى أدى الى غرقهـا الى اليوم •

تلك هى « اشتروما » • وكانت هناك أيضا « ميلوس » و «باسيفيك» و « باتريا » •

أذاعت الحكومة البريطانية حينئذ أسلوبا كريما جديدا للتعامل مع المهاجرين ، اذ أعلن سير « هارولد ماك ميتشل » المندوب السامى أن هذه السفن لن ترتد ثانية الى أوربا (ولم تفلح هذه الدعاية فى تحبيذ ذلك النوع من المعاملة لدى المتمدينين من الرجال والسيدات) ، ولكنها سوف توجه الى جزر « موريشس » ثم أضاف أن هؤلاء المهاجرين سيعودون الى أوطانهم فى أوربا بعد انتهاء الحرب ولكى تلقن الفوات العســكرية ، التى عهد اليها بمهمة الابعاد ، أولئك المهاجرين « غير الشرعيين » درسا ، لجأت الى « استخدام نوع من العنف » قبل أن تتخذ السفن وجهتها الى « موريشس » • أما السفينة « باتريا » فانها لم تبحر اطلاقا ، فقد وضع « الارهابيون » اليهود فيها قنبلة لتحول دون ابحارها ، وانفجرت القنبلة فقتل أو غرق أكثر من مائتى يهودى • وقد ذكرت السلطات البريطانيـة أن هذه العملية لم تكن من تدبير « أرجون تسفاى » ، وأن « الهاجاناه » هى التى وضعت القنبلة » •

فى هذه الحالة الغريبة كانت الأصداء التى ترددت عن الانفجار سببا فى أن يبدى « ماك ميتشل » الرأفة بالناجين ، وأن يسمح لهم بدخول أرض اسرائيل • الا أن البيان الذى صاحب هذه الرأفة أكد من جديد ،

وبكيفية لا لبس فيها ولا غموض ، أن هذا العمل لن يكون سابقة يحتذى بها ، وأصر على أن الهجرة غير المشروعة أمر لا يمكن تحمله وأنه سوف يطبق « القانون » ، وأن كل من يضبط داخلا بطريق غير مشروع سيرد الى البلد الذى جاء منه •

هكذا وصلنا الى عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣ ، حيث كان برنامج « هملر » للابادة الجماعية يخطو بخطوات واسعة ، ولم ينتج شيء عن النداءات التى وجهها اليهود الى الضمير البريطانى السريع التأثر ، ولم يترك سير الأحداث أى أثر ، وراحت نداءات واستغاثات الزعماء اليهود أدراج الرياح • وكانت السياسة البريطانية فى فلسطين جامدة بصورة عجيبة • الورقة البيضاء هى القانون ، والقانون هو الورقة البيضاء • دخول اليهود أرض اسرائيل ممنوع • مشكلة أرض اسرائيل قد انتهت الى حل نهائى بموجب الورقة البيضاء •

نزلت ليلة ظلماء — بل هى أشد الليالى جميعها اظلاما — بالشعب اليهودى فى أوروبا ، فقد قتل مليون ونصف مليون من الأطفال اليهود على قطارات الموت الى غرف الغاز • ملايين الرجال والنساء يقتلون رميا بالرصاص أو يغرقون أو يحرقون أو يخنقهم الغاز أو يدفنون أحياء • عندما ينقلب الرجل وحشا ضاريا ، لا يعتبر اليهودى مخلوقا بشريا • لا مكان هنا للوهم أو الغرور • لم يكن النازيون وأصحابهم هم وحدهم الذين يعتبرون اليهود جراثيم يجب أن تباد • ان العالم بأسره — ذلك العالم الذى يطلق على نفسه اسم العالم « المتمدين » — بدأ يعتاد على فكرة أن اليهودى يحتمل ألا يكون على شاكلة سائر البشر ، تماما كما لا يشفق العالم على آلاف الماشية التى تساق الى حظائر الذبح فى مجازر « شيكاغو » ، لا تأخذه الشفقة بعشرات الألوف من بنى الانسان التى تؤخذ كالأغنام الى المذابح فى « تريبلينكى » • ان العالم لا تأخذه شفقة بالمذبوحين ، ولكنه يخدم أولئك الذين يحاربون للخير أو للشر • ذلك هو الحق المبين •

لقد عرفت هذه الحقيقة البشعة شعوب الدنيا جميعا عدا اليهود ، وذلك هو السبب فى ان أعداءنا كانوا قادرين على أن يتصيدونا ويسفكوا دماءنا كلما أرادوا •

فرضت بريطانيا حصارا اقتصاديا على الأرض التى تحتلها ألمانيا • تلك هى حربها ضد النازية • الا أنها أيضا فرضت حصارا سياسيا ضد

اليهود فى الأراضى التى يحتلها الألمان ، فساعدت النازية بعملها هذا ٠ لم يكن المقصود أن يؤدى هذا الحصار السياسى الى مثل تلك النتيجة التى أدى اليها ، الا أنه ساعد فعلا على تحقيق غرض من أغراض النازية هو تدمير جماهير الشعب اليهودى ، أو ـ على حد تعبير وزارة الخارجية البريطانية ـ أدى الى الحد من عدد اليهود المحتمل تدفقهم الى فلسطين الى أدنى قدر ٠ وكان الحد من عدد اليهود الراغبين فى الذهاب الى فلسطين الى أقل ما يمكن أمرا جوهريا لتحقيق المخطط البريطانى الرئيسى ٠ ظل جوهر هذا المخطط ثابتا وان تعددت مسمياته وكانت طبيعته مرنة مرونة الرأى السائد : فالورقة البيضاء واحدة من مسمياته كما كان شعار تقسيم لجنة «بيل» لسنة ١٩٣٧ مسمى آخر من مسمياته ، وكان مشروع «موريسون ثالث هذه المسميات ، ومشروع « بيفن » رابعها ٠ ظهر ذلك المخطط أحيانا وكأنه « اتحاد » أو « قسمة » أو « استقلال ذاتى » أو « استقلال تام » ، وكان الهدف من كل ذلك هو الحفاظ على السيطرة البريطانية فى أرض اسرائيل ، مع وجود عدد من اليهود تحت الحماية البريطانية وسط بحر عربى يتحكم فى أمواجه سادة البحار التقليديون ٠

تميز سادة البحار ، حكام الأمواج ، بالأفق الواسع ، وهم دائما يحسبون الأهداف ويقدرون خطى خصومهم المحتملة ، فلقد وقعت وثيقة « سرية » ـ مكتوبة بهذه الروح من « المكتب العربى » المعروف بالقاهرة فى أيدى « ارجون تسفاى » عام ١٩٤٥ ٠ كان المكتب التابع لوزارة الخارجية البريطانية يتطلع الى ما بعد الانتصار على هتلر ، فافترض ـ ولم يكن ذلك عن غير اقتناع ـ أن عدد اليهود الذين يرغبون فى الذهاب الى أرض اسرائيل بعد الحرب سيكون قليلا جدا ، الا أنه افترض كذلك أن اليهود سوف يحاولون مقاومة تنفيذ المخطط البريطانى ، حتى ولو استخدموا القوة ٠ قد يسمح بزيادة طفيفة فى عدد اليهود فى أرض اسرائيل لتهدئة محدثى الشغب ، وهذه الزيادة من شأنها أن تجعل عدد اليهود ثلث عدد السكان ٠ ويسمى ذلك فى لغة الديمقراطية كما تفسر فى « داوننج ستريت » بالحقوق المتساوية ، ويسمى بالعزل أو الحى اليهودى فى لغة

الحقائق اليهودية ، وهو الهلاك فى لغـــة تاريخ « العزل » أو « الحى اليهودى » (Ghetto)

أدرك محركو القاهرة أنفسهم أن تنفيذ المخطط ليس أمرا هينا ، فكتبوا فى وثيقتهم أن « أرجون تسفاى ليومى » هى وجماعة « شتيرن » سوف تقومان بأعمال ارهابية وسوف تنضم اليهما « الهاجاناه » فيما بعد ويحتمل ان تتحد مع « أرجون » ، تاركة جماعة « شتيرن » لتعمل وحدها مستقلة بنفسها • وسوف تنظم الهجرة غير المشروعة بمعدل كبير وستبذل الجهود للوقيعة بين السلطات البريطانية (فى القدس وفى القاهرة) وبين حكومة لندن ، وسيعمل النفوذ اليهودى جادا فى الولايات المتحدة ، وذلك النفوذ عامل جد خطير • ومع هذا افترض مكتب القاهرة أن من المحتمل التغلب على المقاومة اليهودية ، ولذا كان من الضرورى فى المقام الأول ضمان اقتناع الحكومة الأمريكية بالمخطط البريطانى •

كان هذا أمرا بالغ الأهمية بالنسبة للحكومة البريطانية ـ ذلك لأنها تعتبر أن اليهود يعتمدون لدرجة كبيرة على التأييد الأمريكى ، كما أنها من جهة أخرى تعلم أن الخمسة الملايين يهودى فى الولايات المتحدة يشكلون عاملا هاما فى الانتخابات الأمريكية • تلك حقيقة مؤسفة ، الا أنه لا سبيل لتبديلها ، وبناء على ذلك كانت الحكومة البريطانية ترى أهمية ســبقها لليهود لضمان الموافقة الامريـكية الباكرة على مخططها ، فأعدت لذلك مشروع الاستمالة أو الاقناع •

بذلت الحكومة البريطانية قصارى ما تستطيع أن تبذله للتأثير على الأمريكيين بأنه ولو أن الحرب مع ألمانيا وايطاليا واليابان مازالت دائرة الا أنه ينبغى معالجة روسيا السوفيتية يقينا فيما بعد ، وفى هذا الكفاح ستكون بريطانيا فى خط الدفاع الأمامى عن الديمقراطية والحرية ، وعلى هذا ينبغى للولايات المتحدة ألا تعوق الخطط البريطانية للشرق الأوسط • وكان هذا التعليل البسيط مبشرا بنتائج طيبة • واذ تســاند أمريكا البريطانيين ، لا يجرؤ اليهود على معارضتهم ، ولن يسمح قطعا للهاجاناه التى تشرف عليها السلطات اليهودية الرســمية بالاندماج فى أعمال الارهاب • أما من جهة « الارهابيين » الذين لا يخضعون لنظام السلطات فى الظاهر فسوف تقع مسئولية سلوكهم سلوكا « حميدا » على عاتق الزعماء اليهود الذين سوف يجبرون على المشاركة فى تصفية « الارهاب » ، وهكذا بدا الأمل براقا ، يبشر بالخير !

(٤)

كان فى مواجهة هذه الخلفية أن ثار التمرد اليهـــــودى فى أرض اسرائيل وكانت الحقيقتان الأساسيتان ـ حملة ابادة اليهود فى أوروبا ، والأبواب المغلقة أثناء تلك الحملة بالذات ـ هما السبب المباشر لانطلاق هذا التمرد ٠ وأركز على كلمة « المباشر » لأنه فى كل حرب وفى كل ثورة يجب أن تتميز الأســـباب الأساســـية ، التى تؤدى الى الحروب أو الثورات بصورة حتمية ، عن الأسباب المباشرة التى تحدد وقت نشوبها فحسب ٠

ان القحط الذى حدث فى فرنســـا مع نهاية القرن الثامن عشر ، وضريبة الملح ، لم يتسببا فى قيام الثورة الكبرى ، ولكنهما عملا فقط على تعجيل بدايتها ـ تماما كما أدت ضريبة الشـــاى الى اشـعال نار حرب الاستقلال الأمريكيه ٠ وبالمثل جلب حادث نوافذ (براج) حرب الثلاثين سنة ، وأدى اغتيال « سراجيفو » الى نشوب الحرب العالمية الأولى ، كما احالت قضية « دانزج » عام ١٩٣٩ الكفاح الحتمى بين ألمانيا وبقية العالم الأوروبى الى حقيقة واقعة ٠ كذلك فعلت هذه القوانين التاريخية فى قضية نهضة أرض اسرائيل ، وان كان ذلك بمعدل مختلف اختلافا كبيرا ، فالنهضة مسألة لا مفر منها ٠ ولسنوات عديدة طعن الزعماء الصهيونيون فى فكرة الاستقلال العبرى والدولة اليهودية ، الا أن « فالديمير يابوتنسكى »حذرهم من أنه ما من أحد يؤمن باحتجاجاتهم من البريطانيين أو العرب أو العالم بوجه عام ، وقال انهم جميعا قرأوا التوراة ، ثم انه اذا ما بدأنا ، نحن اليهود ، فى العودة الى أرض اسرائيل فانه يجب أن يكون هدفنا واضحا ، وهو أن أرض اسرائيل ينبغى أن تكون لنا مرة ثانية ، وأن هذا هو هدفنا على أية حال ٠

انه يجرى فى دمائنا ، وأن نشيدنا الوطنى ينادى به ٠ لم يلحظ البريطانيون التغيير فى النص الذى أدخل على مقطع « أرض اسرائيل » من النشيد الوطنى اليهودى ٠ كان اليهود فى الدياسبورا (يهود الشتات) يتغنون بأملنا القديم فى أن نصبح شعبا حرا فى بلدنا ، شعبا حرا ٠٠ فى بلدنا ٠ ان مثل هذا الشعب لا يمكن أن يحكمه الأجانب ، ولابد أن يحرر نفسه من نيرهم ، ولن يكون الجهد للتحرر الا مسألة وقت ٠

وما من شك فى أنه حتى لو لم تكن هناك الابادة فى أوروبا ،وحتى لو لم يكن البريطانيون جامدين فى ســـياستهم ، فلا بد من أن يتفشى التمرد اليهودى بصورة أو بأخرى ضد أى حكم أجنبى يحاول أن يفرض

نفسه لأية فترة من الزمن على الشعب الذى يعشق الحرية • الا أن هذين العاملين اللذين حدثا فى آن واحد ، ويهددان فى نفس الوقت بتبديد أمال اسرائيل وابادة الشعب اليهودى ، هما اللذان قررا وحددا موعد انفجار « التمرد » •

ومن جهة أخرى فانه لا يقل عن ذلك وضوحا أنه اذا لم تكن هناك ـ رغما عن اشتراك هذين العاملين ـ القوة والهمة فى جانب اليهود ليقوموا بالتمرد ، اذن لغربت الشمس عن شعبنا ، ولوضع المخطط البريطانى موضع التنفيذ ، ولما قامت دولة اليهود الى اليوم ، ولأصبحنا فى معزل يحاول أعداؤنا أن يحيلوه الى مقبرة • ولأسباب عدة لا ترجع الى المتمردين لم يؤد التمرد الى الخلاص التام ، فتأسست الدولة فى جزء فقط من اقليمنا ، ولكنها حالت ، على أية حال ، دون الدمار الشامل •

لقد هب التمرد من الأرض • ان القصة اليونانية القديمة ، قصة « أنتايوس » والقوة التى استخدمها من الالتصاق بالأرض الأم ، ما هى الا أسطورة خيالية • أما القوة المجددة التى انبعثت فينا ، وبخاصة فى شبابنا ، من الالتصاق بتراب أرضنا القديمة ، فهى ليست أسطورة وانما هى حقيقة ، ولم يكن لموظفى وزارة الخارجية البريطانية أن يتصوروا هذا عندما كانوا يضعون مخططهم • ماذا كان فى استطاعتهم أن يتنبأوا به عن هذه القوى الخفية التى استخدمها « هرتزل » ليتحدث عن « الأشياء التى لا وزن لها » ؟ (١) ان خطأهم لم يكن خطأ حسابيا ، فهم لم يخطئوا فيما يتعلق بعدد اليهود الذين يريدون المجيء الى أرض اسرائيل ولكنهم أخطأوا فيما يتعلق بالروح المعنوية لدى اليهود ، فلم يستطيعوا أن يسبروا غور سمة اليهودى الذى أتى الى أرض اسرائيل • لقد افترضوا أن اليهود فى أرض اسرائيل أيضا سيظلون هيابين يلتمسون الحماية • ان مسلك اليهود ، أو بالأحرى ان تصرف زعمائهم الرسميين ـ ذلك التصرف الذى كانوا يعبرون عنه بسياستهم المعروفة جيدا ، سياسة ضبط النفس (هافلاجاه) (٢) ـ يبدو

---

(١) هكذا استخدم «بسمارك» هذه العبارة •

(٢) أثناء اضطرابات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ اتبعت «الهاجاناه» سياسة عرفت بالهافلاجاه ،وهى كلمة عبرية معناها ضبط النفس ، ومؤداها عدم الأخذ بالثأر الا فى حالة الهجوم المباشر • ونتيجة لهذه السياسة كانت المبادأة فى أيدى العرب دائما فلم يتعرضوا لأى هجوم مضاد ونقصت مخاطرهم الى الحد الذى كانوا يتعرضون له أثناء الهجمات التى كانوايحددون =

وكأنه هو الذى برر هذا الفرض وأكده ، الا أن هذه القوى غير المنظورة التى أنقذت الشعب اليهودى من الفناء قوضت الافتراض البريطانى • لقد ظهر « فلاديمير يابوتنسكى » فعلم جيلا كاملا أن يقاوم وأن يكون مستعدا للتضحية ، مستعدا للتمرد ، مستعدا للقتال • وظهر « دافيد رازيل » أعظم عقلية حربية يهودية فى جيلنا ، لينفذ العمل الحاسم ، أول هجوم بالاسلحة اليهودية • برز جيش المقاومة السرى الذى يعمل فى الخفاء (تحت الأرض)ممثلا فى منظمة « أرجون تسفاى ليومى »، كما برزت منظمة سرية أخرى تسمى « جماعة المحاربين من أجل حرية اسرائيل » (١) • هب جيل جديد لا يعرف الخوف ، فبدأ يحارب بدلا من أن يتوسل • منذ نحو ألفى سنة تقريبا لم يحمل اليهود السلاح بوصفهم يهودا ، وكان على أساس نزع السلاح الشامل لليهود ، كما كان على أساس سيكولوجية طبيعية ، أن وضع أولئك الذين كانوا يضطهدوننا مخططهم • لم يدركوا أن الظاهرتين كانتا معتمدتين احداهما على الأخرى ، فقد هجرنا الأسلحة عندما نفينا من أرضنا ، ومع عودتنا الى أرض آبائنا استرجعنا قوتنا وحملنا السلاح •

لقد أعاد الدم التمرد أيضا الى الحياة ، فقد كان دم شعبنا يهيب بنا من التراب الأجنبى الذى أريق عليه ، والتهب التمرد فى قلوبنا وزود المتمردين بالقوة • وعندما تأكدت التقارير البشعة الواردة من أوروبا ، عرفنا أنه يجب علينا أن نحارب لا من أجل حرية الشعب فحسب ، بل من أجل بقائه أيضا • هل كان فى أيدينا أى شىء يمكن أن نفقده ؟ لم يكن ذلك السؤال لمجرد البلاغة والفصاحة • ان هناك شعارات معينة ذائعة عادة ما تكون فاعليتها فى نتيجتها أكثر من جديتها فى محتواها • فمثلا يتضمن الشعار « سوف نحارب الى آخر قطرة من الدم » مبالغة شديدة ، حتى ولو كان متعلقا ببعض من أشهر معارك التاريخ • ومن مثل هذا الشعار أيضا القول « اننا لا نملك شيئا لنخسره » ، فالعادة أن الناس لا يحاربون حتى آخر قطرة من الدم ، ومن الطبيعى أنهم دائما ما يكون عندهم شىء ما ليخسروه •

مع هذا ، كانت قضيتنا فريدة فى بابها • فعندما بدأنا تمردنا ضد نير الظلم وضد الاراقة الطاغية للدم اليهودى ، كنا على يقين من أن شعبنا

= وقتها حسبما يلائمهم ويقومون بها على أرض المعركة التى اختاروها لأنفسهم بحيث تناسبهم وكان أن قامت « ارجون تسفاى ليومى » على عكس هذه السياسة ، وكان ذلك فى سنة ١٩٣٧ •

(١) دائما ماأطلق عليها اسم « جماعة شتيرن » بعد قائدها « أبراهام شتيرن » •

لم يكن لديه حقا أى شيء ليخسره اللهم الا احتمال الابادة • لم يكن هذا مجرد كلام يقال ، ولم يكن مبالغة في القول ، وانما كان قول الحق والصدق، زاد من قدرة المتمردين على التضحية بغير حدود • والقدرة على التضحية هى معيار التمرد واليها ينسب النصر • وعندما تكون مستعدا للوقوف أمام « زيس » ذاته (أو رب الأرباب عند قدماء الاغريق) لكى تجلب النار للانسانية فانك تستطيع أن تحقق ثورة النار ، وعندما تواظب على التأكيد بأن الأرض تدور حول الشمس ، حتى ولو كنت واقعا تحت تهديد آله التعذيب ، فانك لن ترفض الهزيمة فحسب ، بل انك حتما سوف تحقق النصر المبين لفكرتك ، فكرة الحق • وقصارى القول أنه ليست هناك قوة أكبر من الاستعداد للتضحية بالذات ، تماما كما أنه ليس هناك حب أعظم من حب الحرية • ان تراب بلد المتمردين العبريين ودم شعبهم المراق قد غرسا فيهم القوة والحب على حد سواء •

وجد التغيير الذى طرأ على الروح اليهودية بسبب هاتين القوتين تعبيرا عنه فى الأقوال والأفعال ، فى المعركة وفى قاعة المحكمة ، فلم يلتمس المتمردون الذين مثلوا أمـــام المحاكم العســكرية العفو أو الرحمة • لم يحدث البتة شيء من هذا ولو مرة واحدة • فاما أنهم ظلوا صـــامتين لكيلا يفشوا المعلومات واما أنهم نقلوا حربهم الى قاعة المحكمة يهاجمون القاضى الذى يهددهم بالمشنقة ، يهاجمونه بدلا من الدفاع عن أنفسهم ، يوجهون الاتهام بدلا من أن يلتمسوا العفو • وفيما يلى ما قاله «فاينشتاين» ذو الذراع الواحدة ، وهو واحد من أبطال جيلنـــا العظمـــاء ، للقاضى البريطانى فى واحد من أكثر هذه البيانات حدة وبلاغة :

« نظام حكم المشانق ــ ذلك هو نظام الحكم الذى تريدون اقامته ، نظام الحكم الذى يجب أن يكون منارا للبشرية • انكم فى خبثكم الأحمق تفترضون أنكم بهذه الوسيلة سوف تفلحون فى تحطيم روح شعبنا ــ ذلك الشعب الذى أصبح الاقليم كله مشفقا عليه • انكم مخطئون ، ولسوف تعلمون أن هذا الذى تقاومونه انما هو الفولاذ بعينه ، فولاذ مسقى بنار الحب والضغينة ، حب الوطن والحرية ، والضغينة للظالمين الغزاة • انه فولاذ ملتهب يحرق ، وانكم لن تكسروه ولكنكم سوف تحطمون أيديكم •

ما أعمى بصائركم أيها البريطانيون الطغاة ! ألم تعرفوا ، بعد ، من ذا الذى تحاربونه فى هذا الكفاح المنقطع النظير فى تاريخ البشرية ؟ هل تظنون أننا نرهب الموت ، نحن الذين ســمعنا ، عددا من السنين ، جلجلة العربات التى كانت تحمل اخوتنا وأبناءنا وخيرة قومنا الى المذابح

التى لم يكن لها ــ هى الأخرى ــ نظير فى التاريخ ؟ نحن الذين كنا نسأل، ولا نزال نسائل أنفسنا كل يوم ، كيف أصبحنا أفضل منهم ، كيف أصبحنا أفضل من الملايين من اخواننا ؟ أين يكمن فضــلنا ؟ لقد كان مستطاعا أن نكون بينهم وأن نكون فى عدادهم أيام الفزع الأكبر ، وفى اللحظات التى سبقت موتهم ٠

ان ضميرنا يجيب اجابة واحدة على هذه الأسئلة المتكررة ، تلك هى أن حياتنا لم تدخر لكى نعيش فى الاستعباد والاضطهاد ولكى ننتظر « تريبلينكى » جديدة ٠ لقد أبقى على حياتنا لكى نضمن العيش والشرف والحرية لأنفسنا ولشعبنا ولأبنائنا وذرياتنا ٠ لقد وهبت لنا الحياة لكيلا نكون صورة مكررة لما حدث هناك ، ولما حدث ولا يزال محتملا أن يحدث هنا تحت حكمكم ، حكم الغدر ، حكم الدم ٠

ذلك هو السبب الذى من أجله لن نخاف ٠ لقد تعلمنا ــ وياله من ثمن لتضحيات باطلة ! ــ أن هناك حياة أدنى من الموت ، وموتا أعظم من الحياة ٠

ان هذه الكلمات التى تفوه بها قائلها على حافة الموت كانت تعبيرا عن الشعور الذى فاض على المتمردين ٠ وقد تطرق نفس هذا الشعور الى النداء العام للتمرد الذى أعلنته « ارجون تسفاى ليومى » فى طول أرض اسرائيل وعرضها فى أوائل سنة ١٩٤٤ ــ ذلك النداء الذى اســتعرض الماضى ، وحدد المطالب السياسية للشعب اليهودى فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ورسم معالم الطريق للعصيان والكفاح ٠ وقد جاء فى ختام ذلك النداء :

« انقضت سنوات أربع منذ أن بدأت الحرب ، وقد تبخرت الآمال التى كانت تفيض بها قلوبكم حينئذ دون أن تترك أثرا ٠ لم نحصل على منزلة دولية ، لم يقم لنا جيش ، لم تفتح لنا أبواب الاقليم ٠ قد ختم نظام الحكم البريطانى بخاتم خيانته المخزية للشعب اليهودى ٠ ليست هناك أية حكمة فى وجود هذا النظام فى أرض اسرائيل ٠

سوف نتخذ قراراتنا من غير ما خوف ٠ لا مهادنة بعد اليوم على أرض اسرائيل بين الشعب اليهودى والادارة البريطانية التى تسلم اخوتنا لهتلر ٠ ان شعبنا فى حرب ضد هذا الحكم ، حرب حتى النهاية ٠

سوف تتطلب هذه الحرب تضحيات كثيرة غالية ، الا أننا سنقدم عليها لأننا نشعر بأننا أوفياء لأبناء شــعبنا الذين ذبحوا ولا يزالون يذبحون ٠ اننا نحارب من أجلهم ٠

وهذا ، اذن ، هو مطلبنـــا : نقل السلطة في أرض اسرائيل فورا الى حكومة عبرية مؤقتة •

سوف نحارب ، سيحارب كل يهودى فى ارض اسرائيل ، وسيكون رب اسرائيل ، رب الأرباب فى عوننا • لن نتراجع بعد اليوم • الحريه أو الموت !

شيدوا حائطا حول شبابكم المحاربين • لا تتخلوا عنهم •

ان الشباب المحاربين لن يحجموا عن المحنـــة ولن يتخلفوا عن التضحية ولن ينكصـوا بسبب الدم والمعـاناة • لن يستسلموا حتى يجددوا أيامنا الغابرة ، ويضمنوا لشعبنا الوطن والحرية والشرف والعيش والعدل • واذا ما قدمتم لهم العون فانكم سوف ترون فى أيامنا هـذه تحقيق العودة الى صهيون ، واسترجاع اسرائيل » •

(٥)

لم يكن هذا النداء معدا للنشر فى يناير سنة ١٩٤٤ ، وانما كان قد أعد لذلك فعلا فى النصف الأول من عام ١٩٤٣ ، فقد وضعت صيغته عندما كنت لا أزال جنديا (لم أكن يوما ما أكثر من مجرد جندى) فى جيش أجنبى ، الا أنه بسبب ظـروف داخل ارجون تسفاى ليومى وخارجها تأخرت ساعة الصفر • وها هى ذى قد حانت ، وخرجنا للحرب • لبسنا درع الحرية • أعلنا مطلبنا الخاص : حكومة يهودية محلية • تعهـدنا بألا نتراجع • فتحنا فصلا جديدا لم نكن لنتكهن بنهايته • كان حاضرنا مريرا ومستقبلنا غامضا ، ولم نكن نستطيع أن نفعل شيئا الا أن نؤمن — وكان ايماننا حقا — بأن أعمالنا وتضحياتنا ودماءنا ومعاناتنا هى التى ستأتينا بالنصر •

قبل نشر بيان التمرد ، فكرت قيادة أرجون طويلا فيما اذا كان نشره أمرا مرغوبا فيه اطلاقا نظرا لتأخر صدوره • هل الأفضل أن يبدأ العمل على الفور دون حاجة الى التفسيرات ؟

كان بعض زملائى يرون أن الأســباب الخارجية والداخلية عـلى السواء تملى علينا أن نبدأ بهجوم حربى لا بخطاب سياسى ، وكان لجدلهم وزن راجح • أن شعبنا شعب عملى • انهم لا يأبهــون للأقوال ما لم تدعمها الأفعال ، وبناء على ذلك تركزت مجادلة زملائى فى أن الشعب لن يأخـذ بياننـا مأخـذ الجد ، انهم سوف يقرأونه ثم يحنون رءوسهم

ويقولون فيم أنفسهم انهم قرأوا من قبل ما هو أفضل وما هو أشـد ، ثم يمضـون الى حال سبيلهم دون أن يتأثروا بشيء • أما عن رجال صفوفنا نحن فقد كان تصميمهم على الحرب لا يتطرق اليه أى شـك ، ولكن كم من مرة قيل لهم ان القتال سوف يبدأ ؟ كانت الوعود التى لم تتحقق كثيرة حقا ، غير أن النية للوفاء بها كانت جد متوافرة • لقد كان اليأس ملحا مريرا • ان وعدا جديدا وبيانا مزيدا لن يستهويا قلوبهـم ، بل انهم سـوف يقرأون النـداء بدورهم ثم يحنون رءوسهم ويقولون انهم سمعوا بهذا كله من قبل •

رغم أرجحية وزن هذه المجادلة التى دعمتها حقيقة كون العمل « الأول » خليقا بأن يهيىء لنا الميزة الحربية ، ميزة المفاجأة التـامة ، الا أننا قررنا اصدار النداء ، وكان واضحا لنا أنه مهما تطورت الأمور فاننا كنا مقدمين على كفاح طويل • وما من عملية بمفردها ، مهما كان عظيما وقعها ، يمكن أن تكون فاصلة • ان علينا أن نقوم بعمليـات كثيرة • سوف تكون هناك معاناة شديدة • سوف نطارد مطاردة لا هوادة فيها • وبناء على ذلك كان من واجبنا أن نفصل مبادىء الكفاح وأهدافه • يجب أن يعرف العالم لماذا نحارب ، وينبغي للشعب أن يعرف لماذا يجب عليه أن يكون على أهبة الاستعداد • يجب أن يعرف الشباب السبب الذى من أجله يخاطرون بحياتهم • كنا نعرف كذلك أن حربنا لن تكون حربا عسكريا وحسب • ان قوة الباغين علينا ليست متناسبة مع قوة المتمردين ، وكان علينا أن نعدل كفة الميزان بعوامل أخرى • كان العامل السياسى واحدا من هذه العوامل ، ولكى نكون أكثر تفصيلا يجب ان يكون النضال نضالا سياسيا تلاحقه الوسائل العسكرية ، ومن ثم فان التفسير السياسى الواضح الدائم ينبغي أن يصاحب العمليات الحربية • هكذا كان النداء المطول ، وهكذا كان علينا أن ننشره • عرف هذا النداء فى مجال أعمال المقاومة السرية الخفية ـ وان لم يكن ذلك بالأمر الشائع ـ باسم « بالابرا » •

عندما سمعت كلمة « بالابرا » لأول وهلة لم أكن أعرف ماذا تعنى ، وعندما اكتشفت بعد الاستقراء أنها كلمة أسبانية وأن معناها « كلمة » لم أستطع أن أدرك الصلة ، الا ن أصدقائى أخبرونى بأنها تحمل أيضا معنى « القيل والقال العقيم » أو « الثرثرة » ، وأنها أطلقت على ندائنا بمعرفة صاحب المطبعة الذى تولى طبعه ، وهو رجل سفاردى تعهد ، بمعاونة أبنائه ، عمليـة طبع مطبوعاتنا ونشراتنا السرية عدة سنين • الا أنه فى تلك المرحلة الباكرة كان عصبيا لدرجة ما ، بطبيعة الحال •

ولما كان يريد أن يتخلص من ذلك النداء بأسرع ما يمكنه فقد شكا من طوله الزائد ، قائلا باختصار : « بالابرا » •

بينما كانت لدى صاحب المطبعة أسباب شخصية خاصة به لها ما يبررها ، كانت داعية لعبارته التى عبر بها عن الاستخفاف بالنداء ، كان هناك ، لسوء الحظ ، كثير غيره ممن اتفقوا معه فى الرأى • وكان من بينهم الأصدقاء والأعداء على السواء ، لم يأخذ أحد منهم نداءنا مأخذ الجد • لم يصدق أحد منهم أنه سوف تكون هناك أية متابعة أو متابعة للمتابعة • ولقد سمعت بتعليقات أنموذجية للثناء والمديح : « بيجين خطيب شعبى ، وهو الآن ، وقد ذهب للعمل مع المقاومة السرية تحت الأرض ، لا يستطيع أن يلقى الخطب ، ولذا فانه بدأ يكتبها ويعلقها على الحوائط ، بالابرا حقيقة » !

ويبدو أن تلك كانت أيضا وجهة نظر البريطانيين • كان من بين المتشككين « ويلكين » وهو ضابط معروف من ضباط ادارة المباحث الجنائية • كان « ويلكين » ماكرا كالثعلب ، وكان واحدا من الأعضاء القلائل القادرين فى القوة البريطانية البوليسية • لقد ارتقى من الصفوف (أى من تحت السلاح) ، وكان يعرف اللغة العبرية معرفة جيدة ، وكان خبيرا فى علم النفس • وعندما يلقى القبض على شخص مشتبه فى أمره كان يلقى عليه السؤال المحير :

« الى أية منظمة ينتمى : جماعة ارجون ، أو جماعة شتيرن ؟ » • فماذا كانت الاجابة على هذا السؤال : « لا هذه ولا تلك » ، هاج « ويلكين » وأرغى وأزبد قائلا :

« ماذا ، هل أنت خائن ؟ ان هتلر يقتل اليهود فى أوروبا ، ولا تزال الورقة البيضاء سارية المفعول ، ومع هذا لا تنتمى الى المقاومة السرية ؟ » •

حقيقة ، انه لم يفلح دائما ، الا أن بعضا من الأسرى الذين وقعوا تحت قبضته كانوا يلتهمون ذلك الطعم •

مع اشتداد كفاح المقاومة السرية رقى « ويلكين » ونقل الى رئاسة ادارة المباحث الجنائية فى القدس حيث قتل أخيرا •

عندما أخبر « ويلكين » ، لدى صدور ندائنا المسهب ، بأن اضطرابات شديدة على وشك أن تحدث ، وان ارجون تسفاوى ليومى أعلنت

الحرب على نظام الحكم البريطانى ، وأنها تدعو الى التمرد العام ، ظل هادئا ثم قال فى استخفاف : « ليس هناك ما يدعو الى القلق » .

كان ذلك هو رد الفعل العام فيما بين اليهود والبريطانيين : استهزاء كثير ، وايمان قليل .. بالابرا ! الا أننا ، نحن الذين نزلنا الى أعماق المقاومة السرية لكى نثير الكفاح من أجل الحرية ، عرفنا أن الأمر كان جد خطير . لم يبق أمام شعبنا الذى هلك منهم من هلك (١) سوى طريق واحد ، هو طريق التمرد . ان الطريق الوحيد هو ، بحسب طبيعة الأشياء ، الطريق السليم . لقد ألقيت الكلمتان اللتان كانتا سبب تغيير التاريخ ، أو صياغة التاريخ فى مضمار أرض اسرائيل ، الا وهما الحرية والموت : كلمتان عظيمتان بسيطتان !

لا مجال اليوم للتراجع . لقد أزيح عبء ثقيـــل كان جاثما على صدورنا . كان حماسنا بالغا حقا ، ولكنها لم تكن سوى البداية . الى متى يمتد الكفاح ؟ أية تضحيات يجب علينا أن نقدم ؟ الدم المسفوك ، العائلات الثكلى ، الأطفال اليتامى ، الأبناء المهدمون ، الأمهات المترملات.. يا لها من مسئولية مخيفة !

الا أننا كنا على علم دائم بما كانت تدبره لنا السياسة البريطانية. كانت أصداء عربات الموت فى أوروبا تجلجل فى آذاننا ، فقويت قلوبنا ضد الشك وضد الحلول المتقابلة .

أية فائدة ترجى من كتابة المذكرات ؟ ما قيمة الخطب ؟ اذا هاجمك ذئب فى الغابة ، أفتحاول أن تقنعه بأنه ليس من الانصاف أن يمزقك اربا ، أو بأنه ليس ذئبا مفترسا ولكنه حمل وديع ؟ هل تبعث اليه بمذكرة ؟ كلا ، لم يكن هناك طريق آخر . اذا لم نحارب فاننا سوف نفنى . كانت الحرب هى الطريق الوحيد للخلاص .

---

(١) لعل مما يستحق الاشارة اليه أن الشعب اليهودى الذى كان يبلغ تعداده نحـو ستة عشر مليونا ونصف مليون نسمة منتشرين فى أنحاء العالم فى سنة ١٩٣٩ قـد نقص بمقدار ستة ملايين ذبحوا على أيدى الألمان بين هذه السنة وسنة ١٩٤٥ ففى اقل من ست سنوات قتل مع سبق الاصرار أكثر من ثلث يهود العالم وبتطبيق هذه النسب على سكان بريطانيا تتضح وفاة ١٦مليونا ، أو شخص واحد من كل ثلاثة أشخاص . واليوم يقبل كثير من الناس هذه الحقائق على أعتبار أنها أمر غير ذى بال . ان فحواها الخطير لايدركه ســوى القليـــــل .

عندما قال « ديكارت » : « انى أفكر ، ولذا فأنا كائن » ، فقـــد نطق صدقا وقال حقا • لقد تفوه بفكرة عميقة حقا ، الا أن هناك فترات فى تاريخ الشعوب عندما لا تكون الفكرة وحدها شاهدا على وجودها ، فان الشعب قد يفكر ، الا أن أبناءه قد يتحولون بأفكارهم ، وعلى رغم منهم ، الى قطيع من الرقيق ، أو الى صابونة •

وتحين فترات أخرى حيث ينطق كل ما فيك بأن احترامك الذاتى ككائن بشرى يكمن فى مقاومتك للشر والعدوان •

اننا نحارب ، ولذلك فنحن كائنون !

الفصل الخامس

منطق التمرد

(١)

انه لخطأ جسيم أن نستنتج مما كتبت فى الفصل السابق أن المصدر الرئيسى لقوة المتمردين وتحملهم هو احساسهم • ان الظن بأن التمرد كان مجرد « مغامرة بطولية » لشعب « يائس » لم ينته به الأمر بمحض الصدفة الى فشل أو كارثة هو ظن خاطىء كذلك ، بل انه أكثر من خاطىء ، انه الحماقة بعينها • ومع هذا فقد كان ذلك هو افتراض لورد « صمويل » الذى كان يوما مندوبا ساميا فى فلسطين ، ففى مناقشة بمجلس اللوردات البريطانى فى صيف عام ١٩٤٦ دعا زملاءه اللوردات الى مقارنة هذا الذى كان يجرى فى أرض اسرائيل تحت الحكم البريطانى فى القرن العشرين بذلك الذى حدث فى القرن الأول عندما كان الروم يحكمون هناك • قال انه هناك الآن هيئة تعرف باسم « أرجون تسفاى ليومى » ، وقد كان هنـــاك منـذ قرون مضت هيئـة أطلق عليها اسم «زيلوتس» أو «المتحمسون» قدمت ضروبا من البطولة الرائعة والتضحية بالذات فى موقفها الباسل ضد عظمة الامبراطورية الرومانية وتساءل لورد صمويل : لكن ماذا كانت النتيجة ؟ هلكت جماعة « زيلوتس » عن آخرها ففى حصار « مسعدة » التاريخى قتل الناجون من الموت وزوجاتهم وأطفالهم ثم قتل بعضهم بعضا حتى لا يبقى أحد منهم على قيد الحياة فيقع فى أيدى الروم عندما يدخلون الحصن • كانت هذه ضربة قاضية للشعب اليهودى الذى نفى من بلده وتشتت فى أقطار الأرض الأربعة • ثم ذكر اللورد صـمويل اللوردات بأن هـذا العمل العظيم من أعمال

البطولة لم يحقق شيئا ، وينبغى للشعب اليهودى أن يحذر من أن يسلك نفس الطريق ٠

كلنا نعلم أن الأحداث التالية اثبتت أن اللورد « صمويل » كان مخطئا ٠ ان بطولة ارجون لم تكن غير ذات شأن عظيم ، بل ان شيئا ما قد تحقق ٠ ان التمرد ضد البريطانيين لم ينته الى ما انتهى اليه التمرد ضد الروم ٠ انها ليست « مسعدة » أخرى وانما هى « موديعين » (١) ، التى ترمز الى التمرد العبرى فى عصرنا هذا ٠ وسبب ذلك بسيط جدا ، فالتمرد الأخير لم يكن ناتج الانفعال الطبيعى ، بل انه كان يسترشد بالادراك السليم والمنطق السياسى ٠ لقد خلق الانفعال بطولته واستحضر المنطق استراتيجيته وأكدت الاستراتيجية السليمة النصر ٠

فى أولى مراحل التمرد ، أحرزنا بالفعل غرضاً استراتيجيا هاما ٠ نجحنا فى احباط العامل العربى المحلى لمدة عشرين سنة كانت المبادرة العسكرية والسياسية خلالها فى أيدى العرب ٠ وبعبارة أكثر وضوحا، كانت الادارة البريطانية طوال فترة الانتداب تفرض المبادرة على العرب، وقد أوجد ذلك الحجة لعدم السماح لكثير من اليهود بدخول البلاد ، من جهة ، كما كان من جهة أخرى ، داعيا لوجود قوات بريطانية فى أرض اسرائيل لحماية اليهود ٠ والحقائق التاريخية للهجمات العربية معروفة : المذابح فى مدينة القدس القديمة سنة ١٩٢٠ ، والهجوم الفتاك فى يافا سنة ١٩٢١ ، وحمام الدم سنة ١٩٢٩ ، وحملات العنف التى لم تتوقف من سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٣٩ ٠ كانت النتائج السيكولوجية لهذه الهجمات من جانب واحد جالبة للكوارث ، كما كانت عواقبها السياسية كذلك ٠ بدأ العرب ، الذين لا يجوز اتهامهم بالجبن ٠ كما لا يجوز اعتبارهم شجعانا ، يعتبرون اليهودى بمثابة « ولد الموت » ، ويتطلعون الى المهرجان الكبير ، مهرجان « بتاح اليهود » للذبح العام ، وساد الاعتقاد فى الدنيا عموما بأن اليهود فى أرض اسرائيل ، تماما كأى مكان آخر ، كانوا مجرد عبء على قوات أمن الأمميين ٠٠ تعساء ؟ يقينا ٠٠ فى الحق ؟ من المحتمل ٠ لكن الويل للقاضى الذى يمكن أن يذبح بسكين ابن الصحراء ٠

وضع التمرد العبرى حدا لهذا المرحلة الخطيرة المخزية ٠ لم يستطع البريطانيون الذين هاجمهم المتمردون اليهود أن يجادلوا بأنهم كانوا

---

(١) قرية فى تلال يهودا حيث بدأ تمرد « الحشمونيين » الناجح ضد الاغريق سنة ١٦٥ قبل الميلاد ٠

فى فلسطين لحماية اليهود • وسرعان ما نسى العرب « ولد الموت » وبدأوا يحترمون بل ويمجدون « الجدة اليهودية » ، وكانت هذه الاخيرة نتيجة غير مباشرة ، الا أنها كانت ذات مغزى عملى عظيم • لقد فقد العرب المبادرة ، ولم يفلح الانتداب ، بعد ، فى فرضها عليهم ، ولم يكن ذلك لانهم لم يحاولوا ، بل - على العكس - لم تدخر الحكومة جهدا لتحويل المد وتحويل الكفاح الانجليزى اليهودى الى نزاع عربى يهودى ، وغالبا ما تحدث عملاء الانصال العرب لكل من الهاجاناه وارجون تسفاى ليومى عن زيارات وكلاء الحكومة للقرى العربية وعن خطبهم الاستفزازية للعرب • وعلى أية حال ، لم يؤت الاستفزاز ثماره ، فقد كان العرب يستمعون ولكنهم ظلوا سلبيين • وأخيرا ، نشر ضابط بريطانى كبير ، هو الجنرال « دى آرسى » ، نظرية جديدة تتعلق بالمهمة البريطانية فى أرض اسرائيل • أخبر لجنة التحقيق الانجليزية - الأمريكية بأنه اذا ما غادر البريطانيون البلاد فان اليهود سوف يتولون زمام السيطرة على الاقليم بأسره ، أو - بعبارة أخرى - كان على الانجليز آنئذ أن يحموا العرب من اليهود • تغيرت النغمة قطعا !

فى أيام التمرد الباكرة ، أتيحت لى مناسبة أن أرى بنفسى الأثر السيكولوجى لهجماتنا المفاجئة بين العرب • ذهبت الى القدس من تل أبيب فى اليوم التالى لهجومنا المثلث على مراكز الشرطة فى القدس وحيفا ويافا • ولأغراض تتعلق بالأمن ، سافرت مع رفيق سفاردى فى أوتوبيس عربى • احتجزنا عدة مرات على الطريق بمعرفة الداوريات البريطانية . ولكن • بينما كان تفتيش المركبات اليهودية يجرى بدقة تامة كان فحص مركبات العرب « المخلصين » يجرى بعدم اكتراث • كانت أوراقى مستوفاة ، وسمح لنا بالمرور • كان رفيقى « شمسون » الذى يعرف اللغة العربية جيدا يستمع الى الأحاديث التى تدور بين زملائنا المسافرين العرب • كان موضوع هذه الأحاديث الوحيد هو الهجوم على مراكز رئاسة السلطة ، وكان التعجب يملؤهم ، وقد التهب خيالهم الثائر ، وكانوا يقولون : « لم يعد هناك بوليس ! » •

عندما وصلنا القدس رأينا حشدا كبيرا من العرب فى المنطقة بين بنك باركليز ومكتب البريد يتأملون ، من مسافة آمنة الى حد ما ، مدى الدمار الذى أوقعته أرجون بمركز الرئاسة العام للشرطة • تفحصناهم عن كثب ، كانوا مشدوهين • ومرة أخرى استرق « شمسون » السمع لبعض أحاديثهم ، وكان حديثهم خليطا حائرا من الدهشة والخوف والاعجاب • وهكذا كان الحال بالنسبة للهجمات التى تمت فيما بعد والتى شهدوا نتائجها •

ظهر نوع جديد من « الحج » بين العرب فكانوا يأتون من القرية ومن المدينة الى الأماكن التى نكون قد قمنا « بزيارة » نظام الحكم الظالم فيها وفجرنا المبانى أو « سوينا بها الأرض » على حد وصف واحد من أعضاء البرلمان البريطانى • درجنا ابان هذه الفترة على مخاطبة العرب بلغتهم • كانت الآلاف من نشراتنا توزع فى المدن والقرى العربية ، اما بمعرفة بعض فتياننا الذين يشبهون العرب فى سحنتهم ، واما بمعرفة أصدقائنا من العرب • حقيقة ان العرب لايقرأون كثيرا ، الا أن حب استطلاعهم لما كانت تقوله المقاومة السرية كان ملحوظا جدا ، ودائما ما كان يقرأ عربى متعلم بصوت عال للمستمعين المتلهفين الذين لايستطيعون القراءة •

قلنا للعرب انه ليست لدينا أية رغبة فى محاربتهم أو الاضرار بهم ، واننا كنا نتطلع لأن نراهم مواطنين مسالمين فى الدولة اليهودية المنتظرة ، كما كنا نشير الى الحقيقة غير المنكورة — حقيقة أنه فى عملياتنا بالمناطق العربية لم يحدث أدنى تهجم على السلم العربى أو الأمن العربى ، وحذرناهم بأن غرض البريطانيين هو الايقاع بيننا واثارتهم ضدنا حتى يقاتل بعضنا بعضا ، وأعربنا لهم عن الأمل الكبير فى ألا يأبهوا لهذه الدعاية والا فانهم اذا مارفعوا يدا ضد يهودى فسوف لايكون أمامنا أى اختيار الا أن نقوم ضدهم بكل ما أوتينا من قوة •

ولئن كان أثر مطبوعاتنا عظيما كما بدا ، الا أنه من المحقق أن أعمالنا كان لها أثر أعظم • لم تفشل الحكومة البريطانية فى وضع حد لنضالنا فحسب ، ولكنها ظلت عرضة لضرباتنا المتناهية فى العنف ، وتلك حقيقة كان لها وقع شديد على العرب الذين لم يهدأ لهم بال •

لقد تحاشى العرب منعنا من الهجوم على نظام الحكم القائم • ليس هذا فحسب بل ان بعضا منهم كان يقدم الينا مساعدات فعالة • حقيقة لم تكن مساعداتهم بدون ثمن ، الا أنها كانت مساعدات حيوية ، فقد اشترينا بعضا من القليل من الأسلحة التى كانت فى أيدينا وقتئذ من العرب • والى ان استطعنا أن نجد وسائلنا الخاصة لصنع كميات كبيرة من المتفجرات — السلاح الرئيسى فى الكفاح من أجل التحرير — والى جانب ما كنا نستعيره من البريطانيين أنفسهم ، كنا نحصل على الجزء الأكبر من مادة « تى • ان • تى » الناسفة من الموردين العرب •

تقدم الينا ، فى مرحلة متأخرة من التمرد ، ممثلون عن بعض القبائل العربية باقتراح تشكيل «جبهة مشتركة للحرب ضد البريطانيين»، وكان كل ما طلبوه منا هو المال اللازم لترويج الدعاية فيما بين قومهم ،

ولم نستطع أن نستجيب لهذا الاقتراح . كنا في حاجة الى ما في أيدينا من نقود قليلة لشراء المتفجرات من العرب .

لم يرفع العرب يدا ضدنا الا بعد أن انتهت الأمم المتحدة الى قرارها عن مستقبل أرض اسرائيل (وهو القرار الذى كان نتيجة مباشرة للتمرد اليهودى) فعلوا ذلك لأنهم وعدوا بتدخل الجيوش العربية النظامية في المعركة لقهر اليهود وابادتهم . كانوا يتوقعون أن تؤول تل أبيب بعمائرها وفتياتها الى عرب فلسطين ، الا أنه حتى أثناء هذه الفترة من القتال التى بدأت فى الثلاثين من شهر نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وأثناء الغزو الذى بدأ فى الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٨ ، كان لسلوك الاحترام الممتزج بالخوف الذى أشاعته الأسلحة اليهودية بين العرب أثره الواضح . ان القوة هى التى تتخذ القرارات فى المعركة ، ولكن ما هى القوة ؟ انها ليست العامل المادى وحسب ، فالعوامل النفسية والروحية على جانب كبير من الأهمية ، بل انها أحيانا ما تكون عناصر حاسمة بالنسبة للقوة المحاربة . وأحد هذه العوامل هو القصة المروية عن القدماء (أو الأسطورة) التى تسبق القوة المحاربة . مثال ذلك أنها ـ أى القوة المحاربة ـ « هول لأعدائها » وأنها « تكسب دائما » وأنها «لاتقهر» وما الى ذلك . لقد خلقت أسطورة القوة اليهودية بفضل القوة السرية ، وعلى يد حركة التمرد العبرية .

لعبت هذه الأسطورة التى بدأت ابان السنوات التى سبقت واتخاذ القرار الدولى السياسى دورا هاما فى رد الغزاة والقاء الرعب فى قلوبهم ـ ذلك أمر لم يكن قد قدر تقديرا كافيا بعد .

قامت الهاجاناه ، بدور تاريخى فى الكفاح ضد الغزاة العرب قبل انشاء جيش اسرائيل الذى وحد القوات المحاربة جميعها ، الا أنه من الأمور الصبيانية أن نزعم أن « مجرد وجود » الهاجاناه فى السنوات ١٩٤٤ ـ ١٩٤٨ هو الذى منع تكرار الشغب العربى الذى وقع فى السنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ . فليس من شك فى أن العرب سمعوا قصة « عشرات الآلاف من البنادق » التى قيل ان الهاجاناه كانت تمتلكها ، الا أنهم كانوا ، كذلك ، يذكرون الهاجاناه منذ أيام « الهافلاجاه » . وما كانت هذه الذكرى لتردعهم ، بل لم يكن هناك ما جعلهم يتوقفون سوى ذكرى الأعمال الانتقامية السابقة على الحرب والتى قامت بها ارجون تسفاى ليومى تحت قيادة « دافيد رازيل » .

حقيقة كانت سمعة الهاجاناه ـ رغم عدم فعاليتها لسنوات عدة ـ

ذائعة بين العرب ، الا أنها اكتسبت هذه السمعة بسبب تدابير العرب المنطقية التى اتخذوها عندما رأوا هجماتنا المفاجئة الناجحة ضد البريطانيين • لقد ضاعفوا قواتنا ، بل انهم زادوها الى ثلاثة أضعافها بفضل تخيلهم ، ثم انهم زادوها بعد ذلك أضعافا كثيرة ، وكانوا يجادلون بقولهم : اذا ما كانت ارجون « المنشقة » بهذه القوة ، واذا لم تستطع القوة البريطانية العظمى أن تخمد هذه القوة المتمردة رغم صغرها النسبى ، فماذا عسى أن تكون قوة هؤلاء « السبعين ألفا » من الهاجاناه ؟ وهكذا عملت كل هجمة جديدة على قوات المستبد على تقوية أسطورة « القوة العسكرية اليهودية » بين العرب •

بهذا الأسلوب أبطل التمرد أثر العامل العربى ، وقبل أن تستطيع السلطة البريطانية توحيد العامل العربى ضدنا كما فعلت فيما مضى ، كان هذا العامل كسيحا • وفيما بعد ، عندما حاول العرب ، بالتشجيع البريطانى ، أن يختبروا قوتهم ضدنا ، كان الوقت متأخرا ، « فقطعت » يدهم كما حذرناهم بأنها سوف تقطع ، وانتهى الصدام الأول ، رغما عن الخسائر الجسيمة فى الأرواح اليهودية ، بانتصار الأسلحة اليهودية •

كان « تأمين الأجانب » أثناء التمرد ضد حكم الانتداب واحدا من المنجزات الاستراتيجية الهامة ، الا أنه أمكن احرازه بطريق غير مباشر • كانت الاستراتيجية الكبرى للتمرد موجهة ضد الحكومة بالذات ، وكانت موضوعة بحيث تحرز ـ وقد أحرزت فى النهاية فعلا ـ أغراضا مباشرة • انها لم تكن مشكلة فى يوم وليلة ، ولكنها صيغت بمثابرة وتحت وطيس المعركة • وفى ضوء الخبرة كانت استراتيجيتنا تقوم على قواعد ثلاث سليمة ، فقد كانت تقوم على الدراسة الشاملة للاساليب التى كانت تستخدمها الأجهزة الادارية للدولة الباغية فى البلاد الأجنبية ، وعلى دراسة موضوعية للموقف الدولى ، وعلى الاختبار الدقيق لموقف وظروف بريطانيا العظمى فى نهاية الحرب العالمية الثانية •

ان لادارات الحكومة البريطانية خبرة واسعة فى حكم الشعوب الأجنبية ، وبخاصة الشعوب المتخلفة ـ درسنا هذه الخبرة ومحصناها ، وعرفنا أن الرسميين البريطانيين يتجنبون ، بصفة عامة ، ارساء حكمهم على القوة ، بل انهم يقيمونه ، بالأحرى ، على قوة الهيبة والوهم المتسلط على الأفكار • انهم يعرفون « أنك تستطيع أن تفعل دائما أى شىء بالسونكيات الا أن تجلس فوقها » • ان من الأفضل أن تجلس فى ظلها ، وبالتالى فانه عندما يواجه الاداريون البريطانيون بمقاومة عنيفة ، فانهم

يميلون الى البحث عن مخـرج بالتنازل عن الحـكم المباشر وابداله بحـكم بريطاني غير مباشر ، وعلى هذا يحل « مستشار » محل « القائد العام » ويحل « سفير » محل « المندوب السامى » ، فيخرجون من الباب ليعودوا من النافذة • ويقيم تاريخ الشرق الأوسط والشرق الأقصى فى الجيلين الأخيرين الدليل على هذا الأسلوب فى أطواره المختلفة •

أقنعنا التاريخ ، وأقنعتنا مشاهداتنا ، بأننا اذا استطعنا أن نفلح فى تحطيم هيبة الحكومة فى أرض اسرائيـــل فان زوال حكمها لابد وأن يتبع ذلك بصورة آلية • ومنذ ذلك الوقت وصاعدا لم نترك هذه النقطة الضعيفة فى سلام ، وطوال سنوات تمردنا كنا نوجه الضربات الى هيبة الحكومة البريطانية عمدا وبلا هوادة ومن غير ما توقف •

أن مجـرد وجود حـركة للمقاومة مما أخفق الاضـطهاد والشنق والتعذيب والنفى فى تحطيمها أو اضعافها كان لابد له ـ فى النهاية ـ أن يقوض هيبة نظام حكم استعمارى يعيش على أسطورة القدرة على كل شيء • ان كل هجوم يفشل ذلك النظام فى منعه يكون بمثابة ضربة موجهة الى مكانته ، حتى ولو لم ينجح ذلك الهجـوم ، لأنه يحـدث ثلمة فى تلك الهيبة ، ثم تتسع هذه الثلمة الى شق ، ويمتد الشق مع كل هجوم تال •

كانت أغلب هجماتنا ناجحة ، الا أنه كان هناك بعض الاخفاق • تعلمنا كيف نتحاشى الاخفاق ، ولكننا عرفنا أيضا أن هذا الاخفاق كان اخفاقا عسكريا فقط • أما من الناحيـة السياسـية فقد كان كل هجوم عملا عظيما فى حد ذاته ، وكانت هناك هجمات عسكرية كان لها وقع ساحق بصفة خاصة على هيبة الحكومة ، وفى مقدمة هذه الهجمات اقتحام سجن عكا الذى اضطر رئيس حكومة الاحتلال أن ينشر مبررا محيرا له كان اعترافا منه بالفشل فى تدمير قوة المقاومة أو منع هجماتها •

الا أنه كانت هناك ـ كما سنرى فيما بعد ـ حوادث وأعمال كبيرة وصغيرة غير ذات صبغة عسكرية خالصة ، نالت من صميم هيبة الحكومة أكثر مما نالته العمليات الحربية الناجحة ومثال ذلك ، القبض على الضباط البريطانيين ضمانا لالغـاء « حـكم بالاعدام » ، والقبض على مزيـد من الضباط الذى لم يمنع اعدام رفاقنا الأسرى ولكنه مهد السبيل الى تراجع الموظفين الفلسطينيين الى « المعزل أو الحى اليهودى الشهير » ، واحباط الأحكام العرفية آخر محاولات الاضطهاد الجماعى ، وجلد الضباط انتقاما لجلد جنودنا الشبان ، والشنق أخـذا بثأر من حـكم عليهم بالشنق من جنودنا •

لم تهز هذه الأشياء هيبة الحكومة وحسب ، ولكنها دمرت كيانها في أرض اسرائيل آخر الأمر ٠

دائما ما كنا نصادف المجادلات بأن الحكومة البريطانية كانت قادرة على الثأر منا ان هي شاءت ، بتدميرنا جميعا ، ومن ثم فان عملياتنا الحربية تتهدد السكان اليهود أجمعين بالخطر ٠ وكانت تلك مسألة بالغة الأثر ، بل انها كانت أخطر مسألة واجهتنا على الاطلاق ٠٠ أشار الجنرال «كننجهام» ــ آخر مندوب سام ــ الى هذه المسألة فى تقريره عن اقتحام حصن عكا فقال : « انه لم يكن هناك من سبيل لتدمير المقاومة اليهودية الا باستخدام أنواع القوة العسكرية جميعها ضد السكان جميعا » ٠

الا أن الجنرال أضاف : « ولكن البريطانيين ــ على خلاف الألمان ــ لايستطيعون أن يفعلوا ذلك » ٠

ان الاعتماد ، أو الاعتماد غير الملائم ، على تحفظات أو ضوابط العدو الأخلاقية لا يدخل فى الاستراتيجية اليهودية ، ولذا لم نعتمد على انسانية الحكومة ٠ لقد شهدنا السلوك المتهور الأحمق للجنود البريطانيين المحمولين جوا فى مدننا وقرانا ومستعمراتنا ، وطالعنا النشرات الداخلية التى كانت توزع على الجنود البريطانيين ٠ كان من سلوك بعض الجنود الشائن ذلك التهديد الذى كتب بغير اعتناء على نسخة من صحيفة قوات مقاومتنا ، « حيروت » :

« لقد قتل هتلر ستة ملايين يهودى ، وستقتل الفرقة السادسة المحمولة جوا ستين مليونا اذا لم تتأدبوا » ٠

كانت أمامنا وثيقة رسمية صدرت فى أرض اسرائيل من القيادة العامة للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط ــ تلك هى « كراسة تدريب الشرق الأوسط رقم ٩ ، الجزء الثالث عشر » ، التى تتضمن تعليمات عن كيفية « التعامل » مع المتظاهرين المدنيين ٠ وفيما يلى ما جاء فى هذه الوثيقة :

« منذ الحادث المشهور فى (أمريتسار) فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، يعتبر تفريق جموع الناس واجبا خطيرا ، وقد افترض أن أى عمل مما قد يتخذ تحقيقا لهذا الواجب سوف يعتبر عملا غير مباح ، وذلك فرض ليس له ما يبرره ٠

وفيما يلى كيف يصير التصرف :

(أ) أخطر الجموع بأنك سوف تطلق النار اذا لم يتفرقوا .

(ب) اختر ثلاثة رجال من فصيلتك ، ثم ترقب زعماء التظاهر ، وهم لا يكونون عادة في الصفوف الأمامية ولكنهم يحرضون المتظاهرين من الخلف ، وعرف رجالك على هؤلاء الزعماء باعتبارهم هدفا لهم . وعندما تظن ان الموقف يبرر مثل هذا التصرف ، أصدر لرجالك الأمر بالضرب وأن يضربو ليقتلوا » .

بهذه الروح كان جيش الاحتلال في أرض اسرائيل يتدرب ولم تكن الاشارة الى « أمريتسار » اشارة عرضية .

وعلى الرغم من كل هذا لم نكن نخشى أن يتحول الجنود لابادة الييشوف (يهود فلسطين) ، وهو الأمر الذى كان يخافه بعض الموظفين اليهود الذين أصابهم الهلع ، أو قالوا انهم يخافونه . كنا على يقين من أن مثل هذا الاجراء مستحيل حدوثه ، وكان يقيننا هذا ناتجا عن تفكير سليم .

لا يمكن ابادة شعب مدني بأسره في آن واحد حتى ولو كان عدد هذا الشعب بعض مئات من الآلاف فقط . لابد لذلك من حملة ابادة ممتدة . وكانت السلطات تعلم ، أو لعلها سوف تعلم بمضي الوقت ، أن تلك لن تكون عملية من جانب واحد فقط . لن يراق مزيد من الدم اليهودى فحسب ، بل ان الدم البريطاني سوف يهدر كذلك . سوف يسيل أنهارا أكثر مما كان في هجمات المقاومة مجتمعة .

ذات مرة ، قال الكولونيل « باترسون » قائد الفرقة اليهودية (التي شكلها « فالديمير يابوتنسكى » في الحرب العالمية الأولى) ، وهو ضابط بريطاني من أصل ايرلندى ذهب الى المنفى وفضح غدر الحكومة البريطانية بالشعب اليهودى ، في حديث له مع ضباط ارجون تسفاى ليومي :

« تذكروا أن الانجليز لايودون أن يقتلوا » .

بالطبع لايود أحد أن يقتل . ان اعتبار الحياة والاهتمام بها هما معيار المدنية الانسانية ، الا أن « سقراط » كان مصيبا عندما قال : « ان الحياة ليست الشيء الأساسي دائما ، ففي الحياة أشياء أخرى أكثر أهمية من الحياة نفسها ـ أكثر أهمية ، على أية حال ، من حياة الناس الآخرين » .

مهما كان من أمر ، فاننا كنا نذكر ما أخبرنا به « باترسون » ، كما أننا وجدنا ما يؤكد ما سبق أن قاله في تجاربنا المتزايدة على مر الأيام . ومع هذا ، كانت السلطة البريطانية على جانب من الذكاء والدراية . عرفوا

أنهم اذا حاولوا ابادة السكان المدنيين فانهم بذلك يبدأون حربا انتقامية يائسة تكلفهم غاليا من الأرواح قبل أن يتمكنوا من تحقيق أغراضهم ٠

زد على ذلك أن تل أبيب ليست « أمريستار » ، كما أن أرض اسرائيل ليست « أرض البنجاب » ، فقد كانت أرض اسرائيل موضع اهتمام العالم ٠ لقد أحالها التمرد بحيث أصبحت كذلك ، وانها لحقيقة أنه ما من كفاح وطنى شاع أمره فى جميع أرجاء العالم مثل شيوع كفاحنا ٠ وبينما كان تمردنا ماضيا فى سبيله كان هناك عدد من المعارك ، على جانب كبير من الاعتبار ، يجرى فى جبال اليونان ، وكان نصيب هذه المعارك بضعة سطور قليلة فى صحافة العالم ٠ أما التقارير عن عملياتنا ــ تحت عناوين بارزة ــ فقد غطت الصفحات الأولى من الصحف فى كل مكان ، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة ٠ وهناك بعض الناس ممن كانوا يجادلون بأن الصحف الأمريكية أفسحت مكانا كبيرا لعملياتنا ولاذاعاتنا السرية وتصريحاتنا العامة لمجرد اثارة العواطف ــ وحتى لو كانت هناك ذرة من صدق فى هذا التقييم التجارى فماذا يهم ؟ ان اهتمام الصحف هو المعيار لاهتمام الجمهور ، وقد كان الجمهور ــ ليس فقط الجمهور اليهودى بل الجمهور غير اليهودى أيضا ــ مهتما اهتماما واضحا بالضربات التى كنا نكيلها فى أرض اسرائيل ٠

ولعل من الأمور المتميزة أنه حتى العمليات المثالية التى اضطلع بها جيش اسرائيل كان ذيوعها فى أنحاء العالم أقل بكثير من ذيوع عمليات المتمردين الباكرة ٠ والسبب واضح ، هو أن عمليات الجيش النظامى وان أحرزت انتصارات عظيمة الا أنها أقل مظهرية من الهجمات الجريئة التى كانت تشنها شرذمة قليلة من المتمردين ضد حكومة عظيمة وضد جيش عظيم ٠

لقد تعرفنا فى هــذه الدعاية ، التى أحيانا ما كانت مبالغا فيها وان كانت خلوا دائما من الادعاء والتظاهر ــ تعرفنا فيها على العامل الثانى الذى كان خليقا بأن يعوق تدمير « الييشوف » المتعمد ٠ لقد أردنا أن يهتم كثير من الناس بهذا الذى يجرى على أرض اسرائيل ، وكان ان أقام هذا الاهتمام الذى خلقناه بكفاحنا نوعا من « طوق النجاة » غير المنظور حول السكان اليهود ٠ لعبت حملة التوعية المركزة التى تعهدتها لجنة التحرير الوطنى العبرية فى الولايات المتحــدة دورا هــاما فى هذا المجال ٠ كانت الحكومة البريطانية سريعة التأثير بالرأى الأمريكى ، ولم تكن تستطيع أن تغفل مشاعر « عمها الغنى » عبر الاطلنطى ٠ حقا ، دائما ما كان هناك خطر الأعمال الانتقامية الفردية بأيدى الجنود ، وقد

بذلنا كل مافى استطاعتنا لمنعها ، وكلما سمحت تدابيرنا الحربية كنا ننشر التحذيرات المبدئية للسكان المدنيين المعنيين ، كما كنا نصدر ترجمة انجليزية للمدنيين البريطانيين . وعلى سبيل المثال نشر مثل هذا التحذير فى ربيع سنة ١٩٤٥ عندما وضعنا مدفع هاون يعمل كهربائيا ضد القيادة العامة البريطانية ، كما نشر تحذير آخر فى ربيع ١٩٤٧ قبل وضع الألغام فى شبكة السكك الحديدية .

وفيما يلى مثال النموذجى من هذه التحذيرات :

« (١) مطلوب من حكومة الظلم أن تجلى بدون ابطاء الأطفال والنساء والأشخاص المدنيين والموظفين من جميع مكاتبها ومبانيها ومساكنها .. الخ فى جميع انحاء الاقليم .

(٢) مطلوب من السكان المدنيين ، يهود وعرب وغيرهم ، من أجل مصلحتهم ، أن يمتنعوا من الآن وصاعدا وحتى الغاء هذا التحذير عن زيارة أو الاقتراب من مكاتب الحكومة .. الخ «. لقد حذرتم) » .

لا ، لم نكن نصدق أن كفاحنا سوف يجر الى خراب شامل لشعبنا . عرفنا أن أرض اسرائيل ، بسبب التمرد ، كانت تشبه بيتا من الزجاج كان العالم يتأمله باهتمام زائد ، وكان يستطيع أن يرى معظم ما كان يحدث فى الداخل . ذلك هو السبب الذى من أجله أمكننا أن نمضى فى كفاحنا حتى بلغ ذروته الناجحة فى سنة ١٩٤٦ ــ ١٩٤٧ . كانت الاسلحة سلاحنا الهجومى ، وكانت شفافية « الزجاج » درعنا الدفاعى . وباستخدام هاتين الأداتين استمرت ضرباتنا تكيلها لهيكل هيبة سلطة الانتداب .

(٢)

لم يكن العمود الثانى الذى بنينا عليه استراتيجية التمرد باقل ثباتا ، فقد أقنعتنا دراسة الموقف الدولى ابان المرحلة النهائية من الحرب الأخيرة وفى أعقابها مباشرة بأن الظروف سوف تكون فى صالحنا. مهدت الحرب السبيل الى تغيير جذرى فى علاقة قوى العالم . اغرقت سفن حربية هائلة ، ودمرت جيوش كبيرة أو تفرق شملها . تحولت دول عظمى الى دول من الدرجة الثانية . الدول المتوسطة أو الصغرى تبتلعها الكتل الكبرى بطريقة أو بأخرى . برزت هناك قوتان ضخمتان تضمان مساحات وسكانا وموارد عسكرية واقتصادية هائلة المقدار . هل ستدوم التغيرات التى طرأت فى عصرنا ، وهل ستفيد منها البشرية ؟

ان الزمن وحده هو الكفيل بأن يجيب على هذا السؤال ، الا أنه لا شك فى انها كانت فى صالح التمرد اليهودى ضد حكم الانتـداب . وكنتيجة للحرب العالمية الثانية ووجهت القوة التى كانت تضطهدنا بقوة معادية فى الشرق وقوة ليست صديقة كما ينبغى فى الغرب ، وكلما مرت الأيام ازدادت متاعبها .

ابان سنى التمرد تقابلنا وتحدثنا مع رسميين وغير رسـميين من الاتحاد السوفيتى واصدقائه . علمنا انه نتيجة لكفاحنا من أجل التحرر تغيرت وجهة نظر روسيا ازاء شعبنا الى الاستقلال القومى اليهودى . وان الشخص الذى يعرف ــ كما كنت أعرف أنا من تجربتى الشخصية ــ كم من عادات الفكر ينبغى ان يتم التغلب عليها قبل أن تتغير السياسة السوفيتية ، هو وحده دون غيره الذى يستطيع أن يقدر مدى الأثر الذى أحدثه التمرد اليهودى فى فلسطين . الا أن التغير فى وجهة نظر روسيا حدث يقينا . وفى مؤتمر صـحفى دولى عقد فى براج عام ١٩٤٧ سأل « دافيد زاسلافسكى » ، أحد رؤسـاء التحرير السـياسيين فى صحيفة برافدا ، الصحفيين العبريين لماذا لم يحضر المؤتمـر معهـم ممثل لصحافة حركة المقاومة ارجون ، وعندما أجيب على سؤاله اجابة غامضة أصر على أنه طالما كان لجماعة ارجون صحافتها الخاصة فقد كان حتما أن يضم وفد أرض اسرائيل واحداً من ممثليها ، ثم قال : « انهم رجال شجعان ، وهم يؤدون عملا عظيما » .

شرح مندوب سوفيتى آخر ذو نفوذ كبير فى القارة لرجل من رجال ارجون كان قد التقى به كيف أن كفاح ارجون تسفاى ليومى كفاح تقدمى غريزى من حيث انه قام ضد نظام حكم استعمارى ، وكيف أن ارجون نفسها حركة تقدمية من حيث انها انبثقت من الشعب ، ثم قال ان الدليل على ذلك هو عدم قدرة البريطانيين على تصفية ارجون . وقد صار التعبير تعبيراً تاما واضحا عن تغيير وجهة نظر روسيا فى الخطاب الذائع الذى القاه اندريه جروميكو أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ربيع عام ١٩٤٧ .

قال المبعوث السوفيتى : « ان الأحداث الدامية فى فلسطين معلومة للجميع .لقد أصبحت ظاهرة تتكرر بصفة دائمة ، وبالتالى أصـبحت تفرض نفسها ، وهى أشد ما تكون اصراراً على استرعاء انتباه شعوب العالم ، وانتباه منظمة الأمم المتحدة فى المقام الأول . ان افلاس أسلوب الانتداب فى حكم فلسطين الذى مهد الى تدهور الموقف وسبب المشاغبات

هو السبب الذى من اجله عرضت المشكلة على الجمعية العامة للنظر » .

لعل هذه العبارات الموجزة السديدة أن تكون تعبيرا كذلك عن تفكير السوفيت المتمني ، ومن الطبيعى ان يتمنى الاتحاد السوفيتى « افلاس » نظام الحكم الاستعمارى البريطانى فى أرض اسرائيل . ان المشاغبات الدامية لم تؤد الى افلاس الحكم البريطانى فحسب ، ولكنها عرضت ذلك الافلاس أمام نظر العالم بأسره . كانت الاستنتاجات التى توصل اليها رجال الدولة الواقعيون من الموقف الثائر الذى تكشف فى أرض اسرائيل ــ ورجال الكرملين رجال دولة واقعيون دائما ــ أمرا لا مفر منه . لم تكن « كول ها عام » الصحيفة الشيوعية فى أرض اسرائيل ، هى وصحيفة « ميشمار » (١) الموالية للسوفييت ، حائرتين تماما مندما اتخذ الاتحاد السوفيتى ، رغما عن الماضى ، مكانه بين مؤيدى الدولة اليهودية المستقلة ، فقد كانت المقالات الرئيسية فى هاتين الصحيفتين الشيوعيتين اليهوديتين لا تزالان « ثائرتين » على فكرة الدولة اليهودية ، ولم تكن براعتهما فى تعديل موقفيهما لملاءمة اعلان الاتحاد السوفيتى الخطير الشأن بالواجب الهين . الا أن سياسة الاتحاد السوفيتى ما كانت لتبدو وكأنها تغيرت بين يوم وليلة الا فى نظر المراقبين قصار النظر . وللحقيقة والتاريخ ، ان هذا التغيير كان يحدث « فى بطء » على امتداد ليالى التمرد الطويلة .

وفى أعقاب التمرد جاء أيضا مطلب الولايات المتحدة بايجاد حل فورى لمسألة أرض اسرائيل . ولعل مما يستحق الذكر أن « وارين أوستين » الأمريكى ، وهو يؤيد طلب احلال نظام حكم جديد محل الحكم البريطانى فى أرض اسرائيل ، كان يتكلم بلغة شبيهة تقريبا بلغة الروسى « جروميكو » .

---

(١) جريدة حزب الشيوعيين الاشتراكيين « هاشومير هاتسعير » المندمج الآن مع حزب مابام فى اسرائيل .

الفصل السادس

جيش المقاومة

(١)

كان أعداؤنا يطلقون علينا اسم « الارهابيين » وكان أولئك الذين لم يكونوا اصدقاءنا أو اعداءنا ، مثل مراسلى صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون ، يسموننا بالاسم اللاتينى « ارهابيين » ، أما تحت تاثير الدعاية البريطانية أو بحكم العادة . أما أصدقاؤنا ، مثل «أوراپلى» الأيرلندى ، فقد كانوا يفضلون ـ كما ذكر فى خطابه ـ أن « يسبقوا التاريخ »ويطلقوا علينا اسما ابسط ، وان كان هو الآخر اسما لاتينيا : « الوطنيين » . وأما الجنرال « ماكميلان » الذى خلف الجنرال «باركر» قائد قوات الحكومةفى أرض اسرائيل فقد كان يظن أن اسم «الارهابيين» أكثر مما نستحق ، وكان يزعم أن هذا الاسم قد اكتسب هالة من البطولة، يضاف الى ذلك انه يتضمن معنى أن الارهابيين يشيعون الذعر بين القوات البريطانية، وللدامر الجنرال بأنه يجب الا يسموا «الارهابيين» بل يسمون «السفاحين» و «القتلة» ، و .. أضاف «ماكميلان» بضع صفات أخرى استقاها من مجموعة ألفاظ يتردد استعمالها فى ثكنات الجنود . ومع هذا لم تغير أوامره شيئا البتة من الواقع ، فقد ظلت الصحافة البريطانية وظل الجنود البريطانيون يسموننا بالاسم الذى كان يوحى ، فى رأى قائدهم ، بالشجاعة من ناحيتنا ، وبالذعر من ناحيتهم . كانوا يسموننا « الارهابيين » حتى النهاية ولا شك انه كان هناك تفسير سيكولوجى لذلك .

الا أننا لم نكن ارهابيين . ان الكلمة اللاتينية الاصلية Terror تعنى الارهاب . واذا لم أكن مخطئا فان هذه الكلمة أصبحت شائعة فى

المصطلحات السياسية ابان الثورة الفرنسية ، فقد بدأ الثوار يجزون الرؤوس بالمقصلة ليلقوا الرعب في النفوس ، ومنذ ذلك الوقت صارت كلمة « الارهاب » تعريفا لاعمال الثوار والمضادين للثورة على السواء ، كما صارت تعريفا للمناضلين من أجل الحرية وأولئك الذين يضطهدونهم • يتوقف ذلك على أولئك الذين يستخدمونها ، وغالبا ما يحدث أن يستخدمها الطرفان في تبادلهما التحيات المشتركة .

ان الأصول التاريخية واللغوية للاصلاح السياسي « ارهاب » تثبت أنه لا يمكن تطبيقه على حرب ثورية للتحرير • قد يتولد عن الثورة مانسميه « أرهابا » كما حدث في فرنسا ، وأحيانا يكون الارهاب نذيرا بالثورة كما حدث في روسيا ، لكن الثورة في حد ذاتها ليست ارهابا وليس الارهاب ثورة . فالثورة أو الحرب الثورية لاتهدف الى القاء الرعب في النفوس . ان هدفها قلب نظام الحكم واقامة نظام جديد يحل مكانه • في الحرب الثورية يستخدم الجانبان القوة • ان الطغيان مدجج بالسلاح والا قضى عليه بين يوم وليلة ، ولابد أن يتسلح المحاربون في سبيل الحرية والا سحقوا بين يوم وليلة • ولاشك في أن استخدام القوة يوقظ الخوف • يبدأ الحكام الطغاة يخافون على مناصبهم أو على أرواحهم أو عليهما معا ، وبالتالي يحاولون أن يلقوا الرعب في قلوب أولئك الذين يحكمونهم . الا أن القاء الرعب ليس هدفا في حد ذاته . ان الهدف الوحيد من وجهة نظر جانب من الجانبين هو الاطاحة بالطغيان المسلح ، وهو من وجهة نظر الجانب الآخر استمرار دائم للطغيان •

هب مقاتلو حركة المقاومة من أرجون للاطاحة بنظام حكم واحلال نظام آخر محله . استخدمنا القوة المادية لأننا كنا في مواجهة قوة مادية ، ولكن القوة المادية لم تكن هدفنا ، كما انها لم تكن عقيدتنا . اننا نؤمن بسيادة القوى المعنوية ، انما كان عدونا هو الذي سخر منها . ذلك هو السبب في أنه هو الذى انهزم ، أما نحن فلم نهزم .

ذلك هو حكم التاريخ • لقد اغتبطنا بالفرصة لكى نحاول أن نثبت ان هذا الحكم سارى المفعول ليس فقط في القرن التاسع عشر ، قرن المثالية ، بل وفى قرننا الحاضر ، قرن المادية والقسوة . ليس فقط في ربيع الأمم ، بل وفى أيام ذبولها . وانا لشاكرون اذ استطعنا أن نثبت ذلك لا لشعبنا فقط ، ولكن للبشرية أجمع لكن ماعلاقة كرامة الإنسان ، في وجه القهر والطغيان ، بالارهاب ؟ ان مأربنا كان ، في الواقع ، عكس «الارهاب» تماما ، فقد كان جوهر كفاحنا هو التصميم

على تخليص شعبنا من محنته الكبرى : الارهاب . كيف كان لنا ان نستمر على الحياة فى هذا العالم العدائى الذى كان يهاجم فيه اليهودى لأنه يهودى ؟ كيف كان لنا أن نظل أحياء بدون سلاح وبدون وطن وبدون وسائل الدفاع الأولية ؟ لذلك قمنا ، نحن رجال أرجون تسفاى ليومى ، نثور ونحارب لا لنشيع الارهاب وأنما لنقضى على الارهاب . ربما كان تعريف ذلك الأيرلندى المقدام « بول أو دواير » دقيقا فيما يتعلق بأعصاب موظفى الحكومة . الا اننا ، من الناحية التاريخية ، لم نكن «ارهابيين» ، بل اذا تحرينا الدقة فى القول كنا «أعداء الارهابيين»!

كما اننا فى بناء منظمتنا لم نخلق اية مجموعة من السفاكين الذين يتربصون انتظارا للضحايا ، بل انشأنا قوة المقاومة من الأساس الى الطابق العلوى لجيش يدبر الخطط للهجمات على أهداف العدو الحيوية . ويهز كيان منشآت العدو العسكرية وحكمه المدنى ، وينزل الخسائر بالعدو فى مجال الهجمات الحربية . بدأنا ، والحق يقال ، بجيش مقاومة صغير لا يزيد عدده عن بضع مئات ، الا أن قوتنا ازدادت مع اشتداد الكفاح ضد العدو ، وعلى الرغم من الاضطهاد . ولعله كان بسبب هذا الاضطهاد اننا انشأنا جيش مقاومة قسم الى جماعات ووحدات كثيرة وبلغ عدده آلافا كثيرة . لم تكن جماعة «ارهاب» — لا فى بناء منظمتنا ، ولا فى أساليب حربنا ، ولا فى روحنا .

(٢)

كان الهيكل التنظيمى لجيشنا الصغير مبسطا ، فقد قامت على رأسه قيادة عليا تنتصح برأى هيئة اركان حرب منظمة فى ادارات تتفق واحتياجات عمليات المقاومة ، وكانت الهيئة العامة منظمة فى فرق يتلاءم حجمها مع احتياجات الكفاح ، وكان الجهاز الادارى صغيرا جدا بصفة دائمة . وكان العسكريون البريطانيون هم والخدمة السرية البريطانية يعتقدون أن تحت تصرفنا آلافا من الجنود المحترفين لا يقومون بشيء سوى أعمال الارهاب المضادة للبريطانيين وقد خدعت مخابرات العدو تماما فى هذا الأمر ، كما خدعت فى امور أخرى . ولم يخطر على بالنا ان نزيل ذلك الوهم الكاذب . والواقع أنه الى أن انسحبت القوات البريطانية من فلسطين لم يكن لدينا أكثر من بضع وثلاثين (احيانا اقل من عشرين ، ولم يحدث قط أن زاد عددهم عن الاربعين) عضوا من المتفرغين للخدمة فى أعمال المقاومة السرية . أما بقية المئات وما تلاها من الآلاف من أعضائنا فقد كانوا يمارسون واجباتهم اليومية وان كانوا

يضعون انفسهم تحت تصرف المنظمة كلما استدعتهم . لقد كانت قوات المقاومة السرية جيشا شعبيا حقا وصدقا .

كانت القيادة العليا تسيطر على جميع أوجه نشاط « ارجون » العسكرية والسياسية على حد سواء ، وكانت تدرس المبادىء العامة ، والاستراتيجية والتكتيك ، والمعلومات والتدريب ، والعلاقات بالهيئات الأخرى ، والتفاوض مع ممثلى هذه الهيئات . وكانت تتخذ القرارات وتصدر الأوامر فى ارجون على غرار ما هو معمول به فى جميع المنظمات الحربية ، الا انه لم يكن يسمح بتاتا للفرد باتخاذ أية قرارات فردية . كانت هناك مناقشات دائمة ، وكان كل عضو من أعضاء القيادة العليا يحاول أن يقنع رفاقه ، وكانت القرارات تتخذ عادة باجماع الآراء . لم تطرح المسائل للاقتراع الرسمى ، فقد كان هناك عادة توحيد للآراء المختلفة ، فاذا اختلفت الآراء سادت وجهة نظر الأغلبية . وكان الشعور بالمسئولية والفهم المتبادل والاحساس العميق بالاخوة — كان كل ذلك عوامل جعلت هذا النظام يؤدى عمله ، بل ربما كان أحسن أسلوب أو نظام ممكن لاتخاذ القرارات العملية . كانت اجتماعاتنا العديدة عملية على الدوام ، فلا أذكر اجتماعا واحد تورط فى بحث نظرية عقيمة ، أو اجتماعا واحدا كان كل ما تم فيه هو الدعوة الى اجتماع ثان . لقد كنا نتخذ القرارات وكنا نعمل على تنفيذها ، ولم يحدث قط أن علمت قوات الحكومة بقراراتنا الا بعد الانتهاء من تنفيذها .

عندما عينت أول مرة لرئاسة القيادة العليا ، كان أعضاؤها الآخرون هم « يعقوب ميريدور » و « آريه بن اليعازر » و « الياهو لانكين » و « شلوموليفى » . كان « يعقوب ميريدور » واحدا من أقدر القادة العسكريين اليهود . كان على رأس « ارجون » ابان سنوات الأزمة فى الفترة بين وفاة « دافيد رازيل » وبداية التمرد . عمل « يعقوب » على الحفاظ على نار الشعلة . كان موقفه صعبا ، بل انه كان لا يطاق أحيانا ، وكان قد صمم على بدء التمرد فى أوائل سنة ١٩٤٣ ، الا انه لم يكن مطلق اليدين . أدركت الصعوبات التى اعترضته حتى قبل أن أتولى القيادة . انجذبت اليه منذ اللحظة التى قدمت فيها نفسى اليه لدى وصولى من روسيا لأبلغه ما كنت أزمع أن أبلغه الى « دافيد رازيل » — ذلك اننى أضع نفسى تحت تصرفه نهائيا . تحدثنا فى الغرفة الصغيرة التى يشيع فيها ضوء خافت منبعث من مصباح زيتى ، تلك الغرفة التى كان يصرف فيها شؤون « ارجون » متنكرا فى هيئة صاحب شركة نقل « المستر هونيج » . تحدثنا كما يتحدث الأصدقاء

القدامى . قتلنا الموقف بحثا . كنا متفقين فى الرأى . لم يكن هنـــاك سوى طريق واحد ــ طريق التمرد .

بدل « يعقوب » قصارى جهده لتدريب الرجال واعداد السلاح للكفاح . واذا كان فى أيدينا الآن ما يلزم لبدء هجماتنا الأولى فان علينا ، فى المقام الأول ، أن نشكر « يعقوب » ، ونشــكر اصراره ، ونشــكر الابتسامة الشجاعة التى كان يتلقى بها الضربات ويقابل بها الاخفاق . عندما حان الوقت لم يتردد ، وهو الرجــل العظيم المتواضــع ، فى أن يسلم زمام القيادة الى الشــخص الذى كان قد وضــع نفســه تحت تصرفه . لم يكن لمركزنا الشخصى فى نظره أدنى أهمية ، فالقضية هى كل شىء . كانت بداية التمرد سببا فى ارضاء « يعقوب » ، الذى ابتهج كمــا يبتهج المعلم الأصيل لعمل تلاميــذه الصالحين . الا انه لم يمكث طويلا مع رفاقه فى القيادة العليا ، ففى شتاء سنة ١٩٤٤ غدر به عملاء من الوكالة اليهــودية للبريطانيين ، الذين وضعوا طائرة خاصــة تحت تصرفه ، اعرابا عن عطفهم ، لتنقله الى السجن والمنفى فى أفريقيا . وفى القارة السوداء ، خلف أسلاك البريطانيين الشــائكة ، اثبت بصــورة عملية انه اذا كان من المستطاع أن يسجن الرجل فانه من غير المستطاع أن تسجن روحه . وبالطبع ، لم يكن « يعقوب » هو الوحيــد من بين محاربينا الذى حاول الهرب والعودة الى الكفــاح . ان رفاقنــا كانوا يكرهون السجن بقدر ما كانوا يحبــون الحرية التى كانوا يحاربون من أجلها . لقد كانوا بالأسر فى مأمن الى حد ما ، أما فى خارجه فقد كان الخطر يكمن لهم فى كل مكان ، ولكنهم كانوا يفضلون اخطار العمــل فى الحرب من أجل الحرية على الأمن مع الخمول . أين الســجون التى لم يهرب منها محاربو المقاومة السرية ؟ وأية وسيلة لم يستخدموها لــكى يكسروا أغلالهم ، وبذا يساعدون فى تحطيم قيود شــعبهم ؟ لقــد كان « يعقوب ميريدور » مثلا مشرقا لهم جميعا ، كان فى معسكرات الاعتقال أشبه بالطائر الطليق ، لم تستطع حواجز الأسلاك الشائكة أن تحبسه وتمنعه من التحليق . واذا ما هرب مرة ثم قبض عليه من جديد هرب ثانية ، وعندما يقبض عليه مرة أخرى يهرب كذلك . لقد هرب وهرب ، الى أن أفلح أخيرا فى العودة الى الجبهة ، متأخرا فعلا ، الا أنه وصل فى الوقت المناسب ليضع نفسه على رأس كتائب أرجون تسفاى ليومى « على وجــه الأرض » وليقودها فى الحرب الدفاعيــة ضــد قوات الغزو العربية ، ثم ليعمل بعد ذلك فى جيش اسرائيل الموحد . كتب «يعقوب» قصة هربه الجــريئة فى كتابه المشــهور « طويل ذلك الطــريق الى الحرية » .

قضى « آريه بن اليعازر » السنوات الأولى من سنى الحرب العالمية الثانية فى الولايات المتحدة ممثلا لجماعة « ارجون » . جاء الى أرض اسرائيل سنة ١٩٤٣ نائبا عن لجنة التحرير الوطنية التى اقامها « هيليل كوك» (١) و « صمويل ميرلينى » ، وعندما وصل كانت « ارجون » تجتاز ضائقة شديدة ، وقد أمكن التغلب على هذه الضائقة بفضل « آريه » أساسا ، ثم صار صديقى المقرب منذ بداية عملنا المشترك . وكان خلال أحاديثنا التى لم تكن لتنتهى ، قبل وبعد اعلان التمرد ، أثناء النزهات الليلية أو فى منزل أخته أو فى « سافوى أوتيل » فى تل أبيب ـ كان خلال محادثاتنا أن وضع أساس كفاحنا الثورى . تحملنا سويا الأزمات النفسية التى لا يمكن أن تنفصل عن بداية التمرد . كانت ازمات أسى وألم ، ولو انه أحيانا ما كانت هناك فترات اغتباط بالمنجزات . وبعد الهجوم الناجح على مركز رئاسة ادارة المباحث الجنائية ، قلنا بعضنا لبعض : « لا يهم اذا نحن متنا الآن » . كنا على يقين بعد هذه العمليات التى أثارت دهشة العالم من أن استمرار التمرد صار مؤكدا ، حتى ولو وقعنا فى الأسر أو قتلنا . كانت تلك هى البداية . ومع اننا كنا نتطلع الى أشياء عظيمة ، الا اننا لم نكن نستطيع حينئذ أن نتكهن بأنه سوف يأتى يوم نكون قادرين فيه على أن نقتحم « المراكز الحصينة » مثل حصن عكا . ومن ناحية أخرى ، كنا نرى أمامنا خسائر مفجعة ومعاناة شديدة ، مثل « بنيامين الصغير » وهو واحد من أحسن صبيتنا وقد قتل فى هجوم القدس ، و « سيمون عمرانى » وهو من أحسن محاربينا الشبان وقد وقع فى الأسر (تعرض عمرانى للتعذيب الوحشى على أيدى رجال الشرطة ولكنه لم يدع أى سر ، وقد خلصناه من السجن فى الهجوم على سجن عكا ، الا انه سقط للاسف على عتبة الحرية فى المعركة التى صاحبت الانسحاب) .

ان الصدمات الأولى هى أسوأ الصدمات . كان كل واحد منا يلتمس القوة من كلمات رفيقه ـ وقد وجدناها . عرفنا انه لم يكن هناك من سبيل آخر . آمنا ايمانا شديدا بأن هذه التضحيات لن تذهب سدى ، وآمنا ايمانا تاما بالنصر النهائى ، وكان كل واحد يشحذ عزيمة الآخر .

عملت أيضا مع « آريه » لفترة قصيرة من الزمن ، فقد قبض عليه

---

(١) «هيليل كوك» ابن أخى كبير الحاخامات المعروف «كوك» بالقدس . كان معروفا فى الولايات المتحدة باسم « بيتر بيرجسون » وكانت عبقريته فى المحافظة على القاء أضواء الدعاية الشديدة على كفاح « ارجون » عاملا هاما فى نجاح التمرد .

فى ربيع سنة ١٩٤٤ ، وربما كان وقوعه فى الأسر أيضا نتيجة التشهير ، أو لعله يرجع بصفة غير مباشرة الى سذاجتنا أو الى غلطة وقعنا فيها بسبب الاهتمام بعمل رفاقنا وأصدقائنا فى الخارج . كنا نخشى أن يكون اختفاء « آريه » نهائيا دليلا خطيرا ضد أولئك الذين كان معلوما انهم زملاؤهم فى اللجنة العبرية فى الولايات المتحدة ، وقد تنجح بريطانيا حينئذ فى اقناع الامريكيين بتضييق الخناق على عمل اللجنة الذى لا يقدر بثمن ، أو قد يؤدى الأمر الى نفى أعضائها . ثم اننا افترضنا، فى نفس الوقت، ان « آريه » اذا بقى فى حالة « نصف اختفاء » فاننا بذلك نضرب عصفورين بحجر واحد ، اذ يحتمل أن يبقى بمنجاة من القبض عليه ، وحتى اذا ألقى القبض عليه فسرعان ما يخلى سبيله على أساس انه لم يلجأ الى الاختفاء ، ولذا فبينما كان « آريه » يمارس عمله بصفة سرية كان ينزل علانية فى فندق . لقد كان افتراضنا خاطئا ، فقد قبض على « آريه » وبقى مقبوضا عليه الى أن استطاع هو من تخليص نفسه ، اذ هرب هو الآخر من معسكر اعتقال فى « اريتريا » . وتعتبر مغامراته فى حد ذاتها ضربا من ضروب البطولة .

أما « الياهو لانكين » الذى جاء أصلا من « هاربين » فقد كان واحدا من عمد الكفاح ، وهو مثالى صميم ، يجود بنفسه جود السماح من أجل صديقه ـ وتلك روح حب الغير الحقة . أحببت « الياهو » من كل قلبى ، وكان جميلا دائما ان استمع الى عباراته المتأملة ، سواء كانت تقديرا للاعمال التى تمت أو نقدا للاعمال التى لم تتم . ولم يكن ذلك هو شعورى أنا وحدى نحوه ، فقد احبته المقاومة السرية جميعا . كان « الياهو » عضوا فى القيادة العليا ، كما كان قائد القدس المحلى فى نفس الوقت . اشترك « الياهو » فى عملية الهجوم على مركز رئاسة ادارة المباحث الجنائية بالقدس (ولا تزال أنقاضه ترى فى طريق «ماميله» تذكارا للتمرد) تحت امرة القائد الميدانى الذى كان تابعا له . ولم يمض طويل وقت بعد هذا الهجوم حتى اقتفى « الياهو » أثر الكثير من الآخرين من رفاقى ، فقد غدروا به فى قلب القدس ونفى الى ارتريا وهرب هو الآخر من معسكر الاعتقال . ولا تقل ملحمته ـ وهى رواية حقيقية ـ اثارة عن « ملحمة أو أوديسا هوميروس » التى كان يتغنى بها دائما . كان « الياهو » أول الهاربين من المعتقل الذين وصلوا الى أوروبا حيث تولى قيادة منظمة ارجون فى الخارج ، ثم تولى ، فيما بعد، قيادة رجالنا على ظهر السفينة « أتالينا » .

كان أصغر أعضاء القيادة سنا « دانى » ـ « شلوموليفى » ـ

وهو ابن اسرة رائدة ، جاء من « بتاح تكفـا » . جنـدى وضابط من الأول الى الآخر ، كرس نفسه للأرجون وعمــل رئيسا لهيئــة أركان الحرب منذ بداية التمرد الى أن قبض عليه . كنت متعلقـا به تعلقـا شديدا ، وكنت أعتبره أخا صغيرا أو ابنا كبيرا . لقـد وقع أيضـا فى الأسر . وعند القبض على « الياهو لانكين » أرسل « دانى » ليتـولى القيادة فى القدس ، وبينما هو فى الطريق اليها اوقفت داورية بريطانية سيارته ، ومن سيارة ثانية كانت تتابعه نزل موظف من موظفى الوكالة اليهودية وأشار الى « دانى » ثم قال : « هذا هو الرجل » .

كان « دانى » ، هو الآخر ، من المجموعة الـكبيرة التى هربت من معسكر اعتقال ارتريا ، الا أن الحظ لم يحالفه فألقى القبض عليه مرة آخرى ، ولم يعد الى الوطن الا عند تصفية الحكم البريطانى .

بعد تشكيل هذه القيادة ببضعة أشهر ، انضم اليهـا « يروحام ليفنى » الذى كان معروفا باسم « آيتان » ، وهو أول مدير لعملياتنا . كان « آيتان » ذا ادراك غير عادى ، أظهر مقدرة خارقة فى وضع خطط الهجمات الحربية التى قامت بها ارجون ، ولكنه وقع فى الأسر أثنـاء الانسحاب من سلسلة من العمليات المتفرقة فى الجنوب . عندئذ جاء « حاييم لستر » وتولى قيادة هجوم آخر ، وهو « الهجوم المضـاد » لمحاكمة واحد وثلاثين جنديا من أرجون أمام « المحكمة العسكرية » فى القدس .

اعتاد « آيتان » أن يزور دارى دائما وهو يؤدى واجبه ليـلا أو نهارا ، وكان يدخل من النافذة كلما وجد البـاب مغلقـا . كانت تلك ضرورة لا يمـكن تجنبها ، الا أن جيرانى لو انهم شـاهدوه اذن لربما استدعوا الشرطة لتحمينى من « اللصوص » الذين يسطون على منزلى ولـكن جيرانى من حسن الحظ كان نومهم عميقـا . كان ابنى الصغير « بنى » متعلقا تعلقا شديدا بهذا العم المرح الذى اعتاد أن يقـدم له الألاعيب المضحكة ، وكان يطلق عليه اسم العم « موشى » ، وكان لـكل « عم » يزورنا اسم خاص يستعمله « بنى » الصغير . والأطفال أعداء التآمر بطبيعة الحال ، لكن هل يعرف الآباء — حتى ولو كانوا يعملون فى المقاومة السرية — ماذا تلتقطه آذان أطفـالهم دائما ؟ لقـد كنا حذرين دائما ، الا أن الطفل البالغ من العمر ثلاث سنوات استرق السمع ذات مرة ، فقد سألنى يوما وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :

« يا أبى ، أين العم موشى الذى يسمى يروحام ؟ » .

دهشت لهذا السؤال المفاجيء الخطير ، الا انني ، من ناحية اخرى ، لم أستطع مقاومة شعوري بالسرور لحدة ذكاء الطفل ، اخبرت الطفل : « لقد ذهب العم موشي الى حيفا ، وسيعود الينا » .

انه لشيء سيء من الطفل ان لم يستطع أن يخبر أباه بالحقيقة ، وهو شيء أسوأ ان لم يستطع الأب أن يقول الصدق لابنه . انه ، بالاضافة الى التضحيات العظيمة الواضحة الفطرية فى كفاح المقاومة السرية ، قد تفرض الأحوال أحيانا تضحيات أخرى خافية غير ظاهرة قد تبدو تافهة ولكنها جد مؤلمة .

لماذا ذهب الى حيفا ! لعل الآباء أن يغفروا لأبنائهم اذا كانوا يحملونهم على الا يقولوا لهم قول الصدق من أجل الكفاح الضرورى ، ولعل الأبناء ـ بدورهم ـ أن يسامحوا آباءهم عن نفس الغلطة . العم « موشى » يا بنى هو « يروحام » حقا ، وهو لم يذهب الى حيفا وانما ذهب الى القدس ، ذهب الى السجن ، ومن هناك ذهب الى عكا ، الى السجن مرة أخرى ، لمدة خمس عشرة سنة ـ هكذا قال البريطانيون . الا أن العم « موشى » رجع الينا من عكا ، لا من حيفا ، رجع الينا قبل انتهاء الفترة التى قضت عليه بها السلطات البريطانية بأربع عشرة سنة .

(٣)

من كل ما حدث لقيادة ارجون العليا وتطورها يمكن استنتاج نتيجة هامة للمجادلة التاريخية الفلسفية بين « المثاليين » و « الماديين » : أى الأشياء هو السبب وأيها النتيجة ؟ هل يصنع الرجال الأحداث ، أم أن الأحداث التى لا مفر منها هى التى تصنع الرجال ؟ لم نجد لهذا السؤال الراجح الوزن اجابة فى القبو الذى كنا فيه تحت الأرض ، ولكننا تعلمنا أنه ما ان تتبلور فكرة حتى تخلق الرجال الذين عملوا على تحقيقها . واذ عرفت هذه الحقيقة فانى أؤكد أنه لو أننا نحن أعضاء أرجون جميعا كنا قد وقعنا فى الأسر أو قتلنا فى أية مرحلة من مراحل التمرد ، اذن لقام غيرنا مقامنا ولحاربوا الباغى الى أن تحل به الهزيمة . تعلمنا أن الهدف يجعل من الضعفاء أبطالا ، ومن الجنود ضباطا ، ومن الشعب العادى ساسة عقول وقلوب ، ومن النظريين رجالا عمليين ، ومن الطلبة استراتيجيين . قرأت فى جهة ما تكذيبا للنظرية القديمة بأن الطبيعة تمقت الفراغ . ان الشيء المؤكد هو أن الفكرة لا تطيق فراغا فى صفوف أولئك الذين ينبغى لهم أن يضعوها موضع التنفيذ . ولا يعرف أحد كيف أو متى يحدث ذلك ،

الا أنه يعنى أن الفراغ لابد وأن يشغل ، عندما قبض على «آريه بن اليعازر» بدا كل شيء وكأنه يرجع القهقرى ، وعندما وقع « يعقوب ميريدور » في أيدي العدو ظننت أن الضربة ستكون قاضية • ولما غدر « بالياهو لانكين » لم أذق للراحة أو الهدوء طعما ، وعندما أخبرتنى أخت « شلومو ليفى » الصغيرة بنبأ القبض على أخيها فاض بي الغم ، وعندما سقط « آيتان » مع ثلاثين آخرين من بينهم أحسن ضباطنا بدا أننا خسرنا كل شيء • كان هؤلاء الاشخاص عمد ارجون حقا وصدقا • فمن ذا الذى سيحل محلهم ؟ ومن الذى سيضطلع بالعمل ؟

الا أن مكان كل شخص من هؤلاء شغله غيره ، وقد تم العمل لأنه يجب أن يتم • كانت الفكرة أشد منا قوة •

جاء « ابراهام » • كان واحـــدا من ضباطنا في حيفا ، وسرعان ما أصبح حجر الزاوية في منظمتنا • انه نبع دائم من الطاقة ، لا يعرف الكلل ولا يأبه للعقبات • كان « ابراهام » في سني التمرد أشد الناس على أرض اسرائيل مشغولية • كان يعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم ولم تكن الابتسامة أبدا تفارق شفتيه وان لم تكن تصل الى قلبه دائما • كانت الأنباء السيئة تأتي اليه أولا ، وكان يتلقاها ثابتا كالطود •

ــ « هل ستفيق من هذه الضربة يا ابراهام ! » •

ــ « يا له من سؤال ، سيكون كل شيء على ما يرام ، لا تقلق ! » •

جاء «أميتسور » ولم يكن واحدا من خيرة رجال منظمتنا وحسب ، ولكن كان أيضا عقله من أرجح ما صادفت اطلاقا • انني لا أذكر أبدا أنه أبدى فكرة لم تكن مستوفاة درسا وتمحيصا • لم أكن أغتبط فقط لاستماعى لكل ما كان يقوله ، بل كنت أيضا أستمتع بمشوراته • كان « أميتسور » ذا حظ عظيم • لم يقع قط في قبضة البريطانيين ، وعندما ألقى القبض عليه يوما كان ذلك على أيدى زملائه اليهود !

جاء « جدعون » ، وكنا نسميه « جيدى » كان صغير السن ، فعندما خلف « آيتان » رئيسا للعمليات كان لا يزال في مستهل العشرينات • ان أعمال هذا الرجل الحدث ، الذى كانت قدراته تدانى عبقريته ، سوف يذكرها له خصومه طوال حياتهم ، فقد وضعت ، أو نفذت ، خطة أكبر وأجرأ عملية لمصادرة الأســلحة بمعرفة « جيدى » • خرج في احــدى المناسبات ليزود ارجون بكمية ضخمة من الرشاشات والبنادق والذخائر • عارضت فكرة قيادته للعملية بنفسه في أول الأمر • كان ضباطنا يرغبون في أن يكونوا دائما على رأس رجالهم في العمليات ، ولم يكن كبار الضباط

مستثنين من هذه الرغبة • كنت أعرف هذه الرغبة • لم يكن الخروج مع الرجال معبدا فى حد ذاته وحسب ، ولكنه كان كذلك أسهل على الضباط من انتظار عودة رجالهم • ان ضباط المقاومة السرية ليسوا « كضباط الجيش » الذين يقدرون الخسائر من رجالهم كما لو كانت هـــذه عملية احصائية ، بل انهم بمثابة الآباء والاخوة لرجالهم ، ولذا فأيامهم أحزان ولياليهم ألم مبرح ، ومن ثم كان ذلك الالتماس الهادىء ولكنه التماس ملح أشد الحاح : « دعنى أخرج مع الرجال » •

كان علينا أن نكافح – بعضنا مع بعض – للتغلب على هذه الرغبة• كلا ، لم يكن هناك مشاهد تمثيلية ، انما كان هناك كثير من الاغراء ، اغراء بغير حدود فعلا • كان « جدعون » يعرف الرغبة كما كان يعرف القلق كليهما على حد سواء • وغالبا ما طلب الاذن بالخروج مع رجاله ، وغالبا ما كان نصيبه الرفض • الا أنه كان يثور فى بعض المناسبات ، وكان يجادل بكيفية مقنعـــة بحيث يحقق غرضه • وكانت احـــدى هذه المناسبات مناسبة الهجوم على مطار سلاح الطيران الملكى البريطانى فى « عكير » أى « عيكرونى » •

قال « جدعون » بأسلوبه الهادىء المألوف الذى يخفى شـــيمته المتقدة :

« ان هناك كثيرا من الأسلحة والذخائر ، وهذه فرصـــة نادرة ، ويتعذر على أن أعهد بالعملية الى أحد غيرى » •

« ماذا عن يوشع واريه وحاييم •• ؟ » •

ثم رددت عليه أسماء عدد من ضباط الميدان ممن كنت لا أعرفهم معرفة شخصية ولكننى كنت أعرفهم عن طريق شـــهرتهم وانجازاتهم وقدراتهم •

« نعم • ربما أخذتهم معى ، فالعملية جد خطيرة تعترضها الصعوبات فى كل خطوة ، ولكنى أشعر بأنه يجب على أن أذهب بنفسى ، لأننى حقيقة لا أستطيع أن أهيىء لها فرصة عادلة بغير هذا » •

وهكذا استمر النقاش ، وهو واحد من مناقشات كثيرة كانت تجرى فى المقاومة السرية التى تعرف القليل من المرح والكثير من القلق •وكسب « جدعون » فى هذه المرة •

عمل بأسرع ما يمكن • أعدت الجماعة • بدت أشبه بوحدة بريطانية

تماما : البزة العسكرية ، غطاء الرأس ، الأسلحة ــ كان كل شيء على مايرام ، حتى اللهجة ، وبخاصة لهجة « جاكسون » الاسكتلندية ، كانت متقنة • دبرت التصاريح ، فهى على درجة عظيمة من الأهميـــــة • كان جنودنا قد قاموا فعلا بكثير من الاغارات الناجحة على المعسكرات الحربية البريطانية واستولوا على أسلحة أكثر مما كان يلزمهم ، الا أننا كنا فى مسيس الحاجة الى مزيد منها • ولذا صـــــدرت أوامر خاصة لتحـذير المعسكرات عامة من محاولات أرجون لاشباع شهيتها المفتوحة للأسلحة • وقع فى أيدينا واحد من هذه الأوامر ، وقد جاء به : « يبدو أن أرجون تفتقر الى الأسلحة الاوتوماتيكية (ولم يكونوا فى ذلك مخطئين) التى تحاول أن تحصل عليها من مستودعات الأسلحة البريطانية » • اعترف واضع صيغة هذا الأمر بأن اغارات أرجون التى تستهدف الأسلحة كانت « مدبرة بعناية ونفذت بجرأة » • وبناء على ذلك ــ فقد صدرت قائمة بالتعليمات التى تهدف الى تهيئة أقصى درجات الأمن لمستودعات الأسلحة وطرق الاقتراب اليها ، مع ايضاح وسائل التعرف على الأشخاص وما الى ذلك • وبمضى الوقت أحكمت هذه الأوامر وأتقنت ، وكلما نقصت فاعليتها ازداد عدد ما يصدر منها • الا أننا لم نتوقف البتة حتى نهاية حربنا ، عن أخذ الأسلحة من قوات الحكومة ، على الرغم من جميع التدابير وبصرف النظر عن اللوحات الكبيرة والاعلانات الضخمة المعلقة فى جميع المعسكرات والتى تحذر الجنود • « ان بدلتك العسكرية ليست دليـــــلا على تحقيق شخصيتك » • ولذا كان على كل جندى أن يحمل الأوراق التى تثبت للحراس الذين يرتابون فيه أنه جندى بريطانى حقا • لم يكن ذلك اجراء معضلا ، وخاصة اذا كان الحارس نفسه هو الذى يتنكر أحيانا فى هيئة جندى بريطانى ! •

أعدت الأوراق المطلوبة لمعسكر « عكير » وأعطى « جدعون » التوجيه التفصيلى المعتاد • فتش الجماعة ، وكان أفرادها جميعا على أحسن مايرام • ثم فتشت الجماعة « جيدى » ، فكان منتظما هو الآخر : نقيب (كابتن) بريطانى !

هل كل شيء تام ؟ فلنمض اذن (تقعدون بعافية) الى « عكير » •

ان عبارة « تقعدون بعافية » ترجمة حرفية للعبارة الشلختية • • Abi Gezunt • كانت هذه العبارة تحية الوداع التقليدية لجنود أرجون قبل أن يمضوا الى المعركة • لم تكن شعارا غير تمثيلى بدون معنى واضح ولكنها كانت على لسان كل انسان ، بما فى ذلك المولودون فى فلسطين الذين لا يتكلمون اللغة الشلختية ، بل أن اليمنيين الذين لا يعرفون معنى المفردات كانوا يدركون مغزى العبارة تماما •

« تعدون بعافية » ترمز الى هدوء محاربينا فى قرارة أنفسهم • كما انها ترمز الى تفادى الأذى • فاذا ذكرت احتمال انفجار اطار لسائق سيارة على وشك أن ينطلق بسيارته الى الطريق ، فانه يود أن لو يلتهمك حيا • وانك لترى الطيار ، الذى طار ألف ساعة ، يبحث عن جميع أنواع الاشارات فى الجو وعلى الارض لكى يضمن النزول الى الأرض بسلام • حتى الطلبة تراهم ينشدون الفأل الحسن قبل أداء الامتحان ، حتى ولو كان ذلك الامتحان غير عسير • وانى لأذكر الطلبة من جيلى وهم يطلبون دائما أن يودعوا بعبارة « لتكسر رقبتك ! » • ان اصرارا عجيبا كان يوحى اليهم ان مجرد تمنى عكس الشىء انما هو بمثابة تعويذة أو تميمة • واذا نسيت أن تقول هذه العبارة السحرية ، وتمنيت لهم ، بدلا منها ، «حظا سعيدا» أو « نجاحا باهرا » ، فانهم قد يرمون كل كتبهم فى وجهك •

كان محاربو المقاومة السرية ، بأستثناء نفر قليل منهم ، لا يؤمنون بهذه الخزعبلات ، فقد كانوا يعلمون ــ كلما ذهبوا الى محاضرة فى التدريب أو الى تلقى التوجيه الى العملية نفسها ــ انهم كانوا متجهين رأسا الى خطر الوقوع فى الأسر أو الاصابة أو الموت • ولكنهم كانوا يذهبون وعيونهم مفتوحة ، وما كانوا ليخشوا أن يتحدثوا عن المستقبل قبل خوض المعركة ، وما كانوا ليبحثوا عن التمائم والتعاويذ ، ولكنهم كانوا يحرصون على بشاشتهم • لا تمثيليات أو مسرحيات ، بل مجرد « تقعدون بعافية » • ولعله كان يطيب للسلطات العسكرية أن تدفع ثمنا غاليا نظير معرفتها سر هاتين الكلمتين ، ومعرفة الأماكن التى كانتا تترددان فيها • الا أن هاتين الكلمتين كانتا من أسرار المقاومة •

وصلت جماعة « الكابتن » جدعون الى « عكير» بسلام : عربة محملة بالجنود ، أسلحتهم « فى وضع الاستعداد » لصد الارهابيين ، وسيارة جيب تحمل الضابط ومساعديه • كان كل شىء يبدو طبيعيا فى نظر البريطانيين الذين مروا عليهم وهم فى الطريق ، كما كان طبيعيا كذلك بالنسبة للعرب الذين كانوا يستمتعون بتدخين النارجيلة (الشيشة) ويرقبون التراب الذى كانت تثيره العربات • ولم يكن الأمر هكذا طبيعيا فى حى هاتيكفاه (١) • ضابط بريطانى وجنود بريطانيون ! الا أن حى هاتيكفاه كان يعرف كيف يحفظ السر : « تقعدون بعافية » •

عندما وصلت الجماعة الى بوابة المعسكر فحصت أوراق الرجال

(١) ضاحية تل ابيب التى يسكنها يهود اليمن أساسا •

فحصا رسميا دقيقا ٠٠ كان كل شيء على مايرام ٠ وبخاصة لهجة «جاكسون» الاسكتلندية ٠ لقد انطلقت الجماعة الى داخل المعسكر وعرفت طريق مستودع الأسلحة الضخم ٠ أوقفت العربة بحيث لايراها أحدمن الخارج ٠٠ رائع ! كان فى داخل المستودع كثير من الجنود البريطانيين وكثير من العمال ، أغلبهم من العرب وقليل منهم من اليهود ٠ انتشر أفراد الجماعة فى الخارج واتخذوا مواقعهم ٠ كانت أعينهم تلمع ٠ أسلحة! يا لها من كميات ضخمة ! صمت عجيب ٠ متى سيبدأ « جيدى » ؟ كان « جيدى » منتظرا ٠ الجنود البريطانيون الحقيقيون يؤدون التحية للكابتن المشوق القوام ، وكان الكابتن يرد تحيتهم ٠٠ وضع « جيدى » يده على مسدسه ثم قال فى هدوء :

« ارفعوا أيديكم ، من فضلكم ! » ٠

ظن الجنود البريطانيون ان الكابتن كان مخمورا ٠

« ما هذا ؟ » ٠

« ارفعوا أيديكم ! » ٠

« أفنـــدم ؟ » ٠

« ارفعوا أيديكم ٠٠ أسرعوا ، اننى لست ضابطا بريطانيا مرذولا ، أنا ارهابى من أرحون تسفاى ليومى » ٠

ارتفعت الأيدى ، ارتفعت بسرعة ، فقد تعلم الجنود البريطانيون من تجاربهم أن طلبا كهذا من أرجون يجب أن يوضع موضع التنفيذ فورا ٠ بل لقد اضطروا الى أن يساعدوا فى شحن الأسلحة ، وهكذا تم الشحن بسرعة ٠ لم يكن هناك وقت ضائع ٠ كان رجالنا يعملون بهمة مضاعفة ، وكان البريطانيون يعملون كذلك بجهد زائد ٠ امتلأت العـــربة ٠٠ رشاشات ، ورشاشات قصيرة ، وذخيرة ٠ « هل يكفى هذا » ؟ « لا ، انه لا يكفى ٠ خذ جانبا آخر » ٠

ربما انهم أخذوا أكثر مما ينبغى ٠ كان الفصل ممطرا الطرقات موحلة ٠ ودائما ما كنا نستخدم الممرات والطرق الثانوية كلما كان ذلك ممكنا ، فقد كان ذلك مما يساعد على عنصر المباغتة فى الهجوم ويسهل الانسحاب ٠ الا أن الطريق كان موحلا جدا ٠ انغرزت العربة فى الطين على مقربة من المعسكر ثم غرقت فيه ٠ يمكن تصور الجهود التى بذلها الرجال لدفع العربة ٠ وفى الوقت نفســه انطلقت وسائل الانذار فى المعسكر

واندفعت السيارات المدرعة هنا وهناك ، وانطلقت الطائرات من مدارجها محلقة في الجو • الكل يبحث ويتصيد • كانت قوات العدو كبيرة • ومع أنه كان من المحتمل أن تتكبد خسائر جسيمة ، الا أن الاشتباك معها فى معركة كان أمرا ميئوسا منه • استحال دفع العربة للسير وصعب انقاذ الكنز • ولم يكن هناك خيار سوى سيارة الجيب ! حمل كل جنـــدى ما استطاع أن يحمله من العربة الغارقة فى الطين • كانت السيارة الجيب تئن تحت حمولتها الثقيلة ، الا أن سيارات الجيب تتميز بقوة سـحب فائقـة •

عاد الرجال وقد أحضروا معهم كمية صغيرة من الأسلحة •

بل ان الأهم من ذلك أنه لم تكن هنـــاك خسائر فى الأرواح ، من ذا الذى يستطيع أن يصف الاكتئاب ؟ يآلها من سخرية مريرة ! اننا لم ننس البتة ، حتى آخر يوم من أيام المقاومة السرية ، كم أسفنا على حمولة العربة من الأسلحة التى ضاعت •

كنا نستسيغ هذه العمليات ، عمليات المصادرة • كنا نستسيغها بصفة خاصة ، فقد كانت نقمة للعدو ونعمة لنا • لم تكن نهـاية هذه العمليات دائما طيبة وسيئة معا مثل نهاية عملية « عكير » • كانت هناك عمليات رجعنا منها بكميات كبيرة من الأسلحة الحديثة ، وكانت هناك عمليات جرت فيها معارك • ومع ان التفوق العددى لقوات الحكومة كان ساحقا بصفة دائمة ، الا انها لم تحرز انتصارا أبدا • هنـــاك عملية « صرفند » حيث أصيب « أشبيل » و « شمسون » ووقعا أسيرين بعد ان كتبا فصلا فريدا فى التمرد • وكانت هناك عملية « رامات جان » التى أصيب فيها « دوف جرونر » • كانت هناك عمليات اشتركت فيهـــا العبقرية اليهودية التقليدية مع البطولة اليهودية ، التى بعثت بعثا جديدا فى ممارسة أعمال كانت أقرب ما تكون الى المعجزات •

كان « جيدى » هو الروح الملهمة لكل هذه العمليات بعد أن ألقى القبض على « ايتان » • كان شخصية ممتازة ، يجمع بين صفات فريدة : عقل مبدع ، ويدين بناءتين • كان مخططا ومنفذا • كان له رصيد وافر من الابتكارات الفنية والتكتيكية التى لا تعد ولا تحصى • ابتدع مدفع الهاون الثقيل الذى يعمل كهربائيا • والذى كان يطلق عليه البريطانيون لسبب ما ، اسم « فى ٣ » • وقد تطور عن هذا المدفع أخـــيرا مدفع « ديفيدكا » المشهور فى جيش اسرائيل • اخترع « جيدى » أيضا لغم التماس لتخريب السكك الحديدية ، وهذا اللغم الذى أثبت عدم جدوى التدابير المضادة له جميعا ، فلا يمكن تعطيله ، بل لقد دفع كل من حاول

تعطيله عن العمل حياته ثمنا لاهماله لتحذيراتنا • كانت القاطرة الكشافة تمر فوق المنطقة الملغمة دون أى حادث ، وما أن يتبعها القطار حتى ينفجر وتتطاير أشلاؤه فى الهواء • صمم اللغم على أساس الوزن فلا يفجره الوزن الخفيف ، أما الأجسام الثقيلة فانها تتحطم بمجرد التماس به • واللغم مزود بجهاز توقيت يسمح بالانفجار الزمنى بعد يوم أو يومين أو ثلاثة أيام ، بل قد ينفجر بعد عدة أسابيع • لقد تمكنا فى وقت ما من شل حركة السكك الحديدية فى الاقليم بواسطة هذه الألغام • ظل عقل « جيدى » يبتكر ويبتدع فاخترع « الغاما خاصة للطرق و « قاذفات اللهب » و « أوعية اللبن » • و « قنابل البرميل » • وهو الذى وضع خطة الهجوم على « عكا » • أنزل « جيدى » بالاشتراك مع « شيمشون » قائد عملية « عكا » ، ضربات هائلة بقوات الحكومة ابان فترة الاحكام العرفية • ويعتبر « جدعون » أهلا لأن يسىء « فاتح يافا » بعد « سيمون هاسمونيان » •

هكذا كان « جيدى » : كتوما ، عنيدا ، يحبه الجميع ، متواضعا ، عمليا ، يمقت الدعاية • وانك لا تتصور عند رؤيتك لهذا الرجل المتواضع النحيل ، الحدث ، أنه هو الذى كتب بيده صفحة كاملة فى التاريخ العسكرى لشعبنا •

من أين جاء ؟ كان « جدعون » ، فى وقت ما ، فى الهاجاناه ، وكان أخوه الذى عمل سكرتيرا لاسرائيل جليلى من بين المفقودين الثلاثة والعشرين فى العمليات الحربية فى سوريا ابان الحرب العالمية الثانية • لقد اجتذبته الى صفوفنا مثلنا العليا وصار « اميهاى » الصغير « جدعون » الذى قدم هذه الأشياء العظيمة تحقيقا لهذه المثل ومن أجل حياة شعبه •

بالاضافة الى « جدعون » و « أميتسور » و « أبراهام » ، انضم الى القيادة العليا مع مضى الزمن « يوئيل » و « رويفين » و « اسحاق » و « صمويل » • وكان « يوئيل » رئيس مخابراتنا ، قليل الكلام بما يتلاءم وواجبه • كان رجلا عمليا وواحدا من أهدأ الناس الذين صادفتهم وأكثرهم رباطة جاش • كان فى هيئته وملبسه أشبه برجل انجليزى مثالى • حذرتنا ادارة المخابرات ، التى كان يرأسها ، المرة تلو المرة من زوجته ــ وهى محاربة مخلصة ــ لأنها كانت ترى فى صحبة رجل انجليزى • عندما كنا على وشك الظهور من تحت الأرض الى ميدان المعارك المكشوفة سافر « يوئيل » ، بناء على طلبه ، الى الخارج لتدبير الأسلحة التى كنا

في مسيس الحاجة اليها • وتنفيذا لهذا الواجب بذل جهدا فائقا وكابد الكثير من المشاق •

كان « رويفين » الرجل العملي المنتج • تولى قيادة منطقة تل أبيب الشاسعة سنين طويلة • وهو الذي نظم فصيلة الخدمة الطبية وادارة لاسلكي المقاومة السرية ، كما نظم طريقة تخزين الاسلحة — وتلك مشكلة سريعة التقلب — وكان منوطا بانتاج اسحلتنا عندما بدأنا سياستنا البعيدة المدى للاستعداد للصدام مع العرب اجراء « هوايت هول » •

و « اسحق » واحد من أقدم ضباط أرجون • عهد اليه بمشاكلنا المالية والتنظيمية ، ودائما ما أفادتنا خبرته الواسعة •

أما « صمويل » فقد كان كسبا جديدا للقيادة العليا • جاءنا من جنوب أفريقيا ، وفي غضون شهور قلائل كان واحدا منا تماما يحبه الجميع ويحترمونه • وهو واحد من أعقل الرجال ، وكان الناطق بلسان ارجون للمراسلين الأجانب ، وفي الفترة الحاسمة كان الضابط المسئول عن القدس الى أن حلت كتائب أرجون تسفاي ليومي العسكرية •

(٤)

ان قصة أعضاء القيادة العليا هي قصة ضباط أرجون عموما ، فقد وشي بكثير منهم ، ونفي ، ووقع في الأسر ، وقتل كثير • وان أولئك الذين حلوا محل هذه الكثرة منهم كانوا أصغر سنا وأقل تجربة ، فهل استطاعوا الاضطلاع بمسئولياتهم ؟ نعم ، استطاعوا •

كانت قوة العزيمة عوضا عن التجربة ، وكان الاخـــلاص دعامة هيبتهم ، وكان ناتج محبتهم ووفائهم محبة تابعيهم ووفاءهم • قبض على ثلاثة من القادة المحليين في حيفا ، بعضهم في أثر بعض ، وغدر بأربعة آخرين في القدس لدى السلطات البريطانية ، واحد بعد الآخر كذلك • وتولى القيادة بعدهم ضباط أصاغر ، « آريه » و « عمنون » و « ورعنان » و « ألون » و « تامير » و « أليتسور » ، فأثبتوا أنهم كانوا أهلا للثقة التي وضعت فيهم •

أصبح هؤلاء الناس كلهم أصدقائي • بل أكثر من هذا ، كنا جميعا أشبه بالاخوة • كان الحب العميق المتبادل — حب المحاربين الذي لا يعدله حب آخر — هو سبب سعادتنا • وربما كانت تلك هي سعادتنا الوحيدة في ظلام المقاومة تحت الأرض ، وفي جيشنا الصغير ، جيش الحرية • كانت تحكمنا روح صادقة من الأخوة قل أن توجد روح مثلها • ولم يكن من قبيل الصدفة أن واحدا من الأسماء المستعارة التي كنا نتخذها لارجون

هو اسم « الأسرة المحاربة » • كنا أسرة ، وكانت هناك ثقة متبادلة • كل واحد منا كان مستعدا لأن يقدم روحه من أجـــل رفاقه • كانت الصحافة كلها تكتب كل يوم أشياء تشمئز منهـا النفس عن أرجون ، وبخاصة عنا نحن الضباط • كان الأعضاء يعرفون قليلا جدا عن رفاقهم • انهم لم يروا كبار ضباطهم ، كما أنهم لم يكونوا يعرفون حتى من هم ، ولذا كانت الثقة المطلقة بأن هؤلاء الرجـــال المجهولين لم يكونوا هم المخلوقات الشيطانية التى كانت تصفها الصحافة بأقلام غمســت فى حامض الكبرتيك • لماذا كانوا يواجهون الموت دون ان ينكصوا أو يرتدوا على أعقابهم ؟ لماذا كان اخلاصهم غير المعقول ؟ سيكون لنا عود الى هذه الاسئلة • واذ أكتب عن جيش المقاومة السرية فى هذا المقام لابد لى أن أذكر واحدا من العوامل التى جعلت أرجون أسرة محاربة فعلا لا قولا • ان الحب ـ حب المثل الأعلى ـ هو الذى سكب المحبة الاخوية المتبادلة فى قلوب المحاربين ، وكانت تلك المحبة هى سر قوتهم •

وما كان لهذه العلاقات الاخوية أن تؤثر على روح الضبط والربط ، بل انها دعمتها • كان الضبط والربط شديدين فى ارجون • لا ينشأ الضبط والربط أو النظام فى جو من الاكراه • كانت أرجون واحدة من المنظمات السرية القليلة التى تسمح لأعضائها بالاستقالة من صفوفها • وعلى الرغم من المخاطرة باذاعة الأسرار ، لم نحاول البتة أن نجبر أى شخص على البقاء فى ارجون اذا ما هو اراد أن يتركها • كان هناك بعض اعضاء ممن تركوا العمل ، وقد عاد بعض منهم ولم يعد البعض الآخر • لا أود أن أخلق شعورا بأن كل شىء فى ارجون كان على أتم ما ينبغى • ان مواطن الضعف البشرى تعمل عملها فى كل مجتمع • هناك سوء التفاهم واليأس • الا أن القاعدة هى التى توضع موضع الاعتبار ، لا الاستثناء • الواقع أن الضبط والربط لا ينبثقان من الاكراه الخارجى الذى لم يكن له وجود هناك ، ولكنهما كانا ينبعان من الادراك الداخلى العميق • الأغلاط؟ الأخطاء ؟ حبوط المسعى ؟ كان لدينا من كل ذلك بالطبع • لسنا فى حاجة الى الأساطير ، فالحق أدق من أية أسطورة • والحق أن أسرة المتمردين كانت منطلقة فى الضبط والربط تماما ، كما كانت صادقة فى الايمان •

احتفظنا بالرتب التى أدخلها « دافيد رازيل » • كان لدينا وكلاء عريف وعرفاء ، ورقباء ، ورقباء أوائل ، وملازمون ، ونقيب واحد : « يعقوب مريدور ولم تكن لهذه الرتب أية علاقة ـ اللهم الا فى حالات قليلة جدا ـ بمسئولية الضابط الفعلية أو بالواجب الموكل اليه • فالرجل الذى كان يتولى ، فى مرحلة ما ، قيادة آلاف من الرجال ـ كما حدث مثلا فى منطقة

تل أبيب ـ كان « ملازما » . أما فى الجيش النظامى فان الملازم يعهد اليه بقيادة بضع عشرات من الجنود على الاكثر . وأحيانا ما تولى الرقباء ، فى المقاومة ، قيادة بضع مئات من الرجال ، بينما تقع هذه المسئولية فى الجيش النظامى على عاتق ضابط برتبة نقيب أو رائد . لم يكن هناك أى تعارض فيما يتعلق بالرتب ، فقد كانت رمزا لدرجة المسئولية ، وان كانت متواضعة فى حد ذاتها ـ مثلها مثل حامليها . لم يكن هناك اختلاف بين الضابط وجنوده الا فى حمل المسئولية وثقل الواجب ، ولم تكن رتبة الضابط لتعطيه الحق فى أية ميزة عينية . كان رجل أرجون الذى يكرس يومه كله لجيش المقاومة يتناول راتبه طبقا لظروف عائلته لا طبقا لرتبته ـ هذا ان كان فى حاجة الى الحصول على راتب من المنظمة . كان الأعزب ـ يستوى فى ذلك العامل فى الصفوف أو العضو فى القيادة العليا ـ يحصل على « راتب » شهرى مقداره خمسة وعشرون جنيها (١٠٠ ريال وقتئذ) . كان لدينا سائقون ممن كانوا أرباب عائلات ، وكان هؤلاء يحصلون على « راتب » أعلى من راتب أعضاء القيادة العليا . وقد كتبت كلمة « راتب » بين اقواس عن عمد ، فقد كانت المرتبـــات فى أرجون تكفى بالكاد الاحتياجات الضرورية . لم تكن ميزانيتنا للانفاق على الأفراد بنسبة أكثر من ١٤٪ ، بل انها أحيانا ما وصـــلت الى أقل من ١٢٪ . أما اكتتابات اليهود والأشياء التى كنا نحصل عليها أحيانا من سلطات الانتداب ، فقد كانت مخصصة بطريق مباشر أو غير مبـــاشر لاحتياجات الكفاح الملحة ، والا لما استطعنا أن نفعـــل ما فعلنا . واذا كان لكلمة « التقشف » أى معنى فقد كان معناها شريعة أرجون وقانونها ، واذا كان لتعبير « الجيش الديمقراطى » أى مدلول فان « أسرة المحاربين » فى أرض اسرائيل كانت من أكثر جيوش العالم ديمقراطية .

كنا نختار يومين فى السنة لاعلان الترقيات ، هما يوم ١٤ نوفمبر ـ اليوم الذى قام فيه « دافيد رازيل » بهجوم أرجون الأول على أعداء شعبنا ـ ويوم ٢٩ يوليو ، يوم « تحطمت القيثارة المعجزة التى كانت الأولى من نوعها فى اسرائيل ، وذلك على حد ما كتبه « دافار » ـ وهو واحد من أشد خصوم « فالديمير يابوتنسكى » ـ بتاريخ ٣ أغسطس سـنة ١٩٤٣ عن وفاته فى نيويورك . ففى يوم احياء ذكرى المعلم وتلميذه وأول أعمال التمرد ، نكافىء الضباط والجنود الممتازين . كان يسود ارجون فى هذين اليومين جو الاجازة ، ولكن ارجون كانت تحارب معركة حياة أو موت ، ومن ثم كانت احتفالات الترقية ـ التى كانت تتم فى عدة

اماكن في آن واحد ـ تتخذ طابعا مهيبا • ومع اننا كنا لا نبالى كثيرا ، الا أننا جميعا كنا نعرف أننا قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة بصفة دائمة • كان هناك جو من الوقار والهيبة : الطوابير قصيرة ، وأقصر منها كانت الاوامر العامة ، ولا خطب ولا أحاديث ، وكان كل ما هناك قسما غير منطوق • كل ضابط يقدر المسئولية ويكرس نفسه من جديد لهدف التحرير • الاحتفالات قليلة في جيش المقاومة السرية ، الا أن هـــذه الاحتفالات القليلة كانت جد مثيرة للعواطف • لم يكن من السهل الوصول الى الرتب في ارجـــون ، التى كان « دوف جرونر » جنـــديا عاديا في صفوفها •

عرفت أن ذلك الأمـــر ليس بالأمر الســـهل الهين من تجربتى الشخصية فلم اكن أحمل رتبة ، ولم يكن ذلك راجعـــا الى مزيد من التواضع من ناحيتى ، ولكن كان مرجعه الى ضـــغط الظروف • كنت « جنديا » فى الجيش البولندى ، ولكننى حتى لو كنت « عقيدا » فان ذلك لم يكن ليجعل لى أية حظوة فى منظمتنا المحاربة • ان كثيرا من الرجال الذين كانوا ضباطا فى الجيوش المختلفة كانوا يفاخرون بأنهم وصلوا بعد عمل متواصل الى رتبة « رقيب » فى ارجون • كان الشرط الضرورى للرتبة هو اتمام دورة التدريب ، ومن سوء حظى أننى لم أتمكن من أتمام هذه الدورة ـ والتعليمات هى التعليمات ـ وبدون هذه الخطوة الأولى اللازمة لم اتمكن من الارتقاء • وقد كان ذلك داعيا « لسوء تفاهم دولى » ، فعندما قابلت ممثلى لجنة الأمم المتحدة الخاصة سألنى رئيس اللجنة القاضى « ساندستروم » رسميا عن السلطة المخولة لى لأتكلم باسم ارجون تسفاى ليومى •

سألنى فى هيبة تامة :

ـ « هل أنت جنرال ؟ » •

وكان أن ضحكت •

ـ « لا ، اننى لا أحمل أية رتبة » •

وانتهى هذا الحديث المبدئى بأن ضحك الجميع ، وارتسمت ابتسامة على شفتى السويدى المستر « ساند ستروم » المكتئب •

مع هذا ، كنت احمل رتبة من نوع ما ، ولكننى ما كنت لاستطيع أن أخبر القاضى « ساند ستروم » بها • لم تكن رتبة عسكرية ، بل الواقع أنها كانت غير متفقة مع العسكرية • كان أصدقائى فى حضرتى يسموننى

« القائد » ، الا أنهم كانوا يسمونني فيما بينهم « الرجل العجوز » . وأقر بأني أحببت التسمية الأخيرة ، فبينما كان شعري الآخذ في السقوط يوحي بأن هذه التسمية سرعان ما تصبح حقيقة لا استعارة ، كان استخدامها يعكس المحبة التلقائية الخالية من الادعاء والتظاهر ـ المحبة التي تنعش القلب .

تلك هي العلاقات التي كانت قائمة ابان سنوات التمرد في القيادة وفي الصفوف وفيما بينهما : اخلاص لا يتزعزع ، استعداد للتضحية غير محدود ، ولاء غير مشروط ، أخطار مشتركة ومعاناة مشتركة ، وفوق كل شيء رغبة أكيدة شديدة في النصر . هكذا حارب جنود ارجون جميعا وهكذا قامت جميع وحدات ارجون بواجبها .

(٥)

في بداية التمرد ، قسمنا ارجون الى عدد من الاقسام ـ بالاضافة الى القسمة الادارية والجغرافية ـ وكنا نطلق على هذه الاقسام :

١ ـ ايه . آر A.R. : جيش الثورة .

٢ ـ اس . يو S.U. : وحدات الصدام

٣ ـ ايه . اف A.F. : قوة الاقتحام .

٤ ـ آر . بي . اف R.P.F. : قوة الدعاية الثورية .

وبذا صممنا على أن يكون لدينا أربعة أقسام . الا أن الواقع أقوى من اية قرارات تتخذها قيادة أية قوة محاربة ، فقد وجد «جيش الثورة» نظريا . كان المفروض أن يعمل كاحتياط يضم جميع الجنود غير التابعين لأى من الأقسام الثلاثة الاخرى ، الا أن هذا الاجراء لم يكن عمليا . كان القادمون الجدد يمرون على هذا القسم ثم ينقلون الى أحد الأقسام الثلاثة الأخرى بعد اتمام تدريبهم الأساسى . ولم يكن في هذا القسم ضباط أو جنود مقيدون على مرتبة . وكان يوم جيش الثورة المشهود عندما ظهرنا من تحت الأرض لنخرض المعركة ضد الغزاة العرب ، وعندها انخرط كل رجل من رجال ارجون في وحدة من وحدات الجيش النظامى : جماعة وفصيلة وسرية وكتيبة .

ولم يقدر لوحدات الصدام أن تشكل اطلاقا . كان ذلك الاسم مجرد اسم جديد فقط أطلق على وحدة كانت قائمة بالفعل قبل التمرد .

كانت هذه الوحدة معروفة ـ لأولئك الذين كانوا يعلمون بوجودها ـ باسم « الجماعة الحمراء » أو « الجماعة السوداء » ، وكانت الفكرة من هذه الوحدة تستوجب الاهتمام ٠ كانت فكرة « يعقوب ميريدور » ، الذى افترض أن الكفاح من أجل التحرير سوف يتطلب رجالا مدربين تدريبا خاصا للعمل فى المناطق العربية فى كل من أرض اسرائيل والدول العربية على حد سواء ٠ ولذا كان الرجال المنتخبون لها من الشجعان ذوى البشرة السمراء ممن نالوا قسطا من التدريب الحربى ودروسا فى اللغة العربية ٠ وكان أن ظل تشكيل « الجماعة الحمراء » سرا حتى على اعضاء ارجون الآخرين ٠ كانت الفكرة من هـذه الجماعة هى فكرة « المقـاومة السرية داخل المقاومة السرية » ، وهى فكرة لم يقدر لها النجاح ٠ كانت فكرة جريئة ، الا أن تنفيذها أدى الى صعوبات جمة ، فعلى حين فجاة بدأ أفضل الرجال بل حتى الضباط ، يتركون ارجون ٠ وعجب الاعضاء المخلصون، الذين كانوا مع ارجون فى السراء والضراء ، من أمر هؤلاء ، ولم يفهموا شيئا ٠ هل هو هروب ؟ ومن شأن الهارب ان يضيف اللعنة الى الأذى ، وهو اذ لا يقنع بالافصاح جهرا بأنه لم يعد له شأن بالارجون ، يسـبها ويلعنها ٠ كان هذا السلوك من الرجال المخلصين والضباط البارزين خليقا بأن يحط من الروح المعنوية فى الصفوف ٠ كان ايضاح الحقيقة، بل الاشارة اليها ، أمرا متعذرا ، وعلى الرغم من هذا لم يمض الرجال الحقيقيون فى أعقاب الهاربين ٠ كان رجالنا محصنين بالمبادىء التى افلحنا فى غرسها فى قلوبهم : ان المثل الأعلى هو الشىء المهم ، لا الرجل ٠ هل ترك فلان أو فلان العمل ، وهل فر هذا أو ذاك ؟ ماذا يهم ؟ أنت ، أيها الجندى ، لقد أخذت على عاتقك مهمة تاريخية بوازع من الايمان الداخلى ، وان عليك أن تنجزها بصرف النظر عما قد يقوله أى شخص أو يفعله انكارا لهذه المهمة سواء كان هؤلاء الاشخاص من خصومك أو أصدقائك السابقين أو رفاقك أو ضباطك ٠ ان قائدك الاعلى ، باعتبارك جنديا من جنود الحرية ، هو القضية نفسها ٠

مع أن قضية « الجماعة الحمراء » افتتحت بالحزن والأسى ، الا انها انتهت بالفرح والسرور ٠ عندما بدأ التمرد ظهر الهاربون من جديد فى وحداتهم النظامية ٠ وكانت هناك مفاجاة مجددة ، الا أنها جاءت هـذه المرة فى صحبة الفرح السعيد ٠ بالأمس فقط كان فلان وفلان يلعنان الأرجون فى كل مكان ، وهاهما الآن ضابطان فى الخط الأمامى ٠ لقد

زالت الغشاوة التى رانت على الأبصار ، وعادت الصداقة • ومرة أخرى ارتفعت الروح المعنوية بعد ما عانته من الانحطاط •

كانت « الجماعة السوداء » تضم محاربين ممتازين ، وكانوا جميعا يشبهون العرب ، فأهل البلاد العربية ليسوا دون غيرهم من ذوى الوجوه السمراء • ان هناك كثيرا من اليهود الاشكنازيين من أوروبا لا يقلون سمرة ــ بل أحيانا ما يكونون أشد سمرة ــ من السفارديين القح ، وكان الشخصان الوحيدان اللذان أعرفهما شخصيا فى الوحدة قد أتيـــا من « لودز » فى بولندا • حقيقة ان كثيرا من المحاربين فى وحدات الصدام جاءوا من المجتمعات الشرقية ، ومن ثم كانت القصة التى بثتها الصحافة البريطانية بصفة خاصة عن الجماعة السوداء فى منظمة ارجون ، والتى زعمت فيها أن « الجماعة السوداء » تتكون من يمنيين فقط ، وقد ساعد هذه القصة بدرجة لا بأس بها بعض السياسيين اليهود الذين كانوا يرغبون فى الحط من قدرنا فهمسوا أو لعلهم جهروا بأن الارجون مكونة جميعهـــا من اليمنيين فقط • أما أعداؤنا الذين نشروا القصــص عــن « اليمنيين السود » من جهة ، وعن « طغمة الأوربيين الشرقيين » ، من جهة أخرى ، فقد كانوا بذلك يحاولون أن يخدشوا سمعتنا وينالوا من شهرتنا • وانه لمؤسف حقا أن ينحدر خصومنا السياسيون « اليهود » إلى هذا الدرك من القدح « العنصرى » الكريه الذى كان محببا لدى مروجى معاداة السامية فيما بين الحربين ، فقد درج النازيون على أن يقولوا : « ربما لا يكون اليهود كلهم شيوعيين ، الا أن الشيوعيين كلهم يهود » وبالمثل ، قال بعض الصهيونين عنا : « ليس كل اليمنيين أعضاء فى الأرجون ، الا أن كل أعضاء الارجون يمنيون » •

لا شىء اطلاقا من هذا القبيل • ففى وحدات الصدام ، وفى كل اقسام الارجون ، كان لدينا أعضاء جاءوا من الطوائف والطبقات اليهودية جميعها • كان عندنا أعضاء من تونس وهاربون من بولندا وايران ، من فرنسا واليمن ، ومن بلجيكا والعراق ، من تشيكوسلوفاكيا وسوريا ، كما كان عندنا مواطنون من الولايات المتحدة وبخـــارى ، ومن انجلترا واسكتلندا ، ومن الأرجنتين وجنوب أفريقيا ، وأكثر من هؤلاء وهؤلاء كان الأعضاء من أرض اسرائيل نفسها • كنا بوتقة الأمة اليهودية فى صورة مصغرة • لم نكن نسأل البتة عن المنبت الاصلى ، وانما كنا نطلب فقط الاخلاص والمقدرة • وكان رفاقنا من المجتمعات الشرقية يشعرون بالسعادة ويحســـون بأنهم أهل فى الارجون • وما من أحـــد كان يســـتكبر

عليهم استكبارا أحمق ، مما ساعدهم على تحرير أنفسهم من أى شعور لا مبرر له بمركبات النقص • لقد كانوا رفاقا محاربين وكفى • وكانوا قادرين على الوصول الى أعلى مراكز المسئولية ، بل انهم وصلوا اليها بالفعل • فهذا « شلومو ليفى » ، اول رئيس أركان لهيئة اركان الحرب فى التمرد ، كان سفارديا ، وذاك أخوه « عوزى » بعد عودته من معسكر الاعتقال فى ارتريا صار قائدا محليا فى تل أبيب ووضع تحت قيادته آلاف الرجال الى أن سقط وهو يحارب حربا بطولية فى المعركة الفاصلة من أجل « يافا » • و « شمسون » القائد المحلى فى حيفا ، الى أن غدر به لدى السلطات البريطانية ، جاء من ايران • وكان لدينا « جدعون » فى القدس ، وهو الذى تولى قيادة العملية التاريخية ضد القيادة العامة لجيش الاحتلال بشجاعة وهدوء بالغين حد الكمال ، وكان سفارديا هو الآخر • وكان من بين الرجال الذين حكم عليهم بالشنق اثنان من السفارديين هما « الكوشى » و « كاشانى » • ان اللطمة التى حاول أعداؤنا وخصومنا أن يحطوا من قدرنا بها كانت بالنسبة لنا مصدر فخار وكبرياء • لقد صار الناس الذين أهينوا وجردوا من مقامهم محاربين فخورين فى صفوفنا ، احرارا متساوين رجالا ونساء ، يحملون أعلام الحرية والشرف • احصائيات ، لم يطرأ لنا أن نجرى احصاء من هذا القبيل ، الا أننى أظن أنى لا أبعد كثيرا عن الحقيقة اذا ما قلت انه كان فى أقسام الارجون المختلفة ما لا يقل عن ٢٥٪ وما لا يزيد عن ٣٥٪ من السفارديين وأعضاء الطوائف الشرقية • أما فى وحدات الصدام فانه بالنظر للتأكيد الخاص على البشرة السمراء فقد ارتفعت النسبة عن ذلك ، وربما كانت بين ٤٠٪ و ٥٠٪ •

قام أعضاء وحدات الصدام بعمليات التمرد الباكرة ، الا أن وجودهم المستقبل لم يكن له ما يبرره فى الاختبارات العملية • وبمضى الوقت واشتداد الكفاح ، اندمجت وحدات الصدام مع وحدات الاقتحام لتصبح قوة اقتحام ارجون الذائعة الصيت التى كالت أشد الضربات للباغى ، والتى كانت مسئولة مباشرة عن تحلل حكم الانتداب فى أرض اسرائيل ، وهكذا بقى للعمل من الأقسام الأربعة التى كنا قد وضعنا مخططها قسمان فقط : قوة الاقتحام ، وقوة الدعاية الثورية • كان يثور بين هذين القسمين نزاع دائم ، فكل رجل فى قوة الدعاية الثورية كان يريد الانتقال الى قوة الاقتحام ولم يكن هناك رجل واحد من رجال قوة الاقتحام يوافق البتة على الانتقال الى قوة الدعاية الثورية •

لم يكن ذلك هو السبب الوحيد للنزاع في داخل المقاومة السرية. ان قوة المقاومة السرية المحاربة عبارة عن دولة حقيقية مصغرة . دولة في حالة حرب : لها جيشها ، وسياستها ، ومحاكمها . توضع تحت تصرفها جميع اجهزة الدولة التنفيذية . وفوق هذا كله ، تضطلع بالمسئولية عن الحياة والموت ، لا لأفرادها وحسب ولكن للأجيال جميعا . ولا تشبه المقاومة السرية الدولة من هذه الناحية فقط ، فكما هو الحال تماما في الوزارات والمصالح الحكومية يوجد في المقاومة السرية وأقسامها وجماعاتها تعاون كما توجد خلافات نابعة من الطبيعة البشرية ذاتها . فالقادة المحليون لا يحبون أن يمنح الاستقلال الذاتي لوحدات الصدام ثم لقوة الاقتحام فيما بعد ، وكان قولهم : اننا نتعهد العمل جميعه في المنطقة تحت قيادتنا . نحن أدرى بالأسلحة التي نحرزها (أو التي لا نحرزها) . اننا نعرف رجالنا . لماذا لا نكون منوطين بالتحضيرات لعمليات المعركة وبالعمليات نفسها ؟ » . وتلك مجادلة منطقية ، الا أن رد قادة قوة الاقتحام لم يكن بأقل من ذلك منطقا . كان قولهم : « أن عمليات المعركة دائما ما ينبغي أن تحضر على عجل ، والقائد المحلي أشبه بالوالد لأبناء كثيرين فهو مشغول بعشرات المشاكل التنظيمية . اننا نستطيع ان نتأكد من أقصى درجات الكفاءة اذا نحن اتصلنا اتصالا مباشرا بضباط العمليات المحليين » .

لم يكن القضاء بين الجانبين بالأمر السهل ، وبخاصة اذا كان كل منهما ينشد أحسن الوسائل للمضي في الكفاح . وأحيانا ما شعرت ، وكأنني القاضي الذي يقضي بين الطرفين في نزاع ، بأنهما كليهما على حق . أو كأنني الزوج الذي يجيب على زوجته عندما تسأله : « كيف يمكن أن يكون ذلك ؟ بقوله : « وأنت أيضا على حق يا عزيزتي » .

في نفس الوقت ، استمر هذا النزاع حول الاستقلال الذاتي الذي منح لقوة الاقتحام ، كما استمرت المناقشة حول الاستقلال الذي لم يمنح. لم تتوقف ادارة مخابراتنا مطلقا عن طلب قدر معين من الاستقلال الذاتي. قام هذا القسم بعمل عظيم أثناء الكفاح ، فبينما كانت قوة الاقتحام تتعهد العدو بالحديد والنار كانت المخابرات تحاربه بالعقول . والواقع أن النصر على قوات الحكومة كان يعتمد اعتمادا كبيرا على مخابراتنا وايحاءاتها ومعلوماتها ونطاق الأمن الذي ضربته في مثابرة وادراك حول المقاومة السرية المحاربة . وكان أعضاؤها برئاسة نائب « يوئيل » وخليفته « ميشيل » ينطلعون الى منجزات أعظم ، وهم يظنون أنهم كانوا مستطيعين

ان يحرزوها لو أنهم اعطوا قدرا من حرية التصرف . وقد استشهدوا ـ لكى يؤيدوا وجهة نظرهم ـ بالعادة المتبعة فى كثير من الدول حيث تدخل خدمات المخابرات ومقاومة التجسس تحت الاشراف المباشر للحكومة المركزية .

بفضل قوة الادراك والتحمل التى أبداها رفاقنا جميعا ، نجحنا فى التغلب على هذه الصعاب القاتلة التى نبعت من قسمة العمل الحتمية بين كثير من الناس ، ومن رغبتهم الملحة فى النجاح فى أداء واجباتهم . ولسنا مبالغين ان قلنا اننا فى المقاومة السرية ، اكتسبنا بعض الخبرة فى اجهزة الدولة بضوئها وظلها ، بفضائلها ومساوئها . تغلبنا ، بصفة عامة ، على المشكلات التى تطرأ بين « المصالح والادارات » ، الا أننا لم نوفق البتة فى وضع نهاية للنزاع الرهيب بين قوة الاقتحام وقوة الدعاية الثورية .

(٦)

أعطيت قوة الدعاية الثورية واجب بث رسالة التمرد . كنا ندرك قيمة عمل الاعلام العام . لم يكن لدى اسرائيل كثير من الموارد الطبيعيه ، الا أن الشعب اليهودى لديه رصيد طبيعى له قيمته البالغة : ذلك هو العقل . لا يقنع الناس ، الذين يفكرون ، بالكلمات الجوفاء ، كما أنهم لا يقنعون بالاعمال العشواء غير المدروسة . انهم يريدون أن يعرفوا لماذا عمل هذا الشىء ، ولماذا عمل فى الوقت الذى عمل فيه . كان شعبنا يتوقع منا تفسيرات لتصرفاتنا ، وكان علينا أن نقدم له هذه التفسيرات لكى نضمن ما كنا نريد أن نضمنه ، ألا وهو ادراكهم وتعاطفهم .

كان هناك موجب آخر لعمل قوة الدعاية الثورية ، كنا مجبرين على الهجمات الكلامية علاوة على الهجمات الطبيعية . حاولت دعاية العدو أن تصورنا كأسفل السافلين . الشتائم الفاضحة دائمة طليقة العنان ، الا أن دعاية العدو كانت تستعمل وسائل اخرى أيضا . ولسوف يذكر الكثيرون هجومنا على قطار الحكومة الذى يحمل الرواتب والأجور ، حيث صادرنا منه مبلغا كبيرا من المال . أعطيت الأوامر بالأسلوب المألوف فى جميع العمليات المشابهة التى اضطرتنا مقتضيات الحرب الى القيام بها لتجنب ايذاء أى شخص . قدرت بدقة كمية المتفجرات التى استخدمت لايقاف القطار بحيث تجبره على الوقوف ـ حتى ولو أحدث ذلك رجة عنيفة غير سائغة ـ دون تدمير القطار أو اصابته بتلف شديد . اندفع الرجال نحو القطار من الغابة التى كانوا يختبئون فيها . استسلم الحرس

وجردوا من سلاحهم · قبض على جميع الموظفين في القطار ، الذى لم يكن يحمل اى ركاب مدنيين · أصيب نفر قليل منا ببعض خدوش من الزجاج الذى تحطم ، فضمدت جراحهم ـ لدهشتهم ـ بأيدى أعضاء « جماعة الاسعاف الخاصة بنا » ثم تم الاستيلاء على النقود ـ ٣٨٫٠٠٠ من الجنيهات ـ وعاد الرجال الى قاعدتهم · كان الرسميون البريطانيون يعرفون ماذا سنفعله بهذه النقود ، فبذلوا جهودا جبارة لاستردادها · فرض حظر التجول على « الحضيرة » المجاورة · خرجت داوريات خاصة على الطرق ، وأجرى تفتيش جميع السيارات · فتشت العربة التى كانت تحمل النقود تفتيشا دقيقا ولكن بدون جدوى ·

نفذت هذه العملية أثناء تلك الفترة القصيرة ، فترة « حركة المقاومه المتحدة » ، عندما كانت الهاجاناه تحارب معنا لفترة وجيزة ضد الحكم البريطانى · فى أحد اجتماعاتنا المنتظمة مع رؤساء الهاجاناه أخبرنى « موشى سنيح » (١) ان ضابطا بريطانيا كبيرا من صباط أركان الحرب أعرب له عن اعجابه بالخطة وتنفيذها بكفاءة تامة · وصف الهجوم فى غابة « الحضيرة » بأنه « عملية نظيفة » · كنا على استعداد لان نغض البصر عن هذه التحية ، الا أنه كان من الصعب أن نصفح عما كتب عن هذه « العمليه النظيفة » بيد موظفة كبيرة فى ادارة بريطانية أخرى ، هى ادارة « هيئة صحيفة ما » · كانت تلك الموظفة الكبيرة سيدة أرسلتها واحدة من اوسع الصحف انتشارا الى أرض اسرائيل لتكتب للملايين من قرائها أن الهجوم « كان بقيادة خطيبتى ، وهى سيدة شابة شقراء تحمل رشاش تومى ليلا ونهارا » · وبعد وصف مسهب لمصاصة الدم هذه ، جاءت القصة التى تقشعر منها الأبدان ـ قصة سلوك « الارهابيين المتوحشين » فى « الحضيرة » · لعل هذه القصص أن تكون قد ساعدتنا على المدى الطويل ، بأن أوجدت انطباعا بين مئات الآلاف من الناس فى بريطانيا ممن كان لهم أقارب يخدمون فى أرض اسرائيل بأن الحكومة البريطانية بعثت بأبنائهم التعساء الى الجحيم ، ومن ثم ازدادت المطالبة الملحة فى بريطانيا باعادة القوات البريطانية من أرض اسرائيل بدون أدنى ابطاء · وهكذا ، حتى هذه الصحفية التى صورت لى خطيبة شقراء بدلا من زوجتى الخمرية اللون السوداء الشعر ـ تلك الكاتبة الركيكة العبارة ، التى تفيض كراهية ـ قد ساعدت ، دون قصد منها ، على التعجيل برحيل نظام حكم الانتداب · لقد أرسلت الينا لكى تفترى علينا ، وكان الهدف مما كتبته هو كراهية

---

(١) كان «موشى سنيح» سياسيا فى جماعة تعمل مع المجلس التنفيذى لبن جوريون ثم انضم الى مايسمى بحزب «مابام» ، الحزب الشيوعى الاشتراكى المتطرف فى اسرائيل ·

الناس لنا • ولعل مما يستوجب الأسف أن بعض العناصر اليهودية وبعض اجهزة الاعلام أسهمت كذلك بقسط من هذه المهاترة الخسيسة •

كان علينا ان ندافع عن أنفسنا • والتوعية الشعبية جزء لا ينفصل عن كفاحنا • كانت محطه اذاعتنا احدى وسائلنا الهامة ، ولم يكن فى مقدورنا ان نفيد على الفور فائدة دائمة مؤثرة من اذاعة المقاومة السرية • ولقد بدأنا الاذاعة فكان الفشل مزدوجا ، فقد ضبط جهاز ارسالنا فى منزل « استر رازيل » شقيقة « دافيد رازيل » والقى القبض على « استر » وزوجها ، اللذين تركا من ورائهما طفليهما ووالدى « دافيد » المسنين وكانا لا يزالان فى حدادهما لموت ابنهما الاكبر الحبيب • كان الحزن للقبض على « استر » وزوجها « يهودا » أشد من الأسف على فقد الجهاز ذاته • قضت « استر » فترة طويلة فى سجن « بيت لحم » ، وبقى « يهودا » سنوات فى معسكرات الاعتقال الأفريقية • الا اننا سرعان ما حصلنا على جهاز ارسال آخر أفضل من جهاز الارسال الذى فقدناه •

كنا نذيع فى بادىء الأمر لفترات قصيرة تستغرق الفترة الواحدة منها خمس دقائق فقط ، لأننا كنا قد قرأنا فى نشرات المقاومة السرية بأوروبا ان الالمان كانوا يستطيعون أن يحددوا موقع أجهزة ارسال المقاومة فى حدود ست دقائق باستخدام اجهزة خاصة ، ولذا كان علينا ان ننقل الجهاز من موقعة فى ظرف دقيقة واحدة • الا ان هذه الطريقة كانت جد مضنية ، فقد كان الموقف يزداد حرجا فى الاقليم ، وبالتالى فقد ازداد الكفاح شدة • وكان من الضرورى أن نمتد اذاعتنا ، فنشرنا تحذيرا بأن محطة اذاعتنا تعمل تحت حراســـة مسلحة ، وأن القوات العســكرية اذا حاولت الاستيلاء على جهاز ارسالنا فان عليها ان تدفع ثمن المحاولة من أرواحها وكان التحذير فعالا ، فمنذ ذلك الحين كنا نذيع عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة أو عشرين دقيقة • ربما استطاعت السلطات ان تحدد موقع جهاز الارسال ، الا أنها لم تحاول البتة أن ترسل مستكشفيها قريبا منه ، وربما كانت حجتها انها اذا ما أرســـلت الكاشفين فقد يتعرضون للخسائر ويحتمل ألا ينجحوا فى ازالة جهاز الارسال ، بل انهم لو أفلحوا فى ذلك فعــلا فان ارجون سرعان ما تدبر جهازا آخر بمســاعدة الفنيين التابعين لها ، الذين كانوا من أحسن من وجد من فئتهم فى الاقليم •

لكن السلطات وجدت وسائل أخرى للتداخل فى اذاعتنا التى كانت حينئــذ تستهوى عشرات الآلاف من المستمعين • بذل « جوبلز » ابان الحرب العالمية جهودا جبارة للتأثير (التشويش) على الاذاعة البريطانية ، وقد ظلت حكومة الانتداب تعوى وتصرخ على موجتنا ، تماما كما كان الألمان

يعملون على موجات هيئة الاذاعة البريطانية • أعمل فنيونا فكرهم بغيه الوصول الى طريقة للتغلب على هذا التداخل ، فبنوا جهاز ارسال يستطيع ان يحول اذاعته من موجه الى اخرى • وفي هذا المجال بدات مطارده عريبه فوق الأثير ، بالاضـــافة الى المحاورات التى كانت تجرى على الأرض فى الوقت المحدد تبدا الاذاعة غير الشرعية ، وما أن تمضى دقيقة واحدة حتى يبدأ جهاز التداخل (الشوشرة) فى العويل والعواء ، وعندئذ يتحول المذيع الى موجة أخرى • يحرك المستمعون ضوابط اجهزة استقبالهم فى فلق بالغ بحثا عن الصوت الأمريكى ، وقد يعترون على الموجة الثانية وقد لا يعثرون عليها • فى نفس الوقت نتابع اجهــره التداخل مطاردتهــا ، وها هى تقطع الاذاعة على الموجة الجديدة فيقفز المذيع الى موجة ثالثة أو يعود الى الموجة الأصلية ، والمستمعون فى أعقابه وأجهزة التداخل من ورائهم • كانت هذه العملية لعبة مضنية •

جربنا حيلة أخرى ، فنشرنا تحذيرا بأنه اذا لم تتوقف السلطات البريطانية عن محاولاتها لاسكاتنا فاننا سوف نعمل على ايقافها ، الا .أن هذا التحذير لم يجد نفعا • اعددنا خطة لنسف محطة الاذاعة البريطانية فى القدس ، وكنا على وشك تنفيذ هذه الخطة عدة مرات ، الا أنه كانت نطرآ فى كل مرة عقبات غير منتظرة ، وكان علينا أن نتحاشى ايذاء العاملين فى ادارة الاذاعة ، وكان من بينهم كثير من اليهود ، كما كان من بينهم نساء أيضا • لم نجد فى الظروف التى خلقتها الحرب أية وسيلة للتغلب على هذه العقبات ، ولهذا أرجأنا تنفيذ الخطة وان كنا لم نفكر فى العدول عنها نهائيا • الا أنه ، فى آخر الأمر ، أخلى البريطانيون « سارونا » حيث كانوا يحتفظون بأجهــزة التداخل ، ومن ثم استطعنا أن نذيع من غــير تداخل • كان هذا التحذير الخاص بالاذاعة واحدا من تحذيرات ارجون القليلة التى لم تضعها موضع التنفيذ العملى •

لم يحدث أن سكت صوتنا اطلاقا • كما نترجم اذاعاتنا الى اللغــات الأجنبية،وكنا نوزعها على مراسلى الصحف الأجنبية والممثلين الديبلوماسيين الأجانب • وعادة ما اشتملت اذاعتنا على أنباء واقعية وتحليلات سياسية ، وكنا نعلم انها كانت واسعة الانتشار فى الصحافة العالمية من « سيدنى » الى « سان فرنسسكو » • وكان ذلك من الأهمية بمكان من حيث الاحتفاظ بمشكلة أرض اسرائيل فى محيط الاهتمام العالمى • وهكذا حمل صوت التمرد والحرية بعيدا وشاسعا على الرغم من مؤثرات الحكومة البريطانية • واذا كان عشرات الآلاف قد حرموا من الاستماع الى هذا الصوت فان الملايين

استمعوا اليه فعلا ، وظلت أرض اسرائيل تسترعى التفات الدنـيا حتى بعد أن هدأ صوت الانفجارات ٠

كان «الحائط» واحدة من وسائل التوعية الكبرى فى ارض اسرائيل٠ نشرنا نداء التمرد فى طول البلاد وعرضها بتعليقه على الحوائط ٠ وهكذا كنا نفعل مع كل موادنا المعدة للنشر باستثناء الكتيبات ٠ عرضنا صحيفه حائط سميناها « الحرية » (حيروت) ، وهى الأولى من نوعها فى أرض اسرائيل ، بل ربما كانت الاولى فى أى مكان٠ كنا نصدر النشرات والبيانات عن العمليات الحربية ، وكنا نعلن رسالتنا مرة على الأقل كل يومين أو كل ثلاثة أيام ، وأحيانا كنا نعلنها كل يوم أو كل ليلة ٠ لم يكن يتطرق الينا الكلل من التفسير ٠ ولم يصب رجال قوة الاذاعة الثورية أى تعب أو كلل من كثرة ما الصقوه من نشرات ٠ وقد ازداد اهتمام الجمهور بقراءة ما كتبته المقاومة السرية لعرض آرائها ٠٠ كانت طوابيرهم تتجمع لتقرأ معلقاتنا ومنشوراتنا وكتيباتنا ٠ كنا نخاطب الجماهير بلسان الصـدق المبين ، ولم نكن نقصد طبقة بعينها ، بل كنا نخاطب الشعب جميعا ، وشيئا فشيئا تعودوا أن يصدقونا ، وقليلا قليلا تعلموا ان يثقوا فينا ، لأننا ما كنا نقول لهم غير الصدق والحق ٠

الواقع أن الفكرة المقدسة من اعلامنا هى ان نقول الحق ولا شىء غير الحق ، ولم نكن قادرين بالطبع على أن نقول لهم الحق كله ٠ اننـا نمثل مقاومة سرية ، وكان فى مواجهتنا عدو يستمع الينا ويبحث عنا ويدون الملاحظـات ، كمـا كان فى مواجهتنا أعوان العدو وعملاؤه الذين كانوا يتجسسون علينا ويضمرون لنا الاذى ٠ لم نكن قادرين على أن ننشر كل شىء ، الا أن كل ما نشرناه كان حقا وصدقا ٠

فى يوم الأيام فى شهر أغسطس سنة ١٩٤٤ هاجمنا مراكز الشرطه على تخوم يافا ـ تل أبيب ، فى « أبو كبير » وفى « النبى شعنان » ، كما هاجمنا مقر رئاسة ادارة المباحث الجنائية فى « يافا » بالذات ٠ وفى هذه المناسبة لم يكن لدينا ـ كما كان الحال فى الهجمات السابقة ـ أى هدف يتطلب تخطيطا ، بل كان كل ما أردناه هو الحصول على قليل من الأسلحة من الشرطة البريطانية ٠ وفى ذلك الوقت كنا لا نهـاجم المعسكرات الحربية ، فقد اتخذنا قرارا بعدم مهاجمة المؤسسات الحربية طالما كانت الحرب مع النازى قائمة ٠ وقد احترمنا هذا القرار ، الذى أملته الحكمة السياسية الحقة ، احتراما دقيقا حتى شهر مايو سنة ١٩٤٥ عندما انقضى الوضع الذى من أجله كنا قد اتخذنا قرارنا ٠ أما الشرطة البريطانية ومسـتودعات أسلحتها فقـد كانت دائما هدفا مباحا لقوة

· الاقتحام التى بدأت حينئذ فى تنفيذ أول عملية مصادرة من عمليات ارجون · ولو كان الوقت قد توافر لدينا ، اذن لدنا على استعداد فى هذه المناسبة أيضا لكى « نزخرف » مقر رئاسة المباحث الجنائية الذى كان قد نقل الى مبنى آخر بعد زيارتنا الاولى له فى فصل الربيع · الا أن المراكز الأخرى كانت تهمنا أكثر مما كان يهمنا مقر الرئاسه نظرا لبنادقها ورشاشاتها · كان هدفنا هو مبنى المباحث الجنائية القديم الذى كنا قد نسفناه فى الربيع ، فقد أفادت المعلومات التى توافرت لدينا بأن الجزء الذى لم ينسف من ذلك المبنى كان يحوى عددا كبيرا من البنادق والاسلحة الاوتوماتيكية · وقد نفذنا جزءا من العملية فقط · لم يتمكن رجالنا من الوصول الى مستودع الأسلحة · لم تكن متفجراتهم كافية لتحطيم الباب الحديدى الذى كان يحجب هذا القسم · وفى محاوله مجدده نشب صدام على تخوم تل أبيب ـ يافا ، الا أن الطريق المؤدى الى مستودع الأسلحة كان محاصرا تماما عندئذ ، وكان على رجالنا أن ينسحبوا · اما فى المراكز الأخرى فقد نفذت الواجبات طبقا للخطة الموضوعة · لم تكن الغنيمة كبيرة ، الا أن الرجال الذين اكتسبوا خبرة من النجاح ومن الفشل سرهم انهم لم يرجعوا صفر اليدين · قامت قوة الاقتحام بعملها خير قيام ، وعمدت قوة الدعاية الثورية الى القيام بدورها على الفور ، فظهر فى جميع أنحاء البلاد بيان يصف المصادمات وصفا موجزا ، أما من جهة الأسلحة فقد ذكر البيان أن أربع عشرة بندقية صودرت فى أحد المراكز ·

أغضب هذا البيان ، أو هذا الاعتراف ، بعض أصدقائنا الذين انصبت مجادلتهم على أننا لسنا مجبرين على أن نذكر عدد الأسلحة التى حصلنا عليها · لماذا لا ندع الجمهور الذى كان فى حاجة الى المواساة وتقوية الروح المعنوية ان يتصور أن كمية الأسلحة كانت أكبر من ذلك بكثير ؟ لم نقلل من قيمة مجادلة أصدقائنا السيكولوجية · كان فى استطاعتنا بالطبع أن نتحاشى ذكر التفاصيل فنقول « كمية من الأسلحة » ، الا أننا تبتنا فى موقعنا ورسخنا أقدامنا · لقد حصلنا على أربع عشرة بندقية فى مكان ما وكان علينا أن نذكر للجمهور هذا العدد بالضبط · كان حادث الأربع عشرة بندقية هذا هو المؤشر الدقيق للسياسة التى كان علينا أن ننتهجها · لم نلوث أفواهنا أو أقلامنا بالباطل ، كنا نقول الحق ، خيرا أو شرا ، مفيدا أو ضارا ، ولكنه الحق دائما ولا شىء غير الحق · ضيعت علينا هذه السياسة مكافآت مؤقتة ، الا أنها أكسبتنا ، على المدى الطويل ، ثقة الشعب وثقة العالم ، فلقد علموا جميعا أن بياناتنا صادقة ،

وعلموا أننا ننجز وعودنا وتحذيراتنا • وبمرور الوقت صار من الامور المألوفة ان تسمع الناس في ارض اسرائيـل يستشهدون بنا كمرجع للتصريحات الموثوق بها : « ألم تسمع ؟ ان ذلك ما قالته ارجون تسفاى ليومى » •

أخبرنا صحفي يهـودى كان يعمل مسـاعدا محليـا للمراسلين الصحفيين الاجانب بأنهم كانوا كلما قدم اليهم بيان من قيادة الهاجاناه سألوا مساعديهم اليهود : « هل تحققتم من ذلك ؟ » • اما بيانات ارجون فقد كانت تقبل بدون تردد أو تحر • اكسبتنا سياسـة الاربع عشرة بندقية التي انتهجناها في نشر جميع بياناتنا ثقة الشعب ، وهي أثمن رصيد للمقاومه السريه المحـاربه التي يحيط بهـا الأعـداء وهواة النميمة والدس •

كيف كانت تطبع نشراتنا ؟ كنا نستخدم وسائل متنوعة • كنا نتعامل أولا مع مطبعة صغيرة بالقرب من تخوم يافا ـ تل أبيب ، وهي التي قامت بطبع « البلابرا » • لم يكن هناك خيار ، اذ لم يـكن عندنا من المال مايكفي لشراء أجهزة طبع خاصه بنا • ولكننا استطعنا ، في خريف سنة ١٩٤٤ ، أن نشترى آلة طباعة صغيرة ، وكان رجالنا الذين يعملون عليها متفرغين لهذا الواجب ، وكانوا يقومون بتلبية الطلبـات التجاريه من جميع الأنواع ، الا انهم فيما بين طبع دفاتر الايصالات ورؤوس الخطابات كانوا يؤدون الواجب الذى جندوا من اجله • كان ضغط العمل في هذه المطبعة شديدا ، بل ربما كان اكثر مما ينبغي • فقد كنا لا نزال في مراحل التمرد الباكرة ، وكان علينا أن نقول الكثير • وفي نفس الوقت ، كانت حملة التشهير بنا قد بدأت ، كما أن مطبعتنا وقعت ضحية الوشاة فبقينا زمنا طويلا بدون مطبعة ، وكنا قادرين بين الفينة والفينة على أن نطبع بعض اشياء بمعرفة صديقنا القديم صاحب مطبعة مزراحي • لكننا فيما بعد تعلمنا من التجارب كيف نصحح الموقف فقررنا ان نقيم مطبعة سرية بمعنى الكلمة • وجدنا المكان الملائم ، وأحكمنا عوامل الاخفاء والتمويه ، وعمل الرجال بجد الى ان أعد كل شيء على الأغلب • وعندما علمنا أن شخصا ما من جيراننا اكتشف أمرنا لم نشأ أن نعتمد على المعجزات فتركنا البناء • وكما شاء القدر ، دمر هذا المبنى فيما بعد في أول غارة جوية مصرية على تل أبيب •

لم نيأس ، فالحاجة هي التى تحكم المقاومة السرية • عثرنا على مكان آخر حفرنا فيه شقة تحت الأرض وحل « جبدى » مشكلة التهوية ببنـاء

جهاز تكييف ميكانيكي · ثارت مشكلة جديدة ، هي مشكلة الحمالين ، متعهدى الشحن والتفريغ السالونيكيين المشهورين ، الذين أحضروا أجهزة الطباعة الى المكان ، فقد علموا شيئا ما ، اذ علمت مخابراتنا ان كلاما تناقلته الالسن فيما بينهم عن مطبعة أرجون السرية · كان ذلك مقلقا فقد ينتشر الحديث البرىء ، وللعدو آذان كثيرة صاغية · الا ان المشكلة مرت بسلام ، وادرك السالونيكيون ذوو الاذرع القوية الحاجة الى الصمت المطلق ، واقيمت المطبعه · كان العمل بها شاقا حقا ، فالجو خانق والحرارة مزعجة لدرجة انها أحيانا ما عطلت الماكينة عن العمل · لكن العاملين فى ارجون لا يعرفون الراحة فكانوا يعملون أربعا وعشرين ساعة بدون توقف· وعلى وجه الأرض ايضا كان رجالنا يعملون بجد كذلك وان كان عملهم فى هدوء أكثر · كان فوق المطبعة ورشة نجارة متواضعة تتلقى الطلبات لعمل الأثاث ، وكانت تصل الى الورشة سيارة نقل كبيرة لتحضر الخشب وتتسلم الأثاث صوريا · ولم تكن أية عين غريبة بمستطيعة أن ترى حزم الورق بين الخشب وقطع الأثاث ــ تلك الحزم التى من أجلها اقيمت الورشة · لم تكتشف هذه المطبعة القائمة تحت الأرض بمعرفة السلطات البريطانية اطلاقا ، وكان فقط عندما قامت الدولة أن كشفنا نحن عن الموقع الخفى الذى كنا ندعو منه الشعب الا ينحنى تحت عار الاضطهاد ·

كانت تؤخذ المواد من المطبعة الى مراكز التوزيع الاقليمية ومنها توزع على المراكز المحلية حيث يخرج رجال قوة الاذاعة الثورية يلصقونها على الحيطان · كان مطمحنا أن نلصق صحفنا ونشراتنا فى أنحاء الاقليم فى نفس اليوم ، ولذا أقمنا مركز توزيع مدنيا داخليا · وكان نقل مواد الدعاية ــ مثله مثل نقل الأسلحة ــ يتم تحت حس وبصر الشرطة ·

(٧)

كانت قوة الاذاعة الثورية تمضى فى أعقاب قوة الاقتحام بصفة عامة لكى تفسر أسباب الهجمات الجريئة للشعب ، وأحيانا ما كانت تسبق قوة الاقتحام لكى تهيىء الرأى العام للعمليات القادمة ، الا أنه كانت هناك أيضا حالات ــ وان كانت قليلة ــ كانت فيها قوة الاذاعة الثورية تعمل بدلا من قوة الاقتحام : النشرات بدلا من الطلقات · وكان لهـا نفس تأثير الطلقات · كانت احدى هذه المناسبات متصلة بحائط المبكى ·

ربما كان النزاع حـول حائط المبكى والمدينـة القديمة انعكاسا للكفاح من أجل امتلاك أرض اسرائيـل · ولعله من قبيـل الانصاف للسلطات البريطانية إن يقال أنها كانت تدرك تماما القيمة السياسية

للرموز التقليدية ، فقد كان باللغة الانجليزية ـ لا اللغة العبرية ـ أن كتب « دزرائيلى » ان الناس اما ن يساسوا بالتوة أو بالتقاليد ولهذا وجهت السياسة البريطانية محاورها الى قلب التقليد اليهودى ، كما استخدمت العرب أو المسلمين فى أنحاء أخرى . وكالمعتاد ، شكلت لجنة تحقيق أصدرت « حكمها » ـ هذه المرة ـ فى صورة أمر مجلس شورى لسنة ١٩٢٩ ، كتب فى سفاهة بالغة ، ونص على أن « للمسلمين الحق المطلق فى امتلاك حائط المبكى علاوة على الحق فى ملكية الساحة المجاورة والمنطقة التى تطل على الحائط » ، كما نص على أنه « محظور على اليهود أن يطلقوا (الشوفار) عند حائط المبكى » .

فرض البريطانيون المشهود لهم بمراعاة القانون هذا الحظر بحكم الدين . واذا كان القانون الذى أصدروه قد حكم بأن حجارة الحائط الغربى من الهيكل العبرى تخص مسجد المسلمين القائم على أنقاض ذلك الهيكل فلا راد لحكم هذا القانون بطبيعة الحال . تقليد مقدس ! شاهد حى على الماضى المجيد ! ميثاق حقوق منقوش على الحجر القديم ! لكل هذه الأسباب يجب أن تؤخذ حجارة الحائط من اليهود قطعا . ومما ساعد على تحقيق هذا الغرض أن كان من بين اليهود أنفسهم حلفاء غير منتظرين للعدو كانوا يجادلون فى زعم « تقدمى » كاذب بأن بضع بقرات أصيلات خير من كل هذه الحجارة .

لكن الحجارة القديمة نفسها تدحض هراء أولئك التقدميين العاطفيين الذين يحاولون أن يدخلوا فى روع الاجانب أنهم متحررون من التحزب العتيق . ان هذه الحجارة ليست صامتة . انها لا تجأر بالقول ، ولكنها تهمس . أنها تتحدث فى رقة عن السبب القديم الذى كان قائما هنا يوما ، تتحدث عن الملوك الذين ركعوا هنا فى صلواتهم ، تتحدث عن الأنبياء والرسل الذين هبطت عليهم رسالاتهم ، تتحدث عن الأبطال الذين سقطوا هنا شهداء ، وتتحدث كيف أن الشعلة العظيمة ، التى كانت مطفأة تارة ومضيئة تارة أخرى ، انما أشعلت هنا . كان هذا المنزل ، وهذا الاقليم ، برسله وملوكه ومحاربيه ، ملكا خالصا لنا قبل أن يكون البريطانيون أمة . ان شهادة هذه الحجارة ترسل ضوءها عبر الأجيال .

منذ السنوات الباكرة من سنى استعباد شعبنا كان حائط المبكى مستودع حنين هذا الشعب ، ولا تدع المتهكمين الساخرين يثرثرون ويهذون عن « التصوف » و « المتصوفين » . ان صوت التاريخ ما هو

بالشيء الخفى الذى لا يدركه العقل · ان هو الا عامل قدير فى الحقيقه والواقع ـ ذلك هو الصوت الذى أرادت الحكومة البريطانية أن تسكته ، فأصدرت القانون الذى يمنع اليهود من اطلاق « الشوفار » عند حائط المبكى · ولما تجاهل اليهود ذلك الحظر ـ كما فعل أتباع « يابوتنسكى » ثلاث عشرة سنة متعاقبة ـ كان هذا المشهد البشع المهين المستفز · رأيت ذلك المشهد بعينى رأسى يوم عيد الفداء سنة ١٩٤٣ عندما كنا نصل انا وزمرة من الأصدقاء عند الحائط ·

كانت الشمس على وشك المغيب · ارتفع صوت جماعة المصلين اليهود النادمين عاليا · كانت تلك صلاة الختام فى المكان المقدس ، وكان الوقت وقت المحنة الكبرى فى أوروبا ، وحينئذ اندفع رجال الشرطة البريطانيون المسلحون بالبنادق والهراوات من كلا جانبى الساحة · وقفوا بين المصلين يهددونهم بوجودهم · لقد جاءوا « باسم الملك » ليحولوا دون عمل غير مشروع : أطلاق « الشوفار » فى ختام سبت الأسبات · وعندما قاربت الصلاة نهايتها اندس رجال الشرطة أكثر فأكثر بين جموع المصلين ، بل ان بعضا منهم أخذ طريقه الى الحائط ، وعندما سمع صوت « الشوفار » رغم أنوفهم انفجر غضبهم · أطبقوا على المصلين ـ بينما كانت الصلاة لا تزال قائمة ـ وأخذوا يضربون على الرؤوس ، فكان صوت الهراوات يدوى فى الهواء . هنا وهناك كانت تسمع صيحات المصابين · انبثقت أنشودة « هاتيكفاه » · أخذ البوليس يضرب حينئذ فى جميع الاتجاهات ، وعمت الفوضى ، ثم انسحبوا أخيرا ·

فى تلك الليلة وقفنا بجانب حائط المبكى ، منكسرة قلوبنا أكثر مما نزل بنا من اصابات ، وكنا نقول لبعضنا البعض : « هذا هو الاستعباد بعينه » · ان ما لم يجرؤ ممثلو الروم أن يفعلوه بالأمس يفعله مندوبو بريطانيا اليوم · ان ما رفض أسلافنا أن يتحملوه من الطغاة الأقدمين ، وان دفعوا ثمن هذا الرفض من أرواحهم وخرياتهم ، يتحمله اليوم جيل اليهود الذى يصف نفسه بأنه آخر عهود الظلم وأول عهود الخلاص · ان شعبنا الذى لا يحمى أماكنه المقدسة ـ بل ولا يحاول أن يحميها ـ ليس شعبا حرا مهما ثرثر عن الحرية · ان الشعب الذى يسمح لأقدس بقعة فى أرضه ويسمح لأقدس مشاعره أن تداس تحت الأقدام ، ليس الا شعبا من الأرقاء ، أرقاء الروح · ولقد عقدنا العزم ونحن وقوف هناك ، وحينذاك · على أن نطهر شعبنا من هذا العار ، وعلى

أننا اذا ما أوتينا القوة فاننا سوف لا نسمح لأتباع الطغاة أن ينتهكوا حرماتنا المقدسة ويزعجوا المصلين · ويدنسوا عيدنا ·

في العام الجديد الثاني (١) (قبل أن يحين عيد الثورة بعشرة أيام) استرجعنا العار وتذكرنا ما عقدنا عليه العزم · صممنا على ألا نسمح بتكرار ما حدث وعلى ألا نتركه يمر دون عقاب ان هو حدث ثانية · وضعنا خطة معقدة سيكولوجيا وعمليا ، وعهد بالواجب الى قوة الاذاعة الثورية · بدأنا نحذر السلطات البريطانية ، وليلة في أثر أخرى مضى واضعو الملصقات يعلنون تحذيرنا الصريح بأساليب مختلفة ، ثم أوجزت هذه التحذيرات في بيان نشرناه باللغة الانجليزية وباللغة العبرية ·

١ ـ في يوم عيد الفداء ، عند الحائط الغربي ، ستتحد أعداد كبيرة من الناس مع أرواح شهداء اسرائيل الذين سقطوا بفعل القسوة الألمانية والغدر البريطاني ·

٢ ـ تملي مبادىء البشرية المتمدينة الا يزعجن أحد الصلاة المقدسة أو ينتهك حرية المكان المقدس ·

٣ ـ ان الحكومة البريطانية ـ التي تحكم بصفة مؤقتة ضد رغبة الشعب اليهودي في وطنه ـ مطالبة بألا تنتهك هذه المبادىء ·

٤ ـ اى شرطي بريطاني يجرؤ ، يوم عيد الفداء ، على الدخول عنوة الى منطقة حائط المبكى وازعاج الصلاة التقليدية ، سوف يعتبر مجرما وسوف يعاقب بناء على ذلك · »

كلما تتابعت تحذيراتنا واحدا بعد الآخر ، وكلما اقترب يوم عيد الفداء ، استبد القلق بالناس في القدس وفي الاقليم عامة ، ولم يكن أحد يعرف كيف اننا عزمنا على الدفاع عن شرف شعبنا · وقد خشي البعض أن يراق الدم عند حائط المبكى ، وجادل البعض الآخر بأننا انما كنا نثير حرب أعصاب ضد البريطانيين ، وكان هناك آخرون يبلغون عن تجمعات في المدينة القديمة ، كما كان هناك غيرهم يطلقون النكات كالمعتاد · . .

لم تبق المؤسسات اليهودية سلبية بالطبع ، فما أكثر ما كتبت من المواد عن « جنوننا الاجرامي » ، ودعمت هذه المواد بالاجراءات ، وطلبت

---

(١) تبدأ السنة اليهودية في الخريف ، في سبتمبر ـ اكتوبر ·

من الحاخام الاكبر أن « يبطل » عملنا بجرة قلم · استجابت الحاخامية وصدر نداء منها يزعم أن اطلاق « الشوفار » فى ختام يوم الفداء لا يعدو ان يكون مجرد عادة غير ملزمة ، وعلى أية حال فان « القانون فى الارض هو القانون » ·

لم نتراجع · كنا مشبعين بوعي بمهمتنا أكثر مما كنا فى أية مرحلة اخرى من مراحل تمردنا · مضينا فى تنفيذ خطتنا ، وكان افتراضنا الأساسى هو أننا وضعنا الحكومة في مركز حرج من الناحية السيكولوجية، بل ربما كان مركزها السياسى أشد حرجا ، وأنها سوف تتراجع تبعا لذلك · أما أن يكون حائط المبكى مقدسا فذلك أمر معترف به من الجميع ، ولم يكن من السهل بالنسبة لحكومة تريد أن تظهر بمظهر الحكومة المتمدينة أن تحمل نفسها مسئولية مصادمة دامية لأنها تود أن تحول دون ممارسة تقليد دينى ·

لم تكن لدينا ، بالطبع ، أية نية لتمهيد السبيل لمثل هذا الصدام ، رسمنا خطة هذه الحملة الخاصة رسما مفصلا ، كانت أولى خطواتنا هجوما سيكولوجيا تتضح قيمته العملية لكل انسان يعرف أى شيء عن الحرب ، فأحيانا يتحقق النصر التام عن طريق السلاح النفسى ·

الا أنه أحيانا أخرى يظهر أن هذا السلاح غير ذى فاعلية · ولقد أدخلنا هذا الاحتمال فى الحسبان ، وقد عرفنا أن العدو على الرغم من تحذيراتنا قد يتخذ قرارا بارسال رجاله الى الحائط كما درج على ذلك من قبل طوال الثلاثة عشر عاما الماضية ، وعندئذ لن نكون قادرين على الانتقام على الطبيعة ، لأن الرجال والنساء المسنين والأطفال قد يصابون بالأذى ، كما عرفنا أن كل المزايا التكنيكية كانت فى صف العدو ·

ومع هذا فقد كان واضحا لنا ، على نفس المستوى ، أن تصميمنا على عدم أثارة الصدام عند الحائط يجب أن يظل سرا دفينا · ان قيمة تحذيراتنا تكمن فى جعل العدو يعتقد أنه اذا تجاسر على الاقتراب من الحائط فان النيران سوف تفتح عليه من جميع الأركان وأنه سوف يتعرض لخسائر جسيمة ، ولذا كنا مضطرين الى تجنب تهدئة روع الناس القلقين، أولئك الذين كانوا يلعنوننا وأولئك الذين هم فى قلقهم مخلصون ·

لذا احتفظنا بالحقيقة لأنفسنا ، وكان الأمر بسيطا ، فقد قررنا أن نستغل السلاح النفسى حتى النهاية ، فاذا ما فشل السلاح النفسى وكرر العدو عمليته المدنسة للأشياء المقدسة عمدنا الى الهجوم · ولكننا لن

نهاجمه حيث يتوقع مهاجمته ، بل سوف نضربه فى موقع آخر ، الا أننا سنضرب فى نفس الوقت ، ولسوف يعلم ، ولسوف تعلم الدنيا ، أن مشاعر شعبنا لا يمكن أن تدنس دون عقـــاب أو جزاء • هكذا تولدت فكرة الهجوم فى تلك الليلة بالذات على حصون « تيجارت » (١) للشرطة فى « حيفا » و « بيت داجان » و « قلقيلة » و « قطرة » ، ولذا لم تكن سلسلة تحذيراتنا قد أعدت ـ كما ظن بعض الناس ـ لمجرد خداع العدو ولتسهيل الهجوم على الحصـــون التى لا تقهر ، بل ـ بالعكس ـ رسمت خطط الهجوم على الحصون كعقاب فورى على تدنيس سـلطات الانتداب لحائط المبكى •

لم تفشل فكرة الجمع بين الحرب النفسية والخطة العملية • لقـــد هوجمت حصون « تيجارت » فى تلك الليلة ، الا أن ذلك الهجوم لم يكن عقابا لتصرف البريطانيين عند حائط المبكى ، فقد أثبت تحذيرنا فاعليته، وتراجع الباغى • فى يوم عيد الفداء سنة ١٩٤٤ ـ ولاول مرة منذ أربعة عشر عاما ـ لم يقترب رجال الشرطة البريطانيون من حائط المبكى ، بل وقفوا من بعيد ، وضمانا للأمن خلعوا رقعات أرقامهم ، ولم يقاطع أحد الصلاة • كانت نفخة « الشوفار » الكبرى عظيمة حقا • لم يكن مرددها « غير شرعى » بعد ، فلم يختف ولم يتنكر ، ولكنه وقف علانية لكى يكون مسموعا فى « الشوفار » ـ نفير التمرد •

(٨)

كلما ازداد الكفاح شدة صار عمل قوة الاذاعة الثورية خطيرا أكثر فأكثر • لم يـكن العاملون فى الملصقات مسلحين ، بل كنــا نحتفظ بأسلحتنا للهجمات الحربية • الا أن المخبرين ورجال الشرطة البريطانيين كانوا مسلحين ، ولذا صاحب عمليات تثبيت الملصقات اطلاق الرصاص• وكان هناك من بين عمال الملصقات من أصق رسالة التمرد بدمه ، ومن بين هؤلاء « أشير تراتنر » ، وكان شـابا محبوبا ، لم يصب بالجـراح فحسب ولكنه قتل فى أعقاب اصابته •

كان « أشير تراتنر » طالبا فى الصف الثامن بمدرسة حيفا العليا ، انضم الى الأرجون فى بداية التمرد ، ثم عمل مع قوة الاذاعة الثورية •

---

(١) مراكز شرطة أشبه بالحصون اقيمت فى جميع انحاء الاقليم بمعرفة البريطانيين بناء على مشورة سير « جيمس تيجارت » أثناء أعمال الشغب العربية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) •

وفى ذات ليلة ، بينما كان يلصق اعلانا ، أطلق عليه شرطى الرصاص فاصابه فى مؤخرته · ماذا يفعل نظام حكم متمدين ـ كما يزعم ـ برجل جريح ، حتى ولو كان ذلك الجزيح عدوا ؟ يؤسفنى أن أسجل أن بعض الضباط البريطانيين لم يعالجوا جرحانا كما كنا نحن ، فى المقاومة السرية ، نعامل جرحاهم من الأسرى فى أيدينا · لم يفحص الطبيب « تراتنر » ولم يرسله الى المستشفى ، بل أرسله ـ وجرحه يدمى ـ الى سجن عكا · تقيح الجرح · ربط السجانون « تراتنر » الى سرير ، وكان على الصبى أن يمسح الدم والقيح من جرحه بقطع كان يمزقها من قميصه · ظل الحراس يسيئون معاملة الصبى · وقد أخبرنى الحاخام « بلوم » ـ وكانت السلطات قد عينته قسا للسجن ـ أنه لفت نظر البريطانيين الى سوء حالة السجين الصغير ، وكانت الاجابة الخاصة : « ان الحاخامات يجب أن يقصروا عنايتهم على حالة السجناء الروحية ، لا على حالتهم الجثمانية · فلتهتم بشؤونك » ·

لم تتأثر روح « أشير » ، ولكن جسمه تحطم · وعندما جاء الطبيب لعيادته آخر الامر شخص المرض بأنه تسمم شديد فى الدم ، وكان أن نقل الصبى الى المستشفى ، الا أن ذلك كان بعد فوات الأوان · حتى بتر ساق « أشير » لم ينفع فى انقاذ حياته ، فمات بعد أسابيع من المعاناة فى سجن عكا ومستشفى حيفا ·

ان « أشير تراتنر » واحد من الأشخاص النبلاء الذين تعاودنى ذكراهم كلما فكرت فى التمرد وفى الجيل العجيب الذى شب على حين فجاة وهو أشبه بغابة من الشجيرات الغضة على أرض الوطن · لماذا أساءوا معاملته ؟ لماذا فرضوا عليه موتا بطيئا مؤلما ؟ لقد حزنت على « أشير » كما يحزن الانسان على ابنه ·

(٩)

كانت قوة الاقتحام ـ حاملة رسالة أرجون الرئيسية ـ قد اختصت بعد اندماجها فى وحدة الصدام بواجب « ضرب العدو بالأسلحة الحديثة لكى تبدد الحكم الأجنبى » · قامت قوة الاقتحام بواجبها · لم تتح للعدو أية فرصة ليستريح · نفذت الى مراكز الحكومة الحصينة ، ولم تجد قوات الجيش البريطانى نفعا · استحالت مبانى الحكومة وثكناتها الى أنقاض · اخترقت قوات الاقتحام حصون العدو · لم تصمد حوائط مراكز بوليس « تيجارت » لضرباتها · مزقت هذه القوات خطوط السكك الحديدية ونسفت المحطات وفجرت القطارات

ولغمت الطرق وأطاحت بالسيارات المدرعة . بعد انتهاء الحرب ضد المانيا النازية فى مايو سنة ١٩٤٥ وجهت قوة الاقتحام التفاتها الى خط أنابيب البترول العراقى - الانجليزى فلم تترك لذلك الشريان من شرايين الاقتصاد البريطانى فى الشرق الأوسط فسحة من الراحة . نفذت قوة الاقتحام الى المعسكرات البريطانية ، واحيانا ما كالت لها الضربات الموجعة ابان الأحكام العرفية ، واحيانا اخرى كانت تشيع فيها الذعر وتأخذ أسلحتها . نزلت قوة الاقتحام الى المطارات فأحالت العشرات من قاذفات القنابل ذات المحركات الأربعة الى حطام وركام . كما نفذت قوة الاقتحام الى قلب نظام الحكم البريطانى ، الى مقر القيادة العامة لجيش الاحتلال . اندفعت الى « بيفينجرادز » - الأحياء الضيقة التى عاش فيها الرسميون والمحوطة بالكيلومترات من الأسلاك الشائكة المتراكمة بالعمق ، والمحصنة بأوكار الرشاشات المختفية ، والتى تقوم على الدفاع عنها وحدات كاملة من القوات المسلحة اقوى تسليح . ومع أن نادى الضباط فى « جولد شميدت هاوس » ، والثكنات فى حى سكنيلر بالقدس وفى رئاسة الشرطة بحيفا وان كانوا فى قلب المنطقة الأمان التى تعرضت للضربات الشديدة .

ولقد انهار الحكم العرفى فى مارس ١٩٤٧ بعد هجومنا على منزل جولد شميت الذى تبعه عدة هجمات وعمليات فدائية فى طول البلاد وعرضها . واصدرت السلطات الحاكمة مرسوما بالحكم العرفى فى المناطق المأهوله باليهود ، كما احتلت القوات العسكرية البريطانية المدن الكبيرة ، بل أن بعض المناطق تم اغلاقها وعزلها تماما . وتوقفت حركة السيارات على الطرق كما تعطلت الخدمة البريدية . وحيثما وجه الانسان بصره صادفته نقطة حراسة قوية .

ولكن المقاومة تمكنت من اختراق الحصار وقام رجالها بقيادة جدعون وشمشون بالانقضاض على أهدافهم فى طول البلاد وعرضها . وقد أنجزت نحو عشرين عملية حربية خلال فترة الحكم العرفى ، وبالرغم منه ، كان من ضمنها الهجوم على رتل سيارات عسكرية قرب ريشيون ليزيون والانقضاض على وكر موقع ماكينة وقصف معسكر بريطانى قرب الحضيرة بالقنابل اليدوية ، ومهاجمة دورية عسكرية على الطريق الرئيسى قرب بيت ليد بالاضافة الى عدة هجمات دورية على الدوريات البريطانية قرب نفس البلدة وضد ارتال السيارات المتجهة جنوبا . كما حدث هجوم آخر بمدافع الماكينة والقنابل اليدوية والهاونات قطر ٢ بوصة ضد

معسكر حربى قرب كفر يونا وضد دورية عسكرية على شـــاطىء نهر اليرقون . وهوجم معسكر حربى فى الحضيرة وتم تدميره ، كما هوجمت دورية عسكرية عند تقاطع طريق روش حاييم مع طريق اللد ، ودمر رجالنا خط أنابيب البترول قرب حيفا فى ثلاثة مواقع ، وقرب كفـر حسيديم فى ثلاثة مواقع أخرى .

ولا تكتمل القائمـة دون ذكر الهجـوم على قلعة العـدو فى بيت سكنيلر حيث كان على فتيتنا أن يدمروا جدار القلعة وهم تحت نيران مدافع الماكينة المعادية ثم يشقوا طريقهم خلال ثلاثة نطاقات من الاسلاك الشـائكة تحت النيران الكثيفة ليضعوا مفرقعاتهم فى الأماكن المحددة ويشعلوها ثم ينســـحبوا من المنطقة كلها التى كانت قد تم حصـارها بالعربات المدرعة البريطانية وبالدبابات فى هذا الوقت . ورغم كل هذه المخاطر والأهـــوال أنجز فتيتنا مهامهم طبقـا للخطة الموضوعة ، اللهم الا خطة عملية عكا .

ولقد أجبرنا العدو على احترامنا والاشادة بشجاعة فتيتنا ، اذ قال قائد منطقة القدس لبعض مرءوسيه « انهم يضربون بشدة بالغـة مثـل الفدائيين تماما » .

وقال المستر جرشون اجرونسكى رئيس تحرير جريدة البالستين بوست « اذا كان هناك فتية فى الأرجون مثل هؤلاء فان الأرجون قوة ذات بأس شديد » .

واستمرت المقاومة تضرب بلا هوادة . قبل وبعد منتصف الليل . وانجزت عشرات من العمليات الكبرى والصغرى التى ذكرت بعضها ، وسأذكر البعض الآخر . وكانت كلها جـزءا من ســـجل كفاح الشعب اليهودى . ولم تتم المقاومة بالتصدى للأفراد الا فى حالات نادرة . وقد شنت هجماتها ضد قوات العدو وجها لوجه ، وخاضت بذلك أول قتال فدائى يهودى . لم تقم قوة الاقتحام بالهجوم على الأفراد اللهم الا فى حالات خاصة ، فلقد خاضت المعارك وجها لوجـه ضد قوات العدو ، وكانت معاركها أول معارك وطنية تقوم بها قوة عبرية ضد الباغى وضد جيش الاحتلال منذ ثورة « الحشمونيين » . لقد حققت قوة الاقتحام ما وعد به تشرتشل عام ١٩٤٤ ، حققته بكلمات استعرناها من كلماته : « سوف نحارب فى المدن وفى القرى ، سوف نحارب فى الشوارع وفى المنازل ، سوف نحارب حتى ولو كنا وحدنا ، وحتى لو استمر الكفاح سنين » .

كانت تكتيكات المعركة التى استخدمتها قوة الاقتحام قائمة على أقصى ما يمكن من استغلال عوامل المفاجأة واستخدام القوات الصغيرة للضربات الكبيرة ، وبفضل الجمع بين هذين المبدأين كانت القوة الحربية تقعد على « العقارب » فعلا فى أرض اسرائيل ٠ لم تذق قوات الظلم للراحة طعما ليلا أو نهارا ٠ كانت حالتها سيئة كلما كانت المعارك ماضية ، ولم تكن حالتها طيبة عندما لا تكون هناك عمليات جارية ، فقد كانت حينئذ تتوقع بعض « الزيارات » المفاجئة ٠ وربما أمكن مقارنة جهازنا العصبى بالبيانو المحطم : تلمس مفتاحا من مفاتيحه فيصدر البيانو أصواتا غير متوافقة ٠ لم نكن فى حاجة الى مهاجمة المعسكرات البريطانية العشرين فى آن واحد لكى نلقى الرعب فيها جميعا ، بل كان يكفينا أن نهاجم معسكرا واحدا فننشر الرعب فيها كلها ليلا ونبث القلق فيها كلها نهارا ٠

بلغت وحدات قوة الاقتحام درجة عالية من المهارة فى استغلال الهجوم المفاجىء ، تقصف ممرا بالمتفجرات وتدك هدفها ، بينما «تسترها» الرشاشات بصفة دائمة أثناء التقدم وأثناء الانسحاب ٠ شكا الجنرال « كننجهام » من أننا تعلمنا هذا الاسلوب من الألمان ، ومن أنه كان من المتعذر — عمليا — الصمود اذا كان قوام قوات الاختراق رجالا لا يأبهون للأخطار ٠ واذا كان « كننجهام » مصيبا فى النصف الثانى من تصريحه فقد كان مخطئا فى النصف الأول ، فنحن لم نتعلم من الآخرين ٠ لقد علمنا أنفسنا بأنفسنا ، وعملت التجربة على اتقان تعليمنا ٠ ان الاستعداد للتضحية يصنع المعجزات ، الا أن الحقيقة هى أن القوات المسلحة لم تصمد البتة فى وجه العمل المنسق بين جماعات الاختراق وجماعات الستر أو « التغطية » ٠ واذا كنا قد فشلنا أحيانا فان ذلك لم يكن الا بسبب خطأ فى التقدير من جانبنا أو بسبب فرصة غير مواتية ٠

كانت قوات الاقتحام تهجم كل يوم من أيام الأسبوع — فيما عدا أيام السبت — فقد كانت ارجون ترأعى التقاليد الدينية منذ أيام « دافيد رازيل » الذى كان متدينا مخلصا ٠ وكنا نحن أيضا مؤمنين ، نؤمن بالله العظيم ، كما نؤمن بمهمتنا وبعدالة قضيتنا ٠ ومع أننا كنا نعرف أن كفاحنا كان مفروضا علينا فرضا ، وأنه — والأمر كذلك — يكون مسموحا به أيام السبت ، الا أننا كنا نفضل — عادة — أن نهيىء الراحة لأسلحتنا فى ذلك اليوم ، وكان البريطانيون يعرفون ذلك عنا ،

وبالتالى كانوا يتطلعون الى يوم السبت اليهودى أكثر مما كانوا يتطلعون الى يوم الأحد !

كان هناك عدد من العمليات الاستثنائية ، احداها عملية الهجوم على منطقة الأمن الأولى فى القدس ، فقد تمت هـذه العمليات ظهر يوم السبت لأنه في ذلك الوقت فقط تكون المناطق المجاورة غير آهلة نسبيا بالمدنيين · وفى أثناء هذا الهجوم غير المتوقع كانت هناك شخصيتان هامتان تلعبان التنس فى منطقة أخـرى من مناطق الأمن · هاتان الشخصيتان هما « جورنى » رئيس سكرتارية حكومة فلسطين ، و « فيتز جيرالد » كبير القضاة البريطانيين · وقد كتب «هومر بيجارت» مراسل صحيفة « نيويورك هيرالد تريبيون » القدير ، متهكما ، أنه عندما سمع الانفجار المدوى أوقف هذان الرجلان اللعب ، مخالفين للتقليد الذى وضعه سير « فرانسيس دريك » !

الفصل السابع
المقاومة العلنية

(١)

« الخدمة البريطانية السرية » مؤسسة تكتنفها أسطورة من ذا الذى لم يسمع بمنجزاتها ؟ لقد مضت الاسطورة فى سبيلها من جيل الى جيل ، ومن بلد الى بلد ، ومن قارة الى قارة ـ الى أن أصبح البعض يعتقدون أن المخابرات البريطانية عليمة بكل شىء ، منزهة عن الخطأ • أن أولئك الذين يهمهم بث مثل هذا القصص يعرفون أنه فى التجسس ـ شأنه فى هذا شأن الحرب ـ تكون أسطورة النجاح فى حد ذاتها عاملا من عوامل النجاح ومع هذا فان قوة المخابرات البريطانية لا تكمن فى الاسطورة فقط ، فقد كانت هذه الادارة ـ بل ولعلها قادرة على أن تثبت أنها لاتزال ـ عاملا هائلا فى العلاقات الدولية ، تملك تحت تصرفها تجربة قرون عديدة •

الا أنه أثناء التمرد فى أرض اسرائيل لم تجد الخبرة العظيمة ولا الموارد الهائلة فى خدمة المخابرات البريطانية فتيلا ، فقد ظلت المقاومة السرية العبرية تقرع مؤخرة المخابرات وتقرع « فخذها » • أثبتنا ان « الخدمة البريطانية السرية » ليست عليمة بكل شىء ، وأنها ليست معصومة من الخطأ • لقدنجحنا فى أن تذهب الأساطير التى نسجت حول عملائها السريين أدراج الرياح ، وأقمنا الدليل على أن كثيرا منهم كانوا حمقى أو كانوا على درجة من الخمول بحيث لم يكونوا قادرين حتى على التفكير ، وأنه لا يصعب أن نحط من شأنهم الى مكانة كفيفى البصر الذين يتخبطون فى الظلمات •

لماذا فشلت المخابرات البريطانية في بلدنا الصغير ؟ كان أحد أسباب ذلك عادتها التى اعتادت عليها ، عادة التفكير في الضجيج ـ العدو الأول للعمل الخلاق • تعودت وزارة المستعمرات البريطانية ان تحكم الشعوب المتخلفة حيث كان من السهل استمالة وضمان العملاء بالمال أو الشراب •. فان «شخصا ما» يحتاج ـ أو يحب ـ المال ، وشخصا ما « يكون فى موضع المراقبة فيعرض من قبيل الصداقة « مساعدة » أو « قرضا » تقفل اليد المفتوحة قبضتها وينتقل أول جانب من المعلومات ، ثم يعقبه جانب آخر نظير مزيد من المال • واذا لم تصل المعلومات يعلق « سيف ديموقليس » فوق رأس الضحية (العميل) • تبدأ رأس الضحية فى الدوران ، ويرتجف لسانه • يكافح في الشبكة المضروبة حوله ولكن بعد فوات الأوان • يحاول جاهدا ان يخرج منها وينقذ نفسه , ولكنه عبثا يحاول • يبدأ التشهير ، « اذا لم تقدم لنا المعلومات فسوف نفضح آمرك بين أصدقائك » • يقع « الضحية » فى معضلة مخيفة • يستمر فى انزلاقه الى الحضيض ، فلا يبقى له ـ بعد ـ أن يختار من أمره شيئا •

ان هذه الأساليب التى تحولت بها خدمات المخابرات فى انحاء العالم فنا ، قد فشلت نهائيا فى أرض اسرائيل . وجدت خدمات المخابرات البريطانية صعوبة بالغة فى شراء المخبرين اليهود • حقيقة كانت هناك حالات خيانة من اجل المال ، ولكنها كانت حالات قليلة . ثم انها ـ عموما ـ كانت ذات اهمية ضئيلة .

حتى الشراب لم يساعد المخابرات البريطانية فى ارض اسرائيل ، فالسكر قليل أو لعله معدوم بين اليهود • وخلافا لرى « آرثر كويستلر » اعتقد أن الصحو والوقار فى هذا المجال من صفات شعبنا الحميدة ، فقد شكا لى « كويستلر » ذات مرة من صحو اليهود وجادلنى بقوله انه لما كان عمل الديبلوماسية يجرى عادة على كاس الشراب فان عدم الشرب قد يكون ، فى بعض المعايير ، دليلا على عدم الكفاية السياسية . ربما كان الأمر كذلك، الا انه لاينبغى أن يغيب عن البال أن «ديبلوماسية الويسكى » ذات وجهين . وقد يضطر المرء الى التسليم بان الزعماء اليهود لم يتفوقوا حتى الآن فى الأمور السياسية ، الا ان ذلك لا يرجع الى صحوهم ووقارهم ، بل هناك أسباب اخرى •• وعلى اية حال فاننى اذ اعتقد أن هناك كثيرا من الأمور مما يجب علينا أن نتعلمه من الآخرين ، أرى أن « الشرب » ليس واحدا من هذه الأمور ، بل لعل من الافضل أن يتعلم عنا الآخرون أن يمتنعوا عن الشرب .

ان تفكير الحساب البريطاني التقريبي لا يدخل في الاعتبار حقيقة ، هي أن المقاومة السرية العبرية كانت جادة في تفكيرها . فقد كان في حركات المقاومة السرية الأخرى عدد غير قليل ممن اشتركوا حبا في المغامرة لا حبا في المثل العليا ، أما مقاومتنا السرية فلم يكن بها « مغامرون هواة » ، بل ان صفوفها كلها كانت من المثاليين الذين رضوا بأن يضحوا بحياتهم لانقاذ شعبهم . قال لي ريتشارد مورار الصحفي الامريكي المعروف وصديق الشعب اليهودي : « أنا اعرف ان رجالكم يحاربون واعينهم مفتوحة » .

وذلك قول الصدق ، فقد كانت اعيننا مفتوحة على شعبنا ، وعلى بأس المقاومة التي تعترضنا ، وعلى الصفة الحيوية لقتالنا ، وعلى الاخطار التي كانت تتربص بنا في كل مكان .

كنا نشدد على ضباطنا ليلا ونهارا ، وكنا نامرهم بأن يشددوا بدورهم على رجالهم ، بأن العدوين الأساسيين للسرية هما الفضول والمباهاة . كنا نعلمهم ان الفضول يغتصب الأسرار من أولئك الذين يعرفونها ، والمباهاة الباطلة تكشف عنها لأولئك الذين لا يعرفونها ، وكلا الاثنين لعنة . والقاعدة الذهبية هي : لا تسأل ولا تخبر . ان ما يجب أن يكون معروفا يعرفه فقط أولئك الذين ينبغي لهم أن يعرفوه ، ويجب ان يعرفوا ما ينبغي لهم أن يعرفوه فقط ، فلا يجب أن يعرفوا أكثر من ذلك ، وفيما عدا هؤلاء لا ينبغي لأحد أن يعرف شيئا . وما لم تسلم بهذه القاعدة فانك سوف تجلب كارثة لا لنفسك وحسب ، بل ولرفاقك أيضا ، كارثة لا تحيق بالأفراد فقط ولكنها تحيق بالأسرة المحاربة جميعا .

حمل تعليمنا هذا ثماره ـ كانت للمخابرات البريطانية آذان كثيرة تسمع ، ولكنها لم تسمع شيئا . كان يكتنفنا حائط من الصمت . ظهرت ، بالطبع ، شقوق في هذا الحائط بين الفينة والفينة . ولكنها كانت قليلة ، ولم تنجح المخابرات البريطانية أبدا في ان تنفذ من حائط الصمت الى ما يدور في المقاومة السرية .

كان حائط الصمت اهم خط دفاعي للمقاومة السرية ، كما كان لنا بمثابة حماية من عواقب الاستفزاز والتحرش . والقاعدة ان الاستفزاز والتحرش يمضيان سويا ، فما من مقاومة سرية على وجه الأرض كانت بمنجاة من بلاء عملاء التحرش . هناك قليل من حركات المقاومة السرية في التاريخ لم تتفكك من الداخل بفعل المستفزين الخارجين، فان حركة « بي.أو » ـ وهي المقاومة السرية للثوار الاشتراكيين في روسيا

القيصرية — كان جزاؤها ضربة قاضية على يد البوليس السرى القيصرى « أوخرانا » عن طريق مساعدة المخبرين السريين ، وكان أكبر هؤلاء واشهرهم هو نفسه واحدا من قادة المقاومة السرية ، « آزيف » السيىء السمعة . كما عانت المقاومة السرية الايرلندية معاناة شديدة من تسرب أخبارها . والحزب الشيوعى فى بولندا ، الذى كان يعمل فى المقاومة السرية قبل الحرب العالمية الثانية ، كان يعمل فى الواقع تحت امرة البوليس السرى للحكومة البولندية ! ولقد اجبرت الشيوعية الروسية الثالثة سنة ١٩١٨ (الكومنترن) على حل شعبتها البولندية التى ابتليت بالفساد بسبب الخيانة التى لم تتناول صفوفها فحسب ، بل تعدتها فانتشرت بصفة خاصة فى قيادتها .

لم تسلم مقاومتنا السرية من أن يلقى عليها التحرش البشع ظله — ظل العميل الذى ينضم عامدا الى الثائرين لكى يفشى اسرارهم ، أو الخائن الذى يهجر رفاقه — لسبب أو لآخر — فينضم الى جانب العدو . بذلت المخابرات البريطانية قصارى جهدها لتدخل المخبرين فى صفوفنا ولتجند العملاء من بين أعضائنا . وطوال سنى التمرد لم يكن هناك سوى ثلاث من حالات الغدر ، ولم تفلح مخابرات العدو مرة واحدة فى أن تدس عملاءها فى المقاومة السرية دون أن ينكشف أمرهم على الفور . بل انها لم تفلح البتة — وذلك امر بالغ الأهمية — فى أن تدس عملاءها فى المراكز العليا على طريق الكفاح .

كانت ادارة الأمن عندنا تعمل بجد واخلاص وكفاية . وقد نجح أعوانها المجهولون — ومن بينهم رجال الشرطة اليهود بالخدمة البريطانية — فى أن ينفذوا الى معسكرات العدو دون أن يسمحوا له باختراق صفوفهم ، وبالتالى كنا نعرف ، مسبقا ، ماذا كانت قوات الحكومة تنوى القيام بعمله . كان الكفاح قائما تحت سطح الأرض ، بكل ما فى هذا التعبير من معنى ، رغم ما كان يشهده العالم الخارجى من الصدام المادى . حقيقة ، كانت ترسم الخطة لضرباتنا فى الخفاء ، الا أن تنفيذها كان يتم علانية على السطح ، ودائما ما كان يتم وجها لوجه مع العدو المسلح . ان ما لم يشهده العالم لم يكن سوى صدام العقول ، فقد ظل هذا الصدام عميقا تحت السطح ، ولعله كان بمثل المعركة الفاصلة فى الكفاح من أجل التحرر . باشر البريطانيون مشكلة تحللنا من الداخل لكى يحطمونا ، وباشرنا نحن مشكلة تحطيم حكمهم لكى يتحلل . اصطدم دهاء خدمة المخابرات البريطانية بالعقول اليهودية ، وخسر الدهاء !

ثار اخطر المواقف من هذا النوع بالنسبة لنا فى أولى مراحل التمرد بسبب خيانة المدعو « سيمون تسوروس » . كنا ندرك أن شخصا ما فيما بيننا ، أو لعله كانت له صلة بنا ، يعطى المعلومات للعدو . سبق أن ذكرت نبأ القبض على « استر رازيل » وزوجها ، واكتشاف جهاز ارسال لاسلكي فى منزلهما . ان الاعتقالات التى كان حتما ان تجرى فى جميع انحاء البلاد بعد نجاح عملياتنا الأولى لم تكن لتدهشنا ، فقد كان جميع من القى القبض عليهم من المعروفين باتجاهاتهم ، ثم انهم كانوا يعيشون جهارا فلم يحاولوا الاختفاء . ولكن الذى أدهشنا فعلا هو أن البريطانيين وجدوا جهاز الارسال فى منزل « رازيل » من غير ما عناء وقبل أن يتاح الوقت لنقله . وقد توصلنا الى معرفة أن ذلك كان نتيجة معلومات داخلية ، فبدأنا نعمل على اخراج عميل الأعداء ، عميل أعداء الشعب المختبىء بيننا ، ولم يمض طويل وقت قبل أن قادنا الأثر الى « سيمون تسوروس » .

قبل ان اتكلم عن « تسوروس » ينبغى لى ان اشير الى آثار الاعتقالات بالجملة ، لا على جمهور الناس عامة فحسب ، بل وعلى المقاومة السرية نفسها ايضا . لم يكد التمرد ان يبدأ حتى كانت صدمة هذه الضربة الأولى هائلة . ولا سبيل الى ان أنكر اننى لم أكن أستطيع النوم فى تلك الليالى ، بل ولم أكن قادرا على العمل . كنت دائم التفكير فى العائلات التى تمزق شملها ، وبخاصة فيما يتعلق بالأطفال . زرت بعض هذه العائلات فوجدت الحزن والألم . قابلت مسز « رازيل » الأم العظيمة للابن العظيم . كان شعرها أبيض ناصع البياض كالثلج المندوف ، الا أن روحها المعنوية كانت ثابتة كالصخرة الراسخة . لم أحاول أن أواسيها . سألتها كيف كان حالها ، فشكرتنى ثم أضافت بهدوء ورباطة جأش قائلة ، فى وقار المؤمن بأن الله الذى أعطى ثم أخذ قادر على أن يعطى مرة أخرى : « انظر ، لقد دمر منزلنا فى الليلة السابقة مرة أخرى » .

بدأنا نتعرض للضغط ، الضغط الذى وقع علينا من جهات مختلفة ، تطالبنا جميعها بمحاولة اخلاء سبيل المعتقلين وبخاصة « استر » . ومع الضغط كان الصراع الذهنى : هل من حقنا أن نجلب المعاناة للناس وللعائلات ؟ هل من حقنا أن نعرض حريتهم وأرواحهم للخطر ؟ كيف يمكن لنا أن نتحقق من أن حربنا سوف تؤتى ثمارها ؟ ان من لم يتعرض لهذه التجارب المعنوية المخيفة

لا يستطيع ان يفهم البتة مدى وقعها الكامل . اعاننى اصدقائى على التغلب على هذه الهواجس التي كانت تعذبنى ، فقالوا لى جهرا ما كانت الاصوات الداخلية تهمس به سرا : « أليس كل واحد منا مستعدا للتنازل عن حريته أو حياته ؟ » ، ثم اضافوا : « أليس هؤلاء الذين بقوا تحت الأرض ، خارج اسوار المعتقل ، سجناء أيضا ، بل ربما كان سجنهم اشد واقسى من أولئك المعتقلين وراء الأسلاك الشائكة ؟ ثم ما هو الحل البديل ؟ هل نسألهم الاستعباد ؟ » .

ان هذا الصراع الذهنى الذى بدأ مع بداية التمرد لم ينته الا عندما نركنا المقاومة السرية . وكان ذلك أمرا طبيعيا . لا حاجة لخلق الأساطير حول « رجال صنعوا من الصلب » ! توجد غلظة القلب المتبلد الخالى من الاحساس حيثما لا توجد الخوالج والمخاوف النفسية . ان ضمور المشاعر الانسانية العميقة الطبيعية ووهنها ليسا دليلا على السمة القوية . اذا وجد أو ظهر ذلك الذى يسمونه « قلبا من حديد » فانه أمر يمكن اكتسابه نظير ثمن باهظ من المكابدة والمعاناة .

ومع أن الصراع الداخلى كان يثور من جديد كلما وقعت ضحية جديدة وكلما أصدر العدو قانونا جديدا ، الا أن الامر كان قد تقرر فى تلك الايام التى أعقبت الاعتقالات الأولى . لم نخضع للضغط ، فرفضنا محاولة اطلاق سراح المعتقلين ، وقلنا لأصدقائنا :

« سوف نوكل محامين ، وسوف نساعد العائلات بأقصى ما تستطيعه قدراتنا ، الا اننا لن نوافق على أى اتصال رسمى أو شبه رسمى بالسلطات ، ولن نبذل أى محاولة فى هذا الصدد حتى من اجل « ستر » . لا مفاوضات للافراج عن السجناء . ليست هناك حرب بدون معاناة ، أو تمرد بدون سجناء . ليس هناك نصر بدون تضحيات . يجب أن نصمد جميعا للاختبار ، والا اكتشف العدو نقطة ضعف أخيل (بطل الياذة هوميروس) وأخذ يضغط علينا ثم يعدنا ، ويهددنا ثم يحاول افسادنا واستمالتنا بهدف اضعاف معنوياتنا » .

لم نتزحزح عن هذا المسلك ، وعلى امتداد أيام التمرد وقع فى

الأسر المئات والألوف من صفوفنا ، الا اننا لم نصادف التاسع والعشرين من شهر يونيو (١) أو عواقبه .

ومع هذا ، وككل مقاومة سرية ، كان بيننا خائن . لم يكن « تسوروس » أبدا عضوا فى الأرجون ، بل أنه كان يعمل لبعض الوقت فى خدمة الصندوق الذى كانت تتلقى منه ارجون اعانة مالية . وقد أتاح له ذلك فرصة الاتصال بعدد من الاشخاص العاملين فى ارجون ، وبعدد آخر ممن ظن أنهم من العاملين بها . ويصعب تحديد الوقت الذى تم فيه الاتصال بالشرطة الخاصة ليصبح عميلا لها ، تحديدا دقيقا . كان « تسوروس » مقامرا . وكان يحب التانق فى الملبس . كان فى حاجة الى المال ، ويبدو انه كان يفتقر الى الشجاعة أيضا . وما أن بدأ ينزلق حتى ظل يهوى الى هوة سحيقة ، وعندما أفشى خبر وجود جهاز الارسال اللاسلكى فى منزل « رازيل » كان واقعا بالفعل فى شراك المخابرات ، وبعد مضى عدة أسابيع قدم الى « كاتلنج » رئيس الادارة اليهودية فى المباحث الجنائية البريطانية قائمة تضم أسماء وأوصافا وعناوين . وكان من بين الذين شملتهم هذه القائمة « يعقوب ميريدور » حيث ظهر أمام اسمه : « بثرة (دمل) على الأنف » . كانت المعلومات صحيحة فى ذلك الوقت لأن « يعقوب » كان يشكو وقتئذ بالفعل من البثور ، الا أن هذه المعلومات الدقيقة لم تؤد عندئذ الى القبض على نائب قائد ارجون تسفاى ليومى ، فقد جاء رجال الشرطة الى محل عمل المستر « هونيج » ، الا أن المستر « هونيج » « كان قد غادره قبل وصولهم بوقت كاف . ظل لدى البريطانيين من الاسباب ، بعد ذلك الحادث بفترة طويلة ، ما يدعوهم الى الأسف على استمرار المستر « هونيج » حرا طليقا .

ومع أن هذا — كما يبدو — امر لا يصدقه العقل ، الا أن المخبرين لم يأخذوا فى اعتبارهم أن البثور تظهر وتختفى ، فقد ظلوا يبحثون عن رجل « على أنفه بثرة » . وليس من شك فى أن « كاتلنج » ما كان ليستطيع أن يلقى القبض على « ميريدور » لولا أن الخائن « تسوروس » قد خلفه « مكتب مشترك » من المخبرين . وعندما تلقى « كاتلنج » القائمة من « تسوروس » كان فى نشوة الانتصار ، وكان موقنا من تصفية

---

(١) فى يوم ٢٩ يونيو ١٩٤٦ القت السلطات البريطانية القبض على بعض الزعماء والرسميين من الوكالة اليهودية الصهيونية ، الذين اشترطوا اطلاق سراحهم نظير الكف عن القتال من جانبهم ، ونظير الموافقة على سحب قواتهم — الهاجاناه — من النضال .

ارجون ، فكتب تقريرا فى هذا الشان الى رؤسائه فى القدس وفى القاهرة ولندن . فرك رجال البوليس السرى النابهون أيديهم ، اذ راوا باعين خيالهم الميداليات والترقيات . لم يكونوا يدركون أن نسخة من القائمة التى قدمت اليهم كانت فى ايدينا بالفعل ، ولم يكونوا يعرفون اننا كنا نعرف كل ما عرفوه عنا . أمعنا النظر فى القائمة بعناية تامة . كانت تضم اسماء كثيرة لأشخاص ليسوا اعضاء فى المنظمة واشخاص لم يؤدوا دورا ما فى خدمة المنظمة لسنين طويلة ، وكان هناك بعض أسماء مما يحتمل ان تكون قد وصلت أخيرا الى البريطانيين على أية حال ؛ ولو أنه كان مما يدعو الى الأسف ان تصل اليهم فى مثل هذه السرعة . قبض على عدد قليل فقط ، وعموما لم يكن الوضع سيئا ، فقد لجأنا الى اجراءات أمن جديدة . كانت الضربة مؤلمة ، ولكن سرعان ما صحونا منها ، وعلم « كاتلنج » ان ابتهاجه كان سابقا لأوانه ، وأن رؤساء أصيبوا بخيبة أمل !.

فى غضون هذه الفترة تدبرنا فيما عسى أن نفعله مع « تسورروس » . طالب رفاقى باعدامه ، وكان لطلبهم هذا ما يبرره بحكم قانون المقاومة السرية ، فليس لدى المقاومة سجن تزج بأعدائها فيه وتمنعهم من الاستمرار فى عملهم المخرب ، والنماون منهم أخطر أعداء المقاومة السرية . ومع هذا عارضت فى اعدام « تسورروس » فقد خشيت احتمال الخطأ . طالبت بدليل قاطع ، فما كنت اصدق ان يهوديا ينحدر الى هذا الحضيض ، ولكننى كنت مخطئا . وبمضى الوقت عرفت الحقيقة واعترفت بخطئى .

وشى « تسورروس » بى أنا شخصيا . وكان قد جاء الى منزلنا . كان الوقت قد فات ، الا أننى كنت ارى أمامى الرجال الأبطال ، البررة المخلصين . واننى لأعرف انه اذا ما ارتفع المرء فوق نفسه فلا حدود لارتقائه . ومن ناحية اخرى ، كنت أرى أن « تسورروس » يقف الى جوار مهد (سرير) ابنى . أن الطفل يضحك لنا كلينا ، ويبتسم « تسورروس » للوالد والابن ، ولكنه كان طوال الوقت يفكر . واننى لأعرف كذلك ، أنه اذا ما هوى المرء فلا حدود لسقوطه . لكن . حمدا لله لقد رأيت بعينى راسى ان أولئك الذين يرتفعون كثير عددهم ، بينما أولئك الذين ينحدرون قليل عددهم .

(٢)

ان عادات التفكير النمطية الرتيبة لم تجعل البريطانيين يتعثرون فى سعيهم للاثارة فحسب ، ولكنها جعلتهم يتعثرون أيضا فى تصورهم

لأسلوب حياة رجال المقاومة السرية . لقد وقع البريطانيون بدرجة ما فريسة لدعايتهم ضدنا . وصفونا بأننا « ارهابيون » مخيفون ، وطبقوا علامات تحقيق الشخصية المناسبة علينا . لكننا ــ كما سبق ان أكدت ــ لم نكن ارهابيين البتة ، ولم نكن نتميز اطلاقا بمثل هذه العلامات من وسائل تحقيق الشخصية . وجد البريطانيون فى غرفتنا بالقدس صورتين شمسيتين لى ، كانت احداهما تشبهنى الى حد ما ، اما الثانية فقد التقطها لى مصور من مصورى الشارع وكنت قد طلبتها لبطاقة تحقيق الشخصية العسكرية ، وكان الشبه بينى وبينها طفيفا ، الا انه عندما ارسل البريطانيون جيشهم من المخبرين والجواسيس ، وانفقوا آلاف الجنيهات بغية اصطيادى ، وقع اختيارهم على الصورة الثانية لينشروها لماذا ؟ لأن الصورة الأولى كانت « انسانية » لدرجة ما ولما كانت الصورة لى فانها لم تكن بالطبع صورة جميلة ، الا انها لم تكن لتثير أى أحساس ضدى فى أولئك الذين يرونها ، فقد كانت تبدو وكأنها صورة شخص عادى . أما الصورة الثانية فقد كانت ، على الأغلب ، تأكيدا لنظرية « داروين » ، فهى تبدى وجها مما اعتدنا أن نقول انه وجه رجل ينبغى أن يلقى به فى السجن . أن « علم الفراسة » هو علم الجهلاء . فى تجربة اجريت فى امريكا ، قدمت مجموعة متنوعة من الصور الفوتوغرافية الى رجل كان يزعم أنه قادر على « قراءة الوجوه » . فحص الرجل الصور فحصا دقيقا ، ثم اختار من بينها بعض « نماذج اجرامية » . ومع هذا فقد ظهر أن « المجرمين » الذين وقع اختياره عليهم كانوا ممثلين وكتابا وأساتذة ومخترعين ذائعى الصيت ، بينما وضع صور السفاحين واللصوص ضمن مجموعة « الجذابين » . الا أن الخبراء البريطانيين ــ حتى ولو كانوا قد سمعوا بالتجربة الأمريكية أو قرأوا عنها ــ مضوا فى عملهم طبقا لقانون الجهل فقد كانت صور الارهابيين التى نشروها مفزعة حقا. ولما نشرت الصحيفة اليومية الانجليزية فى القاهرة « ميديل ايست ميل » صورة مختلفة لى ، كنت أبدو فيها واقفا الى جوار مهد ابنى وفى يدى لعبة (فيل) ، كان نصيب رئيس تحريرها التأنيب . حقيقة ، كانت هذه الصورة هى الأخرى عجيبة الى حد ما من حيث مشابهتها لى ، ولكن قيل لرئيس التحرير : كيف تظهره وهو يداعب طفله ، مما قد يستدر العطف عليه ؟

هكذا نفعتنا الحكومة من حيث كانت تريد الاضرار بنا ، فان صورة الارهابيين كانت لها مزية طيبة، فهى لاتحمل مشابهة لأصحابها .

وزعت آلاف النسخ من صورتى الثانية على رجال الشرطة البريطانيه، ولكن لو اننى كنت ارتاد شوارع تل أبيب نهارا كل يوم بدون ان اتنكر لما عرفنى مخبرو الشرطة البريطانيون المساكين ولما نالوا المكافاة الموعودة للقبض على ، ولا يمكن أن يقال ــ مع هذا ــ انهم كانوا لا يطمعون فيها .

كانت هناك ــ مع هذا ــ نتيجة واحدة ، هى ان كثيرا من الناس تكبدوا كثيرا من المتاعب بسببى أو بسبب صورتى ، فقد قبض مرة على « يهوشافاط » فى القدس ، وهو واحد من ضباطنا المخلصين ، وكان يحرز متفجرات عند القبض عليه . ومن اسف انه لا يوجد بيننا أى شبه ، واشك فيما اذا كانت صورتى التعسة التى يحتفظ بها البوليس هى التى أثارت الشكوك فى « يهوشافاط » مع ان ملامحه جذابة نوعا ما . الا أن بعض المخبرين ظنوا انهم وجدوا تشابها ، وقد ثار شكهم بينما كانت تجرى محاكمته فصارت قاعة الجلسة مشهدا للنشاط المتحمس . تضاعف الحرس ، ثم زيد الى ثلاثة أمثاله ، ثم الى اربعة أمثاله . واستدعى كبار المخبرين السريين على عجل ، فجاءوا ثم خرجوا وانعموا النظر والتقطوا الصور . وكان النبأ السار على وشك أن ينشر ليثلج صدور الرسميين بان « الارهابى رقم ١ » ــ كما كانوا يسموننى ــ قد القى القبض عليه ، الا أن شخصا ما اصدر حكمه النهائى آخر الأمر : « لا ، ليس هذا الارهابى رقم ١ (ابن الزنا) .

و « عارون » صديق من أصدقائى هو الآخر ، وهو واحد من احسن ضباط اعلامنا ، صادفته تجربة اشد خطورة ، فهو ايضا لا يشبهنى ولا يشبه صورتى ، الا أن « عارون » كان يعانى من علتين شديدتين : كان نحيفا جدا ، وكان يضع على عينيه عوينات ذات اطار سميك اسود . أدت هاتان الظاهرتان باشخاص من طراز « لورنس فلسطين » الى استنتاج أن « عارون » كان انا ، فالقى القبض عليه وسيق الى رؤساء المباحث الجنائية الذين أمطروه وابلا من الأسئلة .

أعطى « عارون » اسمه الذى كان مكتوبا فى بطاقته الشخصية ، ولا أستطيع أن أضمن أن ذلك الاسم كان اسمه الحقيقى اكثر مما اضمن أن بطاقة تحقيق الشخصية كانت غير مصطنعة ، اى أن اسمه لم يكن « بيجين » . كان المخبرون غاية فى الحنق والغضب ، فقد قبضوا على وهاأنذا أهزأ بهم ، بل حتى اننى لا اظهر لهم شخصيتى . ولم يكن ذلك من الانصاف فى شىء !

ضغط المخبرون على « عارون » بالسؤال :

« ما اسمك الحقيقى ، وهل تظن اننا لا نعرف من انت ؟ » .

كان « عارون » جد سعيد ليعرف أن البريطانيين لم يعرفوه حقيقة وانهم ظنوه شخصا آخر ، فهو ــ كمتهم لحسابه ــ كان موقفه بالغ الخطورة ، اما ان يتهم بانه انا فذلك أمر لا يقل خطرا .

استمر الاستجواب يوما كاملا . كان المخبرون يدخلون ويخرجون . بدا التعب على « عارون » من كثرة الاستجواب . كانوا ينظرون اليه من امام ، ويفحصونه من جنب ، وجعلوه يمشى فى الغرفة . وكانت تلك تجربة مثيرة ، فان « عارون » هو الآخر ــ اذا لم اكن مخطئا ــ كانت أقدامه مسطحة . تردد المخبرون بين الأمل فى أننى كنت هو والشك فى أنه كان أنا ، وأخيرا نفد صبرهم وصاح أحدهم فى « عارون » : « اذا كان الأمر كذلك فاثبت أنك أنت عارون » .

لم يكن « عارون » بقادر على أن يفعل ذلك ، فانه لم يكن انا وكفى ، بل انه لا يجرؤ أن يكون هو نفسه ! ان بطاقة تحقيق شخصيته بينما هى لا تكشف عن شخصيته فانها لا تمثله هو . لقد كان مكتوبا فيها ان « عارون » الوفى لتقليد المقاومة السرية شخص عنيد . انه لم يتزحزح ، الى أن صرف البريطانيون النظر عن فكرة انه كان أنا وبدأوا يعتقدون انه كان الشخص المشار اليه فى بطاقة تحقيق الشخصية . لم يطرأ لهم قط انه كان هو نفسه . أخلى سبيل « عارون » وظل يخدم فى المقاومة السرية الى النهاية .

بعد « عارون » القى القبض على عدد من الناس لمشابهتهم للصورة الفوتوغرافية التى لا تشبهنى . ويرجع ذلك كله الى ان البريطانيين كانوا مصممين على أن يمثلونا للعالم كرجال لهم قرون وذيول وحوافر ، رجال بدون ضمير .

لم يكن يجول بخاطر البريطانيين قط اننا كنا نعيش فى الاقليم ، كما كنا نعيش علانية . لم يكونوا يفهمون اننا جعلنا من « الحاجة » فضيلة . كيف كان بمقدورنا أن نختبىء فى هذا الاقليم الصغير ؟ ان الوطنيين فى الشعوب الأخرى يعملون فى جبال وعرة او فى غابات شاسعة ، ولم يكن فى ارض اسرائيل جبال أو غابات ليختبىء فيها الثائرون . لقد كنا معرضين تماما لأعين الأعداء ، ومع هذا ــ او لعله كان نتيجة لهذا ــ كنا نرى ولم يكن أحد يرانا . كان طبيعيا أن تكون لنا اسماء متنوعة ، واستخدمنا مجموعة من وثائق تحقيق الشخصية

كانت مصنوعة محليا عادة ، ولكننا لم نكن البتة فى «عنبر البضائع» .
لم نكن محاطين بالحرس ، بل اننا لم نكن نحمل اسلحة للدفاع عن انفسنا . كنا معلمين وطلبة حقيقيين او وهميين ، وكنا تجارا وكنا محاسبين حقيقيين او وهميين ، وكنا مهندسين وميكانيكيين .
وبالاختصار كنا مواطنين عاديين ، لا يميزنا شيء عن بقية المواطنين .
كان رجال الشرطة يلتقون برجالنا مرات لا تعد ولا تحصى ، ودائما ما كان اعضاؤنا يلتقون بهم ، ولكن ماذا كانوا يجدون معهم ؟ لم يكونوا يحملون سلاحا ، كانوا يحملون أدوات العمل أو يحملون وثائق الشركة التى تستخدمهم . من ذا الذى يرتاب فى مواطن مسالم ذاهب الى عمله او عائد الى بيته ؟ لقد استطعنا أن نحول العدو الى أشخاص لهم اعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها وانوف لا يشمون بها !

احيانا ما تسببت مسالة الحرس فى سوء تفاهم مضحك . لم يكن اعداؤنا هم وحدهم الذين يعتقدون انه كان يرافقنى حرس مسلح اينما ذهبت ، بل كان كثير غيرهم من الأصدقاء يشاركونهم هذا الاعتقاد ، حتى لقد ابدى أحدهم اعجابه بتدابير الأمن الفائقة التى نتخذها . زارنى مرتين فى منزل « مائير كاهان » المسمى «اليكس» ، « المجرب فى الحروب » . كان هذا المنزل الذى يتم فيه كثير من الاجتماعات للمقاومة السرية محاطا باشجار السرور العظيمة ، ولم يكن الأمر بحاجة الى كثير من الخيال ليعتقد المرء انه كان يكمن خلف هذه الأشجار فتية شجعان مختفون يحملون رشاشات تومى فى وضع الاستعداد . كيف انه لا يمكن رؤيتهم ، وكيف انهم — حتى — لا يلقون ظلا ؟ كان استنتاج صديقى بسيطا ، ففى زيارته الثانية افتتح المحادثة بقوله :

« يجب ان اهنئك على ترتيبات الأمن الفائقة التى تتخذونها .
هذه هى زيارتى الثانية ولم اتبين فردا واحدا من حراسكم .. » .

التزمت الصمت . لم استطع ان اخبر صديقى بالحقيقة . ان قانون المقاومة السرية لا يحتمل أية استثناءات ، ولكننى لم اشأ أيضا ان اكذب عليه ، ولذا لم اقل شيئا . وعندما تركنا المقاومة السرية استطاع صديقى ان يكتشف أن سبب عدم رؤيته الحرس هو انه لم يكن لهم وجود فيتبينهم !

كانت مسالة حمل السلاح للدفاع عن انفسنا اخطر من ذلك بكثير ، فقد قررنا منذ البداية أن تبقى جميع اسلحتنا فى مستودعات الأسلحة لا تخرج منها الا للقيام بعملياتنا الهجومية ، وكان لقادة جبهة

تحرير اسرائيل (جماعة شتيرن) وقتئذ راى مخالف لهـذا القرار ، اذ وضعوا قاعدة تقضي بأن يحمل كل عضو فى المقاومة السرية سلاحه ليلا ونهارا حتى اذا ما جاء عملاء العدو للقبض عليه كان عليه أن يدافع عن نفسه ، واذا دعا الأمر فان الموت أفضل من الوقوع فى الأسر . وقد شرح لى « اسحاق ايسرنيتسكى » قائد شـتيرن هذه القاعدة ، فبعد ان اغتال المخبرون ، غدرا ، « ابراهام شتيرن » ، الذى لم يكن يحمل سلاحا ، قرر اتباعه الا يقعوا فى قبضة آسريه .

كان الداعى لهذه القاعدة مفجعا ، الا ان عواقبها كانت مفجعـة كذلك . ففى ربيع سنة ١٩٤٤ وقعت عدة مصادمات بين العدو وبين اعضاء جماعة شتيرن الذين وقفوا ودافعوا عن انفسهم وعن حريتهم الشخصية ، وكانت القوات البريطانية متفوقة ، بالطبع ، كمـا كانت المبادأة فى أيديهم ، فسقط عدد من أعضاء شـتيرن الشـجعان صرعى رشاشات العدو .

قابلت « ايسر نيتسكى » قائد جبهة تحرير اسرائيل يوم عيـد الفصح سـنة ١٩٤٤ فى غرفة صغيرة عـلى سطح منزل فى « بناى براك » . لم يكن ـ بعد ـ فى ذلك الوقت هو « الحاخام شاتير » بلحيته الطويلة السوداء ، ولكنه كان تاجرا ذا شارب مجعد أشقر . تكلمنا أساسـا عن حمل الأسلحة فكرر « ايسرنيتسكي » مجادلته ، وشرحت له وجهة نظرنا : ان ضرر حمل الأسلحة بصفة دائمة أكثر من نفعه ، فان الرجل المسلح عرضة لأن تحـدق به فى اى وقت قوات متفوقة من الشرطة ، وهذا يعنى مسدسا ضد كثير من الرشاشات القصيرة ، وفى هـذه الحالة لا يضمن سلاحه المحافظة على حياته ، بل انه يعرضها للخطر . ومن ناحية أخرى ، يجب علينا أن نفـكر فى تخطيطنـا . اننا لن نكون قادرين على الاحتفاظ بالمبادأة فى التخطيط ـ ولعل التخطيط أن يكون المصدر الرئيسى لقوتنا ـ اذا ما جرت حوادث غير مدبرة فى اية لحظة بين واحد أو أكثر من رجال المقاومة السرية وبين قوات العدو » .

ولكى أؤكد وجهة نظرى اخبرت « ايسرنيتسكى » بما حـدث ليعقوب ميريدور منـذ أيام قليلة . كان فى طريقـه لزيارتى مع رفيق عنـدما أحاطت بهما على عتبـة منزلى داورية بريطانيـة مسـلحة بالرشـاشات القصـيرة . طلب رجال الشرطة منهما بطاقتى تحقيق شخصيتهما .

كانت بطاقتا تحقيق شخصيتهما سليمتين ، لكن أفراد الشرطة

لم يقنعوا بمراجعتهما وفتشوا الرجلين ، وعندما وجدوا انهما لايحملان سلاحا اقتنعوا وأذنوا للرجلين الملتزمين بالقانون بأن يزورا صديقهما الذى يحترم القانون . لكن ماذا كان عسى أن يحدث لو انهم وجدوا سلاحا فى جيوبهما حتى لو كان للدفاع عن النفس ؟ الواضح ، قطعا ، أن فرص الدفاع الناجح عن النفس بمسدس ضد خمسة او ستة رشاشات تومى هى فرص هزيلة فى الواقع . ان الصدام غير المتكافىء وغير المطلوب خليق بأن ينتهى الى اصابة رجال المقاومة السرية او القبض عليهم او الى الأمرين معا او الى ما هو اسوا .. اما اذا كان رجالنا غير مسلحين فان ذلك يعطى رجال الشرطة فرصة مدهشة لكى يهزأوا من انفسهم !

لست ادرى ما اذا كانت مناقشتى قد اقنعت قادة جبهة تحرير اسرائيل او ما اذا كانت تجربتهم هى التى علمتهم ، الا انه سرعان ما لجأوا الى اسلوب « نزع السلاح الداخلى » بعد مقابلتنا فى « بناى براك » . اخبرت فى بادىء الأمر بانه كان هناك نوع من عدم الرضا فى صفوفهم ، فلقد رسخت فى اذهانهم نظرية مؤداها أن فكرة التسلح الشخصى و « عدم الاستسلام » كانت قانونا لا يتبدل ، يميزهم عن حركات المقاومة السرية عموما ، ولكنهم اخيرا أطاعوا التعليمات الجديدة التى صاحبتها تفسيرات كافية ، ومنذ ذلك الوقت كانت اسلحتهم تستخدم فقط فى العمليات المدبرة .

هكذا تابعنا مبدأ المقاومة السرية « العلنية » وقد اعتاد « مائير كاهان » ، الذى يحب أن يضفى على اكثر المسائل جدية لباسا من المرح والفكاهة ، أن يقول : مقاومتنا علنية بالطبع ، وأن اشد البقع ظلاما هو ما يقع تحت الضوء مباشرة .

الا انه لكى تحتفظ بالمقاومة العلنية فانك فى حاجة الى اسلوب اكثر من اسلوب الأسماء المستعارة . ان ما هو ضرورى هو الوعى الداخلى الذى يجعل الأمر المشروع غير مشروع ، ويجعل ما هو « غير مشروع » أمرا مشروعا له ما يبرره . ولقد كان لدينا هذا الوعى بدرجة فائقة . كنا مقتنعين بشرعية أعمالنا « غير المشروعة » ، وذلك هو السبب الذى من اجله لم نخرج عن صوابنا عندما كنا نواجه بالداوريات البريطانية وعندما كان علينا أن نجيب على اسئلتها ، وذلك أيضا هو السبب الذى من أجله لم نفكر البتة فيما كان ينتظرنا اذا ما وقعنا فى قبضة العدو . كان الموت يكتنفنا من كل جانب ، ولكننا

لم نره . كنا نسير « تحت المصباح » . لم نكن نستهين بالوقوع فى الأسر فحسب ، بل اننا لم نفكر فيه أبدا . كنا نركز أفكارنا فى التمرد نفسه . ان هذا الثبات النفسى لا شأن له بما يسمى « الشجاعة » ، كما انه لا يمكن ان ينتقل عن طريق الأوامر ، ولكنه ناتج التحرر التام من استعبادنا الروحى ، ناتج الوعى بملكيتنا للاقليم الذى تسحقه دبابات العدو . ان السيادة الروحية لها الأولوية على السيادة السياسية . والواقع ان الحرية الروحية هى الشرط الجوهرى للحصول على الحرية السياسية .

كان تعاطف الشعب الذى انبثقت منه المقاومة ظرفا اضافيا يساعد على جعل المقاومة علنية . لم نحرز تعاطف الشعب من فورنا ، ولكن منزلتنا المعنوية كانت تزداد بين الشعب يوما بعد يوم ، واشعر بأن الفترة ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ كانت فترة حاسمة فى هذا المقام . ابان هذه الفترة اشتركت الهاجاناه ــ التى كانت تحت اشراف المؤسسات الصهيونية الرسمية ــ فى كفاحنا ضد نظام الحكم البريطانى ، فادرك الشعب فجأة ان أولئك الذين كانت تصفهم الدعاية الصهيونية الرسمية بأنهم « حمقى » تفوقوا على المؤسسات الرسمية فى التكهن بالاحداث وفى عمل ما كان ينبغى ان يعمل . كانت النتيجة ان تغيير الجبهة بمعرفة الزعامة الصهيونية الرسمية بعد اعتقالات ٢٩ يونيو الجماعية . لم يكن قادرا ، بعد ، على تغيير الشعور الشعبى . وهكذا وجدنا المتعاطفين فى جميع الطبقات والأحزاب . وكان ان قلب هذا التعاطف كفة الميزان فاقيم « الحائط الحديدى » حول « الشباب المقاتلين » بالفعل ــ ذلك الحائط الذى التمسنا اقامته فى النداء الذى وجهناه غداة التمرد . وكان لشكوى البريطانيين ما يبررها من أن السكان اليهود لم يقدموا المساعدة الفعالة فى « الحرب ضد الارهابيين » .

فى الورقة البيضاء المؤرخة فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ (فلسطين : انهاء الانتداب) التى سجلت افلاس الورقة البيضاء المؤرخة فى سنة ١٩٣٩ ، فاعترفت بفوز التمرد ودونت نهاية الحكم البريطانى ، كتبت الحكومة : « ثبت أن القوة البالغ عددها ٤٨٫٠٠٠ جندى ، التى لم تجد تعاونا من الطائفة اليهودية ، غير كافية لحفظ القانون والنظام فى وجه حملة الارهاب التى قامت بها قوات يهودية منظمة تنظيما جيدا ومزودة بجميع أسلحة المشاة الحديثة » .

عندما تكلم البريطانيون عن عدم التعاون من الطائفة اليهودية ، لم يكونوا يشيرون الى رؤســـاء الطائفة الذين كانوا يقدمون أكبر مساعدة لهم من وقت لآخر ، وان لم يكن ذلك بصفة دائمة ، على اساس ضد « موجة الارهاب » ، ولكنهم كانوا يشيرون الى جموع الشعب. والحق ان افراد الشعب لم يساعدوهم ولـكنهم ســاعدوا المتمردين . كانوا يرونهم وهم ذاهبون الى القتـــال فلا ينبســـون ببنت شفة ، وكانوا يرونهم وهم عائدون من المعركة فيلوذون بالصمت . ولعل الصمت فى هذه الظروف هو أهم مساعدة ، وان لم يكن هو المساعدة الوحيدة التى قدموها . لقد هيأ الشعب لرجال المقاومة ما لم يتهيأ لهم من طبيعة الاقليم : الستر او الغطاء . لم نختبىء خلف الأشـــجار ، بل كانت تحمينا اشجار من الأحياء ، والا لما كان فى مقدورنا أن نحارب ، ولمـا استطعنا ان نكسب بالتأكيد . ان عمق المقاومة العلنية يقـاس بمدى تعاطف الشعب مع نضالها .

(٣)

يجب أن اقر بأن مقاومتنا كانت علنية جدا فى بادىء الأمر ، وقد يبدو ذلك امرا لا يمكن تصديقه ، ولـكن الحق اننـا لم نختف تحت الأرض ابدا ، ولم يكن ذلك بصـــفة مادية بكل تأكيـد ، بل — على العكس — بدأنا حربنا ضد الحكم البريطانى فى غرفة صغيرة تطل على شرفة مشمسة فى فندق عام . كان فى ذلك الفندق الذى لا يزال يزين شاطىء تل ابيب ان « ضربت خيمتى » لسبب بسيط جدا ، هو اننى لم استطع ان اجد اية وسيلة أخرى للايواء . وقد بقيت هنـاك اكثر من اربعة اشهر قمنا خلالها بأولى عملياتنـا . كان كل شىء هادئا فى مهده . لم يكن لدينا ، بعـد ، اية وثائق لتحقيق الشـــخصية مما يستحق هذه التسمية ، كما انه لم يكن لى ، بعد ، اسم المانى حتى اوجد الانطباع بانى مواطن يحافظ على القانون . كان اسمى المستعار « بن تسيف » (١) ، وهو اسم لا يساعد على تبديد الشكوك . وكان البريطانيون جادين فى مطاردتى بالفعل فى جميع أنحاء البلاد . جرت هجماتنا الاولى فى أعقابها عشرة أيام حظر فيها التجول فىالقدس وحيفا وتل ابيب ، وقد أصبح حظر التجـول فيما بعـد جزءا من حياتنـا اليومية ، الا انه أفزعنا فى ذلك الوقت فزعا شديدا ، وان كان الحظ

---

(١) تشبها باسم « تسيف (فلاديمير) جابوتنسكى »

قد خدمني في الفندق . لم يبحث البريطانيون هناك ، فلم يكن يجول بخاطر رئيسي المخبرين السريين « جيلز » و « كاتلنج » ان أختبيء في فندق عام . ومع ذلك ، كان الفندق عرضة للتفتيش الرتيب بحثا عن المشتبه في أمرهم . وكان القلق عاما ، فقد كان هناك خطر القبض على المستر « بن تسيف » بأيدى الشرطة باعتبار أنه من المشتبه فيهم العاديين .

امكن تفادى هذا الخطر عن طريق مدير الفندق . لم يكن المستر « بن تسفى » يعرف يقينا من هو المستر « بن تسيف » ، الا أنه أدرك أنه كان على اتصال « بهذه الأشياء » . وبوازع من عطف المستر « بن ـ تسفى» على « هذه الأشياء » عرض حريته وحياته للخطر طائعا . في ذات ليلة جاءت جماعة من الشرطة المدنية والعسكرية لتفتيش «فندق سافوى» . انتقلوا من غرفة الى غرفة . اخرجوا النزلاء جميعا الى الممر واوقفوهم صفا واحدا . فحصوا أوراقهم وأمروا المشتبه في أمرهم بالوقوف جانبا لاستكمال الفحص في مركز الشرطة .

وصلت ضوضاء التفتيش الى الغرفة رقم ١٧ . ايقظني وقع أقدام رجال الشرطة واصواتهم العالية . كانت معي زوجتي وابننا الصغير ، الا انهما ، لحسن الحظ ، ظلا نائمين ، وكانا قد وصلا قادمين من القدس منذ أيام قلائل . كنت قد تركتهما باديء الأمر في العنوان الذى وشي به «تسوروس» . كنت قد فكرت أن من الأحسن الا أورط زوجتي معي في أعمال المقاومة السرية ، فقد بدا ان من الافضل لها أن تعيش علانية فلا يطاردها أحد ، وانها طالما كانت لا تعرف مكاني فانها سوف تكون قادرة على الاجابة على أسئلة الشرطة بعبارة « لا أعرف » ، واثقة وصادقة . وسرعان ما ادركت ان تلك خطة مثالية نظريا فقط . فقد كانت غرفتنا في القدس محاطة بالمخبرين ليلا ونهارا ، وكانت السلطات تنتظر مجيء الزوج لزيارة أسرته . الا أنهم لم يكتفوا بنشر شباكهم ، التى كانوا يظنون ، بحكمتهم ، اننا لا نعلم من أمرها شيئا . لم يتوقفوا عن محاولة اصطياد السمكة . كانت جماعة من الشرطة تزور غرفتنا ليلة اثر ليلة ، وكان الوقت المفضل لزيارتهم فيما بين منتصف الليل والساعة الثانية صباحا . سيارات مدرعة ، وبنادق « تومي » ، ومشاعل ، والسؤال الأزلي : « أين زوجك ؟ » ، ثم التأكيد الواثق المطمئن : « ان ذلك لا يهم ، لسوف تأتى في الغد ، فلا بد انه يأتي يوما » .

لم يكن هناك معنى لاستمرار الحال على هذا المنوال ، وبخاصة أن الشرطة ــ كما علمتنا التجارب ــ لن نتردد فى القاء القبض على زوجتى والاحتفاظ بها كرهينة • حثنى رفاقى على ألا أتركها فى منزلها شبه سجينة • ذهب « آيتان » الى القدس ، ضلل المراقبين البريطانيين وهرب زوجتى الى تل ابيب ، الى فندق « سافوى » • ومنذ ذلك الحين سلكت زوجتى طريق المقاومة السرية معى ، فى شغف ولكن برباطة جاش • كانت واحدة من كثيرات غيرها من بنى جنسها ــأمهات وأخوات وزوجاتــ ممن ضربن المثل على الشجاعة النادرة • حقيقة ، ان الشجاعة لا تعبر عن نفسها بعدم القلق . لكنها تظهر نفسها فى التغلب عليه • حذر أحد أصدقائى زوجتى من أنه اذا ألقى القبض على فان ذلك قد يكلفنى حياتى ، فشكرته باسمة • انها لم تبد قلقها لى أو لأى انسان آخر •

عندما سمعت تلك الليلة ، فى فندق سافوى ، وقع أقدام الشرطة يقترب منا أسفت لأننى استقدمت زوجتى وابنى الى تل أبيب • قلت فى نفسى ان البريطانيين اذا ارتابوا فى أمرى فان الشك سوف يتطرق الى زوجتى هى الاخرى . واذا ما ألقى القبض عليها فماذا يكون من أمر الطفل ؟ وفيما عدا ذلك تحولت أفكارى الى النضال واستمراره • اما من جهة الامر الثانى ، اى استمرار النضال ، فقد كنت مطمئنا تماما • لم يكن يخالجنى أدنى شك فى انه ما دمنا قد امتشقنا حسام التمرد فانه لن يغمد حتى يتحقق النصر ، لكننى حزنت على التوقف الذى قد يطرأ على عملنا ، لأننا كنا لا نزال واقفين فى بداية الطريق ، وكان معظم العمل التعليمى والعسكرى والسياسى لا يزال ينتظرنا • هل كتب لى القدر أن أكون حاضرا عند انطلاق الشرارة فحسب ، وألا أشارك فى اذكاء اللهب ؟

اقترب وقع الأقدام الثقيل أكثر فأكثر • راجعت ما كان فى جيوبى • لم يكن معى أية وثيقة • كان كل شىء على ما يرام • انهم يستطيعون المجىء • تبخرت أفكارى القلقة ، وشعرت بهدوء عجيب ممتزج بسعادة غريبة • قلت فى نفسى انه ينبغى لى أن أكون شاكرا لله اذ تمكنت من العودة الى بلدى وشاركت فى رفع راية التمرد • زد على ذلك أنه مهما حدث لى فلن تنزل الراية • انتظرت الطرق على البـــاب بلا وجل أو اضطراب •

لكن الأصوات ووقع الأقدام ، بدلا من أن تقترب ، ابتعدت على حين فجأة ثم خفتت • لقد كان رجال الشرطة على عتبة بابى ولكنهم ، لسبب ما ، لم يتخطوها • ماذا جرى ؟ آثرت الا أخرج من غرفتى لأتحرى ، وبعــد

مضى نصف ساعة أو نحو ذلك سمعت حركة ثم ساد سكون تام وذهب كل من في فندق سافوى لينام • لقد غادر رجال الشرطة الفندق •

في صباح اليوم التالى سألنى مستر « بن – تسفى » عما اذا كنت قد سمعت ضوضاء بالليل •

أجبته سائلا :

« ماذا حدث ؟ » •

عرفنا كلانا على حد سواء ، وعرف كل واحد منا ان الآخر يعرف ، وكان على أن ألتزم الصمت • كان المستر « بن – تسفى » حصيفا •

قال : « اننا لم نرد أن نوقظك ، فقد كان يجرى تفتيش في الفندق • كانت الشرطة تبحث عن المشبوهين ، وقد اصطحبوا عدة نزلاء ممن كانت أوراقهم غير مستوفاة ، لاجراء مزيد من التحرى ، وقد أخلى سبيلهم • رأيت انه لم يكن هناك ما يدعو الى ازعاجك ، وقد ذهبت – بالطبع – مع رجال الشرطة من غرفة الى غرفة ، وعندما وصلنا الى الباب المؤدى الى الشرفة قلت لهم ان هذا هو كل ما هناك ، فرأوا اننا كنا قد وصلنا الى نهاية الممر وصدقونى • وهكذا اتجهنا رأسا الى الطابق الثالث •

رجل شجاع ! صدقه رجال الشرطة ، الا أنه كان من المحتمل ألا يصدقوه ، خاطر المستر « بن – تسفى » بسلامته حتى يمكن المستر « بن – تسيف » من الاستمرار في عمل « هذه الأشياء » التى كان ناتجها أن يتحرر أبناؤنا من الاستعباد !

(٤)

بعد ذلك مباشرة هجرنا « المقاومة العلنية المبالغ فيها » • انتقلت من فندق سافوى الى « ماحنى يهودا » ثم الى منزل صغير منعزل على حافة الحى اليهودى في « بتاح تكفاه » • كانت الأحوال هناك شاقة عسيرة : المنزل مهمل ، والرياح ليل نهار من خلال مصاريعه المحطمة ، وكان المنزل مظلما باردا بالليل ولم يكن به تيار كهربائى ، ولم تكن هناك تدفئة مركزية • لكن السعادة كانت تغمرنى في تلك الأيام • كنت أنام على ملاءات سرير المندوب السامى البريطانى « هارولد ماك ميتشل » •

كانت ارجون قد أعدت خطة للقبض على المندوب السامى البريطانى واحتجازه في شقة المقاومة السرية في ناحية « بتاح تكفاه » على مقربة

من المنزل الصغير الذى سكنته فيما بعد . فوتحت « آم - لوهيم » التى لم تعمر طويلا - وهى جماعة يتعاون فى العمل فيهـا عـدد من ضباط الهاجاناه الصغار مع نفـر من ضـباط ارجون - فوتحت فى أمر هذه الخطة التى كانت تنطوى على عدد من الأعمال الجريئة مع بعض الاجراءات السياسية الساذجة ، ولعدة أسباب لم توضع الخطة موضع التنفيذ .

فى صيف عام ١٩٤٤ - بعد فترة حظر التجول الأولى - درسنا مشروعين بديلين لخطة « ماك ميتشل » ، أولهما اقتحام مقر المندوب السامى ونسف الأجنحة التى يسكنها الرجل الذى كان أداة لارسـال الرؤوس الى هلاكها ، وثانيهما الاسـتيلاء على المقـر واحتـلاله وأسر « ماك ميتشل » ورجاله واعلان نهاية الحكم البريطانى فى أرضنا . نوقش المشروعان مناقشـة مستفيضة ، وفى غضون ذلك أجريت عدة تحضـيرات ، وتم استطلاع الأرض واستقر الرأى على قواعد العمليـة وخطوطها ، كما صار تتبع الصيد الطريد . الا أن الاستكشاف أظهر أن مقر المندوب السامى ، دعمت دفاعاته تدعيما شديدا بعـد عملياتنا الأولى . وكان تقديرنا أن الظروف الراهنة تحتم أن نلقى بكل القوات المتاحة لنـا فى هذه العمليـة ، ولذا أعدنا النظر فى الخطه وانتهينا الى الرأى باننا لم نكن مخولين ان نخاطر بكل شىء ، أو بما يقرب من هذا ، مرة واحدة ، حتى ولو كان ذلك من أجل عمليـة لهـا مثل هذا المغزى السياسى الرائع . لم نصرف النظر عن الفكرة بصفة نهائيـة ، ولكننا ارجأنا وضعها موضع التنفيذ الى أن نبلغ من القوة مبلغا أكبر .

حولنا انتباهنا ، فى غضـون ذلك ، الى « رام الله » ، الى محطة اذاعة نظام الحكم البريطانى الرئيسية . كان على رجالنا أن يستولوا على المحطة ويوقفوا اذاعة البرنامج الفلسطينى ويبثوا بدلا منه نداء الى الشعب اليهودى والى دول العـالم كى تسـاعد فى انقـاذ يهود أوروبا وتحرير بلدنا من النير البريطانى .

لم تكن هذه الخطة سهلة هينة فى تلك الأيام ، فهناك قلعة من قلاع الشرطة الى جوار محطة الاذاعة ، ثم ان المنطقة التى تحيط بهـا منطقة عربيـة بعيدة عن أى من المراكز اليهودية . وكنـا - كالعادة - نفتقر الى وسائل النقل . انتظرنا عبثا ثلاث ليال فى مقر رئاستنا لعلنا نسمع صوت مذيعنا . أخفق رجالنـا مرتين فى تدبير وسـائل النقل الضرورية ، ولما أن كانت الليلة الثالثة تمكنت وحدتنا من الوصول الى محطة الاذاعة بعـد أن اسـتطاعت تدبير عدد من العـربات . استولت

وحدتنا على المحطة تحت نظر وسمع رجال الشرطة فى القلعة المجاورة ٠ أطلق رجال الشرطة النيران فى جميع الاتجاهات وأرسلوا الاشارات الضوئية طلبا للتعزيزات ٠

استخدم رجالنا مدافع الهاون « المصنوعة محليا » لأول مرة ٠ أبلغ السكان العرب فى « رام الله » ، فيما بعد ، أننا كنا نستخدم المدافع الثقيلة ٠ فضل رجال الشرطة أن يتحصنوا فى قلعتهم المسلحة ، وفى داخل محطة الاذاعة قذف « أفيتاجار » ــ واحد من أشجع ضباطنا ــ مسدسه فى الهواء عدة مرات ، ثم التقطه بخفة ومهارة وسدده الى الموظفين العرب والبريطانيين الذين عقدت الدهشة ألسنتهم ٠ قيل لهم انهم سوف لا يضارون اذا ما أعانوا رجالنا على ارسال اذاعة معدة من قبل ، الا أنه سرعان ما اتضح أنه لم يكن هناك « استوديو » للارسال فى « رام الله » ، اذ كانت الاستوديوهات فى القدس نفسها ٠٠ وهكذا استحال الارسال ٠

بعد عملية « رام الله » نوقشت خطط متنوعة لمهاجمة مقر المندوب السامى ، الا أن الأحداث التى كانت تتتابع سراعا حالت دون تنفيذها ٠ نقل « ماك ميتشل » من منصبه (قبل أن يغادر البلاد مباشرة قامت ارجون بمحاولة فاشلة كانت تستهدف حياته) ، ومثله مثل كثير من الموظفين والضباط الذين فشلوا فى أرض اسرائيل تم نقله الى « الملايو » ٠ بقى فى مخازننا فى « بتاح تكفاه » عدد من الحاجيات التى كانت قد أعدت باتقان لاستقباله سجينا ، وكان من بين هذه الحاجيات ملاءات من التيل حرمت من شرف استعمال « ماك ميتشل » فكانت من نصيبى أنا لأنام عليها فى منزل « ماحنى يهودا » ٠ وأستطيع أن أقول انها كانت ملاءات من نوع جيد ، أما الحشية (المرتبة) التى لم يكن لها تاريخ خاص فلم تكن لها نفس الجودة !

الفصل الثامن

رجل متعدد الأسماء

(١)

لقد مضى بعض الوقت . نبذت ملاءات « ماك ميتشل » وانتقلت هذه المرة مع زوجتى وابنى الى منزل صغير فى حى « حاسيدوف » حيث أصبح اسمى « اسرائيل هالبرين » .

يتألف حى « حاسيدوف » من صف من المنازل القليلة الارتفاع على الطريق الى « كفار سركين » بالقرب من « اللد » ، وهو بمثابة ضاحية عمال داخل حدود بلدية « بتاح تكفاه » ، قائمة فى مواجهة القرية العربية المعروفة « فيجى » . كانت منازله فى سنة ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ بدون مياه جارية أو كهرباء ، الا ان المنطقة كانت مغطاة بالخضرة ، بها الحقول المنزرعة والحدائق اليانعة والغابات المشجرة وأحراش البرتقال المثمرة . وقد يظن المراقب الخارجى من غير ماشك أننا انما أخذنا هذا المنزل مركزا لرئاستنا بسبب الأشجار الوفيرة التى تكتنفه ، الا أن الأمر لم يكن كذلك ، فاننا وجدناه بمحض الصدفة . كان هادئا ورخيصا ، وقد ذهبنا الى هناك تمشيا مع تكتيكاتنا ــ تكتيكات المقاومة العلنية ــ لكى نظهر بصورة مكشوفة كوسيلة لاجادة الاختفاء ، فقد افترضنا أنه لن يجول بخاطر السلطات أن الارهابى الأول يعيش فى مكان يعرف فيه أى انسان كل جيرانه ، ولم نكن مخطئين فيما ذهبنا اليه .

سكنت فى هذه الضاحية الصغيرة لمدة عام أو نحو عام بين أصدقاء المقاومة السرية وخصومها الألداء الأشداء . عرفنى أحد السكان،

عرفنى منذ أول مرة خرجت فيها الى الممشى الرملى الممتد على طول صف المنازل ، لكنه لم يقل شيئا · كان مضيفاى أيضا صامتين بصورة رحيمة ، ولم يكن يخالج بقية جيراننا أقل شك · كانوا يجدون كل شيء طبيعيا ومفهوما ، فقد قيل لهم ان عائلة « هالبرين » عائلة من اللاجئين من بولندا لم تستطع أن تجد مسكنا فى المدينة · صحيح أن رب هذه العائلة لايخرج للعمل يوميا ، الا انه أمكن ايجاد تفسير مقبول لذلك ، فقد تطوعنا باخبار الجيران بأننا كنا نعيش على مخصصات تصرف لنا من منظمة غوث اللاجئين ، وبأننى كنت أستعد لامتحان القانون الفلسطينى ، ومن ثم كان وجودى المستمر بالمنزل · أما صاحب الدار التى كنا نسكنها ــ المستر « مالكيلى » الطبيب ــ الذى كان يعرف طبيعة العمل الذى كنت أزاوله ــ فقد افترض أن لعملى صلة بالقانون · وكان « مالكيلى » عضــــوا فى ارجون ، فكان يعرف « ميريدور » الذى كان قائده ، كما كان يعرف « آيتان » و « دانفال » و « بنيامين » · لقد رأى كل هؤلاء الضباط ياتون فى زيارات متكررة للمستاجر الذى يسكن منزله · ولكنه ، فى محاولة لاستنتاج الغرض من هذه الزيارات ، انتهى الى الرأى بأن الغرض هو الحصول على استشارة قانونيــة فيما يتعلق بمحاكمات محاربى المقاومة السرية · ويبدو أن المستاجر كان هو سبب الانطباع بأنه قانونى مختص بالكتب أكثر منه قائد · على ان « مالكيلى » عرف الحقيقة فيما بعد · وعلى الرغم من الخطر الذى كان يعرض نفسه له سمح لى ، من غير ماتردد ، بالبقاء فى منزله · قدم لى « الكيلى » مساعدات كثيرة ، الا أننى لا أظن انه غــير فكره فيما يختص بالمظهر الخارجى للمستاجر الذى يسكن داره ·

سرعان ما اقمنــا علاقات طيبــة ، لا مع صاحب المنزل الذى كان يعرف فحسب ، بل ومع كل جيراننا الذين لايعرفون · اعتاد ابنى أن يلعب أو يتشاجر مع الأطفال الآخرين · تبادلنا الزيارات مع الجيران · كان منزلنا مملوءا بمجلدات القانون التى كانت مفتوحة ، تماما كما كان المنزل مفتوحا ، ولذا لم يكن مستغربا أن كان حى حاسيدوف يقوم فى وسط حرب المقاومة السرية · كنت على وشك تلقى أول أجر (أتعاب) باعتبار أنى مستشار قانونى · حدث نزاع بين أحد القاطنين فى الحى وبين بلدية « بتاح تكفاه » حول بناء صغير اقامه دون الحصــــول على ترخيص من الادارة الصحية · طلب منى أن أحرر له خطابا مهذبا لكنه حاسم لرفض معارضة البلدية · لم أســتطع الرفض · بذلت جهــدا

كبيرا فى اعداد هذا الخطاب ، لافى مضمونه بل فى كتابته باليد ، فان خطى لايقرأ • ومع هذا فان موظف بلدية « بتاح تكفاه » ليس هو « روهانا » سكرتيرنا العليم بكل شىء ، الذى لايعـرف فقط كيف يحتفظ بالسر ولكنه يعرف أيضا كيف يحل رموز خطى • زد على ذلك أننى كنت أدرك أن الموظفين الذين سيتوقف على مزاجهم مصير ذلك الطلب لاينبغى أن يعانوا من خط هيروغليفى يفرض عليهم ، ولذا حاولت، جاهدا ، أن أكتب حروفا كبيرة مستديرة واضحة ، كما كان على أن أبذل جهدا أشق لكى أشرح للطالب - وهو بائع لبن ، وقد لمس الجهد الكبير الذى بذلته فى اعداد خطابه - أننى انما فعلت ذلك لمجرد حق الجوار وأننى لا أنتظر أجرا •

لدى كثير من الذكريات السعيدة الأخرى عن حى حاسيدوف البهيج • كنا نعقد اجتماعات القيادة العليا فى المطبخ الصغير على ضوء قنديل زيت أو شمعة ، وكنا نتخذ القرارات الهامة ونرسم الخطط للعمليات • لم يثر الأصدقاء الذين كانوا يزورون عائلة « هالبرين » أية شكوك ، وأحيانا كانوا يساعدون أهل الحى ، فكانوا يشكلون « المينيان » (Mynian) ، وهو يتكون من عشرة أشخاص يلزمون لاقامة الصلاة اليهودية فى المعبد اليهودى الصغير • وكنا نخرج أحيانا للتنزه فى الحقول والأحراش فى عصر يوم سبت أو فى أمسية من الأمسيات ، وكنا نعقد اجتماعا ونتخذ قرارات بشأن السياسة التى تتبع بينما نكون سائرين ، وربما مر علينا راع عربى بقطيعه فحيانا • وكان اليهود الصغار يمارسون ألعابهم من حولنا • ولم يكن أحد يتصور أن هؤلاء البسطاء ، الذين يتحدثون وهم يتنزهون تطاردهم الشرطة والخدمة السرية البريطانية فى طول البلاد وعرضها •

أذكر أيضا ذلك المعبد الصغير القائم على مرتفع فى مواجهة المنازل حيث كنا نؤدى الصلاة جميعا فى هذا المعبد أيام السبت وأيام العطلات، وحيث سميت باسم جديد من أسماء رجال المقاومة السرية : «اسرائيل»• فى يوم السبت الأول بعد وصولنا . تشرفت - كما يليق بكل قادم جديد - بأن « استدعيت » لقراءة العريضة • سألنى راعى المعبد الطيب عن اسمى • ترددت فى ذكر اسمى الأول ، خشيت أن يكون ارتباطه باسم والدى داعيا لأن يذكر أى انسان بأى شىء ، فقلت مترددا : « اسرائيل بن تسيف دوف » • اخترت « اسرائيل » ، على ما أظن ، بسبب الحب العميق الذى يربطنى بصديقى المقرب الى « اسرائيل اينشتاين » .

ومنذ ذلك الحين ، والى أن تركت المقاومة السرية ، كنت أدعى دائما بذلك الاسم • ولابد أن أرجو المغفرة من الله الجليل على التنكر لاسمى الحقيقى حتى فى الصلاة المقدسة ، لكنه يعلم أننى فى هذا الظرف لم يكن امامى مجال للاختيار •

كان فى حى حاسيدوف أن قاسينا من أول تفتيش كبير قامت به الشرطة الفلسطينية بمساعدة وحدات كاملة من جيش الاحتلال ، ففى يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٤٤ أحيطت « بتاح تكفاه » بقوة كبيرة من الجنود والشرطة ، وكانت للحديقة جاذبية خاصة لسلطات الانتداب ، التى اعتادت أن تقول فى غير كياسة « ان » بتاح تكفاه المرذولة تعج بالارهابيين •

ولم تكن السلطات مخطئة فيما ذهبت اليه ، فان « بتاح تكفاه » بسكانها الأحرار المرتبطين بالأرض قدمت خدمة جليلة للمقاومة السرية • استخدم محاربونا أحراش البرتقال بها كما شاءوا دون أن يحدث حادث مكدر ، ولم يجرؤ الجنود ان يلقوا نظرة على هذه البساتين وتستطيع حقول « بتاح تكفاه » وغاباتها واشجارها أن تروى قصصا كثيرة عن مستودعات الأسلحة المختبئة وعن التدريبات السرية للقوات وعن اللقاءات والتمرينات •

احتفظت الأشجار بالسر ، كما احتفظ به فتيان « بتاح تكفاه » الذين كلما عانوا من الضربات فرحين أحرارا لايتطرق الخوف الى نفوسهم، صحوا ثم هبوا من جديد ليقاتلوا وليقاوموا • أفلحت السلطات العسكرية ، أو كادت ، مرتين ــ بمساعدة الاعلام اليهودى وبتدس الجهات العليا ــ فى تصفية فصيلة ارجون ليومى المحلية ، الا أنه فى كل مرة كانت صفوفنا تستعاض بدم جديد ، وكانت تبرز أشد فعالية وأكثر عددا وأقوى بأسا مما كانت قبل « التصفية » • طوبى لبتاح تكفاه ، انها « تعج بالارهابيين » •

بدأت السلطات حينئذ تفتيشها فجر ذلك اليوم • حوصرت المدينة من جميع الجهات ، وفرض حظر التجول ، وطاف الجنود بالشوارع وهم ينادون فى مكبرات الصوت : « التجول محظور •• التجول محظور • الزموا مساكنكم • ان كل من يخرج يعرض نفسه للمخطر » •

صار تفتيش كل منزل ، وأجرى فحص كل مسكن • لقد كان ذلك

فعلا أول تفتيش كبير • لقد تمنى جنود الجيش ورجال الشرطة ، كل منهم للآخر ، « صيدا ثمينا » •

عند بزوغ الشمس أيقظني جارى الذى كان يعـــرف ، وأخبرنى بما كان يجرى ، وكان طبيعيا أن يكون قلقا نوعا ما ، فان قصته لم تكن سارة •

قال لى جارى : « لقد حاولت أن أحضر الى پتاح تكفاه ، الا أن الداوريات ردتنى على أعقابى • انها منتشرة فى كل مكان ، ولا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج ، وسوف تأتى الى هنا أيضـا بكل تأكيـد • أظن أنه ينبغى لك أن تخرج من هنا عن طريق بساتين البرتقال » •

رفضت نصيحته • وكان « دانيال » ، الذى أمضى الليلة عندئذ فى المنزل ، يرى أنه لامعنى للاندفاع الى البساتين • ان مثل هذا الهرب لاينهى منزلتنا عند الجيران فحسب ، ولكنه خليق أيضا بأن يلقى بنا الى العدو • ولعل من الأفضـل أن ننتظر المتاعب بدلا من أن نقابلهـا فى منتصف الطـريق • كان الموقف خطـيرا بالطبع ، الا أننـا اعتمدنا ، بدرجة ما ، على التناقض بين جنود الجيش ورجال الشرطة ، واعتمدنا أيضـا على حظنا الطيب وطالعنا الحسن • ولذا بقينا حيث كنـــا ، « دانيال » فى غرفتـه ، وأنا فى غرفتى • لكننـا أردنا أن يرى الجيران أننا لم نكن لنعير اقتراب الشرطة اهتماما ، ولذا غادرنا غرفنا وخرجنا الى حيث جلسنا أمام المنزل • لقد شـهدنا منظرا يسترعى الاهتمام • كانت الدبابات البريطانية المحملة بالجنود تتحرك على الطريق الرئيسى على بعد مائتى ياردة منا ، وكان هناك شرطى يهودى ممن كانوا يقطنون فى الحى سابقا ، فأخذ هذا الشرطى يروح ويجىء وهو يواسينا مؤكدا أننا لن ننتظر طويلا فى التفتيش وسـوف يقنعون به لفترة طويلة مـن الزمن ، الا أن وعده لم يفعل شيئا للترويح عنـــا ، ولم يبـد السرور على أحد •

بدا الضيق والألم ظاهرين على جارتنا « مسز سايجل » أم « راحيل » و « ميكى » اللذين كنت مغرما بهما فى الحى (كان ابنى البالغ من العمر ثلاث سـنوات منافسـا خطيرا فى حب « ميكى » التى كانت لاتتجـاوز السنتين من عمرها) ، وعبثا حاولت زوجتى أن تهـدىء من روعهـا ، وأخيرا ، وبدافع من الثقة فى « مسز هالبرين » التى كانت علاقاتهـا بها علاقات ودية ، اعترفت « مسز سايجل » : « لا بأس عليك يا مسز هالبرين بطبيعة الحال ، فليس هناك ما يجعلك تحسين بالقلق ، أما أنا

فانه يوجد عندى بطانية عسكرية فى منزلى ، فماذا أفعل ؟ ماذا عساى أن أفعل ؟ » ٠

لم يكن هناك ما يدعوها لان تفعل شيئا . عبثا انتظرنا قدوم رجال الشرطة وجنود الجيش ٠ لقد أجروا تفتيشا دقيقا فى « بتاح تكفاه » ، الا أنهم ــ لسبب ما ــ تركوا « حى حاسيدوف » المنعزل ٠ فات الصبح ولما جاء الظهر رفع الحظر ، وبدون أن يودع « دانيال » مسز هالبرين ، التى كان قد تعرف عليها بالكاد ، ذهب الى عمله ٠ لقد تنفسنا ملء صدورنا مرة أخرى ، فقد ارتد الخطر عن عتبة بابنا ٠

جلب التفتيش فى أذياله كثيرا من الشائعات ٠ قدح رفاقنا الذين انتابهم القلق زناد الفكر بحثا عن طريقة لانقاذنا ، الا أن منافذ بتاح تكفاه كانت مغلقة تماما ٠ بعد ذلك شاعت بين العامة ، الذين كانوا مستعدين لأن يؤمنوا بقدرة ارجون على كل شىء ، قصة وحدة قوية من قواتنا اخترقت خطوط العدو وانقذت رفاقها المحاصرين ٠ كانت هذه واحدة من الاساطير التى ترددت عنا ، تذكرنى بقصة لقائى مع الجنرال « باركر » وقصة منبتى الروسى ٠

نشرت الصحافة العالمية رواية استنتاجية عن لقاء بينى وبين قائد القوات البريطانية فى أرض اسرائيل ، وربما كان مصدر الرواية فكرة أوحى بها ضابط من ضباط هيئة أركان حرب الجنرال «باركر» ، مؤداها أننا تقابلنا وتحدثنا حديث « العدو للعدو » ٠ وكان عضو من مخابرات الهاجاناه فى القدس ممن كانوا على اتصال بذلك الضابط من هيئة أركان الحرب قد حمل الدعوة الى « موشى سنيح » ــ قائد الهاجاناه ــ الذى نقلها الى بدوره فى أحد اجتماعاتنا المنتظمة ابان تلك الفترة القصيرة ، فترة نضالنا المشترك فى « حركة المقاومة » ٠ أنكرت هذه الدعوة بالطبع ٠ لقد وافقت على أن أتحدث مع قائد قوات الاحتلال حديث « العدو ولكننى فضلت استخدام لغة الحرب التى يتكلمها جنودنا ٠ وعلى أية حال فقد علمت من الصحف أننى اجتمعت مع باركر نفسه وليس مندوبه فى مقابلة سرية ٠

لقد جذبت هذه القصة اهتمام حركة المقاومة السرية ٠ وشرحت لهم كيف اشترطت أن يأتى باركر وحده مرتديا زيا مدنيا لأقابله وحدى فى المقهى المتفق عليه ٠ وطبقا لهذه القصة التى ذاع صيتها فقد قبل باركر شروطى ، الا أنه أخاف وعده اذ اصطحب معه فوجا من الجنود الذين

حاصروا المحل • وقد أصابه الأسى فعلا عندما لم يجدنى بالداخل ، فانتظر بعض الوقت لعل وعسى ، ومع مرور الزمن زاد قلقه • ولما ألقى بنظرة هنا وهناك وجد قسا كاثوليكيا يجلس فى الركن البعيد وهو منهمك فى قراءة الجريدة • وحتى يقتل الوقت بدأ باركر معه الحديث • ولما تأكد أن بيجن لن يحضر ، هب واقفا وشكر القس ثم غادر المحل •

وفى اليوم التالى استلم باركر خطابا منى أخطره فيه بالآتى :

« ما كان يليق بك أن تخلف وعدك • لقد وعدتنى أن تحضر بمفردك فلماذا لم تحترم كلمتك مثلما تحترمها الأرجون لقد حضرت الى المكان المتفق عليه برغم خيانتك • وكان القس الذى تبادلت معه الحديث هو أنا » •

وظهرت فى جريدة سويسرية قصة أكثر اثارة ، ثم وجدت بعد ذلك طريقها الى سائر أنحاء الدنيا حيث نشرتها الجرائد الامريكية ، بل وجريدة اليديش المسماة « بوند » • وزعمت القصة أن اسمي الحقيقى ليس بيجن بل فريمان . واننى تلقيت تدريبا خاصا فى الكريملين وقدت الصراع الشيوعى فى اسبانيا والصين ثم أرسلنى ستالين نفسه بعد ذلك الى أرض اسرائيل لتعقيد الأمور فى وجه بريطانيا • ولقد أثار هذا الخبر أحد الصحفيين الامريكيين المشهورين حتى أنه اتصل بى تليفونيا أثناء زيارتى أمريكا ليسألنى عن حقيقى الأمر •

كما سألنى صحفى آخر شهير فى مقابلة تليفزيونية عن نفس القصة فأجبته : « لقد قرأت فى جريدة يهودية شيوعية أننى قمت بزيارة سرية لوزارة الخارجية الأمريكية حيث بعت فلسطين كلها للمستر ترومان ولقد وصفتنى تلك الجريدة بالفاشية •

ورد الصحفى بأن هذا الأمر لا يبدو أن له علاقة بسؤاله فأكدت له أننى أجد صعوبة حقيقية فى نفى أننى عميل ستالين وعميل ترومان فى نفس الوقت كما تزعم القصص المؤلفة عنى ، فهل أنا شيوعى فاشى أم فاشى شيوعى ؟

وللتاريخ أقول اننى لم أذهب الى اسبانيا أو الصين قط ، كما لم يسعدنى الحظ بدخول مبنى الكريملين أو وزارة الخارجية الأمريكية • والحقيقة أننى أبغض أشكال الدكتاتورية وأعشق الحرية والرجال الأحرار وأومن بأنهم سوف ينتصرون فى نهاية الأمر •

والحقيقة أيضا أننى لم أقابل أو أرغب فى مقابلة باركر أو مندوبه •

ولكن هناك حقيقة مؤسفة تتصل بتفتيش معسكر حاسيدوف ، فخلال هذا التفتيش ، أو بسببه ، فقدت شقيق زوجتي الدكتور أرنولد الذى كنت قد قابلت فى منزله تلك الصبية ذات السبعة عشر ربيعا التى قررت عندئذ أن تصبح زوجتى .

ولم أخطىء فى هذا القرار ، ولكننى لا احب أن أكشف فى هـذا الكتاب عن مدى حبى لها .

مرت الأعوام ، وذقنا كأس الحزن جميعا . أبيدت عائلتانا . انتزع ابن « أرنولد » الصغير من بين ذراعى أمه وقتل فى غرفة غاز نازية ، وقتلت الأم نفسها . قتل كل أقاربه الآخرين رميا بالرصاص أو خنقوا بالغاز على أيدى الألمان فتلقى قلبه هذه الضربات بصعوبة بالغة . كان فى تل أبيب عندما علم ان « بتاح تكفاه » محاصرة . كان يعرف أين كنت أقيم ، فاغتم غما شديدا مات على أثره فى ذلك اليوم . وكنت انا تحت الأرض مختفيا لا استطيع أن أشيع صهرى وصديقى القديم الى مثواه الأخير . لقد قام أصدقاؤه بهذا الواجب نحو جثمانه نيابة عنى ، الا أنهم ما كانوا ليستطيعو ان يمنعوا البريطانيين الذين كانوا يعرفون علاقتنا ، من ارسال عدد من العيون الى المقبرة ، ولذا فان زوجتى ، وقد رضيت بقوانين المقاومة السرية ، لم تذهب الى جنازة شقيقها وقد كان واحدا من آخر من بقى على قيد الحياة من أسرتها . مكثنا فى منزلنا ، وأسـلمنا نفوسنا للحزن . أديت صلاة الموتى كاديش فى المعبد . ان على المرء أن يمضى قدما . لم يكن أمامنا مجال للاختيار ، لكن الناس فى الخارج ماذا يعرفون ، وماذا عساهم أن يعرفوا ؟

لم تكن مدة اقامتنا فى « حى حاسيدوف » عقيمة أو جوفاء ، فقد التفت ارجون التفافا حول علم التمرد . وعاد الى صفوفها كثير ممن كانوا قد تركوها أيام الازمة الداخليـة ، وتطوع الكثير ، وازداد عـددنا كما ازدادت ثقتنا ، بل وأهم من ذلك كله ازداد الاعتقاد فى قوتنا . كنا محبوبين أو غير محبوبين ، الا أن احـدا لم يكن يهزأ بنـا بعد . ان أية مقاومة سرية تتخطى مرحلة السـخرية المبدئية التى لا مندوحة منها انما تكون قد قطعت نصف الطريق ــ ربما النصف الأصعب من الطريق ــ الى هدفها . كتبت ابان هذه الفترة نشرة « اننا نؤمن » ، عبرت فيها عن ايماننا الذى لا يتزعزع بأن « من دمنا سوف تترعرع شجرة الحرية لبلدنا وشجرة الحياة لشعبنا » ، كما كتبت نشرات وأبحاثا واعلانات أخرى كثيرة .

ابان هذه الفترة نسفنا مقر رئاسة الشرطة المركزية البريطانيـة فى القدس ، وأجبرنا رجـال الشرطة على الابتعاد عن حائط المبكى ، وعصفنا بحصون تيجارت ، وهاجمنا مراكز الشرطة على تخوم يافا ـ تل أبيب ، وهزأنا بالحكومة بأن صادرنا كميات كبيرة من الأقمشة من المخازن الحكومية تحت بصر القوات العسـكرية ، وقد وزعنا جانبا من هذه الأقمشة على الفقراء وبعنا ما تبقى لنشترى بثمنه أسلحة .

الا أن السـحب الكثيفة تراكمت فى نهـاية تلك الفترة . هبت عاصفة الاضطهاد الداخـلى . ان مدى العنف الذى كشـفنا عنه لسلطات الانتداب كان فى الظاهـر أكثر ممـا كانوا يتوقعون . تعرضت الوكالة اليهودية لضغط هذه السلطات فى لندن وفى القدس ، وكان زعماؤها مطالبين بأن يقـدموا للسلطات البريطانيـة التعاون التام للقضاء على « الارهاب » . بدأت التقارير المزعجة تصـل الينـا . أشيع أن زعماء الوكالة اليهودية لم يرفضوا التعاون مع الطغاة فحسب بل أنهم وعدوا فعلا باصدار التعليمات فورا « لتصفية المنشقين » . لقد تحرج الموقف . ازداد عدد العيون التى كانت تترصدنا زيادة كبيرة . زد على ذلك أننى علمت أن شخصا ما من جيرانى لاتربطنى به صلة بدأ يشك فى أمرنا . لم أستطع البقاء . بعد ، فى « حى حاسيدوف » . كان من بين الجيران أعضاء فى « هاشومير هاتسعير » الحزب الاشتراكى اليسارى المتطرف الذى كان يحبذ التعاون مع البريطانيين ضـدنا . كان الجيران يحفظون المودة للمستر « هالبرين » ، فهل يبقون عليها اذا ما اكتشفوا من الذى كان وراء ذلك « المحامى » ؟

ودعنا حى « حاسيدوف » وانتقلنا الى تل أبيب ، الى بيت صغير فى شارع « يوشع بن ـ نون » وأصبح اسمى « اسرائيل ساسوفر » .

(٢)

تكريما لاسم « يوشع » ، فاتح كنعان وأحد القادة العسكريين العظام فى تاريخنا ، جعلوا له شارعا جانبيا فى تل أبيب الشمالية ، شارعا موحلا فى الشتاء متربا فى الصيف ، لا يعرفه أغلب سكان المدينة . وكان على امتداد شارع سمى باسم قائد عسكرى آخر ، هو الجنرال البريطانى « اللنبى » ، ان كانت الاحتفالات العسكرية اليهودية تتخذ طريقها عبر تل أبيب .

يوجد ـ أو كان يوجد ـ فى شارع « يوشع بن ـ نون » مؤسستان عامتان هامتان : مذبح البلدية وبيت الكلاب ، ولم تكن أى المؤسستين لنشارك فى ملذات المنطقة المجاورة أو فى التسلية الموسيقية لقاطنيها ، فقد كانت هناك أصوات متنافرة لا تنقطع صادرة من الكلاب المكبلة فى الاغلال التى كانت تعوى طلبا لحريتها ، ومن الحيوانات المحكوم عليها بالموت التى كانت تنعق طلبا لحياتها • أما عن الروائح •• ؟ كلا ! ان شـــارع « يوشع بن ـ نون » لم يكن شارعا عموميا عليل الهواء بأى حال من الأحوال •

هناك غير بعيد من نهر « اليرقون » الضارب لون مياهه الى الخضرة . وفى بداية فترة الاضطهاد الداخلى ، وجدنا منزلا صغيرا منعزلا أمامه حديقـــة طال اهمالها ومن خلفه بســـتان برتقـــال متعفن • أدرك « يعقوب مريدور » ببصره النافـــذ أن المتان ، على الرغم من مجاورته لذوات الأربع يصلح لأى شخص مطارد من سفاكى الدماء الذين يمشون على رجلين • أما انا فقد ترددت من جهتى ولم يكن المنزل للايجار ولكنه كان للبيع • كيف ننفق عدة آلاف من الجنيهات من ميزانيتنا الهزيلة على مسكنى ؟ وجد رفاقى الذين كان قد أقلقهم قلقا شديدا عدم توافر الأمن فى حى « حاسيدوف » مخرجا • اشترى « مائير كاهان » ، الذى أصبح من اجل هذا الغرض المستر « جولد هامر » المواطن الراسخ فى القدس ، المنزل وأجره لى لمدة عامين ، وبعدئذ باع المستر « جولد هامر » منزله الى يهودى من مصر • ولما كان ذلك اليهودى مغرما بهذا المنزل فقد وافق أيضا على سريان الايجار بالنسبة لى ، على شرط أن يكون لمدة سنتين اثنتين فقط (سنتين فقط !) • وهكذا اختفى « اسرائيل هالبرين » طالب القانون المثابر من حى « حاسيدوف » ، وعلى مقربة من شواطىء « اليرقون » ظهر « اسرائيل ساسوفر » •

لم يكن التغيير تغييرا فى الاسم والموقع فحسب ، بل اننى غيرت مظهرى وعاداتى • راى رفاقى أن التغيير فى طريقة تصفيف شعرى مع اطلاق شاربى لن يكفى ليجعلنى بعيـــدا عن مجال ابصار العيـــون التى تتجسس على ، وبخاصة عيون الجواسيس اليهود ، وبناء على ذلك قرروا أن أطلق لحيتى • ولما كان قانون التآمر نافذا فى المقاومة السرية فقد أطلقت لحيتى ، وبذا ضفت عشر سنوات او خمس عشرة سنة الى عمرى •

لم يكن الأمر سهلا ، فان الانسان لا تطول لحيته فى الفترة التى يستغرقها نقل فرن المطبخ من « بتاح تكفاه » الى تل أبيب الشمالية •

كان الناس يروننى دائما فى حى حاسيدوف محملا بكتب القانون حليق الذقن . وقد يمكن التخلص من الكتب ، ولكن من أين لى باللحية ؟ وجدت الاجابة • لقد أخبر الجيران فى حى « حاسيدوف » باننى لما كنت فى فترة حداد بالنسبة لوفاة صهرى ، فأنى كنت مراعيا العادة اليهودية ، عادة عدم حلق الذقن أو قص الشعر لمدة ثلاثين يوما • وفى نهاية الأيام الثلاثين كنت قد تغيرت تغيرا كافيا بحيث أصبحت « اسرائيل ساسوفر » الذى يحتمل أن يكون حاخاما عصريا ، أو سياسيا فى أحد الأحزاب الدينية ، أو مجرد خاطىء يكفر عن ذنوبه !

فرضت على لحيتى ، والمنزلة التى افاضت بها على ، بعض الالتزامات فى بيئتى الجديدة • ففى أول يوم طلب منى « ريب سيمكا » ، شماس معبد يهودى قريب منا ، أن أذهب معه لتكملة نصاب الصلاة فى منزل حدثت به وفاة ، وبعد ذلك مباشرة كنت ادعى للاسهام بصورة منظمة فى الصلوات بالمعبد حتى أصبح ذلك المعبد الصغير جزءا من حياتى اليوميه فى فترة من أشق فترات نضالنا •

كان أعضـــاء هذا المعبد قطاعا أنموذجيا مما نسميه « جماهير الشعب » : أصحاب الحرف ، والصناع ، وأصحاب المحال الصغيرة ، والعمال • وقد استقبلوا جارهم الجديد بشىء من حب الاستطلاع الأريحى المحب للخير ، وبصفة خاصة كانوا يوجهون الى الأسئلة وكان على ان أجيب عليها • قدموا لى مكانى الملائم ، ومنذ ذلك الحين صرت واحـدا منهم • سمعت فيما بعد ، بكل الثقة ، أن البريطانيين اذا بقوا فى أرض اسرائيل عشر سنين أخرى فربما أصل الى درجة عالية من الشهرة وأنتخب مساعدا ثانيا لراعى المعبد الثالث • كنت محبوبا رغم أننى لم أشترك فى أية مناقشـات سياسية ، أو لعل عدم اشتراكى فى هذه المناقشـات السياسية أن يكون هو سبب حبهم لى •

كانت هناك أيضا مخاطر بطبيعة الحال • ففى ذات يوم جاء « ريب سيمكا » الشماس الى منزلى وطلب منى أن أسعى فى عمل الخير بأن أذهب معه الى الحاخامية الرئيسية لأشهد بأن قصابنا (جزارنا) رجـل أمين يخاف الله ، وبأنه لا جدال فى أن اللحم الذى يبيعه من نوع «الكوشير» ، وقال الشماس ملاطفا : « انهم سوف يصدقونك » • ولست أدرى ما اذا كان الحاخامات سيصدقوننى ، ولكنى كنت أعلم أن قصابنا رجل أمين فعلا ، الا أن السير فى الشوارع المزدحمة ، الى التعرض لاستجواب القضاة الربانيين ، كان أمرا أكثر مما يستطيعه «ساسوفر» • كان «ريب سيمكا»

مصرا ، وكان على أن أبتدع كثيرا من الاعذار قبل أن يكف عن الرجاء فى آخر الأمر .

بل كانت لتنكرى مخاطر أكبر . كان يثيرها من آن لآخر ان هؤلاء القوم كانوا صحيحى المعتقد (أرثوذكسا) للغاية ، وكم من مرة أوقعت نفسى فيها فى مآزق لكى أفسر هفواتى وزلاتى . اعتدت أن أحضر دروس التلمود وتعليقات التوراة التى كان يقدمها الحاخام بعد ظهر أيام السبت بصفة منتظمة . وكان أغلب الأعضاء يشهدون هذه الدروس . كانوا يشهدونها ، وهم الذين يعملون بجد طوال الأسبوع ، لكى ينهلوا فى هذه الحصة الاسبوعية من التعاليم الدينية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، مما كان دليلا آخر لى على مدى تعطش شعبنا الى المعرفة . وفى أحد هذه الدروس عرض اسم « هيلين » ملكة « الحشمونيين » التى عاونت فى بناء المعبد وتزيينه ، فسأل شخص كيف ان ملكة يهودية تسمى باســـم « هيلين » ؟ كان الحاخام واحدا ممن كانوا يطوفون بالعلوم والفنـــون والحكمة اليهودية ويجوبون آفاقها ، الا أن ذلك الأمر قد اشكل عليه فوقع فى حيرة ــ ذلك لأنه تعدى مجاله الى مجال الثقافة اليونانية . نسيت نفسى فتعجلت فى الكلام قائلا ان هذا الاسم يونانى ، وانه كان فى عهد الحشمونيين أن اتخذ كثير من اليهـــود أسماء يونانية . بدت الدهشة على جيرانى لهذا العرض المفاجىء من المعرفة ، وكان « ساسوفر » قد نال بالفعل سمعة عدم الالمام بأى شىء .

سألونى : « من أين لك هذا ، وكيف عرفت ذلك يا ساسوفر ؟ » حيرنى سؤالهم اكثر مما حيرنى أى سؤال سئلته فى امتحانات الجامعة ، وكان بمنتهى الصعوبة أن حولت فضولهم جانبا . واذ استأنفت صمتى المعهود استرجعت « منزلتى » المألوفة باعتبارى الشخص عديم المعـــرفة السلبى .

يصعب القول ماذا كان جيرانى يظنون بى وبعملى . وأغلب ظنى انهم انتهوا الى الرأى بأنى كنت شخصا لا يصلح لشىء ، حصل على بائنة (دوطة) كبيرة من زوجته . انهم كانوا يظنون أنى غير قادر على أداء أى عمل ، وكانوا يأسفون لحال زوجتى أسفا عميقا ، وبخاصة السيدات منهم . كانوا يقولون : « يا لها من مسكينة هذه الصغيرة . لابد وأن تكون قد أجبرت على الزواج من هذا العاطل ، هذا الطالب المزمن » . وما كان لى أن أهتم بتبديد أوهامهم .

ولدت ابنتى الأولى فى هذا المنزل . وقد سميتها « هازيا » كاسم

أمي التي قتلها النازيون بمستشفى في «برست ليتوفسك» مسقط رأسي٠. كان مولد «هازيا» واحدا من أسرارنا التي احتفظنا بها فكتمناه الا عن بضعة أصدقاء ٠ ان المقاومة سيد غليظ القلب ، فهي لا تسمح بالحزن على الموتى، كما أنها لا تسمح بالابتهاج بالمولودين ٠ عيرت ابنتى « منزلتنا » أو وضعنا ، فالسلطات في محاولتها العثور على كانت تبحث لمدة سنين عن « سيدة معها طفل » ، وقد أصبحت زوجتي الآن أما لطفلين ، وهكذا فقدت الحكومة أي أثر لها ٠

ولدت « هازيا » مولدا « غير شرعي » عدة مرات ٠ لم أستطع أن أطلق عليها اسمي الحقيقي ، كما انني لم اجرؤ أن أعيرها اسمي المستعار ٠ كان من المستحيل أن أسجل وجود « ساسوفر » أو عنوانه ، كما انني لم أستطع أن أذهب الى المستشفى لاستقبالها ، فأخذ « اسرائيل ايبشتاين» هذا الواجب الشاق على عاتقه ٠ أعار اسمه لزوجتي وابنتي ، وقد أدى ذلك الى ســوء تفاهم خطير ٠ ففي نفس المستشفى ، وفي نفس الوقت ، ولد ابن لسيدة كان اسمها هي الأخرى « ايبشتاين » ، وعندما وصــل « اسرائيل » الى المستشفى خرجت اليه ممرضة مشرقة الوجه وهنأته : « حظا سعيدا لك يامستر ايبشتاين ، لقد وضعت زوجتك مولودا ذكرا » ، ولابد أن يكون سلوك الأب قد بدا غريبا نوعا ما في نظر الممرضة الطيبة، فبدلا من أن يندفع الأب ليرى زوجته وابنه ، انقلب على عقبيه ولاذ بالفرار ليبلغني النبأ السعيد بأني رزقت بمولود ذكر ٠زال سوء التفاهم فيما بعد، وسرنا جد السرور أن نعلم الحقيقة ، فان حفل الختان كان ولابد أن يؤدى الى مزيد من التعقيــدات ٠٠ لكن الابنــة تستحق هي الأخرى احتفالا ٠ أيستطيع « اسرائيل ساسوفر » أن يتحاشى الترحيب بأصدقائه القدامى في المعبد ؟ عزمنا على أن يكون ذلك وفقا لما هو محدد بالتقليد ــ وفي يوم السبت ــ وقد كنا فيالمعبد ــ غمرتني التهاني الحارة ، وكنت ممتنا لهؤلاء الناس الصالحين الذين شاركوني أفراحي في عزلتي ٠

كان الحفل رائعا ، فقد أعد كل شيء اعدادا لائقا به ، ولم ينس رجال المقاومة السرية المخلصون شرائح الرنجة المملحة الشهب ٠

قال لي الحاضرون جميعا انه لم يسبق أن أقيم في معبدهم حفل منتظم كهذا الحفل ٠٠ وعندما جاء الحاخام العالم ذو العينين النافذتين ليمنحني البركة شعرت بأني أريد أن أطلب منه أن يمنح بركة خاصة لتلك الطفلة البريئة التي قد تظل « غير شرعية » لعدة سنوات قادمة ، الا أنني تذرعت بالصمت وتمتمت بكلمة الشكر الشكلية ٠

ولسوء الحظ جاءت قوات الحكومة مرتين على مقربة من منزلنا بصورة تثير القلق · كانت المرة الأولى ابان فترة « حركة المقاومة المشتركة » · وكانت الهاجاناه قد فقدت منزلتها شبه القانونية التى كانت تتمتع بها طوال وجودها تحت حكم البريطانيين . وبدات الشرطة البريطانية تبحث عن مستودعات أسلحتها ، وكان أحد هذه المستودعات فى مواجهة منزلنا. وكانت المنطقة بأسرها تعلم بوجود هذا المستودع ·

استيقظنا في احدى الليالى على صوت قعقعة مركبات ثقيلة وصوت ينادى : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ! » ·

حدقت النظر من خلال مصراع النافذة فرأيت سيارة راديو الشرطة التى كانت تتلقى الأوامر وتذيعها ، وكانت الأنوار الكاشفة تنتقل بين منازل المنطقة جميعها بما فى ذلك منزلنا · كان القلق باديا على رجال الشرطة ، وكان طبيعيا أننى ما كنت لأستطيع أن أعرف ما اذا كانوا قد جاءوا من أجل مستودع الاسلحة فقط أم انهم كانوا ينوون تفتيش المنازل جميعها · الا أننا هنا فى هذا المكان ــ كما كان الأمر فى حى «حاسيدوف» ــ لم يكن لنا من شيء نفعله سوى أن ننتظر بفارغ الصبر ·

كانت « روكسى » ــ مع هذا ــ قلقة هائجة · انها تريد مطاردة البريطانيين على الفور ، ومن ثم استرعت انتباههم · كيف يتأتى أن يكون عند السيد « ساسوفر » كلبة ان رجلا كهذا ينبغى له ــ طبقا للاعتقاد السائد ــ أن يخشى الكلاب ، لا أن يقتنى كلبة فى منزله · والحق يقال ، ان « روكسى » دائما ما جلبت الينا القيل والقال ، فعندما كان يصطحب الوالد ابنه الصغير الى المعبد فى أمسيات أيام الجمعة ، كانت « روكسى » تعدو وراءهما ، وذلك عمل غير صالح · ولكن ماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟ ان « روكسى » كانت مع الساكن السابق الذى تركها وراءه لسبب ما وغادر المكان · أخذت الكلبة تتجول بحثا عن سيدها ، على ما يبدو ، ولكنها عندما يئست رجعت أدراجها الى هنا آخر الأمر · ويعرف الأطفال كلهم قصتها · كيف يمكن ، اذن ، أن نطردها ؟

كانت « روكسى » تحب الناس جميعا عدا رجال الشرطة . ولم ار قط فى حياتى مخلوقا معاديا للبريطانيين مثلها · ولم يكن ذلك من عملى أنا بكل تأكيد · لو انها كانت تعتمد على فى تربيتها من بادىء أمرها ، اذن لعلمتها كيف تكون صديقة للسلطات البريطانية بصفة خاصة · الا أنه يبدو أنها ولدت عدوة للبريطانيين . والا استحال تفسير السبب فى أن مخلوقا كهذا ، مسالما لكل رجل ولكل امرأة ولكل طفل فى المنطقة.

يقيم الدنيا ويقعدها عندما يشم رائحة شرطي أو جندى بريطاني حتى ولو كان على مسافة بعيدة منه !

ان ما حدث بالمنزل في تلك الليلة ، عندما اكتشفت « روكسى » وحدة كاملة من الجيش البريطانى على عتبة بابها ، يتكلم افرادها بصوت عال ، غير مكترثين لنباحها الذى لم ينقطع مطالبا برحيلهم على الفور ، لما يجل حقا عن ا وصف · ان « روكسى » ، حرصا منها عـلى أن تبعد البريطانيين ، استرعت التفاتهم الى منزل سيدها · ولقد كرهتها فى تلك الليلة ربما أشد من كراهيتها هى للبريطانيين · الا أن الكارثة اجتازت منزلنا ، ومع مطلع الفجر رحل البريطانيون كما شاءت « روكسى » ·

أما المرة الأخرى فكانت أشد خطرا · كانت في نهاية فترة « حركة المقاومة » ، وهي جزء من « قصة فندق الملك داود » (كينج دافيد هوتيل) التى سأقصها فى فصل قادم ·

كان فى شارع « يوشع بن ـ نون » ان عانيت من مرضى الوحيـد الذى انتابنى فى فترة المقاومة السرية · اضرب جسمى فجأة عن تناول الطعام ، ولعدة أيام لم أستطع الاحتفاظ بأى طعام · اتضح أن هذا كان راجعا الى الافتقار الى الهـواء · كانت فرصتى الوحيدة لعـدة سنوات للحصول على حاجتى من الهواء هى النزهات القصيرة فى المناطق المجاورة القريبة · وكنت ، فى هذا المعنى ، سجينا بارادتى أكثر من كثير من المسجونين على كره منهم · كان قلق رفاقى شديدا ، وبخاصة عنـدما امتنعت عن شرب الشاى ، وهذا دليل قاطع على انى كنت مريضا · اقترح « ابراهام » استدعاء أخصائى هو الدكتور « زونديك » الشهير ، وقد عارضت الاقتراح · كنت متأكدا أن المرض سوف يزول تلقائيا ، زد على ذلك أن الاقتراح كان منافيا لقواعد المقاومة · الا ان « ابراهام » أصر ، وأيده « مائير » هو وطبيبه الخاص · جاء الدكتور « زونديك » فوصف الدواء وأسدى النصح : « لماذا تظل يا مستر ساسوفر تقرأ طوال اليوم ؟ ينبغى لك أن تخرج لاستنشاق الهواء النقى » · لم يكن الطبيب يعرف أننى لا أستطيع قطعا أن أعمل بهذه النصيحة ، ومع هذا فقد شفيت من المرض ·

كانت أيامنا فى شارع « يوشع بن ـ نون » مليئة بالأحداث الهامة ، فقد وصلت مطاردة ارجون بمعرفة زملائنا اليهود ذروتها · سلم « يعقوب ميريدور » الى البريطانيين ، واختطف « اليتسر » ، وغدر بضباط آخرين لهم أهميتهم أو اختطفوا · كان علينا أن نصمد وأن نعمل على تعميق المقـاومة ·

انتهت المطاردة ابان هذه الفترة ، وأشرقت شمس الوحدة القتالية. ولدت « حركة المقاومة المتحدة » . وابان هذه الفترة أيضا ، وبعد عمليات كثيرة ، جاء دور العصف بالحكومة البريطانية ومركز الرئاسة العسكرى فى فندق الملك داود وما تلا ذلك من احداث . فى أعقاب ذلك تبخرت الوحدة القتالية ، وابان هذه الفترة أيضا أنقذنا اثنين من محاربينا المحكوم عليهم بالاعدام شنقا ، أنقذناهما من يدى الجلاد ، كما قمنا طوال هذه الفترة بهجوم فى أثر هجوم على الباغى ، وتفجر التمرد فكان شعلة عظيمة .

(٣)

اضطررت الى مغادرة شارع « يوشع بن ــ نون » فى أوائل سنة ١٩٤٧ ، فان عقد ايجارى مع خليفة المستر « جولد هامر » كان قد انتهى، فى المقام الأول ، الا أن السبب الأهم هو أن الظروف كانت قد تغيرت . قرر صاحب المنزل الجديد أن يبنى فندقا فى مكان الحديقة الملاصقة ، ويصعب ان يعيش رجل المقاومة بجوار فندق ، فان ذلك يعنى العودة الى « أسلوب المقاومة العلنية المبالغ فيها » . وبعد ، فان مخابراتنا قد علمت أن البريطانيين بدأوا يولون المنطقة اهتماما زائدا ، وما كنا لنستطيع أن نبذل مزيدا من الحذر ، فقد يتحاشى المرء الوقوع فى أيدى الحكومة بمحض الصدفة ، ولكن المرء قد يقبض عليه عرضا ، ولا يمكننا أن نعتمد كثيرا على محاسن الصدف . وأخيرا ، فقد علم قادة الهاجاناه بنبأ لحيتى، ولم يكن لذلك أية أهمية طالما كنا نحارب سويا ، أما وقد افترقت طرقنا مرة أخرى ــ الهاجاناه فى طريق سلبيتهم ، ونحن فى طريق الحرب المشددة ــ فان من الأصوب الا يعرفوا كيف تبدو هيئتى . هكذا فكر ضباطنا المعنيون بأمور الأمن على أية حال ، وكان على أن آخذ بنصيحتهم .

وهكذا انتهى فصل آخر وبدأ فصل جديد . اختفى شخص مستر « اسرائيل ساسوفر » من شارع « يوشع بن ــ نون » ، وظهر الدكتور « كينيجز هوفر » بشارع « يوسف الياهو » فى قلب تل أبيب .

وجد جواز سفر بمحض الصدفة فى احدى المكتبات العامة باسم الدكتور « يونا كينيجز هوفر » . وانه لاسم طويل نوعا ، الا أنه يتميز بأنه اسم « جرمانى » أصيل ، اسم يفوح منه الاخلاص والتمسك بروح القانون والنظام ، ولذا استقر الرأى على تهيئتى لجواز السفر ، أو بالأحرى مواءمة صورتى الفوتوغرافية الجديدة له . كانت شخصيتى الجديدة على

أهبة الاستعداد عندما كان على أن أنتقل ، وسرعان ما حلت مسالة ايجاد شقة للسكن • اتخذ « ماثير كاهان » ــ الذى يوحى دائما بالثقة فى انه تاجر ميسور الحال ــ اسما جديدا واستأجر شقة لصهره ، وقد فسر عدم استطاعة صهره التوقيع على عقد الايجار شخصيا على أنه بسبب المرض •
كانت الشقة على مقربة جدا من مسرح « هابيماه » ، وكما قال « ماثير » فان أشد البقع اظلاما هى التى تقع تحت الضوء مباشرة •

حلقت لحيتى فى الليلة التى سبقت رحيلى ، ولم يعـد هنـاك « ساسوفر » ، وبدا على أننى نقصت عشر سنوات من عمرى • كنت أشعر فى أول الأمر بأنى شخص غريب • كان ابنى يعرفنى من صوتى فقط ، وقد قال لأمه : « ظننت أن عما جاء ليزورنا ! » •

لكنه لم يسأل أسئلة كثيرة كما يفعل أترابه • والغريب أنه رغما من عدم اغفاله أى أسئلة من أسئلة الأطفال المألوفة ، فانه نادرا ما سأل عن « هذه الأشياء » ! انه لم يكن يعرف شيئا عن مركز والده الخاص ، الا أنه اعتاد أن يراه ــ على خلاف الآباء الآخرين ــ فى المنزل فى فترات الصباح ، وأن يراه مطلقا لحيته تارة ، ثم يراه فجأة بدون لحية • لكنه كان صامتا ، ولعله أن يكون قد أحس شيئا ما بفطرته • وعلى اية حال ، فمع أنه كان يعرف أننى أمكث فى المنزل دائما فانه لم يقل ذلك لأى شخص من الاشخاص الذين كانوا يأتون الى الشقة . وأحيانا كان يسألنى وأمارات الخبث فى عينيه : « لقد كانت لك لحية يوما يا أبى ، أليس كذلك ؟ » •

الا أن ذلك كان سره أو سرنا ، انه لم يذكره لأى أحد آخر • أما عن « هازيا » فانها لم تكن قادرة على الكلام بعد ، وكنت مطمئنا من هذه الناحيـة •

كما كنت مطمئنا كذلك من ناحية أخرى • عندما زارتنى صاحبة الشقة الجديدة لأول مرة بعد أن حلقت لحيتى كان وجهى يبدو شاحبا بصورة غير مألوفة ، فاستنتجت انى كنت أعانى من ذات الرئة ، وكان ذلك الأمر خطيرا فى نظرها ، فعقدت العزم على أن تكتشف ما اذا كان هناك ما يبرر هذا الشك • قيل لها اننا جئنا من « بتاح تكفاه » ، فذهبت الى « بتاح تكفاه » لتقوم بتحريات عن مستأجرها الجديد • ولعل من المصادفات الغريبة أنها اهتدت الى أثر واحد باسم « كينيجسهوفر » كان يقطن « بتاح كفاه » بالفعل ، وكان المعروف عنه أنه مصاب بذات الرئة •

احزنها هذا الدليل على مرض مستاجرها حزنا شديدا اذ يحتمل أن يكون مرضى معديا فيعرض السكان جميعا للخطر · استدعت صاحبة الشقة صهرى « مائير » وعرضت عليه أن تساعدنا فى البحث عن شقة أخرى ، ثم قالت ان أقل ما يجب على أن أفعله هو أن أعـرض نفسى على طبيب للكشف على · حاول « مائير » أن يقنعنى بذلك ، الا أن فكرة طرأت لى فقلت : « لا ، على العكس ، فلينتشر النبأ فى جميع أرجاء العالم بانى مصاب بذات الرئة » · ان كون المرء مريضا يعنى فائدة عظيمة للمقاومة · عملت الفكرة عملها ، فضربت حولنا حائطا من العزل فى شارع يوسف الياهو . وكان على أن أستميح صاحبة الشقة العذر على ما سببته لها من ازعاج · ومع هذا لم يكن ذلك من نافلة القول فى جملته ·

كان ينبغى لى أيضا أن استميح ابنى الصغير العذر على المتاعب التى لاحقته من وراء اسم عائلته الجديد · كان الاولاد من جيرتنا وفى روضة الأطفال ينادونه « كينيجسهوفر » ولم يكونوا يدركون كم كانت فكاهتهم جد خطيرة · وكان الموظفون يجدون مشقة كبيرة فى النطق بهذا الاسم · سألنى واحد منهم ذات يوم ، بعد ان فتحت له باب مسكنى ، وكان الغضب باديا عليه : « من أين حصلت على هذا الاسـم الطويل كينيجس ··· ؟ » · فأجبت : « وماذا عساى أن أفعل ؟ ان ذلك هو الاسم الذى كانوا يطلقونه على جدى » ·

ومع ذلك ، كان هناك موظف آخر لم يعترض على اسمى · انه محصل منظمة تسمى « لى أزيرنو » من أجل المساجين السياسيين · وجدنى جالسا فى غرفتنا الأمامية ، وكان للغرفة باب يؤدى الى الحديقة مباشرة لم يعر اسمى أى اهتمام ، بل تقدم برجاء ملح لمساعدة صندوق العناية بساجين الامة السياسيين · وافقت على الفور ، وأصبح « كينيجسهوفر » عضوا مسجلا فى المنظمة ، وينبغى لى أن اسـتميح الدكتور « يوناه كينيجسهوفر » للتوقيع باسمه ، دون أن استأذنه ، على نماذج «لى أزيرنو» وعلى اوراق أخرى ، وأتجاسر فأفترض انى لم اجلب الحطة أو العار لاسمه الطيب · وعندما حانت اللحظة التى كنا ننتظرها جميعا ، « أعدت » اليه اسمه ، وارجو أن يكون رفاقى قد أعادوا اليه جواز سفره ، أو لعله أن يكون قد اتخذ لنفسه اسما عبريا الآن ·

بينما كان اسمى « يوناه كينيجسهوفر » ، رزقت بمولودة ثانية سميتها « لياه » ، وكان مولدها هى الأخرى مولدا غير شرعى بصـــورة مزدوجة · كان حتما أن تتخذ اسم « ايبشتاين » اسما لاسرتها كما اتخذته

أختها « هازيا » من قبل !· وعندما خرجت « ليـاه » الى الدنيا كانت قنابل العرب تتطاير من فوق رؤوسنا الى يافا ، وكان على أن أبعث بتهنئتى اليها من بعيد ، وكان مولدها « سرا » كمولد أختها ، لدرجة أنى لم أستطع الاحتفال به ، ثم ان « ايبشتاين » لم يكن « موجودا » ·· !

كانت شمة » كينيجسهوفر » محطتنا الأخيرة فى نفق المقاومة · وعندما ألقيت أول خطاب عام فى القدس بعد ظهورنا « من تحت الأرض » أصاب جيراننا الذهول اذ علموا من الصحف أن قائد أرجون كان « أبا بنى » ولم يريدوا أن يصدقوا من فورهم قائلين : « كيف أننا لم نكن نعلم شيئا عن ذلك ؟ » · سمع « بنى » ، أول ما سمع بذلك ، من الأطفال فيما جاورنا « انه أبوك ! انه أبوك ! » ·

لقد صعق « بنى » ! ان أباه لم يكن البتة فى أرجون ، بل أكثر من هذا لم يكن « بنى » نفسه من مؤيدى أرجون · استرقت السمع ذات مرة لمحادثة بينه وبين « ايفيت » – وهو صبى يمنى صغير كانت عائلته قد لجأت الى عمارتنا عندما اضطروا للهرب من يافا على أثر بدء الهجوم العربى – وكان « ايفيت » و « بنى » صديقين ، ولكنهما كانا مختلفين جذريا فى الأمور السياسية ·

سأل « ايفيت » : الام تنتمى يا بني ؟ » ·

كان هذا السؤال واضحا وقتئذ لكل طفل ، وكانت كلمة « تنتمى » تعنى تأييد واحدة من المنظمات المسلحة ، الهاجاناه أو الأرجون أو جبهة تحرير اسرائيل ·

أجاب « بنى » على الفور :

« أنا أنتمى الى ليحى (جبهة تحرير اسرائيل) · »

« ماذا تقول يا بنى ؟ انهم لا يصلحون لشىء · »

« حسنا ، اذن انا أنتمى الى الهاجاناه » ·

« ماذا تقول يا بنى ؟ انهم لا يصلحون كذلك لشىء اطلاقا ، وأنا أقول لك اننى أنتمى الى أرجون · انهم يصـــلحون لكل شىء وهم يفوقونهم جميعا » ·

بعد أن استولينا على « يافا » عاد اليها والدا « ايفيت » ، الا أن « بنى » ظل غير متأكد من ولائه ، ولا عجب حينئذ أنه لم يصدق بادىء

دى بدء ان أباه كان قائد الأرجون • وأخيراً تغلب على تردده ، وجاءنى ممسكا بالصحيفة التى ظهرت فيها صورتى •

« أهذا أنت يا أبى ؟ قل لى الحق ، أهذا أنت ؟ » •

لم أستطع ، بعد ، ان أخفى الحقيقة عن ابنى . وتولت أمه شرح كل شىء • خطوت الخطوة الحاسمة للخروج من المقاومة فتلقاها الولد بهدوء مدهش ، وكان يقول لى من وقت لآخر وعيناه تضحكان : « هل تذكر يا أبى عندما كنا فى المقاومة السرية ؟ » •

اننى أذكر •• اننى أذكر أسئلة « بنى » التعسة التى لا تنقطع : « أين عمى اسرائيل ؟ » ، وأذكر كيف كنت أجيب بأن العم « اسرائيل » ذهب الى أمريكا وانه سرعان ما يعود الينا — وكان ذلك كذبا • لقد ذهب العم « اسرائيل » بعيدا ولكنه لن يعود ثانية • كان العم « اسرائيل » أحب عم لدى « بنى » • انه « اسرائيل ايبشتاين » صديقى وخليلى • كان يعمل مدرسا بمدرسة فى « بتاح تكفاه » ، وكان محترما من المدرسين والآباء ، محبوبا من جميع الأطفال • اننى لم أصادف قط صديقا أخلص أو أكثر وفاء أو شجاعة منه •

لم يكن « اسرائيل » عضوا فى قيادة أرجون العليا • ومع هذا كان واحدا من القلائل الذين كانوا يعرفون أين كنت أقيم ، ودائما ما كان يزورنى • عهدنا اليه بنشر « حيروت » — صحيفة المقاومة • كان يعرف أسرار المقاومة جميعها ، وكان يعرف كيف يكتمها • وعندما كان فتياننا يسقطون صرعى كنت أشكو اليه همومى وأحزانى ، فقد كان مصدر عزائى فى المحن والشدائد •

فى نهاية عام ١٩٤٦ أرسلناه الى أوروبا ليتعهد تدريب قوات الاحتياط الكبيرة التى كنا نشكلها فى الخارج ، وكان سروره بالغا لهذه المهمة • لكن من ذا الذى يستطيع أن يتكهن بتدابير القدر ؟ بعد وصوله الى روما بأيام عدة ، نسفت أرجون السفارة البريطانية هناك ، فكان ذلك سببا فى أن اشتدت عصبية الجهات الرسمية • نشرت الصحف فى مختلف الدول روايات تقشعر من هولها الأبدان عن « غزو •• ارهابى للجزر البريطانية » على وشك أن يحدث • كان هذا مفيدا جدا ، الا أنه أدى الى مأساة فى روما حيث اعتقل عدد كبير من ضباط أرجون ، وكان « اسرائيل ايبشتاين » من بين المعتقلين • أطلق سراح الآخرين ، أما هو فقد بقى فى السجن • لقد حامت حوله الظنون بصفة خاصة لأن النسف

حدث بعد وصوله بوقت قصير • طلب عملاء المخابرات البريطانية ، الذين كانت تزخر بهم ايطاليا فى ذلك الوقت ، إلى الحكومة الأيطالية تسـليم « ايبشتاين » اليهم حيث أنه مواطن فلسطينى • كان لعملاء بريطانيا حينئذ تأثير كبير على الشرطة الايطالية ، وكان « اسرائيل » يعلم ذلك • صمم « ايبشتاين » على الهرب ، وأعد خطة الهروب الا انها فشلت فبينما كان يغادر المبنى أطلق شرطى ايطالى الرصاص عليه وكانت اصابته قاتلة •

فى صباح يوم من الأيام ، بينما كنت أستمع الى أولى نشرات الأخبار من لندن ، سمعت بلاغا من روما : « أصيب يهودى بولندى اسمه تسيف ايبشتاين اصابات خطيرة بينما كان يحاول الهرب من السجن ، وكان متهما بالاشتراك فى الاعتداء الارهابى على السفارة البريطانية » •

يهودى بولندى ؟ « تسيف ايبشتاين » ؟ أنبأتنى نزعة فى قلبى من هو ، وتمنيت أن أكون مخطئا ، ولكننى أدركت أنى فقدت « اسرائيل » •

فى اليوم التالى ، أو لعله كان فى ذلك المساء ، أعلنت الاذاعة البريطانية أن « تسيف ايبشتاين » مات متأثرا بجراحه • « تسيف ايبشتاين » ؟ حاول رفاقى أقناعى بأنه كان هناك « ابشتاين » آخـر من بولندا ، اسمه « تسيف » ، يقيم فى ايطاليا ، الا أن النبأ قد تأكد بعد يومين • لقد فقدت صديق صباى • وكنت فى المقاومة السرية فلم أتمكن ، هذه المرة ، حتى من الذهاب الى المعبد لتأدية صلاة الجناز ، ثم كان على المرء أن يمضى فى سبيله قدما فليس أمامنا مجال للاختيار •

قضيت المرحلة الأخيرة من التمرد بأحداثها الخطيرة بشقة شارع يوسف الياهو فى قلب تل أبيب دون أن تعلم الخدمة السرية البريطانية• ولم تكن الشقة القريبة من مسرح « هابيما » ، والمنزل القريب من نهر « اليرقون » ، وحى حاسيدوف ، هى الأماكن الوحيـدة التى عشت فيها أو عملت فيها • لقد كانت لى « مساكن » أخرى ــ لفترات قصيرة وفى اوقات مختلفة ــ فقد سكنت فى حى « هاتيكفاه » اليمنى فى تل أبيب ، وسكنت فى « رامات جان » فى « بتاح تكفاه » ذاتها • كنت أسكن مع شرطى يهودى ابان فترة الاحكام العرفية ، وكان هذا الشرطى يساعد البريطانيين فى تعقب الارهابيين ، وقد قام بواجبه خير قيام • الا أنه لم يكن هناك فى أى من هذه الأماكن ــ الدائم منها أو المؤقت ــ أى حرس أو أية وسيلة للانذار • كان كل شىء مبسطا ورتيبا ، يتكرر مع الأيام :

مواطن عادى ، عائلته منزل مفتوح ، جيران « يعرفون كل شيء ، لا أسرار . وكان السر في أنه لم تكن هناك أسرار « المقاومة العلنية » . كانت على أبصار المخابرات البريطانية غشاوة !

قال « سير ادوارد جريج » ، الوزير البريطانى فى الشرق الأوسط سابقا ، فى مجلس اللوردات الذى ارتقى اليه بعد أن صــــار « اللورد أولتر تتشام » : « يرجع السبب الأساسى لفشلنا فى فلسطين الى فشل خدمة مخابراتنا » .

وكان ذلك قول الصدق !

الفصل التاسع

حرب أهلية ـ كلا !

(١)

بانتهاء الحكم البريطاني في بلدنا لم ينشب أي صراع داخلي بين اليهود من أجل السلطة الداخلية . وقد لا يبدو هذا التصريح أمرا ذا بال. الا أنه ، في الواقع ، كان انجازا تاريخيا عظيما . ويعلمنا التاريخ أن المنازعات الأهلية الدموية غالبا ما تنشب في أعقاب أغلب حروب التحرير ، وفي أيامنا هذه راح « غاندي » رسول الثورة السلمية ضحية لهذه القاعدة ويشبه سقوط أي حكم قائم ، من بعض النواحي ، بالزلزال ، لأن الزلزال ـ حتى بعد أن يبدد نفسه في الظاهر ـ دائما تعقبه سلسلة من الاضطرابات الأرضية الأخرى .

لا يمكن ان يقال ان تمردنا لم يخلق جميع الضروريات لصدام داخلي ، بل على العكس ـ كان الصدام الداخلي يبدو أمرا لا مفر منه هنا أكثر منه في حالات أخرى كثيرة من حالات التمرد الناجحة . ان تمردنا لم يكن نتيجة أوامر من جهة عليا . انه لم يبدأ بناء على تعليمات من القيادة اليهودية الرسمية ، بل انه هب فعلا ضد ارادة هذه القيادة . واستمر ، ولم يكن استمراره على غير موافقتها فحسب ، بل انه كان تحديا لتحريمها اياه كذلك .

تنبأ الموظفون البريطانيون بأنه عند رحيلهم ستقوم حرب بين اليهود والعرب ، وكان تكهنهم هذا صائبا . كما أنهم تكهنوا أيضا بأنهم اذا ما تركوا الاقليم فسوف تقع حرب أهلية فيما بين اليهود أنفسهم ، الا أنهم في تكهنهم هذا لم يكونوا على صواب .

كان هناك عاملان أنقذا الشعب من كارثة الحرب الأهلية : ففى المقام الأول لم نعلم محاربى أرجون أن يكرهوا خصومنا السياسيين . فالكراهية من جانب واحد خليقة بأن تهدد الوحدة القومية ، والكراهية المتبادلة تجلب الحرب الأهلية قطعا . كنا كلما رأينا مظاهر الكراهية ضدنا نأسف وندهش ، ونسائل أنفسنا : هل كراهية الاخ لأخيه هكذا جائزة ؟ كان العنصر الثانى الذى ساعد على اجتناب الحرب الاهلية مرتبطا بمشكلة السلطة . لقد حاربنا تحت الأرض مع المقاومة السرية من أجل اقامة حكم يهودى . لم نكن شغوفين بالسلطة ، ولم يستطع خصومنا ان يصدقوا هذا البته ، بل انهم كانوا يظنون ـ أو ، بالاحرى ، كانوا يقولون ان نضال « المنشمين » لم يكن شيئا سوى انه نضال من أجل السلطة . كانت هذه غلطتهم التاريخية الجوهرية . ويعلمنا تاريخ الاديان والأمم ان الخلاف فى الرأى أمر جائز دون ثورة ، ولكن الثورة مستحيلة بدون الخلاف فى الرأى . ان الثورة ليست مجرد انتقال ، انها ليست شيئا يعرض للتصويت عليه ، وهى لا تأتى نتيجة قرار يصاغ فى نهاية مناقشة عامة . ان الهجوم على سجن الباستيل سبق اعلان حقوق الانسان ، كما أن حفل شاى « بوسطن » سبق مشروع قانون الحقوق . ان الثورة تهب بصفة تلقائية دائما ـ والا فانها لا تهب أبدا . انها لا تخضع للنظام ، بل انها تفرض النظام على أولئك الذين قاموا بها . فالخلاف فى الرأى ، والثورة ، شىء واحد ، تماما كما تعتبر الثورة والتقدم شيئا واحدا .

اننا نقوم بالثورة لأن استعبادنا يتطلبها . اننا ننشق لكى نحارب من أجل شعبنا لا لكى نحكمهم . ان الكفاح من أجل السلطة ليس فى حد ذاته أمرا مشروعا ، بل ـ على العكس ـ انه ينطوى على رغبة صادقة للانجاز . أن المقاومة السرية المحاربة يحق لها كذلك أن تناضل من أجل السلطة ، فقد يؤدى هذا النضال ، فى الواقع ، الى دعم قتالها ضد المعتدى . كان هناك بالفعل نفر فى مقاومتنا السرية ممن كانوا يعتقدون أن عدم توافر الرغبة فى السلطة انما هو اخفاق أكيد . ولا أود فى هذا المقام ، على أية حال ، أن احلل الحقائق ، ولكنى أود أن أقيمها فقط ، خيرا أو شرا ، صوابا أو خطأ . فالحقيقة هى انه طوال كفاحنا فى المقاومة السرية لم نفكر فى السلطة أو فى النضال من أجلها ، بل اننا كنا متفقين من صميم قلوبنا على أنه مع انتصار التمرد وتصفية الحكم الأجنبى يجب أن تتولى القيادة الرسمية حكم بلدنا . بهذه الروح تعلم جنود ارجون تسفاى ليومى . كان كفاحنا براء من اى وازع ثانوى .

استولت فكرة الحرية على أفئدتنا تماما ، وحقق الفرد شخصيته مع

الفكرة تماما · واذا أدى الأمر الى أن يتنازل الفرد عن حريته الشخصية ، اذن لتنازل عنها طائعا · واذا احتاج الامر الى ان يترك الفرد أسرته ، اذن لتركها مختارا · واذا كان ذلك الأمر يعني تحمل العذاب ، اذن لأسلم نفسه اليه راضيا · واذا تطلب روحه ، اذن لقدمها باسما ، أما عمن يحكم الدولة التى كان المحارب على أهبة الاستعداد لبذل هذه التضحيات من أجلها فان ذلك أمر غير ذى بال ، فالشىء المهم هو ان تكون هناك دولة ، وأن تكون هناك أمه ، « أمة حرة في أرضنا » · وان من واجبنا أن نفتح الأبواب ونستدعى المشردين المستعبدين ، وألا نخضع ونذل لحكم أجنبى ، وأن نتنسم عبير الحرية الذى تتوق اليه صدورنا منذ ألفى سنة من التشتت والعزلة · ويتعذر القول ما اذا كان ينبغى أو لا ينبغى لنا أن نحصل على السلطة اذا ما نحن أردناها ، فهناك شيء واحد واضح ، هو أننا لو كنا نستهدف السلطة اذن لحاربنا من أجلها ، وانما نحن كنا نستهدف تصفية الحكم الأجنبى فحسب ، ولقد حاربنا من أجل هذا الهدف ثم حققناه ·

لو كان الأمر على خلاف ذلك ، اذن لقام فى أرض اسرائيل معسكران معاديان أحدهما للآخر · ولا يمكن الدفع بأن قيام الحرب مع العرب فى اثر المقاومة السرية هو الذى حال دون حدوث مثل هذا النزاع · ان من يتحرق الى السلطة يتجشم أى خطر خارجى لكى يفرض ارادته فى الداخل · والحق اننا حاربنا جنبا لجنب ضد المعتدين العرب لأن معسكر المتمردين لم يكن يهدف الى السلطة ، ولأننا لم نكن نكره اخواننا فى المعسكر الآخر · الا أن خطر الحرب الأهلية كان كامنا فى الطابع التاريخى للتمرد تماما كما كان استبعادها كامنا فى الصبغة الأخلاقية للمتمردين ·

لنتذكر أن هذا التمرد كان تمردا قام به المنشقون ، وأنه طوال فترة التمرد ، على الأغلب ، كان الزعماء الرسميون فى الوكالة اليهودية لا يريدونه ، كما أنهم كانوا طوال الفترة كلها لا يريدون هؤلاء المنشقين قطعا ·

قال الرئيس « ترومان » انه كان خليقا بأن ينضم الى « الارهابيين » لو أنه كان فى أرض اسرائيل ابان حكم البريطانيين · ولو أنه كان قد فعل ذلك ، اذن لسلمه الزعماء الرسميون للبريطانيين لأن هؤلاء الزعماء لا يريدون المنشقين — مع الرئيس « ترومان » أو بدونه — أو حتى كناس الشارع فى تل أبيب من أجل هذا الأمر ·· ربما انهم كانوا لا يثقون فى الآمال المرتقبة للتمرد ، وربما انهم كانوا يخشون المتمردين ، وربما انهم كانوا يظنون أننا أناس أشرار للغاية ·

مهما كان من أمر ، فان الحقيقة هي أن الزعامة الصهيونية الرسمية أرادت منا ان نوقف كفاحنا فورا بعد أن بدأناه • حاولوا بادىء ذى بدء أن يداهنونا ، وعندما فشلت المداهنة أعقبوها بالتهديدات • وكانت « الأفعال » التى جاءت بعد ذلك كفيلة بأن تؤدى الى حرب أهلية لولا أننا كنا قد عقدنا العزم على أن التهديد الأكبر لمستقبل شعبنا هو الصراع الداخلى •

(٢)

بدأت مساعى الاغراء في منتصف صيف سنة ١٩٤٤ ، وكنت فى ذلك الوقت على وشك مقابلة المستر بن جوريون (١) •

كان كل من الطرفين ، بصفة خاصة ، حريصا على مثل هذا اللقاء دون أن يعرف أحدهما رغبة الآخر ، ولا أقصد « بالطرفين » المستر بن جوريون وشخصى أنا ، وانما أقصد أمناء سرنا وأصدقاءنا ، كلا وما يخصه •

طرق أصدقائى موضوع لقائى مع « بن جوريون » وقبلت اقتراحهم • كنا حينئذ نعانى أشد الآلام فى أولى عملياتنا ، وكنا على وشك أن نوسع نطاقها • وكان « بن جوريون » من جهته فى قمة « فترة التطرف فى حياته » • وكانت « بلتيمور » فى جعبته ، وكانت هذه الكلمة على وشك أن تنسى • والحق انها اسم الفندق الأمريكى الذى وصف فيه بن جوريون الهدف من حرب شعبنا بقصد اقامة دولة يهودية فى كل أرض اسرائيل (وكان بن جوريون بالطبع يقصد اسرائيل الغربية) ، هذا الاسم الأجنبى الذى سبب فى ذلك الوقت جلبة شديدة فى المعسكر الصهيونى تضاءل فى النهاية الى « مشروع التقسيم » • لا يزال فندق « بلتيمور » قائما ، أما التعاليم التى صدرت عنه — وليست بالطبع تعاليم جديدة — فسرعان ما اختفت •

الا انها كانت فى سنة ١٩٤٤ « تعاليم جديدة » فعلا ، ليس ، بالطبع ، فيما يتعلق بمحتواها • لقد سبق « بن جوريون » « يابوتنسكى » الذى كان يبشر بمفهوم دولة يهودية تضم أرض اسرائيل الشرقية ، كما سبق « يابوتنسكى » « هرتزل » ، وكانت فكرته عن الدولة هى ما قدمه

---

(١) ولد دافيد بن جوريون فى بولندا الروسية ثم جاء الى فلسطين (وكانت وقتئذ جزءا من الامبراطورية العثمانية) فى أيام شبابه الباكرة • اشتراكى مدى الحياة • هب ليكون الشخصية القائدة فى حزب عمال أرض اسرائيل (الماباى) ، وكان ، لسنوات عديدة ، رئيس اللجنة الصهيونية التنفيذية • وعندما انسحب نظام الحكم البريطانى صار أول رئيس للوزراء فى اسرائيل •

الزعماء الصهيونيون منذ ربع قرن مضى (١) . ويكمن عنصر التجديد فى المبشر نفسه ، المستر بن جوريون الذى يطالب بدولة يهودية ، الرجل الذى حاول منذ سنوات قليلة فقط أن يقنع لجنة « بيل » بأن كل ما نرجوه ونطالب به ليس دولة يهودية وانما هو ما يطلق عليه « وطن قومى » ، والحق يقال انه أضاف تفسيره الموفق للعبارة السابقة ، الا أن الصعوبة هى أن الأمميين الذين شرح الموضوع أمامهم كانوا متضلعين فى التفسير .

وفى الأربعينات نبذ « بن جوريون » كل تفسيراته التاريخية الفلسفية واستخدم لغة يستطيع أى انسان أن يفهمها : « دولة يهودية . ويقال انه كان متأثرا فى هذا الاتجاه بفكرة « بيرد كاتس نيلسون » — ربما . ويبدو لى أن « بن جوريون » كان متأثرا تأثرا شديدا — وان كان ذلك التأثر عن غير وعى — باجتماعه مع يابوتنسكى فى الثلاثينات ، وليس من شك فى أنه كان متأثرا بحملة الابادة النازية فى أوروبا . لقد ولد « بن جوريون » من جديد . لم يكتف بالقاء شعار « بلتيمور » فى المضمار فحسب . بل ألقى عددا من الخطب القوية المضمون ، الحادة اللهجة ضد الحكام .

سررنا لهذا التغيير ، ولم نحمل ضغينة للمستر بن جوريون . ان « يابوتنسكى » هو الذى علمنا دائما ان نقاوم « الذكريات الشهيرة » . لقد اعتاد أن يقول : « **ان أى انسان قد يخطىء أو يقول أشياء بعيدة عن الفطنة ، فلا تجعل ذاكرته تتمسك بأخطائه أو أقواله . واذا كان صالح الناس يتطلب أن تمد اليه يدك فلا تدع ذاكرتك تنقلب ذاكرة شريرة . انس ما ينبغى أن تنسى وامدد يدك اليه** » .

لذا جادل أصدقائى بأن الوقت قد حان لكى نمد أيدينا الى « بن جوريون » ، وعقدنا العزم على أن نقول له انه بعد موت « يابوتنسكى » أصبح أمر من يكون « على رأس » الدولة المستقبلة شيئا قليل الأهمية بالنسبة الينا . ان الأمر الجوهرى هو الهدف والكفاح فى سبيل تحقيقه . اذا كان المستر بن جوريون سيقودنا فى الكفاح ضد الحكم البريطانى وسيقودنا الى السيادة العبرية فاننا سوف نتبعه فى سرور وحماس .

---

(١) حتى سنة ١٩٤٣ استطاع دكتور حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية أن يكتب عن مؤلف « هرتزل » : « الدولة اليهودية » ، وأن يشير الى « مشروعاته المطولة الساذجة غير اللازمة عن تنظيم الهجرة من الدياسبورا وعن القوانين ، بل وحتى عن أحوال الدولة المنتظرة » (افتتاحية « الدولة اليهودية » ، شركة النشر « سكوبوس » نيويورك) .

وقصارى القول اننا عقدنا العزم على أن نقول له اننا سنضع أنفسنا تحت تصرفه اذا كان مستعدا لاثبات صدق أقواله بأفعاله ٠

مع هذا لم يتم اللقاء ٠ لقد تردد بن جوريون ، وأعرب عن الشك فيما اذا كان مستطيعا أن يجد « لغة سياسية مشتركة » معى ٠ كانت نيته ــ كما كان شائعا ــ أن نوقف هجماتنا العسكرية على نظام الحكم البريطانى ٠ أبلغنا أخيرا أنه ولو أن المستر بن جوريون كان مهتما جدا باللقاء ، الا أنه لا يستطيع أن يشارك فيه ، ويود أن أقابل ممثله الشخصى وقد أكدوا لنا أن الشخص المختص سيكون مخولا صلاحيات كاملة ٠

تقابلنا ، وافتتح ممثل بن جوريون الشخصى المحادثة بأسلوب مسرحى ٠ قال : « انكم تمسكون فى أيديكم أداة قادرة على تقرير مصير الشعب ، الا أننا نعتبر أنفسنا مسئولين عن مصير هذا الشعب ، وليس من المرغوب فيه أن توجد قوة مسلحة أخرى فى اسرائيل بالاضافة الى القوات الموجودة تحت امرة المؤسسات الأهلية ٠ وانى آمل ألا يكون ذلك ليوم بعيدا ، يوم تكون هناك قوة موحدة واحدة فى اسرائيل والى أن يحين ذلك اليوم فان من المرغوب فيه أن تتخذ الاجراءات التى تحول دون التصرفات الضارة ٠٠ » ٠

أجبت : « لست أدرى ما اذا كانت المنظمة المحاربة التى أعمل فيها قادرة على تقرير مصير الشعب ٠ لقد بدأنا نحارب ، ولا نعلم بعد ، ما اذا كنا سننتصر أو نفشل ٠ يحتمل ــ ونأمل ــ أن يكون ما نعمله الآن وما سوف نعمله فى الأيام القادمة له أثر تاريخى . الا أنه لا يعدو أن يكون « حادثا مثيرا مؤسفا » ٠ وعلى أية حال فاننا عقدنا العزم على أن نحارب لاننا واثقون من أننا اذا لم نحارب فلن نحرز شيئا ٠ ربما لا نكون نحن أولئك الذين سوف يجنون ثمار نضالنا ، بل قد يجنيها غيرنا . الا أن ذلك أمر غير ذى بال بالنسبة الينا ، « أما عن المسئولية فاننا نرى أنفسنا مسئولين عن مصير الشعب ٠ ومع هذا ، كنتم جميعا ، منذ أمد غير بعيد ، ضد قيام دولة يهودية ، وقد غيرتم وجهة نظركم الآن ، وهذا دليل على أننا كنا على صواب ٠ وها نحن مقتنعون بأننا اليوم على صواب مرة أخرى ٠ ان لدينا وعيا برسالة خيرا كانت أو شرا ــ وتلك هى الحقيقة » ٠

اضطرب الممثل الشخصى نوعا ما ، ثم قال : « انك مخطىء ٠ ان المسئولية مسئوليتنا نحن وليست مسئولية أى أحد سوانا ، الا أن هذا ليس هو ما جئت لأناقشه معك ، فلقد جئت لأبرهن لك على أنه يستحيل

أن تقوم بعمليات حربية من ابداعك وعلى مسئوليتك . تدبر جيدا أنه ليست لديك أية معلومات ، وبالتأكيد ليست لديك المعلومات الكافية عن موقفنا السياسي وعن آمالنا . واذا كان الأمر كذلك فكيف تستطيع أن تعرف ما اذا كان التصرف ضروريا ، ومتى وكيف يكون التصرف ؟ بل يحتمل أنك قد تحبط كل ما حققناه اذا ما اتخذت خطوة غير مقدرة ومدبرة » .

أجبت : « قبل كل شيء ، إن لدينا المعلومات ، ثم انى لا أومن بالأسرار العميقة ، فاننا في هذا العصر - عصر الراديو - نعرف ما يكفينا » لم يوافق محدثي وقال : « سأدلى اليك ببعض المعلومات ، ومنها ترى بنفسك ان القيام بالعمليات ضد نظام الحكم البريطانى اجراء سابق لأوانه . فنحن على اتصال طيب بتشرشل الذى أخبرنا - باعتباره صديق الصهيونية - بأن (الرجل العجوز) لديه مشروع جديد لأرض اسرائيل : ان التفاصيل ليست معلومة حتى الآن ، الا انه يتضح ان اليهود سوف يحصلون على شيء كاف ملموس . ان للمشروع صلة بشرق الأردن ، فقد قال تشرشل : انني قسمت فلسطين مرة ، وسأوحدها من جديد ثم أقسمها مرة ثانية » . سألت : « هل قال تشرشل ، حقيقة ، انه يعد لقيام حرب شديدة من أجل الصهيونية كما يفهمها ؟ » . أجاب : « لا ، ان هذا تحريف لقد قال تشرشل شيئا شبيها ، ولكنه لم يقل ذلك بالضبط . لقد أوضح أنه ضد المعارضة الجادة للصهيونية فى حزبه ، الا أنه يعول على هيبته . انه مقتنع بأن وجهة نظره سوف تنتصر ، ولكن طالما كانت الحرب مستمرة فانه لا يستطيع أن يتناول الموضوع . انه يريد حلا جذريا ، وذلك متعذر قبل نهاية الحرب ، وهذا هو سبب قوله انه يفضل صراعا كبيرا واحدا » .

- « هل اتصل وايزمان بتشرشل ؟ » .

- « بالطبع . والواقع أن لديه حرية الاتصال بتشرشل . ولقد جرى بينهما حديث مؤخرا ؛ الا أن تشرشل قال لأصدقائنا البريطانيين فيما بعد انه كان من الصعب عليه أن يتحدث الى وايزمان . انه لم يستطع النوم طوال الليل بعد حديثهما الأخير .. » .

- « وماذا قال تشرشل لوايزمان فى اجتماعهما الأخير ؟ » .

- « لم يقل له أى شيء جديد ، بل أكد له مرة أخرى اخلاصه للفكرة الصهيونية ، الا أنه قال ثانية انه لا يستطيع أن يعمل شيئا قبل انتهاء

الحرب • وفى خلال الحديث أكد هذه الكلمات . يمكنك أن تتأكد أنك بعد الحرب سوف تحصل على أكبر نصيب من الفطيرة (البودينج) » •

ـ « ما معنى ذلك ؟ » •

ـ « أن ذلك يعنى مشروع تقسيم جديدا » •

ـ « هل هناك شيء من هذا القبيل ؟ » •

ـ « بالطبع ، فمثلا : التقسيم بدون المثلث (١) تقسيم جديد وسنقبله » •

ـ وماذا لو أنهم اقترحوا مشروع تقسيم سينا ؟ » •

ـ « لا نقبله ، فانه يوجد فى الواقع مشروع تقسيم أعدته مدرسة القاهرة البريطانية ، انه مرتبط بمشروع سوريا الكبرى ، ويشترط ـ بالاضافة الى أشياء أخرى ـ ان جزءا من الجليل وبعضا من مستعمراتنا فى ايميك يجب أن تدخل فى الدولة العربية ، ولن نوافق على ذلك بالطبع ، واذا حاولوا أن يفرضوا ذلك المشروع علينا فاننا سوف نعلن التمرد • ان بن جوريون مستعد للتمرد ، وذلك هو السبب الذى يجب من أجله الا يكون هناك أى عمل عدائى الآن • فمن ناحية ، لدينا فرصة لكى نحصل من بريطانيا على حل ربما يكون مثاليا ، مع تحقيق الاستقلال والهجرة والاستعمار على مستوى أكبر ، ومن ناحية أخرى يجب أن نستعد لاحباط أى مشروع سيء • ان النشاط الذى تمارسونه خليق بأن يحبط الأمن المنشود ، ثم انه ـ فى نفس الوقت ـ من شأنه أن يتدخل فى اعدادنا للتمرد » •

فقلت : « أنا لا أوافقك ، فاننا ـ كما تعلم ـ نرفض أى تقسيم ، فبالنسبة الينا ليس هناك تقسيم جيد أو تقسيم سيء • قد تعتبر هذا استبدادا بالرأى ولكنه رأينا • ان أرض الوطن وحدة ولا يمكن أن تقطع أوصالها • وعلى أية حال فان الذى يتضح لنا هو أننا مالم نحارب فلن نحصل على أى شيء • أننى أتابع الصحافة البريطانية بالقدر الذى يصل الينا منها هنا ، فأنا أقرأ الايكونومست وأعلم منها أن الورقة البيضاء هى السياسة الثابتة للحكومة البريطانية • وبصفة عامة ،

---

(١) كان المثلث هو الاصطلاح المستخدم للدلالة على المنطقة التى تتوسط فلسطين شمالى القدس وتمتد الى الشاطىء والمحددة بخط وهمى يربط المدن العربية الثلاث الآهلة بالسكان وهى « نابلس وطولكرم وجنين ، ولا يزال المثلث هو ومساحة أخرى من فلسطين المحرمة مقطوعا عن دولة اسرائيل القائمة الآن •

لم يعد هناك أى احتمال للثقة فى وعودهم • وربما يشير تشرشل الى ما عساه أن يفعله بعد الحرب • لنفرض أنه لم يبق فى الحكم بعد الحرب ، فماذا يحدث وقتئذ ؟ انك تعرف كما أعرف ماذا يحدث فى أوروبا ، هل يجوز لنا أن ننتظر ؟ وفى التحليل النهائى ، كيف يحتمل أن يضر كفاحنا بالقضية الوطنية اليهودية ؟ اننا نرفع مسألة أرض اسرائيل الى مدار التفات الجماهير ، واما من جهتكم فان من حقكم أن تباعدوا بين أنفسكم وبين مظاهر نشاطنا اذا كان ذلك ملائما لكم •

« نعم ، الا أنه تبقى بعد ذلك مسألة النظام ـ وهذه مسألة بالغة الخطورة • اننا لا نستطيع أن نسمح لكم بأن تأخذوا الأموال من الرجل الذى يكتتب فى صندوق مؤسســة فلسطين (كيرين حايسود) (١) ، وبالتالى نفرض نظامك عليه • لا يمكن أن يكون للشعب سوى جيش واحد وسياسة واحدة » •

ـ « لكن شعبنا تحت الحكم الأجنبى ، ولا يمكن أن تكون هنـاك للشعب مضطهد سوى سياسة واحدة ، هى سياسة الكفاح من أجـــل التحرير » •

وانتهت المناقشة حوالى الساعة الثالثة صباحا • وقد طالب ممثل « بن جوريون » أخيرا بضرورة عرض خططنا على الوكالة اليهودية أو قيادة الهاجاناه ، فقلت له « اننى كنت عاقدا العزم على أن أقول لبن جوريون : اذا أنت حاربت فاننا لن نحارب معك وحسب ، بل سنسير وراءك •• والى أن يحين ذلك الوقت فاننا لن نكون قادرين على تقديم خطط عملياتنا ان نضالنا يتطلب السرية المطلقة فى التخطيط وفى التنفيذ • كيف نسلم خططنا لهيئات تنكر علينا حقنا فى الوجود ؟ » •

قال الرجل أخيرا فى ابتسامة غريبة : « لقد أقنعتنى بشىء واحد ، هو ضرورة وجود قوة حربية يهودية واحدة فى أرض اسرائيل » • ووعد بتقديم تقرير شامل عن محادثتنا الى « بن جوريون » ، ثم غادرنا •

انه لم يكن يخشى الداوريات الليلية البريطانية ، فقد كان حينئذ مواطنا محترما يحترم القانون • بقيت مع « الياهو لانكن » الذى كان قد

---

(١) صندوق مؤسسة فلسطين الذى تموله التبرعات الاختيارية من اليهود فى جميع انحاء العالم ، والذى يشكل ميزانية التنمية الأساسية •

رافقني الى مكان الاجتماع · أخبرته بمضمون المحادثة ، وناقشنا ما عساه أن يحدث في الأيام القادمة ثم غفونا ، وعند الفجر ، بينما كان العمال في طريقهم الى العمل ، انطلقنا الى عملنا ، متخذين الشوارع الجانبية طريقنا · قدم تقرير كامل الى رفاقنا عن المحادثات الفاشلة · وليس من شك في أن المستر بن جوريون تلقى هو الآخر تقريرا عنها · وكان الرجل الذى مثله ، والذى عبر عن ثقته « وينستون تشرشل » ، والذى تكلم عن بن جوريون في حماس التابع والتلميذ المخلص ، هو « موشى سنيح » .

(٣)

جاء التهديد بعد الرجاء · كان ذلك في خريف سنة ١٩٤٤ بمجرد عودة « الياهو جولومب » رئيس الهاجاناه من لندن ، ويبدو انه كان على اتصال بالحكومة البريطانية والرسميين البريطانيين · كان لنفوذ الدكتور وايزمان في دوائر الحكومة البريطانية ـ أو ما ظن « جولومب » أنه نفوذ ـ انطباع عميق في نفس رئيس الهاجاناه · وعلى أية حال فانه ما أن عاد « جولومب » من العاصمة البريطانية حتى وضع نفسه على رأس الجهاد ضد أرجون نسفاى ليومى · دعا الى مؤتمر صحفى حيث أعرب عن اعتقاده في تغير سلوك بريطانيا ازاء الشعب اليهودى ، وزعم أن أبوابا كثيرة (لم يحدد ماهيتها) كانت موصدة حتى في وجه حكومات المنفى أصبحت مفتوحة على مصاريعها أمام رئيس المنظمة الصهيونية ، كما زعم أن « الارهاب » هو الذى عرض الآمال جميعها للخطر ، وطالب بوضع نهاية لهذه « الأعمال الصبيانية » ·

وبعد انقضاء عدة أسابيع طلب منا أن نقابل المستر « جولومب » المسمى « وزير الأمن » ، ولم يكن من السهل أن نوافق على الذهاب لمقابلته فقد خامرنا جميعا الشك فيما اذا كان من المرغوب فيه أو المسموح به ، في مثل هذه الظروف السائدة ، أن نقابل اناسا أعلنوا علينا بالفعل حربا شاملة · ومهما كان من أمر فقد انقلبت الموازين بسبب مجادلة « الياهو لانكن » الذى قال ان الاتصال المباشر أمر مرغوب فيه على أية حال ، وتساءل لماذا لا يكون خيال « جولومب » قد أطلق له العنان · « ربما لا تنجح في اقناعه بأن لدينا هدفا واحدا فقط هو القتال من أجل تحرير بلدنا ، ومع هذا فقد نضعف اعتقاده في أن هدفنا هو الهدف الذى نسبه الينا ، ألا وهو السلطة في الييشوف » · وانتهى « الياهو » الى القول بأننا اذا ما قدر لنا أن ننجح في هذا فان معارضتنا في مقابلته ترجح عليها كفة الفوائد التي تنجم عن هذه المقابلة ·

لم تفلح هذه المجادلة المعقولة العذبة فى تبديد شكوكنا ، الا أننا وافقنا على المقابلة ، وان نجيب « بالنفى » على أى مطلب لايقاف كفاحنا . كان « جولومب » فى رفقة « موشى سنيح » ، ومثلنا أرجون أنا و « الياهو لانكين » . كان الاجتماع الذى انعقد فى شارع اللنبى ، أشد شوارع تل أبيب ازدحاما ، اجتماعا رسميا . أنبأنا « جولومب » و « سنيح » انهما كانا يتكلمان باسم كنيست اسرائيل (١) . وطلبا منا أن نوقف نشاطنا ضد البريطانيين على الفور باسم كنيست اسرائيل ، ولم يكن هناك جديد فى مجادلتهما . افترض « جولومب » ان عملياتنا الحربية عندما لا توجه الى الاضرار بالوكالة اليهودية فانها لا تعدو أن تكون نتيجة للجرى وراء بطولات شبه صبيانية ، وتكلم كثيرا عن مآثر أعضاء الهاجاناه فى خدمة المخابرات البريطانية ضد الألمان الذين كانوا قد أسقطوا بالمظلات فى عدد من الدول الأوروبية . قال قائد الهاجاناه : « تلك هى الشجاعة الحقة ، وكان فى مقدور أعضائكم أن يتميزوا بالاسهام فى هذه العمليات الجريئة لو أنكم لم تتحولوا الى الأعمال الارهابية .

كان حديث « جولومب » مزيجا من التحيات الرقيقة تهدف الى استرعاء انتباهنا ومن التهديدات الغامضة تهدف الى القاء الرعب فى نفوسنا . قال : « اننى لا أنكر أنكم متمتعون بروح التضحية بالذات ، الا أن هذه الروح يجب أن توجه وجهة أخرى .. وقد أسلم بأن أعمالكم ربما كان لها مغزى سياسى معين لأنكم أقمتم الدليل على أنه عندما يهب اليهود للقتال فى أرض اسرائيل فانهم يكونون على استعداد للمضى فى القتال الى النهاية ، بل حتى الى الموت . الا أنه اذا كان هذا هو غرضكم فقد قدمتم ما فيه الكفاية . لقد قدمتم الدليل على ما قمتم لتقديم الدليل عليه . والآن ينبغى عليكم أن توقفوا نشاطكم » ، ثم أضاف فى لهجة أكثر تأكيدا : « لا توقفونه فحسب ، بل تصرحون علانية أنكم عقدتم العزم على ذلك » .

أجاب « لانكين » وأجبت أنا بما سبق أن قررنا أن نجيب به ، ولم نضف بدورنا كثيرا مما يعتبر جديدا . أسهبنا فى حملة الابادة فى أوروبا ، وأشرنا الى أبواب أرض اسرائيل الموصدة ، والى الصدى الذى تردد فى جميع أرجاء العالم لعملياتنا . أكدنا أنه لم تكن لنا البتة أية رغبة فى المغامرة أو البطولة ، ولكن كان لدينا الوعى العميق بالرسالة ــ الوعى بأننا اذا ما ألقينا سلاحنا فان ليلا طويلا من الاستعباد سوف

---

(١) الاسم الرسمى للبرلمان اليهودى فى أرض اسرائيل .

يخيم على شعبنا اما اذا حاربنـــا فسوف نكون قادرين على تحوين موقف بلدنا وموقف شعبنا بمساعدة العوامل التى بدأت تتحرك جميعا عن طريق كفاحنا ، وبالتالى فاننا لا نقبل مطلب ايقاف الكفاح ، ولا نرى أى سبب يجعل زملاءنا اليهود يحاربوننا لأننا نحارب الادارة البريطانية ٠

خيم السكون منذ وقت طويل على شارع اللنبى الذى يعج بالناس ، وذهب الجميع للنوم ، أما نحن الأربعة فقد بقينا فى نقاش ســــاعات طويلة ، نقيم البراهين ، ونسترجع التاريخ القديم ، ونتكهن بالاحداث فى الأيام المقبلة ٠ ولما لم يأت أى من الجانبين بجديد فقد انطبع فى ذاكرتى ، بكيفية لا تمحى ، شيئان اثنان مما قاله «جولومب» تلك الليلة . فقد أعرب عن الاعتقاد الراسخ لا فى انتصار العمال عما قريب فى بريطانيا فحسب ، بل وفى التغيير الكلى الذى سوف يجلبه ذلك التغيير الانتخابى فى مسلك بريطانيا ازاء الصهيونية ٠ وحاولنا عبثا أن نزعزع هــذا الاعتقاد الساذج من جانبه ٠

كان الأغرب من ذلك ـ وانه لمذهل حقا ـ ذلك الرأى الذى كان يراه رئيس الهاجاناه فيما يتعلق بأثر كفاحنا على شعبنا ٠ لقد جادل باننا كنا نعلم اليهود الجبن بدلا من أن نبث فيهم الشجاعة ٠

انتهت المحادثة العنيفة بعد نصف الليل بكثير ، ولم يكن الوداع سارا ٠ ومع أننا قلنا : « شالوم » ، وتصافحنا بالأيدى ، الا أن تهديد الحرب الأهلية وشبحها ظلا ماثلين أمامنا ٠ وقبل ان نفترق أكدنا مرة أخرى أنه لم يكن هنـــاك ما يبرر تدخل الهاجاناه بيننا وبين حكومة الانتداب ، وأعربنا عن الأمل فى أن يأتى اليوم الذى نستطيع فيه أن نحارب نظام الحكم الأجنبى صفا واحدا ٠ وأجاب « جولومب » : « سوف نتدخل ونقضى عليكم » ٠ وكانت هذه الكلمات ، التى فهمنا فحواها فيما بعد ، هى آخر ما سمعت من « جولومب » ، الذى كان يشكو من مرض القلب ، فقد مات بعد ذلك بوقت قصير وهو فى سن مبكرة نسبيا ٠

الفصل العاشر

هل يحق لنا ؟

(١)

كانت تهديدات اخواننا لا تزال تتردد فى أسماعنا عندما وجهت القوات البريطانية الينا ضربة عنيفة • ففى الصباح الباكر يوم الحادى والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤ أحيط معسكر الحجز فى اللطرون بقوة كبيرة من جيش الاحتلال • أخذ نحو ٢٥١ من المحتجزين من فرشهم وهم شبه عراة • وضعت الأغلال فى أيديهم ونقلوا جوا فى طائرات خاصة من طائرات النقل الثقيلة الى أرتريا فى شرق أفريقيا ، ومن بين الوسائل التى استخدمت كانت هذه واحدة من ضربات الباغى فى سعيه الى تحطيم العمود الفقرى للتمرد واخماد النار التى أشعلها ، وليس النفى بالجملة من أرض الوطن بالأمر الهين • وكان التفسير الذى قدمته السلطات البريطانية لهذا النفى من الممكن أن يؤخذ بمثابة تحية أو مدح لنا • قالوا انه كان هناك من الأسباب ما يدعو الى الاعتقاد بأن الأرجون تزمع اطلاق سراح المسجونين فى معسكر الحجز بالقوة ، وكنا نعلم — مع هذا — انهم لم يكونوا بذلك يقصدون أن يتملقونا • لقد أرادوا ، فعلا ، أن يحطموا روحنا • حقيقة ، لقد كانت لدينا دائما خطط لتحرير رفاقنا السجناء ، وكنا نضعها موضع التنفيذ كلما سنحت الظروف ، الا أن هذا كان مجرد عذر رسمى نموذجى أعد لاخفاء الهدف الحقيقى • كان ذلك الهدف متعدد الجوانب ، فقد أراد البغاة أن يحطموا أرواح السجناء وأجسادهم ، وكان من بينهم كثير من أحسن ضباطنا ورجالنا ، كما أرادوا أن يؤذوا عائلاتهم — وكان عددها بضعة آلاف عائلة — وأرادوا أن يلقوا الرعب فى قلوب

شباب اليهود لكى يخيفوهم ويبعدوهم عن صفوفنا · أرادوا أن يختبروا ردود فعل « الييشوف » المنظمة ازاء قرار النفى لكى يعرفوا الى أى مدى تستطيع الحكومة أن تذهب ، لا بالنسبة للارهابيين فحسب ، بل بالنسبة لليهود عموما ·

ولا يمكن أن ننكر أن روحنا المعنوية لم تكن عالية . فقد كنا خاضعين مرة أخرى للصراع الذهنى القاسى الذى كان قد بدأ مع أول اصابة قاتلة منينا بها · واعتقد ان السؤال لا يزال يلح على كل ثائر : هل يحق لنا أن نتسبب – ولو بطريق غير مباشر – فى مثل هذه المعاناة ومثل هذه الأحزان الكبيرة لكثير من الرفاق وعائلاتهم ؟

تذكرت أيام كنت سجينا ومنفيا · اننى أعرف ان السجن فى حد ذاته عقوبة شديدة بالنسبة للشخص المثقف ، الا انك اذ أضفت عبء الاحساس « بالغربة » يهـــدد روح كل شخص منفى ، واذا أضفت بؤس الحنين للوطن ، فانك تستطيع أن تكون فكرة عن عمق الألم الذى ينبغى تحمله ·

كان هذا هو العبء المزدوج ، عبء المائتين والواحد والخمسين شخصا المنفيين الذين يعتقلهم البريطانيون · لا عجب ، حينئذ ، أن يكون أول رد فعل لنا هو أن نعمل كل ما يمكن عمله لاجبار الباغى على اعادة رفاقنا المنفيين ·

لم نكن ، بطبيعة الحال ، نعتقد فى « الوساطة » ، فلو أننا خولنا الوسطاء السلطة ليقولوا ان الكفاح سوف يتوقف نهائيا ، اذن لأمكننا أن نحقق عودة المنفيين ، بالاضافة الى اخلاء سبيلهم من التحفظ المفروض عليهم ، وأشياء أخرى كثيرة جدا · ولكن تصميمنا على متابعة الكفاح كان تصميما لا يتزعزع ، وانما كان لزاما أن نجرب صلابته من وقت لآخر بنار المحن والشدائد · لقد شرعنا فى عمل مخطط لعمليات المعارك ، ولم يكن ذلك انتقاما للمنفيين بقدر ما كان يهـــدف الى اقامة الدليل للسلطات على أن تقديراتهم وحساباتهم كانت خاطئة خطأ فاحشا ·

وليلة فى اثر ليلة ، كان أعضاؤنا وأعضاء جبهة تحرير اسرائيل يعلقون الشعارات التى تندد بأولئك الذين نفوا رفاقنا · كما كان هناك انذار نهائى من ارجون وجبهة تحرير اسرائيل بطلب اعادة المنفيين · ومنذ ذلك الوقت اقترحنا اعطاء الكلمة الأولى لاعادة رفاقنا ، الا ان شيئا ما كان يحدث فيحبط خططنا · وفى أول نوفمبر سنة ١٩٤٤ ، بينما كنت

أنتظر مع « يعقوب ميرمدور » وصول « اسحاق ايسرنيتسكي » و « ناتان فريدمان » من قيادة تحرير اسرائيل لمقابلتنا لوضع تفاصيل العمليات المشتركة ، فتح « يعقوب » جهاز الراديو عرضا • اعلن نبأ من القاهرة أن « لورد موين » قد اغتيل • وعلى الفور أصبح ذلك الأمر اشارة الى الحملة الشاملة التى قامت بها الهاجاناه والوكالة اليهودية للقضاء علينا • استغلت الزعامة الرسمية التشاؤم الذى دعا اليه نبأ اغتيال « موين » لبدء هجوم واسع النطاق على أرجون وهكذا بدأ « الموسم العلنى » ••

(٢)

وقد سبق ذلك « الموسم » مناظرة سرية ومناقشة علنية بين « مدارس الفكر المختلفة » عن الزعامة الصهيونية الرسمية • عارض الحاخام « فيشمان » (من حزب مزراحى ، وهو الحزب الدينى الصهيونى) والمستر « اسحق جروينباوم » (من الصهيونيين العامين) اى جهاد أو حملة عاملة ضدنا ، من حيث المبدأ • وأيد أعضاء « المجموعة ب » ، التى كانت قد انشقت على حزب ماباى (حزب عمال فلسطين) ، هم و « بولاى صهيون اليسارى » (العمل المستقل) ، الاختطاف والعمليات المتحالفة — ولكنهم عارضوا المشاركة المباشرة من أى نوع مع الشرطة البريطانية والمخابرات البريطانية • وأبدى بن جوريون رئيس حزب ماباى فكرة تستوجب الاهتمام فى هذا الشأن فى مؤتمر الهيستادروت (١) ، الذى دعى عمدا لغرض اعلان الجهاد ضدنا • أوضح بن جوريون أن التعاون مع شرطة الاجانب كان خطأ فى الدياسبورا ، أما هنا فلا يوجد أى سبب يمنع « البيشوف » من قبول مساعدة الشرطة فى « القضية المشتركة » •

صاغ بن جوريون « مشروعه ذا النقاط الأربع لتصفية الارهاب » وفى حماس كان خليقا بقضية أفضل قال المستر بن جوريون : « لقد وضعت حتى الآن أربع نقاط أود أن أتناولها فى أسلوب سهل موجز :—

١ — الطرد من العمل :

•• أى شخص مرتبط بأفراد العصابات ، وأى شخص يؤيدهم — ولا يقتصر ذلك على أولئك الذين يستخدمون المسدسات أو يقذفون

(١) الهيستادروت وهو اتحاد الصناعة فى أرض اسرائيل ، أقوى نسبيا من اتحاد الصناعات فى بريطانيا العظمى • ومع أنه من ناحية المفهوم الانتخابى يقال ان حزب ماباى يسيطر على الهيستادروت ، الا أن الأقرب الى الحقيقة هو ان يقال أن الهيستادروت هو الذى يسيطر على حزب ماباى •

القنابل وحـــدهم ، وانما يتناول كذلك أى شخص ينشر مطبـوعاتهم أو يلصق اعلاناتهم ـ يجب أن يفصل من عمله فورا ، سـواء كان يعمل فى مكتب أو مصنع أو فى بستان ، ويجب أن يطرد كذلك من مكتب العمل • وينطبق نفس الشيء على الطلبة فى المدارس الابتدائية أو فى المدارس الأخرى اذا قاموا بتوزيع مطبوعاتهم على الشباب . فلا يكتفى بضرورة أخذ المطبوعات المدنسة منهم وحرقها فقط ، بل يجب أيضا أن يطردوا من المدرسة » •

٢ ـ لا ماوى او ملجا :

« •• الخطوة الثانية هى ألا نعطيهم ماوى أو ملجأ • أنا أعرف اننا فى هذا المقام ضد واحدة من أنبل الغرائز وأجدرها بالثناء ـ غريزة انسانية ، ويهودية بصفة خاصة ـ ولكن اذا كنا لا نود أن نكون قساة على الشعب اليهودى الذى يكافح فى شرك الدمار فاننا لا نستطيع الآن ان نزعج أنفســنا بصنع المعــروف فى غير أهله • محظور تقديم المأوى أو الملجأ الى أولئك المجرمين الذين يعرضون مستقبلنا للخطر » •

٣ ـ لا خضوع للتهديدات :

« •• ثالثا ، لا خضوع لتهديداتهم • وقد بلغت هذه التهديدات الدرجة التى يطالب فيها الناس ، الذين لا تربطهم بالعصابات أية رابطة والذين يعارضــون ســلوكها الشرير بعــدم اتخاذ أى اجراء ضدها خشية التورط فى حرب أهلية » •

٤ ـ المشاركة فى العمل (مع البريطانيين) :

« •• وبالتالى فاننا نتعاون مع السلطات البريطانية الى الحد الذى تهتم به لسحق الارهاب • وانها لحماقة وانتحار اذا نحن امتنعنا ، بسبب مظالمنا من نظام الحكم القائم فى الاقليم ، فى مجالات أخرى ، عن قبول مساعدته وعن تقديم تلك المساعدة اليه فى المجالات التي يكون لنا فيها ، الى المدى الذى يهمنا ، مصلحة عامة • وبدون مساعدة السلطات ، وبدون أن تساعدنا السلطات ، فاننا لن ننجح فى القضاء على هذه البلية » •

« ان هــذه المطالب الأربعة هى أدنى ما يجب تنفيذه فى الوقت الحاضر ، ويجب ان نعبىء من اجلها كل رجل وكل امرأة وكل طالب وكل عامل فى مصنع وكل مدنى وكل قروى » •

كانت الفكرة التى أبداها بن جوريون ومنافسوه الاشتراكيون فى « هاشومير هاتسعير » ناجحة . استسلم الحاخام « فيشمان » والمستر « جرينباوم » لبعض الوقت ، ولكنهما بقيا فى معزل لوقت أطول . وسجل أعضاء « المجموعة ب » و « بوعلى صهيون اليسارى » تحفظهم من ناحية المبدأ على النقطة الرابعة من برنامج بن جوريون ، ولكنهم قبلوا تحقيقه . لقد نزل علينا « الموسم » بكامل قوته . عبىء آلاف من أعضاء الهاجاناه وتجمعوا فى المدن الكبيرة . قسم الاقليم الى مناطق للعمليات . عين ضباط للاتصال مع الشرطة البريطانية . غطى « اقتفاء الأثر المنتظم » كل شارع وكل زقاق .

نفذت أولى عمليات الطرد من المدارس ، وفصل العمال المشتبه فيهم من أعمالهم . وفى أعقاب الطرد الذى قصد به تخويف وتجويع الآباء والأبنـاء جاء الاختطاف وتسليم السجناء الى البريطانيين وجاء كل يوم ومعه محموله من أنباء الشؤم . خطف الأعضاء الصغار ، وحبس الأعضاء المحنكون . كانت معاملة المخطوفين على أيدى الهاجاناه معاملة بشعة . ومع ان الوقت كان شتاء ، الا أن الضحايا دائما كان يتم التحفظ عليهم فى أقبية رطبة مظلمة ، وكان يقدم اليهم القليل من الطعام ، وكانت هناك حالات من سوء المعاملة على أيدى زملائهم اليهود الذين أسروهم .

مع عمليات الاختطاف عـــلى أيدى الهاجاناه بدأ تطبيق « النقطة الرابعة » : التشهير والتسليم للبريطانيين . وكان ذلك من دواعى سرور رجال الشرطة ، فقد صارت قوائم رجال الارجون التى كانوا يعانون المشقة والألم فى سبيل الحصول عليها تتوالى عليهم دون توقف . وتلك مادة تساوي وزنها ذهبا : أسماء وعناوين وأوصاف وواجبات ودرجات ـ كل ذلك كان يتدفق على ملفات « بيلز » و « كاتلج » .

صرح « ريتشارد كروسمان » عضو البرلمان العمالى أمـــام مجلس العموم البريطانى ، فيما بعد ، بأنه بناء على المعلومات التى وصلت اليه سلمت الوكالة اليهودية والهاجاناه الى السلطات البريطانية قائمة تضم أسماء ١٥٠٠ عضو من أعضاء الأرجون تسفاى ليومى . وأظن أن الرقم ١٥٠٠ هذا مبالغ فيه ـ ربما كانت المبالغة غير شديدة ، ولكنها مبالغة على أية حال . ومع هذا فلا نزاع فى أنه أثناء هذه الفترة قدمت أسماء مئات من ضباط ورجال أرجون تسفاى ليومى الى الشرطة البريطانية بمعرفة المؤسسات اليهودية الرسمية وضباط اتصالها .

(٣)

كيف كان علينا أن نتصرف ازاء هذا الموقف ؟ حقا ، لم نكن على علم، بعد ، باستخدام « الدرجة الثالثة » ، بل ان « الدرجة الأولى » كانت كافية لتستفزنا • عرفنا ان رجالنا كانوا يكابدون • كانت آلام أولئك المختطفين المبرحة تنتقل الينـا من الأعماق • الى متى كان علينـا أن نتحمل هذه القسوة ؟ •

ان الحياة فى المقاومة السرية تفرض الخلوة ، والخلوة تتيح التفكير العميق ، وفى مثل هذه الظروف تستطيع أن تتبصر الأمور ، لا كما تبدو فى النظرة العميقة الانتقالية ، بل – على حد تعبيرات المحبين – كما تبدو فى منظرها الأبدى • لقد كنا فى حاجة الى مثل هذا المنظار فى تلك الأيام، أيام الابتلاء القاسى ، فيصبح القبو العميق فى بعض الأحوال برجا شاهقا للمراقبة • ولولا الخلوة والواقعية اللتان كنا قادرين على استحضارهما ، ولولا مداولاتنا فى ذلك الوقت ، لما استطاع احد أن يعلم أية مجازر ، يقتل فيها الأخ اخاه ، كانت خليقة بأن تنشب بين يهود اسرائيل ، وكان ذلك طبيعيـا أن يرضى حكومة الانتداب • واذ كان الأمر كذلك فلسوف يضحكون ، ولولا « برج المراقبة فى القبو » ، الذى استطعنا ان نرى منه ان الصباح يأتى كما يأتى الليل ، لضحكوا أخيرا •

كان فى استطاعتنا ، بالطبع ، أن نختار حلا من بين عدة حلول بديلة كان أبسطها قبول الانذار النهائى الذى قدمه زعماء الوكالة اليهودية والاستسلام لهم • هناك نوعان من الاستسلام ، تماما كما يوجد نوعان من الحرب ، حرب عدوانية غير عادلة تجلب العار على أولئك الذين يشنونها وحرب تحرير عادلة تشرف أولئك الذين يقومون بها • كلتا الحربين تصاحبها اراقة الدماء والمعاناة ، الا أن اختلاف المأرب هو الذى يجعل احداهما كافرة ويجعل ثانيتهما مقدســـة • وينطبق نفس الشىء على الاستسلام ، فالاستسلام السياسى والروحى الذى أتى بعد يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩٤٦ (١) جلب العار لأولئك الذين عقدوه تحت الشروط المتفق عليها وقتئذ ، أما استسلام آخر المدافعين (الهاجاناه وأرجون) فى مدينة القدس القديمة سنة ١٩٤٨ فلم يكن يحمل عارا • هناك ، بطبيعة الحال ،

---

(١) أثناء مساهمة الهاجاناه القصيرة الأجل فى التمرد ، انقضت الحكومة البريطانية على عدد من زعماء وموظفى الوكالة اليهودية وألقت بهم فى معسكر اعتقال اللطرون • لذا ... حوريون الى باريس ، الا أنه ... وسيلة لاقامة سلام وقتى مع الحكومة البريطانية ، وترتب على هذا أن انتهى تعاون الهاجاناه فى التمرد •

حقيقة مرة فى العبارة اللاتينية « الويل للمهزوم » ، كما توجد هناك ، تحت ظروف معينة ، حقيقة ساخرة على حد سواء فى العبارة المضادة « الويل للمنتصر » • ان الحياة سلسلة ممتدة من التمرد والاستسلام اللذين أحيانا ما يكونان متشابكين بحيث لا يستطيع المرء أن يميز بينهما • يستسلم الانسان « لمعتقداته » ويستسلم الفرد لقوانين المجتمع والدولة ، ودائما ما يتسبب هذا الاستسلام فى « التمرد » ، وانما هما ذلكما الفعل ورد الفعل اللذان يحددان طعم الحياة •

لقد رفضنا أن نستسلم لاملاء المؤسسات ، ولم يكن الرفض راجعا الى أية اعتبارات زائفة أو الى الهيبة ، بل لم يكن مبعثه الاحترام الذاتى الصادق • ولو أننا كنا قد استسلمنا لما كان ينبغى لنا أن نشعر بأى خجل • لقد رفعنا راية التمـــرد ، واصطدمنا بالباقى ، وضحينا • لم ندخر أنفسنا وحريتنا الشخصية وأرواحنا • فاذا ما قامت قوة داخلية أقوى منا عددا وعدة ، تهدد بتدميرنا ، فأين الخجل فى الاستسلام ؟ ان المنتصرين هم الخليقون يقينا بأن يخجلوا !

لكننا تناولنا الموقف بأسلوب مختلف اختلافا تاما • لقد محصناه من وجهة نظر اليهودية العالمية بأسرها • ان ابادة اليهود فى أوروبا كانت بالغة منتهاها ، وأبواب الأرض المقدسة كانت موصدة فى وجه من ينشد ملجأ ، فأين ، اذن ، كان التغيير السياسى الذى يبرر ايقاف كفاحنا ؟ لو كان لنا أن نستكين للخوف والفزع ، اذن لانتهى التمرد كعامل سياسى حينئذ • « سوف لا يكون هناك ما نهتم من أجله » — على حـــد تعبير « وينكين » • لو أطاعت الوكالة اليهـودية البريطـانيين ، ولو أطاعت أرجون الوكالة ، اذن لكان من المحتمل أن يستمر حكم المندوب السامى البريطانى الى الأبد •

ولم يكن المضمون والمعنى الداخلى للمسألة كلها أقل أهمية وحسما ، فاننى كنت قد أخبرت « جولومب » بالفعل أننا سوف نكون على أهبة الاستعداد فى أية لحظة لقبول أوامر بن جوريون اذا ما تولى قيادتنا فى الكفاح من أجل التحرر الوطنى ، وكان أن أضفت حينئذ بعض عبارات صادرة من القلب • قلت : « لو ان يابوتنسكى كان حيا لطالبنا بأن يتولى قيادتنا ، أما وقد مات يابوتنسكى فلا أهمية فى نظرنا لمن يقود الشعب بشرط ان يقودهم فى حرب التحرر الوطنى • وما كان لنا أن ننفذ الأوامر بانعقاد جلسة لبن جوريون فى القدس ، مما يترتب عليه الاعتـــراف بالورقة البيضـــاء ، ولكن يسرنا أن تنفذ التعليمات لعقـــد جلسة

لبن جوريون ، ولتكن في داجانيا (١) ، تطالب بالتمرد ضد نظام حكم الباغى » • كان هذا التصريح موضوع تعليق تهكمي في الوكالة اليهوديه كان يهمس موظف الوكالة الى موظف آخر بالقول : « ان هؤلاء المنشقين المضحكين يريدون بن جوريون أن يذهب الى داجانيا ويتلهى بالحرب » • الا ان هـذه الأضحوكة لم تصمد للاختبـار طويلا ، فلم تمض سـنة واحدة حتى بدأ المستر بن جوريون « يتلهى بالحرب » مع البريطانيين ، وقبلنا تعليماته ، ومع هذا فانه لم يذهب الى داجانيا ولكنه ذهب الى باريس •

كان حتما أن يبت في المسألة بحسب ما تستحق • لم نستطع أن نكون غير أمناء مع أنفسنا أو مع شباب أمتنا • كيف نبرر ايقاف حربنا؟ هل فتحت الأبواب للعائدين الى الوطن على حين فجاة ؟ هل وعدنا بأن اخواننا سوف ينقذون من الابادة ؟ لم يكن هناك ، بالطبع ، أى مبرر من مثل ذلك • والحق كل الحق ان الموقف السياسى كان يتطلب زيادة الكفاح لا ايقافه • ان الاستسلام سيعرضنا للخجل المزدوج ، خجل التجاوز عن الابادة في أوروبا ، وخجل الاستعباد في وطننا • ولو أننا تصرفنا هكذا ، اذن لتحلل التمرد الروحي — أبو التمرد السياسى والتمرد العسكرى — ولانتثر في الهواء • كلا ، ما كان لنا أن نقبل انذار الوكالة النهائى •

كان السبب الثانى لرفضنا الانذار النهائى مرتبطا برفاقنا فى التمرد ، جبهة تحرير اسرائيل (جماعة شتيرن) •

لقد اغاظنا بنهم انهم لم يلمحوا لنا عن مهمة القاهرة التى قام بها « بت تسورى » و « حكيم » ، الشابان اللذان أبديا شجاعة نادرة أمام المحكمة المصرية ، وذهبا الى المشنقة بلا خوف أو وجل • وبينما لم يكن اغتيال « اللورد موين » ، أحد واضعى السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط البارزين ، هو سبب موجة الاضطهاد الداخلى ، فانه هو الذى أعطى الاشارة ببدء هذه الموجة • فزعت الزعامة الرسمية — والخوف يبدد التعقل — وأفزعت حملة الهمس ، المنظمة وغير المنظمة ، الناس من خطط المذبحة العامة لليهود فى فلسطين انتقاما لموت الوزير ، ثار جو من الخوف والرعب فى الاقليم — ذلك الجو الذى ينبغى أن نذكر أنه كان لا يزال

(١) « داجانيا » واحدة من أقدم وأجمل المستعمرات الجماعية فى اسرائيل ، تقع فى الجليل جنوبى بحيرة « طبرية » ، وقد دفن فى مقابرها على شـاطىء نهر الأردن الكثير من الرواد الصهيونيين ، بما فيهم الاشتراكي (التولستوى) « آي • دي • جوردون » الذى أسس المستعمرة ، و « ال • جر • جرينبرج » زميل « هرتزل » فى الحركة الصهيونية •

فى معزل عن العالم عامة بسبب ظروف الحرب . فى مثل هذا الجو كان من السهل أن يدان أولئك الذين كانوا يحاولون ـ كما قيل ـ أن « ينزلوا كارثة بالأمة » . وكرفاق فى التمرد وشركاء فى الخطر ، كان ينبغى أن يخطرنا رؤساء جبهة تحرير اسرائيل بهذا الذى كان يجرى ، الا أنهم رضوا لنا بأن نؤخذ على غرة . لقد حز ذلك فى صدورنا ، ومع هذا فقد عقدنا العزم على ألا نهجر جبهة تحرير اسرائيل فى ساعة الضيق . كان هذا سببا من سببين قاطعين لرفضنا أن نستسلم ، وسرعان ما أصبح واضحا أن اهتمامنا بجبهة تحرير اسرائيل لم يكن له ما يبرره . كان رجالنا يدهشون كلما رأوا أعضاء الجبهة العاملين يمشون فى شوارع تل أبيب دون مبالاة . وقد أمكن حل ذلك اللغز فيما بعد عندما شكلت حركة المقاومة المتحدة ، فقد أخبرت حينئذ بأن جبهة تحرير اسرائيل وعدت « جولومب » فى نوفمبر سنة ١٩٤٤ بايقاف عملياتها ضد البريطانيين ، وبالتالى لم تتعرض لها الهاجاناه ابان تلك الفترة . لقد وجهت شراسة « الموسم » جميعها ضد أعضاء الأرجون وحدهم .

كان هناك طريق ثان للعمل مفتوح أمامنا : كان فى مقدورنا أن نقبل الانذار مع تحفظات ذهنية ، أو ـ بعبارة أوضح ـ مع التصميم على الاخلال بوعدنا ، وكنا نستطيع أن نتخذ طريق التريث حتى تمر العاصفة . ان مثل هذه الحالات ليست أمرا غير مألوف فى تاريخ التمرد ، الا أن من ميزات المبدأ الأخلاقى الذى كانت أرجون تسترشد به فى كفاحها ان هذه الفكرة لم تطرأ على بال أى عضو فى اجتماع القيادة الحاسم ، حيث محصنا مسلكنا ازاء الجهاد تمحيصا .

كان الاحتمال الثالث بسيطا كذلك : نضرب ضربة مضادة . لا سبيل الى انكار أنه كان بيننا كثير ممن كانوا يلحون فى انتهاج هذه السياسة ، وانهم أدلوا بالحجج القانونية والأخلاقية والعملية . ان للمقاومة المحاربة قوانينها ، وأحد هذه القوانين هو ان النمام يجب أن يدفع حياته ثمنا لوشايته . وقد جادل الرفاق فتساءلوا : هل كان من الحكمة اننا ، نحن الذين كنا على استعداد لأن نبذل أرواحنا من أجل شعبنا ، نخضع للاضطهاد من ذوى قربانا دون أية محاولة للثأر من أولئك الذين يضطهدوننا ؟ هل أصبحنا من أتباع « تولستوى » فجأة ؟

زد على ذلك انه اذا اكتشف المهاجمون أنه ليس هناك أى ثأر فانهم سوف يصبحون أكثر قحة وجرأة .

ان من الخطأ أن نفترض أن فتياننا كانوا يظنون أن شباب الهاجاناه

كانوا يفتقرون الى الشجاعة . بل – على العكس – ان فتيان « الصابرا »(١) فى صفوفنا كانوا يعرفون نظراءهم « صابرا » الهاجاناه . لقد كانت مجادلتهم العملية لا تشير الى الرتب الأخرى ، أى الى الجنود وضباط الصف ، ولكنها كانت تشير الى القادة .

كانت هذه المجادلات ، وكلها لها وزنها ، تتكرر كلما سلمت ضحية جديدة للبريطانيين ، ومع هذا رفضناها جميعا . وفى اجتماع القيادة الذى أشرت اليه ، لم يقع اختيارنا على أى من الاحتمالات البديلة « البسيطة » . قررنا أن نرسم خطة لم يسبق أن اختارتها أية مقاومة من قبل فى ظروف مشابهة . قررنا الا نوقف كفاحنا ضد الحكم البريطانى أو نعد بايقافه ، الا أننا ، فى نفس الوقت ، امتنعنا – أفرادا ومنظمة – عن الانتقام لخطف رجالنا والتشهير بهم وتسليمهم للبريطانيين . ومن الغريب – ونحن نتكلم عن محاربى أرجون – ان قرار عدم الأخذ بالثأر ، الذى لم يكن متمشيا مع روح المقاومة الطبيعية ، كان محترما من الجميع ، ملزما لهم . كان محترما ، من غير ما انتهاك واحد ، حتى النهاية ، أى حتى ايقاف الاضطهاد وبدء فترة الكفاح المشترك الذى اتفقت عليه كل من الهاجاناه وأرجون وجبهة تحرير اسرائيل .

يجب الاعتراف بأن أولئك الذين اقترحوا هذه السياسة « المعقدة » لم يقدموا أية مجادلات منطقية ، بل انهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك . لقد استحثهم الايمان ، ايمان عميق ، بأن ذلك اليوم لن يكون بعيدا ، يوم تهب المعسكرات المسلحة فى اسرائيل وتحارب كتفا الى كتف ضد الباغى . بهذا الأمل ، وهذا الايمان ، قلنا ان تحمل المعاناة الشديدة له وزنه وقيمته . لم نجرؤ على زعزعة ايماننا بأن نشق هاوية مرذولة بين أولئك الذين كانوا لا يزالون أخوة ، بل ربما يصبحون يوما رفاق سلاح . لقد رأينا شعبنا فى أوروبا فى مشاهد الموت التى لم تتوقف ، رأينا الأحياء اليهودية تندلع فيها النيران ، رأينا الباغى يتآمر ضدنا جميعا ، ومن أعماق التاريخ سمعنا صدى صوت الحروب الأخرى ، الحروب الضروس اللعينة فى بيت المقدس ، التى كانت على وشك أن تزول منذ تسعة عشر قرنا من الزمان . ان « قبو » **المقاومة السرية هو « برج » الملاحظة الشاهق** . لم يكن المنطق هو القائل ، وانما كانت الغريزة هى التى قالت بلهجة

---

(١) « صابرا » تعنى الصبار أو التين الشوكى ، وهو اسم مستعار لليهود المولودين فى فلسطين .

الآمر : « كلا ، لا حرب أهلية ، لا حرب أهلية مهما كان الثمن ! » • ومن يدرى ، لعل الغريزة أن تكون هى قلب المنطق !

استمر الموقف المفزع شهورا كثيرة • قلنا : « لن تكون هناك حروب أهلية » • الا أن حربا أهلية ، حربا من جانب واحد ، ثارت فعلا فى جميع أنحاء الاقليم •

عندما استرجع ذكرى تلك الأيام يتفجر فى نفسى كل الحب الخليق بالقلب البشرى لأولئك الفتية المحاربين فى المقاومة السرية الذين كانوا لا يخافون ولا ينكصون على أعقابهم ، بل كانت تدفعهم روح قتالية عالية• ذهبوا الى معسكرات الاعتقال • وألقى بهم فى ظلمات الأقبية • حرموا الطعام ، وضربوا ، وأوذوا ، الا أن واحدا منهم لم يحنث قط بالوعد المقدس : ألا يثأر من أولئك الذين يعذبونه • فقــد رأيتهم فى آلامهم المبرحة فكنت أتعذب كما كانوا يتعذبون ، الا أننى رأيتهم فى ساعات عظمتهم وكنت بهم جد فخور • الضبط والربط وحسن الانتظام ؟ ما هو الضبط والربط العسكرى ، الضبط والربط فى العمل ، مقارنا مع هذا الضبط والربط فى غير العمل عندما تنادى نفسك من الأعماق بالثأر والعقاب ؟ ان الأوامر الانسانية كانت لابد وأن تصبح عبثا فى هذا المقام• لقد صدرت الأوامر من جهة ما من أعماق التاريخ اليهودى ، فأطيعت • أنقذنا من كارثة الكوارث • وقبل أن تنقضى أشهر كثيرة احتضن التمرد الشعب بأسره ، وذهب المعتدون والمعتدى عليهم بالأمس من الاخوة الى المعركة سويا ، الى المعركة المشتركة من أجل شعبنا ومن أجل بلدنا •

الفصل الحادى عشر

قصة السفينة التالينا

(١)

اجتناب الحرب الأهلية الدامية بأى ثمن ! راعينا هذا المبدأ ، الذى خفف أثناء آلام « الموسم » ـ راعيناه بعد سنين عدة فى اختيـــار الدم والنار ، اختبار « ألتالينا » •

لم يعد سرا أن سفينة الاسلحة الشهيرة هذه كانت تعمـــل أداة لمؤامرة مشئومة عندما وقف بن جوريون على منبر برلمان اسرائيل الأول يفاخر فى تواضع بأن « لى دورا فى هذه السفينة التى تقع على مقربة من هنا » • قاطعه عضو من حزب ماباى بالسؤال : « لكن من ذا الذى حثك لكى تعمل هذا ؟ » •

لاذ بن جوريون بالصمت ، وربما كان صمته أفصح من أية عبارة • كان الهجوم على « ألتالينا » قد أعد فى سرية وتصميم • أتت النيران على السفينة • تصاعد الدخان منها كثيفا ، ولفها فى غطاء سميك • لا نستطيع اخماد الحريق ، ألا أننا سوف نعمل على تبديد ستار الدخان •

ان الحقيقة المفجعة هى أن « ألتالينا » جاء دورها متأخرا • فلو أن هذه السفينة كانت قد وصلت الى شواطىء أرض اسرائيل فور تصفية الحكم البريطانى فى منتصف مايو سنة ١٩٤٨ ، اذن لتغيرت أحـوال الأمة كلها تغييرا جذريا ، فقد كنا حينئذ نستطيع أن نضع تحت تصرف الحكومة والجيش ثمانى كتائب أو عشرا مجهزة بالسلاح والذخيرة ، بدلا من مهماتها المعتادة ـ مع استعدادها غير المحدود للتضحية بالنفس ـ

وبنادقها القصيرة المدى من طراز « ستن » · كنا حينئذ نستطيع أن نستولى على « الرملة » فى أول هجوم لنا ، فان هذه المدينة العربية ، التى كانت تحاصرها أرجون بناء على طلب الهاجاناه لكى تخفف ضغط القوات العربيـة على جبهة اللطرون ، كانت على وشك السقوط عندما اضطررنا للانسحاب · كانت الروح المعنوية للسكان العرب قد انهارت من جراء ضرب المدينة بمدافعنا الهاون عيار ٣ بوصة ، وكان فتياننا يهاجمون المسالك المؤدية الى المدينة بعد أن استولوا فى المراحل الأولى على أجزاء كبيرة من المدينة ، الا أن الافتقار الى الاسلحة والذخائر كان أمرا حيويا · لقد كان فتياننا فى حاجة الى بضع مئات من البنادق وقليل من الذخيرة ، الا أنه تعذر علينا ، كما تعذر على قيادة الهاجاناه ، تدبير هذه الكميـة على جبهة الرملة » ، تعذر تدبير ثلاثمائة بندقية أو ٦٪ من عدد البنادق التى كانت تحملها « ألتالينا » ·

لو اننـا كنا قد تمكنا من الاسـتيلاء على الرملة فى ذلك الوقت ـ وقد كان ذلك متوقفا فقط على هذا العدد من البنادق الاضـافية ـ لاستطاعت القوات اليهـودية المتحدة أن تحطم الجبهـة العربية فى « اللطرون » ، ولتغير موقفنا الاستراتيجى تغيرا جوهريا تمتد آثاره الى القدس ، الى المدينة القديمة · وبسقوط الرملة كان حتما أن يتقرر مصير « اللد » ، وهكذا كان يتيسر لنا تحطيم العدو على الجبهة الوسطى فى أولى مراحل غزوه بدلا من تحقيق ذلك بعد « الهدنة الأولى » ، ولاستطاعت القوات اليهودية عندئذ أن تقوم بهجوم واسع النطاق على « المثلث » فى المرحلة الثانية · وبالاختصار ، كان ينبغى أن يتم لنا الاستيلاء عـلى الضفة الغربية لنهر الأردن ، على الأقل ·

قضى القدر بغير ذلك · لم تكن السفينة « التالينا » ـ بالتسعمائة جندى والخمسة الآلاف بندقية ، والأربعمائة مليون طلقة من الذخيرة ، والثلاثمائة رشاش برن ، والخمس السـيارات المدرعة ذات الجنزير ، والآلاف من القنابل ، وبقية مهماتها الحربية ـ لم تكن مستعدة للابحار فى منتصف شهر مايو ، ولكنها أعدت لذلك فى الأسبوع الثانى من شهر يونيو · تنقينا ، من راديو لندن ، أول نبأ عن رحيلها من احدى الموانىء الفرنسية · فزعت لهذا النبأ ، ففى هذا اليوم بالذات بدأت الهدنة · أوضحت لرفاقى أنه مهما كانت وجهة نظرنا فيما يتعلق بالهدنة فانه يجب علينـا أن نتحمل مسئولية العواقب المترتبة على خرقها · كانت القوات اليهودية جميعها منهكة جدا ، فقد كان تسلح العدو متفوقا ، ولم

تكن هذه الحرب حربا وطنية وسياسية سرية بعد · انها حرب مكشوفة فى ميدان المعركة ، وقد تكون عواقب الهزيمة فيها مدمرة لشعبنا . وعلى هذا قررنا بادىء الأمر أن نوقف السفينة · لم نصدق ، بالطبع تقرير هيئة الاذاعة البريطانية بصفة مطلقة ، فلعل السفينة لم تكن قد أبحرت بعد ، وانما أرادت الحكومة البريطانية أن تنبه مراقبى المنظمة الدولية · أرسلت فى ذلك اليوم برقية الى مقر رئاستنا فى باريس : « لا ترسلوا السفينة · انتظروا تعليمات أخرى » · أجاب « صمويل كاتس » الذى كان منوطا بالعمل فى باريس فى ذلك الوقت بأن برقيتى وصلت فى اليوم التالى لرحيل السفينة وأنه لم يعد على اتصال بها ، وأشار علينا بالاتصال بالسفينة مباشرة ·

كانت أول برقية أرسلناها الى السفينة « ألتالينا » أن « ابتعدوا عن الشاطىء وانتظروا تعليماتنا ! » · ولم نكن ندرى ما اذا كانت السفينة قد التقطت البرقية أو لم تلتقطها ، الا أننا علمنا فيما بعد أنه بينما كانت السفينة لا تزال بعيدة عن الشاطىء كانت أجهزة اللاسلكى بها تعمل فى اتجاه واحد ، أى أنها التقطت برقيتنا ولكنها لم تستطع الرد عليها · وعلى اثر ارسال هذه البرقية اتصلنا ليلا بادارة أمن اسرائيل وأعطيناها معلومات مفصلة عن السفينة وحمولتها من الذخيرة ، وقلنا لممثلى وزارة الأمن ان الأمر متروك لهم حينئذ أن يقرروا ما اذا كانوا يسمحون للسفينة بالمجىء أو ما اذا كانوا يرون تحويل خط سيرها · وكانت الدعاية الرسمية المختفية وراء ستار الدخان تزعم بأن ارجون أحضرت السفينة « ألتالينا » لكى تعد تمردا مسلحا ضد حكومة اسرائيل ·

كان قرار الحكومة ــ أو وزارة الأمن ــ هو أن تدخل سفينة الاسلحة وبأسرع ما يمكن · وقد نقل لى هذا القرار « اسرائيل جاليلى » فى اليوم التالى لمحادثتنا ليلا فى مقر رئاسة ارجون · حل الفرح محل القلق وعمنا السرور جميعا ، فقد رفع عبء المسئولية من فوق كاهلنا · ومع هذا ، فان الحكومة تعرف الموقف وتعرف متطلباته · والجلى الواضح أنه لم يكن هناك مجال للاختيار ، فقد كانت تعوزهم الاسلحة ، وبخاصة البنادق ــ نعم ، البنادق العادية السلاح الاساسى فى معارك أرض اسرائيل · وكان هناك نقص شديد فى الذخائر البريطانية الصنع من عيار ٣٠٣و٠ ، مما أدى الى توقف جانب كبير من أسلحة الهاجاناه · وكل هذه الاحتياجات العاجلة سوف تصل على السفينة « ألتالينا » ·

أما عن حظر المنظمة الدولية فقد كنا قادرين على معالجته بطريقة ما،

وعلى أيه حال فالحكومه تعرف • وفى هذه الظروف لم تكن المسألة مسأله أخلاقيات ، فما من أحد يساعد شعبنا الذى كان عرضة للهجوم ، وكان الموقف موقف حياة أو موت • وحمدنا الله اذ كانت الحكومة تفهم الموقف فأقامت وزنا لما ينبغى أن يقام له وزن . وأهملت ما كان محظورا ان يؤخذ فى الاعتبار تحت هذه الظروف • وعلى الفور أرسلت رسالة رمزية الى « التالينا » حيث كانت ، كما علمنا فيما بعد ، داعية فرح عظيم • وبدلا من « ابتعـــدوا عن الشاطىء » ، كان الأمر حينئذ « الى الأمام بأقصى سرعة » •

ينبغى ان تؤكد هذه الحقيقة من جديد ـ ذلك لانه ابتداء من هذه النقطة فى هذا التاريخ المحزن انبعثت سحابة الدخان الأسود • نشرت الحكومة المحلية فيما بعد بيانا أنه بينما كانت ارجون تحاول خرق أوامر هدنة منظمة الامم المتحدة وجدت الحكومة نفسها مضطرة ، التزاما بمبادىء القانون الدولى ، لأن تدمر الاســلحة التى أحضرت الى أرض اسرائيل مخالفة للهدنة •

لهذا يجب أن أكرر القول بأن الحكومة المحلية كانت تعلم ابحـار سفينة الاسلحة تجاه شواطئنا مخالفة للتعليمات التى كانت قد وصلت متأخرة جدا ، وأن الحكومة هى التى قررت استقدام السفينة أثنـاء فترة الهدنة ، والا لما جاءت •

بعد أن أصدرت الحكومة الأمر بدخول السفينة دون ما ابطاء ، عقد مؤتمر بين وزارة الأمن وهيئتنا الادارية ، خاص بتفريغ شحنة الاسلحة وتوزيعها • كانت ارجون تسفاى ليومى حينئذ قوة عسكرية علنية معترفا بها من المؤسسات الرسمية • قبل اعلان قيام الدولة كان المجلس الأعلى للمنظمة الصهيونية قد أكد اتفاقية التعاون العسكرى بيننا وبين الهاجاناه، وعند اعلان الاستقلال يوم ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ لم يشكل الجيش الموحد على الفور ، ظلت الهاجاناه قائمة ، كما ظلت ارجون قائمة كذلك وكان أعضاؤها فى الجبهات المختلفة وفى بعض القطاعات لا يزالون يحاربون جنبا الى جنب مع رجال الهاجاناه • فى ذلك الوقت وجه الى الصحفى المعروف الدكتور « عزريل كارليباخ » خطابا مفتوحا مفعما بالحماس يطالب بأننا وقد هزمنا البريطانيين عندئذ ينبغى أن نعمل على انشاء جيش اسرائيل الموحد • أجبت عن طريق اذاعتنا بأننا دعونا علنا منذ عدة أيام الى انشاء جيش موحد ليحل محل المنظمات العسكرية . الا أن الأمر كان يتوقف على الحكومة ولا يتوقف علينا •

عندما أعلن تشكيل الجيش الموحد بقينا كمنظمة عسكرية معترف بها الى أن تم اندماج قواتنا فى الجيش • وفى أوامر عمليات الخطوط الأمامية وقادة اللواءات كانت وحدات ارجون تظهر كجزء لا يتجزأ من قوات الجيش • وفى يافا المحررة التى كانت قد قسمت بناء على طلبنا الى قطاعين، كانت حامية أحد القطاعين من جنود ارجون • وفى يوم من الأيام زار المستر دافيد بن جوريون رئيس الوزراء يافا ، حيث فتش وحدات ارجون التى أدت له التحية العسكرية • وقد أخبرت بأن المستر بن جوريون ، وقد تأثر من تلك الواقعة ، قال لمرافقه : « ما كنت أظن أن لديهم فتية مثل هؤلاء ! » •

أرسل رئيس الوزراء بعد ذلك الخطاب التالى الى الرقيب « حاييم » قائد قواتنا التى كانت تحتل يافا :

دولة اسرائيل

الحكومة المحلية

٢٢ مايو ١٩٤٨

الى قائد جنود ارجون فى يافا : لحين صدور تعليمات أخرى فانت ورجالك تحت أوامر الحاكم العسكرى لمنطقة يافا ، آى • تشيزيك •

(توقيع (دافيد بن جوريون)

رئيس الحكومة المحلية ووزير الأمن

ألمحنا الى ياور المستر بن جوريون أنه من غير المالوف أن يتراسل رئيس وزراء مباشرة مع ضابط محلى • لقد سرنا الاعتراف الرسمى بجنود ارجون تسفاى ليومى فى يافا ، الا أننا — من قبيل الاهتمام بنمو دولتنا الحساس — نود أن نرفع مكانة رئيس الوزراء •

واظبنا على مناقشة خلق جيش موحد مع معاونيه وزملائه ، وتفاصيل هذه المناقشة واردة فى مجال آخر • ويكفى أن نذكر فى هذا المقام اننا وافقنا على أن تزود ارجون الجيش بكتائب كاملة بضباطها ، الا أنه لما كان تنظيم الكتائب يتطلب وقتا فقد اتفق فيما بيننا على تشكيل هيئة مؤقتة من ارجون تسفاى ليومى ، معتمدة من رئيس الوزراء ووزير الأمن • وما أن حان موعد وصول السفينة « ألتالينا » حتى كنا قد نظمنا

وادمجنا عده كتائب فى الجيش • وكانت هناك عدة كتائب أخرى لا تزال فى دور التنظيم ، وكان رجالها لا يزالون منتشرين فى وحدات صغيرة على الجهات المختلفة • هكذا كانت هيئتنا هيئة رسمية معترفا بها عندما دعيت لمناقشة تفريغ شحنة « التالينا » من الأسلحة مع ممثلى وزارة الامن • استقر رأينـا على النقطـة من الشـاطىء التى ينبغى أن ترسـو السفينة عنـدها ، وقد استدعى ذلك تغيير التعليمات التى سبق أن أعطيت الى قبطان « التالينا » فى أبريل بينما كانت السفينة تتردد لبضعة أشهر بين الموانىء الأوروبية وشاطىء أفريقيا الشمالى فى انتظار رجالها وأسلحتها • كانت اللجنة العبرية للتحرر الوطنى والجامعة الأمريكية لفلسطين الحرة هما اللتين تمتلكان السفينة ، وكنا قد صممنا على استقدامها ـ بالرجال أو الاسلحة أو بهما معا ـ بينما كانت القوات البريطانيـــة لا تزال فى الحكم •

عقدنا العزم وقتئذ على أن ترسو السفينة تجاه تل أبيب لأن القوات البريطانية فى ذلك الوقت ، نهاية عام ١٩٤٧ ، كانت قد غادرت منطقة تل أبيب ـ بتاح تكفاه ، باعتبار أن ذلك يشكل المرحلة الاولى من مراحل الانسحاب ، وكانت النقطة التى حددناها للنزول الى البر هى شـــارع فريشمان • ويجب أن نتذكر هذا التفصيل جيدا اذا كان لستار دخان التحريف الذى أعقب ذلك أن يتبدد •

اقترح خبير وزارة الأمن ألا تدخل السفينة الى تل أبيب ، وأشار برسـوها فى « جيفات أولجا » أو فى « كفــار فيتكين » بالقرب من « ناتانيا » ، وبذا نتحاشى استرعاء انتباه مراقبى منظمة الأمم المتحدة • وافق خبراؤنا على ذلك ، فقد كانوا لا يعلقون اهمية على أية نقطـة من الشاطىء تصل اليها السفينة ، بل كان الشىء الجوهرى عندهم هـو تفريغ شحنة الأسلحة • لم نتخيل ، نحن الذين لا نشك فى أى شىء لأننا لم نتآمر على أى شىء ، أن هناك دوافع أخرى غير تلك التى تؤثر على تفريغ الشحنة ، ولذا أرسلت فى ذلك اليوم رسالة أخرى الى « التالينا » لتغيير خط السير والمضى الى « كفار فيتكين » •

تناولت المناقشة بعدئذ توزيع الاسلحة • اقترحنا ارسال الخمس الى القدس لوحدات ارجون تسفاى ليومى هناك ، على أن يوزع الباقى على وحـــدات الجيش الموحد بين الكتائب التى تتالف من رجـــال ارجون والكتائب الأخرى • كان اقتراحنا عادلا وكان له ما يبرره ، كما كانت هناك أسباب خطيرة توجبه •

(٢)

لكى نقدر قضية « ألتالينا » تقديرا كاملا . يجب أن نبين ، فى ايجاز ، الظروف العسكرية وقت وصولها وقبل وصولها مباشرة • ويفسر ذلك اقتراحاتنا لتوزيع الاسلحة التى كانت تحملها السفينة •

الفترة فترة انتقال • القدس ذات كيان منفصل ، لم تكن سيادتنا قد امتدت بعد ، الى عاصمتنا • أذعنت الزعامة الرسمية ، التى قبلت قرار التقسيم الذى أقرته الأمم المتحدة فى جملته ، لفرض نظام حكم دولى فى القدس • وكان المستر بن جوريون قد طلب فى اجتماع اللجنة التنفيذية للهستدروت (اتحاد الصناعات) أن يبذل قصارى الجهد لمنع حتى مجرد الحديث عن « غزو القدس » أو مد حدود الدولة ، وبالتالى لم يكن جيش اسرائيل متمركزا فى القدس حتى بعد تشكيله واضطلاعه بالعمل فى جهات أخرى • بقيت فى القدس الهاجاناه بقيادة القائد المحلى « دافيد شالتيل » ، وارجون تسفاى ليومى التى كانت تحارب متعاونة مع الهاجاناه ، وجبهة تحرير اسرائيل التى اضطلعت بالعمليات دون اتفاق رسمى مع الهاجاناه • الا أن القدس المهجورة المعاصرة المعرضـــة لوابل القنابل كانت تستصرخ طلبا للأسلحة ، وبخاصة بعد الكارثة التى وقعت فى « نبى دانيال » حيث كانت داخـــلة فى مرمى المدافع البريطانية ، فاستسلمت وحدة كبيرة من الهاجاناه للعرب ، وفقدت كمية كبيرة من الاسلحة اليهودية وقعت فى أيدى العدو •

لم يكن لدى رفاقنا أعضاء ارجون أيضا أية أسلحة للحرب المكشوفة وكانوا يستنجدون بنا : أسلحة ! أسـلحة ! استغثنا بمندوبينا فى الخارج : أسلحة ! الا أن مخابرات العـدو أو الخدمة السرية للعـدو وقفت فى طريقنا • كانت هناك تعقيدات ، واكتشفت عدة دفعات من الاسـلحة التى كان « يوئيل » قد أعدها لترسل الينا ، قبل أن تشحن على السفن • أرسلنا كمية من الاسلحة « المصنوعة محليا » الى القدس • لم يكن لدينا فى الواقع شىء نستطيع أن نستغنى عنه ، فلو أننا كنا قد بعثنا اليهم بجانب كبير من الرشاشات أو الذخيرة التى كنا قد استولينا عليها من القوات البريطانية ، اذن لعززناهم ولكن بدرجة غـــير كافيـــة ، ولما استطعنا ــ والأمر كذلك ــ الاستيلاء على يافا •

كان لدى جنودنا فى العاصمة كمية صغيرة من الاســلحة ولكنهم حققوا بها المعجزات ، وبخاصة عندما كان عليهم أن يضعوا معظم خططهم •

كان وضع خطط العمليات ضد نظام الحكم البريطانى مركزا فى أيدى القيادة العليـا ، اما فى الحرب مع العرب فقد كان علينا أن نطلق حرية التصرف للقادة المحليين فى يافا والقدس . كان هذا التغيير الحتمى ناتج الظروف الجديدة والمواصلات الممزقة والطرق التى لا يمكن اجتيازها .

حارب فتياننا معركة بطولية فى مدينة القدس القديمة . كانت الحامية هناك حامية صغيرة جدا ، أقل من مائة من ارجون وأقل من مائتين من الهاجاناه ، أسلحتهم هزيلة : قليل من الرشاشات ، وعدد من البنادق، وبنادق ستن ، وقليل جدا من الذخيرة . ومع هذا صمد المدافعون عن المدينة القديمة فى شجاعة مذهلة ضد قوات العرب « غير النظامية » . وضد الفيلق العربى النظامى الذى كان يحارب بقيادة ضباط بريطانيين تؤيده المدفعية الثقيلة والدبابات .

استمرت المعركة عدة اسابيع . كان هناك فى أول الأمر سوء تفاهم بين رجال الهاجاناه ورجالنا ، فقد حمل بث الكراهية ثماره حتى فى هذا المقام . كانت هناك تفرقة ضد فتياننا فى مسائل مقررات الطعام ، الا انه بمرور الزمن تحسنت العلاقات . عمل الخطر المشترك على تقارب القلوب بعضها من البعض . اتصل رجال الهاجاناه اتصالا وثيقا برجال ارجون فعرفوا انه ليس هناك أدنى شبه بينهم وبين الأوصـــاف التى صورتها لهم دعاية الكراهية . كانت هناك مشاورات مشتركة . وكانت هناك عمليات تحضيرية مشتركة . تعهد واحد من ضباطنا بتنظيم دراسة لتدريب الهاجاناه على وضع الألغام ، فقد كانت لها أهمية بالغة فى الدفاع عن الحى اليهودى ، وفى تأمين المواقع الدفاعية .

أفلحنا قبل يوم ١٤ مايو فى تهريب « جدعون » ، وهو طالب رياضيات بارع وواحد من احسن ضباطنا ، الى المدينة القديمة (كان هذا هو « جدعون الثالث » فقد كان لدينا عدد كبير من يسمون « جدعون ») . ومع « جدعون » الذى تولى قيادة رجالنا ، أمكن ادخال عدد من الضباط الآخرين والرجال فضلا عن بعض الاسلحة والمتفجرات . وفى يوم ١٤ مايو انقطع الاتصال بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة ، كانت كل منهما تحت الحصار .

أقام « جدعون » ورشة فى المدينة القديمة لعمل قنابل يدوية بدائية اثبتت أنها كانت عظيمة القيمة فى صد هجمات العدو . وعلى الرغم من الظروف الشاقة حاول « جدعون » أن يتحول من الدفاع الى الهجوم . فى

احدى المصادمات هاجم رجالنا موقعا استراتيجيا هاما واستولوا عليه ، كنيسة الأرمن التى كانت تسيطر على حى اليهـــود . عندئذ طلب قس الكنيسة اخلاء قواتنا من حرم الكنيسة ، ووعد بأن العرب لن يسمح لهم باستخدامها . أمر « جدعون » بسحب قواته من موقع حيوى للدفاع عن الحى اليهودى . فعل ذلك وهو كسير القلب ، اذ لم يحفظ الوعد الذى قطع بالنسبة للعرب ، فبعد ساعات قلائل من انسحاب رجالنا دخل العرب الى الكنيسة وفتحوا نيرانا فتاكة على المدافعين العبريين .

كان سكان الحى اليهودى المدنيون فى المدينة القديمة فى حالة يأس وبخاصة بعد الهجمات الشديدة . وقد استحثهم واحد من الحاخامات المحليين على الاستسلام . رفض طلبه من كل من ارجون والهاجاناه . ساء الموقف . ألح قطاع من السكان المدنيين يضم كثيرا من النساء والأطفال فى طلب وقف المعركة الميئوس منها . لم يتحسن الموقف بعد المعونة التى جىء بها للمدافعين عن المدينة القديمة عندما شقت « البالماخ » (١) طريقها اليهم . كانت الامدادات التى جىء بها تتكون من ثمانين عضوا من مشمار هاعام (الحرس الوطنى) لديهم فكرة ضئيلة عن كيفية استخدام الأسلحة. لم يساعدوا قطعا فى رفع الروح المعنوية . استمرت مدافع العدو تقصف الحى اليهودى من طريق جيركو أو أريحـا . ازداد عدد القتلى والجرحى زيادة مطردة . تعهد « جدعون » بأن يقاتل هو ورفاقه حتى آخر طلقة ، الا أن الموقف الباسل لم يدم طويلا تحت الظروف القائمة . لم يكن هناك طعام فى المدينة القديمة وكاد الماء أن يكون معدوما ، والذخيرة على وشك أن تنفذ . جرح قائد وحدات الهاجاناه ، كما جرح « جدعون » . استمر الصبية فى القتال . أظهر الصبية فى العاشرة والثانية عشرة من العمر مقدرة الأبناء اليهود فى ساعة الابتلاء ، كانوا يحملون الذخيرة من موقع الى موقع غير مبالين بنيران العدو . كان الموقع الذى ظل يقاوم حتى آخر لحظة هو موقع ارجون فى «نيسان بيك» ، الا أنه لم يكن هناك شىء ليقاتلوا به . قتل أغلب المدافعين أو جرحوا ، وكان الناجون من الموت منهكين . وهكذا سقطت مدينة داود ، المدينة القديمة ، فى أيدى العدو ، وانتابنا جميعا حزن عميق .

تجددت المحاولة لتحرير المدينة القديمة بعد الهدنة الأولى ، الا أنه لسبب ما (يزعم البعض أنه فى بعض الأوساط اليهودية السياسية تعتبر

---

(١) « البالماخ » هو القوة الضاربة الرئيسية فى قوات الهاجاناه .

المدينة القديمة بأماكنها المقدسة بمثابة صداع) ، وعلى الرغم من الضغط الملح من ضابط الارجون فى القدس ، تأجل الهجوم حتى آخر يوم قبل الهدنة الثانية • كان قبيل حلول الهدنة الثانية بساعات قلائل فقط أن صدرت الأوامر بالهجوم الى أربع سرايا من الهاجاناه وثلاث من الارجون وسرية واحدة من جبهة تحرير اسرائيل • كانت مجموعة ارجون تضم السرية التى كانت مشتبكة من فورها فى قتال عنيف للاستيلاء على « المالحة » جنوب شرقى القدس حيث فقدت ثمانية عشر رجلا من رجالها ، لكن ضجر رجالها قد تلاشى وكانما تلاشى بسحر ساحر عندما علموا أن هدفهم هو المدينة القديمة • خرجت هذه القوة بروح متوقدة حماسا ، الا أن هذه العمليات الأخرى قد انتهت بالحداد • لقد فشلت قوات الهاجاناه وقوات جبهة تحرير اسرائيل فى اختراق سور المدينة ، أما قوات ارجون فقد شقت طريقها وأقامت رأس جسر داخل الاسوار ، وهكذا فتحت الطريق للظفر • لكن ساعة الهدنة – الخامسة صباحا – كانت قد حانت ، وبينما كان رجالنا يقاتلون صدرت اليهم الأوامر بالانسحاب • انتهكت الهدنة بالطبع بمعرفة العدو فى عدد من الجبهات ، الا أننا فى القدس كان مطلوبا منا ان نراعى الهدنة بمنتهى الدقة • وتركت مدينة داود تنتظر تحريرها ، فلا أمن فى بقية القدس ما لم تتحرر ، وبدون أمن القدس لا يمكن أن يكون هناك أمن لدولة اسرائيل •

قبل اتمام حصار القدس فى مايو ، قام رجالنا – بالقليل من الاسلحة التى فى حوزتهم – بعدد من العمليات الهجومية الهامة • وفى القدس – كما كان فى أى مكان غيرها – كنا نحن البادئين فى التحول من الدفاع الى الهجوم ، وعلى بوابة يافا وبوابة دمشق اخترق جنودنا خطوط العدو عدة مرات وأوقعوا به خسائر جسيمة •

هوجمت القرية العربية « شعفات » ، التى كانت بمثابة قاعدة للهجمات الفتاكة على القوافل اليهودية ، هجوما عنيفا بوساطة وحدة اقتحام من ارجون ، وفى ٩ أبريل استولى رجالنا – بالاشتراك مع وحدة من جبهة تحرير اسرائيل – على قرية « دير ياسين » •

ونظرا لوقوع دير ياسين على ارتفاع الفى قدم فوق سطح البحر فانها كانت حلقة هامة فى سلسلة المواقع العربية التى تحيط بالقدس من الغرب ، وعن طريق دير ياسين كانت القوات العربية من « عين كريم » و « بيت لحم » تعبر الى جبهة « القسطل » حيث تهاجم القوافل اليهودية على

الطريق الوحيد من القدس الى الشاطىء . وبعد الاستيلاء على دير ياسين ــ أول قرية عربية تقع فى قبضة القوات اليهودية ــ أعلن قائد الهاجاناه فى القدس أن الاستيلاء عليها لم تكن له أية قيمة عسكرية ، بل أنه كان على نقيض الخطة العامة للدفاع عن القدس . كان علينا ، مع الأسف ، أن نفند ما قاله المستمر « شالتيل » . بمساعدة خطاب من المستر شالتيل ، ارسل الينا « رعنان » قائد ارجون في القدس الخطاب التالى بالراديو ، وكان قد تلقاه من قائد الهاجاناه المحلى :

« علمنا أنكم تعدون خطة للهجوم على دير ياسين ، وأود أن أشير الى أن الاستيلاء على دير ياسين والاحتفاظ بها مرحلة من مراحل خطتنا العامة ، لا مانع لدينا من قيامكم بالعملية ، على شرط أن تكونوا قادرين على الاحتفاظ بالقرية . اذا كنتم غير قادرين على أن تفعلوا ذلك فانى أحذركم من نسف القرية الذى سوف يترتب عليه أن يهجرها سكانها ونحتل خرائبها ومنازلها المهجورة قوات أجنبية . ان هذا الموقف سوف يزيد من مصاعبنا فى الكفاح العام ، وان غزوا ثانيا للمكان سيكلفنا تضحيات جسيمة . زد على ذلك أن دخول قوات أجنبية الى هذا المكان سيقلب الخطة .. » .

عندما نشرنا هذا الخطاب انتهينا بهذه النقط الثلاث بعد كلمة « الخطة » فقد قضت المصلحة الوطنية حينئذ ألا نميط اللثام عن الخطة ، أما اليوم فان هذه النقط الثلاث تصبح من نافلة القول ، فيمكن أن نوضح انه وردت مكانها فى الخطاب الاصلى الكلمات ذات المغزى العظيم : « لإقامة مطار » . أقيم المطار فى دير ياسين ، ولبعض الوقت كان هو طريق المواصلات الوحيد بين القدس المحاصرة والشاطىء . وقد نصل الى بعض استنتاجات لدى قراءة ذلك الخطاب مرة أخرى ، اذ ربما كانت لغته لا تتلاءم مع احتياجات الأسلوب . ان اعلان المستر « شالتيل » الشفوى فيما بعد لم يكن متمشيا مع الصدق ، الا أن الإستيلاء على دير ياسين لم يكن متعارضا مع الخطة العامة للدفاع عن القدس ، بالعكس ، ان الاستيلاء على دير ياسين والاحتفاظ بها مرحلة من مراحل الخطة العامة . ان دير ياسين تم الاستيلاء عليها بعلم الهاجاناه وبموافقة قائدها .

وفضلا عن الوجه العسكرى ، هناك وجه أخلاقى فى قصة دير ياسين . فى تلك القرية التى ذاع اسمها فى جميع أنحاء العالم ، تكبد الجانبان خسائر فادحة ، فقد قتل منا أربعة وجرح أربعون تقريبا . كان عدد الاصابات ٤٠٪ تقريبا من مجموع عدد المهاجمين . تكبدت الفصائل

العربية ثلاثة أمثال هذه الخسائر · هكذا كان القتال شديدا جدا ، ومع ذلك فان الدعاية المعادية التى بثت فى أنحاء العالم تجاهلت ، عن عمد ، حقيقة أن سكان دير ياسين المدنيين كانوا قد أنذروا منا فعلا قبل أن تبدأ المعركة ، فقد وضعت احدى عرباتنا تحمل مكبر صوت عند مدخل القرية وراحت تحذر ، باللغة العربية ، جميع النساء والأطفال والمسنين لكى يتركوا منازلهم ويلتجئوا الى منحدر التل · وبتوجيه هذا الانذار الانسانى بدد رجالنا عنصر المفاجأة ، وهكذا ازدادت مخاطرهم فى المعركة التى تبعته ·

أطاع عدد كبير من السكان ذلك الانذار فلم يصابوا بسوء ، وقليل منهم لم يغادروا مساكنهم الحجرية ، ربما بسبب الارتباك · كانت نيران العدو فتاكة ، يشهد بذلك عدد اصاباتنا · أجبر رجالنا على القتال من منزل الى منزل ، ولكى يهزموا العدو استخدموا أعدادا ضخمة من القنابل اليدوية · وقد تكبد المدنيون الذين لم يأبهوا لانذاراتنا خسائر لم يكن منها مفر ·

ان التعليم الذى قدمناه لجنودنا طوال سنوات التمـــرد كان قائما على أساس قوانين الحرب التقليدية · لم ننتهك هذه القوانين اطـــلاقا ما لم يكن العدو هو البادىء ، ومن ثم يجبرنا ــ وفقا لعادة الحرب المسلم بها ــ أن نقابل الشر بمثله · اننى مقتنع أيضا بأن ضباطنا ورجالنا أرادوا اجتناب أى اصابة لا مبرر لها فى موقعة دير ياسين ، الا أن أولئك الذين يلقون بحجارة التشهير على غزاة دير ياسين (١) يحسنون صنعا لو أنهم لم يتسربلوا برداء النفاق !

فيما يتعلق بعملية الاستيلاء على دير ياسين ، رأت الوكالة اليهودية

---

(١) لرد فعل خسارة « دير ياسين » ، القرية ذات الأهمية الاستراتيجية ، أذاعت القيادة العربية فى الرملة قصة فظاعة ركيكة تزعم قيام مذبحة على أيدى قوات ارجون للنساء والأطفال فى القرية · تمسك بعض الرسميين اليهود ممن كانوا يخافون رجال ارجون كمنافسين سياسيين بهذه الدعاية العربية لتلويث ارجون · اغوى حاخام بارزلكى بزجر ارجون قبل أن يتاح له الوقت ليتبين الصدق · ورب ضارة نافعة ، فقد نشرت هذه الدعاية العربية أسطورة فزع بين العرب والقوات العربية ، حتى لقد كان الرعب يستولى عليهم لمجرد ذكر اسم جنود ارجون · كانت الأسطورة توازى اضافة بضع كتائب الى قوات اسرائيل · ان أكذوبة « مذبحة دير ياسين » لا يزال يرددها الساخطون على اليهود فى جميع أنحاء العالم ·

انه من الضرورى أن نبعث بخطاب اعتذار الى الملك عبد الله الذى أطلق عليه المستر بن جوريون ، فى لحظة من لحظات العواطف السياســية ، اسم « الحاكم العاقل الذى ينشد صالح شعبه وصالح هذا البلد » · أجاب الحاكم « العاقل » ـ الذى دمر جنوده المرتزقة « جوش اتسيون » وألقوا بجثث مدافعيه الابطال للطيور الجارحة ـ أجاب فى زهو اقطاعى فرفض الاعتذار وقال ان اليهود جميعا يجب أن يلاموا ، وانه لا يؤمن بوجود « المنشقين » · انتشرت فى جميع أرجاء دنيا العرب وفى أنحاء الدنيا كلها موجة من الدعاية الكاذبة عن « الفظاعة اليهودية » فى دير ياسين ·

دبرت دعاية العدو لتلويث اسمنا لكن نتيجتها ساعدتنا ، فقــد اكتنف الذعر العرب فى أرض اسرائيل ، فان قرية « قولونيا » التى صدت كل هجمات الهاجاناه السابقة أخليت ليلا وسقطت دون قتال ، وكذلك « بيت اكسا » أخليت هى الأخرى ، وكانت هاتان القريتــان تتحكمان فى الطريق الرئيسى · وقد ساعد سقوطهما ، مع الاستيلاء على « القسطل » بوساطة الهاجاناه ، على فتح الطريق الى القدس · وفى بقية نواحى الاقليم بدأ العرب يفرون خوفا حتى قبل أن يصطدموا بالقوات اليهودية · ان ما اخترع حول معركة دير ياسين · لا ما حدث فيها فعلا ، قد ساعد على فتح الطريق الى انتصاراتنا الحاسمة على أرض المعركة · لقد ساعدتنا أسطورة مذبحة دير ياسين ،بصفة خاصة ، على انقاذ طبرية وعلى فتح حيفا ·

اعلن القائد البريطانى فى « حيفا » اخلاء قواته للمدينة فى نهاية شهر ابريل · عرفت الهاجاناه التاريخ وعبأت قواتها استعدادا للصدام الحاسم · وبناء على طلب قائد الشمال المحلى للهاجاناه ، اشتركت فى العملية وحدات من ارجون تحت قيادة « اميل » ، وقد أمرت هذه الوحدات بالاستيلاء على مبنى حصين للعدو يسيطر على شارع « هيهالوتز » ، الشريان الرئيسى فى « هادار هاركرميل » · بدأ رجالنا هجوما مفاجئا وتم الاستيلاء على المبنى ، وحيى سكان « هادارها كرميل » جنــودنا بصوت عال ، ثم اتجه جنودنا بعدئذ الى وادى « نسناس » واحتلوا الحى بأكمله ، واستمروا فى التقدم صوب الحى العربى · فى نفس الوقت كانت الهاجاناه تقوم بهجمات ناجحة على الجهات الأخرى فى حيفا · مضت القوات اليهودية جميعها فى تقدمها فى حيفا وهى أشبه بالسكين يشــق قالب الزبد · بدأ العــرب يفرون فى فزع وهم يصــيحون « دير ياسين ! » ·

يجب أن نحنى رؤوسنا لجميع الجنود اليهود ، بصرف النظر عن المنظمات التى ينتمون اليها • لقد حاربوا الغزاة العرب بشجاعة فائقة وانتصروا جميعا انتصارا عظيما ، كما هزموا جميعا هزائم مريرة • كانوا جميعا يعانون من النقص فى المهمات ، وما كان لنا أن نلقى باللائمة على الآخرين للتقهقر أو الهزائم • لكن كم من قصص خيالى كاذب لم يرو عن تقهقر رفاقنا فى « الشيخ الجراح » ؟ لقد كنا نفتقر الى الأسلحة والذخيرة فى كل مكان ، وكان هذا كله يمثل جانبا من خلفية المناقشات التى دارت حول توزيع الاسلحة والذخائر التى كانت تحملها السفينة « ألتالينا » •

الفصل الثاني عشر

عندما يبكي القلب

يمكن ادراك السبب الذي من أجله أردنا أن يرسل جزء من الاسلحة التي جلبناها من « التالينا » الى وحداتنا في القدس ، ولماذا أردنا أن تحصل وحداتنا في الجيش على نصيبها العادل منها أيضا . من الطبيعي، بل أنه تقليد مسلم به في كل جيش ، أن يهتم قائد كل وحدة كبيرة بكفاية مهمات وحدته .

ولد جيشنا وسط المعارك . لم تكن الوحدة التنظيمية والروحية مسألة تقليد وانما كانت مسألة رضا وقبول . لم يكن من الهين أن نبعث رفاقنا الى جيش كان ضباطه يمقتون المقاومة السرية ويضطهدونها ويلوثونها ، ويختطفون أعضاءها ويسلمون ضباطها للسلطات الباغية . قبل قيام الدولة بأشهر قليلة فقط عمت البلاد موجة جديدة من القسوة ، انبثقت من جهة الهاجاناه التي كانت تعمل بتعليمات من الزعماء اليهود الرسميين . أريقت الدماء . كان الأمر يتطلب درجة كبيرة من صفاء الروح وقدرا كبيرا من الاغواء لكي ينسى الماضي من أجل شعبنا الذي أعد للقتال . ذهب الآلاف من فتياننا الى الجيش ، الى خطوط القتال الأمامية . هل كان هناك أي مكان يخلو منهم ؟

لقد وقفوا في « نجبة » وكتبوا مع رفاقهم (مضطهديهم بالأمس) صفحة من أروع الصفحات في حرب الدفاع اليهودية ، بقيادة الكوماندور « جيل » المتمرس في الحروب ، وهم يتغنون بأنشودة أرجون ، على المتاريس . فتحوا الطريق الى بير سبع بأن استولوا من المصريين على

نقطة استراتيجية حيوية قوية . استولوا على « يافناه » فى الجنوب و « ترشيحة » فى الجليل الأعلى ، كما استولوا على منطقة كبيرة من الأرض فى جبال « افريم » . عملوا على الجبهات الأخرى ، يقاتلون ويسلمون ارواحهم من أجل حرية بلدهم كما يليق بمحرريه من حكم الأجنبى ، وكما يليق بمقاتلى ' جون . الا انه لا سبيل الى انكار أن قلوبهم كانت تفيض أسى وغما . - أحبوا ارجون ، أعطوها كل مالهم ، وأعطتهم أرجون كل شىء . حاربوا ى صفوفها عدة سنين . كانوا يمضون قدما الى الأمام تحت رايتها المن رة ، الى المعركة ، الى المخاطر ، الى معسكرات الاعتقال ، الى غرف التعذيب ، الى الموت . لم تكن ارجون بالنسبة لهم مجرد منظمة عسكرية ، بل لقد صارت حياتهم .

اذكر موكب ضباطنا الأخير . كان فى البهو مئات من المقاتلين المجربين المتمرسين فى فنون الحرب . كنا نرى بعضنا بعضا لأول مرة . فرصة للابتهاج ؟ نعم ، بكل تأكيد . الم تكن لنا ميزة الظهور والبروز من المقاومة السرية ؟ ألم نر الانتصار بأعيننا ؟ الا أن المناسبة كانت حزينة ، اخبرت ضباطى المحبوبين بأننى لم أعد ، بعد ، قائدهم منذ ذلك الوقت . سوف يتولى قيادتهم ضباط آخرون ، هم ضباط الجيش اليهودى الموحد ، ويجب أن يدينوا لهؤلاء الضباط بالولاء التام . لم تعد ارجون تسفاى ليومى قوة عسكرية بعد . ساد البهو صمت رهيب . رأيت المحنكين فى المعارك ، « رجالا من حديد » ، واجهوا الموت مرارا وتكرارا ، وقد ترقرقت الدموع فى عيونهم . لقد تغير كل شىء . . دنيا بأسرها ، دنيا المثل العليا الخالصة ودنيا الزمالة والوفاء، دنيا نبيلة رقيقة راحت ، وقد لا تعود أبدا . حقا ، كانت تستحق الاعتبار . كان كل شىء يستحق الاعتبار . لقد كسبنا . هبت أمتنا من جديد ، الا أن أرجون ... من ذا الذى سيتولى قيادتنا الآن ؟

كان هناك قلق شديد لا سبيل الى انكاره . ان الرجال الذين كانوا على وشك أن يتولوا قيادة أعضائنا تدربوا على مقتهم والحقد عليهم . كلا ، ان الأمر لم يكن سهلا على الاطلاق . ان الأوامر لم تكن غير ذات نفع فى هذا المقام . ان ما نفتقر اليه حينئذ هو قدر كبير من الاستمالة لتلتئم الجراح التى كان بعضها لا يزال يدمى . كان من حقنا، والأمر كذلك ، بل كان من واجبنا ، ان نتأكد من أن تنال الوحدات التى بعثنا بها الى الجيش أسلحة كافية ومؤثرة لكى يذهبوا الى الميدان فى ثقة واعتداد وبسالة . وكما قلت ، كان هذا أمرا طبيعيا له ما يبرره

حتى فى الظروف العادية ، وهو امر طبيعي أكثر ، وله مبررات اكبر ، فى الظروف الخاصة التى نشأ فيها جيشنا . ان ما كانت تتوق اليه نفوسنا أيام كانت بنادقنا من طراز « سبتن » - وهو احتمال تسليح مقاتلينا بأسلحة مؤثرة - قد أصبح السبيل ممهدا له الآن بوصول سفينة أسلحتنا « التالينا » . اننا لم نطالب بشحنتها كلها لأنفسنا كما زعم مبتدعو أسطورة « التمرد المسلح » ، فلم نطالب « لأنفسنا » بشيء . لم يعد هناك وجود لارجون كقوة عسكرية الا فى القدس . كان رجالنا فى الجيش ، أو كانوا يحاربون سويا مع وحدات الجيش على جبهات مختلفة انتظارا لانتظامهم فى الجيش . كان كل منهم تحت قيادة هيئة أركان حرب الجيش . ان كل ما طالبنا به هو ان يعطى قدر كاف من المهمات من شحنة الأسلحة التى جلبناها الى الاقليم بعد جهد شديد، لجنود ارجون السابقين الذين أصبحوا آنئذ جنودا فى الجيش .

أبلغنى « اسرائيل جاليلى » ، قائد الهاجاناه ونائب وزير الأمن فى ذلك الوقت ، تليفونيا أن الوزارة وافقت على اقتراحنا الخاص بالقدس، فقد خصص ٢٠٪ من اسلحة « التالينا » لتلك الجبهة . لقد عمنا الفرح ، ولم نحاول أن ندقق فى العبارة التى صاغ بها تصريحه . لم تتضح لنا النية الحقيقية وراء هذا الاتفاق وضوحا تاما الا بعد أن انقضى زمن طويل . سترسل هذه النسبة (٢٠٪) لقوات الهاجاناه فى القدس دون غيرهم .

واستمرت مناقشتنا مع « جاليلى » فى مسالة توزيع الأسلحة . . وفى احدى مناقشاتنا الكثيرة الطويلة قلت له :

« لو أن السفينة كانت قد وصلت منذ بضعة اسابيع كما كان مرسوما ، اذن لاستولينا نحن منظمة ارجون على الأسلحة جميعها . الا توافق على انه ينبغى لفتياننا أن ينضموا الى الجيش وهم مسلحون ومزودون بالمهمات اللازمة على الأقل ؟ لقد طلبت انت شخصيا أنه بالنظر لخطورة الموقف يجب أن توزع جميع الأسلحة والمهمات الموجودة فى جوزة ارجون علي فتية ارجون الذين سينضمون الى الجيش ، فما هو الفرق اذن ؟ ان هذه الأسلحة بالذات انما تأخرت فى الوصول . إن فتياننا موجودون الآن فى الجيش بالفعل أو انهم سينضمون اليه فى غضون أيام . ان ذلك لا يعنى سوى أنهم سيزودون بالمهمات الكاملة التى كنا سنعطيها لهم على أية حال . ماهو وجه الخطأ فى هذا ؟ لماذا لا تستطيع أن توافق عليه ؟ » .

كانت مجادلتنا غير مثمرة . لقد رفضت اقتراحاتنـا . مضى يوم وليلة وكانت « التالينا » فى نفس الوقت تشق طريقها ، بناء على أوامر الحكومة المحلية ، صوب شاطىء أرض اسرائيـل « كفـار فيتكين » . استمرت مناقشة خطط تفريغ الشحنة مع ممثلى وزارة الأمن .

أبلغنى « جاليلى » بعدئذ انه طالما لم يتم التوصل الى اتفاق حول توزيع الأسلحة فانهم لن يساعدونا فى تفريغ حمولتها ، ثم صرح : « اننا ننفض أيدينا من انزال حمولة الأسلحة » . ويمثل هذا التصريح نقطة التحول فى قضية « التالينا » .

تفاوضت الحكومة معنا فى الترتيبات المشتركة لانزال الأسلحة وتوزيعها . رفضت الحكومة اقتراحاتنا العادلة المعقولة . وهى فى هذا انما تعمل فى حدود حقوقها ، من الناحية الرسمية على الأقل . كانت الحكومة مستطيعة أن تقول : « اننا لن نسمح لارجون بتفريغ شـحنة الأسلحة » ، وكانت مستطيعة أن تقول لنا : « نظرا للظروف الراهنة نمنعكم من استخدام السفينة الى شـواطىء الاقليم » ـ ذلك لأننا كنا وضعنا السفينة وحمولتها منذ لحظة ابحارها تحت تصرف الحكومة .

ذلك هو القول الحق . الا أنه اذا وجد الأشـخاص الحاقدون الذين يريدون أن يلقوا ظلال الشـك على هذا البيـان فانه يمكن اقامة الدليل لاثباته حتى فى وجه أشد المجادلات حقدا وتعصبا .

كان على السفينة كما اتفق مع وزارة الأمن ، أن تلقى مراسـيها تجاه « جيفات أولجا » أو « كفار فيتكين » . هل كان فى مقدورنا أن نصل الى هذه البقعة من تل أبيب المقابلة للسفينة اذا كانت الحكومة قد أمرت بهذا ؟ لسوف يكون كافيا أن يسد الطريق الفرعى الضيق المؤدى من الطريق الرئيسى العام حيفا ــ تل ابيب الى قرية « ماباى » ، وبالتالى لا تسـتطيع عرباتنا أن تقترب من نقطة النـزول الى البر . ومن جهة أخرى ، حتى اذا افترضنا لمجرد الجدل ، اننا استطعنا أن نصل بمعجزة الى السفينة فى مثل هذه الظروف ، فهل لأى انسان فى كامل وعيه ــ فى وجه مقاومة الجيش ــ أن يمشى فى أضـيق خانق (عنق الزجاجة) على شاطىء منعزل تماما ، بدون مهمات وبدون مؤونة ، وحتى بـدون ماء ؟ ان الأشخاص المطبوعين على الشر قد يودون أن يتشككوا فى صدق ما نقول ، الا أنهـم لا يسـتطيعون أن ينكـروا أن ارجـون على علم بالاسـتراتيجية والتكتيك . ومع ذلك فقد كـان هو ما طالبوا الناس بتصديقه عنا ، الا وهو أننا ، نحن رجال ارجون تسفاى ليومى ، كنا

ننوى القيام بتمرد مسلح هناك بالتحديد فى « كفار فيتكين » ، حيث يمكن ان يقطع الطريق على رجالنا منذ البداية ، حتى ولو استطاعوا الوصول بدون موافقة الجيش ..

ان بياننا لا يمكن مهاجمته بالدليل الواضح ، ولذا فاننى اعوذ فاقول : لو ان الحكومة كانت قد قالت كلمة واحدة تدعونا الى لتفكير فى انها كانت تعارض تفريغ الأسلحة ، إذن لما تطرق الى أذهاننا أن نفرغها فى وجه هذه المعارضة . الا أن شخصا ما كان قد استحث شخصا ما لكي يفعل شيئا ما ، شيئا حاذقا . وفى حذر شديد لم تقل الحكومة كلمتها ، بل قالت : « لن نساعدكم فى تفريغ الأسلحة » . كان رفض الحكومة التعاون فى تفريغ شحنة الأسلحة ضربة قاصمة . لم تكن لدينا الصنادل الضرورية لنقل شحنة السفينة ، ولم تكن لدينا العربات المطلوبة ولا آلات رفع الأثقال اللازمة ، بل ان عدد الرجال الذين كنا نستطيع أن نخصصهم لهذا الواجب ، بعد تعبئة كل من كان فى متناول أيدينا منهم ، كان أصغر من أن يكفى لهذا الغرض . ساعدنا فى موقع العمل عدد صغير من رجال « البالماخ » فى قارب . ولا يخالجنى أى شك اليوم فى أنهم جاءوا للتجسس علينا أكثر من مجيئهم لمساعدتنا الا أننا رحبنا ، فى ذلك الوقت ، بمساعدتهم فرحين شاكرين من غير أى ظل من شك أو ريبة . لماذا كان ينبغى لنا أن نشك ؟

على الرغم من الصعوبات ، انهمكنا فى العمل مخلصين . حقا ، لقد قالت الحكومة انها لن تساعدنا ، الا انه بالنظر الى حاجتها الملحة الى هذه الاسلحة فقد كان يبدو محتملا ومنطقيا انها قد تغير رأيها . زد على ذلك أن هذا الواجب لم يكن بالواجب الصعب الوحيد الذى كان علينا أن نقوم به بأنفسنا . لقد مارسنا العمل فى حماس شديد .. تضاعفت قوة الفتية المعنوية وتضاعف اجتهادهم أضعافا مضاعفة ، وما كان متعهد شحن وتفريغ السفن السالونيكى بقادر على أن ينجز مثل ما أنجزوه خلال هذه الأيام الخانقة من أيام الصيف على شاطىء البحر تحت الشمس المحرقة ، من غير ما طعام ، وبالقليل من الماء .

وماذا كان من الممكن أن يحدث لو أننا كنا قد أفرغنا شحنة الأسلحة والذخائر جميعها من السفينة دون أى مساعدة ولكن من غير أى تدخل ؟ لقد همس المطبوعون على الشر بأننا كنا ننوى حينئذ أن نحمل الأسلحة الى مستودعات سلاحنا الخفية تحت الأرض ، الا ان الحق أننا لم يكن عندنا ، بعد ، أية مستودعات سرية للأسلحة فى ذلك

الوقت . لقد سلمنا جميع أسلحتنا ومهماتنا للجيش ، وكان لدى رجال الجيش علم تام بمواقع نقط تجمعنا . كيف كنا نستطيع ، اذن ، ان نخبىء اسلحة تكفي لتسليح عشر كتائب من المشــاة بعد ان تركنا عمل « المقاومة السرية » وعملنا بصورة مكشوفة ، وبعد أن صار كل رجالنا معروفين للجيش ، وبعد ، فهناك حقيقة أخرى تستحق الذكر : حتى بعد أن أبلغنا « جاليلى » أنه لن تقدم لنا اية مساعدة فى تفريغ شحنة الســفينة فقد دعونا هيئة اركان حــرب الجيش للاشراف على تفريغ الشحنة ، وقد وعد واحد منهم مرتين بالحضور لهذا الغرض ، بل انه وعد مرة بأنه سوف يرسل عددا من العربات ، بصفة خاصة، لمساعدتنا. ولا يقل عن ذلك وضوحا اننا كنا نؤكد فى جميع محادثاتنا أن الاشراف الكامل على جميع الأسلحة بعد تفريغ الشحنة سوف يؤول الى الجيش . كل هذا كان فى الظاهر جزءا من « التحضيرات السرية » للقيام « بتمرد مسلح ضد الحكومة ! » .

لو أننا كنــا قد افرغنا شــحنة الأسلحة جميعها من « التالينا » ، اذن لذهبت الأسلحة كلهــا الى أيدى الجيش الموحــد الذى دعــونا الى انشائه لحظة قيام الدولة ، ولكان من الممكن ارسال ٢٠٪ منها بموافقــة الحكومة الى القدس ــ الى القدس ، هكذا ، لا الى أية قوة بالذات هناك ــ ولأمكن استرجاع المدينة القديمة من أيدى الاعداء على الرغم من التعطيل الذى تسبب فيه « شاتيل » .

الا أن جزءا فقط من الاسلحة هو الذى أمكن تفريغه من الشحنة ، وامكن استعماله بعد قتل أعداد من رجال ارجون . وقد أثبتت كل هذه الأسلحة أنها مفيدة جدا . لقد دمرت « التالينا » ، ولكنها قدمت للشعب اليهودى نحو ألفى بندقية حديثة ومليون طلقة من عيار ٣٠٣ر٢٥٠ رشاش برن ورشاشات أخرى . وفى اللد والرملة أدت هذه الأسلحة التى كانت مطلوبة ــ وكم كنا فى مسيس الحاجة اليهــــا ! ــ خدمة هائلة . ولم تستخدم الذخيرة التى جاءت من « التالينا » فى تشغيل رشاشات برن التى جاءت معها فقط ، ولكنها استخدمت كذلك فى تشغيل رشاشات برن أخرى كانت خامدة وبغير فائدة منذ فترة طويلة من الزمن . أثبتت أسلحة « التالينا » أنها كانت عاملا حاسما فى الحرب ضـــــد الغزاة العرب .

لم يقتصر الأمر على أسلحة « التالينا » فحسب ، بل انها جلبت معها ما يزيد عن ألف من المقاتلين ، الذين غمرهم الفرح عندما وصلوا

الى شواطىء وطنهم • لقد رأيت كثيرا منهم راكعين يقبلون الرمل المالح المبتل على الشاطىء ، ولا يزال صدى صيحاتهم الفرحة كلما جرت بهم الفلك الصغيرة الى الشاطىء يتردد فى سمعى •

أما كيف أخرست هذه الأصداء الفرحة ، وكيف كان « الترحيب » بهم ! فذلك أمر معلوم • ومع هذا فقد جاءوا والتحقوا بالجيش حيث خدموا بأمانة وحاربوا بشجاعة • خدم فتيان « ألتالينا » على جبهات كثيرة ، وأسهموا فى انتصارات كثيرة من « ترشيحة » الى « ايلات » • أبرز كثير منهم أنفسهم ببسالتهم النادرة • سقط منهم فى المعركة نفر غير قليل • ومع أنهم أخضعوا لأشق المحن وأشدها ، الا أنهم عرفوا كيف يجتازون الاختبار الاسمى ، اختبار حب الوطن •

ويجب أن نذكر هؤلاء الفتية من وجهة نظر أخرى • كنا منهمكين ـ بناء على قصة النمامين السياسيين ـ فى « تمرد مسلح » ، لكن تأملوا، أيها الخبراء فى التمرد المســـلح ، كيف نظم هؤلاء الارجونيون ، الذين لا يصلحون لشىء ، تمردهم ! هاهى ذى سفينتهم تحضر كتيبة من المحاربين، وتحمل فى نفس الوقت كمية من الاسلحة الحديثة • أى شىء يكون طبيعيا أكثر من أن يضعوا هذه الاسلحة فى أيدى المحاربين « المتمردين » فى طرفة عين ؟ هناك على الشاطىء كان منظم التمرد مستطيعا أن يحصل على كتيبة كاملة ، ضباطا وأفرادا ، سلاحا وعتادا ، لكن ماذا يفعل منظمو التمرد هؤلاء ؟ انهم ـ بمساعدة فصيلة البالماخ ، أشـــد مضـــطهديهم السياسيين عنفا منذ عهد قريب ـ بادىء ذى بدء ، ينزلون المحاربين الى البر ويبعثونهم ـ غير مسلحين ـ الى معسكر بعيد فى « ناتانيا » لينالوا قسطا من الراحة والنوم ، تحت رقابة الجيش ، بينما تفرغ شـــحنة الاسلحة ، لا بأيدى الجنود ، بل على أيدى خبراء فى شحن الســـفن وتفريغها ممن جمعوا سويا من الموانىء المختلفة فى أرض اسرائيل • هكذا كانت الرحلة الثانية فى أعجب « تمرد مسلح » •

طرأ تأخير فى آخر لحظة على موعد وصول « ألتالينا » ، فان السفينة التى كانت قد أمرت ، بناء على تعليمات الحكومة ، بأن تغير خط سيرها الى « كفار فيتكين » لم تلق مراسيها هناك فى بادىء الأمر لأن القبطان لم يتمكن من رؤية الارشارات الأرضية التى كان مفروضا أن ترشده للدخول • لذا اتجه أولا الى تل أبيب ومنها أبحر على امتداد الشاطىء الى « كفار فيتكين » ، ولكن الفجر كان على وشـــك أن يلوح ،

وخشية أن يرى مراقبو الأمم المتحدة السفينة قررنا أن نرجىء تفريغ شحنتها الى المساء التالى ٠

بعد أن ارتدت السفينة الى البحر ، رجعنا الى تل أبيب واتصلنا بوزارة الأمن على الفور ٠ أخطرنا ضابط اتصال الوزارة بأن السفينة ستعود في المساء ، بل سألناه عما اذا كان يرى أننا على صواب اذا لم نفرغ الشحنة فى وضح النهار ، فأجاب : « أنكم على حق ، بالطبع ، وسأخطر اسرائيل جاليلى بهذا » ٠ ودعوناه مرة أخرى ليأتى للاشراف على تفريغ الشحنة ، فأجاب بأنه ربما استطاع الحضور ، بل ربما استطاع أن يرسل بعض عربات النقل (اللوريات) لمساعدتنا فى العمل ٠

عادت السفينة فى الغسق الى « كفار فيتكين » ، وأنزلنا الرجال بسرعة ثم بدأنا فى تفريغ شحنة الاسلحة ٠ عملنا طوال تلك الليلة ، واستمر العمل خلال ساعات الصباح الباكرة ٠ حلقت فوقنا طائرة بيضاء من طائرات هيئة الأمم المتحدة ٠ كانت السفينة تحت المراقبة ولذا كان من الضرورى عندئذ أن نسرع فى تفريغ الشحنة بأى ثمن ٠

لاحظنا على حين فجاة ، أننا كنا محاطين بالجنود من كل جانب ٠ وبعد مضى دقائق قليلة تلقيت انذارا نهائيا من قائد الجيش المحلى ، انذارا ينتهى أجله بعد عشر دقائق ٠ أرسلت كلمة الى الضابط بأن هذا الأمر لا يمكن تسويته فى عشر دقائق ، واقترحت أن نتقابل ٠ وفى نفس الوقت دعى « يعقوب ميريدور » للذهاب الى « كفار فيتكين » و « ناتانيا » ليتحدث مع رؤساء المجالس المحلية ، وكان مفهوما أنهم كانوا يتطلعون الى اجتناب أية تطورات غير مرغوب فيها ٠ شرح لهم « يعقوب » الموقف ٠ وعدوا بالاتصال بالسلطات الحكومية ٠ وصل مراقبو الأمم المتحدة فى المساء ــ ضابط أمريكى وآخر فرنسى ــ وكان هناك على مقربة منا ممثلون للحكومة فأخبرونا بألا نسمح للمراقبين بدخول منطقة الشاطىء٠ طلب مراقبو الأمم المتحدة أن يروا السفينة ، فكانت اجابتنا عليهم فى مجاملة لطيفة أننا لن نسمح لهم بالمرور فى مثل هذا الظرف ٠ فانصرف المراقبون ٠

كنا لا نزال محاطين بجنود الحكومة من جميع الجهات ٠ اقترح شخص ما أن تمضى السفينة الى تل أبيب ، الى النقطة المواجهة لشارع « فرنشمان » والمحددة أصلا على خريطة القبطان ، وبهذه الطريقة نستطيع أن نخلص أنفسنا من ظروف الحصار وأتمكن أنا من الاتصال مباشرة

الحكومة لوضع حد لما كنت لا أزال آمل ان يكون بسوء تفاهم خطير في جهة ما . كنت في شك بالنسبة لترك الفتيان محاطين كما كانوا ، ولكن « ميريدور » ألح في أن أذهب • قال « ميريدور » : « انك هنا لا تستطيع أن تفعل شيئا من أجلنا ، أنني أريدك أن تذهب لكي تقــوم هــذا الارتباك •

جمعنا الفتيان معا للاستئذان منهم •

هوجمنا فجأة من جميع الجهــات بدون انذار ، هوجمنا بالرشاشات وبمدافع الهاون • أردت أن أخالف القرارات وأبقى • تشبث يعقوب برأيه : « فلتذهب أنت ، وسرعان ما يهدأ هذا • أنا المسئول هنا ، وعليك ان تخلصنا من هذا • قد تنفجر السفينة اذا وقعت عليها قنبلة » •

هذه لحظة هامة جدا في تبديد دعاية الواشين بنا • انهم زعموا أننا أحضرنا السفينة قصدا الى نقطة على الشاطىء الامامى لتل أبيب في مواجهة فندق قاعة « دان » لأنه كان مقر مراقبى الأمم المتحدة في ذلك الوقت كما قالوا ، بالاضافة الى ذلك ، ان يعقوب ، الذى ـ لكى يتحاشى اراقة الدماء ـ وقع اتفاقية الاستسلام مع قائد الجيش ، تعهد بتسليم السفينة اليــه • هذه القصص باطلة بالبرهان الدامغ • لقــد أحضرنا السفينة في مواجهة شارع « فرنشمان » لأن هذه النقطة كانت هى نقطة الوصول الموضحة على خريطة السفينة طبقا لخطة أبريل الاصلية • أما عن « يعقوب » ففى لحظة توقيعه على الاتفاق في « كفار فيتكين » ، كانت السفينة قد وصلت بالفعل الى تل أبيب •

عندما كنا على ظهر « ألتالينا » ، التى وصلت أمام تل أبيب بعــد منتصف الليل بقليل ، أطلقت عدة طلقات من الشاطىء للترحيب بنا • ألح بنيامين ، الذى كان يتــولى قيادة الرجال على السفينة ، في أن أبقى على ظهر السفينة • لم نرد على الطلقات التى أطلقت علينا • وعلى ضوء النهار رأينــا أن نقطة وصولنا على الشاطىء كانت محاطة بالجنود • أبلغنا الجنود وكررنا وعدنا لهم بأننا لن نفتح عليهم النيران مهما كانت الظروف ، وطلبنا منهم أيضا أن يمتنعوا عن اطلاق النيران علينا • كانت سفينتنا محاطة ، لا من ناحية الأرض فحسب ، بل ومن ناحية البحــر أيضا • أطبقت علينا ثلاث سفن حربية ، وأطلقت واحدة منها نيران أسلحة صغيرة كثيفة نوعا على قارب تجديف صغير كنا قد خرجنا به الى « ألتالينا » في « كفار فيتكين » • كانت المناورة البارعة التى قام بهــا

قبطان السفينة « مونروفين » هي وحدها التي أنقذت جماعتنا الصغيرة فى القارب من الهلاك المحقق • الكابتن « فين » واحد من أشجع الرجال الذين صادفتهم • حرك « فين » دفة السفينة « ألتالينا » بطريقة بارعة بحيث حجبتنا عن نيران السفينة الحربية • كانت تلك هي الظروف التي انتقلنا فيها الى ظهر « ألتالينا » فى « كفار فيتكين » ، وكانت هذه السفن الحربية نفسها تهددنا فى تل أبيب •

كانت « ألتالينا » قد ارتطمت بالأرض فى نقطة الوصول وهى الآن محشورة فى الصخور ، عديمة الحيلة ، غير قادرة على الحركة ، على بعد قرابة ٧٠٠ ياردة من الأرض ، ولذا قررنا أن نفرغ شحنة الأسلحة حيث كنا • عندما وصل القارب الصغير ، الذى أخرجناه ، الى الشاطيء ، تعرضنا جميعا لتحية من النيران المتقطعة • قتل أحد متطوعينا من كوبا • أصيب « شمويل ميرلين » فى ساقه ، وأصيب « أبراهام ستافسكى » ، منظم فصائل المهاجرين غير الشرعيين فى الثلاثينات ورئيس القوة الدافعة فى تنظيم أفراد « ألتالينا » ، اصابة خطيرة • وسرعان ما أخذت أعـداد المصابين على ظهر السفينة فى الزيادة • كانت بعض الطلقات موجهة الى أهداف معينة • وهكذا ، فى كل مرة كنت أصعد فيها الى « مركز » ربان السفينة ، كان يتعرض ذلك المركز لنيران شديدة بصفة خاصة ، وكلما غادرت ذلك المركز وجهت النيران الى أهداف أخرى •

فى غضون ذلك كان رفاقنا فى المدينة ــ ولم يكن بيننا وبينهم أى اتصال ــ يحاولون اختراق خطوط الجيش لكي يصلوا الى الشاطيء فى مواجهة سفينتنا • عرض قائد البالماخ عندئذ أن يوقف اطلاق النار على شرط ألا نفرغ مزيدا من شحنة الاسلحة فوافقنا على ذلك العرض • أوقف اطلاق النار وتوقف التفريغ •

أخبرنا القائد بأنه كان لدينا عدد من الجرحى على ظهر السفينة • دمر قاربنا الصغير ولم يعد صالحا للاستخدام فى انزالهم الى البر • طلبنا قاربا صغيرا لنقلهم حيث لم يكن هناك حينئذ طبيب على ظهر السفينة وكانت حالة كثير منهم خطيرة •

وعد ضابط البالماخ بارسال قارب على الفور من ميناء تل أبيب • انتظرنا ... ساعة ، ساعتين ، ولم يصل القارب • ازدادت حالة الجرحى سوءا •

وفجأة سمعنا صفيرا من شيء ما فوق رؤوسنا · صاح «مونروفين» :
« هذه قنبلة ! أنهم سيضرمون النار فى السفينة ! » ·

نادينا على قائد البالماخ لتذكيره بوعده بايقاف اطلاق النيران ، ولم يجب القائد · انطلقت قنبلة ثانية ، وثالثة ورابعة · كانوا يقدرون مسافة السفينة ، وها هم يزحفون الى هدفهم · كان « مونرو » فى حالة قنوط ، واقترحت أن يغادر هو وزملاؤه الأمريكيون ، الذين كانوا مشتغلين بالملاحة وليسوا جنودا ، ظهر السفينة ، وأن يبقى الباقون على ظهرها · لم يستجب لهذا الاقتراح ، وأشار الى أن السفينة سوف تنفجر حتما اذا استمر اطلاق القنابل نظرا لحمولتها من المتفجرات ، والى أن الطريقة الوحيدة لانقاذها هى أن ترفع علما أبيض · وقد فعل ذلك ولكن هذا الرمز ـ رمز الاستسلام بين المحاربين المتمدينين ـ لم يجد نفعا ، وظلت القنابل تتساقط · نادينا على قائد البالماخ مرة ثانية : « لقد تعهدت بايقاف اطلاق النار ، فلماذا تلقى القنابل علينا ؟ » ، وجاءت اجابته ، بعد فترة توقف ، أن كلماته الفعلية تستحق أن تسجل : « هناك أمر عام بابطال الضرب ، الا أن الأمر لم يصل ، بعد ، لكل وحدات الجيش · » ·

بعد بضع دقائق ، اخترقت قنبلة جوف السفينة · اندلعت النيران ، وتصاعد الدخان · كان واجبنا الأول انقاذ الجرحى · لقد تصرفوا بشجاعه فائقة ، ولم يحدث أى هلع · لم يقفز أحد فى الماء وتحكم كل انسان فى نفسه بمنتهى الهدوء والضبط والربط · أخلى الجرحى أولا ، وكان « فين » رائعا كان اللهب يكتنف سفينته ، ولكنه ظل فى مكانه يصدر أوامره من مركز الربان فى هدوء ورباطة جأش ، وكان يضيف من وقت الى آخر عبارة : « هون عليك ولا تبال » · أمر بملء عنابر السفينة بالماء ، وبذا لم ينقذ حياتنا جميعا نحن الموجودين على ظهر السفينة فقط ، ولكنه أنقذ أيضا حياة كثير من الناس فى المنازل الممتدة على شاطىء تل أبيب ، فلو أن السفينة انفجرت ، اذن لكان الدمار شاملا · لقد أشرف على بناء « سقالات » لاخلاء الجرحى ، ثم أنزل الجرحى واحدا واحدا · كانت القنابل تتساقط طوال الوقت حول السفينة المشتعلة ، وكانت طلقات الرصاص تحدث صفيرا وهى متجهة نحو الرجال حينما كانوا ينقلون الجرحى على عوامات صنعت بصورة ارتجالية فى الماء ·

اندفع بعض فتياننا من المدينة الى الشاطىء . كانوا يستخدمون قوارب نزهة صغيرة ، غير مبالين بخطر اللهب المنبعث من جوف السفينة التى كانت عرضة للانفجار فى أية لحظة . كانوا يجذفون قواربهم الدقيقة فى الماء . جاءوا لإنقاذ رفاقهم ، وكانوا مصممين على ذلك رغم كل شىء .

ارتفع لهب « التالينا » ، وتلفت الأسلحة التى بقيت فيها ، وصارت السفينة مقبرة عامة لعدد من الرجال الشجعان الذين كانوا قد جاءوا متطوعين ليحاربوا من أجل شعبهم .

مات فى المستشفى متأثرا بجراحه « أبراهام ستافسكى » زميلى المدنى ، الذى ساعد بجده وحماسة فى انقاذ آلاف اليهود من أفران الموت النازية واحضارهم الى أرض اسرائيل . لقد افتقدته أنا أيضا .

كثيرة جدا كانت الأعمال المخيفة التى ارتكبت فى تلك الأيام تنفيذا لخطة الحكومة لتتخلص نفسها من ذلك الذى تخيلته منافسا سياسيا خطرا . لقد كانت أكثر مما يكفى لاثارة حرب أهلية .

لكن العدو الأجنبى كان على أبواب ارض الوطن . وقد أقسمنا قسما أننا «لن نستخدم السلاح ضد زملائنا اليهود مهما كانت الظروف» .

بعد عدة أيام كان فتية أرجون ، بما فيهم الفتية الذين جاءوا مع «ألتالينا » ، على جميع الجبهات يواجهن الغزاة ـ رجال من مثل «جوكوهن» من فيلادلفيا و « ناتان كاشمان » من لندن ، اللذين أسلما الروح وهما يحاربان حربا بطولية فى القدس : كاشمان فى الهجوم على «مالحة» وجوكوهن فى الهجوم الأخير على المدينة القديمة .

فى تلك الليلة من عام ١٩٤٨ عندما دمرت « ألتالينا » تكلمت من الاذاعة عن السفينة وأسلحتها وموتاها . لقد كنت متأثرا فاغرورقت عيناى بالدموع . كان هناك أبطال عظام من جميع الطبقات ممن استمعوا الى وهم فى مقاعدهم المريحة يسخرون من «انفعالى الناعم » .. فليسخروا. ان هناك دموعا لاينبغى أن يخجل منها أى رجل، بل أن من الدموع ماقد يفخر به الانسان . ان الدموع لاتذرف من العين فحسب ، انها أحيانا ماتنسكب من القلب كالدم . ان هناك دموعا تنبع من الحزن ، ودموعا تجلب الخلاص .

ان من تتبع قصتى يعرف أن القدر لم يدللنى ، فمنذ شبابى الباكر قاسيت من الجوع وعرفت الحزن ، بل أن الموت احتضننى فى أرض الوطن

وعلى الأرض الأجنبية على السواء · الا أننى لم أبك لمثل هذه الأحداث ، لكنى بكيت فقط يوم أعلن قيام الدولة وليلة « ألتالينا » · حقا ، هناك دموع الخلاص كما أن هناك دموع الألم ، وأحيانا ما يكون الاختيار بين الدم والدمع · وكما تعلمنا من تمردنا ضد الباقى ، يكون من الضرورى أن يجرى الدم بدلا من الدمع ، وأحيانا أخرى ، كما علمتنا «ألتالينا » ، يكون من الضرورى أن يقوم الدمع مقام الدم · ينبغى ألا يغيب ذلك عن البال ، وبخاصة بال أولئك الذين ضربوا «ألتالينا» بالقنابل فقتلوا رجالها وأطلقوا النار على أولئك الذين كانوا يحاولون الخلاص من لهيبها، بما فى ذلك الجرحى ·

دعهم يفاخرون من قلوبهم بهذا العمل الذى « استحثهم شخص ما لكى يعملوه » ، أو يستبيحون لأنفسهم عذرا عن مسئوليته · ليذكروا كل شىء ينبغى أن يذكر ابتداء من التدبير السرى للمؤامرة حتى آخر قنبلة أطلقوها على السفينة المحترقة المضرجة بدم الأبرياء · لو أنهم تذكروا هذا ، اذن لأدركوا شعور الرجل الذى أرادوا أن يقضوا عليه ، ولربما فهموا أنه أحيانا مايكون من الأفضل أن يسكب رجل دموع قلبه كمدا على الرجس الذى ارتكب فى اسرائيل ، بدلا من أن يبكى كثيرا وكثيرا جدا على عواقبه ·

وهكذا ، لم تقم فى اسرائيل حرب يقتل فيها الأخ أخاه فتدمر الدولة اليهودية قبل أن تولد ، لم تقم حرب أهلية على الرغم من كل شىء !

الفصل الثالث عشر

المقاومة المتحدة

(١)

كان صيف عام ١٩٤٥ صيف النهاية ، صيف البداية ، صيف الانتصار ، صيف الارهاب ، صيف زوال الوهم ، صيف الأمل · انتهت الحرب العالمية الثانية ، وعلى الفور بدأت وحدة المنتصرين فى الانهيار ، المنتصرين الذين كانت تربطهم معا المصلحة السلبية فى الحرب ضد العدو المشترك · بدأ الخلاف بين الغرب والشرق ، وبدأت معه الاستعدادات لحرب ثالثة أشد هولا من سابقتها ، بل انها ستكون أبشع حرب فى تاريخ الانسان ·

جلب ذلك الصيف النصر للشعب اليهودى على الوحش «التيوتونى» ، الا أنه مع انهياره حل الرعب والفزع · كان هناك تأييد رسمى ونهائى ، آخر الأمر ، لابادة يهود أوروبا بالجملة · صارت أوروبا ، بسبب وحشية أعدائنا ، مقبرة للملايين اليهود · حدث ماتوقعناه · لم يبق على قيد الحياة من سبعة عشر مليون يهودى فى العالم بأسره سوى أحد عشر مليونا · أبيد ثلث شعبنا جزافا ومن غير مقاومة ·

فى أرض اسرائيل ، استمرت مطاردة أرجون تسفاى ليومى التى لم تكن لتستسلم او لتنتقم · الا أن أنظارنا كانت متجهة الى المستقبل · مع نهاية الحرب فتحت الدنيا أمامنا واستطعنا أن نسترعى الانتباه الى ركننا الصغير فيها ، كما تفتحت أيضا آفاق أوسع لنضالنا الحربى · توقع الباغى أن ننغمس فى حرب أهلية دامية تؤكد له السلام والسيادة ،

لكننا ـ نحن المتمردين ـ صممنا على أن نخيب ظنه فى هذا أيضا • ومع نقطة التحول التى جاءت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية عقدنا العـــزم، لا على المضى فى نضالنا وحسب ، بل وعلى تشديد هذا النضال على الرغم من الاضطهاد الداخلى •

حاولنا ، جاهدين ، فى غضون هذه المدة ، أن تقنع الدوائر اليهودية الرسمية بخطورة الساعة ، وأن نغريهم على الاقلاع عن تبـديد الجهـود بمحاربتنا ، وعلى توجيه بسالتهم ضد العدو بدلا من ذلك • ففى مايـو سنة ١٩٤٥ أرسلنا مذكرة شاملة الى مائتين وخمسين من اليهود البارزين ـ رؤساء المؤسسات ، والسياسيين الحزبيين ، والعلماء ، والاقتصاديين ـ وحددنا فى هذه المذكرة سياسة ثابتة •

كتبنا فى تلك المذكرة أننا « نقترح أن تجتمع الشـخصيات القائدة فى الييشوف من كل من الوكالة اليهودية ومن خـــارج الوكالة ، ومن كل من حزب العمــال ومن غير الحزبيين • وكخطوة ثورية أوليــة ينشىء المجتمعون مؤسستين :

١ ـ حكومة يهودية مؤقتة •

٢ ـ مجلس وطنى أعلى •

« والمفروض أن أعضاء الحكومة المؤقتة الذين يوقعون على الاعـلان التأسيسى سـوف تقبض عليهم السلطات البريطانية فورا مالم يعمـلوا فى الخفاء (تحت الأرض) » ويجب عليهم « أن يرحبوا بهذا الخطر أو هذا المصير عن طيب خاطر ، آخذين فى اعتبارهم ما قدمته الملايين من اليهـود العاديين والآلاف من زعمائهـــم الروحانيين والدينيين من أجل الشعب اليهودى ، كما ينبغى ألا يغيب عن بالهم المغزى السياسى لهذا العمـــل فى الخارج عامة ، وفى الداخل خاصة ، من حيث التفاف الجماهير حـــول زعامتهم المناضلة • الا أنه ، لهذا السبب ، يجب على (مؤتمر الممثلين) أن ينتخب قائمة ثانية وقائمة ثالثة من الأعضاء للحكومة المؤقتة ، ولايجوز الكشف عن شخصية هؤلاء الأعضاء ، الذين سيتعهدون النضال فى الخفاء اذا ما ألقى القبض على الأعضاء الأصليين أو اذا ما عجزوا أو أقعدوا عن العمـــل •

« يجب أن يختار المجلس الوطنى الأعلى ، الذى ستكون الحكومـــة مسئولة أمامه ، من ممثلى جميع الأحزاب اليهودية • وبينما يحتفظ هؤلاء بسياستهم المستقلة ، ينبغى لهم أن يتفقوا على برنامج سياسى واقتصادى واجتماعى موحد • وليس من شك أنه يوجد مثل هذا الأساس فى المجال

السياسى : « حكومة يهودية تتوسع فى التوطين ، حكم ديموقراطى حر ، المساواة فى الحقوق بين سكان الاقليم جميعا) . وفى المجال الاجتماعى : (رفع مستوى المعيشة للعمال وجميع طبقات الطوائف التى تفتقر الى وسائل المعيشة الكافية ، والتأمين الاجتماعى ، والاصلاح الزراعى ، وتوزيع الأراضى الزراعية على العاملين فيها ، وتأميم الخدمات العامة . . الخ) .

« تنشىء الحكومة هيئة أركان حرب عامة لتوحيد النهضة العسكرية ومجلسا اقتصاديا اجتماعيا لتنظيم وتحديد الاضراب العام فى صوره المختلفة ولتنظيم الامدادات ، ومجلس للشئون الخارجية لاقامة الاتصال بالعلماء الدوليين ، ومجلس تشريعى لاقامة المحاكم المستقلة ووضع دستور للجمهورية العبرية ، ومؤسسات أخرى مما تتطلبه مقتضيات الحرب والأحداث الجارية » .

(٢)

كان رد الفعل ازاء مقترحاتنا واضحا . بعثنا بممثلين الى عدد ممن أرسلت اليهم مذكراتنا لكى يوضحوا مضمونها ويتلقوا الاجابة عليها .

قال الحاخام «مائير برلين» رئيس «مزراحى» السابق لمبعوثنا «أميستور» : « اذا أحضرت لى خمسين شخصا ممن يبدون الاستعداد للتوقيع على مقترحاتكم فسأكون أنا أول من يوقع ، لكنك تعرف الموقف » . كان الحاخام «برلين» رجلا شجاعا مبجلا . فى ذات مرة ، عندما كانت حملة التفتيش البريطانية على أشدها ، أقترح على رفاقى أن ألتجىء الى منزله . حملت شكرى الى الحاخام الفهامة على عرضه الكريم . كانت تدابير أمننا فى ذلك الوقت لابأس بها ولم أجد مايدعو الى تعريض الحاخام «برلين» للخطر بوجودى فى منزله .

الا أننا كنا نظن أن من المستصوب ، بل من العدل ، أن يعرض زعماء الأحزاب أنفسهم ويخاطروا بمراكزهم لكى يحطموا الحلقة الخانقة التى تضيق حول الأمة بأسرها . طلب الحاخام « برلين » أن نقدم له خمسين افادة بالموافقة لم نفلح فى الحصول عليها ، بل أننا لم نوفق فى الحصول على خمس ، الا أننا لم نيأس ، وحتى سخرية «الحاذقين» لم تؤثر فينا . كنا نعلم أننا على حق . كان ذلك هو الشىء الأساسى ولم يجانبنا الصواب . هكذا فان أقتراحاتنا الأساسية التى رفضت فى مايو سنة ١٩٤٥ قبلت وتحققت فى مايو ١٩٤٨ . وان ثلاث سنوات ليست بالفترة الطويلة حتى فى عصر الراديو والطائرة .

لم تتحمل السخرية ثلاث سنوات . والواقع أنها تبخرت فى خلال

أشهر قلائل من رفض اقتراحاتنا ، لأن الوهم المؤلم الكبير لم يدم طويلا٠ أجريت الانتخابات العامة فى بريطانيا ، ولم يبق من الصور الخادعة جميعها التى تبلورت ابان الحرب العالمية سوى الطعم المرير ٠

كان « الياهو جولومب » قد أكد لى ، فى الحديث الوحيد الذى أجريته معه أيام كنا فى المقاومة السرية ، أنه اذا جاء حزب العمال الى الحكم فى بريطانيا فاننا سوف نحصل « على جانب من مطالبنا على الأقل » ٠ويبدو أن « جولومب » لم يكن هو الوحيد الذى يبدى سلامة النية هذه ، فلقد شاركه فيها كثير من زملائه فى مختلف المؤسسات اليهودية ، فلا عجب اذن أن يرقص هؤلاء الذين تأثروا بالضوء الخادعة ، طربا ، لأنباء هزيمة «تشرشل» و «ايدن» فى الانتخابات ، ومجىء «آتلى» و «بيفن» بدلا منهما٠ لقد استمد المبتهجون ثقتهم مما سموه « الصداقة التقليدية » التى تكنها حركة العمال الاشتراكية البريطانية للصهيونية٠ كانوا يثقون ثقة لايتطرق اليها الشك فى قرار مؤتمر « بلاك بون » لحزب العمال الذى طالب باقامة دولة يهودية فى فلسطين ٠ بل ان المستر « آتلى » وعد بنقل سكانها العرب ٠ وفى الفترة التى سبقت الغزو العربى سنة ١٩٤٨ ، كانت السلطات البريطانية هى التى حثت العرب على الهروب من الاقليم لكى يعودوا اليه منتصرين فيما بعد ٠ ولذا يمكن أن يقال أنها حققت نصف وعد حزب العمال ، النصف الثانى ، أى نقل سكان فلسطين العرب ٠ أما النصف الأول ، أى اقامة دولة يهودية فى فلسطين ، فقد كان علينا نحن أن نحققه للسلطات البريطانية ٠

ان كل من يتذكر تلك الأيام من سنة ١٩٤٥ وماحل بعدها لابد وأن يجد الآن أنه من الصعوبة بمكان ان يفهم كيف كان الزعماء اليهود الرسميون عميا لايبصرون ، بصورة محزنة ٠ لكن الحقائق هى الحقائق٠ لم يجاوز الابتهاج الرسمى لفوز حزب العمال سوى الابتهاج يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ عندما قررت منظمة الأمم المتحدة تقسيم فلسطين ٠

كتبت « دافار » ، الأداة الرئيسية للزعامة الرسمية فى سنة ١٩٤٥ :

« ان انتصار حزب العمال الذى رفع شعارات الصهيونية أثناء الحملة الانتخابية هو ، اذن ، انتصار واضح لمطالب الصهيونية داخل الرأى العام البريطانى » ٠ كما أرسلت التهنئة التالية ، المبالغ فيها بسماحة ،الى سكرتير حزب العمال البريطانى :

« تهانينا القلبية لانتصاركم الباهر ٠ لقد تابع عمال فلسطين ارتقاءكم الى أعلى مراتب المسئولية الداخلية والدولية بالمودة والثقة ٠

وإننا لعلى يقين من أنكم وأنتم بسبيل تحقيق مشروعاتكم العظيمة سوف تعملون من فوركم على انقاذ شعبنا من بقايا معاناته ، وعلى اقامة وطن مستقل لهذا الشعب » ٠

علاوة على المقالات البهيجة والبرقيات الحماسية ، كانت هناك الخطب والبيانات المفعمة بالوعود التي كادت أن تكون وعودا مسيحية ، بل كان هناك أيضا رقص شعبى فى شوارع تل أبيب ٠ وقصارى القول ، لقد كان انتصار العمال الانجليز انتصارا لنا ، فقد وصلت جماعة «آتلى ـ بيفن » الى « أعلى مراتب المسئولية الداخلية والدولية » ، ولذا يجب على اليهود أن يبتهجوا ٠

ولعل مما يستوجب الاهتمام أن تقارن ، فى هذه الحالة ، ردودفعل الزعماء الرسميين بالشعور السياسى للمتمردين فى أقبيتهم ، الذين يقال بأنهم يفتقرون الى « الرؤية السياسية الفسيحة » ، فبينما كان الواهمون المخدوعون يقرعون طبول التفاؤل نشرت ارجون تسفاى ليومى البيان التالى:

« جاءت الى الحكم فى بريطانيا حكومة من حزب العمال ٠ تعهد هذا الحزب قبل أن يأتى الى الحكم بأن يعيد أرض اسرائيل الى شعب اسرائيل كدولة حرة يستطيع أن يعود اليها كل المنفيين من صهيون ، أولئك الذين يتحرقون شوقا الى صهيون ٠

« وليس هذا فى حد ذاته ضمانا للحصول على هدفنا الوطنى ٠ ان الشعب اليهودى الذى تربى فى المعاناة قد علمته التجارب ٠ أن الرجال والأحزاب وهم فى المعارضة قطعوا الكثير من الوعود طوال خمس وعشرين سنة وتعهدوا بالتزامات واضحة ، الا أنهم عندما يأتون الى الحكم يرجعون عن أقوالهم ويداومون على سياسات سلفهم ٠ كانت عاقبة ذلك اغتصاب بلدنا وهلاك شعبنا ٠ أن هذه التجربة التى كلفت الشعب اليهودى ستة ملايين قتيل تعلمنا أن حرب التحرير ، مطلقة ، شديدة البأس ، هى وحدها الكفيلة بأن تدفع العوامل السياسية والدولية الى الحركة وتأتى بالخلاص لشعبنا المضطهد الذى هلك منه من هلك ٠

« ان الاستنتاج التاريخى لا يزال صحيحا ٠ ان الكفاح الذى يشترك فيه الشباب كفاح لم يجازفوا به من أجل الحصول على تصريحات ودية ومن أجل الغاء قوانين ٠ لقد تعهدوا الكفاح من أجل الحصول على الهدف الأساسى : اقامة حكم يهودى فى أرض اليهود ٠ وسيستمر الكفاح الى أن يتحقق الهدف ٠ ذلك هو السبب الذى من أجله لم نضع سلاحنا بعد ،

وذلك هو السبب الذى من أجله دخلنا مرحلة العمليات الشاملة خـلال الأيام القليلة الماضية على الرغم من التهديدات الداخلية والخارجية •

« الا أنه بالنظر الى جميع أعضاء الحكومة البريطانية ، بوصفهم أعضاء في حزب العمال ، قد وقعوا على برنامج العودة الجماعية الى صهيون واقامة الدولة اليهودية ، فاننا نعتبر أن من واجبنا ، وبدافع من الشعور بالمسئولية ومن ارادتنا الحرة ، أن نعطيهم فرصة لاثبات ما اذا كانوا يقصـدون أن يتخذوا نفس الطريق الذى سلكه سلفهم جميعا ـ طريق الانكار والأعذار ـ أو ما اذا كانوا يقصدون أن يوفوا بتعهداتهم العلنية الجليلة دون ما ابطاء •

« وبالنظر الى حالة شعبنا المعلومة ، فان فترة قصيرة من الزمن ـ أسابيع لاشهور ـ هى اللازمة لكى يقرروا ما اذا كانوا يقصـدون أن يترجموا أقوالهم الى أفعال ، أو ما اذا كانوا سيضيفون الى أوهام الشعب اليهودى الكثيرة المفجعة وهما آخر ، ربما كان الأخير ، ولن يتبدد الا اذا استجمعنا قوانا جميعا للحرب ، الحرب حتى النهاية ، الحرب حتى النصر » •

انقضت أسابيع قليلة فقط قبل أن يقدموا البرهان • لقـد فتـح «بيفن» فمه • انقلب للعالم رأسا على عقب ، وعندما سمع شعبنا كلماتـه تلاشى حلم ليلة الصيف ، فلا وعد من العمال ، ولا قرار فى بلاك بول ، ولا مودة • كان كل مابقى هو القبضة البريطانية التقليديـة ، وكان فى مواجهتنا هو «بيفن» الذى كانت كراهيته لليهود أسطورة بالفعل •

مع زوال الوهم انتهت أشق بل وأشد مرحلة فى فترة التمـرد المضاد للبريطانيين اثارة للخجل • أدرك زعماء الوكالة أنهـم ماكانوا ليستطيعوا • بعد أن يشاركوا مثل هذه « السلطات » فى العمل • أعطى الأمر بايقاف حملة التشهير ضد ارجون ، وبتسليم المعتقلين والمختطفـين • خففت الهاجاناه من ضغطها ، وأرسلت الينا أول جماعة لجس النبض حول اقامة جبهة متحدة •

كنا نعلم ، رغما عن مرارة تجاربنا ، أننا سوف نجد فى أنفسـنا القوة لكى نمد أيدينا للوصول الى ماكنا نتمناه دائما : وحدة مقاتلة ، جبهة متحدة ضد الباغى • أى شىء لم نحتمله ونضح به فى سبيل تحقيق هذه الغاية ؟ الواقع أن أحد الأسباب القاطعة لكبح جماح أنفسنا المثير كان الاعتقاد فى حتمية الجبهة المتحدة ، ولقـد آن الأوان • لم تذهب تضحياتنا سدى • ان الرجال الذين غدر بهم وفترت همتهم خلف الأسلاك الشائكة فى الوطن وعلى التراب الأجنبى هبوا من فورهم لتأييد قرارنا •

وهكذا قبلنا ، من غير تعديل ، مبدأ الوحدة المقاتلة ، الا أننا لم نستطع أن نوافق على المفاوضات الفورية . كانت الهاجاناه لاتزال تحتجز واحدا من رجالنا هو «اليتسر» ، وهو محارب متمرس فى المقاومة السرية . كانت الظروف التى كان عليه أن يعيش فيها ظروفا تعسة لدرجة أنها نالت من صحته بصفة دائمة . لم يستطيعوا البتة أن يحطموا روحه العالية . أخبرنا ضباط الهاجاناه أننا لانستطيع أن نناقش أى اتفاق طالما كانت حالة الاضطهاد مستمرة ، أو بينما كان « اليتسر » لا يزال محتجزا . لم يكن فى استطاعتهم أن يعيدوا الرجال الذين كانوا قد سلموهم للسلطات البريطانية ، الا أن « اليتسر » كان فى قبضة أيديهم هم . رفضنا أن نساوم على هذه الشروط فقبلت آخر الأمر . وفى يوم مشرق ظهر « التسر » من جديد لينطلق فى طريق الدياسبورا الفعال الطويل الشاق .

هرب «اليتسر» هو وضابط آخر من ضباطنا أسمه «حنانيا» الى ايطاليا على ناقلة بترول . كانت تعليمات « اليتسر » أن ينظم «الارجون» فى الدياسبورا (المهجر) وأن يضع الخطة لمشروعات اعادة اليهود الى الوطن . بذل « اليتسر » قصارى جهده لتنفيذ هذه الواجبات الموكولة اليه . نشأت ارجون فى الدياسبورا ، وعملت كقوة مساعدة فى أوروبا وألقت الرعب فى قلوب أعدائنا خارج حدود أرض اسرائيل ، كما كانت بمثابة قوة احتياطية لوحداتنا فى أرض اسرائيل . لكننا كابدنا حبوط مساعينا فى مجال « الهجرة غير المشروعة » . حصل « اليتسر » على سفينتين فى ايطاليا . قدمت له اللجنة العبرية للتحرير الوطنى فى الولايات المتحدة ، هى وادارة مهايا الحكومة البريطانية فى «الحضيرة» ، الموارد اللازمة ، ولكن عملاءنا بالمهمة التى كلفوا بها وقعوا فريسة لعصابة خاصة للأخذ بالثأر لاعلاقة لنا بها . أضرمت النار فى احدى السفينتين ،وخربت السفينة الثانية . وهكذا أصيب عملنا فى اعادة اليهود الى الوطن بالشلل ، وكان قد حقق انجازات عظيمة قبل الحرب العالمية الثانية .بعد هذا الفشل الذريع فى ايطاليا مضت سنتان تقريبا قبل أن تتمكن اللجنة العبرية للتحرير الوطنى من اقتناء السفينة «بن هشت» . أحضرت هذه السفينة قرابة ألف من العائدين الى الوطن ، الا أنهم ـ شأنهم شأن أغلب العائدين فى ذلك الوقت ـ أبعدوا الى جزيرة قبرص .

لكن الانجازات وحبوط المسعى فى الدياسبورا كانت لاتزال مخبأة فى تلك الأيام من سنة ١٩٤٥ . وعندما أطلق سراح «اليتسر» على يد مختطفيه عمنا السرور لهذه المناسبة . زالت آخر عقبة فى سبيل عقد

اجتماع بيننا وبين الهاجاناه ، وعقد الاجتماع فى حينه وحضره المتحدثون باسم المنظمات المكافحة الثلاث . كان أحد المتحدثين باسم الهاجاناه واحدا من معارفنا القدامى هو « موشى سنيح » ، وثانيهما « اسرائيل جاليلى » الذى قابلته حينئذ للمرة الأولى ، ومثل شيترن جبهة تحرير اسرائيل « ناتان فريدمان » ، وتكلمت أنا عن ارجون تسفاى ليومى . لم يكن هناك وقتئذ أى « انذار نهائى » أو أى حديث عن التصفية ، بل تكلمنا عن الوحدة المقاتلة .. تكلمنا عن آمال الشعب .

(٣)

اقترح «سنيح» و «جاليلى» اندماجا تاما للمنظمات المسلحة جميعا . أثار عديدا من الأسباب ، الا أن مجادلتهما الرئيسية دارت حول التشكيل الوشيك « لحركة المقاومة اليهودية » .

قالا أن « الهاجاناه أعلنت الحرب على (ورقة الحكومة البيضاء) ، فلماذا اذن لاتنضمون الى صفوفنا ؟ لقد اعتدتم أن تجادلوا بأننا اذا بدأنا فى محاربة البريطانيين فانكم سوف تكونون على استعداد لقبول نظامنا . لقد حان الوقت الآن . لقد بدأنا الحرب وسوف نستمر فيها قطعا ، وليس الأمر واجبا عليكم من حيث أنه نظام وطنى فحسب ، ولكن مبادئكم أيضا نسمح لكم بالانضمام الى الهاجاناه حيث يتحقق لوحداتكم فى فترة الانتقال درجة معينة من الاستقلال الذاتى » .

أخبرنى «ناتان فريدمان » فيما بعد أنه ربما كان مستطيعا أن يقبل هذا الاقتراح ، الا أن قيادة ارجون كان لها أن تجرى مناقشة مبدئية . لقد كنا مستعدين لأن نذوب تحت رداء «الوحدة» . شرحت لجاليلى وسنيح الفرق فى المنزلة السياسية والتنظيمية بين ارجون والهاجاناه . كانت الهاجاناه تفاخر بأنها تأتمر بأمر الوكالة اليهودية ، وكنا نحن نعتبر هذه العلاقة نقيصة كبرى بل ربما كانت نقيصة حاسمة . الكفاح من أجل التحرير . ان هناك قوانين طبيعية تحكم رغبة كل انسان للاستمرار فى أن يبقى ، وأن يداوم على أسلوبه فى البقاء وتحاول الهيئة المشروعة، المعترف بها والمحترمة ، أن تبقى شرعية ، معترفا بها ، و « محترمة » . وتحاول الهيئة غير المشروعة ، المكافحة ، المضطهدة أن تحقق الهدف الذى من أجله تصبح فى الواقع مكافحة مضطهدة هناك بين المحاولات الطبيعية لهذه الهيئات ، صراع موضوعى . قد تستطيع ارادة الأفراد أن تخفف من حدة هذا الصراع أو تعمل على تصعيده ، ولكنها أبدا لاتستطيع أن تعمل على تصفيته . ان صدام المآرب هذا لابد أن ينتهى حتما الى طريق

من اثنين : أما أن الهيئة المشروعة تجبر الهيئة غير المشروعة على ايقاف كفاحهم الذى يهدد بتقـــوية مكانتها الشرعية ، أو أن تتحلل المنظمة المكافحة من قيود اعتمادها على الهيئة المشروعة ، ولا ثالث لهذين الطريقين ٠

حتى « رينشارد كروسمان » أدرك هذه الاعتبارات ، فهو يكتب فى كتابه « مهمة فلسطين » الشهادة التى أدلى بها المستر « بن‌جوريون » أمام لجنة التحقيق الأمريكية الانجليزية ٠ وفى اجابة على سؤال «ماننجهام » ـ بوللر » عما اذا كان يتفق مع الدكتور وايزمان فى أدلته للعنف قال «بن جوريون» انه ملتزم بها ، ولكنه استطرد ليصرح بضرورة الاقلاع عـــن مشاركة الوكالة اليهودية فى القضاء على الارهابيين لأنها مشاركة لا جدوى منها ٠ لقد كان يبدو وكأنه يريد أن يظل الأمر على وجهيه على حد سواء، بمعنى أن يتمسك بحرفية القانون بوصفه رئيس الوكالة ، وأن يحتمل الارهاب فى نفس الوقت وسيلة للضغط على الحكومة ٠ وتلك سياسة مريبة لقد حزم الزعماء الايرلنديون أمرهم واختاروا المقاومة السرية ٠ وانى لأعجب ما اذا كان من الحكمة أن يفعل « بن جوريون » نفس الشىء أو أن يقبل ارشادات «وايزمان» والمعتدلين الذين كانوا يرون صادقين مخلصين أن من الخطر أن تستخدم القوة ٠

ومن ثم فسرت وجهة نظرنا لممثلى الهاجاناه ٠ قلت : « أننالانستطيع أن نفرط فى وجودنا المستقل ، وأننا لن نفكر فى هذا قطعا فى المرحلة الأولى من مراحل العمل المشترك ٠ اننا مسرورون اذ أنكم غيرتم فكرتكم ، الا أننا قلقون من المستقبل ٠ اليوم أمرتكم المؤسسات الأهلية أن‌تحاربوا فى اتجاه آخر ضد البريطانيين ، وبالأمس أمرتكم أن تحاربونا ٠ من ذا الذى يدرى ماذا عســـاهم أن يأمروا بما تفعلونه فى الغـــد ؟ ان اتخاذ القرار ليس فى أيديكم ٠ هناك آخرون يتخذون لكم القرارات ، واذا ماغيروا رأيهم فماذا عسى أن يحدث لكم ، وماذا عسى أن يحدث لنا ،وأهم من هذا وذاك ماذا عسى أن يحدث للكفاح ؟ افترض أنكم ستتلقون الأوامر ، أما نحن فاننا ـ كما قلنا مرارا وتكرارا ـ سوف نحارب الحكومة‌البريطانية طالما كانت تحكم فى الاقليم ، فماذا ستكون النتيجة ؟ انفصال جديد بعد الوحدة ؟ لماذا نريد كل هذه التعقيدات ؟ فلنسلم ، اذن ، بما يمليه الواقع٠ لقد دخلت الهاجاناه الحرب الآن ، أما نحن فقد خضناها منذ وقت طويل٠ فلننشىء جبهة متحدة على الرغم مما حدث فى الماضى ، واذا آمنا بقيم الكفاح بصورة جادة فلن يتعذر الاندماج ٠ لكن اذا قررتم ، لسبب أو لآخر ،

ان تنبذوا الكفاح فلن نحذو حذوكم ، سنستمر فى الكفاح ، ومن ثم يكون اتفاقنا واضحا وعمليا ، لا تصاحبه أية (تحفظات ذهنية) غير مباحة » ٠

لم نتمكن من التوصل الى أية نتائج عملية فى اجتماعنا الأول ٠ كان على ممثلى الهاجاناه أن يرفعوا اجابتنا الى رؤسائهم ، بينما كان على المتحدثين باسم المقاومة السرية أن يتشاوروا كذلك مع زملائهم ٠ وبعد انقضاء عدة أيام انعقد اجتماع ثان ، وفى غضون ذلك قبلت جبهة تحرير اسرائيل وجهة نظرنا واتفقنا سويا على مسلك مشترك ٠ قررنا متابعة وجودنا المستقل ، الا أننا اتفقنا ، من أجل وحدة القتال ، على عمليات مستقلة ـ فيما عدا « المصادرة » ٠ وبموافقة رؤساء الوكالة اليهودية قبل ممثلو الهاجاناه اقتراحاتنا المضادة ، اتفق فيما بيننا على أنه اذ تحتفظ المنظمات السرية باستقلالها المتوازن ويكون الصوت الذى يقرر العمليات الهجومية ضد حكومة « بيفن » هو صوت قيادة « حركة المقاومة » (١) ، الا أن الاقتراحات يمكن أن تأتى من أى جانب ٠ خولت حركة المقاومة السلطة على أن يكون علينا تنفيذ العمليات ضد البريطانيين ، وكان لنا مطلق الحرية أن نقترح خطط العمليات ، الا أنه كان ينبغى لنا أن نحصل على التصديق على وضعها موضع التنفيذ ٠ كما اتفق على أنه لن تتخذ أية قرارات تعسفية ، وأن تكون هناك مناقشات ، فى مواعيد محددة ، بين ممثلى المنظمات الثلاث حول الموقف السياسى والمسائل العسكرية ، أما عن العمليات التى تهدف الى لاستيلاء على الأسلحة (أو النقود) من السلطات لقد اتفق نهائيا على اطلاق الحرية لنا لنتخذ قرارا بشأنها بحسب ارادتنا ٠

وجدت الاتفاقية صدى فى البرقيات السرية التى بعث بها « موشى سنيح » الى زملائه فى الخارج ، وبطريقة غامضة وجدت هذه البرقيات طريقها الى المخابرات البريطانية ، وقد أمكن حل رموز هذه البرقيات على أيدى عملاء المخابرات ٠ نشرت الحكومة البريطانية هذه البرقيات فى ورقة بيضاء خاصة ، ويجب أن أسجل أن هذه الورقة البيضاء الخاصة عن « العنف فى فلسطين » كانت واحدة من الوثائق البريطانية القليلة عن فلسطين مما قرأته ، وكانت خلوا من أى تحريف ٠ ربما كانت هناك وثائق أخرى من مثل هذه الوثيقة ، الا أننى لم أرها ٠ تتناول الورقة البيضاء لسنة ١٩٤٧ حقائق ، فهى تستشهد ، مثلا ، باذاعة « كل اسرائيل »

---

(١) فيما يتعلق بمنظمة ارجون كانت « حركة المقاومة » و « الهاجاناه » مترادفتين وبالتالى كان التعبيران يستعملان بالتبادل ٠

(محطه الاذاعة الرسمية لحركة المقاومة اليهودية) ، وتضيف أن هـذه الاذاعة ذات أهمية خاصة نظرا لأنها كانت معتمدة من رئيس الادارة السياسيه للوكالة اليهودية المستر « موشى شرتوك » •

كان هذا حقا ، ففي واحد من اجتماعاتنا هنأت « سنيح » على الاذاعة الدقيقة السليمة من الوجهة السياسية • تقبل التهنئة واضاف : « هل تظن أننى قدمت هذه الاذاعة على مسئوليتى ؟ لقد صدق موشى شرتوك على النص » •

كتب « سنيح » فى برقيات أخرى متعلقة بالاتفاقية مع المنظمات السرية (برقية ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٥) يقول :

« من المقترح أننا لا ننتظر اعلانا رسميا ، بل ندعو اليهود جميعا ليحذروا السلطات ويرفعوا الروح المعنوية فى البيشوف • يمكن ، اذا وافقتم ، أن تطلبوا من تسيف شيرف البيـــانات الاحصائية عن سعة الاستيعاب •

« وقد اقترح ايضا أن نتسبب فى حدث خطير ، على أن نعلن بعدئذ أنه كان مجرد تحذير ، وأنه دلالة على أحداث أخرى أعظم خطرا قد تهدد سلامة المصالح البريطانية فى الاقليم اذا ما اتخذت الحكومة قرارا ضدنا • أبرقوا بوجهة نظركم ، مع ذكر الشواهد والمراجع كما سبق ، ومع الاحالة الى البيانات الاحصائية عن الهجرة ابان سنى الحرب • أعربت جماعة شتيرن عن رغبتها فى الانضمام الينا نهائيا على أساس برنامج نشاطنا • يبدو أن النوايا صادقة هذه المرة • اذا كان هناك مثل هذا الاتحاد فقد نفترض أننا نستطيع أن نحول دون اتخاذ تصرفات مستقلة حتى من جانب ارجون تسفاى ليومى • أبرقوا بوجهة نظركم عن مسألة الاتحاد ، مع الاشارة الى البيانات الاحصائية عن تجنيد اليهود للجيش » •

وفى برقية يوم أول نوفمبر ١٩٤٥ يقول :

« انتهينا الى اتفاق عمل مع المنظمات المنشقة تختص بموجبه واجبات معينة عليهم تحت قيادتنا • سيتصرفون فقط طبقا لخطتنا • ويرى سنيح وشاؤول مائيروف وبرنارد جوزيف أن مثل هذا الاتفاق أمر مرغوب فيه ، الا أنه لم يوضع موضع التنفيذ لأن الحزب يعمل على ارجائه • يعارض بعضهم أى نشاط ، كما يعارض أية اتفاقية مع المنشقين بصفة خاصة •

« نفذت العملية التالية يوم الأربعاء • أغرق قاربان فى حيفا وأغرق قارب ثالث فى يافا • كانت القوارب الثلاثة منهمكة فى اصطياد المهاجرين • قطعت السكة الحديدية فى ١٨٦ نقطة • كان هناك ٥٠٠ انفجار • عطلت

حركة النقل بالسكك الحديدية من الحدود السورية الى غزة ، ومن حيفا الى سمخ ، ومن اللد الى القدس • لم تقع أية اصابات في جميع العمليات ، كما أن أحدا لم يقبض عليه •

« في تلك الليلة هاجمت ارجون تسفاى ليومى محطة اللد فأحدثت أضرارا جسيمة وتسببت فى عدد من الاصابات ، ودمرت جماعة شتيرن معمل تكرير البترول فى حيفا تدميرا شديدا وقتل رجل • وقام المنشقون باخطارنا مقدما ، ولم نمانع فى عملية اللد ، ولكننا عارضنا فى عملية معمل التكرير • ولو أن الاتفاقية كانت نافذة المفعول ، اذن لاستطعنا أن نمنع حدوث الاصابات فى اللد ولأوقفنا عملية معمل التكرير • اننى أعتبر ارجاء موافقة الحزب واللجنة التنفيذية بمثابة جريمة » •

ان الاتفاق بين الجماعات التى تشكل معا حركة المقاومة ـ الوكالة اليهودية والهاجاناه والمنظمات السرية ـ لم يكن مكتوبا بالمداد ولكنه كان ممهورا بالدم • كان شرطه الأساسى هو العمل • لقد فرض علينا الاتفاق حدودا خطيرة ، لكننا راعيناه لا بروحه فحسب بل وبالحرف غير المكتوب • ومنذ نوفمبر ١٩٤٥ الى سبتمبر ١٩٤٦ حيث توقفت الهاجاناه عن الحرب ، كنا نهاجم البريطانيين طبقا للخطط المعتمدة من قيادة حركة المقاومة ، ولم نقم بعملية واحدة دون تصديق مسبق اللهم الا فيما يتعلق بعمليات « المصادرة » التى كان لنا مطلق الحرية فى القيام بها بأنفسنا بناء على الاتفاق •

تمت واحدة من عمليات المصادرة قبل التوصل الى اتفاق العمليات ، فبينما كنا لا نزال نناقش مواد الاتفاق نفذت احدى وحداتنا الى معسكر حربى فى « رحابوت » حيث كانت تعسكر وحدة بريطانية تشمل جنودا من اليهود ، واستطاعت وحدتنا دون أن تحدث أى أذى بأحد ، أن تحمل معها عدة مئات من البنادق وبضع عشرات من رشاشات برن وعددا من الرشاشات الخفيفة وكمية كبيرة من الذخيرة ومهمات حربية أخرى • استنكرت اذاعة « كل اسرائيل » هذه العملية استنكارا شديدا • وجه « سنيح » و « جاليلى » اللوم الينا على القيام بهذه العملية بينما كنا نتفاوض لعقد اتفاق • اشتكت جبهة تحرير اسرائيل ، من جهة أخرى ، لأننا لم ندعهم الى الاشتراك فى العملية •

لم يكن موقفنا سارا • لم نكن نود أن نقول لرفاقنا فى السلاح غير الصدق ، الا أننا لم نستطع أن نقول لهم الصدق • الحقيقة أننا أنفسنا

أخذنا على غرة · لم يجر تنفيذ عملية « رحابوت » بناء على أوامر القيادة ولكنها تمت على مسئولية القائمين بها أنفسهم · خشى جماعة من صغار ضباطنا المعدودين من أحسن وأخلص ضباط أرجون ألا يسمح لهم بتنفيذ الخطة التى قصد بها اشباع مستودع أسلحتنا ، فتكتموا الأمر ولم يقولوا شيئا لأى أحد ، ثم مضوا فى تنفيذها ·

كان هذا فعلا انتهاكا للنظام ، ووضعنا هذا التصرف فى موقف حرج ، ولذا وبخت زملائى صغار الضباط المخلصين توبيخا شديدا ، وتمشيا مع قوانين التآمر وقفت من وراء ستار لأكيل لهم عبارات التأنيب ، الا أننى ـ فى دخيلة نفسى ـ كانت أحاسيسى مختلطة · تذكرت أنه كان هناك فى الامبراطورية النمسوية القديمة وسام خاص لأعمال البطولة التى يمارسها الجنود مخالفين لأصول الضبط والربط والانتظام العسكرى ·

كان من بين أولئك الذين اشتركوا فى غزوة الأسلحة على معسكر « رحابوت » كثير ممن لعبوا دورا بطوليا فى الكفاح من أجل التحرير ، وهناك عدد غير قليل ممن لن أراهم ثانية ، ولى أمل أنهم غفروا لى عبارات التقريع المريرة التى وجهتها اليهم فى تلك الليلة أثناء تادية واجبى · كانت هذه هى العملية الوحيدة طوال كل سنوات التمرد التى نفـــذت بمعرفة جنود ارجون بدون تعليمات أو تصديق أو تفويض من القيـادة العليا · اذا كان موضوع الضبط والربط هاما فى كل جيش ، فكم يكون أكثر أهميـــة فى جيش يحيط به الأعداء والخصـوم ؟ ان الذين قاموا بمصادرة الأسلحة فى « رحابوت » لابد أنهم يدركون ذلك ، وأنا أعرف أنهم كانوا يشاركوننى آلامى · ربما كان الأجدر بهم أن يمنحوا ميدالية بدلا من أن يوجه اليهم اللوم ، أو لعلهم كانوا أولى بالاثنين معا ! لقد تلقوا اللوم ، ولكن أين الميداليات ؟ لم تكن هناك انعامات أو أوسمة فى جيشنا ، جيش المقاومة السرية ، بل ان محاربينا كانوا يكافأون على أبرز الأعمال البطولية بمجرد احساسهم بالســـعادة لأداء الواجب · هذا هو الوسام الذى نالته جماعة « رحابوت » الخارجة على الضبط والربط وحسن الانتظام · وما أكثر أعمال التحرر النافعة التى أنجزت بتلك الرشاشات البرن وتلك البنادق المصادرة بالذات !

(٤)

استمرت حرب الهاجاناه ضـد البريطانيين تسعة أشهر فقط من نوفمبر سنة ١٩٤٥ الى يوليو ١٩٤٦ ، وظل تعاونهم وايانا عشرة أشهر من نفس شهر نوفمبر الى شهر أغسطس التالى · كانت مؤتمراتنا المشتركة

تنعقد عادة مرة كل أسبوعين ، وكان يجرى اجتماع بين ضباط العمليات قبل كل عملية متفق عليها • كنا نحن الذين نرسم خطط الهجمات التى تنفذ بالاشتراك بين وحداتنا للاقتحام وبين جبهة تحرير أسرائيل • وبناء على ذلك كان « آيتان » يمثلنا فى مؤتمرات العمليات ، وبعد أن قبض عليه كان « جدعون » هو الذى يمثلنا فيها ، وأحيانا كان يحضر هذه المؤتمرات « أودى » ضابط عمليات جبهة تحرير اسرائيل • كان « اسحاق صادح » هو الذى يبت نيابة عن الهاجاناه فى الخطط التى كنا نتقدم بها ، ولم يكن « صادح » ليهتم بتفاصيل أية عملية ، وانما كان يطلب الخطوط الرئيسية للخطة ، وغالبا كان يصدق على مقترحات ضباط عملياتنا . ودائما كانت تعطى تصديقاته لايتان أو جدعون ، اللهم الا فى أول عملية متفق عليها ضد محطة سكة حديد « اللد » حيث أعطى التصديق كتابة لقيادة أرجون • كان هذا التصديق مؤرخا فى ٢٥ أكتوبر ، وقد جاء به أن :

« ١ ـ حجم الوحدة ومهماتها وتنظيمها مما يناسب الغرض (فيما عدا الهاون الذى لن يكون مؤثرا فى مثل هذه الظروف) ، واذا زيدت قوة الحرس فلا تنبغى زيادة عدد الأفراد بل يجب أن تكون الزيادة فى قوة النيران •

٢ ـ تتكون الخطة من جزأين : (أ) المنطقة بين الحديقة والأكواخ ، و (ب) منطقة مجموعة الأكواخ والانفاق • ويجب تنفيذ الجزء الأول أولا (دون اتلاف الأنفاق) طبقا للاعتبارات التكتيكية ، ويمكن تنفيذ هذا الجزء بتطبيق مبدأ المفاجأة قبل أن يفيق الحرس ويصبحوا قادرين على ابداء المقاومة الفعالة • فى الظروف الراهنة يتعذر تنفيذ العملية فى النفق بنفس الأسلوب •

٣ ـ الهدف فى حد ذاته ـ النفق ـ ليست له أهمية كبرى ولا يبرر أى انحراف عن الاعتبارات التكتيكية فى هذه المرحلة •

٤ ـ قد يساعد على تنفيذ العملية بنجاح قطع التيار الكهربائى بقفل الدائرة الكهربية أو بأية وسيلة أخرى •

٥ ـ ينبغى العمل على التغلب على الحرس دون الالتجاء الى استخدام الأسلحة •

وأخيرا ، نؤكد أنكم ستتلقون اخطارا بتنفيذ العملية قبل الوقت

المحدد لذلك بنحو ثمان وأربعين ساعة على الأقل ، وسنعمل على ابلاغكم جميع التعليمات المتعلقة بالتنفيذ على الفور » .

كان هناك ارتياح بالغ فى المعسكر للهجوم الوشيك الوقوع الذى تشترك فيه المنظمات اليهودية جميعا . واذ رحب مقال فى صحيفه « حيروت » بهذا الحدث العظيم فانه استحث « الشباب الذين شقوا الطريق الى الكفاح من أجل التحرر بأجسادهم » :

« أى شىء لم نحمله على عاتقنا طوال السنوات التى وقفنا خلالها وجدنا فى ميدان المعركة ، علم الحرية فى أيدينا وحرارة الايمان فى قلوبنا ؟ أية تضحيات لم نقدمها ؟ كم عدد من سقط منا ؟ وكم كان عدد المعتقلين والمنفيين عظيما هل تذكرون ، فضلا عن ذلك ، اشهر الاضطهاد ؟ هل تذكرون التصرف غير المعقول » الذى اتخذناه عندما جابهنا أفضع تهديد فى تاريخنا ؟ حتى فى هذه الأيام ، لم نفقد ايماننا بأنه سيجىء اليوم الذى نحارب فيه جنبا الى جنب مع اخواننا . لقد جاء هذا اليوم . فلنشكر رب اسرائيل الذى أنزل فى قلوبنا الايمان والادراك والمحبة فاستطعنا أن نتحاشى الحرب الأهلية . وهكذا كانت حرب التحرير » .

الا أن الهجوم على محطة سكة حديد اللد الذى لقى نجاحا تاما كان من المحتمل أن ينتهى الى فشل ذريع أو عواقب وخيمة للمهاجمين . خرجت وحدة الاقتحام مع وحدة من جبهة تحرير اسرائيل الى اللد دون أن تتلقى أية معلومات عن عمليات التخريب الواسعة النطاق فى شبكة السكك الحديدية التى تمت على أيدى الهاجاناه قبيل منتصف الليل بساعة واحدة . لم نلح فى تزويدنا بمثل هذه المعلومات ، ثم ان الاتفاقية المبرمة بيننا لم تتضمن أية مواد تفصيلية فى هذا الشأن . كنا نظن أن الحاجة الى مثل هذا الاخطار المسبق واضحة جلية . كانت النتيجة أنه عند وصول وحدتنا الى اللد ــ متأخرة نوعا ما لاضطرارها الى سلوك طريقها من بتاح تيكفاه سيرا على الأقدام فى طرق غير مألوفة ــ كانت النتيجة عند وصولها أن كانت المتفجرات على أشدها بالفعل فيما يزيد عن مائتى نقطة منتشرة فى جميع أنحاء الاقليم . كان بعض الانفجارات يسمع فى اللد ، وكانت الوحدات البريطانية المنوطة بحراسة السكك الحديدية فى حالة انذار ، كما أعلنت أيضا حالة الانذار بالهجوم فى جميع مراكز الشرطة والمؤسسات العسكرية على الطريق الذى كان على رجالنا ان يسلكوه . كان الخطر جسيما ، ومع هذا قرر « ايتان » ــ بعد أن شرح

الموقف للرجال فأبدوا استعدادهم الحماسي للهجوم على محطة سكة حديد اللد ـ المضي في الهجوم • تغيرت الظروف التي كانت مقدرة فيما سبق تغيرا تاما بحيث تعذر القيام بعملية الهجوم طبقا للخطة الأصلية • لابد من التغلب على مقاومة العدو الشديدة • قتل وجرح عدد كبير من الجنود البريطانيين • تحملنا أيضا خسائر جسيمة وقتل واحد من خيرة ضباطنا • وعلى أية حال دمرت منشآت هامة من منشآت السكك الحديدية • لقد تحقق الغرض التكتيكي •

لكن هذا الغرض كان نصف الواجب فقط ، فقد كان على فتيتنا أن يعودوا سالمين الى قاعدتهم • لم يكن ذلك أمرا هينا ، فقد بزغ الفجر ؛ كانت الطرق تعج بالدوريات البريطانية القوية بحثا عن « الارهابيين » • والواقع ان رجالنا المنهكين بعد السير الليلي والقتال صادفوا عدة داوريات بريطانية ، الا أنهم لم يحاولوا الاشتباك معها • وأخيرا رجع « آيتان » بالوحدة سالمة الى القاعدة في « بتاح تيكفاه » • كان الوقت عصرا ، الا أن « أيتان » ـ مثله مثل الضباط الآخرين جميعا ـ كان يقدر مبلغ قلقي بعد ساعات الانتظار الطويلة المؤلمة ، فسارع ليقدم لي تقريره عن المعركة ، وعن خسائرنا ، وعن صعوبات الانسحاب •

أشرنا في اجتماعنا مع ممثلي الهاجاناه ، بعد عدة أيام ، الى العواقب الخطيرة التي كان محتملا أن تنجم من جراء اخفاقهم في اعطائنا اخطارا مسبقا بعملياتهم في تلك الليلة • سلموا باننا كنا على حق في شكوانا ، وتعهدوا بابلاغنا مستقبلا بجميع عملياتهم المدبرة مقدما •

لم تكن العمليات الحربية التي قامت بها الهاجاناه في فترة المقاومة المشتركة كثيرة العدد ، كما أننا لم نستطع الحصول على التصديق المسبق على كثير من عملياتنا • في « ليلة السكك الحديدية » أغرقت الهاجاناه أيضا ثلاثة قوارب داورية بريطانية ، كما هاجمت فيما بعد محطة الرادار في حيفا مرتين • أفلحت القوات البريطانية في المرة الأولى في التخلص من المتفجرات قبل أن يحدث أي ضرر ، أما في المرة الثانيـــة فقد نجح الهجوم • كما هوجمت نقطة مراقبة الشرطة في « جفعات ـ أولجا » فدمرت تدميرا •

نظمت الهاجاناه « ليلة وينجيت » في تل أبيب • كان الهدف عمل تظاهر لاستقبال سفينة العائدين الى الوطن وانزالهم على شاطىء المدينة العبرية ومنع السلطات ، بالقوة ، من الوصول الى الشـــاطىء ، الا أن

الاضطراب كان أكثر من العمل فى تلك الليلة فتمكنت القوات البريطانية من الوصول الى جميع الأنحاء ·

فى فبراير سنة ١٩٤٦ قامت الهاجاناه بعمليـــات تخريبية ضد منشـآت الشرطة الخفيفة الحركة · وفى شهر يونيـــو أنهت الهاجاناه مقاومتها المسلحة بهجوم شامل ناجح على كبارى الحدود ·

سبقت الهجوم على معسكرات قوات الشرطة الخفيفة الحركة مشاورة مشتركة ، وتسبب عن هذا الهجوم كثير من الهموم · كان المفروض أن تهاجم أحد هذه المعسكرات على مقربة من « كفار فيتكين » · كنا مهتمين بهذا المعسكر بصفة خاصة لأن به مستودع أسلحة ضخما · كانت خطتنا تقوم فى المقام الاول على مصادرة الأسلحة الثمينة · ولعدة أسابيع قام فتيتنا باستكشاف المعسكر والحصول على المعلومات الدقيقة عنه بصـفة عامة ، وعن مستودع الأسلحة بصفة خاصة · اتفق فيما بيننا على مهاجمة أربعة من معسكرات الشرطة خفيفة الحـركة فى نفس الليلة · تهاجـم الهاجاناه ثلاثة منها ونهاجم نحن المعسكر الرابع · وكنا قد اقترحنا أن نهاجم معسكر « سـارونا » أيضا ، ولكن رؤساء الهاجـاناه قرروا أن يخصصوا « كفار فيتكين » فقط لنا · وقبل الموعد المقترح بأيام قليلة قال لى جاليلى أن ظروفا خاصـة تتطلب اسـتبعاد عملية معسكر كفـار فيتكين · ذهبت لمقابلة « جاليلى » لأوضح له أن الغاء العملية سوف يؤثر على روح الفتيان المعنوية ، هذا الى أن من المؤسف حقـا أن نترك مستودع الأسلحة الضخم الذى « يدعونا » الى الاستيلاء عليه · أجاب جاليلى بأنه متعاطف مع وجهة نظرى ، الا أن الالغاء كان أمرا حتميا لا مفر منه ، وقال ان السبب محلى ولكنه حاسم ·

تركت جاليلى وقلبى مفعم بالحزن · واذ لم يفصـــح عن ســـبب الالغاء لم الح عليه بالأسئلة · ان رجال المقاومة يجب عليهم أن يحترموا رغبات أولئك الذين لايريدون أن يبوحوا بما ائتمنوا عليه ، وقد افترضت من تلميحاته أن للهاجاناه ورشة أسلحة فى المنطقة المجاورة للقرية ، وأنهم كانوا يخشون من اكتشافها اذا ماجرت عملية تفتيش فى أعقاب هجومنا · أخبرت رفاقى بهذا الخاطر الذى خطر لى ، الا أنه كان على أن أعمل جاهدا لتهدئة سخطهم قبل أن يروضوا أنفسهم على قبول الغاء العملية ·

فى الوقت المحدد خرجت الهاجاناه للهجوم على قوة فلسطين الخفيفة الحركة · تعقبتهم كارثة فى « سارونا » · وصل جزء من قوتهم متأخرا

وفشلت محاولة الاختراق ٠ مات أربعة محاربين شجعان قبل أن يتخطوا السور ، ولم ينفذ الهجوم اطلاقا على معسكر ثان ٠ وفى « شافرام » اخترق جنود الهاجاناه السلك الشائك ونجحوا فى تدمير قليل من عربات العدو المدرعة ، ونجحوا بدرجة أقل فى عمل نفس الشىء فى « كفار فيتكين » ٠

كان لفتيتنا العذر فى غضبهم ٠

« لقد ألغيت عملية كفار فيتكين (لسبب خاص) ٠ لماذا ، اذن ، قامت الهاجاناه بالهجوم ؟ ولماذا لم يبلغونا بأنهم كانوا يزمعون الهجوم على موقع كان العمل فيه محظورا صوريا ؟ وماذا حققوه هنا مع ذلك ، حطمت عربة أو عربتان من عربات العدو ، فى حين أننا لو كنا قد قمنا بالهجوم لحققنا هذه النتيجة فضلا عن احضار عدة مئات من البنادق والرشاشات والذخائر » ٠

اوعزت بكل ذلك الى « جاليلى » و « سنيح » ، الا أننى لم أتمكن من الحصول على تفسير مقنع لسلوكهم الشاذ ٠ لا أدرى ، حتى يومنا هذا ماذا حدا بقيادة الهاجاناه الى منعنا من القيام بمهاجمة كفار فيتكين ٠ لعلهم كانوا لايريدون أن نعمل فى نفس الوقت وفى نفس الميدان ٠

كان حادث « سارونا » من نوع مختلف تماما ٠ تعرضت الهاجاناه لنقد عام بسبب الرجال الأربعة الذين قتلوا أثناء الهجوم ٠ لم يكن هذا النقد عادلا ان الفشل والتضحية لازمتان من لوازم الحرب لاتنفصلان ٠ ولقد امتدحنا — نحن الذين بلونا مثل هذا الهجوم وتمرسنا فيه أكثر مما تمرست الهاجاناه — امتدحنا الهجوم العام على وحدات الشرطة خفيفة الحركة على الرغم من حادث كفار فيتكين ، لأننا كنا نذكر القاعدة الأساسية لكفاحنا ٠ ولقد قدمنا تقديرنا علانية للرجال الذين قتلوا فى «سارونا » ٠

نظمت الهاجاناه — وهى التى لم تتعرض كهيئة لاضطهاد البريطانيين أبدا — جنازة شعبية لقتلاها الأربعة ٠ اعتبر رجال الصحافة الأمريكيون، الذين لم يميزوا بين القبائل الرسمية والقبائل غير الرسمية ، هذه الجنازة بمثابة دليل يربط بين الهاجاناه و « الارهابيين » ٠ وقد ذهب بعضهم وهو يصف اشتراك زعماء الوكالة اليهودية فى الجنازة ، الى القول بأن الزعماء السياسيين انضموا الى ارجون ! ولم يكن ذلك حقا بالطبع . الا أن الأمر المحقق هو أن ضباط المخابرات الحربية البريطانية التقطوا صورا كثيرة لموكب الجنازة ، وبخاصة للشبان المشيعين ٠

(٥)

خلال أسبوع من مهاجمة الهاجاناه لوحدات الشرطة الخفيفة الحركة ، خرج جنود المقاومة للهجوم على المطارات · تضمنت الخطة التي وضعت تفاصيلها بمعرفة قسم عملياتنا ثلاثة مطارات حربيـة فى اللد وكفـار سيركين وقسطينة · خصص من هـذه المطارات مطار كفار سيركين ـ على مقربة من « حي حاسيدوف » ـ لجبهة تحرير اسرائيل ، التى قامت بهجوم ناجح عليه · اضطلعت قوة اقتحامنا بالمطار المركزى فى اللد · وبارض النزول الكبيرة فى قسطينة كانت العملية جد شاقة · كان العـدو فى حالة تأهب بصفة دائمة ، وكانت الداوريات الخفيفة الحركة ترتاد الطرق المؤدية الى المطارات ، كما كانت هناك معسكرات ضخمة من معسكرات الجيش حول المطارات · ولكى يصل رجالنا الى أهدافهـم كان عليهم أن يشقوا طريقهم عبر الحقول حيث كان الطين يصل الى ركبهم · استغرقوا ساعات عدة لكى يقطعوا مسافة قصـيرة فى الحقول التى استحالت الى مستنقعات شاسعة بفعل الأمطار الغزيرة ، وعندما وصـل رجالنا الى طرق الاقتراب من المطار لم يكونوا مبتلين ، حفاة الأقدام ، منهوكى القوى فحسب ، ولكنهم أيضا كانوا قد فقدوا أقوى سلاح من أسلحة المقاومة ، وهو عنصر المفاجأة · كان العدو فى حالة تأهب ينتظر وصولهم ، وكانت الأنوار الكشافة تمسح كل شبر من طرق الاقتراب · سـمع الرجـال ضابطا يصيح من برج المراقبة فى اللد :

« راقبوا الطرق · ان أولاد الزنا قادمون » ·

ومع هذا اشتبكت قوة الاقتحام · انقسمت القوة الى جماعتين ، « جماعة الاختراق » و « جماعة الستر » · تقدمت القوة ـ تحت وابل من الرصاص الذى انصب عليها من اتجاهين ـ صوب أسـوار الأسلاك الشائكة فاخترقتها واندفعت الى أرض المطار · كان كل شيء معدا للمشهد النهائى ، فقد أحضر لجالنا معهم سلالم صغيرة ـ أثبتت فائدتها العظيمة فعلا ـ وفى طرفة عين ارتقى رجالنا السلالم الى داخل أجسام الطائرات · وضعوا المتفجـرات وثبتوا أجهزة الاشـعال ، وسرعان ما تحولت قاذفات القنابل الثقيلة « هاليفاكس » ذات المحركات الأربعة الى كتل من المعدن عديمة النفع ·

كان الانسـحاب الى القاعدة أشـق من الاقتراب من الهدف ، فقد طلع النهار ، وكانت مدرعات العدو تكمن على كل الطـرق · غاصت

الأقدام فى الطين مرة أخرى ، الا أن قلوب الرجـال كانت تغنى طربا .
لقد عرفوا أنهم بتدمير هذه الطائرات انما قوضوا أساس قاعدة الانتداب العسكرية . وكلما مر رجالنا على قرية عربية لقوا صيحات الاستحسان تحييهم مدوية ، كما وجدوا الترحيب فى قرية يهودية بالأذرع المفتوحة سرورا ومحبة . ومن قبل كانوا يسمعون : « أيها الارهابيون ، اخرجوا من هنا ، لانريدكم بيننا » ، أما الآن فتحييهم القلوب الصديقة المفتوحة . واذ رأى أهل القرية حالتهم الملوثة راحوا يبحثون لهم عن ملابس داخلية . اليوم تتدفق عليهم البركات ، وبالأمس كانت تصب عليهم اللعنات . وهكذا بعد سنوات من الاضطهاد والاستهزاء ، كسبنا محبة الناس .

وقعت الحكومة فى حيرة تامة . فى مجلس النواب البريطانى ، طلب اللورد « وينترتون » تحقيقا دقيقا فى الحادث لتحديد المسئول عن الاهمال الذى قال انه أتاح للارهابيين أن يخترقوا المطـارات ويدمـروا كثيرا من الطائرات الثمينة . ويجيب وزير المستعمرات اجابة غامضة ، ويعد بالعمل على تحسين اجراءات الأمن فى المطارات .

نشرت حكومة الاحتلال فى القدس بلاغا أثار سخرية عامة . كانت تفاخر بأن بضعا وعشرين طائرة فقط قد دمرت ، وبأنها حالت دون وقوع الهجوم على مطارات رامات ديفيد وعكير . وفى اجابتنـا تمنينا للحكومة مثل هذه الانتصارات كل يوم ! ذكرنا الحكومة بأنه عندما أسقطت القوات البريطانية ، ابان الحرب العالمية الثانية ، ثلاثين طائرة من طائرات العدو أو دمرت مثل هذا العدد من الطائرات على الأرض ، كانت تصدر بلاغات خاصة تعلن الأنباء العظيمة . أما عن الهجوم الذى حالوا دون وقوعه على رامات ديفيد فانه كان هجوما وهميا حلموا به بغرض كسب انتصار خيالى !

كان فرح الشعب اليهودى أعظم من فرح السلطات البريطانية ، وكان إعلان هجوم منظمات المقاومة على المطار مفاجأة تامة . التزمنا ــ نحن منظمة ارجون ــ الصمت فى بادىء الأمر فقد طلبت منا الهاجاناه الا ننشر أية تصريحات من شأنها أن تحقق شخصية المنظمات المهاجمة ، فوافقنا . إن تفخيم أسلحتنا أقل أهمية من حقيقة أن الشعب المتحـد كان آنئـذ يحارب الباغى ، الا أن الهاجاناه غيرت رأيها وطلبت منا ، بمذكرة عاجلة ، أن نتحمل مسئولية تدمير الطائرات البريطانية . فليكن ! استجبنا على الفور . ذهلت العامة . كنت ترى طوابير ممتدة مـن الناس يقـرأون بلاغنا كلمة كلمة . كانوا يعجبـــون كيف يستطيع « المنشقون » أن

يعملوا هذه الأشياء ! بل انهـم لم يكلفوا أنفسهم مشقة اخفاء حماسهم حتى عن السلطات البريطانية ، ففى مقهى بتل أبيب طلب ضابط بريطانى أن يدفع حسابه فأجابه صاحب المقهى : « انك لست مدينا لنا بشىء ، لقد دفعت لنا بالأمس ثلاثين طائرة ! » ·

ألهمت موقعة قسطينة « ما يكا أشبيل » ، الذى نسميه « مايك » ، وهو الجندى الناسك ، والشاعر الشعبى ، فكتب أنشودة صارت واحدة مما يتغنى به شبابنا المقاتلون ·

الفصل الرابع عشر
مفترق الطرق

(١)

فيما يلى العمليات المصدق عليها رسميا من « القوات المتحدة » :
الهجوم على المطارات ، والتخريب الواسع النطاق فى الجنوب ، ونسف القطارات على خطوط السكك الحديدية الثلاثة الرئيسية ، وهجوم جبهة تحرير اسرائيل على ورش السكك الحديدية فى حيفا ، وهجومنا على فندق الملك داود • الا أنه كانت هناك عمليتان أخريان قام بهما « المنشقون » كانت الهاجاناه قد وافقت عليهما بصفة « غير رسمية » ، احداهما عملية الهجوم على سجن القدس التى قامت بها قوات اقتحامنا وقوات جبهة تحرير اسرائيل ، وكانت تهدف الى اطلاق سراح الأسرى من أعضاء المنظمتين • أحدثت هذه العملية هرجا ومرجا فى جميع أرجاء العالم ، وقد تردد صداها حتى وصل الى موسكو ، فكتبت صحيفة ازفستيا فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٦ :

« أعلن راديو لندن الليلة البارحة أنه فى ليلة ١٩ يناير الجارى سمع بعض الانفجارات فى القدس ، وقطعت الاذاعة فى جميع أنحاء الاقليم ، وقد سمعت الطلقات النارية في وسط مدينة القدس لمدة دقيقتين • ثم أعلن بيان ثان من راديو لندن أن مصادمات وقعت مع يهود مسلحين فى قلب القدس ، وأن جماعة من اليهود هاجمت محطة الكهرباء ، وقد دمر جزء من حائط السجن المركزى نتيجة لحدوث انفجار ، وأن يهوديا قتل ، وجرح أربعة آخرون فى الصدام الذى وقع ، كما قتل ضابط بريطانى واحد ضباط الشرطة ، وجرح ضابط شرطة آخر » •

وكان فى اثناء هذه الفترة أن بدأ راديو موسكو فى نشر الأنباء عن الحوادث الدامية فى أرض اسرائيل • وكلما تطور كفاح المقاومة السرية ، ازداد نشر أنباء عملياتها فى الاتحاد السوفيتى • وعقب الهجوم على سجن عكا ، بعد مضى سنة من ذلك التاريخ ، خصص راديو موسكو نصف ساعة تقريبا لوصف العملية ضد القلعة التى قارنها بقلعة « بيتروبا فلوفساك » ذات السمعة السيئة منذ أيام الكفاح الممتد ضد نظام الحكم القيصرى • وفى أول يناير سنة ١٩٤٦ كتبت برافدا :

« الاضطرابات مستمرة فى فلسطين ، وقد استشهد راديو باريس ببيان من لندن على أن السلطات البريطانية قررت القيام بعملية شاملة تتعهدها قوات من الشرطة والجيش • ألقى القبض على ألفين خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية ، ويجرى النظر فى أمر ابعاد بعض شخصيات معينة • أرسلت التعزيزات الى تل أبيب والقدس ، ويجرى تفتيش دقيق بالمنطقة التى يعتقد أن رئيس ارجون تسفاى ليومى مختبىء فيها » •

فى ذلك الوقت ، أى فى أوائل سنة ١٩٤٦ ، قمنا بتحليل العلاقات بين شعبنا وبين الاتحاد السوفيتى ، الذى لم يكن قد أجرى أى تغيير فى علاقاته بعد • كانت نظرية استجوابى فى سجن « لوكيشكى » لا تزال هى النظرية السائدة فى المقالات السياسية فى الصحافة السوفيتية • وقد كتبنا فى تحليلنا :

« اننا نمقت الصور الكاذبة والأوهام ولن نحتضنها أبدا • اننا نتدبر الحقائق ونرفض المزاولة الواهنة لتطبيقها على افتراضاتنا • ومع هذا فاننا نقول بمنتهى الثقة المطلقة أن روسيا سوف تساعد هى الأخرى فى جعل أرض اسرائيل دولة يهودية • كيف ؟ مع أن روسيا ــ القادرة على أن تستغل الحوادث فى اندونيسيا ، ومطالب سوريا ولبنان ــ مستمرة فى معارضة تجمع الشعب اليهودى فى وطنه ، الا أنها تؤيد حرب الشعب اليهودى ضد الانتداب البريطانى • وسوف تنهض الدولة اليهودية كنتيجة لكفاحنا ضد الحكم البريطانى فى أرض اسرائيل ، وسيساعدنا الاتحاد السوفيتى فى هذا الكفاح » •

مع أن عملية القدس استرعت الانتباه فى جميع أنحاء العالم الا ان هدفها العملى لم يتحقق • كان هناك ارتباك شديد فى السلطات البريطانية • أعفيت حكومة بعد حكومة • قتل الضابط البريطانى الذى أشارت اليه الصحيفة الروسية بيد ضابط شرطة بريطانى • اذازة

المخابرات البريطانية في حيرة تامة . بناء على البلاغ الرسمي ، كنا قد حاولنا نسف محطة الاذاعة التي تجاور السجن .

لازمت العملية الثانية نتائج مختلفة تماما . وهذه هي العملية التي صدقت عليها الهاجاناه بصفة غير رسمية ، عملية الهجوم ـ الثالث ابان التمرد ـ على رئاسة المباحث الجنائية في القدس ويافا . رسم ضباطنا خطة الهجوم وتولوا قيادته ، ونفذت العملية بالاشتراك مع أعضاء جبهة تحرير اسرائيل . كان يقوم على حراسة المباني وحدات قوية خاصة من الشرطة والجيش ، الا أنه تحت ستر رشاش برن ، وطبقا لتكتيكاتنا المجربة ، اقتحمت جماعة الاختراق طرق الاقتراب وفتحت كوة في البـــاب تم انســحبت عــلى عجــل لفترة قصـــيرة في انتظـــار الانفجار . بعدئذ تقدمت بسرعة ومعها شحنات المتفجرات الأساسية ، وما هي الا دقائق قليلة حتى استحالت المباني الحصينة الى أكوام من الركام . تلف كثير من ملفات المخابرات السرية في ذلك الهجوم . وفي مجلس العموم البريطاني قال أحد الأعضاء في عبارات واضحة جلية : « رأيت مباني الشرطة وقد انهارت تماما » . كانت مباني الشرطة منهارة خلال أيام سكون حركة المقاومة . ولعل مما يدعو الى الاكتئاب أن تلك الأيام كانت غير قليلة .

كانت احتجاجاتنا على هذه الوقفات الممتدة جد ملحة . طالبنا بتصعيد الكفاح . ولعل مما يستحق الذكر أننا لم ندع الى العمليـات الحربية فحسب ، بل كنا ندعو أيضا الى العصيان المدني . كتبنا :

« ان لدى الأمة التي تحارب من أجل حياتها ومن أجل مستقبلها أسلحة كثيرة . ان الامتناع عن دفع الضرائب لنظام الحكم القائم ، وعدم اطاعة أوامره وقوانينه ، والامتنـــاع عن اســـتخدام مكاتبه وموظفيه ومحاكمه ، واحتلال أراضي الحـكومة ـ وهي الأراضي التي اغتصبتها الحكومة منا ـ ورفض الخروج منها ، واقامة حكومة يهودية مؤقتة تتولى قيادة الكفاح الوطني .. كل هذه من أعمال الحرب » .

والواقع أننا لم نعتبر العصيان المدني اجابة فاصلة . فكما قلنا ، كل أعمال المقاومة المدنية اذا كان لها مأرب جاد فانها ينبغي أن تؤدي حتما ـ بحكم قوانين الحوادث الصارمة ـ الى ثورة مسلحة . الا أننـا كنا نرى في العصيان المدني تجسيما لكفاح الشعب ووحدته . وبناء على هذا ركزنا على العصيان المدني ، علانية وفي محادثاتنا مع رؤساء الهاجاناه على حد سواء ـ سنيح وجاليلي وشول مائيروف وغيرهم . وغد

سنيح وجاليلي أكثر من مرة بأن العصيان المدني الشامل سوف يبدأ عما قريب • انني واثق من أنهما كانا جادين تماما ، كما كانا يريدان مخلصين أن يعملا على تصعيد الكفاح العسكرى ، الا أن أيديهما كانت مغلولة • كان القرار النهائي فى أيدى « المؤسسات المعترف بها » ، وكانت المؤسسات اليهودية منقسمة الى معسكرين : « العاملون المغالون فى النشاط » ، وأولئك الذين هم — على حد تعبير كروسمان : « كانوا يعتبرون استخدام القوة أمرا يجانب الصواب حقا وصدقا » • وقد نشبت معركة كلامية حامية بين المعسكرين •

كانت هذه الصعوبات هي حجة قادة الهاجاناه فى تفسير الجمود الذى امتد وطال • جادلنا بأن ذلك يتنافى مع صميم اتفاقيتنا ، فقد كانت الاتفاقية قائمة على أساس مبدأ العمل والحركة • وبعد مناقشات طويلة وتأجيلات كثيرة ، أبلغنا رؤساء الهاجاناه أننا فى حل من القيام بهجماتنا على مفر المباحث الجنائية — الا أن تصديقهم على هذه الهجمات كان ذا طابع غير رسمي ، وقالوا انهم سيحاولون أن يمنعوا التشهير بهذه العمليات فى الصحافة ، الا أنهم لا يتعهدون بألا يظهر مثل هذا التشهير اطلاقا •

ظهر التشهير بما فيه الكفاية ، ولم يقتصر على الصحافة العامة فقط ، فقد كتبت صحيفة جديدة للدعاية كانت تطلق على نفسها اسم « مخلصو اسرائيل » عن هجماتنا أنها انما كانت تهدف الى الاساءة الى العلاقات بين البريطانيين واليهود ، فقالت فى مباهاة وتفاخر :

« اننا نعتبر هذه العمليات وكانها لم تكن » •

احتج « ناثان فريدمان » ، وشاركته الاحتجاج لدى « سنيح » و « جاليلى » ، على هذا الفوران التهجمي • اعتذرا عن هذا النشر ، وزعما أنهما لم يكونا على علم بمضمونه • الا أن الأمور لم تتحسن بعد ذلك ، بل ان بعض تعليقات لاذعة على هجومنا « غير المعتمد رسميا » نشرت فى مجلة الهاجاناه المسماة « الحائط » (حاهوماه) •

هكذا كان الاختلاف وسوء التفاهم بيننا وبين الهاجاناه ابان فترة « حركة المقاومة المتحدة » •

كنا نطلق على بعضنا البعض أسماء مستعارة لاستعمالنا الداخلي • كان اسم « جاليلى » هــو « ارامیا » ، وكان « ناثان فريدمان » يسمى « شيمون » ، وكان اسمي هو « عزقيل » • وكانت اجتماعاتنا تنعقد فى منزل

« جان » فى شارع بن يهودا الدائب الحركة فى تل أبيب . عنـدما قابلت مضيفنا لأول مرة ، شعرت وكأننى سبق أن رأيته من قبل فى مكان ما . وقد اتضح أننا كنا في جامعة « وارسو » سويا ، وأننا كنا جيرانا في بيت الطلبة اليهود فى أيام شبابنا التى ولت ولن تعود . كان « جان » - « يانوفسكى » - آنئذ عضوا بارزا في الهاجاناه ، وكان « موشى سنيح » ، الطالب الزميل الآخر فى تلك الأيام الخالية . قد أصبح قائد الهاجاناه الوطنى ، كما صار « ناثان فريدمان » - وكان هو الآخر جارا سابقا في بيت الطلبة اليهود وصديق أيام الصبا - واحدا من رؤساء جبهة تحرير اسرائيل . أما أنا فقد أصبحت « اسرائيـل ساسوفر » . لقد قذف بنا القدر الى اتجاهات مختلفة ، فى معسكرات متغايرة . وها نحن الآن نجلس سويا حول مائدة واحدة نستمتع بكرم ضيافة مضيفتنا الفاتنة ونتبادل الرأى في نضال اسرائيل .

ظل رؤساء الهاجاناه يعيشون فى شبه اختفاء . كانوا قبل هجومهم على قوة الشرطة خفيفة الحركة وهجومنا على المطارات لا يخشون القبض عليهم ، الا أنهم لجأوا الى الاختفـاء بعد هذه العمليـات مباشرة . غادر « سنيح » منزله ، وبدل طريقة تصفيف شعره ، ثم ذهب الى باريس سرا آخر الأمر . وقص « جاليلى » شعره الأشقر الغزير الجميل ، ثم أصلحه بمساعدة ممثل محترف فبدا وكأنه تاجر أو صاحب مكتبة أو حائز على بكالوريوس . كان تنكره متقنا ولكنه لم يدم طويلا ، فبعد عدة اشهر ، أى قبيل انعقاد المؤتمر الصهيونى فى شهر ديسمبر سـنة ١٩٤٦ ، رأيت جاليلى وقد أطلق شعره الغزير ثانية ، فأشرت الى رأسه وأبديت هذه الملاحظة : « هذا رمز الهدنة ! » .

(٢)

ابان فترة « حركة المقاومة » وصلت لجنة التحقيق التى اشتركت فى تشكيلها كل من بريطانيا والولايات المتحدة ، الى أرض اسرائيل . وبينما كانت اللجنة فى لندن وهى فى الطريق الينا قابل أعضـاؤها الاثنا عشر « بيفين » ، الذى وعدهم بتحقيق قراراتهم اذا أجمعوا عليها . عملت اللجنة جادة لكى تسمع « الأطراف المعنية جميعها » . ولكى تجمع على توصياتها . شهدنا المنظر المألوف الذى عودتنا عليه اجراءات اللجان الطويلة . أوضح ممثلو العرب مطالبهم ، وشرح المتحدثون الرسميون باسم الوكالة اليهودية وجهة نظرهم ، وطلب مندوبو الحكومة البريطانية أن تسـمع أقوالهم فى جلسـة سرية . سجلت الاجراءات بصفة مثابرة .

كانت أية ملاحظة أو أخرى يبديها عضو من أعضاء اللجنة كفيلة بأن تثير عاصفة ، وكان على كل انسان أن يحاول أن يخمن « من كان معنا ومن كان ضـــدنا » • كان حتما أن ينتهى التحقيق وينشر التقرير ، ويستمر البريطانيون يفعلون ما يحلو لهم • لم تكن اللجنة الانجليزية الأمريكية استثناء من الأسلوب المألوف • قال « جمال الحسينى » للجنة انه اذا غادر البريطانيون البلاد فان العرب سوف يدبرون أمورهم مع اليهود دون مشقة • ألمح ممثلو الوكالة اليهودية الى أنه اذا ما اقترح التقسيم فانهم سوف يقبلونه • وقد مرت بنا جميعا فترة حرجة عندما زعم المستر بن جوريون ، ازاء ضغط الأسئلة التى وجهت اليه ، أنه لم يكن يعرف أين كانت توجد قيادة الهاجاناه ، كما أنه لا يعرف من هو قائدها ، وأنه لم يكن مسئولا عن نشاطها •

اقترح عضوان أمريكيان من أعضاء اللجنة ، هما المستر «ماكدونالد» والمستر «كرام» ، مقابلة معى ، الا أن هذه المقابلة لم تتم نظرا لصعوبات فى تدابير الأمن مما لم يمكن التكهن به • وقبل أن تغادر اللجنة البلاد فى طريقها الى سويسرا أرسل الى المستر ماكدونالد رسالة عبر فيها عن اعتقاده بأنه كانت هناك « فرصة طيبة فى القتال » لتحقيق تغيير جذرى فى السياسة البريطانية ازاء فلسطين والصهيونية وأعرب عن أمله فى أن نتصرف بحيث لا نضيع فرصة القتال هذه •

ليس من شك فى أن المستر ماكدونالد صـــديق لشعبنا ، فلقد سمعت ذلك فعلا من « فالديميريابوتنسكى » عندما عين « ماكدونالد » أمينا للاجئين من ألمانيا النازية • الا أنه كان مخطئا اذ فكر فى امكان تحقيق تغيـــير فى الســياسة البريطانية فى أرض اسرائيل • لم يكن التقرير الذى أعده أعضاء اللجنة المختلطة الاثنا عشر مقدرا ومحسوبا قطعا بحيث يحقق مثل هذا التغيير ، بل انه كان وثيقة هزيلة مليئة بالمتناقضات • انه لم يقدم شيئا ملموسا للعرب أو لليهود ، ولكنه قدم اعترافا كاملا بالحكم البريطانى • حاول الأمريكيون فعلا أن يحققوا ميزة لوجهة نظر الوكالة اليهودية الا أنهم أسهموا بدورهم أيضا فى الاعلان الجائر بأنه « لا يمكن أن تقوم دولة يهودية أو دولة عربية فى فلسطين » • وعلى هذا تفصح النتيجة عن نفسها ، ألا وهى أن فلسطين يجب أن تكون دولة بريطانية » • وقد بررت اللجنة الامتيازات القليلة التى أوصت بها لليهود على أساس « الارهاب » ، فذكرت أنه :

« •• عندما انتهت الحرب وجاء حزب العمال البريطانى الى الحكم ،

كانت الورقة البيضاء الخاصة بفلسطين لا تزال سارية المفعول • شعر اليهود ــ الذين كانوا يتوقعون أن تحقق حكومة العمال ، من فورها ، برنامج حزب العمال فيما يختص بالصهيونية ــ شعروا بالسخط عندما لم يطرأ أن تغيير على السياسة البريطانية ، وبلغت المرارة منتهاها ، حتى لقد اصبح موقف المعتدلين منهم موقفا لا يطاق ، فاعلنت الوكالة اليهودية صراحه وعلى مسمع من العامة ان لا جدوى من محاولتها التعاون مع حكومة الانتداب على كبح جماح النشاط غير المشروع •

« ان أى قرار عن مستقبل فلسطين سوف يكون عقيما غير واقعى ما لم يقم على دراية تامة بالتوتر السياسى بين اليهود وأسبابه • وفى كل من الأدله التى قدمت الينا فى الجلسات العلنيه أو فى المحادثات الخاصه العديدة مع السياسيين البارزين والمواطنين العاديين ، انتصحنا مرارا وتكرارا بأن تمسك الانتداب بسياسته الحاضرة من شأنه أن يؤدى الى حالة حرب يحصل فيها المتطرفون على التأييد السلبى من جميع السكان اليهود على الأغلب ، بينما يكتسح المعتدلون من الوظائف الرئيسية التى لا يزالون يشغلونها » •

وعلى هذا الاساس اقترحت اللجنة الغاء قانون الأرض لسنة ١٩٤٠ الذى يحرم اليهود من شراء الأرض فى اربعة اخماس ارض اسرائيل الغربية • كما اقترحت الغاء الجزء من الورقة البيضاء لسنة ١٩٣٩ الذى جعل الهجرة اليهودية فى المستقبل متوقفة على موافقة العرب • وأخيرا ، أوصت اللجنة بادخال مائة ألف لاجىء يهودى فى بحر سنة اذا كان ذلك ممكنا • وقد أعرب الرئيس ترومان ، الذى كان قد اوصى من قبل بدخول مائة ألف لاجىء الى فلسطين ، عن رضاه لموافقة اللجنة على اقتراحه • وطالبت اللجنة بحل جميع « الجيوش الخاصة » التى زعمت أنها تعرض « السلام العالمى » للخطر • واقترحت أيضا منع الرقص فى مقهى معين على بحر الجليل على أساس الوضع المقدس لذلك المكان ، وكان هذا الاقتراح هو الوحيد من بين اقتراحات اللجنة العشرة الذى عمل البريطانيون على تحقيقه ، ونتيجة لذلك أخذ الجنود البريطانيون المتمركزون فى الجليل ، الذين حرموا من هذه التسلية البريئة ،يلعنون اللجنة ويلعنون « بيفين » •

عندما نشر تقرير اللجنة اقترح « سنيح » أن تفوض « اذاعة كل اسرائيل » من المنظمات المسلحة لكى تعلن أنه اذا ما تحققت توصيات ادخال مائة ألف لاجىء يهودى فلن تجرى أية عمليات من شأنها أن

تعوق دخولهم . ان تضمينات هذا الاعلان ظاهرة غير خافية . وكانت بساورنا بالفعل شكوك خطيرة اراء الرغبة فى إعلان مثل هذه « الهدنة » ، الا أننا وافقنا على الاقتراح بعد أن تدبرنا الأمر . وقد أوضحنا أننا لا نعتقد أن الحكومة البريطانية سوف تسمح ، طائعة ، بادخال مائة الف يهودى ، الا اننا اردنا نزيل اى أثر للشك فى أذهان الناس .

لم نكن مخطئين فيما ذهبنا اليه ، فقد كانت براعة حكومة العمال كفؤاللمناسبة . أعلن « آتلى » فى مجلس العموم البريطانى ان توصيات اللجنه يجب ان نوخذ جملة واحدة ، فكلها مركبطه بعضها ببعض (فيما عدا التوصية بمنع الرقص على شاطىء بحر الجليل بطبيعة الحال) . فاذا أراد اليهود تصاريح لمائة ألف مهاجر فانه يجب عليهم أن يحلوا جيوشهم غير المشروعة ويسلموا جميع أسلحتهم للسلطات الشرعية . ذكر « ماكدونالد » و « كرام » المستر « بيفين » بأنه وعد أعضاء اللجنة وعدا مهيبا بأنه سيحقق توصيات اللجنة اذا صدرت بالاجماع ، ولم يجب « بيفين » . الا أن متحدثا رسميا صرح نيابة عنه بأن وزير الخارجية اذ يذكر أنه قال شيئا من هذا القبيل فانه كان واضحا أنه كان يشير الى التوصيات ككل لا الى بعض منها دون الآخر او الى تلك التوصيات التى يرضى عنها يهود نيويورك او الرئيس ترومان . ان التوصيات كل لا ينفصل .

ومع هذا الايضاح الجديد لمسلك البريطانيين ضغطنا على الهاجاناه لاستئناف العمليات الحربية والبدء فى العصيان المدنى ، وأشرنا الى أنه لا معنى لمزيد من الانتظار . قلنا انه يجب أن نوضح للبريطانيين ألا يتوقعوا منا أن نضع سلاحنا ، أو — على حد تعبير أحد رجالنا — انهم يستطيعون أن ينوقعوا أن يحصلوا على رصاصنا فقط . كما أرسلنا أيضا الى قيادة « حركة المقاومة » مقترحات عملية عسكرية وسياسية . تلقينا اجابة القيادة فى ٧ مايو (كلمة « كتاكيت » تعنى « مطارات » وكلمة « مطبعة » تعنى « مطبعة الحكومة » بالقرب من محطة سكة حديد القدس) :

١ — لا مجال للاختلاف فى الرأى فيما يتعلق باستئناف العمليات على نطاق واسع . ومع هذا فقد أرجىء تنفيذ هذا القرار أسبوعا نظرا للمعلومات الواردة من رجالنا فى الخارج . يزعم أصدقاؤنا الأمريكيون انهم منهمكون فى مسعى يحقق الغاء شرط تسريح قواتنا ، وان أى نشاط من جانبنا حاليا خليق بأن يحبط هذا المسعى . وينطبق هذا القرار

بالطبع على العمليات المصدق عليها فعلا (مزيد من الكتاكيت ، والمطبعة) • وبعد انقضاء أسبوع سوف يتخذ القرار ، من حيث المبدأ ، فيما يتعلق باستئناف العمليات ، وستتلقون حينئذ ردا على الخطط التفصيلية التي قدمتموها • ولهذا نقترح أن يكون اجتماعنا القادم يوم الثلاثاء الموافق ١٤ مايو فى الساعة الثامنة مساء بالمكان المعتاد •

الرجاء الافادة •

٢ - سيصدر منا بيان يلقى المسئولية على الحكومة كما اقترح مبستر ... عندما يتم تنفيذ العملية الأولى » •

كان علينا أن ننتظر اكثر من أسبوع حتى يصدر القرار الخاص باستئناف عملياتنا ، من حيث المبدأ • الا أن الانتظار لم يدم طويلا ، فقد صودق على عدد من خططنا،ومنها نسف القطارات بعد انزال ركابها ، مما كان فاتحة لسلسلة جديدة من العمليات جاء فى أعقابها تدمير الكبارى بأيدى الهاجاناه ، ثم هجوم جبهة تحرير اسرائيل على ورش السكك الحديدية فى حيفا •

من المؤسف غاية الأسف أن جبهة تحرير اسرائيل لم تتلق أى اخطار مسبق بتوقيت هجوم الهاجاناه على الكبارى • وتزعم الجبهة أنه عندما خرج رجالها لمهاجمة ورش السكك الحديدية كانت القوات الحكومية فى حالة تيقظ • ويدعى « موشى سنيح » ، أثناء وجودى ، أنه كان قد تلقى مذكرة من « ناثان فريدمان » تبلغه بأن الهجوم على الورش قد أرجىء • لم تغير المناقشة الحامية شيئا من الحقيقة المؤلمة ، حقيقة أن القوات الحكومية أفلحت فى عمل كمين للمحاربين اليهود وهم فى طريق عودتهم الى قاعدتهم ، فقتل منهم أحد عشر رجلا وأسر عشرون من بينهم عدد من الجرحى • لم يحضر مندوب رسمى واحد لتقديم واجب العزاء فى قتلى جبهة تحرير اسرائيل ، بينما أقيمت جنازة شعبية لعضو الهاجاناه الذى انتشلت جثته من الماء بعد الانفجار المفجع الذى وقع على كوبرى « عازيب » •

كان الهجوم على الكبارى واسع المدى ، كما امتدت أهميته أيضا الى المجال السياسى • ولقد عمل رجال الهاجاناه فى ظروف شاقة ، فكان عليهم أن يقطعوا مسافات طويلة ، وأن ينسحبوا على الطرق الثانوية لكى يتجنبوا الاصطدام مع قوات الجيش • لم يقع صدام عند الكبارى التى كان يقوم على حراستها نفر قليل من رجال الشرطة العرب ، وانما

قتل أعضاء الهاجاناه الأربعة عشر عرضا ، بسبب انفجار حدث قبل أوانه فى شحنة المتفجرات التى كانوا يحملونها • ان أن الواجب الشاق قد تم تنفيذه بمنتهى الدقة ، فانهارت الكبارى الفولاذية العظيمة فى الشمال وفى الجنوب وفى الشرق بسبب تفجيرات رجال الهاجاناه •

كانت هذه آخر عملية جريئة لحركة المقاومة •

قامت القوات البريطانية بهجوم مضاد واسع النطاق ، ولا يمكن أن يقال انها فشلت ، فيما سبق ، فى رد فعل عمليات المقاومة ، بل ــ بالعكس ثأرت للعمليات الصغرى فى نواح متفرقة من الاقليم . فى « ريشيون » وفى « جفعات حاييم » وفى « تل أبيب » • وفى هذه الأماكن تجمع آلاف الناس لكي يحولوا دون البحث عن العائدين الى الوطن ، الذين أفلحوا فى النزول الى البر • وقفت الجماهير دون ما حماية ، معرضين صدورهم لرصاص العدو • لم يقتل الرجال العزل من السلاح وحدهم ، بل قتلت النساء أيضا كما قتل الأطفال ــ مما حدا بنا الى أن نطلب من « حركة المقاومة » أن توقف هذه « المقاومة السلبية » الخطيرة التى كلفتنا أرواحا كثيرة •

خرجت قوات الحكومة لكى تحطم العمود الفقرى «للارهاب اليهودى» وتضع نهاية للمقاومة اليهودية كلها ، وبالتالى دبرت هجوما وحشيا على المؤسسات والقوات اليهودية •

بدأ الهجوم فى الساعات الباكرة من صباح يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩٤٦ اذ اندفع عشرات الآلاف من الجنود البريطانيين على شكل مروحة فى جميع أنحاء الاقليم • فرضوا حظر التجول ، واقتادوا الألوف من الناس الى الاعتقال • احتلوا مبنى الوكالة اليهودية ، وألقى القبض على رؤساء المؤسسات الرسمية وعلى أعضاء الهاجاناه العاملين طبقا لقوائم أعدت من قبل ، وبمساعدة هذه القوائم جرى تفتيش القرى الاشتراكية التى كانت وحدات « البالماخ » متمركزة فيها • كانت هذه القوائم دقيقة بكيفية تدعو الى الدهشة • والواقع أن القرى الاشتركية التى تمركزت فيها قوات « البالماخ » بصفة « سرية » كانت معروفة جميعها للمخابرات البريطانية ، ولذا لم يكن مستغربا أن تكون العواقب جد خطيرة • أبلغنى « اسرائيل جاليلى » أن الضربة التى وجهت الى « البالماخ » كانت هائلة ، فقد ألقى القبض على نصف أعضائه تقريبا ، كما تأثرت صفوف الهاجاناه العليا تأثرا شديدا •

زودتنا هذه الأحداث بكثير من الغذاء للفكر التاريخى الفلسفى ٠ من ذا الذى كان قادرا على التكهن بالوسائل التى يمكن أن تقود شعبنا الى التحرر ؟ لقد كان استعمار الأرض الرائد ، من غير ما شك ، عاملا قويا فى عملية غرس شعبنا فى تراب أرض الوطن ، وربما كانت المستعمرات الزراعية ، هى الأخرى ، بمثابة قواعد فى الحرب الدفاعية ضد العرب ٠ ومع هذا فقد صادفتنا عقبات كثيرة ، فقد كانت هذه المستعمرات مغلقة فى وجوهنا ، ولم يكن أمامنا منها سوى « نخلة يابوتنسكى » و « رامات تيومكين » ٠ لقد قدمت لنا هاتان المستعمرتان مســاعدات قيمة فى تهيئة ميادين التدريب وفى بدء الهجمات المختلفة ٠ كم كان يكون كفاح المقاومة السرية أسهل لو أن عدادا كبيرا من القوى كان متيسرا تحت تصرفنا ! كم من دورات التدريب ، وكم من تمرينات الميدان كنا نستطيع ، اذن ، أن ننظمها ! الا أنه يبدو أن القدر يجرى كما يشــاء ، فنحن لم نتمكن من الاستقرار على الأرض قبل قيام الدولة ٠ لقد حاربنا ٠٠ ولو أنه قدر لنا أن نستقر على الأرض فى تلك الايام ، اذن لما قامت مقاومة سرية حقيقية فى الظروف الطوبوغرافية العجيبة لأرض اسرائيل ، ولاستطاعت الحكومة البريطانية أن تعرف أين تجدنا بالضبط ، تماما كما عرفت كيف تجد رجال « البالماخ » ، وبذا كانت تمحى المقاومة السرية فى عملية تفتيش مفاجئة واحدة ، وينتهى الكفاح من أجل التحرر بمجرد أن يبدأ ٠ فى « مقاومتنا المفتوحة » لم تعرف السلطات من أين تبدأ بحثا عنا ، فقد كنا فى كل مكان ، ولم نكن لنا وجود فى أى مكان ! حقيقة ، لقد جعــل الافتقار الى القواعد الريفية واجبنا أشق وأصعب ، ولكن يبدو أن القدر أراد لنا واجبا صعبا بدلا من أن نقع فى أيدى الحكومة ٠

فى يوم ٢٩ يونيو لم يكن هناك وقت للوقوف والتأمل ، اذ كانت المسألة : ماذا ينبغى أن يعمل ؟ ولم يكن لدينا ، بعد ، أى سبب جوهرى للشك فى استمرار الهاجاناه فى المقاومة ، فقد ظلت محطة اذاعة « كل اسرائيل » التابعة للوكالة اليهودية تصرح طوال اليوم :

« أعلنت بريطانيا الحرب على الشعب اليهودى ، وسيحارب الشعب اليهودى ٠ ليخرج أبناء تيتوس الأنجاس من أرضنا المقدسة ! وليسقط الحكم النازى البريطانى فى بلدنا ! » ٠

كان نص هذه الاذاعة يشبه اعلانات ارجون السابقة شبها عجيبا ، الا أنه ــ خلافا لاعلاناتنا ــ كانت تغلب عليه النغمة العصبية ٠ لم ننشر

أية شعارات فى ذلك اليوم ، بل اقترحنا برنامج عمل نشرناه عندما بعثنا به الى قيادة « حركة المقاومة » •

اقترحنا المقترحات التسعة التالية :

١ ـ اقامة حكومة يهودية مؤقتة تحارب من أجل تصفية نظام حكم الاحتلال البريطانى •

٢ ـ انشاء مجلس وطنى أعلى بمثابة برلمان الشعب ، للتشريع وفرض الواجبات واصدار القوانين •

٣ ـ نشر اعلان استقلال الشعب اليهودى وتحرره كأساس للدستور الذى ينبغى أن يضمن الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية لجميع السكان •

٤ ـ انشاء محاكم العدل ومقاطعة المحاكم البريطانية •

٥ ـ انشاء خزانة أهلية تجبى اليها كل الضرائب ، وحظر الدفع لحكومة الانتداب •

٦ ـ اقامة جيش تحرير موحد يقسم يمينا بألا يضع السلاح حتى تقوم الدولة •

٧ ـ انشاء قيادة عسكرية عليا تعلن التعبئة العامة وتنظم حكومة طوارىء لتدبير حياة الشعب اليومية وادارة الكفاح •

٨ ـ نداء للمساعدة الى اليهود خارج اسرائيل (فى الدياسبورا)

٩ ـ اصدار نداء لشعوب العالم ـ للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا وكل الشعوب الحرة ـ لكى تقدم العون للمحاربين العبريين من أجل الحرية •

لم تتحقق العناصر الايجابية لهذا البرنامج ، الذى أبرزته الصحافة العالمية بوصفه « ميثاق ارجون تسفاى ليومى » فى صيف عام ١٩٤٦ ، ولكنها تحققت بعد ذلك بسنتين • وهكذا كنا أسبق من التاريخ مرة أخرى • يجب أن يكون فى الأحداث التاريخية بصفة دائمة شخص ما يستطيع أن يتنبأ ، لكن هل يتحتم أن يكون هناك دائما شخص ما يستطيع أن يرى متأخرا جدا ، بعد فوات الأوان ؟

كانت الدوائر اليهودية الرسمية واقعة فى حيرة ، وقد بدأ

التراجع .. ففي أول الأمر صدرت الأوامر لليهود المحتجزين بألا يفصحوا عن شخصياتهم ، وكانت الاجابة العامة التي قدموها للمحققين البريطانيين هي : « يهودي من فلسطين » . أعلن البريطانيون أنهم لن يطلقوا سراح أحد ما لم تتحقق شخصيته . وهكذا تعرضت أوامر « حركة المقاومة » للاختبار ، وكان أن أخفقت ، اذ لم تمض الا أيام قليلة قبل أن ترتفع الصيحة من معسكرات الاعتقال أن : « حققوا شخصيتنا ! » . تعرف البريطانيون على شخصية كثير من المعتقلين ، ولكنهم أخلوا سبيل فئة قليلة منهم فقط .

كان من بين المعتقلين الذين لم يفرج عنهم على الرغم من شخصياتهم المعروفة بعض زعماء من الوكالة اليهودية واللجنة التنفيذية للطائفة اليهودية في أرض اسرائيل (فاآد ليومي) - الحاخام « فيشمان » و « اسحاق جروينباوم » و « موشى شرتوك » و « ديفيد ريميز» والدكتور « دوف جوزيف » وآخرون غيرهم . رحب رجالنا - الذين كانوا قد أمضوا في معسكرات الاعتقال عددا من السنين - بزملائهم الجدد ترحيبا وديا ، وكان أحب اثنين من هؤلاء الزعماء الى فتيتنا هما جروينباوم وريميز . وقد اعتاد ريميز أن يعلمهم التلمود وأن يعظهم في الوحدة الوطنية . أما شاريت ، الذي بقي في معزل عن الآخرين ، فقد كان يقنع نفسه بالزعم : « اننا سنخرج من هنا ونحن يهود أفضل مما كنا يوم دخلنا » . وفي اللطرون نشر جروينباوم نظرية ممتعة ، ألا أنه - لأسباب غير خافية - لم ينشر وقتئذ سوى الجزء الأول منها . وقد ظهر من هذا الجزء أن المحارب المتمرس في الحرب قد أصبح الهزاميا يحث على ايقاف الكفاح وقبول سياسة وايزمان للتهدئة . وبعد أن انقضت عدة أشهر عرفنا منه ماذا كان قصده الحقيقي ، فقد انتهى المستر جروينباوم - في ضوء ما حدث يوم ٢٩ يونيو - الى خطة مؤداها أن تنسحب الهاجاناه من ميدان المقاومة - على حد قوله - مع استمرار « المنشقين » في القتال . ولست متأكدا من صحة هذه الفكرة المثيرة للاهتمام ، انما الأمر المؤكد هو أنه اذا ما قبلت فان كثيرا من المتاعب والعقبات يمكن اجتنابها . وعلى أية حال ، لم تحظ هذه الفكرة بالقبول . وكان أن جاء يوم اضطر فيه المستر جروينباوم الأمين الى أن يقول في اجتماع المجلس الصهيوني العام : « لن أساند قيام جبهة متحدة من بن جوريون وبيغن ضد بيجين » .

رغما عن العلاقات الودية بين الشخصيات الكبيرة والمحتجزين من المحاربين المحنكين فقد تلقيت شكوى من قيادة « حركة المقاومة » نصها

كما يلى : « ياعزقيل ، ان رجالك فى اللطرون يتشاجرون مع الشخصيات الصهيونية المعتقلة • هل لك أن توقف هذا الشجار بنداء مباشر اليهم ؟ المرجو أن يتم ذلك دون ابطاء، ونحن فى انتظار اجابتك » •

أجريت تحريات فورية عن طريق مركز المقاومة الذى نحتفظ به مع كل رجالنا المسجونين أينما كانوا ، وقد أنكر ضابطنا المنوط برجال ارجون فى اللطرون هذا الادعاء بشدة •

ان عناصر القيادة ممن أطلق عليهم « سنيج » و « جاليلى » اسم الانهزاميين هزموا « العاملين المغالين فى النشاط » فى نهاية الأمر • وبعد مناقشات طـــويلة قرروا أن يولوا ظهورهم للمقاومة الحربية وألا يبدوا العصيان المدنى ، كما قرروا قبول شروط الحكومة البريطانية لاطلاق سراح كبار الشخصيات اليهودية • وأعلن انتهاء « الارهاب » فى بيان عام من المؤسسات الرســمية ، كما أعطى تعهد بتحطيمه نهائيا • وبذا أفرج عن كبار الشخصيات اليهودية بعد أن ظلوا مائة يوم فى الاعتقال ، وسافروا الى لندن لحضور مؤتمر انجليزى ـ عربى ـ يهودى لايجاد « حل وسـط » لمشكلة فلسطين • وهكذا انتهى الكفاح بالنسبة اليهم ، وبقيت أمامهم مسألة الهجرة « غير المشروعة » فقط •

(٣)

لا ينبغى الحط من قيمة المغزى للتوسع فى اعادة اليهود الى أرض اسرائيل فور انتهاء « حركة المقاومة المتحدة » • حقيقة ، ان هذه الحملة ـ بعكس المحاولات السابقة لاعادة اليهود الى الوطن التى بذلها « جوزيف كاتس نلسون » و « أبراهام ستافسكى » قبل الحرب العالمية الثانية ـ لم تجلب كثيرا من اليهود الى الاقليم ، فقد قبضت السلطات البريطانية على اللاجئين بالآلاف على مقـربة من ســاحل أرض اسرائيـل وأبعدتهم الى معسكرات الاعتقال فى قبرص • كان العائدون من معسكرات ألمانيايحاربون بالأيدى ضد الجنود المسلحين • ومع أن رجالا ونسوة وأطفالا قتلوا فى هذه العملية ، الا أن « هوايت هول » ساقت الجدل القديم ضد « السلوك غير المعقول الذى يسلكه الناس الذين يدفعون بجموع الرجال والنســاء والأطفال فى السفن غير الصالحة للابحار » •قد تتصيد الحكومة البريطانية سفن المهاجرين ، وتنفى ركابها « غير الشرعيين » ، الا أنها بذلك انمــا تحافظ على « القوانين » !

وعلى الجانب اليهودى أيضا ، كان هناك وجه اخلاقى لهذا الطور من اعادة اليهود الى الوطن • توقف كفاح الهاجاناه فى أرض اسرائيل توقفا تاما ، وأطلق سراح الزعماء ، وعاد رجال « البالماخ » الى قواعدهم ، ورجع رجال الهاجاناه الى قراهم ومساكنهم ، واستطاع « اسرائيل جاليلى » آن يطلق شعر رأسه ، وأصبحت الهاجاناه هيئة شبه رسمية مرة أخرى • أعيد الأمر الواقع ، وكان فى هذه اللحظة الحاسمة ان ألقى عبء مقاومة الحكم البريطانى قسرا على كاهل اللاجئين من ألمانيا ، على كاهل عديمى الحول ، عديمى الحيلة ، على كاهل النساء والأطفال الذين كانوا يتعرضون للضرب والابعاد ، وقد شوه بعض منهم وقتل بعض آخر • وقد بح صوت زعماء المؤسسات الرسمية من كثرة الاحتجاجات •

الا أننا لم نقنع أنفسنا بمجرد الاحتجاجات الشفوية ، بل أننا كنا نوجه الى الحكومة ضربة قاصمة بعد كل ابعاد ، كما نجح مقاتلو جبهة تحرير اسرائيل ذات مرة فى اشعال النار فى خزانات البترول فى ميناء حيفا حيث كانت سفن المنفى رابضة فى انتظار فريستها •

بلغ سوء معاملة العائدين ، على أيدى البريطانيين ، ذروته فى واقعة « هجرة سنة ١٩٤٧ » التى قرر «بيفين »ارجاعها الى ألمانيا ، ولم تجد الاحتجاجات والالتماسات أذنا صاغية • فزع الناس الذين قاوموا الجنود البريطانيين مستبسلين عندما ارتدوا الى طريق المعاناة الجديد من حيفا الى هامبورج •

وقد كتب هؤلاء التعساء فى خطاب أمكن تهريبه من سفينة سجنهم : « الناس مكتئبون •• اننا نشعر وكأنما حكم علينا بالاعدام •• سنقاوم فى هامبورج ، ولكن هل من فائدة ؟ لسوف تستخدم الحكومة البريطانية ، من غير ما شك ، جميع الوسائل التى فى حوزتها ، وسيظل العالم ساكتا كما ظل ساكتا من قبل • لكن اخواننا فى جميع أرجاء العالم ــ يهود أمريكا وانجلترا وأرض اسرائيل ــ هل سيظلون ساكتين كذلك ؟ لعل من أسباب شقائنا أن الانطباع الذى تكون لدينا هو أنه لا يبذل من أجلنا شىء مما ينبغى أن يبذل » •

نشرنا هذه الكلمات المريرة ، ووعدنا اخواننا فى أعالى البحار ، باسم « المتمردين والمجاربين وأولئك الباقين على اخلاصهم ، » أن « لن تخذلوا فى كفاحكم ، وأن كلمتنا هى : أرض اسرائيل أو الموت » •

لم تكن تحت أيدينا الموارد الفورية للمساعدة ، فقد كنا ، فى ذلك

الوقت بالذات ، نفتقر الى شيئين معا ، فخزانتنا خاوية ، ولم يكن لدينا مخزون من المتفجرات ٠ ان الثأر لمثل هذا العمل يتطلب أكثر من الطلقات المليلة ، فكيف نوجه ضربة هائلة ؟ قرضنا على أنيابنا ، ومرت الأيام والليالى من غير ما عمل ٠ عجب الناس مما حدث لارجون ٠ حتى خصومنا ـ وكان كثير منهم يباركون أعمالنا بقلوبهم سرا بينما يلعنوننا بأفواههم جهرا ـ لقد أغضبهم فشلنا فى الأخذ بالثأر ، الا أننا لم يكن لدينا أى جواب مؤثر ، فلا متفجرات ولا مال ٠ كنا نهلك قلوبنا من خيبة الأمل ٠

ومع هذا ، لم يهجرنا الحظ ، فقد وصلنا مبلغ من المال بطريقة تكاد تكون من المعجزات ، وبطريقة تشبه المعجزات أيضا أحرزنا نصف طن من المواد المتفجرة ، ثم أتم « جيدى » المعجزة ، فصنع البرميل المتحرك على الاطارات (العجلات) الذى قذف صباح يوم من سيارة مدرعة (الأولى من نوعه فى أرض اسرائيل) فدمر « منطقة أمن » الحكومة جميعها فى حيفا ، وقوض أركان الأمن البريطانى فى الاقليم بأسره ٠ قدرت جميع تفاصيل الاختراع تقديرا ، بما فى ذلك الأسنان التى تعمل على منع العجلات من الدوران عندما يصطدم البرميل بحائط الحصن ٠ ثارت ثائرة سلطات الجيش المسئولة ، فقد أحاطوا مناطق أمنهم بحواجز كثيفة من الأسلاك الشائكة يتراوح ارتفاعها بين اثنى عشر وخمسة عشر قدما ـ وها هو ذا الفاذف (المنجنيق) يتخطى الحواجز ٠٠ يا له من برميل سليط حقا ! أصدرت سلطات الجيش الأوامر من فورها بجعل ارتفاع حواجز الأسلاك أربعة وعشرين قدما ، وتم التعديل فى الحال ٠ الا أن « جيدى » هو الآخر لم يقعد ساكتا ، بل كان عليه أن يعمل على الفور ، وقد بات مؤكدا أنه لو كانت القوات البريطانية قد أرجأت رحيلها ، اذن لوصلت حواجزها الشائكة الى ارتفاع ستين قدما ـ وقد لا يكون ذلك الارتفاع كافيا !

لكن ، بقدر ما كان التأثير عظيما على الحكومة البريطانية ، وقف « الانهزاميون » اليهود وقفتهم ، فسيطروا على المؤسسات الرسمية منذ ٢٩ يونيو ، وقرروا انهاء المقاومة العسكرية ، ولكنهم نجحوا فقط فى انهاء مقاومة الهاجاناه العسكرية وحدها ٠

طالب الدكتور وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية بألا تكون هناك أية عمليات حربية الى أن ينعقد المؤتمر الصهيونى ٠ رفض سنيح أن يقدم تعهدا بذلك ، فقد كان مرتبطا بتعهد سابق لضباط الهاجاناه يقضى باستمرار المقاومة ، وبأن « يحارب الشعب اليهودى حربا بحرب » ٠ أعدت خطط لمصادرة أسلحة من معسكر بريطانى ، وكان هذا الهجوم

بمثابة ثأر من مصادرة مستودع الأسلحة اليهودى فى « ياجور » حيث استولى البريطانيون على عدة مئات من البنادق ومئات الآلاف من طلقات الذخيرة وآلاف من قنابل الهاون ٠٠ الخ (وبهذه المناسبة كنا نظن ، فى ذلك الوقت ، أن لدى الهاجاناه عشرات من مثل هذا المستودع ، الا أنه ظهر لنا فيما بعد أننا كنا فى ظننا هذا مخطئين) ٠ طالب الدكتور وايزمان باستقالة سنيح من رئاسة الهاجاناه ، والا استقال هو شخصيا من وظيفته كرئيس للمنظمة الصهيونية ٠ ثار سوء تفاهم غريب بين الاثنين المرشحين للاستقالة ، فقد شكا الدكتور وايزمان من أنه لم يتلق أية معلومات مسبقة عن الهجوم على الكبارى ، وقال سنيح أنه بعث اليه بهذه المعلومات فى وقتها ٠ وقد ظهر أخيرا أن الاثنين كليهما كانا على صواب ، فقد أرسل سنيح المعلومات ولكن وايزمان لم يحط بها علما اذ لم تصله الرسالة ٠

رغما من سوء حالة الدكتور وايزمان الصحية فقد أصر على انذاره ٠ كان « العاملون النشطاء » من بين الزعماء اليهود الرسميين مقتنعين بأن استقالة وايزمان ضربة شديدة ، كما كانت جماعة « هاشومير هاتسعير » (الصهيونيين الشيوعين الاشتراكيين المتطرفين) تميل الى سياسة وايزمان الرامية الى « عدم العنف » ٠ ثم ان قطاعا كبيرا فى حزب ماباى (حزب عمال فلسطين) كان يطالب أيضا « بايقاف الارهاب الذى يهدد جميع النعهدات الصهيونية » ٠ انتصر الدكتور وايزمان ، واستقال سنيح ٠

حضر سنيح اجتماع الوكالة اليهودية « الحاسم » فى باريس ، وهو اجتماع ناقش لأسابيع عدة ، المسألة الجوهرية : استمرار الكفاح أم عدمه ؟ وقد وقف بن جوريون طوال المناقشات راسخا كالصخر لا يحيد عن « أستمرار الكفاح » ، وأيده سنيح تأييدا مثابرا بأمل العودة الى أرض اسرائيل بقرار واضح المعالم « يؤيد الحرب » ، الا أن بن جوريون غير رأيه فجأة ، وتوقفت المقاومة الرسمية ٠ وقد ظل هذا التوقف ساريا حتى يوم ٣٠ أبريل سنة ١٩٤٧ عندما قررت الأمم المتحدة تقسيم أرض اسرائيل ، وبدأ العرب يقتلون اليهود ٠ لكن ، مع أن المقاومة الرسمية توقفت ٠ الا أن التمرد ظل قائما ٠

رغما عن كل ما حدث ، فاننى أعتبر تلك الفترة القصيرة ـ فترة « حركة المقاومة المتحدة » ـ أسعد أيام حياتى ٠ كان أمام ناظرى خيالان بصفة دائمة : ففى المقام الأول أمكننا تحقيق أمنية قلوبنا ٠ فى يقظتنا انضم الشعب جميعا الى الكفاح من أجل تحرير بلدنا ، وأصبح الرجال

والنساء الذين كانوا يطاردون موضع اعزاز الشعب · وصاروا هم سعداء لما نالوه من اعزاز ·

وكان الخيال الثانى الماثل أمامى « منظر تأمل باطنى » ، أو « منظر فحص نفسى » ، فالقائد فى الحرب ــ القائد الحقيقى الذى يحمل على عاتقه أخطر المسئوليات المسئولية عن الأرواح البشرية ــ يعرف مدى مشــــقة واجبه ، ويعرف كم يتعرض للعذاب غير المرئى · لكن هل يمكن مقارنة مسئولية القائد « المعترف به » بالشــعور بالمســـئولية فى قلب القائد « المنشق » ؟ القائد « المنشق » ! ان كل انتصار يحرزه هذا يفتضح أمره وكأنه فشل ، وذلك الفشل بمثابة الكارثة أو بمثابة الخيانة · فى حالة القائد « المنشق » تعتبر كلمة « المسئولية » كلمة غير ذات معنى من الناحية العملية ، ولا أستطيع الا أن أردد السؤال الذى كنت أطرحه أيام الألم المبرح والنوائب : ماذا يعرف الناس فى الخارج ، وماذا يستطيعون أن يعرفوا ؟

لم نكن معروفين علانية أيام « حركة المقاومة » ، ولكننا ، مع ذلك ، كنا معروفين ، ومن ثم أزيح عن كاهلنا جزء من المسئولية ــ وان كان جزءا فقط ــ وكان الشعب بأسره من ورائنا ·

قصيرة أيام السعادة ، طويلة أيام الشقاء ! لم يكن أمامنــــا مجال للاختيار ــ اذا كان لنا أن نجلب الحرية لشعبنا ، وأن نضمن الحيــــاة السعيدة لأبنائهم ــ الا أن نستمر فى التمرد ، وكان علينا ــ مرة أخرى ــ أن نحمل الجعبة المليئة بالمتاعب ، متاعب مسئولية « المنشقين » ، على ظهورنا · لم يكن هناك من طريق بديل الا طريق الخضوع للاضطهاد ، ولكن الحرية كانت متغلغلة فى دمائنا ، فما كنا لنستطيع أن نخضع ·

لم يكن هناك حب متبادل بين الزعماء فى « حركة المقاومة » ، الا أن الفراق لم يكن خلوا من الأسى ·· وبخاصة اذا صاحبه حادث فندق الملك داود !

الفصل الخامس عشر

فندق الملك داود

(١)

خصص الجناح الجنوبي من فندق الملك داود في القدس ، ابان الحرب العالمية الثانية ، لاسكان المؤسسات المركزية في نظام الحكم البريطاني : القيادة العامة للقوات المسلحة ، والسكرتارية ، والحكومة المدنية • وعندما اشتدت حركة التمرد ضد الحكم البريطاني تحول الفندق العظيم الى قلعة منيعة في قلب المدينة • افتتحت الشرطة العسكرية ، كما افتتح « مكتب التحقيقات الخاصة الشهير » ، مركزي رئاستهما في المبنى المجاور للفندق ، وعسكرت وحدة قوية من الجيش في الفضاء الواقع بين المبنيين • أقيمت أوكار الرشاشات في عدة نقط ، واضطلع الجنود ورجال الشرطة والمخبرون السريون بالحراسة الدقيقة الدائمة على المبنى الذى يؤوى كبار الحكام البريطانيين في أرض اسرائيل •

لم تعد السلطات تعتمد ، بعد ، على المعجزات ، فقد علمتها التجارب ، وكان « كاتلنج » يفاخر قبل هجومنا عـــلى مقر رئاسة الشرطة بقوله : « انهم لن يأتوا ، ولكنهم اذا جاءوا فسوف يلقون الترحيب » •

لقد جئنا ، وتبخر ترحيب كاتلنج ، وعندما تطاير مبناهم في الهواء نجا هو ورئيسه « جيلز » بأعجوبة •

لم تلحظ العيون الكثيرة الساهرة حول فندق الملك داود أى شيء من عملية استكشافنا • ان رسل المقاومة السرية يظلون بعيدا عن الأنظار ولكنهم يرون ما يريدون أن يروه ويكتشـــفون كل ما يبحثـــون عنـــه وينشدونه • بدأت تتبلور الخطة للهجوم على فندق الملك داود •

قدمنا خطتنا ، لأول مرة ، فى ربيع سنة ١٩٤٦ الى قيادة « حركة المقاومة » • أبلغت سنيح وجاليلي أننا سوف نتعهد اختراق جناح الحكومة في فندق الملك داود ، والقيام بعملية تخريب واسعة النطاق • وقد أكدت دون أن أتناول التفاصيل أن استخدام المتفجرات سيتميز بجهاز جديد اخترع بمعرفة «جيدى» ، فمن ناحية . سوف لا يمكن ازالة ألغامنا او أبطال مفعولها ـ ذلك لأنها ستنفجر بمجرد التماس ، ومن ناحية أخرى ، سوف نكون قادرين على تحديد لحظة انفجار هذه الألغام بوساطة جهاز زمنى بعد ادخالها الى المبنى بنصف ساعة ، وقد يمتد الزمن فيصل الى ساعة • وسوف يسمح ذلك باخلاء الفندق من النزلاء ومن العمال والموظفين • ان المبدأ الذى وضعناه لانفسنا يحتم اخلاء الفندق • كان بالفندق كثير من المدنيين ممن كنا نود أن نجنبهم الأذى بأى ثمن ، وكان شغلنا الشاغل هو العمل على أن يعطوا الوقت الكافى لكى يغادروا منطقة الخطر بحيث تكتب لهم النجاة •

لم تصدق الهاجاناه على خططنا من فورها ، فقد اعتبرت أن الهجوم على مقر رئاسة الحكم البريطانى عملية طموحة للغاية • أنهم لم يعارضوا الخطة من حيث المبدأ ، بل كانت مجادلتهم فى أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا الهجوم الخليق باثارة البريطانيين اثارة بالغة • وكنا نحن نظن خلاف ذلك ، الا أننا كنا مرتبطين باتفاقيتنا ، وكان علينا أن ننحنى لقـــــرار الهاجاناه • غير أننا لم نصرف النظر عن مخططنا ، فقدمناه من جديد فى أحاديثنا الشخصية مع رؤساء الهاجاناه وفى رسائلنا الرمزية الى « جيريميا » (كان الاسم الكودى الذى أطلقناه على فندق الملك داود العظيم، فى بادىء الأمر ، هو « مالونشيك » ، أى « الفندق الصغير ») • (١) وامعانا فى التورية أسميناه جميعا ، فيما بعد ، « شيك » • وفى غضون ذلك كانت جبهة تحرير اسرائيل قد أعدت خطة هجوم على مبنى آخر كانت تستعمله الحكومة ، هو عمارة اخوان داود الشهيرة ، وللتمييز بين الاثنين أطلق قادة الهاجاناه على هذا الهدف اسم « عبدك ومنقذك » •

صودق على هذين المشروعين ، اللذين ظلا معلقين عدة أشهر ، من قيادة الهاجاناه فى أول يوليو سنة ١٩٤٦ ، أى بعد الهجوم الرئيسى الذى شنه الجنرال « باركر » على الهاجاناه والبالماخ والوكالة اليهودية بيومين •

---

(١) « مالون » كلمة عبرية للفندق ، و « شيك » مصغر « محب » باللغة الروسية ، وبالتالى باللغة الشلحتية ايضا ، وحتى باللغة العبرية كذلك •

لم يفسر رؤساء الهاجاناه لماذا أصبح اجراء عملية « شيك » ممكنا بعد يوم ٢٩ يونيو · هناك ما يدعو الى الاعتقاد بأنه كان هناك سببان لتغيير رؤساء الهاجاناه رأيهم فان الهاجاناه ، التى اتخذت سياسة كبح النفس فى الثلاثينات ، تعلمت ، بكيفية متأخرة فى الأربعينات ، ونظرية « مقابلة الشر بالشر » · ان تعاليم الهاجاناه الداخلية تزخر بالمواد التى تفسر ان العمليات ينبغى أن تكون دائما « انتقام للهجمات » بل ان الياهوجولومب قد وضع مبررا تاريخيا فلسفيا لهذه النظرية · لقد كان يجادل بأن الحروب التى كان على شعبنا أن يخوض غمارها فى بلدنا كانت ، بالضرورة، حروبا دفاعية ، وزعم أن التمرد الذى وضعت فيه الخطط انتهى عادة الى كارثة · حقيقة ، لقد توج « الحشمونيين » بالانتصار ، الا أن ذلك كان استثناء · كيف نتأكد من أن المعجزة ستتكرر ؟ ان الرياضيات تدعم الفلسفة التاريخية · وقد كان كتاب الهاجاناه ينشدون ايجاد علاقة رياضية من نوع ما بين « الهجوم » و « الأخذ بالثأر » · واننى لأذكر واحدة من « معادلاتهم » : « مدى الانتقام يساوى مقدار الهجوم » · معيار واضح ، علاقة ثابتة ــ الحرب بالرياضيات ــ على الورق !

برزت النظرية من التربة الفلســفية ، ثم استكملت أيام « حركة المقاومة » ، أيام « الكفاح المترابط » · اذا كانت محطة مراقبة جفعات أولجا » ، مثلا ، تتدخل فى المهاجرين فانه يجب تدمير محطــة جفعات أولجا » ، واذا كانت محطة رادار حيفا تتدخل فى المهاجرين فان محطــة الرادار يجب أن تدمر · وقد كانت جماعة « هاشومير هاتسعير » ، التى تعارض كل صور الكفاح المسلح ، تحتج ضد هذه العمليات التى قالوا انها « أضعفت أصدقاءنا ودعمت أعداءنا » ، وكان غضبهم بغير حدود عندما أرسل أعضاء من جماعتهم كأعضاء من الهاجاناه والبالماخ لنسف خطــوط السكك الحديدية أو لتخريب منشآت قوة شرطة فلسطين خفيفة الحركة · وكانوا يسألون ، بصفة علنية وبصفة خاصــة : ماذا كانت العلاقة بين الهجرة وبين خطوط السكك الحديدية ؟ كما كانوا يعجبون : ما هى الصلة بين الاستعمار ووحدات البوليس خفيفة الحركة ؟

وقد درج سنيح على أن يفسر لهم ذلك هكذا :

« ان هذه الخطوط الحديدية تحمل القطارات التى تجلب الجنود الذين يطاردون المهاجرين ، أما سيارات قوة شرطة فلسطين خفيفة الحركة فانها تحمل رجال الشرطة الذين يندفعون للقبض على المهاجرين ، والى المستعمرات الاشتراكية لتفتيشها » ·

لم تكن تفسيرات سنيح غير منطقية ، الا أن أعضاء « هاشـومير هاتسبعير » كانوا يعتبرونها تشاحنا علـى أمر زهيد ، وكانوا يصرون على « الكفاح المترابط البحت » ونشروا نظـرية دفاع الدفاع (دفاع الهاجاناه نفسها) باعتبارها حدا للعمل • ويمكن أن تمتد هذه النظرية ، بالطبع ، الى ما لا نهاية له • اذا كانت لديك منظمة دفاعية تدافع عن منظمة دفاعية أخرى فانه ينبغي لك أن توجد وسيلة للدفاع عن المنظمة الدفاعية التى تدافع عن المنظمة الدفاعية الأولى ، وهكذا • وقد ظلت هذه النظرية نظرية بالطبع ، ففى « ياجور » ، يوم ٢٩ يونيو ، عندما أغار البريطانيون على مخزن أسلحة الهاجاناه ، لم يكن هناك دفاع للهاجاناه • وبعد أن بدأ العرب هجومهم فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ لم يبد جنود الهاجاناه أية مقاومة عندما نزعت القوات البريطانية سلاحهم • وخلافا لمفهـوم النظرية أعطت الهاجاناه الأوامر « بعدم الدفاع عن الهاجاناه » •

كان ، لدهشتى ، أن هذا الجانب من التعليل النظرى (مدى الانتقام يساوى مقدار الهجوم) هو الذى أدى الى التصـديق على خطتنا للهجوم على فندق الملك داود • ففى يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩٤٦ احتل البريطانيون مكاتب الوكالة اليهودية ، وكانت الوكاله اليهودية بمثابة مقر رئاسـة اليهود • وهكذا يجب ، بناء على المجادلة النظرية ، أن يكون الرد على البريطانيين من نفس عملهم ، أى هجوما على مقر رئاستهم فى فنـدق الملك داود •

كان السبب الثانى أشد خطرا من السبب الأول ، فان الهاجاناه ، التى اعتادت على وضعها الملائم « الشبه الشرعى » فى أعين السـلطات البريطانية لم تكن لتتخذ الخطوات الضرورية لمراعاة قواعد الحيطة والحذر ، كما وضـعت الوكالة اليهودية نفسها ظاهريا فى مكانتها الدولية التى « تخيلتها » والتى كانت تعتقد أنها تتيح لها الحصانة من عمل الشرطة ، وبالتالى كانت هناك وثائق سرية كثيرة فى مبنى الوكالة اليهودية مما كان

لا ينبغى لمنظمة تحت ادارة حكيمة أن تسمح بوجوده هناك فى مثل هذه الظروف • كانت الغنيمة التى ظفرت بها القوات البريطانية نتيجـة للتفتيش الذى أجرته فى مبنى الوكالة اليهودية غنيمة تستحق الاعتبار ، وقد بلغت اللامبالاة التى عمت الوكالة اليهودية مبلغا عظيما ، حتى لقد أخبرنى جاليلى بأن البريطانيين استطاعوا أن يحملوا معهم جزءا مكتوبا على الآلة الكاتبة طبق الأصل كلمة كلمة ، من تقرير ، عن خطاب المستر شيرتوك الذى ألقاه فى المجلس الصهيونى العام •• وكان المستر شيرتوك قد امتدح نسف الكبارى ، وفسر المغزى السياسى الكبير لهذه العملية •

كذب تقرير خطبة شيرتوك ، الذى أكد مسئولية الوكالة اليهودية عن عمليات تخريب الهاجاناه ، التنصل القاطع الذى جرى به لسان بن جوريون أمام اللجنة الانجليزية الأمريكية منذ أشهر قليلة . ولم يكن هذا التقرير هو الوثيقة الوحيدة من هذا النوع التى حملها البريطانيون الى فندق الملك داود .

كان الاهتمام باتلاف هذه الوثائق واضحا فى الاجتماع الذى تم بين اسحاق صادح ضابط عمليات الهاجاناه وجيدى . وجه اسحق صادح سؤالا الى جيدى : كم من الزمن يمضى بين ادخال المتفجرات فى المبنى وبين حدوث الانفجار الفعلى ؟ اقترح جيدى خمسا وأربعين دقيقة ، ان ان صادح كان يرى ان تلك فترة طويلة جدا ، فقد يستطيع البريطانيون انقا الوثائق ، علاوة على اخلاء رجالهم . وبناء على ذلك اقترح خمس عشر دقيقة فقط لاخلاء الفندق . راجعه جيدى فى ذلك ، فعلى الرغم من حداثه سن جيدى كانت خبرته العملية فى هذا النوع من القتال أكبر بكثير جدا من خبرة ضابط عمليات الهاجاناه . أجاب جيدى بأن التجارب علمته أنه اذ ما تلقت السلطات تحذيرا بأن أحد مكاتبها سوف ينسف فان العاملين فى هذا المكتب يتركون المبنى بأسرع ما يمكن دون أن يضيعوا الوقت فى جمع الوثائق ، وكان جيدى يحس بأن خمس عشرة دقيقة لا تكاد تكفى لاخلاء المبنى . وأخيرا أمكن الاتفاق بالتراضى المتبادل على نصف ساعة .

ساعود الى هذا لاجتماع بين جيدى وصادح ، وفى خلال ذلك سوف أرجع الى الوثيقة الأساسية المرتبطة بعملية فندق الملك داود .

تلقينا يوم أول يوليو سنة ١٩٤٦ ، أى بعد هجوم الجنرال باركر على الوكالة اليهودية بيومين ، خطابا من قيادة الهاجاناه نصه كما يلى :

« شالوم !

(أ) عليكم تنفيذ (شيك) ومنزل (عبدك ومنقذك) باسرع ما يمكن نفاد بالتاريخ ، والأفضل اتمام العمليتين فى آن واحد . لا تفصحوا عن صفة الهيئة التى ستتولى تنفيذ العملية ــ بطريق مباشر أو أسلوب ضمنى .

(ب) نحن بصدد اعداد شىء ما ــ وسنبلغكم بالتفاصيل فى حينها .

(ج) تستبعد تل أبيب وما جاورها من جميع العمليات . نحن جميعا معنيون بحماية تل أبيب ــ باعتبارها مركز الحياة فى الييوشوف

ومركز نشاطنا . اذا توقفت الحركة فى تل أبيب بسبب حظر التجول واجراءات القبض نتيجة لأية عملية فسوف نتوقف نحن ومخططاتنا عن العمل كذلك . وبهذه المناسبة ، لا تتجمع المراكز الحساسة للأطراف الأخرى هنا ، ولذا فان تل أبيب (خارجة عن الحدود) بالنسبة للقوات اليهودية » .

(٢)

عندما تلقينا هذا الخطاب شرعنا فى تحضيرات عملية « شيك » . لم نتمكن من تنفيذها على الفور ، فقد وصلنا طلب الهاجاناه بمهاجمة الفندق بعد عدة أسابيع من رفضها تلك الخطة بالذات فى بادىء الامر . تغيرت ظروف عدة فى غضون هذه المدة ، ونتيجة لهذا كان علينا أن نقوم من جديد بعمليات الاستكشاف ، ونعيد النظر فى تفاصيل العمليات فى جملتها . وكنا ندرك جميعا أن هذه أكبر عملياتنا حتى ذلك اليوم ، وأنها قد تصبح فريدة فى تاريخ حروب التحرر الوطنى . وليس من السهل أن تخترق قلب الحكومة العسكرية لكى نضرب مقر الرئاسة الحصين لنظام حكم مسلح أشد تسليح . واننى لأشك فيما اذا كان لهذه العملية نظير فى التاريخ .

لم نكن نحتمل أن نفشل ، فلقد انتابت الحيرة جانبا كبيرا من الناس بعد يوم ٢٩ يونيو . كانت ضربة باركر شديدة ، فأطلت الانهزامية برأسها المميتة . وبدأ الناس يتساءلون عن امكانياتنا لمحاربة نظام الحكم البريطانى ، فأبدى كثير منهم اليأس من نتيجة أى « كفاح » . من نحن ، وما قوتنا ، حتى نستطيع أن نقف فى وجه الجيش البريطانى ؟ كانت تلك الضربة تحمل فى جوانبها خطرا شديدا ، فلقد عكست الانهزامية ، وهى الظاهرة القاتلة لكل حرب من حروب التحرير . أدركنا ان الثقة بالنفس لدى اليهود لن تعود الا بهجوم مضاد ناجح ردا على ضربة باركر العنيفة ، ولذا وجدنا الخلاص فى طلب الهاجاناه فانغمسنا بحماس فى اعادة فحص كل تفاصيل العملية . ودائما ما كنا نضع الخطط لكل ما نتعهده بمنتهى الدقة البالغة ، الا أننا لم نكرس من التحضيرات الأولية المستفيضة لأية عملية من عملياتنا العديدة ـ باستثناء عملية الهجوم الأخير على حصن عكا ـ مثل ما كرسناه من أجل عملية « شيك » .

استبعنا بقدرات جيدى الخاطفة الهائلة الى أقصى ما يمكن . تحولت أوعية اللبن البريئة الى حاملات للمواد الشديدة الانفجار ، وصار التأكد من عملها المزدوج ، فوضع جهاز لتحديد زمن الانفجار ـ بعد مضى نصف

ساعة على وضـــع الأوعية فى أماكنها ــ ووضع جهاز آخر لتأمين الأوعية ضد أى محاولة لازالتها أو ابطال مفعولها ٠

أولينا توقيت الهجوم الاعتبار الأول ٠ قدم لذلك اقتراحان : يجعل الاقتراح الأول وقت الهجوم فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، ويحدد الاقتراح الثانى فترة ما بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة بعد الظهر لتنفيذ العملية ٠ ويقوم الاقتراحان على أساس واحد ، هو أنه لا يمكن احضار أوعية اللبن الا عن طريق مقهى ريجانس الواقع فى الدور السفلى (البدروم) من الجناح الذى يشغله باركر وشو ٠ وعادة ما يكون المقهى خاليا فى هاتين الفترتين ، صباحا وعصرا ٠ أما فى فترة الغداء فان المقهى يعج بالعملاء (الزبائن) المدنيين رجالا ونساء ، فضلا عن ضباط الجيش ٠ وكان من الأهمية بمكان أن يتم الهجوم عندما لا يكون هناك عمــــلاء فى المقهى ٠

ومن بين الزمنين المقترحين اللذين كانا مطابقين لهذه الشروط ، وقع اختيارنا على الوقت الباكر ــ الساعة الحادية عشرة صباحا ــ حيث كان يسهل وقتئذ أن ننسق هجومنا مع خطة هجوم جبهة تحرير اسرائيل على مبنى « اخوان داود » ــ عملية « العبد والمنقذ » ــ فقد كان واضحا أنه يجب تنفيذ هاتين العمليتين فى آن واحد ، والا تداخلت احداهما فى الأخرى ٠

فكرنا بعد ذلك فى كيفية اعطاء الانذارات بحيث تقل الخسائر ، فأولا ــ لكى نبعد المارة عن المبنى ــ قررنا إطلاق قنبلة صوتية صغيرة تحدث دويا ولكنها غير ضارة ٠ بعدئذ نختار ثلاثة مكاتب تتلقى انذارا تليفونيا يعطى بمجرد أن يبتعد رجالنا عن الدور السفلى من الفندق ، وكانت هذه المكاتب الثلاثة هى ادارة فندق الملك داود ، ومكتب بريد فلســـطين ، والقنصلية الفرنسية القريبة من الفندق ٠ ثم أخيرا تثبت لوحات اعلان الى جوار أوعية اللبن : « ألغام ، ممنوع اللمس » ــ فى حالة ما اذا حاول الخبراء البريطانيون ابطال مفعول المواد المتفجرة بعد ارسال انذارنا التليفونى ٠

نفذت عملية « شيك » بعد مضى ثلاثة أسابيع كاملة من وقت تسلم تعليمات الهاجاناه بتنفيذها ٠ عقدت ابان هذه الفترة اجتماعات بيننا وبين قادة « حركة المقاومة » ٠ وفى ذات مرة طلبت جبهة تحرير اسرائيل تأجيلا لأنها لم تكن مستعدة ، بعد ، للقيام بواجبها ، كما أرجىء التنفيذ مرتين أو ثلاث مرات بناء على طلب قيادة الهاجاناه ٠ كانت هذه التأجيلات على

درجة كبيرة من الخطورة ، ففى كل مرة كان يزادد عدد الأشخاص الذين يعرفون تفاصيل هذه العملية . وكما ذكرت آنفا ، كان المشتركون فى كل عملية يعطون توجيها مبدئنا وتفصيليا فيما يختص بواجبهم ، وفى حالة عملية الفندق كانت التوجيهات قد صدرت الى عدد كبير نسبيا من الأشخاص ، ولذا فان كل تأجيل جديد كان من شأنه ألا يعرض الخطة نفسها للخطر فحسب ، بل يعرض المشتركين فيها كذلك للخطر . وبناء على هذا قدمنا احتجاجا عن هذه التأجيلات ، الا اننا أذعنا لهـــا بحكم الضرورة . وفى يوم ١٩ يوليو تلقيت مذكرة من موشى سنيح :

« شالوم !

أخبرنى رفاقى بحديثهم الأخـــير . اذا كنت لا تزال تقدر رجائى الخاص ، فانى أطلب ملحا أن ترجىء العمليات التى وضعت خطتها بضعة أيام » .

استجبنا لهذا الرجاء . وقبلنا يوم ٢٢ يوليو كآخر موعد للعملية ، الا أن جبهة تحرير اسرائيل لم تتمكن من اتمام تحضيراتها ، واستقر الرأى أخيرا على البدء بالهجوم على فندق الملك داود وحـــده . وبسبب مشاورات آخر لحظة تأخر وقت الهجوم ساعة فبدأ فى الســاعة الثانية عشرة بدلا من الساعة الحادية عشرة .

قامت وحدة الاقتحام تحت قيادة « جدعون القدس » (مرتدية ملابس عمال الفندق) بالهجوم بشجاعة عظيمة ، ونفذت واجباتها بأناقة تامة . أحضروا أوعية اللبن حتى طريق الاقتراب من الفندق ثم انقسموا بعد ذلك الى جماعتين : جماعة « للاختراق » وجماعة « لتغطية » الجماعة الأولى . أخذت الجماعة الأولى أوعية اللبن الى الدور الأسفل عن طريق مقهى ريجانس . تغلب رجال هذه الجماعة على مستخدمى المقهى وحبسوهم فى غرفة جانبية ، ولم يشكل هؤلاء العرب الخمسة عشر أية مفاجاءة لرجالنا كان امتثال الطباخين والسفرجية الهادىء ــ وهم الأشخاص الذين كانوا فى المقهى فى ذلك الوقت ــ جزءا من الخطة ، الا أن رجالنا فوجئوا بظهور جنديين بريطانيين ، واذ ثارت شكوكهما سحبا مسدسيهما ، ولم يكن هناك مفر من الصدام ، ووقعت خسائر فى الجانبين . اصطدمت ، فى نفس الوقت ، جماعة التغطية فى الخارج بالداوريات العسكرية البريطانية ونظرا لطبيعة العملية لم يكن رجالنا مســلحين بالرشاشات وكان عليهم أن يحاربوا بالمسدسات وبنادق « استن » . ومع هذا وصلت جمـاعة الاختراق الى هدفها ، وضبط قائد العملية بنفســه جهاز التوقيت على

ثلاثين دقيقة ثم وضع اعلانات التحذير ·· بعدئذ أطلق سراح العمـــال العرب ، وأمروا بالفرار للنجاة بأرواحهم لم يترددوا · وكان آخر من خرج جدعون ، الذى صاح : « اخرجوا ، الفندق على وشك الانفجار » · فى هذه اللحظة انفجرت قنبلة التحذير الصوتية خارج الفندق ، وتحت ستار الدخان المنبعث منها انسحب رجالنا · وقد أبعد الصـــوت الذى أحدثته القنبلة ، هو واطلاق الرصاص الذى لم يكن متوقعا ، جميع المارة فى الشوارع المجاورة ·

وصل جدعون فى الساعة الثانية عشرة والدقيقة العاشرة الى النقطة التى كانت عاملة تليفوننا تنتظره فيها ، فاتصلت من فورها تليفونيا بفندق الملك داود وحذرت من أن متفجرات قد وضعت تحت الفندق لنسفه وانها ستنفجر بعد وقت قصير ، ثم صرخت فى عاملة تليفون الفندق : « اخلوا المبنى جميعا ! » ، ثم اتصلت بعدئذ بمكتب بريد فلسطين وأعلنت ـ كما شهدت بذلك عاملة تليفون بريد فلسطين فيما بعد ـ أن قنابل وضـــعت فى فندق الملك داود وأن الناس هناك أخبروا بأن يخلوا المبنى · وأعطى التحذير الثالث والأخير للقنصلية الفرنسية ومعه نصيحة بفتح نوافذ القنصلية لتجنب آثار الانفجار · وقد أكد موظفو القنصلية وصــــول التحذير على الفور ففتحوا النوافذ على مصاريعها ، وبذا لم يتعرض بناء القنصلية لأى عطب ·

الساعة الآن الثانية عشرة والدقيقة الخامسة عشرة · كان جدعون يعد الدقائق ، وحتى هذه اللحظة كان كل شيء يسير طبقـــا للخطة ، باستثناء الخسائر التى وقعت فى الصدام الذى لم يكن منتظرا · وضعت أوعية اللبن فى الدور الأسفل للمبنى تحت جناح الحكومة فى الفندق ، وأرسلت جميع التحذيرات ووصلت الى الجهات المعنية ، وليس من شك فى أن البريطانيين بدأوا فى الاخلاء على الفور · واذا كانت الأمور تسير كما كانت من قبل فى ظروف متشابهة فسوف يتم الاخلاء فى الحال ، الا أنه كانت هناك مسألة واحدة استبدت بجدعون : هل ستنفجر المتفجرات فى موعدها ؟ هل يحتمل حدوث خطأ ما فى أجهزة التوقيت ؟ هل سينهار المبنى فعلا ؟ هل ستتلف الوثائق ؟

كانت كل دقيقة تمر تبدو وكأنها يوم كامل · الساعة الآن الثانية عشرة والدقيقـــة الواحدة والثلاثون ·· والدقيقة الثانية والثلاثـــون اقتربت ساعة الصفر وبدأ جدعون قلقا ، مضت نصف ساعة تقريبا · الساعة الآن الثانية عشرة والدقيقة السابعة والثلاثون ، وفجأت بدت

المدينه كلها وكأنها ترتجف . لم يقع أى خطأ . كانت قوة الانفجـــار أكثر مما كان متوقعا . كان اسحاق صادح يشك فيما اذا كان الانفجار سيصل الى الدور الثالث أو حتى الى الدور الثانى . ويزعم جيدى انه لو أن حوالى ٥٠٠ رطل فقط من المواد المتفجرة ــ المركبـــة من مادة « تى . ان . تى » ومادة « الجلجنايت » ــ وضعت فى أوعية اللبن ، الا ان فراغ الدور الاسفل المحصور من شأنه أن يزيد من قوة الغازات المتسربة ، وبالتالى سيصل الانفجار الى الســطح . وقد وصــلت أوعية اللبن بالفعل الى ارتفاع المبنى كله ، من الدور الاسفل الى السطح ، ستة طوابق من الحجارة والخرسانة والصلب ، أو ــ على حد تعبير هيئة الاذاعة البريطانية ــ لقد قطع جناح المبنى الضخم بتمامه كما لو كان يقطع بسكين !

(٣)

بينما كانت وحدة اقتحامنا في عرين الأسد ، تعمل كل ما يمكن عمله لضمان اخلاء الفندق فى الوقت الملائم ، كان هناك غيرهم قد نهجوا نهجا مختلفا . لسبب ما لم يتم اخلاء الفندق ، مع أن الوقت ــ منذ لحظة تلقى الانذارات التليفونية ــ كان كافيا لكى يخرج منه كل انسان حيا ، ومن ثم كان عدد القتلى مخيفا ، فقد قتل وأصيب أكثر من مائتى شخص وكان من بين الضحايا عدد من كبار الضباط البريطانيين . ولقد حزنا ، بصفة خاصة ، على المدنيين الأجانب الذين لم نكن نود ايذاءهم ، كمـــا حزنا على اليهود المدنيين الخمسة عشر الذين سقطوا بصورة مفجعـــة ، وكان من بينهم أصدقاء صالحون . لقد شاب احساسنا بالرضا لنجاح العملية العظيمة احساس بالمرارة فى نفس الوقت . ومرة أخرى ، لقد عانينا أياما مؤلمة وليالى مؤسفة بسبب الدم الذى أهدر ، وكان حريا به ألا يهدر !

لماذا لم يخل فندق الملك داود ؟ ان فى هذا الفصل المؤلم بعض حقائق لا يرقى اليها الشك فليس من شك فى أن الانذارات وصـــلت جميعها الى متسلميها المعنيين بذواتهم ، فلقد نشرت « ميديل ايست ميل » صحيفة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط ، أنه بعد الساعة الثانية عشرة ببضع دقائق سمعت عاملة التليفون بالفندق صوت سيدة تحذرها من أن قنابل وضعت فى الفندق ويجب أن يخلى بدون ابطاء ، كما شهدت عاملة تليفون بريد فلسطين ــ بعد أن أدت اليمين أمام أحد ضباط الشرطة ــ بأنها تلقت فى الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة عشرة

انذارا أحالته « على الفور » الى ضابط النوبة (النوبتجى) فى مركز رئاسة الشرطة ، ونشرت « أشناب » ، الصحيفة شبه الرسمية للهاجاناه ، بيانا لشاهد موثوق به كان فى الفندق وقت حـــدوث الانفجـــار ٠٠ قال :

« عندما سمعت الصوت المنبعث من الانفجار التحذيرى ، قررت انه من الأصوب أن أغادر الفندق ٠ حاول كثيرون أن يحذوا حذوى الا أن الجنود البريطانيين سدوا مخارج الفندق باطلاق النار فى اتجاه الأشخاص الذين كانوا يحاولون الخروج » ٠

علمت فى أعقاب ذلك أنه عندما وصـــل تحذير اخـــلاء الفندق الى موظف كبير صاح قائلا : لسنا هنا لنتلقى الأوامر من اليهود ، انما نحن الذين نصدر اليهم الأوامر ٠

فى الدقائق الخمس والعشرين أو السبع والعشرين التى انقضت ـ كما شهد بذلك كل الشهود ـ من وقت تلقى الانذارات الى لحظة الانفجار ، كان لدى السلطات وقت كاف لاخلاء أى شخص فى الفندق ٠ وأخيرا هناك ما يدعو الى الاعتقاد بأن أمرا خاصا صدر من أحد رجال السلطة يقضى باهمال الانذار بمغادرة الفندق ٠ لماذا أعطى هذا الأمر الأخرق ؟ ومن الذى كان مسئولا عنه ؟

لم تجر الحكومة البريطانية أى تحقيق ٠ وقبل أن يغادر الجنرال باركر البلاد الى انجلترا ، أصدر أمره المشين الى القوات البريطانية ٠ كتب يقول : « أننى عاقد العزم على أن يعاقبوا (اليهود) ، وأن يدركوا شعورنا بالسخط والاشمئزاز من مسلكهم ٠ لا ينبغى أن نسمح لأنفسنا بأن يضللنا العطف المرائى الذى يبديه زعماؤهم ونعبر عنه الهيئات التى تمثلهم ، أو الاحتجاجات بأنهم غير مسئولين وبأنهم لا يستطيعون أن يكبحوا جماح الارهابيين ٠ وانى أكرر ما قلته من ان الطائفة اليهودية اذا ما أرادت حقا أن تضع حدا للجرائم فانها مستطيعة أن تفعل ذلك بالتعاون معنا ، ولهذا قررت ـ اعتبارا من وقت تسلم خطابى هذا ـ أن تكون جميع أماكن اللهو والمقاهى والمطاعم والمحال والمساكن الخاصة اليهودية جميعها (خارجة عن الحدود) بالنسبة للجنود ، و لايسمح للجنود البريطانيين بالاتصال بأى يهودى ، على أن تتم الاتصالات المرتبطة بالواجبات فى أضيق الحدود وأن تكون مقصورة على الواجبات المعنية ٠ انى أفهم أن هذه الاجراءات قد تكون سببا فى خلق صعوبات للجنود ،

الا أنني موقن من أنه لو فسرت لهم دوافعي فانهم سوف يدلكون واجبهم ، ويعاقبون اليهود بالأسلوب الذى يعافه هذا الجنس أكثر ما يعاف : بضربهم على الجيب ، وهو ما يفصح عن اشمئزازنا منهم » ٠

وقع هذا الأمر — الموجه الى الضباط البريطانيين فى جميع أرجاء الاقليم — فى أيدى ادارة اعلام ارجون فى نفس اليوم الذى كتب فيه ٠٠ نشرناه على الفور فترددت أصداء محتوياته التى تفيض كراهية فى أنحاء العالم ٠

رئى — بعد جمع أدلة ادارة اعلام الهاجاناه وايحاءاتها — أن موظفا كبيرا أراد ، لحاجة فى نفسه ، أن تحل كارثة كبرى ، فتعمد منع اخلاء فندق الملك داود ٠

بعد أن قلبت الأمر على أوجهه خلال السنوات التى انقضت اقتنعت بأن هذه النظرية تناقض الحقائق المعلومة لنا ، بل انها غير حقيقية ٠ ان مسئاله فقهاء الشريعة الرومانيين الأقدمين ، مسألة : من المستفيد ؟ — لا تؤدى الى مفتاح هذا اللغز ، ولا تزال المسألة قيد البحث حينئذ ٠

من الواضح الجلى ، على أية حال ، أننا بذلنا كل ما فى استطاعتنا لضمان اخلاء الفندق اخلاء تاما وباكرا ، وأننا وجهنا الانذارات وأنها وصلت فى حينها الى السلطات ، وأنه كان لدى السلطات من الوقت ما يكفى وزيادة لاخلاء الفندق ، وأن شخصا ما ، لمأرب غامض ، أو لأنه فقد صوابه ، أو لأنه كان يريد أن يحمى هيبة زائفة زائلة ، أصدر أوامره بعدم اخلاء الفندق ٠

بعد هذه العملية مباشرة غمرت العالم بأسره أكاذيب تقشعر منها الأبدان ، وكان تحت تصرف مروجى الدعايات جهاز قوى ، أما نحن فماذا كنا نملك ؟ كتبت صحيفة المقاومة السرية « حيروت » بعنوان « معركة الحق » : « استمرت المعركة !! ولسوف تروج كواحدة من أعظم المعارك فى تاريخنا ٠ لم يكن الخصوم دبابات أو قوات مسلحة تتقاتل معا ، انما كان الخصوم ذلكما الخصمين القديمين اللذين كانا يقتتلان منذ بداية الزمان : الحق والباطل ٠٠ وكالعادة لم تكن القوتان المتخاصمتان متكافئتين ، فمن وراء الباطل وقفت أجهزة الدعاية الهائلة لامبراطورية قوية مترامية الأطراف ، تمتد رقعتها عبر العالم ، ومحطات الاذاعة التى يصل صوتها الى جميع الأنحاء ، ومئات الصحف ، والبرلمانات والحكومات والسفارات ٠ كما هبت لمؤازرة الباطل الصحف اليهودية التى

يرتى لها ، المؤسسات اليهودية التى انتابها الذعر ، والشخصيات التى
ارتعدت لها ، والمؤسسات اليهودية التى انتابها الذعر ، والشخصيات
التى ارتعدت فرائصها • كانوا جميعا يصرخون ويصيحون وقد جعلوا
أصابعهم فى آذانهم •• جميعا يتنافسون وقد انهمكوا بحثا عن أقوى
كلمات الاستنكار وأعنف عبارات السباب وأقذع ألفاظ المهانة • لقد بدا
أن المعركة خاسرة •

خاسرة ! كانت معركة شديدة ، بدت فرصتنا لكسبها متناهية
فى الضعف ، الا أن الصحف الصريحة المتواضعة تغلبت على أجهزة الدعاية
القوية الكاذبة •• فما أعظم الحق ! » •

(٤)

لم تكن المعركة الداخلية من أجل الحق بأقل صعوبة من المعركة
الخارجية • كانت الهاجاناه قد طلبت منا ألا ننشر أى بيانات عن يوم
العملية من شأنها أن تظهر شخصية الهيئة المهاجمة « بطريق مباشر أو
ضمنى » الا أن الارتباك قد ساد الهاجاناه نفسها فى ذلك اليوم ، فأدلى
أحد الضباط بسلسلة من التصريحات المتناقضة تناقضا فاضحا ، فنصح
الصحافة اليهودية ، بادىء الأمر ، بألا تفضح العملية مهما كان الأمر ،
ملمحا بذلك الى أن الهاجاناه لم تكن لديها دراية سابقة بالهجوم • ثم
عاد ، فى وقت متأخر من النهار ، عندما صار معلوما أنه كانت هناك
خسائر جسيمة • فأشار على الصحافة بألا تعلق اطلاقا ، ايجابيا أو
سلبيا • وكان أمره أو توجيهه الثالث أن توعدوا « المنشقين » (يقصد
ارجون وجبهة تحرير اسرائيل) وافضحوا أمرهم بلا تحفظ •

وانفجر التشهير ! لم ير اقليمنا الصغير مثل هذا الانفجار من
الهوس (الهستيريا) الصحفى والتحقير الذاتى • طالبت هاميشمار (١) »
بحملة تطهير ، ونشرت « هاآرتس (٢) » ـ وكأنما ترى كابوسا مزعجا ! ـ
قصيدة شعرية تبشر بأنه ليس هناك فداء • على الاطلاق ، أفضل من
الفداء الذى ينادى به المبتلى بمرض البرص ، ولم يكن الا بعد فوات أيام
عدة أن أفاقت « هاآرتس » لتستحث تحقيقا رسميا فى أسباب عدم اخلاء
الفندق • حينئذ ، وحينئذ فقط ، كتبت صحيفة « هاآرتس » أنه كان
هناك تحذير من غث ما شك ، وأن نياشين وميدليات مستر جيكوبز

---

(١) « آل هاميشمار » صحيفة جناح اليسار اليهودى ، الشيوعيين الاشتراكيين •

(٢) « هاآرتس » صحيفة اليهود الألمان من الطبقة المتوسطة الذين يطلق عليهم الاسم المستعار « بركيز » •

ـ موظف يهودى كبير فى الحكومة قتل فى الانفجار ـ وجدت فى جيبه ، مما يقوم دليلا على أنه كان يهم بالخروج من المكتب ، وأن شخصا ما قد منعه من الخروج . وقد عمل المستر بن جوريون على اعلاء صوت فرقة التشهير (الكوراس) ، اذ قيل انه فى حديث صحفى مع صحيفة « فرانس سوار » الباريسية ذكر التعليق الغريب : « ان منظمة ارجون عدوة الشعب اليهودى ، وهى دائما تعارضنى . » .

كان سلوك الهاجاناه أغرب من هذا كله ، فعلى الرغم من طلبها المسبق بألا ننشر ما يكشف عن شخصية الهيئة التى ستقوم بالهجوم فقد تسلمت مذكرة من جاليلى مساء يوم ٢٢ يوليو يطلب منا فيها أن نعلن أن ارجون هى التى قامت بالهجوم على فندق الملك داود ، وأضاف جاليلى أن الهاجاناه لن تنشر أى بيانات على الاطلاق ، فاستجبنا لطلبه وقمنا على الفور بصياغة ونشر بيان واقعى كامل عن الهجوم على الفندق ، وقد استبعدنا واقعة واحدة ، تلك هى أن الهاجاناه طلبت منا يوم أول يوليو أن نقوم بتنفيذ عملية « شيك » . ولكن الهاجاناه لم توف بوعدها، من جانبها ، ففى اليوم التالى ، أى يوم ٢٣ يوليو ، أذاعت « كل اسرائيل »، محطة اذاعة الهاجاناه ، بيانا بالغ الأهمية :

« تستنكر حركة المقاومة العبرية الخسائر الفادحة فى الأرواح ، التى وقعت بسبب عملية المنشقين فى فندق الملك داود » .

« تستنكر ! » .. « المنشقين ! » .. كانت هذه هى المرة الأولى التى استخدم فيها متحدث الهاجاناه اصطلاح « المنشقين » منذ شهور كثيرة . ولقد فهمنا الاشارة ، نحن الذين ندرك حتى مجرد التغيير فى « لهجة أية عبارة » ، وكان للكلمتين فحواهما حقيقة . ان التهرب من المسئولية يعنى عدم الشعور بالتبعة ، وهو يتنافى مع الأخلاقيات ، ثم انه خطيئة ضدالمقاتلين بصفة خاصة .

أرسل لى جاليلى فى نفس اليوم خطابا شخصيا ، كان أسلوبه فيما يتعلق بما حدث بيننا أسلوبا دفاعيا ، وقد أبدى القلق البالغ حول التطورات فى المستقبل . كتب جاليلى ، الذى كان قد خلف سنيح قائدا عاما للهاجاناه :

« شالوم ! »

مهدت العواقب الخطيرة لعملكم فى القدس السبيل لتطورات لم

تكن فى الحسبان · لقد أغفل تعليق الصحيفة توجيهنا ، ولذا لم يكن هناك بد منه فى هذه الظروف ·

ان الموقف عرضة لأن يتسبب فى تعقيدات خطيرة مؤلمة بالنسبة لاستمرار الكفاح ، ولتلافى ذلك يلزم أن نلتقى نحن الاثنين الليلة ٢٣ يوليو فى الساعة التاسعة مساء ·

الرجاء بذل الجهد للحضور ، وسوف انتظرك فى مكان اجتماعنا الماضى · يجب أن يسبق اجتماعنا الليلة اجتماع الغد · » ·

ذهبت الى اللقاء · كنت محزونا ، الا أن جاليلى لم يلحظ ذلك ، وعندما عاتبته على مسلك الصحافة قال انها « حادت عن الطريق المرسوم لها » وأغفلت توجيه قيادة الهاجاناه ، الا أننى شكوت ، بصفة خاصه ، من اذاعة « كل اسرائيل » التى تستوجب الدهشة ·

سألته : ما معنى هذا ، ألا تعرف ماذا ، ومن ، كان وراء كثرة الاصابات ؟ لماذا تشهرون بنا ؟ كانت الخطة متفقا عليها بيننا ، وقد قام رجالنا بتنفيذ التعليمات التى صدرت اليهم بمنتهى الدقة ، وأعطى التحذير ـ فلماذا لا تقررون الحقيقة ؟ ·

كان فى ذلك الوقت أن أخبرنى جاليلى بالمحادثة التى جرت بين أحد ضباط الشرطة وبين موظف الفندق ، وكانت هذه المحادثة قد وصلت الى علم ادارة اعلام الهاجاناه ، وهى المحادثة التى قال فيها الموظف : « اننا لا نتلقى الأوامر من اليهود » · وبناء على طلبى وعد جاليلى باذاعة هذه المعلومات من اذاعة « كل اسرائيل » التالية ، وطلب منى جاليلى أن أؤكد له أننا سوف « لا ننشر أى شىء مما قد يعقد الموقف » فوعدته بذلك ، اذ لم تكن لدينا أية رغبة فى زيادة الذعر الذى كان يكتنف المؤسسات الرسمية حينئذ ·

بعدئذ أخرج جاليلى مذكرة من جيبه لأقرأها · كانت مذكرة له من اسحاق صادح · قرأت المذكرة فبدا كل شىء محزنا · زعم صادح أنه خدع ، لا أكثر ولا أقل ، فقد أخبره جيدى أن الهجوم سوف ينفذ فيما بين الساعة الثانية والساعة الثالثة بعد الظهر ، أى فى فترة الغداء عندما تكون المكاتب الحكومية خالية ·

أخبرت جاليلى من فورى بالحقائق المختصة بتوقيت العملية ، فقد ناقشت قيادة ارجون خطة الهجوم ومحصتها مرارا وتكرارا ، ولم يحدث

اطلاقا ان سمعنا أى اقتراح بتنفيذها فى خطة الغداء · ذهب جيدى لمقابلة صادح بعد اتخاذ القرار النهائى بالهجوم فى منتصف النهار ، وقد رفع لى جيدى فيما بعد تقريرا كاملا عن مقابلته هذه مع صادح ، ولم يحدث قط أن أخبرنى جيدى بغير الصدق · لكن ، حتى اذا كان جاليلى لا يعتقد فى جيدى مثلما أعتقد ، فأى معنى ينطوى عليه افتراض أن جيدى أخبر صادح شــيئا مخالفا لما استقر عليه الرأى فيما يختص باقتراحه ؟

وعد جاليلى بانه سيطلب من ضابط عملياته مزيدا من التفاصيل ، وطلب منى أن أجرى تحقيقا فقلت اننى لا أظن أن هناك ما يصلح أساسا للتحقيق ، الا أننى سأسأل جيدى ، فاذا أصر المستر اسحاق صادح على روايته طلبنا من ضابطى العمليات استرجاع الأمر فى حضورنا . فوافق جاليلى ·

انقضت بضعة أيام قبل اذاعة « محادثة الفندق » من محطـــة « كل اسرائيل » وكان ذلك بعد أن أرسلنا خطابات استعجال الى جاليلى · الا أن الصحافة استمرت فى اغفال توجيه الهاجاناه ، وتمسكنا نحن بالصمت من أجل الكفاح المشترك ·

فى غضون ذلك انعقد المؤتمر بين ضـــابطى العمليات · مثل الهاجاناه جاليلى وصادح ، ومثل ارجون جيدى وابراهام وأنا · وكنت قد أجريت حديثا آخر مع جيــدى · ذهل عنــدما علم بنا كتبه صادح ، وأوضح أن صادح لم يسأله البتة عن ساعة الهــجوم ، وأنهما لم يناقشا ذلك اطلاقا ، فلقد ناقشا المواد المتفجرة وأثرها المحتمل ، كما تناقشا فى الوقت المسموح به للاخلاء ، وناقشا العملية بوجه عام · لم يدخلا فى التفاصيل ، وما كان صادح ليهتم بالتفاصيل بحكم عادته ، وهو لم يفعل ذلك فى هذه الحالة ، بل ان التفصيل الخاص بتوقيت العملية لم يحدث أنه ذكر ابدا ·

أثناء التحقيق سألتهما كليهما على السواء دون محاباة ، ومع هذا قلت لنفسى : ربما كان هناك سوء تفاهم · وكنا ، أنا وجاليلى ، نوجــه الأسئلة سؤالا بعد سؤال الى صادح وجيدى ·

لم يتمخض هذا التحقيق المبدئى عن نتيجة رسمية ، فطالبنــــا ــ نحن الذين كانت أمـواج الاثارة ترتطم بهم أو تنحسر عنهم ــ مجلس تحقيق رسمى ليقضى المجلس بحكمه بيننا وبين « حركة المقاومة » ·

واقترحنا أن يكون رئيس مجلس التحقيق المستر « ايزاك جروينباوم » عضو الوكالة اليهودية ، أو الدكتور « ماجنس » رئيس الجامعة العبرية ، أو حتى المستر « توبنكين » زعيم « أحدوت عافودا (١) » حزب المستر جاليلى السياسي - وثلاثتهم خصوم سياسيون معترف بهم لارجون - ولكن لم يقبل اقتراحنا .

بالاضافة الى الاكاذيب التى بذرت حول هجومنا على مقر الرئاسة المدنى والعسكرى البريطانى ، ذاعت قصة مؤداها أنه نتيجة « لغضبة فندق الملك داود » قطعت الهاجاناه علاقاتها بنا . ويبدو لى أن علاقات الهاجاناه بنا لم تكن فى أى وقت أوثق مما كانت عليه فى الفترة التى جاءت فى أعقاب عملية « شيك » حيث واظبنا لمدة طويلة على تنسيق خططنا . ففى أغسطس سنة ١٩٤٦ تقدمنا بخطة عمليات لاغراق احدى السفن البريطانية المعدة للابحار (النفى) والتى كانت ترسو فى ميناء حيفا ، وقد أطلق على هذه الخطة اسم « عملية اللنش » ، وأحيانا كنا نطلق عليها اسم « المستر لنش » . وفى يوم ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٦ ، أى بعد « عملية شيك » بشهر واحد تقريبا ، كتب لى جاليلى :

« أبادر للاجابة على موضوع اللنش ، فأؤكد من جديد أن مسألة (المستر لنش) تنال أشد الاهتمام ، وأوصى بالحذر من التداخل الذى قد يكون بالغ الخطر . أما عن دعواك بأن هذا كان اقتراحك فمنذ متى تعطى الأسبقية لاقتراح خاص عندما لا يتحتم على مقدم الاقتراح أن يعرف أن اقتراحاته كانت قيد البحث قبل أن يتقدم هو باقتراحها بزمن طويل ؟

سوف أجيب على المسائل الأخرى دون ابطاء » .

كلا : لم يكن هجوم فندق الملك داود هو الذى مهد لقطع العلاقات بين الهاجاناه وارجون ولكنه عمل على اماطة اللثـام عن السمة الحقيقية لهذه العلاقات التى قطعت بالفعل بعد عدة أشهر . قطعت العلاقات طبقا لنص اتفاقيتنا ، بسبب هذه « الهدنة » التى اسـتقر عليها رأى أحد السجناء فى باريس (٢) فى ليلة من ليالى الخريف ، خلافا لرأى « سجين باريس الآخر » .

---

(١) كان « أحدوت عافودا » حينئذ جناح اليسار من العمال الاشتراكيين قبل ان يندمج مع « هاشومير هاتسائير » فى « مابام » .

(٢) كان المستر بن جوريون فى باريس عندما ألقى القبض على رفاقه واعتقلوا يوم ٢٩ يوليو ، وبقى بهـا الى ان أطلق سراح الرفاق . أما سجين باريس الآخر فهو الدكتور سنيح ، الذى التجأ الى فرنسا بعد فترة اختفاء فى أعقاب يوم ٢٩ يوليو .

كانت للهجوم على فندق الملك داود عواقب أخرى • فبعد استعداد منفـــرد ، نزل الجيش البريطانى بقـــوات كبيرة الى تل أبيب لتعقب « الارهابيين » ، كما زعموا ، وابادة أصولهم وفروعهم على حد سواء •

احتلت تل أبيب بما يقرب من فرقتين من المشاة ووحدات مدرعة تصاحبها شرذمة من عملاء الشرطة والمخابرات • اعلن حظر التجول ليلا ونهارا • وجه انذار بأن « أى انسان يغادر منزله سيطلق عليه الرصاص على الفــــور » • أجرى تفتيش من منزل الى منزل • أحكمت اجراءات « الحصر والتحرى » ، فلم يفلت أحد من الشبكة المضروبة • كان على كل منزل أن يفتش ، وكان على كل شخص أن يستجوب •

بهذا صدرت أوامر الجنرال « كاسيلز » قائد قوات جلالة الملك فى المدينة المحاصرة • ازدحم معسكر « اللطرون » و « رفح » بعـــدد من النزلاء الذين أتيح لهم الوقت الكافى لكى يزول الأمل الكاذب من نفوسهم خلف الإسلاك الشائكة : الا أن هؤلاء النزلاء لم يكونوا هم الذين يبحث الجنرال كاسيز والجنرال باركر ورجـــلا الشرطـة جيلز وكاتلنج عنهم بصفة خاصة • أنهم يعرفون من هم الذين يريدون ، وكم بحثوا ، ويا له من بحث ! الا أنهم لم يجدوا ، بعد ، أولئك الذين يبحثون عنهم •

فى الليلة التى سبقت اعلان حظر التجول حذرنا مصدر موثوق به من احتمال قيام البريطانيين بعمليات تفتيش واسعة النطاق • وحدث أن كان لدينا اجتماع مع رؤساء جبهة تحرير اسرائيل فى نفس الليلة فأخبرناهم بالتحذير ، الا أنه بدا أنه ليس أمرا ذا بال ولم تكن له صفة الاستعجال ، فلم نفكر — لا نحن ولا هم — فيه ثانية • وبعد أن افترقنا عن « فريدمان — بللين » و « اسحاق ايرزنيتسكى » ذهبت الى منزل فى شارع « بن — نون » ، وقد رافقنى أبراهام كعادته حتى باب منزلى ، وحددنا موعد لقائنا فى اليوم التالى •

لكننى استيقظت من نومى بعـد منتصف الليل مباشرة على قعقعة الدبابات والعربات الثقيلة ، كما استيقظت زوجتى هى الأخرى ، واطلقت « روكسى » العنان لغرائزها المعادية للبريطانيين فبـــدأت تنبح نباحا شديدا •

تأيد تحذير التفتيش تأييدا عاجلا • ولو اننا كنا قد أخذناه مأخذ

الجد بادىء الأمر . اذن لغادرنا تل أبيب فى أى وقت شئنا وانتظرنا الى أن ينتهى العسكريون من تفتيش المنازل منزلا بعد منزل : أما الآن فقط أسقط فى أيدينا وأدركونا جميعا ونحن فى تل أبيب . بدأ الموقف مكفهرا مدلهما . ما الذى عسى أن يحدث لفتيتنا ؟ أما عن « اسرائيل ساسوفر » فقد أصبح من الجلى الواضح أن لخيته لن تنفعه هذه المرة فقد نمى الى علم ادارة اعلامنا ، منذ وقت مضى ، أن البريطانيين أصبحوا شغوفين باللحى بصفة خاصة ، وأن كثيرا من اليهود الأرثوذكس كابدوا نتيجة لارتياب البريطانيين .

ماذا عسانا أن نفعل حينئذ ؟

توجد شقة سرية فى المنزل الصغير كان يعقوب ميريدور قد وضع تصميمها قبل أن يوشى به لدى البريطانيين ، ومن المسلم به أنها شقة بدائية وأن النظرة المدققة تستطيع أن تكتشفها . ظلت هذه الشقة خالية ثمانية عشر شهرا لم أفكر خلالها فى الالتجاء اليها أثناء مرات التفتيش الكثيرة التى جرت فى تل أبيب ، بل اننى لم ألجأ اليها حتى أثناء التفتيش الذى جرى عبر الطريق الا أننى شعرت فى تلك الليلة أنه ينبغى لى أن أختفى عن الانظار . لمعلومية ابنى ، الذى كان نائما نوما عميقا ، ولمعلومية رجال الشرطة والجيش الذين كانوا يحلمون بجوائز المقبوض عليهم ، اتفقت مع زوجتى على أن يقال انى ذهبت الى القدس » . ثم تسللت بعدئذ الى مخبئى .

ظل البريطانيون يتدفقون مارين أمام المنزل . كانوا لا يزالون يمرون حتى مطلع الفجر . ومن جهاز الراديو الذى كانت زوجتى قد وضعته فى مكان مرتفع على قدر ما استطاعت حتى أتمكن من الاستماع اليه جاء صوت مذيع نشرة الأنباء : يستمر حظر التجول عدة أيام ، وسيجرى تفتيش كل منزل ، وسيستجوب جميع القاطنين .. عدة أيام ! ليس هذا بالأمر المشجع .

الجنود فى الحديقة الآن ، وقد استقرت جماعة منهم تعسكر فيها . دخلوا الى المنزل وأجروا تفتيشا مبدئيا .. كانوا على قيد ذراع واحد منى .

سأل الضابط : « أين زوجك ؟ » .

.. ادعت زوجتى أنها لا تستطيع التكلم باللغة الانجليزية فأجابت

بالعبرية أن زوجها ذهب الى القدس . أخذوها للاستجواب ، لم يكن من ذلك مفر ، فأخذت طفليها معها . كانت « نقطة المراقبة » التى أقامهـــا العسكريون على قارعة الطريق تبعد عن المنزل بما يقل عن نصف ميل ، وعندما وصلت زوجتى الى هناك لم توجه اليها أية أسئلة على الاطلاق . ألقى عليها ضابط الشرطة البريطانى المنوب (النوبتجى) نظرة ثم قال للشرطى اليهودى الذى كان يعمل مترجما : « قل لهـــا أن تذهب الى منزلها ! » .

أبلغتنى زوجتى فيما بعد أن لهجة الشرطى كانت مهينة نوعا ما . جاءت زوجتى الى منزلها فأخذت تتكلم مع الطفلين بصوت عال لتعطينى الاشارة بأنه حتى ذلك الوقت كان كل شىء على ما يرام .. كان كل شىء يسير سيرا طيبا حتى الآن .

لكن الجنود عادوا حينئذ لتفتيش المنزل تفتيشا دقيقا . فتحوا الدواليب ، وتطلعوا تحت الأسرة ، ونقروا على الحوائط ، نقروا عـلى حائط شقتى ، قرعوها قرعا عنيفا لدرجة أنى كنت على وشك أن أرد على قرعهم بقرع مثله ، وكانت « روكسى » أقل منى كبحا لجماح نفسها .

ومع هذا لم تكن حجرة مخبئى جنة أو روضة ، فلقد استرجعت ، غير طائع ، غرفة الحبس الانفرادى فى « لوكيشكى » . كانت هناك أوجه معينة للمقارنة بين الاثنتين ، ففى لوكيشكى كان الجو حارا نهارا ، باردا ليلا . وهنا أيضا كان الجو باردا بالليل ، وهو بين الجنة والنار بالنهار . هناك كانت أرضية الحجرة من الحجارة ، وهنا كانت من الخشب . هناك كان الانسان يشكو من ألم العظام وهنا كانت العظام أشد ايلاما .. هناك كنت تستطيع أن تخطو ثلاث خطوات ونصف ، وهنا لا تجرؤ على الحركة . هناك كنت تفتقر الى الطعام ، وهنا تفتقر الى الماء .

كان هذا أسوأ ما فى الأمر : لا يوجد ماء ! لقد كنت استطيع الاستغناء عن الطعام فى لوكيشكى وفى أماكن أخـــرى ، أما هنا فقد تعلمت ، لأول مرة معنى الحرمان من الماء . الجوع والعطش ! ان من الخير ألا يعرف الانسان أحدهما أو الآخر ، لكن اذا كان لى أن أختار واحدا من الاثنين فانى لن أتردد فى اختيار الجوع .. ان العطش الدائم أمر مخيف .

كنا فى شهر أغسطس ، وكان المكان خانقا . لم تكن هناك قطرة ماء واحدة . انقضى يوم وليلة . الانجليز لا يزالون معسكرين فى حديقتنا . يوم آخر وليلة أخرى ، ولا ماء .. يوم ثالث وليلة . بدأت رأسى تدور ،

وبدأ جسمي يجف ، ماذا يحدث لو أن الراديو ذكرني ، للترويح عن نفسي ، بأن ذلك الحال سوف يستمر أياما ٠

دأب الجنود البريطانيون على المجيء الى المنزل على فترات متقاربة ، كلما مرت دقائق قليلة ، تارة يطلبون كبريتا وتارة أخرى يطلبون خدمة مما يطلبه الجيران ، الا أنهم دائما كانوا يأتون في طلب الماء ، كانوا يشربون ماءنا ٠ شعرت فجأة بأن شيئا ما قد تغير ٠ سمعت ضوضاء مصدرها الناس الذين يتحركون خارج المنزل ، كما سمعت ضجيج ماكينات الاحتراق ٠ توقف الجنود عن المجيء الى المنزل ، ما معنى هذا ؟ ٠

صه ! هكذا عاتبت نفسي : ربما كنت مخطئا ٠ لا تتعجل الفرح بالماء الذي سوف تحصل عليه ! ٠

لكن سرعان ما تبدد الشك باليقين ٠ لقد أعطتني زوجتي « اشارة الأمان » بالمكنسة ، اشارة زوال الخطر من كل شيء ! ٠

عندما أصبح الماء في متناول يدي لم أشرب منه شيئا ، ولكنني اكتفيت بأن ألقي برأسي المرة تلو المرة في وعاء ملىء من ذلك السائل الذي يحفظ علينا الحياة ٠ لقد انقضت أربعة أيام منذ دخلت غرفة سجني العديمة الماء ٠ رفع حظر التجول ، وكان جيدي أول من زارني ٠ وكان سؤاله الحائر : « كيف استطعت أن تتنفس هنا ؟ » ٠ لم أحر جوابا ، فانني لم أكن أفكر في حاجتي الى الهواء وقتما كنت في غرفة مخبئي ، ولكنني كنت أفكر في الماء ، ولا شيء غير الماء ٠

وبعد مجيء جيدي جاءني أميتسور ورويفين ومائير — كل وقصته قصة في نفس الموضوع ٠ ان نظام الحكم ، بكل قواته وبكل مخبريه السريين وبكل عملاء مخابراته ، وبكل الصور الفوتوغرافية لديهم عن الارهابيين وبكل وسائل تحقيق الشخصية المستفيضة ، لم يحقق الا القليل ٠

وسرعان ما حضر ابراهام فيما بعد وكان القلق قد ساورنا عليه ٠ كان يجمع الأنباء ٠ لقد قبض على اسحاق ايزرنيتسكي قائد جبهة تحرير اسرائيل متنكرا في زي الحاخام « شميز » ٠ ومن بين أعضائنا العاملين جميعا قبض على واحد فقط هو « تسوسيا » ، أما باقي ضباطنا الآخرين فلم يصبهم سوء ٠

كان ابتهاجنا عظيما لدرجة نسينا معها مبادئنا المرعية ، فأخذنا نتحدث بصوت مرتفع وجاء صوت « بنى » المفاجىء :

ــ « يا ابنى ، أين كنت طوال هذا الوقت ؟ » .

ــ « فى القدس » .

ــ « في القدس ؟ ماذا أحضرت لى معك ؟ » .

ــ « أحضرت لك ؟ حسنا ! » .

ــ أنقذت زوجتى الموقف :

« لقد أحضر لك عربة كبيرة ، ولسوف يأتى بها العم سيمون الى المنزل » (كان « بنى » يعتبر « آميتسور » هو العم « سيمون ») .

وقد اخبرت فيما بعد أنه أثناء حظر التجول الكبير فى تل ابيب اجتمع عدد من الحاخامات الأرثوذكس فى معابد تل أبيب يصلون لله أن يحفظنى من أولئك الذين كانوا يسعون الى القضاء على حياتى .

لم يؤثر أى شىء فى نفسى تأثيرا عميقا مثل ما كان لهذا النبأ من الأثر !

الفصل السادس عشر

الجــــلــــد

يبدو أن بعض عناصر معينة فى الجهاز الحكومى البريطانى يميل بصفة خاصة الى استعمال السوط • ففى تطوير بعض المســـتعمرات البريطانية جعل الســـوط وسيلة لخدمة الأغراض التعليمية • وهو لايستخدم ، بالطبع ، للأولاد المعارضين وحسب ، ولكنه يستخدم أيضا للمراهقين الذين يعاملون معاملة الأطفال المتمردين المخلين بالنظام • رأيت عنوان الحكم البريطانى هذا عندما كنت مسافرا عبر ايران فى طريقى من روسيا الى أرض اسرائيل • ومع أن ايران لم تكن مستعمرة بريطانية بصفة رسمية ، على أية حال ، الا أن كل ضابط بريطانى كان يحمل عصا او سوطا صغيرا ، وكان يؤكد أوامره « لأبناء البلد » بصفة دائمة عن طريق لمسة تربوية خفيفة من واحد من هذه الصولجانات » ، صولجانات السلام الرقيق •

واذا كانت أرض اسرائيل تحكم كمستعمرة بريطانية فلم يكن منطقيا أن تحرم من ميزة السوط التعليمى •

وكان من سوء الطالع الباكر لجنديين شابين من ارجون تسفاى ليومى أن يكونا ضحية فلسفة السوط ، فقد حكمت « محكمة » عسكرية على « كاتس » و « كيمشى » ، وهما فتيان فى السابعة عشرة من العمر ، بالسجن خمس عشرة سنة لانتهاكهما تعليمات الطوارىء فيما يتعلق بحمل

السلاح . الا أن الحكم لم يخفف ، بل أضيفت اليه « تعليمية » مقدارها ثماني عشرة جلدة لكل واحد منهما .

اعتبرنا هذه الاضافة المشينة الى حكم صارم فعلا أمرا بالغ الخطر، ينطوي على تضمنيات سياسية وأخلاقية بعيدة الأثر . ان هذه الجلدات خليقة بأن تؤذي جوهر أرض اسرائيل ، فعلى امتداد سبعين جيلا ، وعلى سبعين أرضا ، عانينا من جلدات الطغاة . كان البارونات البولنديون يجلدون اليهود الموضوعين تحت حمايتهم ، وكان البارونات الألمان يجلدون اليهود تحت حمايتهم كذلك . هل كان للباغي أن يجلدنا الآن في بلدنا ؟ وهل يرضى متمردو جيلنا ، الذين أبدوا الاستعداد والرغبة لكي يضحوا بأرواحهم في سبيل تحرير شعبهم ، بهذه الاهانة الجديدة ؟

ماذا كان الغرض من هذه العقوبة البهيمية ؟ هل كان يود نظام الحكم أن يقدم بيانا عمليا على أنه يعتبرنا « من أهل البلاد » وأن عليه ان يعلم هؤلاء اليهود الوقحاء ، على الطريقة الأرثوذكسية ، كيف يسلكون ازاء سادتهم المنعمين ؟ كان هنا أمر جلي حرك عواطف أسرة المتمردين كلها ، بل انه مس الشعب بأسره ، لا من جهة علاقاته بسلطة الانتداب في فلسطين فحسب ، بل ومن جهة علاقاته بشعوب الدنيا جميعا . ان هذه الجلدات الست والثلاثين سوف لا يحس بها اليهود فحسب ولكن ستشعر بها كل الشعوب المضطهدة تحت الحكم الأجنبي. وهنا يجب أن يواجه قانون السوط تحديه النهائي .

وأنا نفسي كانت لدي ذكريات مريرة عن السوط . ففي سنة ١٩٢٠ عندما تقهقر الجيش الروسي من بولندا ، مسقط رأسي ، كانت « بريست ليتوفسك » محتلة بالقوات البولندية تحت قيادة بارون جنرال ، وكان ذلك القائد متغطرسا معاديا للسامية . أمر بالقبض على عدد من المواطنين اليهود البارزين ، وأن يجلد كل واحد منهم خمسا وعشرين جلدة بدعوى « تعاطفهم مع البولشفيك » . وسيق اليهود الباقون الى الحديقة المركزية في المدينة حيث أجبروا على رؤية المشهد ، وبعد عدة أسابيع توفي أحد ضحايا الجلد ، واعتقادي أن سبب الوفاة كان الخجل والاهانة أكثر مما كان الأثر البدني للجلد . كنت وقتئذ في السابعة من عمري ، الا أن هول المنظر المشين لا ينقشع من مخيلتي أبدا .

عندما أعلن حكم الثماني عشرة جلدة على رفيقينا الصغيرين ، دعوت الى اجتماع قصير للقيادة العليا . وجدت أن المشاورات كانت من نافلة

القول ، فقد كنا جميعا مستمسكين ، بصورة غريزية ، بفكرة واحدة : اذ كان الجيش البريطاني يجلد فتياننا فانه ينبغي أن نقابل ذلك بجلد الضباط البريطانيين • تناقشنا فيما اذا كان هناك ضرورة لتقديم انذار • رأى البعض أنه يجب أن نقوم بالجلد أولا• ثم نقدم تفسيرا فيما بعد ، الا أنهم اقتنعوا أخيرا بضرورة تقديم انذار في بادىء الأمر ، بأن نبلغ السلطات البريطانية أنها اذا نفذت حكم الجلد المهين على الجنديين اليهوديين فان كل ضابط بريطاني في أرض اسرائيل سوف يكون عرضة لعقوبة مماثلة • ولكي تكون السلطات هي وجميع ذوي الشأن على بينة من الأمر رئي أن ينشر هذا الانذار باللغة الانجليزية واللغة العبرية • كان الانذار واضحا وكان رزينا • لم يكن « صموئيل كاتس » الذى كان على وشك الاضطلاع « بادارتنا الانجليزية » موجودا في الاقليم وقتئذ ، فكتبت أنا الانذار بنفسي ؛ وكنت قد تلقيت خبرتي باللغة الانجليزية عن هيئة الاذاعة البريطانية أساسا ، وخلال السنوات التي قضيتها في المقاومة السرية كانت هيئة الاذاعة البريطانيـــة تزودني بكميات وفيرة من المعلومات غير الدقيقة عن عملياتنـــا في أرض اسرائيـــل ، ولكنها كانت تزودني كذلك بكمية كبيرة من المعلومات الدقيقة في اللغة الانجليزية •

على الرغم من الافتقار الى صقل العبارة ، كانت اللغــة ، وكان مضمون الانذار ، بمنجاة من احتمال أى خطأ • وفضلا عن ذلك فان الجلد في حد ذاته موضوع غير أليق ، ولذا لم يكن من المناسب عند صياغة عبارات مثل هذا الانذار أن نستخدم لغة متأنقة ، فان كل ما كان ينبغي أن يقال (اذا جلدتمونا فاننا سوف نجلدكم) قد قلناه • كان الضباط بصفة خاصة ، هم هدفنا •

كان الأمر الذى أعطى لقادتنا المحليين يقضي بألا يمسوا الجنود ، وأن يقصر القبض والجلد على أولئك الذين يحملون رتبا مسئولة • ويتطلب هذا التمييز تفسيرا يســيرا ، فالعــلاقة بين الجنود وضباطهم ليست علاقة مودة عميقة ، ومن ثم كانت التفرقة سليمة من الناحية السيكولوجية • أثارت سياستنا قدرا من التعاطف بين الجنود في القوات البريطانية الهائلة ، وبهذه المناسبة : نقش جندى بريطاني على واحدة من اللافتات التي تحمل انذارنا ، بحروف كبيرة : « من فضلكم لا تنسوا رقيبي الأول » !

وعلى عكس جندى الفرقة المحمولة جوا ، الذى كان قد كتب تهديده

« بقتل ستين مليونا من اليهود » . فان ذلك الجندى بالذات أضاف اسمه كاملا ووحدته ورقمه العسكرى .

مهما كان تفكير الجنود البريطانيين ازاء احتمال جلد ضباطهم على أيدى ارجون ، فان من الواضح أن الجهاز الهرمى لم يصدق أننا سوف نجرؤ على استعمال السوط فى الثأر ، وربما كان ذلك هو السبب فى أنهم أخذوا « كيمشى » الصغير ، مساء يوم جمعة فى أواخر شهر ديسمبر ١٩٤٦ ، من غرفته فى سجن القدس وقدموا بيانا بالعمل على ان قضاء السوط يسرى فى أرض اسرائيل أيضا . لقد جلد « كيمشى » ثمانى عشرة جلدة طبقا للقانون .

كان اليوم التالى يوم سبت ، ولذا وصلتنا الأنباء متأخرة أربعا وعشرين ساعة . وفى ليلة ذلك السبب بالذات خرج فتيان وفتيات قوه الدعاية الثورية ليعلقوا آخر عدد من صحيفة « حيروت » متضمنا الانذار الثانى للحكومة .

كتبنا . « لمئات من السنين وأنتم تجلدون الأهلين فى مستعمراتكم دون أن يثأروا منكم . انكم فى كبريائكم الأحمق تعتبرون اليهـــود فى أرض اسرائيل كأبناء البلد أيضا . انكم مخطئون ، صهيون ليست منفى، ليس اليهود (زولو) ، لن تجلدوا اليهود فى وطنهم ، واذا ما جلدتهم السلطات البريطانية فسوف يجلد الضباط البريطانيون علنا فى مقابل ذلك » .

وفى صباح اليوم التالى قرأ الناس فى الصحف مادتين ، ظهرت أولاهما فى الصحف الشرعية تعلن أن كيمشى جلد ثمانى عشرة جلدة بعصا غليظة ، وكانت الثانية تحذيرا مهيبا بمقابلة الشر بالشر ، فى صحيفة المقاومة السرية . قرأ التحذير عشرات الألوف ، وعجبوا كيف كان وعدنا سيصدق .

لقد صدق الوعد . ومع أنه أسىء الينا اساءة بالغة ، الا أننا لم ندع منفذا لمشاعرنا ، وصدر الأمر بدون أى تغيير الى جميع قادتنا المحليين ليتصيدوا الضباط البريطانيين ويثبتوا لهم أن « تعليم السوط » اذا كان نافعا للجنود اليهود فانه نافع كذلك للضباط البريطانيين .

فى ناتانيـــا ، وفى تـل أبيب ، وفى ريشـــيون ــ ليزيون ،

قبض على ضباط بريطانيين ، ونال كل واحد منهم مثل ما ناله كيمشى تماماً ، ثماني عشرة جلدة ، طبقا للقانون ، قانون القصاص العادل .

ما زال سوط الانتداب يهدد الفتى الثاني « كاتس » ، ولذا نشرنا بلاغا فوريا بما حدث وبما سيحدث مستقبلا اذا ما استمر الجلد .

وهذا هو ما قلناه :

« رغما من تحذيرنا فقد صدق الجنرال باركر على حكم الجلد الذى وقعته المحكمة البريطانية غير الشرعية على جندى يهودى . وفى يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٦ جلد الجندى الصغير فى سجن القدس المركزى .

« وبناء على تحذيرنا ، وانتقاما من تصرف الطغاة البربرى ، قمنا بجلد ضباط بريطانيين يوم الأحد ٢٩ ديسمبر فى ناتانيا وفى تل أبيب وفى ريشيون ـ ليزيون . جلدنا ضابطا برتبة رائد وثلاثة من ضباط الصف ثمانى عشرة جلدة لكل منهم ، وهو نفس عدد الجلدات التى نالها الجندى اليهودى الصغير .

« واننا نحذر الآن :

اذا تجاسر الطغاة فى القادم من الأيام على اساءة معاملة أبدان الشباب اليهودى وشرفهم الانسانى والقومى فلن نجيب بالسوط ، بل سيكون جوابنا باطلاق النار » .

لم يجلد « كاتس » . وهكذا فان السلطات التى كانت تظن أن السوط سوف يعطينا درسا ، تعلمت هى نفسها درسا مفيداً .

لماذا لم يتذرع أولئك الاداريون الاستعماريون بالحكمة يوم الجمعة وبذا كانوا مستطيعين أن يتحاشوا ذلك الموقف ؟ وانه لموقف جد مهين كذلك للجنرال باركر المضلل ، فلقد تحطم فى يده السوط الذى ظن فى اندفاعه الأحمق أنه سوف يحسن استعماله .

بعد أن أخذنا بالثأر ، حاول البريطانيون اغراء كاتس ليقول انه أضعف من أن يتحمل ثمانى عشرة جلدة فأجابهم فى ازدراء : « أضعف من أن أحتمل ثمانى عشرة جلدة ؟ انكم مخطئون ، أنا فى صحة تامة ، وانى مستعد الآن لأن آخذ ستا وثلاثين جلدة » .

وهكذا لم تفلح « المناورة الطبية » ولم يكن أمام سلطة الانتداب إن تختار الا أن تعترف علانية بأن حكم السوط قد أخفق · وفي بلاغ خاص ألغى المندوب السامي البريطاني حكم الجلد المحكوم به على كاتس · وقد شمل هذا العفو فتى عربيا صغيرا في السادسة عشرة من عمره كان قد حكم عليه هو الآخر بالجلد · ولما كنا نحترم شرف الآخرين كما نحترم شرفنا فقد ابتهجنا لهذا الفتى العربى أيضا ·

لم يستخدم السوط قط مرة أخرى فى أرض اسرائيل ، وعدلت سلطات الانتداب قانونها لتحديد الجلد · الا أن الأهم من ذلك كان التعديل فى سلوك هذه السلطات · ففى محاكمة فتى آخر من فتياننا نطق المدعى العسكرى الميجور باكستر بهذه الكلمات الحكيمة :

« انك أصغر من أن تشنق ، وأكبر من أن تجلد » ·

تجاوبت أصداء الجلد فى العالم · تعرضت الهيبة البريطانية لضربة مدمرة · كتب الجنرال باركر فى رسالة وداعه لجنوده : « لقد خطف ضباطنا فى فلسطين وقتلوا أو جلدوا » بل ان ونستون تشرتشل ، وهو شديد الاهتمام بهيبة البريطانيين بصفة دائمة ، كان يتهم الحكومة بأنها لا تعرف كيف « تتصرف كرجال » ، كما قال « انكم تجلدون ارهابيا يهوديا فيمسك الارهابيون رائدا بريطانيا وثلاثة ضباط صف ويجلدونهم فى اليوم التالى ، ثم تلغون الحكم المحكوم به على ارهابى آخر · هل تعرفون ماذا يعنى هذا ؟ » ·

سواء عرفت الحكومة معنى هذا أو لم تعرف ، فقد كان واضحا أن بقية العالم قد عرفوا ، فقد تلقينا تهنئات من أيرلنديين ومن أمريكيين وكنديين وروسيين وفرنسيين · ورفع اخواننا اليهود فى جميع أنحاء العالم رؤوسهم . فقد شهدوا ، بعد أجيال من الاذلال بالجلد ، حادثة هامة استعادت كرامتهم واحترامهم الذاتى · كما رفع الملونون الأفريقيون والحمالون الصينيون ، الذين عرفوا السوط منذ أمد بعيد ، رؤوسهم فى اعتراف بهيج ، وردد ملايين الروس — ممن كانت المجلدة بالنسبة اليهم رمزا للاستبداد — تقديرهم فى الاسلوب البليغ الذى عبر عنه « ساسنيفسكى » فى كلمتين اثنتين « عمل صالح ! » · ونشرت صحيفة فرنسية صورة كاريكاتيرية ظهر فيها جندى بريطانى ممسكا خوذته الفولاذية « وراء ظهره » · وتفسير ذلك أنه منذ جلد ارجون قررت السلطات البريطانية أنه لحماية « المناطق » المهددة تلبس الخوذات » هنا بدلا من أن تلبس فوق الرأس ، وبالتالى يجب أن تنتقل التحية العسكرية

بالمثل الى « هذا المكان » ! قهقهت فرنسا بالضحك ، وقد تكون الأضحوكة أشد تدميرا من القنبلة الشديدة الانفجار !

ومع هذا ، لم نجد نحن سببا للفرح بهذه الحادثة الهامة ، فلم يكن جلد الضباط البريطانيين بالأمر المفرح بالنسبة لنا ، الا أننا يجب أن نعترف بالسرور عندما فر آلاف الضباط والجنود فى جيش عظيم فخور من جميع المقاهى فى أرض اسرائيل ليلة السبت ٢٨ ديسمبر على أثر أمر الجنرال باركر لجميع الجنود باخلاء مدن اليهود والبقاء في المعسكرات ، مع التزام اليقظة • التزام اليقظة ؟ لم يكن باليد حيلة ، اذ أبدينا السرور لما تضمنه ذلك الأمر ، الا أن الأمر بالنسبة الينا لم يكن موجبا للضحك ، فلم تكن لدينا أية رغبة في اهانة الضباط المعتقلين، ولم تكن لدينا أية رغبة في جلد الجنود البريطانيين ، بل لم تكن لدينا رغبة فعلا فى محاربتهم اطلاقا• ان ما فعلناه قد فرض علينا فرضـــا • لقد حذرنا السلطات ثم عاودنا التحذير ، وكان من المستطاع تجنب هذه المسألة المكدرة فى جملتها • كانت فكرة الجلد فكرة بريطانية ولم تكن فكرتنا • لم يكن هنـــاك أى سوط فى مستودع أسلحتنا •

وجه أحد الضباط الذين جلدوا سؤالا لرجالنا :

« لماذا تجلدوننى ؟ » •

فاخبره جنود ارجون بما فعله البريطانيون بكيمشى • بدأ الاكتئاب على الضابط لما ســـمع ، ولاذ بالصمت ، الا أنه طلب فيما بعد شهادة تثبت ــ باسم ارجون تسفاى ليومى ــ أنه جلد •

ــ « لماذا تريد هذه الشهادة ؟ » •

ــ « اننى فى حاجة اليهـــا • أريد أن أكون على بينة اذا ما عاد الحمقى فى حكومتى الى جلد رجالكم مرة أخرى ، وعدتم أنتم الى جلدنا » •

الا أنه لم يعد فى حاجة البته الى هذه الشهادة ، فلم تجلد الحكومة البريطانية أحدا ، بعد ، فى أرض اسرائيل ، يهوديا كان أو عربيا •

لكن القدر أبى الا أن يحكم علينا ، فى أعقاب ذلك ، بأن ندفع ، من أجل هذه الخدمة التى حافظنا بها على كرامة الانسان ، ثمنا باهظا •

الفصل السابع عشر

محنة المشانق

« صرفند » — في يوم من أيام الربيع سنة ١٩٤٦ . المعسكر المركزى للجيش البريطانى خلية تعج بالحركة والنشاط : الجنود يجيئون ويروحون ، والماكينات تغنى أنشودة العمل فى الورش العسكرية ، والآلات الكاتبة فى المكاتب تدق الخطابات والأوامر وتخرج البرقيات والتقارير ، ومستودعات الأسلحة الضخمة تتلقى المواد الحربية وتوزعها. والرقباء يجأرون بالنداءات على جماعات التدريب العسكرى . تلك هى « صرفند » مقر القيادة الضخم للجيش البريطانى ، لا فى أرض اسرائيل فحسب ، بل فى الشرق الأوسط عامة — تفيض بالحياة العسكرية .

كان هناك نظام محكم دقيق للحراسة فى المعسكر الذى تحيط به حواجز الأسلاك الشائكة مثنى وثلاث . الدخول مصرح به فقط عن طريق البوابات التى يخضع عندها كل داخل لأدق استجواب وأشق تفتيش . لم يكن أى اجراء من اجراءات الأمن عسيرا بالنسة الينا فى ذلك الوقت، فان أوامر الجيش السرية تعلن أن « الارهابيين شجعان ماكرون ، شنوا الغارات فى وضح النهار على عديد من المعسكرات ، وغنموا كميات من الأسلحة والذخائر ، ولذا ينبغى ألا يترك شىء قط لمشيئة الفرص والظروف » . لم يكن من المحتمل أن يجرؤ رجال أرجون على محاولة الاعتداء على صرفند ، معسكر المعسكرات ، حيث تعسكر وحدات من الفرقة السادسة المحمولة جوا ، ومن آلاى « الهوزارس » الشهير ، وحيث يوجد آلاف الجنود — ومع ذلك يجب على العيون الكثيرة فى نقط المراقبة

أن تسهر على مراقبة طرق الاقتراب ، والحواجز ، والمخازن ، ومستودعات الأسلحة ·· فمن يدري ؟ لعل وعسى ! ولم تكن العيون الكثيرة عبثا ·

في يوم من أيام ربيع سنة ١٩٤٦ وصلت الى أحد مداخل صرفند الرئيسية وحدة من وحدات الجيش البريطاني تتألف من جنود يهود ، جاءوا ليأخذوا أوراق تسريحهم من الخدمة ، وكانت أوراقهم تامة على أحسن ما يرام ، كما كان وجودهم أمرا طبيعيا ، فان التسريح على قدم وساق، ومن ثم فان مجيء الأفراد اليهود في الجيش البريطاني ليحصلوا على أوراق تسريحهم لم يكن ليثير أي ريبة أو شك ·

ومع هذا ، لم يتجه هؤلاء الجنود الى مكاتب المعسكر ، ولكنهم اتجهوا الى مستودع الأسلحة · لم يكونوا مشغوفين بالوثائق ، بل جاءوا ليأخذوا أسلحة · الا أن الحظ لم يبتسم لمقاتلي المقاومة هؤلاء ، فقد كان مستودع الأسلحة الذي حدد لهم في التوجيهات التي أعطيت لهم خلوا من الأسلحة، ولذا غادروا المعسكر من حيث أتوا ، صفر اليدين وعادوا بخفي حنين · ومن الغريب أن أحدا ما لم يكتشف شخصياتهم الحقيقية ، بل أن سلطات الجيش لم تعلم حتى آخر يوم من أيام حكم سلطة الانتداب في أرض اسرائيل، شيئا عن زيارة ارجون الخاصة لمعسكرها الحربي الشهير ·

بعد هذا ، وفي يوم آخر من أيام ذلك الربيع من سنة ١٩٤٦ ، يوم وصول لجنة التحقيق الانجليزية ــ الأمريكية الى أرض اسرائيل ، استقبل معسكر صرفند زيارة ثانية · ومرة أخرى وصل رجالنا متنكرين في زي وحدة بريطانية ، لم يكونوا هذه المرة جنودا يهودا ينتظرون التسريح من الخدمة بل ظهروا كجنود بريطانيين مسلحين يلبسون البيريه الأحمر الخاص بالفرقة السادسة المحمولة جوا · وكان الأطفال اليهود يسمون هذه البريهات بالاسم المستعار « شقائق النعمان » (كالونيوت) أو «الزهرة البرية » وهو الاسم الذي صارت معروفة به في الييشوف · كانت العربة التي حملتهم ملكا للجيش البريطاني ، وكانوا قد صادروها على الطريق العام في آخر لحظة ، وقد أخذ سائقها هو ورفاقه أسرى بعد أن سلموا الأوراق القيمة التي تنطوي على أوامرهم بالمضي الى صرفند · لم يبد على العربة أي اختلاف عندما وصلت الى مدخل المعسكر ، وكانت الأوراق تامة وصحيحة · لم يكن هناك أي اختلاف الا في شخصيات الرجال أنفسهم · فحص حارس البوابة العربة وفحص راكبيها ، كما فحص أوراقهم وكان كل شيء تاما · ودخلت العربة الى المعسكر ، فنزل منها بعض الجنود حيث بقوا عند البوابة في انتظار رفاقهم ، وبدأوا يتجاذبون أطراف

الحديث مع الحراس ، وربما كان ذلك مخالفا للتعليمات ، لكن ، هل هناك من شيء طبيعى أكثر من حديث ودى بين جنود متضجرين ؟ فى غضون ذلك سلكت العربة طريقها الى أحد مستودعات الأسلحة ، وكان مكدسا بصناديق الأسلحة والذخيرة ، مما بدا معه أنه من غير الملائم أن يكون لدى القوات البريطانية مثل هذه الأسلحة الكثيرة • بينما يفتقر جيشنا الصغير ، جيش التمرد ، الى القليل من قطع الرصاص • ان العدالة تتطلب قسمة أفضل ! •

كان العمل فى مستودع الأسلحة وجيزا ، فسرعان ما أمكن التغلب على الحرس • واذ وصل بعض الضباط البريطانيين حينئذ الى هذا المشهد ، طلب منهم فى أدب جم أن يدخلوا فى غرفة الحرس • كان « يوشع » على رأس العملية ، فوضع حرسا على الضباط البريطانيين الذين بقوا حيث كانوا •

بعدئذ ، بدأ وضع الأسلحة فى عربتنا • أخرج صندوق بعد صندوق من المخزن ووضعت الصناديق فى العربة • كان رجالنا يعملون فى حماس شديد ، وبينما كانوا منهمكين فى واجباتهم كان عدد من الجنودالبريطانيين يمرون عليهم وهم فى طريقهم لتناول غدائهم أو فى الطريق الى عملهم بعد أن تناولوا الغداء ، وكان محتملا أن يثور الشك لديهم فى أية لحظة • وكان من بين رجالنا واحد انضم اليهم فى آخر لحظة ، وما كان أحد ليتخيل اطلاقا أنه قد يؤخذ على أنه جندى بريطانى ، فهو يمنى ولا تدل هيئته أبدا على أنها هيئة رجل بريطانى ، حتى ولو وضع على رأسه عشرة بريهات حمراء • وكان الرجال يتحدثون فيما بينهم وهم يعملون، فان «يوشع» كان قد أمرهم بأن يفعلوا ذلك ، أو أن يسب بعضهم بعضا ، على الأقل ، من حين لآخر ،على أن تكون السباب باللغة الانجليزية بالطبع، والا فليمسكوا ألسنتهم عن الكلام اطلاقا • الا أنهم كانوا ينسون أنفسهم الفينة بعد الفينة وهم فى معمعان العمل فتبدر منهم كلمة باللغة العبرية•

امتلأت العربة الثقيلة ، وكان من المحتمل أن تتحرك بسلام عما قليل ، تحمل صيدها الثمين • ازداد عدد المارة ، وازداد عدد ضباط الصف والجنود العائدين الى مواقع عملهم بعد تناول غدائهم أكثر فأكثر • عندئذ استوقف بعض رجالنا الذين كانوا يتولون الحراسة على البعد ، ومصادفة ، مجموعة من الجنود البريطانيين كانت قد اقتربت منهم أكثر مما ينبغى ، وأمروا أفرادها بالنزول فى حفرة • انفجر واحد من هذه المجموعة ضاحكا ، وكان برتبة رقيب ، وقال : « ما هذه الدعابة ؟ » •

الا أن الرقيب السمين سرعان ما تبين أن الأمر كان جادا فأطاع هو ورفاقه من فورهم ٠

استمر شحن العربة ، ولكن واحدا من الفتيان غلبته رغبة قوية مفاجئة فى مدفع « فيكرز » فوثب على دبابة كانت تقف قريبا من مستودع الأسلحة وأخذ ينزع منها المدفع الرشاش الثقيل ٠ كان حماسه فاتحة المتاعب ، اذ انه استرعى ، وهو على هذا الارتفاع انتباه واحد من الحراس فى مركز المراقبة ، فأطلق الحارس النار ٠ عمت الفوضى المعسكر على الفور ، وكان الجنود يجرون فى جميع الاتجاهات ، ثم أطلق مزيد من الطلقات ٠ لم يكن أحد من الحراس يعرف من هم الجنود البريطانيون ومن هم غير البريطانيين ، الا أن العربة المحملـــة كانت هدفا ظاهرا فأطلقت عليها الطلقات من جميع الجهـات ٠ انقسم فتيتنا الى جماعتين اثنتين استمرت جماعة منهما فى تحميل العربة ، وراحت الأخرى ترد على طلقات الجراس ٠

كان « شمشون » الذى عهدت اليه القيادة الهجوم الكبير على قلعة عكا بعد مرور عام على هذا الحادث ، تحت امرة « يوشع » وقتئذ أطلق شمشون دفعة من رشاش برن ليسكت نيران العدو ، ثم استحث الرجال لكى يستكملوا عملية الشحن ، الا أن « يوشع » الهادىء الرأس ، الرابط الجأش ، الحريص على زيادة صيده من الأسلحة ، كان مسئولا عن أرواح رجاله ٠ وكان عدم التكافؤ فى القوة يتجه فى غير مصلحتنا فى كل ثانية تمر ، ولذا أمر رجاله بأن يستقلوا العربة وتخلف هو ٠ كان يحمل فى يديه كمية صغيرة من المتفجرات ٠ اتجه الى الخيمة التى كان يحتفظ فيها بأسرى البريطانيين ٠ كان يستطيع أن ينسف الخيمة دون ابطاء ، الا أن البريطانيين كانوا قد استسلموا ، فاعتبر « يوشع » ، الذى تعلم فلسفة الحرب فى مدرســـة أرجون ، نفســه مسئولا عن حياة الأسرى ٠ صاح « يوشع » فى أسراه : أخرجوا من هنا فانى سأنسف المستودع ٠

عقدت الدهشة السنة الجنود البريطانيين الذين كانوا قد عجبوا من قبل عندما قبض عليهم « رفاقهم » ٠ أدركوا حينئذ أنهم كانوا تحت رحمة أرجون ، لكنهم لم يعطوا الفرصـة ليفيقوا من صدمتهـم ٠ صرخ فيهـم « يوشع » ، « أخرجوا » ، فأطاعوه على الفور ، ثم وضـع المواد المتفجرة وأشعل الفتيل وانطلق يعدو وراء العربة ، وعندما قفز عليها اندفعت الى الأمام ٠ وسواء دمر الانفجار ، الذى حدث بعد ثوان قليلة ، مســـتودع الأسلحة أم لم يدمره ، فقد كان عظيم الفائدة بالنسبة لجماعتنا المنسحبة حيث عمل على زيادة الارتباك والفوضى فى المعسكر ٠

كانت تجرى ، فى نفس الوقت ، معركة صغرى عند مدخل المعسكر، فقد ظل فتيتنا يتجاذبون أطراف الحديث مع الحراس ، الا أنهم ما أن سمعوا اطلاق الرصاص فى المعسكر حتى أمروا الحراس برفع أيديهم ، وساقوهم الى غرفة الحرس واتخذوا مواقعهم بدلا من الحراس المسجونين • أن حياة رفاقهم تتوقف عليهم الآن ، فلو أن البوابة كانت قد أقفلت ، اذن لقضى على فتيتنا قضاء مبرما • رأى البريطانيون هـــذا الرأى فاندفع ضابط صوب البوابة وهو يصرخ : « اقفلوا المداخل ، اقفلوا المداخل ! » فردت «شقائق النعمان» عليه : « حسنا يا سيدى ! » ، ولكنهم لم يحركوا ساكنا! وعندما وصل الضابط اليهم جردوه من سلاحه ووضعوه فى غرفة الحرس مع الآخرين •

أسرعت العربة نحو البوابة وسط وابل متزايد من الرصاص ، ولكنها وصلت الى البوابة ثم تخطتها • ألقى « حراسنا » بأنفسهم عليها • أحصيت الجماعة عدا • لم يكن هناك مفقود ولم يقتل منهم أحد ، وان كان بينهم بعض الجرحى • انطلقت العربة لا تلوى على شىء • أفاق البريطانيون من صدمتهم • كانت هناك قافلة من العربات والسيارات المدرعة تقوم فعلا بأعمال المطاردة ، الا أنه حدث ارتباك جديد خارج المعسكر ، فقد كان هناك جنود آخرون من الفرقة السادسة المحمولة جوا مسافرين على الطريق العام • تقابلت « شـــقائق النعمان » من جنودنا مع شقائق النعمان من جنود العدو • ربما كان هؤلاء هم الارهابيين وربما كانوا هم أولئك الا أن رجالنا استطاعوا أن يتخلصوا ممن كانوا يتعقبونهم ، ولكن لم يعد مستطاعا أن تنقل الأسلحة الى أى من مخازننا ، فقد كانت المناطق المجاورة تزخر بجنود الأعداء • اتخذ « يوشع » قرارا سريعا ، فأمر رجاله بأن ينزلوا حمولة العربة ويخفوا الأسلحة والذخيرة فى الرمل ، على أن تعود وحدة أخرى من وحداتنـــا مع حلول الظلام فتنقل الكنز الثمين ، وسرعان ما تم تنفيذ هذا الواجب ، وغطت الصناديق طبقة رقيقة من الرمل • خلع الفتيان البزات العسكرية البريطانية وصاروا جنود ارجون مرة أخرى • ضمدت جراح المصابين وأوقفت سيارة أجرة عابرة حيث استراح المصابون بداخلها • وبدا أن كل شىء ، حتى الآن ، قد انتهى بسلام •

لا ، لم ينته كل شىء بسلام ، فقد نقل رجال الهاجاناه الأسلحة والذخـيرة قبل أن يصـــل فتيتنا لنقلهـا • ومع ذلك لم يذهب عملهم ومخاطرتهم سدى • حقيقة أن منظمتهم لم تتبوأ مكانة السلطان التى

كانت تتطلع اليها ، الا أن انجــازهم نال الجزاء الأوفى من وجهة النظر السياسية والسيكولوجية والمعنوية ، القد طيرت أنبـــاء عملية صرفند حول العالم ، واعترف معلق هيئة الاذاعة البريطانية بأن ما حدث في صرفند لا يمكن أن يصدقه عقل ، ثم قال في أسى عميق انه ، بعد الاغارات السابقة على المعسكرات الحزينة ، اتخذت السلطات اجراءات أمن غير عادية ، الا أن الارهابيين قاموا الآن بهجوم ناجح على آكبر معسكراتنا في صرفند وحملوا معهم أسلحة وذخائر » ٠

زد على ذلك أن المخاطرة والعمل في حد ذاتهما كانا مما يستحق الاعتبار ، فان الاسلحة والذخائر صارت في خدمة الشعب في نهاية الأمر بعد أن أخذت من المخازن البريطانية بزمن طويل ٠

لم يكن ضياع الغنيمة من أيدينا هو محنتنا الوحيدة ، فقد أوقفت داورية عسكرية سيارة الأجرة التى كانت تحمل الرجلين المصابين ،ميكل أشبيل وجوزيف سيمشون ، وعندما أمرا بالخروج من السيارة اتضح على الفور أنهما كانا جريحين فالقى القبض عليهما مع الفتاة التى كانت تعنى بهما ٠ وهنا بدأ فصل من الأحداث تجاوبت أصداؤه فى جميع أطراف العالم ٠

سنت حكومة الانتــداب قوانين جــديدة للطوارىء جعلت المواطنين عرضة للقبض والنفى والاعدام ٠ وقد جادل الخبراء القانونيون بأنه حتى فى ألمانيا النازية لم يكن هناك مثل هذه القوانين التعسفية الجائرة ٠وأعلنت اذاعة « كل اسرائيل » باسم « حركة المقاومة » أن أية محاولة لوضع هذه القوانين موضع التنفيذ سوف تعتبر جريمة ، وسوف يعامل العاملون على تنفيذها جميعا معاملة المجرمين ، فابتهجنا لاعلان الهاجاناه المبجل الا أنه لأسفنا العميق لم يقدر لهذا الاعلان أن يصبح نافذ المفعول ٠

بناء على هذه القوانين حوكم أشبيل وشمشون أمام محكمة عسكرية، وكان واجب قضــاة المحكمة ــ الضباط البريطانيين الثلاثة ــ غاية فى البساطة ٠ فى تمثيليــة « تلميذ الشيطان » لبرنارد شـــو عن حرب الاســـتقلال الأمريكية ، يعبر الجنرال بيرجوين عن غضـــبه من قرار الميجور سويندون ، الضابط المحلى ، بشنق الوزير أندرســون المتمرد بقوله فى حدة : « ٠٠ لقد حكمت علينا بشنقه ، وكلما أسرعت بالشنق كان ذلك أفضل » ٠ ويجيب الميجور سويندون اجابته العملية : « لقــد

أعددنا كل شيء لشنقه في الساعة الثانية عشرة ، ولم يبق علينا أي شيء نعمله سوى أن نحاكمه » !

وبالنسبة للضباط البريطانيين الذين حاكموا أشبيل وسيمشون، بدورهم ، كانت المحاكمة شيئا لا يعتد به ، وهي ان كانت ضرورية فما ذلك الا أنها بمثابة مقدمة للشنق الذى لا مفر منه · لم يكن هناك ما يهتدون به مما يشبه القانون ، بل كان أمامهم ارهابيان وفقرة غير مبهمة في كتيب متواضع بعنوان « الطوارىء وقوانين الدفاع » ·

ان الضابط الآمر بتشكيل المحكمة هو نفسه الضابط المصدق على أحكامها · وكانت جلسة المرافعة وجيزة · تعرف الشهود على الاثنين باعتبارهما مشتركين في هجوم صرفند · تداول القضاة بضع دقائق ، ثم لبسوا قبعاتهم ونطق الرئيس بالحكم بالكلمات التقليدية : « تشنق حتى الموت » !

ناقشنا في قيادة ارجون مناقشة طويلة أية خطة ينبغي أن يتخذها أشبيل وسيمشون في القضية ، وكان علينا أن نفترض أن حكومة الانتداب قد تفرض قوانينها الجديدة وتحكم بشنقهما ، مؤكدة أن هذا الذى يسمى « بيشوف المنظمة » لا يلتف حول الارهابيين الذين لا ينتمون الى الهاجاناه · وعلى أية حال فان ارجون علمت رجالها على اختلاف درجاتهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد للتضحية الكبرى اذا ما دعت الضرورة ، ولم يكن لدينا شك في استعداد الرجلين لذلك · الا أنه من أجل هذا السبب ، قطعا ، كان من واجب قيادة ارجون أن تعمل كل ما في وسعها، بقدر ما تسمح به ضرورات الكفاح ، للابقاء على حياة هذين الرجلين ·

انتهت بنا مداولاتنا الى الرأى بأن الدفاع الروتيني ـ الاستعانة بمحام واقامة الجدل القانوني ـ لن يغير شيئا من نتيجة المحاكمة ، الا أن قرارنا الذى ينادى بشن الهجوم السياسى في غرفة الجلسة قد أثر فيه تأثيرا كبيرا خطاب تلقيناه من سمشون ، وقد حوى هذا الخطاب التماسا لم نتمكن من رفضه أو انكاره · كتب سيمشون في خطابه :

« ·· لقد عقدت العزم على أن يكون سلوكى لائقا بمحارب عبرى تعلم على أيدى ارجون ، كل تطلعاته هي القيام بواجبه في الكفاح من أجل التحرير ، حتى ولو حرمت من امكانية أداء هذا الواجب عمليا وبقيت لى الامكانية الوحيدة ، امكانية حمل رسالة ارجون في الأعالى · زد على ذلك اننى أعتقد أنى لن أسهل الأمور على نفسى اذا لم أتمكن من عمل اعلان

ســياسى • اننى أود أن تكون محاكمتى ذات نفع للفكرة التى حاربت وسقطت من أجلها ، فلا مكان لاهتمامكم بحياتى • ولطالما واجهت الموت، ولطالما شعرت باننى بذلك انما أقوم بواجبى وأؤدى رسالتى كمحارب• لا محل لاهتمامكم بهذا المصير الفردى • ان مصير شعبى هو ما يجب أن يهمنا دائما فى المقام الأول •

« وأود أن يعرف ضباطى الكبار أننى على أهبة الاستعداد لأن أتقبل بفخار أى حكم أو جزاء يمكن أن يوقع على ، الا أنه يسهل على أن أتحمل العواقب اذا ما علمت أننى قمت ، وأنا ســجين أيضا ، بواجبى كجندى من جنود ارجون » •

وهكذا ، عندما ظهر الاثنان فى قاعة المحكمة ، لم يظهرا كمتهمين، ولكنهما كانا يوجهان الاتهام • قال أشبيل للقضاة :

« اذا كان حكامكم ، رغما عن دروس التاريخ ، قد اغتصبوا بلدنا وأدخلوا قوانين الاستبداد البربرية ، فان ذلك لا يعنى الا أن الله قــد حرمهم من احساسهم وأعمى بصائرهم وكتب عليهم الذلة والانحطاط • ليكن ما يكون ولتقضوا ما أنتم قاضون ، فانكم لن تحطموا روح الشعب اليهودى ولن تنتزعوا التعطش الى الحرية من قلوب أبنائه • وتستطيعون أن تأخذوا قولى هذا شاهدا على تصميم ستمائة ألف يهودى اتحدوا فى نضالهم لتحرير بلدهم من السيطرة الأجنبية » •

أما شمشون الذى أوضح سبب عدم اعترافه بحق هذه المحكمة فى مقاضاته فقد قال : « قد تستطيعون سجننا ووضعنا فى الأغلال ، الا أنكم لن تستطيعوا أن تقاضونا بصفة شرعية • اننا لن نعترف بأنكم أنتم القضاة ونحن المتهمون • لا عدالة ما لم يكن هناك قانون • ان قانون القبض والكم ما هو بقانون ، فاذا ما وضع موضع التطبيق فلن يكـون هناك قضاة ولن يكون هناك متهمون ، وانما طغاة قســاة فى جانب ، وضحاياهم الذين يقاومونهم فى الجانب الآخــر » • واختتم شمشون بقوله : « ان شعبنا جاء الى مسرح التاريخ قبلكم بحقبة طويلة من الزمان، وسيبقى فوقه بعد أن تتركوه أنتم بردح طويل » •

وعندما صــدر الحكم انشــد أشبيل وشمشون النسلام الوطنى « هاتيكفاه » • لم يكن سلوك أشبيل وسيمشون مثالا يحتذى به فى رد فعلهما المبدئى وحسب ، بل انهما فى الأيام والليالى الطويلة فى غرفة سجنهما ، وفى الأسى على عائلتيهما ، وفى انتظارهما ثم انتظارهما لجلادهما

او لنبأ تأجيل شنقهما ـ كانا فى ذلك كله يقدمان بيانا عمليا عن العظمة الروحية وقد صقلها التدريب الأخلاقى الذى لقنتهما اياه الارجون •

كتب شمشون من غرفة سجنه : « أجد أننى خلال اليومين اللذين قضيتهما فى غرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام لم أفكر مرة واحدة فى الموت الذى كان ينتظرنى • قد تقول انى فقدت الشعور بالاتزان حتى لكأنى لا أدرك خطورة موقفى • كلا يا صديقى ، ان الاطمئنان الذى يعمر قلبى هو ناتج سنوات من الاعداد الروحى ومن الاستعداد للموت من أجل بلدنا • أنا أعرف ماذا ينتظرنى ، ولكنى واثق من أن موتى سوف يخطو بنا الى الأمام خطوة فى سبيل النصر النهائى • اننا بموتنا وتضحياتنا سنقيم دولة حرة لشعبنا الذى سوف يعرف كيف يحيا ولماذا يحيا » •

وكتب أشبيل فى بساطة :

« •• سمعت أن حركة المقـــاومة هددت بأنه اذا نفذت الأحكام فسوف يكون ذلك داعيا لسفك الدماء • اذا كان اعدامى سيخدم هـدف تحقيق الوحدة المقاتلة فى البيشوف فانى أتنازل ، فرحا مسرورا ، عن أى تخفيف للحكم يمكن أن يمنح لى ، فمن ذا الذى يعرف ، مثلما نعرف نحن ، ما هية قوة بيشوف المقاتلة ؟ » •

ربما كانت معلومات أشبيل خاطئة ، فلم تقدم « حركة المقاومة » أى تهديد من هذا القبيل ، وربما كانت القصة التى وصلت الى أشبيل قائمة ، فى الظاهر ، على أساس ذلك البيان السابق الذى أشرت اليه فيما تقدم ، وهو أن « حركة المقـــاومة » سوف تعتبر تطبيق قوانين الطوارىء جريمة وسوف تعد أى شخص يقوم على تطبيقها مجرما •

الواقع أن رد فعل رؤســاء الهاجاناه والمؤسسـات الرسمية كان مختلفا تماما ، فقد اشتركت الصحافة التى تسترشد بتوجيهاتهم فى فرقة للتشهير بعملية صرفند ، مع التماس تجاوز البريطانيين عن حكم الاعـدام •

لم يدرك رؤساء الهاجاناه أن هذين الجنديين من جنود ارجون قد وقع عليهما اختيار الحكومة لتجربة القوانين الجديدة واختبار مدى فعاليتها فى اذلال شباب يهود الاقليم • كانت السلطات البريطانية تذكر تماما تهديد الهاجاناه بالانتقام اذا ما طبقت هذه القوانين • والآن وقد وضع تهديدهم الجرىء موضع الاختبار لأول مرة فانهم لم يســكتوا عن تنفيذ

تهديدهم فحسب ، بل انهم أيضا أوضحوا أنهم – لأسباب قومية – فضلوا « الوقوف على السور » ، أى الوقوف موقفا سلبيا ، وهـذا ما أرادته السلطات قطعـا ، اذ لو أنهـا نجحت فى تجربتها ، اذن لتبع أشبيل وشمشون من غير شـك ، كثير غيرهما من المحاربين اليهود الى المشانق . وكانت قد وصلت الينا معلومات مؤكدة بأن الحكومة مصممة على أن تشنق واحدا من الاثنين على الأقل .

اما من جهتنـا فانه لم يجل بخاطرنا قط أن نتركهما تحت رحمـة السلطات . كان قرارنا واضحا منذ اللحظة التى لاح فيها ظل المشانق . بينما كان مقاتلونا يبدون الاستعداد لأن يجودوا بأرواحهم ، كان علينا أن نحاول انقاذهم . لم نميز بين مقـاتل وآخر . عنـدما حكم على « ماتيتياهو شمولفيتز » من جبهة تحرير اسرائيل بالاعدام ، اقترحنا على منظمته خطة للهجوم على سجن القدس المركزى لاطلاق سراحه . وكانت الخطة على وشك أن تنفذ بمعرفة قواتنا المشتركة عندما تجاوزت السلطة عن الحكم المحكوم به على « شمولفيتز » .

عنـدما حكم على أشبيل وشمشون ، حذرنا الحكومة البريطانية للمرة الأولى : « لا تشنقوا الجنود الأسرى ، فاذا فعلتم فسوف نجيب على المشانق بالمشانق » .

بعد مضى ستة أيام قبضنا على ستة ضباط بريطانيين ، أخـذنا خمسة منهم من نادى ضباط تل أبيب . أحاطت وحدة من ارجون بالمنطقة لتغطية المبنى . دخلت جماعة صغيرة تعهدت غرفة التليفون . أمر ثلاثة أو أربعة بالمسدسات عشرات الضباط المجتمعين فى البهو الرئيسى بأن يرفعوا أيديهم . أطاع الضباط على مضض ، واختـار ضابط ارجون المنوط بالعملية خمسة من الضباط من أعلى الرتب وأمرهم بالذهاب معه أسرى ارجون تسفاى ليومى . أطاع الضباط وأخذوا الى السيارات التى كانت تنتظرهم فى الخارج . أمر الضباط الباقين بألا يتحركوا لمدة خمس عشرة دقيقة . عندما وصلت وحدات من الشرطة والجيش لم يكن بالنادى أى أثر للأسرى أو الآسرين .

في القدس حالفنا الحظ فى أول الأمر ثم هجرنا فيما بعد ، فقد أسر فتيتنا ضابطا كبيرا من ضباط المخابرات ملحقا على هيئة أركان الحرب العامة . واذ أسر الضابط فى شارع قريب من فندق الملك داود ، أظهر التزامه المثالى بالنظام ، وعنـدما شعر بما بدا له كأنه مسـدس ملتصق بضلوعه دخل فى السيارة التى كانت فى الانتظار . أبلغ « آلون » قائد

القدس فى رضاء لم يستطع أن يخفيه : « لقد اصطدنا سمكة كبيرة » ، الا أن فرحه لم يدم طويلا فقد هربت السمكة • كان ذلك من سوء الحظ وما كان ينبغى له أن يحدث فى أرجون • أغوى الأسير الحارس لكى يطلق يديه • وجد ضابط المخابرات فجوة فى سقف الحجرة التى كانت مخبزا فيما مضى • وعندما غادر الحارس الغرفة لحظة ، جرب الأسير حظه فقفز قفزة هائلة وأفلح فى الهرب • اكتشف الحارس أنه فقد أسيره ، الا أن ذلك كان بعد فوات الأوان • اندفع الحارس خارجا يجرى فى أثر الأسير فى حارات القدس • قفز الضابط فى مركبة نقل عامة واختفى •

ولعل مما له مغزاه أن أحدا لم يصدق ، فى ذلك الوقت ، أن الضابط هرب فعلا • وقد علمت ، لدهشتى ، أنه حتى رؤساء الهاجاناه كانوا مقتنعين بأننا نحن الذين دبرنا الهرب !

وما أن أسرنا الضباط الخمسة الآخرين حتى سارعت قيادة الهاجاناه الى طلب الافراج عنهم • كان لدى قيادة الهاجاناه ورؤسائهم أسباب متنوعة لطلبهم هذا ، فقد كانوا يخشون أن يقابل البريطانيون الشر بمثله ، كما أنهم كانوا يشعرون بأن هذا الأسر قد يحول أنظار الشعب ، بل وأنظار العالم — وهو ما حدث بالفعل — عن عملية الهاجاناه الأخيرة فى الكبارى •

فى لقائنا الأول بعد عملية الأسر ، أوضحت لرجال الهاجاناه أن تلك العملية ليست عملية حربية بما يجعل قرار « حركة المقاومة » فى صددها قرارا نهائيا ، ثم اننا لا نستطيع بأية حال من الأحوال أن نترك رجالنا يذهبون الى المشانق •

قلت : « أيها السادة ، اننا فى هذا الأمر مستعدون لأن نذهب الى منتهاه ، الا أنه لن تكون بنا الى ذلك حاجة ، بل سوف ترون أننا سنعمل على انقاذ حياة هذين الفتيين بممارستنا الضغط » •

ربما كان سنيح وجاليلى متعاطفين معنا ، الا أنهما لم يوافقا على وجهة نظرى ، بل ظلا يلحان فى اخلاء سبيل الضباط البريطانيين • وقد دعانى سنيح فيما بعد الى اجتماع آخر معه ، فالتقينا فى اليوم التالى لهرب ضابط هيئة أركان الحرب • بدأ سنيح الحديث بكلمة مديح على مسلكنا فقال : « انى أفترض أنكم مكنتموه من الهرب لكى يبلغ أنكم لا تسيئون الى الأسرى ، وأظن أن هذه حركة حكيمة خليقة بأن تكون نافعة •• » •

جاهدت نفسي : هل ينبغي أن أعترف بفشلنا ؟ لقد كان الاعتقاد في اطلاق سراح الضابط عميقا واسع الانتشار لدرجة أنه لم يكن من دواعي السرور أن يقول الانسان قول الصدق • الا أنني ظننت أنه طالما كنا في تعاون نضالي مع الهاجاناه فان واجبي يقضي بأن أزيل عنه الوهم الكاذب ، ولذا أخبرته بحقيقة ما حدث • لم تبد عليه علامات الرضا ، ولكنه لم يستطع أن يخفي دهشته •

كنا مقتنعين بأن طريقنا نحن هو الطريق السليم ، بل انه هو الطريق الوحيد ، فقاومنا الضغط الواقع علينا من جميع الجهات لاطلاق سراح الضباط البريطانيين الخمسة الباقين• وفي اجتماع مع ممثلي الهاجاناه وجبهة تحرير اسرائيل قال الممثلون جميعا اننا اذا لم نطلق سراح السجناء الخمسة فاننا بذلك نقضي على رجالنا • وقد زعموا ان الامبراطورية البريطانية لن تضحى بهيبتها بسبب قلة قليلة من الضباط . وبناء على هذا كانت الهاجاناه ترى أنه يجب علينا أن نخلي سبيل هؤلاء الضباط ، وبذا يكون هناك أمل في انقاذ حياة أشبيل وسيمشون ، وكان الرأى وبذا يكون هناك أمل في انقاذ حياة أشبيل وشمشون ، وكان الرأى فيهم الاعدام بعد أن يشنق الجنديان •

رفضنا وجهتي النظر هاتين كلتيهما ، وان سلمنا بأن مسألة الهيبة لابد وأن تكون مسألة لها خطرها • وكانت احدى محطات الاذاعة قد أذاعت أن اختطاف الضباط هز الامبراطورية البريطانية ، الا أننا كنا ندرك أن هناك تهديدين للهيبة سوف تضطر الحكومة البريطانية الى اختيار أحدهما ، أولهما هو احتمال اجبارها على الاذعان للضغط المباشر، وثانيهما هو احتمال شنق الضباط البريطانيين علانية وكانت الحكومة تعرف حق المعرفة أنه اذا شنق الجنديان فاننا سوف نعدم ضباطها الخمسة بنفس الأسلوب ، ومن ثم كانت مجادلتنا بأن الحكومة سوف تختار الاحتمال الأول ، مع التعرض لضربة أخف وقعا على الهيبة ، لكي تتحاشى الاحتمال الثاني بما يحمله من الأذى الجسيم • بهذا ، وبهذا فقط ، كان يمكن انقاذ الجنديين •

ومرة أخرى ، أبدينا الاستعداد للمضي في المسألة حتى النهاية المؤلمة • ولم يكن ذلك من أجل انقاذ حياة أشبيل وشمشون فحسب ، بل ولتجنب أية أحكام بالاعدام شنقا في المستقبل على المحاربين العبريين •

احتفظنا بالضباط الخمسه في جهتين منفصلتين ، ثلاثه منهم في

جهة والاثنان فى الجهة الأخرى ، الا أنهم . خمستهم . كانوا فى تل أبيب بالذات . فرض الجيش البريطانى حظر التجول فى تل أبيب ، وقام رجاله بتفتيشها من منزل الى منزل . وكم من مرة كانوا قاب قوسين أو أدنى من العثور على السجناء ، الا أن الشك بدأ يساورهم ، آخر الأمر ، فيما اذا كان الضباط الخمسة موجودين فى تل أبيب اطلاقا . وقد اتخذنا الخطوات الكفيلة بتقوية هذا الشك ، فوضعنا عربة « مهجورة » بها نقالتان لحمل المصابين على الطريق العام خارج المدينة . زادت حيرة السلطات ، ولم تكن تدرى من أين تبدأ حملة تفتيشية جديدة ، كما أنها لم تكن تدرى أن المكان الذى كنا نحتفظ فيه بالسجينين الاثنين ، بصفة خاصة ، لم يكن محكما كما ينبغى ، بل ان اكتشافه ربما كان من السهولة بمكان . الا أن هذه المعضلة هيأت لنا فكرة جديدة ، فقد كان هناك شخص يهودى ما يجرى محادثات غير رسمية مع السلطات تستهدف الغاء حكم الاعدام فى مقابل الافراج عن الضباط البريطانيين الخمسة المسجونين ، وقد أبلغنا أن الحكومة كانت تفكر فى الاقتراح بصفة جدية فعلا ، وكان انطباعه أن محادثاته سيكتب لها النجاح ، وفى نفس الوقت كانت الاثارة الداخلية ضدنا فى تصاعد زائد ، وانتشرت القصص المتنوعة عن مصير الضباط الخمسة . ولذا انتهينا الى الرأى بأن فكرة اخلاء سبيل ضابطين من الخمسة هى فكرة لا بأس بها ، لأنها خليقة بان تسهل مهمة التحفظ على الثلاثة الباقين ، وبأن تسكت بعض أسباب الاثارة ، كما أنها قد تساعد المفاوضات الجارية بشأن الغاء حكم الاعدام .

أطلقنا سراح الضابطين وكان أن أبلغنا أننا كنا نعاملهما معاملة طيبة . ازدادت حينئذ حيرة العسكريين — وكانوا لا يزالون يبحثون ويفتشون — وبخاصة لأننا كنا متذرعين بالصمت التام ، فلم نصدر أية بيانات عامة منذ وقع الضباط الخمسة فى الأسر ، لأننا لم نشأ أن نضع العراقيل فى سبيل الحكومة للتراجع عن نواياها القاتلة . كان لنا مأرب واحد فقط ، هو انقاذ حياة أشبيل وشمشون ، ولذا التزمنا الصمت بينما راحت صحف العالم واذاعاته تعلن يوما بعد يوم أننا سوف نشنق الضباط الخمسة اذا ما شنق البريطانيون اليهوديين . لم ننكر ذلك ، كما أننا لم نؤيده .

مع هذا ، كان حرصنا ودأبنا على وشك أن يتحطما ، وكان أشبيل وشمشون على وشك أن يضحيا بحياتيهما ، بسبب مقامرة حمقاء فى الهيبة ابتكرتها الهاجاناه ، فقد أعلنت « كل اسرائيل » ، محطة اذاعة الهاجاناه ، أننا أطلقنا سراح البريطانيين بناء على أوامر «حركة المقاومة» .

آكد لنا رؤســـاء الهاجاناه أن هــذا الاعلان الأثيم أذيع دون علمهم . خلق هــذا الاعلان موقفا خطـيرا اضطرنا للخروج عن صمتنا ، فلو أن الحكومة البريطانية كان قد تولد لديها انطباع بأننا كنا خاضعين لمثل هذه الأوامر ، اذن لانتهت الى الرأى بأنها لن تكون فى حاجة الى القلق على المسجونين الثلاثة الباقين ، وبالتالى لن تكون فى حاجة الى التفكير فى العفـــو عن أشبيل وشمشون . وقد أكد لنا هــذه النتيجة المنطقية البسيطة لحماقة الهاجاناه ذلك الوسيط الذى كان على اتصال بالحكومة فى هذا الشأن ، فقال انه لو أن هذه الأكاذيب كانت قد قبلت كحقائق ، اذن لما بقى لنا شىء لنتفاوض حوله . ان « حركة المقاومة » لم تكن مخولة بأن تصدر الينا الأوامر ، وليس الاعلان الذى صدر من اذاعة الهاجاناه الا مجرد اختلاق .

وجدنا بعد أيام قلائل أن تقديراتنا كانت قائمة على أساس سليم، فقد أبلغ المستر « روكاخ » ، عمدة تل أبيب ، ضابط اتصالنا «جوريون» أن السلطات البريطانية تميل الى النظر فى أمر التجاوز عن الحكم على الاثنين المحكوم عليهما بالاعدام لو أننا أطلقنا سراح باقى الضباط . وفى يوم ٢٨ يونيو سنة ١٩٤٦ أرسل لى موشى سنيح مذكرة عاجلة تقول : « وصلتنى معلومات من عضو مسئول فى منظمتنا بالقدس كان قد تحدث مع رئيس ادارة أمن الجيش البريطانى بناء على أوامر مباشرة من القائد العام ، وهو يقول : (يمكنك أن تخبر صديقك بأن الاثنين سوف لا ينفذ فيهما حكم الاعدام شنقا ، فلقد أخبرت بهذا بصفة قاطعة . ومع أنه يجب ألا يقال أو يعلن أننى حصلت على وعد رسمى بهذا ، الا أن الرجـل أخبرنى بأنه متأكد من أنهما لن يشــنقا ، وأن تأكيد الوعد ذى الصفة غير الرسمية يجعله وعدا) . ان الرأى عندنا أنه ليس هناك شك فى أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها السلطات أن تقطع وعدا أو تقضى عهدا . انك لا تستطيع أن تتوقع أكثر من هــذا حتى ولو كانوا قد عقدوا العزم على أن يقطعوا وعدا .

لهذا أرجــو اطلاق سراح السجناء الثلاثة الباقين ، وخير البر عاجله .

بعثت باجابة عاجلة على هذه المذكرة التى أثبتت كيف أننـــا كنا نفهم الحكومة فهما جيدا ، كما كتبت فى نفس اليوم الى قيادة « حركة المقاومة » :

« كان روكاخ يتفاوض طوال الوقت مع ممثل رسمى للحكومة ، وقد أكد لنا أن الأمر سوف ينتهى الى نتيجة ايجابية فى الأيام القليلة التالية • ويتضح من هذا أن الأضمن هو أن نحصل على وعد من الحكومة المركزية ، لا على وعد من مجهول لا يلتزم به أحد ، وقد يكون وعدا من مخبر سرى • وعلى أية حال فاننا سوف نحاول معرفة مدى جدية محادثات روكاخ بأسرع ما يمكن » •

وأخيرا ، أبلغت سنيح أننا لن نستطيع ، على أية حال ، أن نطلق سراح الضباط الثلاثة طالما بقى حظر التجول مفروضا على الطرق ، كما أننا نطالب بأن تقل الفترة بين الافراج عن الضباط والغاء حكم الاعدام الى أدنى حد ممكن • قلت :

« يجب ألا تغيب عن أذهاننا حالة أعصاب الشابين اللذين ظلا أسبوعين فى الرداء الأحمر الذى يلبسه المحكوم عليهم بالاعدام » •

•• وصلتنا معلومات مؤكدة بأن السلطات البريطانية وعدت بالتجاوز عن الحكم المحكوم به على الرجلين ، الا أننا لم نقنع بذلك ، بل طلبنا تعهدا واضحا • وفى اليوم التالى أعلن بلاغ بريطانى ابطال حكم الاعدام فى أسلوب لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحكومة الاستعمارية البريطانية •• لقد صدق قائد عام الجيش على حكمى الاعدام ، الا أن المندوب السامى البريطانى ألغى الحكم ، دون أن يطلب منه ذلك الالغاء • ومهما كانت الخطوات التى أدت الى صدور قرار ابطال حكم الاعدام قبل أن تخلى سبيل الضباط البريطانيين الثلاثة والى الأسلوب الغريب الذى صدر به ، فان العالم بأسره اعترف بأن ارجون كسبت هذه الجولة فى النضال •

لم يكن اخلاء سبيل الضباط أمرا هينا •• لقد استجابت الحكومة فعلا الى مطلبنا برفع حظر التجول على الطرق فيما جاوز تل أبيب ، الا أن الأسرى كانوا فى تل أبيب نفسها ، وكان للجيش دوريات فى كل ركن من أركان شوارع المدينة لاستقبال الرجال المفرج عنهم ، وبصفة خاصة للقبض على أولئك الذين أوقعوهم فى الأسر •• هنا بدأت لعبة غريبة • لم نكن نحن وحدنا الذين قمنا بخداع السلطات وتضليلها ، فقد هب اليهود الصغار لمساعدتنا تلقائيا بشعور من المرح ، اذ اتصلوا تليفونيا بجميع مراكز الشرطة فى تل أبيب يبلغون أنهم رأوا الضباط الثلاثة فى الشمال ، فى الجنوب ، على الشاطىء ، فى قارب تجديف •• واندفع

الشرطيون والعسكريون من مكان الى مكان فى سلسلة من « مطاردة الأوز البرى » .

فى غضون ذلك كان جيدى ويوئيل يعملان على مناوأة جميع حركات السلطات . وضع الضباط الثلاثة ـ ذقونهم حليقة ، بزاتهم مكوية ، هندامهم كامل ـ فى صندوق هائل مزود بجهاز خاص للتهوية ، حملته سيارة نقل كبيرة (لورى) الى وسط المدينة على مقربة من شارع روتشيلد . تابعت داورية من داوريات الشرطة تلك السيارة فترة وجيزة ولكنها سرعان ما تركتها ، مقتنعة ، بدون أدنى شك ، بأن سيارة نقل الأثاث لا يمكن أن تكون موضع ريبة .. أنزل الصندوق فى الشارع ، وفتح القفل ، ثم ارتحل رجالنا .

تجمع جمهور من أهل تل أبيب يرقبون الصندوق ينفتح تلقائيا فى أول الأمر ، ثم ينزل منه ثلاثة ضباط بريطانيين ، أخذ واحد منهم ـ وهو شخص شديد المراس قوى العزيمة يجرى وراء السيارة التى نقلت الصندوق ، ولكنه سرعان ما عدل ، فقد كان ذلك عملا غير صالح. ان الضحك العالمى الذى أثاره نبأ هذا القرار لم يؤد الى الاعلاء من هيبة سلطة الانتداب .

لم يكن لدينا نحن أنفسنا أى مزاج للضحك ، الا أن قلوبنا كانت تفيض بالفرح لأننا أنقذنا رفيقين من حبل المشنقة . وفى ملخص للبيان المستفيض والشرح المسهب لتطورات فصل أشبيل وشمشون ـ ذلك البيان الذى وزعناه ، كما جرت بذلك عادتنا ، على منظمة ارجون ـ كتبنا :

« ان لهذا النزاع الصغير العظيم أوجها كثيرة ، فقد قدم أشبيل وشمشون بيانا عمليا رائعا فى البطولة ، وكان احتجاز الضباط البريطانيين مظهرا بارزا من مظاهر الاحساس بالسيادة العبرية ، وهى الأساس الجوهرى لتحقيق السيادة القومية ذاتها . ان احتجاز أولئك الضباط وما جاء فى أعقابه من أحداث رفع كله من سمعة الارجون أكثر من أية عملية أخرى . ولم يكن « آتلى » هو وحده الذى رآها فى « أوجها » ، فقد شدت الحوادث هنا معظم الانتباه فى جميع أنحاء العالم ستة عشر يوما ، وانتهى النزاع بأن حققنا مأربنا كاملا .

« وفوق كل شىء ، كانت هناك فيما بين الأحداث ظاهرة نستطيع نحن وحدنا أن ندركها ـ تلك هى الصفة التى غلبت على قلوبنا وامتزجت بدمائنا . انها صفة جد بسيطة ولكنها أنبل من أية صفة أخرى ، انها صفة « الاخلاص والوفاء » !

الفصل الثامن عشر

"دوف جرونر"

لم يمض سوى اشهر قليلة حتى واجهنا محنة المشانق مرة اخرى يبدأ هذا الفصل ، هو الآخر ، في يوم من أيام ربيع سنة ١٩٤٦ . كان يوما عاديا جدا بقلعة الشرطة في « رامات جان » . رجال الشرطة يروحون ويغدون ، يرفعون التقارير ويتلقون التعليمات . عربات اللاسلكي تجيء والسيارات المدرعة تروح . تشرف القلعة على المنطقة التى تقوم فيها وتحفها حلقات من المواقع الدفاعية الحصينة . أفراد أطقم الرشاشات المتمركزون في هذه المواقع واقفون على أهبة الاستعداد لاطلاق رشاشاتهم في اية لحظة . الشمس تتوسط كبد السماء ، فقد كان الوقت ظهرا ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يتكهن بألاعيب « الارهابيين » ؟ لقد دخلوا معسكر « صرفند » ، فلماذا لا يجربون حظهم في «رامات جان » ؟

. . .

وقفت مركبة عسكرية كبيرة خارج المبنى ، ولم يكن في ذلك مثار لأية ريبة . كان يجلس في المركبة اثنا عشر سجينا من العرب يبدو عليهم الاكتئاب . دخل الرقيب المختص بالحرس العسكرى الى داخل القلعة وأبلغ رقيب الشرطة المنوب أنه قد قبض على بعض من العرب بينما كانوا متلبسين بسرقة المعسكر الحربى في « تل ليتفنسكى » وان قائد المعسكر امر بتسليم اللصوص لشرطة « رامات جان » للتحقيق المبدئى والمحاكمة . وافق الرقيب المنوب على تسليم السجناء رهن

التحقيق ، وخــرج رقيب الحرس الى البـــاب ونادى : « يا عريف ، أدخل السجناء هنا ! » .

أمر العرب بالدخول الى محطة الشرطة ، وبدا واضحا ان الحراس العسكريين المنوطين بمراقبتهم كانوا على حذر بحيث لم يتركوا اى مجال للصدف ، فقد كانت رشاشاتهم القصيرة موجهة نحو السجناء ، الذين كانوا يركلون بالاقدام أو يدفعون دفعا بالايدى وهم يمشـــون . اذعن العرب لهذه المعاملة المهينة بصورة واضحة وتحملوها من غير احتجاج .

دخل السجناء وحراسهم الى القلعة ، ثم انحرفوا فى اتجاه غرفة الحبس . فتح شرطى عربى الأبواب الثقيلة وقد ارتسمت على وجهه نظرة تنذر بالشر لزملائه العرب .

وعلى حين فجاة ، انتصب السجناء العرب وسحبوا من عباءاتهم الفضفاضة المسدسات وبنادق « ستن » . والأغرب من هذا ان الجنود البريطانيين وجهوا أسلحتهم نحو رجال الشرطة البريطانيين . ومع هذا لم يتح الوقت لرجال الشرطة المرتبكين لكى يتدبروا امر هذا التعاون الغريب بين السجناء العرب وجنود جلالة الملك ، فقد ابتدرهم رقيب الحرس آمرا اياهم بخشونة أن « ارفعوا أيديكم وادخلوا غرفة السجن »

أطاع رقيب الشرطة الأمر وتبعه عدد من رجــال الشرطة ، ثم قفل الباب وراءهم . تولى « جاد » ــ وهو ضابط صغير من ضباط ارجون وابن عمدة « صـــفد » ــ هو وجنوده « البريطانيون » و « العرب » الأمر داخل قلعة « رامات جان » .

هنا ، بدأت المرحلة الثانية من العملية . كان مســتودع الأسلحة مقفلا ، وجرى البحث عن المفاتيح ، الا انه لم يمكن العثور عليها فى اى مكان . ولم يكن أمامهم أن يختاروا الا نسف باب المستودع الحديدى . كان الخطر عظيما ، فالحراس فوق ســطح القلعة وفيما حولها كانوا لا يزالون فى مواقعهم غير ملقين بالا الى التغيير الذى طرأ على الأفراد فى المبنى . حقيقة ، أن « اسرائيل » بمدفعه البرن فى الخـــارج ــ وكان « اسرائيل » يوما ما واحدا من أحسن مدفعيى الرشاش البرن ومعلمى الرشاشات فى الجيش البريطانى ، وكان واحدا من المؤمنين بالنظرية القائلة بانه لا يمكن أن تتم عملية ما دون حماية (تغطية) الرشـاش البرن ــ كان فى انتظار دوره ليشارك فى العمل ، ولكن ما كان ينبغى أن تصاحب هذه العملية أية معركة ، فان مثل هذه العمليات ــ عمليات

الاستيلاء على الأسلحة والذخائر لارجون المتعطشة الى الأسلحة ـ يجب أن تتم بسلام • الا أنه نظرا لحاجة أرجون الشديدة للأسلحة لم يكن هناك حل آخر الا ان ينسف الباب، فوضعت المواد المتفجرة المعدة لهذا الغرض فى مكانها ، واشعل شريط الاشعال ، ووسط صوت الانفجار وانهيار الركام كشفت الفجوة فى الحائط ـ حيث كان الباب ـ عن الأسلحة .

بدأ التحميل على الفور • حملت الرشاشات الثقيلة والخفيفة والبنادق وصناديق الذخيرة على عجل الى المركبة بمعرفة « السجناء العرب » و «الجنود البريطانيين » ! وكان عليهم ان يمشوا مسافة قصيرة في أرض مكشوفة خارج القلعة ، وهنا شعر الضابط المنوط بالحراسة فوق السطح بما كان يجرى ، فأطلق النار من رشاشه البرن ، وكاد أن يصيب الهدف من فوره ؛ الا ان العمل استمر ، واحتمل الرجال ـ الذين كانوا يمشون متثاقلين تحت عبء ما يحملون ـ النيران الفتاكة التى كانت تصب عليهم عندئذ من كل جانب ، والتى كان « اسرائيل » يرد عليها فى حماس بالغ •

استمرت المعركة اكثر من نصف ساعة . كان الخطر الذى يتعرض له رجالنا بتزايد مع كل دقيقة تمضي • وعن طريق سوء الفهم ، استدعيت نجدات بريطانية الى محطة الشرطة . حدث ذلك على الوجه الآتى : كان عامل اللاسلكي فى محطة الشرطة شرطيا يهوديا ، وهو مع « التمرد » بكل قلبه ، الا أن الرجال الذين صادفهم على باب غرفته كانوا من « العرب » كما ظهر له • زد على ذلك أنهم ـ امعانا منهم فى تمثيل دورهم ـ تكلموا معه باللغة العربية . وبينما هو فى حيرة من أمره استنتج ان القلعة كانت معرضة لهجوم من العرب فانطلق الى غرفته واقفل الباب عليه ليرسل رسالة بطلب النجدة .

جاءت الامدادات البريطانية من « ساروناً » و « بتاح تيكفاه » • وكان الخطر الأكبر من امدادات ساروناً ، الا ان وحدة الشرطة التى انطلقت من هناك تأخرت على الطريق وحيل بينها وبين الوصول الى رامات جان . كان هناك جنديان من جنود ارجون على الطريق من ساروناً ، فتعهدا مهمة تحويل النقل الثقيل ونجحا فى عمل صف متعرج ممتد من الاوتوبيسات واللوريات التى حالت دون تقدم سيارات الشرطة المدرعة • اخذ جنود الشرطة يصرخون ويلعنون الا أنه لم يكن هناك مخرج من زحمة المرور وسد الطريق . وقد وقعت نظارات الشمس الكبيرة التى كان يضعها أحد جنود ارجون على عينيه كوسيلة للتنكر •

فابتسم له عربى من ركاب الاتوبيس ابتسامة عريضة وخلع نظارته وقدمها اليه .

كانت امدادات « بتاح تيكفاه » أحسن حظا ، فقد ترك أفرادها عربانهم وواصلوا السير على الأقدام . ولو أنهم كانوا قد وصلوا الى مقربة من القلعة ، اذن لقطعوا خط الرجعة على رجالنا . زد على ذلك ان الموقف عند مشهد الصدام قد تدهور ، فقد أخلى مستودع الأسلحة من كل شيء ألا من ركامه وترابه . لكن رشاشنا البرن أسكت وسكت معه « اسرائيل » الى الأبد فتمدد بجواره بلا حراك ، كما مات اثنان وهما يحملان حملهما الثمين ، وجرح آخرون بما فيهم سائق المركبة الذى أصيب فى صدغه وذراعه وكان الدم ينزف منه بغزارة . الا أنه ما أن صدر أمر « جاد » بالانسحاب حتى استوى فى مقعد قائد السيارة .وتحت وابل الرصاص الذى مازال ينهال على المركبة ، ودون اكتراث للدم والألم أدار المحرك ، ثم قاد المركبة بما تحمل من رجال وأسلحة الى حديقة البرتقال التى اتخذت قاعدة للعمليات .

كتبت صحيفة المقاومة (اف . ال . بى) (١) عن العملية . وبعد أن امتدحت الرجال الثلاثة الذين قتلوا ، أخذت تبدى تذمرها من ذوى الهمة والمروءة فى اسرائيل الذين يستطيعون أن يوفروا على الشعب تضحياته بهذه الأنفس الشابة « لو انهم أعطوا جيش التحرير نسبة مئوية ضئيلة مما يقدمونه قهرا منهم الى الطغاة الأجانب الذين سيغتصبون منهم كل شيء اذا لم يجبروا على الرحيل من فورهم .انه ينبغى لنا أن نحصل على الأسلحة المطلوبة لنضالنا الفاصل بوسيلة أيسر وأقل أيلاما . » .

يرقد ثلاثة من رجالنا قتلى فى مسرح الموقعة .. ثلاثة ؟ عندما صار التتميم على الرجال فى البستان الآمن ظهر أن شخصا آخر لم يكن موجودا فأفترضوا أنه لابد وأن يكون قد قتل هو الآخر . ولكنه لم يقتل . فبينما كان يغطى عملية التحميل ببندقية « ستن » أصيب اصابة بالغة وسقط مغشيا عليه فى موقعه . كان اسمه « دوف جرونر » .

وفيما يلى القصة البطولية لهذا السجين الجريح — وهى قصة فريدة ، لا فى تاريخنا وحسب بل فى تاريخ البشرية كلها — فى طريق المعاناة والتضحية الذى كان عليه ان يسلكه على الرغم من جهودنا

---

(١) بمعنى « لو أن » .

لانقاذه . اردنا ان نحول دون اعدام الرجال الذين كانوا يرسلون الى المشانق ، وكنا ننفر من شنق الاسرى البريطانيين .

لم يكن «يوشع» فى معسكر «صرفند» هو وحده الذى أمر السجناء البريطانيين بالفرار والنجاة بأرواحهم قبل ان يشعل شريط الاحتراق لتفجير المواد الناسفة ، فما أكثر ما أخذنا من الأسرى البريطانيين - عشرات منهم - الا انهم ما ان يرفعوا أيديهم مستسلمين حتى يصبحوا أمانة مقدسة فى أعناقنا ، فى مأمن من الأذى . قمنا باغارة على معسكر بريطانى فى أرض المعارض بتل أبيب طلبا للأسلحة ، واخذنا ما يزيد عن أربعين أسيرا من الجنود البريطانيين ، الذين التمسوا الرحمة بدعوى أنهم كانوا دائما فى صف اليهود ، فقال لهم رجالنا فى غلظة الا يكونوا حمقى فانهم فى أيدى جنود عبريين متمدينين لا يؤذون أسيرا أخذ فى معركة .

لكنه كان واضحا لنا - كما كان واضحا للحكومة البريطانية من يوم ان أعلنا في سنة ١٩٤٤ اننا سوف نحارب بكل ما نستطيع من أساليب لكى نحرز الاعتراف كجيش مقاومة - انه اذا ما أغفلت السلطات البريطانية تحذيراتنا التى لا تنقطع فشنقت أى رجل من رجالنا الذين أخذوهم أسرى ، فان أسراهم فى أيدينا سوف يلقون نفس المصير .

فى يناير سنة ١٩٤٧ مثل « دوف جرونر » أمام المحكمة العسكرية وفى بيان مؤدب ولكنه معقول ومبجل أوضح لضباط المحكمة السبب الذى يجعله لا يعترف بحقهم فى محاكمته ، فقال ان بريطانيا أخلت بالالتزام الوحيد الذى يخولها سلطة البقاء فى أرض اسرائيل ، وبدلا من ذلك عقدت عزمها على ان تجعل من الاقليم قاعدة عسكرية وان تغتصبه من الشعب اليهودى ، ثم قال : « ولذا فلا يبقى لكم شىء من الاساس القانونى لحكمكم الذى يقوم الآن على مبدأ واحد فقط ، مبدأ القوة الغاشمة ، مبدأ السونكى وحكم الارهاب المتنكر تحت اسم القوانين . ان هذه القوانين صاغتها الأيدى التى تحمل السونكيات ، فقد سنتها وفرضتها خلافا لحقوق الانسان الأساسية ، وخلافا لرغبة السكان المحليين ، وخلافا لمبادىء القانون الدولى .

وذلك هو السبب الذى لا أستطيع من أجله ان اعترف بأهليتكم لمحاكمتى لانه ، كما قال الرومان القدامى ، لا يستطيع شخص ان ينقل الى شخص آخر أى حقوق أكثر مما يمتلكه هو نفسه . واذا كان نظام حكمكم بأسره نظاما قائما على الاحتلال غير المشروع ، فكيف يستطيع ،

اذن ، أن يضفى عليكم السلطة لمحاكمتى او محاكمة أى مواطن آخر فى هذا الاقليم المحتل ؟

عندما يصبح نظام الحكم فى أى اقليم نظاما ظالما ، تزول عنه صفة الشرعية ويكون من حق المواطنين ـ بل من واجبهم ـ أن يحاربوه ويطيحوا به . ذلك هو ما يعمله شباب اليهود الآن ، وذلك هو ما سيستمرون فى عمله الى ان تنسحبوا من هذا الاقليم وتعيدوه الى اصحابه الشرعيين ، شعب اسرائيل . ولهذا يجب ان تعلموا انه ما من قوة فى العالم تستطيع أن تقطع الصلة بين شعب اسرائيل واقليمه الوحيد ان من يحاول ذلك سوف تقطع يده وتحل عليه لعنة الله الى ابد الآبدين . » .

وعندما وضع الضباط البريطانيون الثلاثة قبعاتهم على رؤوسهم وأبلغ واحد منهم « دوف جرونر » انه سوف يشنق من رقبته حتى يموت ، اجاب «دوف » بأن أخذ ينشد « هاتيكفاه» .

ومرة اخرى حذرت السلطات البريطانية ، وكان التحذير هذه المرة بالاسلوب التالى : « ان اعدام أسرى الحرب بمثابة القتل عمدا ، ونحن نحذر نظام الحكم البريطانى من ارتكاب هذه الجريمة . » .

عقدنا العزم على العمل الفورى كما فعلنا فى قضية اشبيل وسيمشون ، الا اننا اعدنا النظر فى قرارنا . كان الحكم معروضا للتصديق عليه من القائد العام البريطانى ، وقد أبلغ بعض رجال الحكومة البارزين ضباط اتصالنا أنهم كانوا واثقين من العفو عن « جرونر » ، وقدموا لذلك عدة أسباب : ففى المقام الاول ، قالوا ان صفحة جرونر كجندى مقاتل فى صفوف الجيش البريطانى كانت صفحة رائعة ، ثم انه ثانيا ، جرح جرحا بليغا ، وأخيرا ، فان الحكومة البريطانية تود أن تتحاشى العواقب الوخيمة التى ستترتب على تنفيذ حكم الاعدام .

لم نضع جل اعتمادنا ، بالطبع على هذه التقديرات والتلميحات : الا أنه كان لها أثر كبير فى قرارنا تأجيل تنفيذ خطتنا . اذا كان هناك أى أمل فى انقاذ حياة « دوف » فلن نقضى على هذا الأمل باتخاذ تصرف سابق لأوانه قد يفسر على انه مغالاة فى الضغط على الهيبة البريطانية ، واذا كانت تلك الهيبة هدفا ظاهرا لضرباتنا لم تكن لدينا الرغبة فى أن نحط من قيمتها على حساب رفيق لنا لا حول له ولا قوة ، يتطلع الى مساعدتنا . يضاف الى ذلك اننا افترضنا انه اذا صودق فعلا على

الحكم فسوف يكون لدينا مدة أيام للتصرف قبل ان يحدد يوم لتنفيد حكم الاعدام .

كان الافتراض الاول خاطئا ، فقد صـدق القائد العام ـ الذى حال رؤساؤه المدنيون دون شنق أشبيل وشمشون ـ على حكم الاعدام الذى أصدره ضباطه الثلاثة التابعون له . اما الافتراض الثانى فكان له ما يبرره . صودق على الحكم ـ ولو ان التصـــديق لم ينشر ـ يوم الجمعه ٢٥ يناير سنة ١٩٤٧ ، وتحدد لتنفيذه يوم الثلاثاء التالى ، وهو اليوم الذى اعتادت السلطات أن تنفذ فيه أحكام الاعدام .

علمنا ، عن طريق مصادر معلوماتنا السرية ، بالتصديق على الحكم مساء يوم الجمعة . صدرت الاوامر على الفور بالقبض على الضباط الانجليز . وفى يوم الأحـــد أسرت فصيلتنا فى القـدس ضابط مخابرات بريطانيا هو الميجور « كولينز » . كانت عمليات التفتيش الواســعة النطاق التى أجريت فور القبض على ضابط المخابرات البريطانى غير مثمرة الا ان الجنرال باركر لم يصدر أية بيانات ، ومن ثم مارسـنا عملنا فى اليوم التالى . قاطع رجالنا سير قضية كانت تنظر فى محكمة تل أبيب وقبضوا على القاضى المستر « وندهام » ، ولم تمض ساعات قليلة حتى خرج الجنرال البريطانى عن صمته فصدر بلاغ رسمى فى ذلك المساء فى القدس يعلن أن القائد العام أرجأ تنفيذ حكم الاعدام على « دوف جرونر » الى أجل غير مسمى لاتاحة الفرصة له ـ صوريا ـ ليستأنف الحكم لدى مجلس البلاط (مجلس شورى الملك) . وهكذا تفادينا الشـنق قبل الموعد المحدد لتنفيذه بأكثر قليلا من اثنتى عشرة ساعة .

فى اليوم التالى ، استدعى المندوب السامى البريطانى ممثل الوكالة اليهودية وأنذرهم انذارا نهائيا باعلان الأحكام العرفية ما لم تطلق ارجون تسفاى ليـومى سراح أسيريها فى ظرف أربع وعشرين ساعة . القى هـــذا التهديد الرعب فى قلوب الممثلين اليهود الرسميين . وعنـدما استخدمت الحكومة سلاح الأحكام العرفية بعد انقضاء شهرين من ذلك التاريخ ردته المقـاومة فى وجه مدبريه ، وأجبرتهم ، بهجماتها التى لم تتوقف ، على الكف عن استخدامه . الا أن هذا السلاح ـ سلاح الأحكام العرفية ـ لم يستخدم فى يناير سنة ١٩٤٧ ، بل ظل معلقا فوق رؤوسنا يتهددنا ومثله مثل التهديدات الكثيرة كان يبدو مخيفا أكثر مما ظهر على حقيقته آخر الأمر .

مارست المؤسسات اليهودية ضغطها الشديد علينا لاطلاق سراح الرجلين المختطفين كما أطلقت عليهما ، واختلط التهديد بالترويض ، فبعث الحاخام الأكبر بخطاب الى « مناحم صهيون » (و « مناحم » يعنى « جابر القلب ») يطلب منى أن أعمل اللازم لتحاشي وقوع كارثة فى « اليبشوف » ، وهددت مسز « جولدا مائير سون » — وكانت وقتئذ رئيسة الادارة السياسية بالوكالة اليهودية — بتعبئة الهاجاناه تعبئة شاملة بحثا عن الرجلين الانجليزيين .

. . .

لا استطيع القول اننا تأثرنا ، بصفة خاصة،من مخاوف المؤسسات او من تهديداتها التى أعربت عنها مسز « مائير سون » ، فقد تعلمنا ان نزن القرارات « فى مثل هذه الاوقات العصيبة » فى روية موضوعية تامة ، وتدبرنا الامر بعناية . لقد انقذنا « جرونر » من الاعدام فى الوقت الحالى على الاقل ، وكان الراى الذى انتهينا اليه هو اننا — وقد أرجىء الاعدام الى اجل غير مسمى — لا يمكننا ان نجنى ما هو اكثر من ذلك اذا استمر احتجاز السجينين ، كما اننا كنا تحت تأثير اعتبار فنى آخر نستطيع نحن وحدنا أن نقدر أهميته . كان « كولينز » سجينا فى مكان امين الى حد ما ، فلم يكن اكتشافه بمعرفة البريطانيين او الهاجاناه امرا محتملا وان كان ممكنا . اما المستر « وندهام » الذى احتجز على عجل — وهو أهم الاثنين — فقد كنا نتحفظ عليه فى مكان كاد ان يكون مكشوفا فلو أن البريطانيين فرضوا الأحكام العرفية وقاموا بعملية تفتيش محكمة ، اذن لعثروا على المنزل الصغير الذى كان محتجزا فيه . والمستر وندهام من أسرة انجليزية عريقة ، وليس من شك فى أن اعتقاله هو الذى حدا بحكومة العمال البريطانية ان تتخذ قرار تأجيل اعدام « دوف » . وأخيرا ، استرعى القبض على الرجلين انتباه العالم بأسره لقضية « جرونر » لقد وضعت السلطات البريطانية فى موقف معضل ، وخلقت الظروف التى قد تؤدى الى ابطال حكم الاعدام . وعلى ضوء هذه الاعتبارات ، قررنا اطلاق سراح المستر « وندهام » والميجور « كولينز » .

. . .

كان سلوك المستر وندهام سلوك رجل فاضل ، على خلاف سلوك الضباط الذين أوقعناهم فى الأسر ، فلقد وعدونا بشرفهم العسكرى كضباط ألا يبوحوا بشيء مما رءوا أو سمعوا ، الا أنهم ذهبوا من فورهم مع رجال الشرطة الى معسكر اعتقال « زفخ » حيث تعرفوا على رجلين من رجالنا كانا يقومان بأعمال الحراسة بينما كانوا هم فى الاعتقال . وقد

حكمت المحكمة العسكرية على الرجلين بالسجن لمدة خمس عشرة سنة انتهز أحد الرجلين ـ وهو اليمنى « عمرام دارعى » ـ الفرصة أثناء محاكمته فألقى خطابا لاذعا يفيض بالازدراء ، مما أثار سخط القضاة خاصة وانه جاء على لسان رجل ملون تعتبره السلطات « من أهل البلد » . ضحك « عمرام » هو وزميله فى آن واحد لحظة النطق بالحكم وقالا : « هل تظنون حقا أنكم ستبقون هنا خمس عشرة سنة ؟ » والواقع انه ما كان للمخبرين ولا للقضاة ان ينالوا مكافأة على خيانة الضباط ، الا انهم لم يدركوا ذلك الا بعد أن انقضت سنة أخرى .

كان المستر « وندهام » يعلم اين كان محتجزا ، فقد نسى الذين اوقعوه فى الاسر ان يعصبوا عينيه . ولقد رأى الطريق الى المنزل ، كما رأى المنزل ، ولكنه لم يبح بشىء .

كان المستر وندهام رجلا فاضلا ، وكانت معاملة رجالنا له معاملة طيبة ، تماما كما كانت معاملتهم لكل سجنائهم . رفض أن يكافىء المعاملة الطيبة بالغدر ، فكان عدوا شريفا .

بعد اخلاء سبيله شاعت رواية خيالية فى جميع ارجاء الاقليم تزعم ان سبب القبض على « وندهام » هو ان الميجور « كولينز » أصر على ان يحاكم أمام قاض بريطانى ، ولما كان القانون البريطانى يخول لكل شخص متهم أن يحاكم أمام قاض بريطانى بدلا من القاضى الوطنى ، فان أرجون التى تحترم القانون لم تستطع ان ترفض طلبه ومن ثم استدعت القاضى « وندهام » .

فى أعقاب احتجاز كولينز وندهام احتفظت السلطات البريطانية بجميع موظفيها فى « مناطق أمن » خاصة تخيط بها الاسلاك الشائكة ، وكان يسمح للموظفين الاداريين بمغادرة « معازلهم » فى قوافل من السيارات تحرسها قوة تحمل «البرن» . هكذا كانوا يخرجون الى الايام التى يكتنفها الخوف فى مكاتبهم ، ويعودون الى الضجر والملل ليلا فى منازلهم ، فلم يحدث قط فى أى بلد محتل أن انساقت سلطات الاحتلال الى مثل هذه « المضايق » ! وكما قال « عمرام دراعى » مخاطبا السلطات انها قد أحالت البلد الى سجن كبير ، وانها زجت بنفسها فى غياهب ذلك السجن !

الا أننا كنا مهتمين « بمعازل » الحكومية ، فلقد عرفنا أن مصير رجالها ـ باعتبارهم حكام هذه الأرض ـ صار محتوما . كانت نياط

قلوبنا تتقطع قلقا على « دوف جرونر » الذى كانت حياته فى الميزان ، بينما كانت الحكومة ترسم الخطة لتحركها التالى . لقد ارادت أن تشنقه ، ولكنها رأت أن تكسب الوقت حتى تهدأ العاصفة التى أثارها سلوكه الجرىء أثناء المحاكمة فى جميع أنحاء العالم ، وحتى يتصاعد التوتر المجدد الذى اخذ ينمو بين الهاجاناه وارجون .

فى أول فبراير جرت مناقشة حول فلسطين فى مجلس العموم البريطانى . وكان موضوع ارجون وقضية « دوف جرونر » هما الموضوعين الرئيسيين للمناقشة . طالب « ونستون تشرشل » ، من جديد ، بسحب القوات البريطانية من فلسطين لأن صيانتها تكلف قدرا باهظا من الدم والتكاليف فى حين أنها لا تخدم أى غرض استراتيجى، وحث مرة أخرى على ارجاع امر الانتداب على فلسطين الى الأمم المتحدة اذا ما رفضت الولايات المتحدة الأمريكية أن تسهم فى مسئولية ادارة الاقليم . الا أن ثقل خطاب « تشرتشل » الأساسى كان فضحا لاذعا لسياسة الحكومة اللينة ازاء الارهابيين .

أوضح « تشرتشل » أنه . « لا شك فى أن ما يجرى فى فلسطين الآن يضر بنا ضررا بليغا فى شتى أنحاء العالم . اننى أمقت هذا الشجار مع اليهود ، كما انى امقت أسلوبهم فى الاثارة ، ولكن اذا كنتم متورطين فى الأمر فلا اقل من أن تتصرفوا كرجال » ، ثم استطرد فقال : « ان الحكومة صرحت بأن الحكم على جرونر ارجىء انتظارا لالتماس يرفعه الى مجلس البلاط . ولقد كان هذا مجرد حجة فقد تدخلت الوكالة اليهودية فى الأمر ، الا أن الرجل المحكوم عليه رفض أن يوقع على الالتماس . ان ثبات هذا الرجل ــ مع أنه مجرم ــ لا ينبغى الا أن يكون موضع اعتبار المجلس » . وفى مواجهة التهديد الارهابى اختتم تشرتشل خطابه بأن قال : « أن الحكومة لم تجد القوة لتطبيق القانون » .

كان قصد تشرتشل واضحا . يجب أن يشنق جرونر ، واذا كان شنقه مؤجلا فان ذلك خير من الا يشنق اطلاقا . وقد تردد هذا الراى على لسان واحد من أعوان تشرتشل هو « أوليفر ستانلى » .

قال ستانلى : « فى كل من عمليتى الاختطاف الأخيرتين اذعنت الحكومة اذعانا تاما لكل ما طالب به الارهابيون نتيجة لأخذهم بالثار . والراى عندى أنه بدلا من أن يعانى هذا البلد مزيدا من الاهانات من هذا القبيل ، ينبغى لنا أن ننسحب من فلسطين ونقول لشعوب العالم اننا لم نستطع أن نضع انتدابنا هنا موضع التنفيذ . » .

وإشارة الى « التطورات النكدة » التى بلغت ذروتها باصـدار حكم الاعدام على جرونر واختطاف وندهام وكولينز ثم اطلاق سراحهما برضاء الارهابيين ، بينما كانت الحكومة غير قادرة على انقاذهما أو تقديم أى مسئول عن اختطافهما للعدالة ، أوضح ستانلى : « اننى لا اعتقد أننا قادرون على الاضطلاع بعبء حكومة فلسطين على هذا الأساس ، فما من سـلطة تسـتطيع أن تنهض فى وجه هذه اللطمات . » . ثم طالب ستانلى ، أخيرا ، بسياسة الذراع القوية باعتبارها الوسيلة الوحيدة لدعم سلطان الحكومة .

جعلت هجمات المحافظين هذه وزير المستعمرات التعس كريتشى جونز حائرا مرتبكا ، لا حول له ولا قوة ، فاعتذر قائلا : « اننا نشارك فى الشعور بالمهانة واننا لندرك أن هيبـة بريطانيا قد نالت منها أعمال الارهاب فى فلسطين . » .

واستطرد يقول فى تناقض فاضح للحقائق : « ان القائد العام لم يرجىء تنفيذ حكم الاعدام بسبب الاختطاف ، ولكنه ارجاه لأن المحامى الذى كان عليه أن يحصل على توقيع جرونر على الالتماس الموجه الى مجلس البلاط لم يتمكن من الوصول اليه فى ذلك اليوم بسبب حدوث شغب فى السجن » . كانت هذه الرواية مختلقة من بدايتها الى نهايتها كما هو واضح ، الا أن هذه المناقشة كان من شأنها أن استحثت كريتشى جونز وبيفين وباركر لكى يثبتوا أنهم رجال وأن أيديهم لا تقل قوة عن يد تشرشل أو ستانلى .

انعمت النظر عميقا فى تلك الأيام فى بطـولة الرجال الذين كـانوا ينتظرون الموت فى غرف سـجن المحكوم عليهم بالاعدام . ايهمـا انبل : الاقـدام فى المعركة أو الثبات فى غرفة الموت ؟ لا أجـد اجابه على هذا السؤال ، الا أنه يمكن يقينا أن يرسم خط يميز بين هذين الاختيارين فى الثبات وربـاطة الجاش . ان المتطـوع الذى يذهب الى المعركـة ، والجندى الذى يسقط فوق أرض الموقعة ، يتغلب كل واحد منهما على الدافع له الى التمسـك بالحياة عن طريق الاسـتجابة الى نداء غريزة اخرى هى غريزة الاخلاص والوطنية ، ولا يعتبر تنازل المتطوع عن احدى الغريزتين للغريزة الأخرى تنازلا طبيعيا ، فالمتطوع أو المتمرد الذى يقرر بنفسه أمر تعبئته الذاتية لديه حرية الاختيار ، ولا يتم الاختيار ما لم توجد أصالة الروح ونبل النفس ، حيث تتوافر الصفة التى يطلق عليها اسم « الشجاعة » .

الا ان الجندى يذهب الى المعركة وسلاحه فى يده ، وهو يذهب عادة مع رفاق الى جانبه ، وفى حرراة العمل المشترك تشتعل شعلة الأخوة ، هناك انفعال نفساني في المعركة ، ومع أنه انفعال لا شعورى الا انه يؤثر تأثيرا عميقا فى الجندى . الرفاق عن شماله وعن يمينه ، وسلاحه مستعد للعمل وهو يتقدم نحو العدو ، وبالأحرى أنه محمول الى الأمام على فوران المعركة ، واذا سقط فهو انما يسقط وروحه متوقدة وقلما يستشعر لمسة ملك الموت .

اما الرجل المحكوم عليه بالاعدام فهو على خلاف ذلك خلافا شاسعا ، فليس أمامه عدو ، بل ان عدوه يحوم وراء الباب المغلق فى انتظار فريسته ، وليست هناك معركة محتدمة او اقتحام عاصف ، بل ان كل ما هناك تفكير ولا شيء سوى التفكير ، تفكير فى الوقت الذى يمر مع دقات الساعة ، وتفكير فيما وراء هذا الوقت . الأيام طويلة والليالى اطول ! ان هناك من الوقت ما يكفى للتفكير ، هناك شيء ما أو انسان ما، يظهر على حين فجأة : صوت أم عجوز ، صوت خطيبة صغيرة .. انه صوت بعيد ولكنه يسمع واضحا جليا . وهذه الملابس القرمزية التى البسه الجلادون اياها ، انها تذكرة دائمة بأن أيامه الباقية معدودة ، وبأن الشمس التى تشرق فيما وراء غرفة السجن المظلمة لا تبعد الليل عنه بعيدا ولكنها تجذبه اليه قريبا . انه الليل الأبدى . هنا لا يوجد ذلك القهر السريع لغريزة التمسك بالحياة . ان الكفاح السقيم معها كفاح دائم عقيم . انها تعيد سيرتها الأولى مع كل صباح ، وفى كل ساعة ، بل وفى كل دقيقة ، وكلما استلقى لينام ، وكلما استيقظ من النوم ، وكلما خطا فى غرفة سجنه الموصدة الموحشة . لايستطيع أى انسان — حتى أشجع الجنود — أن يصمد لهذا الاختبار .

لقد صمد جنود ارجون لهذا الاختبار فى هدوء واطمئنان !

الفصل التاسع عشر

الاختيار

مضت أشهر منذ وقع «دوف جرونر» فى الأسر ، وكان قد أصيب اصابة خطيرة فى الفك ، أجريت له عمليات جراحية عدة ، وكابد فى ذلك آلاما كثيرة ، وقد أدهش أعداءه ، بدرجة لا تقل عن دهشة أصدقائه ، بشجاعته ورباطة جأشه . وعندما يئسنا من نتيجة العلاج الذى كان يلقاه ، أردنا أن نبعث اليه بأخصائى ، الا أنه رفض ذلك الاحساس أن ذلك قد يكلف ارجون أكثر من طاقتها . واذ أودع هذا الجندى من جنود الصف الأول غرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام ، أقلع عن التفكير فى نفسه ، لم يطلب قط شيئا من رفاقه ، كما أنه كان يرفض كل ما أرادوا هم أن يقدموه اليه .

لم يستطع « يوشسنع » ، ضابط ارجون المنوط بشؤون السجناء فى السجن البريطانى ، والمحارب المتمرس فى فنون الحرب الذى كان يعرف ماهية مواجهة الموت ، أن يجد من الكلمات ما يعبر به لرؤسائه الضباط عن عظمة الظاهرة التى كشفت عن نفسها فى «دوف جرونر» ، فكتب فى مذكرة كان قد بعث بها الينا فى ذلك الوقت :

« .. وأخيرا هو نفسه . ان أحسن تعريف استطيع ان أفكر لن يكفى لتناول موقفه الثابت الذى لا يتزعزع .. بسالته ، روحه العالية ، رباطة جأشه ، التأهب لأى شىء .. ثم إنه ، فوق كل ذلك ، هادىء ، متواضع فى أسلوبه : » فى الأيام القليلة الماضية شعرت انه مستسلم

نهائيا لمصيره ، يسلم به نتيجة مباشرة لكونه مقاتلا في كفاح شاق . واود ان اؤكد حقيقة دائما ما كانت تكشف عن نفسها ـ تلك هى انه لم يطلب قط مرة واحدة ، طوال هذه المدة ، شيئا لنفسه . انه لم يكتب شيئا حتى لأخته في أمريكا ، بينما كان ، من ناحية أخرى ، دائب السؤال عن أحوال الأسرة المحاربة .

واليوم وقد صودق على الحكم ، لم يتبدل شيء ، فقد اخبرنى كاظما الذى يرعاه والذى يذهب اليه كل يوم ليراه (وهو قادر على ان يفعل ذلك) بانه اليوم اهدأ منه مما كان فى أول الأمر ، وانه فى حالة معنوية عجيبة . وانى أصدق ما قاله كاظما ، فهو يفهم هذه الأمور اكثر مما نفهمها نحن .. ذلك هو الأخ البطل شقيق الأسرة المحاربة . ولى امل أن تستطيع الأسرة ان تدخره للقادم من الأيام .. للكفاح !

فى هذا الموقف الخطير اضع كل املى فى الأسرة ، لكن اذا لم تكن الأسرة قادرة على أن تحول دون هذا المصير فاننا سوف نواجه الاختبار كما يليق بالمحاربين . » .

لقد تأثر العالم لهذا الايحاء بالروح العبرية المجددة ، الذى انبعث من غرفة سجن القدس ، لكن « دوف » نفسه كان يظن ان كل ما حدث لم يكن سوى أمر طبيعى مألوف واضح . وعندما صودق على الحكم الصادر عليه تعرض للضغط لكى يوقع التماسا الى مجلس البلاط البريطانى ، فقال فى غلظة وبساطة : « لا » . وكنا نحن انفسنا نعلم تماما أن مثل هذا الالتماس لن ينقذ حياته ، بل أنه ـ على عكس ذلك ـ قد يسهل على الحكومة مهمة تنفيذ مخططاتها . هل كان دوف يفهم ذلك ؟ هل كان مستطيعا أن يفهمه ؟ ما أكثر الأصوات التى أسدت اليه النصح بأن الالتماس يتيح أملا حقا فى انقاذ حياته ، الا أنه رفض هذه النصائح جميعا من أجل اتاحة الأمل لشعبه . لقد كان يعتقد فى احتمال واحد لانقاذه يتوقف على عملنا نحن ، لكننا أوضحنا له مرارا وتكرارا أن أمر التوقيع على الالتماس أو عدم التوقيع عليه كان من شأنه هو وحده . كان الاختيار اختياره هو ، وكان اختياره هو وحده .

جاء محام معروف من القدس لمقابلته فى محاولة للتوقيع على الالتماس فأوضح له أنه لم يكن استئنافا للحكم نفسه فحسب ، ولكنه كان استئنافا لقوانين الطوارىء كذلك . كان قصد المحامى طيبا ، لاشك فى هذا ، وان كان الأسلوب الذى اتبعه ـ مع ملاحظة انه لم يكن بمحض ارادته ـ خاطئا قطعا من حيث انقاذ حياة دوف . فى هذه المقابلة استخدم

المحامي كلمة سر «رجون المعروفة لدى دوف ، فكان فقط عندما أخبره بأن أرجون كانت تود أن يوقع ، وبأن توقيعه سوف ينقذ البيشوف من كارثة الأحكام العرفية وما اليها ، أن وقع دوف على الالتماس آخر الأمر . لم يوقع على طلب للاستئناف ولكنه وقع على توكيل (تفويض) ليرفع باسمه استئناف ضد قوانين الطوارىء . ولكنه قبل أن يعود الى غرفة سجنه قال لحراسه : « أنا أشعر بأنني ارتكبت غلطة » .

ما أقل الأشياء المماثلة لهذا في التاريخ ! لقد حدث شيء مشابه ـ نعم مشابه فقط ـ منذ مئات السنين أثناء كفاح شعب آخر ضد الطغيان . فقد وقعت « جان دارك » على اعلان تعترف فيه بالمحكمة التي حاكمتها ، ثم أدركت من فورها أنها ارتكبت غلطة ، الا أنها لم تسحب امضاءها ، بل ربما لم تستطع أن تسحبها . لم يعترف «دوف جرونر» بمحكمة البغاة على شعبه ولم تمض اربع وعشرون ساعة حتى علم أن القرار كان قراره هو ، وأن له مطلق الحرية فيه ، فاستدعى المحامي ومزق التوكيل اربا .

كنا جميعا نعلم بعد الحادث ، بطبيعة الحال ، أن الاجراء القانوني لم يكن يعدو أكثر من غطاء للقتل السياسي . لكن هل كان دوف يعلم ذلك ؟ هل كان في استطاعته أن يعلم ؟ ألم يكن من الطبيعي بالنسبة له ان يخدع نفسه بأن الاستئناف « من حيث المبدأ » كان يتضمن احتمال انقاذه من الاعدام ؟ ومع هذا فقد بدد دوف بيديه هذا الذي ربما كان يبدو له وكأنه آخر شعاع من الأمل ، لقد مضى في سبيله مؤمنا بفكرته ، كان مستعدا لكل شيء الا أن ينكر مبادئه ويتنكر لعقيدته . هل من مثيل في التاريخ لهذا الموقف من جميع أوجهه ؟

تلقيت خطابا واحدا فقط من دوف ، وكان حزمة من قصاصات صغيرة كتب فيها : « سيدي » .

اشكركم من أعماق القلب على التشجيع العظيم الذي أوليتموني اياه في هذه الأيام العصيبة ، وأرجو أن تطمئنوا الى أنه مهما حدث من أمر فلن أنسى التعاليم التي شبت عليها نفسي : أن أكون فخورا وكريما وقويا (١) . ولسوف أعرف كيف أنهض من أجل شرفي ، شرف جندي عبري مقاتل .

---

(١) من نشيد « بيطار » الذي كتبه « فلاديمير يابوتنيسكي » : « بالدم وبالعرق ينهض شعب فخور وكريم وقوي » .

لقد كنت مستطيعا أن أستخدم عبارات جهورية طنانة مثل القول اللاتيني الدائع : (ما اجمل وانبل أن يموت المرء من أجل وطنه !) ، الا انه يظهر لي في هذه اللحظة أن لمثل هذه العبارات رنينا مبتذلا ، وقد يضيف المتهكمون : (ليس لك أن تختار) ، وربما كانوا في ذلك على حق .

انني أريد أن اعيش ، بطبيعة الحال . فمن ذا الذي لا يريد ذلك ، الا انني اذا كنت آسفا لأني على وشك (نهايتي) فما ذلك الا لانني لم أستطيع ، بعد ، أن أقدم لحياتي كفايتي . لقد كنت مستطيعا ، أنا الآخر ، أن اترك المستقبل ليدفع عن نفسه فاقبل الوظيفة التي وعدت بها ، أو اترك البلاد نهائيا لأعيش في امريكا آمنا مطمئنا ، الا أن ذلك ما كان ليرضيني كيهودي ، وما كان ليرضيني قطعا كصهيوني .

ما اكثر النظريات التي ينشر بها اليهود . واحدى هذه النظريات نظرية أنصار الاستيعاب أو الامتصاص في المهجر ـ تلك النظرية التي تعتبر تفريطا في قوميتهم ، كما انها تعتبر ايضا تفريطا في دينهم شيئا فشيئا ـ وذلك يعني الانتحار الحتمي للشعب اليهودي . وثانية هذه النظريات نظرية أولئك الذين يسمون الصهيونيين ، وهي نظرية الاعتماد على اسلوب التفاوض ، وكأنما لا يوجد فرق في نظرهم بين قضايا الشعب وبين الصفقات التجارية . إن من يقبلون هذه النظرية ليسوا على استعداد للتضحية ، بل إنهم يستعدون لأنصاف الحلول ، التي قد ترجيء الصعوبات الفورية ولكنها تؤدي في نهاية المطاف الى العزلة . ولعلنا لا ننسى أنه كان هناك حتى في معزل وارسو ثلثمائة ألف يهودي .

ان الطريق السليم ، كما اعتقد هو طريق ارجون التي لا ترفض العمل السياسي ولكنها لا تفرط في ذراع من الأرض لأنها ارضنا . واذا لم يوفق العمل السياسي إلى النتيجة المرجوة فانها تكون مستعدة للحرب من أجل بلدنا ومن أجل حريتنا ـ وذلك وحده هو الذي يضمن بقاء شعبنا ـ بكل الوسائل وبجميع الأساليب . هكذا يجب أن يكون طريق الشعب اليهودي في هذه الأيام : النهوض لكل ما هو ملك لنا ، والتأهب للمعركة حتى ولو أدى ذلك الى المشنقة في بعض الأحوال ، فان العالم يعرف أن الأرض تفتدى بالدم .

اكتب هذه السطور قبل الوقت الذي حدده الباغون علينا لتنفيذ

قتلهم بثمان وأربعين ســاعة ، وفى مثل هذه اللحظات لا يكــذب المرء . وانني لأقسم انى لو كان لى الخيار فى البدء مــن جديد لاخترت نفس الطريق مهما كانت الصعاب .

الجندي المخلص لكم

(دوف)

واخيرا رفع التماسان الى مجلس البــلاط ، الا انهما لم يقدما من « جرونر » . قدم الالتماس الأول عمه المستر « فرانك جرونر » من الولايات المتحدة ، وقد رفض هذا الالتماس لأسباب فنية . الا أن اشارة فى هذه القضية الى أن « الطائفة اليهودية المهتمة بهذا الأمر » ، قد يخول لها أن ترفع التماسا شــجعت بلدية تل ابيب على أن تفعل ذلك ، وقد رفض هذا الالتماس أيضا ، وان كان ذلك بعد أن نفذ حكم الاعدام فى « جرونر » والتقى بزمرة أبطال الشعب .

حدث فى نفس هذه الفترة أن كان مجلس البلاط البريطانى ينظر قضية قتــل بالجملة وقعت فى ســاحل الذهب بأفريقيا بسبب العادات التى تعتقد فى الخرافات . حكم على عدد من الأفريقيين بالاعدام لقتلهم اعضاء قبيلة مزاحمة . اســتأنف محامى المحكــوم عليهم لدى مجلس البلاط وأرجىء تنفيذ الاعدام عدة مرات ، واخيرا وضــعت الســلطات البريطانية قاعدة جديدة تقضى بأن الالتماس المرفوع الى مجلس البلاط لايستدعى تأجيل تنفيذ الأعدام فى المناطق الخاضعة للتاج البريطانى .

انقضت عدة أســابيع بعد أن ارتدى دوف جرونر رداء الاعــدام القرمزى . وفى نهاية شهر مارس وجد من يؤنس وحدته بغرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام ، اذ انضم اليه ثلاثة آخرون من جنود أرجون هم «بيشيل دريرنر» (الذى قبض عليه وحكم عليه باسم «دوف روزنباوم») و « موردخاى الكوشى » و « اليتسر كاشانى » ، وكان قد قبض عليهم ليلة الجلد .

وضع الضباط البريطانيون الثلاثة فى المحكمة العسكرية قبعاتهم على رؤوسهم ونطق واحد منهم بالحكم : « ستشنق من الرقبة حتى الموت » .

أنشد الجنود الثلاثة « هاتيكفاه !

أرسلنا انذارا آخر شديد اللهجة الى الحكام البريطانيين ، أعدنا

فيه ما سبق أن ذكرناه من أنها حماقة منهم أن يظنوا أن قتل أسرى الحرب سوف يحطم روح الشباب أو الشعب ، وأنه « لم يسبق أن كان فى التاريخ حركة تحرير أصلب من هذه الحركة النابعة من هاوية الدم والغضب العبرى » ، كما ذكرنا لهم مرة أخرى أنهم سوف يتحملون عواقب جريمتهم .

وفى أوائل شهر فبراير اعلن نبأ نقل الجنرال باركر من منصبه . كنا نعد باركر ، الذى حاول أن يحطم شعبنا ، عدوا لنا ، ولقد حكمنا عليه بالاعدام ، الا اننا أخفقنا فى تنفيذ الحكم . كنا على وشك اختراق التدابير المحكمة التى اتخذها ضمانا لسلامته الشخصية ، أكثر من مرة، الا أن الحظ كان حليفه فى كل مرة . وفى يوم ١٣ فبراير غادر البلاد خفية ، وكان قد صدق على الأحكام باعدام دريزنر والكوشى وكاشانى فى اليوم السابق لمغادرة البلاد .

اعلن القائد العام البريطانى الجديد الجنرال « ماكميلان » أن احكام الاعدام الثلاثة لن تنفذ الى أن تنتهى قضية دوف جرونر المنظورة امام مجلس البلاط . ازداد عدد الأشخاص الذين يرتدون لباس المشنقة القرمزى . ففى شهر مارس حكم على « موشى باتازانى » عضو جبهة تحرير اسرائيل « بالشنق من الرقبة حتى يموت » ، وفى مستهل شهر ابريل وضع الضباط البريطانيون الثلاثة قبعاتهم ، مرة أخرى ، على رؤوسهم بينما نطق أحدهم بالحكم على « مائير فاينشتاين » عضو الارجون ، فحيى هذان الشابان العجيبان الحكم بأن أنشدوا « هاتيكفاه » !

اعلنت الحكومة البريطانية ان هذه الأحكام أيضا سوف تبقى « مؤجلة » الى أن يتم نظر قضية جرونر امام مجلس البلاط .

لم نكن على استعداد للاعتماد على التعهدات الرسمية ، ولذا بدانا فى اعداد خطة لتحرير الرجال المحكوم عليهم بالاعدام ، بالقوة .

كانت الخطة التى وقع عليها اختيارنا واحدة من عدة خطط تدبرناها . لم نكن شغوفين بعمل استعراضى ، كما أننا لم نكن شغوفين كذلك بعملية انتحارية . لقد أردنا أن نخلص رفاقنا من قبضة الجلادين. ومع أن الخطة كانت فى حكم المستحيل ، الا انه كانت هناك فرصة لنجاحها ، وكانت لدينا خبرة مرضية فى العمليات « المستحيلة » . ورغم أن الخطة كانت جريئة ، تنطوى على المخاطر ، الا اننا صدقنا عليها .

تدخل سيارة مدرعة بريطانية الى فناء سجن القدس حيث يوجد الرجال المحكوم عليهم جميعا . يستقل السيارة عدد من رجال الشرطة البريطانيين يحملون وثائق رسمية موجهة الى محافظ السجن . يمضى احد رجال الشرطة برتبة « رقيب » الى المكتب بينما تستدير السيارة لتواجه البوابة . فى تلك اللحظة تعطى اشارة فيقفز الرجال الستة المحكوم عليهم بالاعدام ، الذين يكونون فى الفناء وقتئذ لممارسة رياضتهم اليومية المعتادة ، الى السيارة ويأخذون الأسلحة المعدة لهم . يحدق « رجال الشرطة » بالحرس فى البوابة ؛ تشق السيارة المدرعة طريقها عبر البوابة تحت ستر الرشاش الثقيل المثبت عليها ، منتهزة فرصة الفوضى التى لا مفر منها بين المسئولين .

كانت ارجون بأسرها منهمكة فى العملية ، حتى « جيدى » نفسه لم يعمل من قبل فى مثل هذا الحماس . حصل « يوئيل » على الوثائق الرسمية اللازمة . وصل الى قيادة ارجون فيض من طلبات الضباط يرجون الاشتراك فى العملية .

عهد الى شمشون ورجاله فى مهمة مراقبة الطريق العام . كان واجبهم اشق الواجبات عموما ، اذ كان عليهم اقتناص سيارة مدرعة من سيارات الشرطة . ولقد اضطلع شمشون المحارب الفدائى (الكوماندو) اللامع بواجبات خطيرة اشد تعقيدا ، الا انه ، فى هذه الحالة ، كان هناك شرطان لابد من تحقيقهما . كان من الضرورى أن يتم العمل فى الوقت الملائم من النهار ، وكان حتما أن يصير الاستيلاء على السيارة دون أن تتعرض لأى عطب أو يصاب افرادها بأذى ، أو أن يتمكنوا من اعطاء اى انذار ، والا انهار مبدأ المفاجأة والخداع فى اختراق فناء السجن ، وبالتالى تفشل الخطة .

ظل شمشون ووحدته يراقبون الطريق الرئيسى الى القدس يوما فى اثر يوم الا انه لم يكن هناك اى طائل . كانت السيارات المدرعة تمر ، الا أن الاستيلاء على أى منها كان حتما سيؤدى الى التورط فى صدام مسلح . ربما استطاع شمشون أن يخرج منتصرا من هذا لصدام ، الا انه كان يعلم أن اى صدام كان خليقا بأن يجعل السيارة غير ملائمة للغرض الذى ينتظرها . لم يتطرق اليأس الى نفوسنا . كان رفاقنا الذين أبلغوا بالخطة منتظرين ، وكانوا متذرعين بالصبر . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يسبر غور آلامهم المبرحة ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يسبر غور القلق فى الخارج ــ فى المقاومة ؟ استمرت حالة التأهب الدائم

فى ارجون يوما فى اثر يوم ، ولم تترك لنا الليالى المتوالية شيئا سوى الأمل .

في يوم ١٤ ابريل نقل جرونر ودريزنر والكوشي وكاشانا من القدس الى قلعة عكا .

ولا ينبغى ان يتصور أحد أن البريطانيين أجروا هذا النقل لأنهم عرفوا خطتنا ، فالواقع أنهم لم يعلموا من أمرها شيئا . ولسوف يعلم رؤساء المخابرات بخطتنا للاغارة على سجن القدس عندما يقرأون هذه السطور ، فلو انهم كانوا قد عملوا ، اذن لاحتفظوا ، من غير ما شك ، بالسجناء فى القدس ونصبوا شركا لمنقذيهم .

كانت للبرايطانيين خطتهم ، فقد كانوا على وشـك القيام بجهد حاسم لاسترجاع هيبتهم الضائعة . كانوا على وشك التظاهر بشـدة بأسهم وسلطانهم . لقد وجدوا اللحظة الملائمة ، اذ أعلنت المؤسسات اليهودية الحرب من جديد على المقاومة المناضلة . صدرت التصريحات العامة بتصفية « الارهابيين » تصفية عاجلة . وهكذا ظهر النور الأخضر للبريطانيين .

الا أن الجلاد كان يتوجس خيفة ، ولذا اختـار القيـام بعمله فى الظلام ، لا فى القدس ولكن فى عكا النائية . وحتى بعد نقل السـجناء الأربعة الى عكا زعم أنه لم يكن هنـاك داع للقلق ، فقال « سـتابز » ضابط اعلام الحكومة فى مؤتمر صحفى ان « ارجاء تنفيذ الاعدام الى مابعد الانتهاء من اجراءات مجلس البلاط كان لا يزال نافذا » . واجاب ياور المندوب السـامى الجنرال « كننجهام » على سـائل بالتليفون :

« صدقنى أننا لا نريد أن نشنق الفتى المسكين » !

صدق المدعى العام على تصريح ستابز ، واكد محافظ السـجن تصريح المدعى العام ، كما دعا «ماكس كريتزمان» الذى كان يعمل بوصفه وكيلا مفوضا للفتيان الى المجىء لزيارة عملائه .

الفصل العشرون

وثيقة مفجعة

أعتقد أنه لا يوجد مثيل فى التاريخ لحكومة تنفذ حكم الاعدام فى مثل هذا الهلع وفى مثل هذه السرية . لقد وعدت السلطات بأنها سوف تنتظر قرار مجلس البلاط ولكنها ضللتنا . وأعلنت أن التأجيل لا يزال نافذ المفعول ولكنها خدعتنا .

منحت السلطات شقيقة دوف جرونر ، « هيلين فريدمان » التى قدمت من الولايات المتحدة ، تصريحا لزيارة أخيها ، وكانت هذه السلطات تعلم علم اليقين ماذا ستجد « هيلين » عندما تصل إلى عكا .

بعد نقل السجناء الأربعة الى سجن عكا بست وثلاثين ساعة فرض حظر شديد على التجول فى جميع أرجاء الاقليم . وهكذا حبس سبعمائة ألف فى منازلهم وكانت القوات والدبابات والسيارات المدرعة قد أحاطت بقلعة عكا القديمة لكى تضمن وصول الجنود اليهود الأربعة السجناء .

وفى السادس عشر من شهر ابريل سنة ١٩٤٧ فتح عشرات الألوف من اهل أرض اسرائيل أجهزة الراديو ليستمعوا الى النشرة الاخبارية الصباحية الأولى . انبعث صوت المذيع « ليـاه بورات » يقرأ بلاغا رسميا ، ولكنه لم يكن صوت المذيع فى هذه المرة ، بل كان صوت فتاة يهودية خنقته العبرات :

« نفذ حكم الاعدام شنقا هذا الصباح بسجن عكا فى دوف جرونر ودوف روزنباوم ومورد خاى الكوشى واليتسر كاشانى » .

لم يسمح لهم حتى ببركات الحاخام فى اللحظات الأخيرة من حياتهم .

يبدو أن جميع الصفات النبيلة للنفس البشرية كانت متمركزة فى دوف جرونر . ففى أمسية عيد الفصح المليئة بالذكريات ، عندما كان السجناء الذين يلبسون الملابس القرمزية يتناولون الطعام سويا وهم جلوس الى المائدة بينما كان الحاخام الذى يواسيهم فى سجن القدس يقص عليهم قصة « الخروج » ، ظل دوف مرارا وتكرارا يعرض مقعده على الشرطيين البريطانيين اللذين كانا منوطين بالحراسة فى غرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام . كانت الغرفة صغيرة جدا ، ولم يكن بها مقاعد كافية لجلوس الحاضرين ، فكان دوف وهو فى آخر حفل يحتفل فيه بأمسية عيد الفصح وهو من الموت قاب قوسين أو أدنى ، يسلك سلوك المضيف التقليدى فيعرض مقعده على الأجنبيين ممثلى العدو .

لكنه اذا ما واجه العدو نفسه ، كنا نرى امامنا متمردا لاينثنى او يحجم ، ففى غرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام فى عكا كان الضباط البريطانيون يقراون علىه « الحكم المصدق عليه من قائدهم العام ; وتقضى التعليمات بأن يقف المحكوم عليه عندما يتلى عليه الحكم ، الا أن دوف رفض الوقوف ، فقد أبى أن يحترمهم أو يحترم « قوانينهم » وأحكامهم . حاول الجلاد أن ينهضه على قدميه . ضربوه . ولكنه لم يستسلم ، ناضل حتى وهو فى آخر لحظاته ، وذهب الى المشنقة وهو يغنى !

ذهب معه من غرفة السجن الى المشنقة بينيل دريزنر ومورد خاى الكوشى واليتسر كاشانى ، وكانوا يغنون ايضا . ما الذى عاناه هؤلاء المحاربون منذ الوقت الذى وقعوا فيه ، مع زميل رابع لهم ، فى قبضة جيش الاحتلال ؟ فيما يلى التقرير الذى أمكنهم تهريبه الى ضباطهم ، وعندما تقرأه فانك تستطيع أن تلمس بعض الآثار التى انطبعت فى قلوب أولئك الذين قرأوا تلك الصفحات فى ذلك الوقت :

« قررت أن أوقف السيارة امام ولهلما واقفز فى بستان البرتقال، الا أن السائق فقد سيطرته على السيارة فاندفعت الى حاجز الأسلاك الشائكة الذى اقامه رجال الجيش على الطريق . سحبت السيارة

حاجز الأسلاك معها ولم يتوقف عن السير الا بعد أن إرتطمت بالحاجز الثانى . فى هذه اللحظة فتحت علينا النيران من رشاش برن وراءنا ، وبعدئذ أحيطت السيارة بشقائق النعمان الذين كانوا يصوبون مسدساتهم علينا . لم يكن لنا أن نختار الا أن نترك السيارة ونرفع ايدينا الى اعلى . أصيب اليتسر برصاصة فى ظهره ، واصيب موردخاى (سائق السيارة) برصاصة فى الكتف فاخترقته ونفذت من الناحية الأخرى . عندما خرجنا من السيارة تلقيت ضربة على الظهر فتدحرجت فى الحفرة ، وبينما كنت مستلقيا سمعت طلقا من مسدس ورأيت جنديا يصوب مسدسه الى موردخاى . أطلق الجندى الرصاص على موردخاى ولكنه أخطأه وقتل زميله البريطانى . ضرب الجندى موردخاى على راسه بمسدسه وقذف به الى فى الحفرة. نهضنا كلانا على أقدامنا، وركلنا الجنود بأقدامهم بينما كانوا يسددون مسدساتهم الينا . سمعنا طلقات أخرى فظننت أنهم سوف يجهزون علينا ، وعندما أخذونا آخر الأمر الى السيارة المدرعة وجدنا فيها اثنين آخرين ، ولم يكن اليتسر بالسيارة ولم نره بعد ذلك ، ولم ير الاثنان الآخران ماذا حدث له . لقد لقى صعوبة فى الخروج من السيارة وظن الاثنان أن الجنود قتلوه فيها .

« بعدئذ بدأ فصل الضرب الذى استمر حتى الساعة الخامسة من مساء اليوم التالى ، اى نحو عشرين ساعة متوالية .

« وفيما بين الضرب أخذنا فى سيارة مدرعة صغيرة ، كل واحد منا فى حراسة جندى . أفرغ الجنود جيوبنا على الفور ، وكانوا وقتئذ يأمروننا بأن نبقى أيدينا مرفوعة الى أعلى . أخذوا منا كل شىء ، أخذوا ساعاتنا ، واخذوا نحو خمسين جنيها نقدا ، واخذوا المفكرات واكياس النقود ، واخذوا أقلام الحبر وأقلام الرصاص ، بل لقد اخذوا منديلا ومشطا ، وعندما انتهوا من ذلك أخذوا يضربوننا . كانت ضرباتهم توجه بصفة خاصة الى وجوهنا وبطوننا ، وعندما كنا ننثنى من اللكمات فى بطوننا كانوا يرفعون رؤوسنا بالضرب فى وجوهنا . وأننى لأذكر كيف ان الدم كان يتدفق من أنفى كما يتدفق الماء من الصنبور والجنود يقولون وقد غمرهم السرور : لقد كسر أنفه .

« انتهت بنا هذه الرحلة فى معسكر لا اعرفه . اخرجونا من السيارات وأخذونا الى ميدان مكشوف . أوقفونا فى صف واحد . وقف فى مواجهتنا نحو عشرة جنود ، وعمر الجنود بنادقهم . وينبغى

ان اقول اننا جميعا صمدنا لهذا الاختبار فلم يحن أحد منا رأسه . فى هذه اللحظة جاء ضابط يجرى فأنب الجنود الذين كان يبدو عليهم انهم يريدون القضاء علينا فعلا . أخذنا الى غرفة حيث أبقونا بها قرابة نصف الساعة . وطوال الوقت ــ منذ ان قبض علينا ــ كانت أيدينا مرفوعة لأعلى . بعد نصف ساعة ، عندما تحجرت أيدينا ، وضعونا فى عربة نقل كبيرة حيث القوا بنا على ارضيتها . رأوا خاتما فى أصبع موردخاى فحاولوا خلعه ، ولما لم يخرج الخاتم من اصبعه اخذوا يشدون اصبعه بكل قوتهم حتى ظنوا انه كسر ، بعدئذ اقلعوا عن المحاولة . ذهبنا الى معسكر من معسكرات شقائق النعمان حيث امر ضابط بأخذنا الى أحد الأكواخ ، وكان ذلك الكوخ مطبخا مهجورا لم يستخدم منذ وقت طويل . كانت مساحته خمسة عشر قدما × اربعين قدما ، وهناك خلعوا ملابسنا عنا ، خلعوا كل شىء .. الا اننا لما كنا مقيدين بالأغلال أحدنا فى الآخر فقد بقيت الثياب معلقة على أيدينا ، ولكى يتخلصوا منها أخذوا ينزعونها بكل ما فيهم من قوة فأصابت أيدينا ، وما لم يستطيعوا أن يمزقوه بهذه الطريقة قطعوه بموسى حلاقة وتركنا عراة كيوم ولدنا .»

« بدأوا هجوما منظما باذن أو أمر ضابط على ما يظهر . كانوا يلطموننا واحدا واحدا بالدور ، ثم يلطموننا جميعا فى وقت واحد . اشترك فى هذه العملية اربعة جنود أو خمسة ، وكلما حل بهم التعب استبدلوا بهم غيرهم . كانوا يضربوننا بقبضة أيديهم فى الرأس والأرجل ، ويركلوننا فى جميع الجسم بما فى ذلك الخصية . كان من بين الضاربين شرطيان كانا معينين لحراستنا ، وكان أحدهما يدور بعصا غليظة كان قد أحضرها معه ، على ظهورنا او سيقاننا أو بطوننا . وقد كسرت واحدة من هذه الضربات يد اليتسر واحدثت اخرى صدعا فى ظهر حاييم جولور ، ونالتنى ضربة على رقبتى وكنت على وشك أن يغمى علىّ ، استمر الحال على هذا المنوال حتى وقت متأخر من الليل ، وحينئذ جاء ضابط أمر بايقاف ضربنا ، واغتسالنا ، واعطائنا بطاطين للنوم ، فصبوا الماء فوق رؤوسنا ، وكان على كل واحد منا أن يغسل الآخر . لم ينفع الغسل كثيرا ، فان جراحنا كانت تدمى ، وسرعان ما اتسخنا ثانية . استلقينا أربعتنا ، ونحن مبتلون ، عرايا نرتعش من البرد ، على بطانية واحدة ، وغطينا انفسنا ببطانيتين اخريين (وكان ذلك هو كل ما أعطوه لنا) . لكن ما أن غلبنا النوم حتى جاء الحارس

فركلنا ليوقظنا ، ثم جذب البطانيتين من فوقنا . وتكررت هذه الزيارة كل خمس عشرة دقيقة تقريبا .

« وقبيل الصباح أمرونا بالنهوض والاغتسال مرة ثانية . كانت البطانية التى نمنا عليها مشربة بالدم حتى تغير لونها . وبعد ان اغتسلنا أعطونا ملابس لنرتديها ولم يأخذ ثلاثة منا أحذيتهم ، ثم طلب منا أن نهرول فى خرقنا البالية الى غرفة المستشفى . وبينما كنا فى الطريق اليها كان كل جندى نقابله يضربنا بقبضة يده أو بمؤخر بندقيته ، وحتى حراسنا لم يضنوا علينا هم الآخرون بالضرب . كنا نجرى وأيدينا مرفوعة لأعلى ، وانتظرنا فى العيادة الخارجية حوالى ثلاثة أرباع الساعة الى أن جاء الطبيب .

« ألقى الطبيب ــ وكان رجلا قصيرا متقدما فى السن ــ نظرة على جراحنا ثم سأل الجنود عما اذا كانوا يريدون ان يستمروا على (اللعب) معنا ، فرد الجنود بالايجاب . وقال الطبيب : حسنا اذن ، سوف أضمد جراحهم فيما بعد (لم يكونوا يدركون اننى أفهم الانجليزية) .

« جرينا على نفس الطريق الى المكان الذى جئنا منه . خلعوا ملابسنا مرة أخرى وأخرجونا من الكوخ فصبوا فوق رؤوسنا ماء قذرا ، ودعى الجنود الذين كانوا يقفون على مقربة منا الى التطوع بضربنا ، وما أكثر من تطوعوا ، ثم أخذونا الى الداخل وامرونا ان نغسل ارضية الكوخ ونزيل آثار دمائنا من الحوائط وحينئذ فقط استطعت ان أرى كيف كان يبدو هذا المطبخ . كانت هناك على حوائطه قطع من الدم الجاف وكان علينا أن نزيلها بأظافرنا ، وكانوا يضربوننا بينما كنا نفعل ذلك . وفجأة جذبنا الشرطى وأمرنا بأن نركع ونقبل الأرض واذا رفضنا ذلك الأمر ضربنا بهراوة غليظة ولكننا لم نفعل ما طلبه منا . وضعوا لى قيدا ثانيا لليدين ، فقد لاحظوا اننى كنت أشجع رفاقى على التمرد . وعندما قيدوا يدى امتنعت عن عمل أى شىء فضربونى ، وأخيرا رفعوا القيد الاضافى .

وحوالى الساعة التاسعة غسلونا مرة أخرى ، وأعطوا كل واحد منا سروالا . وجاء نفس الطبيب مرة ثانية فثبت جبائر لاثنين منا ــ وبعد ذلك جاء ضابط من ضباط الشرطة يرافقه كازليك الضابط اليهودى وعدد من المخبرين السريين . لم يستجوبونا ولكنهم سألوا عن أسمائنا وعناويننا ، وظل رجال الشرطة يجيئون ويروحون طوال اليوم ، ولم يتوقف الجنود فى غضون ذلك عن (اللعب) معنا . وعندما حان

المســاء بقى كارليك وحــده فى الغرفة المجــاورة فاخرجونا ليأخــذوا توقيعاتنا على ورقة الادعاءات • بينما كان كارليك جالســا فى الغرفة المجاورة أتى عريف عمــلاق وامرنا بان نؤدى جميع الاشــياء المهينــه ، وعندما رفضنا أخذ يضربنا بلا رحمة • أخبرت رفاقى بأنه يجب الا نسكت هذه المرة بل ينبغى أن نرفع عقيرتنا حتى تصــل أصواتنا الى ســمع كارليك • أخبرته صراحــة بأنه اليهودى الوحيــد الذى صــادفناه وانه يجب عليه أن يعمل كل ما يمكنه عمله لاخراجنا من هناك والا فانهم سيضربوننا حتى الموت ، فوعد .. » .

أخــذ محاربو أرجون اليهــود يبحثون لفترة طويلة عن معســكر الرعب وساكنيه ، وعن أولئك الذين كانوا يتلذذون بالقسوة والشذوذ الجنسى ، وعن الطبيب . ولو كنا قد وجدنا المعسكر لسويناه بالأرض بالمتفجرات ، الا اننا لم نتمكن من اكتشــاف موقعه . وقد تلقينا تقارير موثوقا بها تفيد أن الوحدة التى كانت متورطة فى هذه الأعمال قد نقلت الى الخارج ، وربما كان ذلك محتمــلا ، فان البريطانيين يعلمون اننــا لا نغتفر مثل هذه الاحداث وبقيت ملاحظة يوئيل على التقرير عن محنة محاربينا :

« صار تعقب رجل الشرطة المذكور تعقبا دقيقا بصفة دائمــة ، الا ان القبض عليه كان مستحيلا ــ ذلك لأنه لم يكن يغادر سارونا الا فى سيارة مدرعة ، وقد نقل بعد الحادث بعدة أسابيع وربما يكون قد غادر البلاد ، فلقد صدر الحكم باعدامه .. » .

كان على المحاربين اليهود الثلاثة أن يكابدوا كل هذا حتى قبل أن يرتدوا الأردية الحمراء . وقد رفعوا هم أيضا رؤوسهم عاليا عنــدما واجهوا قضاتهم ، وحاولوا بدورهم أن يعملوا على تأسية آبائهم ورفاقهم بدلا من أن يعمل هؤلاء وهؤلاء على مواســاتهم هم • لقــد حاربوا ، هم أيضا ، حتى آخر لحظة فى حياتهم ، وكانوا يغنون !

وقد حذا حذوهم الرفيقان الصــغيران « مائير فاينشــتاين » و « موشى برزانى » فى سلوكهما فى المحكمة وفى تصرفاتهما أيام الانتظار فى غرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام ، الا أنهما لم يصلا الى المشنقة . لقد كانا ، هما الآخران ، يغنيان وهما على عتبة الموت • كانا يغنيان أنشودة الايمــان بالله « الذى بيده الملك ، وهــو على كل شىء قدير » ، الا أن أغنيتهما انتهت بانفجار هائل بدد سكون السجن فى القدس المحتلة .

ابان معركتنا من أجل الابقاء على حيـــاة دوف جرونر تباحثنا فى فكرة الهلاك مع الفلسطينيين القـدامى « فى حالة فشل جهودنا ، فسئل دوف جرونر عما اذا كان لديه الاســتعداد ليختار « ميتة شـمشون » اذا ما أتاه الجلادون ليقودوه الى المشنقة • ظن دوف فى بادىء الأمر أن الفكرة كانت ترمى الى أن يموت بيده لا بيد الجلاد ، فأجاب بكل هدوء : « اذا كان هذا هو المقصود فانى على أتم استعداد لأن أحطم رأسى على حائط غرفة السجن » •

بعد أن انقضت عدة أيام أفلحنا فى تصحيح الفكرة التى طرات له ، فقلنا له : « لا ، ليست الفكرة أن تموت بيدك ، فان المقاتل لا يزهق روحه بنفسه ، ولكن اذا تبدد كل أمل فقد رسم لنا بطلنا القديم الطريق عندما كان فى قبضة الفلسطينيين الأقدمين ، اذا لم تكن هناك خيرة سوى الموت فقد يحاول المحارب أن يسدد الى عدوه ضربة أخيرة » •

لكن جرونر وديزنر والكوشى وكاشانى كانوا قد نقلوا الى عكا قبل استكمال الاجراءات لتحطيم أعواد المشانق ، وبقى فى غرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام فى القدس مائير فاينشتاين عضو أرجون ذو الذراع الواحدة وموشى برزانى عضو جبهة تحرير اسرائيل ، وكانا قد صمما — كما كتبا فى آخر لحظاتهما — على أن ينتقما لدم رفاقهما الأربعة ، انهما لم يكونا يخشيان بعد على حياتهما ، ولكنهما كانا يخشيان أن ينفذ الحكم فيهما بصفة فورية عاجلة قبل أن يقوما بما عقدا العزم عليه • وقد عبرا عن هذا الخوف المهيب فى المذكرات الثلاث التى كتبها فانيشتاين بيده الوحيدة باسميهما كليهما :

« أيها الرفاق : شالوم !

انكم لم تحسنوا صنعا اذ لم ترسلوها الينا • منذا الذى يعلم ما اذا كان الوقت يبيت متأخرا جـــدا عنـــدما يأتى الصـــباح ؟ لاتجعلوا الوقت يسبقكم • أرسلوها الينا دون ابطاء • لقد صدق عزمنا • تحياتنا لكم جميعا وكونوا أقوياء فنحن كذلك » •

« شالوم ، أيها الرفاق الأعزاء ! أيها الرفاق الأعزاء • لقد تسلمنا الصحف وأصبح كل شىء واضحا لنا • اننا سعداء بهذه الفرصة الأخيرة للمشاركة فى الثار لرفاقنا الأربعة أما من جهتنا فاننا على يقين من أن منظمتينا سوف تنتقمان لنا بما يكفى وبالاسلوب الذى ترتضيانه ، الا أنهم قد يفاجئوننا بالنقل الى عكا ، ولذا نرجو أن تطلبوا منهم فى الخارج أن يعدوا لنا شيئا مشابها فى عكا حتى نتحقق من أننا سوف نعمله •

نحن أشداء » ٠

« أيها الرفاق : شالوم !

تقبلوا منا آخر تحياتنا ، ولاتجزعن قلوبكم على تقديمنا حياتنا ٠ لكننا سننتقم لدماء رفاقنا الأربعة ، ولن تحول أية قوة على الأرض بيننا وبين مآربنا ٠ أيها الأخـوة ، لتحملوا راية التمرد بشرف ، ولتنضموا الى حيث نفدى ونفتدى ٠ اننا ماضيان الى الموت بكل فخر ! » ٠

فى الليلة التى سبقت تنفيذ حـكم الاعدام ـ بعد شنق الأربعة فى عكا بأسبوع ـ سلمت اليهما تلك « الحاجة » التى كانا يطالبان بارسالها اليهما : قنبلة يدوية مخبأة فى برتقالة ، صنعت فى غرفة السجن المجاورة بمعرفة المحـــاربين الذين لم يكن محكوما عليهم بالاعدام والذين كانوا مستعدين لتقديم أرواحهم لانقاذ أولئك المحكوم عليهم بالاعدام شـــنقا ٠ عندما حانت اللحظة الرهيبة وتبدد كل أمل فى انقاذ حياتهما ، كان هناك شىء واحد يمكن أن يعمل : اعداد أداة للموت تقضى عليهما وعلى أعدائهما على حد سواء ، وكان الاثنان فى غرفة سجن المحكوم عليهـم بالاعــدام ينتظران ٠ فمنذا الذى يعلم ما اذا كان الوقت يبيت متأخـــرا جدا عندما يأتى الصباح ؟

كان الحاخام جالسا فى غرفة سجن المحكوم عليهما بالاعدام حتى ساعة متأخرة انه لم يكن يواسيهما ، فلقـــد كانا فى غير حاجة الى مواساته ٠ كانا يرتلان اصحاح : « أن الله معى فلن أخاف » ٠ كانا خائفين الا يتاح لهما الوقت ٠ لم يكن الحاخام يعرف شيئا ، فوعدهما بأنه سيعود اليهما عند مطلع الفجر ليكون الى جانبهما فى لحظاتهما الأخيرة قبل أن يشنقا ٠ حاولا ـ وهما اللذان كانا يغالبان الموت فى حياتهما ـ أن يثنيا الحاخام عن عزمه على زيارتهما مرة أخرى ، ولكنه أصر ٠ وما كانا ليميطا اللثام عن سر حياتهما الرهيب !٠

لم ينتظرا مجىء الجلاد ، فقد خشيا أن يتعرض الحاخام ، الذى سيكون حاضرا عنـــدئذ للأذى ٠ ولذا عدلا عن فكرة الموت مع « الفلسـطينيين الأقدمين » ـ عدلا عن فكرة « على وعلى أعدائى » ٠ وفى النوبة الليـــلية الثالثة ، احتضن أحدهما الآخر فى عناق أخوى أخير ، ووضعا القنبلة اليدوية بين قلبيهما ٠ انتزعا منها دبوس الأمان وضغط أحدهما على الآخر !

الفصل الحادى والعشرون

سقوط الباستيل !

على أثر اعدام « دوف جرونر » ورفاقه الثلاثة ، أصدرنا بلاغا أعلنا فيه تشكيل مجالس عسكرية ميدانية تلحق بكل وحـدة من وحدات ازجون ، حتى اذا ما وقع أى من قوات العدو فى أيدينا كان عرضة للموت كما مات رفاقنا الأربعة • وخرجت وحدات على الطرق وفى الشـوارع فى المدن ، الا أنها لم تجد أى عسكريين بمعنى الكلمة • كان العسكريون كلما غادروا معسكراتهم انتظموا فى قوافل تحت حراسة الدبابات ، وكان فى مقدورنا أن نهاجم هذه القوافل كما هاجمنا قطار القوات القادم من مصر فيما بعد ، الا أن هذا لم يكن الثأر الذى كنا نستهدفه فى تلك الأيام الغاضبة • كان من واجبنا أن ندفع للجلاد بنفس عملته وبمنتهى الدقة ، ولم ننجح •

استحكم جنود الجيش فى أماكن اختفائهم ، وداومنا على مهاجمتهم ، الا أن الدين الكبير ظل معلقا دون سداد •

نزلت قافلة من السيارات ، متباطئة ، من « تل شانى » المطل على وادى التمساح والذى تقوم عليه قلعة قديمة ، وكانت هذه القافلة قافلة عسكرية بريطانية ، وكان الجنود يجلسون فى العربات الضارب لونها الى الخضرة وأسلحتهم فى وضع الاستعداد • سارت على رأس القافلة سيارة جيب بها القائد ، وهو ضابط برتبة نقيب • كانت القافلة متجهة شمالا الى بيروت كما ظهر فى جدول السير المعطى للنقيب • واذ وصلت القافلة الى الطريق الرئيسى زادت من سرعتها عبر الحقول والقرى والمستعمرات •

مرت القافلة على قوافل أخرى تسير في الاتجاه المضاد · كان الجنود يتبادلون ابتسامات التحية وكانوا يلوحون بأيديهم ·

لم يكن الجنود البريطانيون المتجهون جنوبا بقادرين على أن يسمعوا ما اذا كان رفاقهم المتجهون شمالا يسمون قائدهم · ولو أنهم سمعوا ، اذن لما تبادلوا الابتسامات بل لتبادلوا الطلقات · كان اســـم النقيب « شمشون » ، وهو اسم كتابى ولكنه ليس انجليزيا ، ولم يكن ذلك اسمه الوحيد · ان معظم رجاله لا يعرفون اسمه الآخر ، لا يعرفون الاسم الذى كان يطلقه عليه أبواه : « دوف كوهين » · وهو ـ بدوره ـ ليس اسما انجليزيا على الاطلاق ·

لم يكن كل الجنود المتجهين شـــمالا يعرفون أن شـــمشون هو دوف كوهين ، كما أن أحدا من الجنود المتجهين جنوبا لم يكن يعرف أن دوف كوهين هو شمشون · الا أن كثيرا من الجنـــود البريطانيين كانوا يعرفون دوف كوهين تمام المعرفة ، فلقد خدم دوف كوهين عددا من السنين فى وحدات الكوماندوز بالجيش البريطانى ، وكان ضباطه ومرءوسوه على السواء يمتدحون شجاعته وأعماله الباهرة فى المعركة ، كما كانوا يمتدحون انجازاته وراء خطوط العدو · لقد استطاع أن يغزو القمة ، ففى افريقيا الشرقية عهدت اليه قيادة الهجوم على سلسلة المواقع الجبلية الايطالية · واذ ضرب المثل لجنوده سقطت قمة « كيرن » فى يد الجيش البريطانى ففتحت هذه الثغرة فى الخطوط الايطالية طريق النصر أمام البريطانيين فى شرق أفريقيا ·

واذ نال دوف كوهين مانال من أوســـمة ومديح ، عاد الى أرض اسرائيـــل من الجبهة الأوربية فاستأنف غداة وصوله عملياته الفدائية · وجدت وحـــدة اقتحام منظمة أرجون تســـفاى ليومى قائدا متمرســـا فى المعارك أضحت الحرب والمخاطر جزءا من حياته اليومية ، ووجد دوف كوهين مكانه ، بل ربما وجد نفسه ـ وعندما اندفع الى المعركة بعيدا جدا ، عند « كيرت » ، كان يهتف باسم « صهيون » وها هو ذا الآن يقود وحدته من أجل صهيون ، وعلى أرض صهيون · مأرب دفين وجد تعبيرا · حلم أصبح حقيقة ·

اصطحب دوف كوهين وهو في زي كابتن بريطـاني « كابتزان » و « شموليك » وكانا يرتديان ملابس الجنود البريطانيين • وانطلق في سيارة جيب محملة بالأسلحة على الطريق الذى كانت تنتشر عليه سدادات الطرق • وعند واحدة من هذه السدادات وقف الحارس في وضع «انتباه» وأدى التحيـة العسـكرية ، الا أن دوف لم تعجبه تلك التحية ونظر الى الجندى بحدة •

سأل الجندي في خشونة : « هل تسمى هذه تحية ؟ أد التحية ثانية ! » • صدع الجندى للأمر وأدى التحية مرة ثانية •

قال الكابتن : « هذه أحسن » • واستمرت السيارة في طريقها ، مارة بالجندى الذى أدى التحية •

الا أنه فى اليوم الرابع من شهر مايـو سـنة ١٩٤٧ لم يكن دوف كوهين قائما بمهمة لنقل الأسلحة • لقد كان فى هذه المرة مقـدما على أكبر عملية من عمليات الفدائيين تعهدها فى حياته ، بل انه كان مقدما على أجرأ عملية من عمليـات الفدائيين فى التاريـخ • انه لم يكن متجها الى بيروت ، لقد كان قائما على رأس رجاله الى عكا •

عندما وصلت القافلة الى عكا أخذت تتفرق فى مجموعات صغيرة • وتفرقت هذه المجموعات بدورها فى جميع الجهات ، فقد كانت لديهـا واجبات كثيرة لتمارسها ، كثيرة بعدد الطرق المؤدية الى عكا ، فان عكا لم تكن مجرد مدينة عربيـة فحسب ولكنها كانت محاطة بحلقـة من المعسـكرات الحـربية • ان وحدة فدائيي الارجون لم تكن تعمل خلف خطوط العدو ، بل انها كانت تعمل بين خطوط العدو ، ولن ينجح الهجوم مالم يحرم العدو من جلب التعزيزات ، ومالم يظل طريق انسحاب القوات المهاجمة مفتوحا •

وضع «جيدى » خطة العمليـات بكل تفاصليها ونفذها شمشون بمنتهى الدقة •

أمطرت وحدة من الوحدات الفدائية معسـكرا قريبا بوابل من قنابل الهاون لتحـويل الأنظار ولأعمال الوقاية فى آن واحـد وقامت وحدة أخرى بزرع الألغام •

كان رسم الخطة محكما ، لم توضع تفاصيلها على الخريطة فحسب، ولكنها وضعت على الطبيعة كذلك ، فقد قضى جيدى وشمشون السـاعات

يجوسان خلال المنطقة • استطلعت الأرض عيون كثيرة قبل الرابع من شهر مايو ، وأحيانا ما ظهرت هذه العيون وكأنها عيون «عربية» ، وأحيانا أخرى بدت وكأنها عيون « بريطانية » ! الا أنها كانت عيون محاربة أرجون بصفة دائمة • وبفضل هذا الاكتشاف أقيمت حلقة فى داخل حلقة ، فقد شكلت داخل نطاق معسكرات الجيش حلقة من نقط أمن أرجون • وهكذا أصبحت عكا محاطة من كل جانب •

اتجهت قوة شمشون الرئيسية نحو القلعة ــ تلك هى قلعة عكا التى بناها الصليبيون واسترجعها الأتراك ، وصمدت للحصار الذى فرضته عليها مدفعية نابليون بونابرت ، تكتنفها هالة التاريخ ، وتحيط بها أمجاد البطولة والمعاناة ، من « زئيف جابوتنسكى » الى «دوف جرونر» يقف شمشون ورجاله الآن أمام أسوار هذه القلعة التى لا تقهر فلقد جاءوا ليقتحموها ويهبوا الحرية لسجنائهم •

كان السجناء ينتظرون وراء الأسوار بصبر نافذ • انهم يعرفون انه كان ينبغى أن تصدر الاشارة وقتئذ بالفعل • فلماذا هذا التأخير ؟ ان طلاب الحرية هؤلاء ليسوا هاربين عاديين • لقد كان عليهم أن يسهموا بدور ايجابى فى شق طريقهم الى الحرية • لم تكن السلطات تعلم من ذلك الأمر شيئا ، ولكنها اكتشفت منذ بضعة أسابيع محاولة لاقامة نفق من سجن القدس المركزى ، وظنت الحكومة أن المقاومة غلبت على أمرها فى تلك المرة فلن يهرب « الارهابيون » بعد • ومع هذا فقد هرب الارهابيون من قلعة عكا ، وقد كان المعلوم أنها لا تقهر •

عين المندوب السامى الجنرال « كننجهام » لجنة تحقيق خاصة فيما بعد برئاسة مساعد مدير الشرطة لمعرفة كيفية اقتحام القلعة وكيفية هرب السجناء • لقد مرت ثلاث سنوات منذ أن أنهت اللجنة عملها الذى اعتبر بمثابة أساس بنى عليه كننجهام تقريرا مطولا أرسله الى لندن ، الا أن أعضاء اللجنة والجنرال كننجهام وخدمة المخابرات البريطانية سوف يعلمون عند قراءة هذه السطور أن السجناء لم يكونوا يعلمون بالهجوم المنتظر فحسب ، بل انهم أنفسهم قاموا بدور فعال فيه ، فقد كان فى حوزتهم كمية من المواد الناسفة أدخلت الى السجن عن طريق المقاومة بوسائل مختلفة ولم تكن هذه الكمية كبيرة ولكنها كانت بالقدر الكافى لتنسف ، من الداخل ، القضبان الحديدية الغليظة التى تفصل بين الممر المظلم الممتد وبين مجموعة الاقتحام التى اخترقت

الأسوار من الخارج • وكانت المشاعل التى ظهرت فى الفناء مصممة بحيث تكون بمثابة عملية مساعدة لتسهيل الهرب ، وكان عمل السجناء الهام هو تحطيم البوابة الحديدية الكبيرة ـ عملية إستوجبت عبارات التقدير الفنى الكريمة من الجنرال •

تمت عملية النسف الاهم فعلا خارج القلعة ، ورضخت أسوار الصخر التى ظلت راسخة عبر القرون ، لهجوم وحدة « شمشون » آخر الأمر • اقتربت جماعة الاقتحام من الحائط الجنوبى • وكانت هناك نقط استراتيجية لستر تقدمها • صادفت هذه الجماعة مقاومة شديدة ، واذا كان لنا أن نصدق البيان الرسمى فقد كان عدد حراس القلعة أكثر من مائة وخمسين شرطيا مسلحين وذلك فضلا عن الدفاع غير المباشر من مراكز الشرطة القريبة ومن المعسكرات الحربية فى المناطق المجاورة• كان يحتل الأبراج العالية فى القلعة حراس مسلحون بالرشاشات والبنادق ، وكان المهاجمون معرضين لنيرانهم • تم الهجوم فى وضح النهار ، فقد كان لزاما أن ينقذ السجناء قبل حلول موعد حظر التجول على الطرق حيث كان جيش الاحتلال يوقف جميع العربات المشتبه فى أمرها •

تقدم رجالنا ، تحت سواتر متنوعة ، صوب الحائط الى النقطة التى وقع عليها الاختيار لفتح ثغرة فيها • وكان « جيدى » قد تشاور فى ذلك الأمر مع « ايتان » الذى كان يعمل ، مرة أخرى ، رئيسا للعمليات رغم يديه المصفدتين فى الأغلال وهو يؤدى الخمس عشرة سنة التى حكم بها عليه العقيد « فيل » • وقد سهل الوصول الى الحائط مبنى صغير كان يستخدم مغتسلا • تم العمل فى سرعة زائدة • ثبتت شحنة المواد الناسفة فى الحائط وتراجع رجالنا وارتجت جميع أرجاء سجن عكا من شدة الانفجار ، ووسط الدخان تطاير الركام وتدحرج فى جميع الأنحاء ـ ازدادت سرعة دقات قلوب المهاجمين • هل نالت المواد الناسفة من الحائط أم لم تنل ؟ انها ليست حائطا عاديا ، انما هى حائط حصن عكا !

لقد نالت المواد الناسفة من الحائط • لم تكن الثغرة كبيرة ، ولكنها كانت كافية فان الممرات المتواضعة الضيقة تؤدى الى الطرق الرئيسية الكبرى ، ثم ان القنوات الصغيرة تحمل مجارى المياه الجارفة كما أن معظم النار من مستصغر الشرر • وهناك ثغرات صغيرة تتحول الى أرحب

المنافذ وأوسعها ، منافذ الخروج من نير الظلم ، منافذ الدخول الىأعتاب الحرية . لقد فتحت ثغرة صغيرة فى حصن عكا يوم ٤ مايو سنة ١٩٤٧ ـ صغيرة ولكنها كانت كافية ـ وهكذا سقط سجن الباستيل الثانى بعد ثمان وخمسين ومائة سنة من سقوط الباستيل الأول ، الا أنه قبل أن يفلح السجناء فى ترك ظلمات سجنهم وقعت معركة بين منقذيهم وبين القوات البريطانية . فتحت الأبراج النيران واشتبكت معها جماعتنا الساترة . رشاشات برن ضد رشاشات برن وبنادق ضد بنادق . لم يكن فتح الثغرة فى الحائط سوى نصف الواجب فقط ، ولابد من تأمين خروج السجناء المحررين وطرق اقترابهم من العربات التى كانت فى انتظارهم . وكما تعودنا أن نقول ، « ينبغى تأمين الانسحاب لكى يتم النصر » ، وبالتالى تعرضت الأبراج لنيران شديدة ، استطاع عشرات السجناء أن يمروا تحت سترها عبر الحائط المفتوحة .

أرسل موظفو الحصن طلبا للنجدات . بعث مركز الشرطة ، الذى كان قد تلقى انذارا مبكرا من أحد المخبرين العرب عن « تحركات مريبة » فى منطقة السجن ، بداورية مسلحة ، وأرسلت جماعةعسكرية على عجل من أقرب معسكر ، كما اتجهت الى عكا عربة محملة بالجنود من حيفا التى تبعد ثلاثة عشر ميلا . الا أنه بناء على تقارير السلطات البريطانية لم تفلح أى من هذه الوحدات فى الوصول الى المشهد او فى قطع خط الرجعة على رجال أرجون ، فقد أوقفت داورية الشرطة فى حقل الغام على الطريق العام ، وتوقفت الجماعة العسكرية على أثر تهديدات علب الصفيح الصغيرة كما دمرت العربة التى تحركت من حيفا ، وحالت الفوضى التى شملت المعسكر الذى تعرض لقصف مدافعنا الهاون (وكانت من عيار ٢ بوصة فقط) دون ارسال أية مساعدة . وكانت حلقة الأمن التى اقمناها داخل حلقة الجيش متينة ، فقد كان يقف من ورائها محاربون اقسموا الا يسمحوا للعدو بأن يتخطاها مهما كلفهم الأمر .

وقد بدا أن شمشون كان على وشك الوفاء بوعده ، الذى كان قد قطعه لأبراهام ، اذ قال له قبل أن يخرج فى مهمته : « لا تقلق ،فلسوف أعيد ايتان والفتية الآخرين سالمين غانمين » .

لكن الحظ الأعمى الذى يعمل وراء تقديرات البشر كان قد قضى بشيء آخر ، قضى بأن يفى شمشون بجزء من وعده فقط دون الجزء الآخر ، فجاء ايتان هو واغلب سجناء أرجون وجبهة تحرير اسرائيل

بيسلام إلى قاعدة من قواعد المقاومة ، أما شمشون نفسه ومحاربون آخرون ممن ذاقوا طعم الحرية من جديد ، لفترة وجيزة ، فلم يقدر لهم أن يرجعوا الينا أبدا ٠

فى عصر ذلك الأحـد كانت هناك جماعة من الجنـود والشرطيين البريطانيين يستحمون جنـوب عكا ، وكانوا جـريا على عادتهـم يحملون أسلحتهم ٠ واذ أزعجهم دوى الانفجار وصدى المعركة ، اندفعوا الى الطريق الرئيسى حيث أقاموا متاريس داخل نطاق أمننا ٠ كما وقع حـادث خطير آخر ، اذ لم يعط الانذار لجماعة من جماعتنـا الأماميـة الأربع لكى تستقل عربتها ، ومن ثم بقيت داخل نطاق العدو ٠

كتب « هومر بيجارت » وقتئذ فى صحيفة نيويورك هيرالدتربيـون أن « عملية عكا قوبلت بحماس شديد من السكان اليهود » ، الا أنـه لا شك فى أنه مع مشاعر الانتصار كان قلب قيادة ارجون يفيض حزنا بسبب الخسائر الجسيمة » ٠ ولم يخطىء هومر بيجارت ، أو لعله أخطأ فعلا ، فقد كان الاحساس بالحزن أعمق كثيرا من الابتهاج بالنصر ٠

أما عما حدث أثناء الانسحاب فقد علمنا بتفصيله فى خطـاب من أحد السـجناء ٠ وكان هذا الخطاب موجهـا الى ايتان من « ماتيتياهو شموليفتز » من جبهة تحرير اسرائيل ، الذى روى ما رآه بعينى رأسه فى ايجاز ٠ وليس الخطاب فى حاجة الى تعليق ، الا أنه ينبغى لى أن أوضح الأسماء المسـتعارة : « شمشون » هو « دوف كوهين » و « شيمون » هو « شيمور عمرامى » الذى حكم البريطانيون بسجنه منـذ سنة ١٩٤٤ و « مايك » هو « ميخائيل أشبيل » الذى أنقذ من حبـل المشنقة مع « شيمون » ليموت « على المتاريس » ٠ « على المتاريس » هى الأنشودة التى كتب كلماتها فى غرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام ، تاركا لرفاقه الوصية التى أصبحت الأنشـودة المفضـلة لدى رجال المقـاومة كتب « شموليفتز » :

« علمت بمدى تأثركم البالغ لفقد أصدقائنا الاعزاء ، ويدفعـنى شىء ما لا أعرف كنهه الى الكتابة اليكم عن المأساة وعن السـاعات البطولية الأخيرة لأصدقائنا ٠ وانى لمدرك أن هذا يعنى اعادة فتح الجراح التى ربما تكون قد بدأت تلتئم ، فان من السهل أن ينسى الانسـان ويتأسى طالما كان لديه شىء يعمله ٠ فاذا ما كتبت اليكم بعد كل هـذا فانما ذلك لأنى أشعر بأن العلم بما قدموه من ضروب الشجاعة وبالظروف

التى أحاطت بموتهم الباسل قد يخفف ، الى حد ما ، من الحزن العميق الذى ترتب على فقد الرفاق والأصدقاء ٠

« اصطدمنا ، كما تعلمون ، بالمتاريس على الطريق ووقعنا تحت نيران متقاطعة على أثر خروجنا من محطة السكة الحديدية . وكان سائق عربتنا قد رأى شمشون منذ بضع ثوان وهو مسرع صوبنا على الطريق بينما كان يشير الينا بيده لكيلا نستمر فى السير على الطريق ٠ ولما ادرك السائق ماذا تعنيه اشارات شمشون ، كان قد وصل الى المنحنى فانحرف حول المتاريس بسرعة هائلة ، واذ حاول أن يستقيم بالعربة خرجت عن الطريق وارتطمت بحاجز من الصبار ٠ توقفت محركات العربة ومع أن نيران الرشاش كانت كثيفة الا أننا سمعنا شمشون ينادى علينا بصوت واضح أن اتبعونى ٠ كان مايك قد اصيب بينما كنا لا نزال فى العربة ، وأصيب الآخرون وهم يقفزون منها ٠ أخذنا نجرى بضع ثوان بحثا عن مخرج من المنطقة المضروبة الا أننا كنا نواجه الرشاشات أينما اتجهنا ٠ أصبنا جميعا فجرينا الى حفرة على جانب الطريق ، وعندئذ رأينا شمشون على حين فجأة وهو مندفع صوب عربة من عربات الجيش كانت واقفة على الطريق فجرينا وراءه ، ثم قفزنا فى تلك العربة وكان بها جنديان غير مسلحين ، كما كان بها سائقها ٠ أجبر شمشون السائق على ادارة محرك العربة ، بينما وثب أقلنا اصابة الى الجنديين فامسك بهما ٠ كنا تسعة رجال ، وأولئك هم كل من تبقوا منا فقد قتل حاييم برينر فى الحفرة برصاصة فى الرقبة ، وأصيب مندل فى ظهره فلم يستطع أن يجرى معنا ، وتركنا نيتشا هو الآخر جريحا فى الحفرة وقد تخلف معه اسحاق كوزينفسكى ليضمد جراحه ولم يفلح فى اللحاق بنا ٠

« بدا لنا أننا نجونا ، فقد خرجنا من منطقة النيران وبدأنا فى جمع الجرحى ٠ ولم نستطع الامساك بالجنديين بعد ، اذ لم يكن معنا سلاح وكان أغلبنا مصابين ٠

« تخطينا سيارة الجيب التى كان يركبها شمشون وعندئذ أمر شمشون سائق عربتنا بالوقوف ٠ وعندما علم أنه كان بيننا سائق « شميش » أنزلنا الجنديين من العربة ونقلنا الرشاش البرن والذخيرة من السيارة الجيب ٠ وفى غضون ذلك كانت القوات تقترب منا ثانية ومرة أخرى تعرضنا لنيرانهم ٠ تولى شميش قيادة العربة ، الا انه

اكتشف أن عملية الاحتراق الداخلي لا تتم في الموتور كما ينبغي ، فبدأ في اصلاحها عندما ظهرت فجأة عربة لورى متجهة نحونا . قفزنا من عربتنا وجرينا صوب العربة القادمة نحونا وأطلق شمشون طلقة في الهواء فتوقفت العربة اللورى بقي شميش وعمنون مع شمشون . سحبت باروخ شموكلر وشيمون وكانا مصابين في ساقيهما وأجزاء أخرى من جسميهما . كان كوع باروخ الأيمن محطما ، وبينما كنا سرعين تحت وابل من الرصاص قال لى : (الى الجحيم ! كيف سأعتاد على الكتابة بيدى اليسرى ؟ انهم لا شك سيبترون يدى اليمنى !) .

« قفز العرب الذين كانوا في العربة خارجها . وكان من بينهم جندى مسلح ببندقية . وأخذ سائق العربة يجادل شمشون الذى كان واقفا بجانب باب العربة ممسكا في يده رشاش برن ، وكان شميش واقفا الى جانبه . أطلق شمشون رشاشه فسقط السائق من العربة مصابا في رأسه . وفي تلك اللحظة حلت الكارثة التى حتمت مصيرنا فعندما رأى شميش السائق وهو يسقط من العربة قفز مسرعا الى مقعد السائق فجاء في مواجهة ماسورة رشاش البرن قبل أن يتاح لشمشون الوقت لكى يبطل الضرب فسقط شميش ميتا على الفور وهكذا أصبحنا بدون سائق . جلس عمنون الى عجلة القيادة وحاول أن يوجه العربة الا أنه لم يستطع ، فلقد كان مصابا في ضلوعه وكوعه . وجرى شمشون نحو سيارته الجيب فاتخذ موقعا خلفها ، وأوقف تقدم الجنود وهناك سقط شمشون . لم أكن قد رأيته من قبل أبدا ، الا أنه أثار اعجابى منذ اللحظة التى رأيته فيها وهو منكب على العمل . كان هادئا وكان شجاعا بصورة منقطعة النظير . وعندما أدرك أننا فقدنا كل شيء لم يفكر في انقاذ نفسه ولكنه أخذ يجرى عامدا صوب نيران المدفع الرشاش لكى يمكننا من الهرب .

« قذف نسيم كزاس بنفسه وهو خلو اليدين على جندى كان يصوب بندقيته اليه فألقاه أرضا ، وصار يضربه بمؤخرة البندقية ومما يدعو الى الحسرة أنه كان جريحا .

« انتشرنا في حقل على الجانب الآخر من الطريق . لم يستطع مايك وباروخ وشيمون أن يجروا بعيدا فاستلقوا ثلاثتهم معا حيث كانوا وكانت جراحهم جد خطيرة وبخاصة جروح أيديهم وسيقانهم ، كما كان شيمون مصابا في كتفه . استطعنا أنا وموشى سلامون وجوزيف داهار

أن نسبق الآخرين ، فوصلنا الى حقل أذرة حيث رقدنا لنكتشف الأرض فيما حولنا • كانت الأذرة من أمامنا وقد رأينا الجنود يجرون من خلالها وكان الطريق على الجانب الآخر من حقل الأذرة يمتلىء شيئا فشيئـــا بالجنود ورجال الشرطة • كان حقل الأذرة صغيرا ؛ وكان المخرج الوحيد منه عن طريق الحقل المكشوف على جانب الطريق ، ولو أننا ذهبنـــا الى هناك لتعرضنا للخطر على الفور ولذا قررنا أن نبقى حيث كنا حتى الغسق •

« بعد حوالى خمس عشرة دقيقة جاء الجنود الى الحقل حيث وجدونا فأطلقوا علينا النار بعد أن استسلمنا لهم ، ولم نخرج أحياء الا بمعجزة • جرح جوزيف مرة أخرى ، أما نحن فقد أنقـذنا بفضل تدخل ضابط من ضباط الشرطة قال للجنود ألا يقتلونا • لم تتح هذه الفرصة لشيمون ومايك وباروخ ، فبينما كانوا مستلقين على الأرض جرحى تلقى كل واحد منهم ثلاث رصاصـات فى بطنه ، ولم يصب باروخ بمعجزة وأخــذونا الى العربة • سحب الجرحى على الارض ثم قذف بهم فى العربة كمـــا تقذف الامتعة • تكدسنا فى كومة واحدة ، الجرحى والقتلى بعضهـــم فوق بعض • كنت أنا وموشى سلامون الوحيدين اللذين لم تكن جراحنا بالغة ، فقد كانت اصابتى فى اليد • ولقد استطعنا سلامون وأنا ، أن نساعد الآخرين ، وأرانى فى غير حاجة الى أن أعبر عن مشـــــاعرنا فى هذا المقام •

« بعد أن فصلنا الجرحى عن القتلى ، أمضيت معظم الرحـــلة وأنا أتحدث مع شيمون • كان يعرف أنه على حافة الموت ، ولقد حاولت جاهدا أن أباعد بينه وبين هذه الفكرة وان أرفه عنه ما استطعت • وكان مايك الذى يعرف هذه النهاية كذلك قريبا منا ولكنه كان مستلقيا يتنـــدر بالفكاهات حتى لقد كان يصعب على المرء أن يظن أن هذا الرجـــل كان يعالج سكرات الموت • كان يتنهد من وقت لآخر ، ولكنه كان يقول على الفور : (لسوف يكون الحال على ما يرام ، لا تقلق !) • كان يقف على الطريق أوتوبيس محطم مملوء باليهود ، ولما وقفنا عنده لنلتقط جريحا آخر ، عمنون ، رأى مايك وهو راقد على المقعد وجوه اليهـــود التى كانت تتطلع الى ذلك المشـــهد المفزع ، فناداهم قائلا : (أنظـروا أيها اليهود ، اننا نموت من أجلكم !) •

« فى الطريق الى المستشفى عرجوا بنا على مركز شرطة عكا حيث

القوا بالجرحى على الافريز ، وكان جوابهم على صراخي واستغاثتي ومطالبتي باستقدام طبيب أن اسكت !

« وكان شيمون أول من مات . كنت معه طوال الوقت ، وكان متنبها مالكا لحواسه حتى آخر لحظة . ولا أستطيع أن أقول لك ماذا دهاني عندما رأيت صديقي العزيز يلفظ أنفاسه الاخيرة . كان شاغله الوحيد هو الحزن الذي سيجلبه موته لوالديه ولأصدقائه . قال لي وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة : (أبلغ تحياتي للرجال جميعا ، وقل لهم ألا يحزنوا ، قل لهم أن يمضوا قدما ، وأرجو أن تكتب لأبوي ولاخواتي مواسيا) وكانت آخر كلماته : (الثأر يا ماتي .. الثأر !) .

مات ليفي وهو يعاني من الألم المروع فقد كان مصابا في رقبته ، وكان يختنق . يالهول موقفي ! لقد قدر لي أن أكون الى جانب كل واحد وهو يحتضر ، فأرى كم يعاني دون أن أستطيع مساعدته . كان ليفي يلقي بنفسه من جانب الى جانب ، كان يقعد ثم يرتمي وهو يصرخ الى أن اختنق نهائيا .

« وكان مايك يمزح حتى آخر لحظة . لم يتغير أبدا ، بل ظل كما هو ، مايك العجوز . كنت ممسكا بيده وكنت أحس برودة الموت تدب في جسده ، الا أنني ما كنت لأصدق أنه كان يلفظ آخر أنفاسه لقد ظل يواسيني حتى النهاية : (لا تقلق ، سيكون الحال على ما يرام ، ولا بد من الانتقام !) .

« وكان نيشتو يرقد هادئا ، وبينما هو مستلق على ظهره رأيت الدم ينزف من ثقب في ظهره . قلبته على جانبه وطلبت منه ألا يتحرك . كان مصابا في ساقه كذلك وصعب عليه أن يرقد على جانبه فقال لي بعد بضع دقائق في صوت خاشع : (هل لي أن أنقلب على ظهري ؟ انه لمن الصعوبة بمكان أن أبقى على هذا الوضع .) . وعندما أتى الطبيب آخر الأمر أرسلني الى الآخرين لأنني - كما قال - كنت أحسن منهم حالا .

« ان من المحقق أن أغلب الرجال الذين ماتوا متأثرين بجراحهم كان يمكن انقاذهم لو أنهم لقوا العناية الطبية اللازمة . أما وقد كان الأمر كما كان ، فقد تركوا وهم ينزفون دماءهم قرابة ست ساعات ... » .

قدم ثلاثة من الرجال الخمسة الذين أسروا أثناء المعركة في عكا الى

المحكمة العسكرية فى القدس • كنا نعلم حينئذ أننا لو لم ننقذهم فلن ينقذهم أحد غيرنا ، ولذا عقدنا العزم على العمل بينما كانت محاكمتهم لاتزال جارية • أخذنا نجمع المعلومات وترصدنا لثلاثة ضباط بريطانيين عند حمام السباحة فى « رامات ـ جان » الا أنهم لم يأتوا بل جاء رجلان من رجال الشرطة البريطانيين ، وبذا خاب رجاؤنا ، فقد كنا نشعر بحاجتنا الى بريطانيين من ذوى الرتب أو المكانة لانقاذ « ابشالوم حبيب » و « مائير ناكار » و « يعقوب فايس » • وكان واضحا ان الشرطيين المقبوض عليهما لن يكفيا لتحقيق غرضنا • الا أن خيبة أملنا لم تنته عند ذلك الحد ، فقد عبأت الوكالة اليهودية الهاجاناه للبحث عن الرجلين المخطوفين ، وكانوا يشكون بصفة خاصة ـ أو لعلهم زعموا أنهم كانوا يشكون ـ فى ان كل ماكنا نأمل فيه هو أن نسترعى انتباه لجنة الامم المتحدة التى كانت على وشك أن تصل الى الاقليم • أصدرت الهاجاناه نداء بضرورة بذل كل الجهود الممكنة « لانقاذ الرجلين المخطوفين » ، وقد نجحت هذه المرة واستطاعت السلطات البريطانية أن نعثر على المكان الذى كان الرجلان معتقلين فيه • وما أن انقضت عدة أيام حتى أصدرت الحكومة عفوا عن ثلاثة من أعضاء الهاجاناه كان محكوما عليهم بالسجن لمدد مختلفة « لحملهم أسلحة غير مرخص بحملها » •

خاطب رجال ارجون الثلاثة قضاتهم بمنتهى العنف والكبرياء ، ورسم « أبشالوم حبيب » صورة مشابهة للثورة الأيرلندية ضد الحكم البريطانى : « عندما هب أبناء أيرلنده ضدكم ، وعندما بدأت المقاومة الأيرلندية ضدكم ، حاولتم أن تغرقوا الثورة فى أنهار من الدم • نصبتم المشانق ، سفكتم الدماء فى الشوارع ، بعثتم بالناس الى المنفى ، أشعتم الرعب فى النفوس ، وظننتم أنكم بقوة القتل الغاشم تستطيعون ان تحطموا روح المقاومة عند الأيرلنديين الأحرار ، روح المقاومة التى هى هبة الله لكل انسان خليق بهذا الاسم ، ولكنكم كنتم فى ذلك مخطئين ، فما زادت أعمالكم المقاومة الايرلندية الا شدة ورسوخا • لقد كانت دماء المحاربين والمعذبين داعية لالتفاف الشعب حول راية التمرد الى أن أجبرتم على الانسحاب ، تاركين وراءكم أثارا من الدم لاتمحى وذكريات من الألم لاتنسى ، ونهضت أيرلندة الحرة على الرغم منكم !

« فلو أنكم ، أيها الطغاة البريطانيون ، كنتم عقلاء ، ولو أنكم كنتم قد تعلمتم من التاريخ ، اذن لكان ما حدث فى ايرلنده أو فى أمريكا كافيا لاقناعكم بأنه يجب عليكم أن تسارعوا فى الخروج من هذا البلد الذى تكتنفه

شعلة التمرد المقدسة ، تلك الشعلة التى لاتخبو أبدا ولكنها تزداد تأججا بكل قطرة دم تريقونها أو تراق فى الحرب ضدكم • انكم حينئذ سـوف تلقون بالا الى كلمات التحذير التى فاه بهـا برناردشـو أيام الثورة الأيرلندية فى سنة ١٩١٦ بعد ان أعدم جلادوكم أربعة من سجناء الحرب الأيرلنديين •

« كتب برناردشو وقتئذ :

(الرأى عندى هو ان الرجال الذين قتلوا رميـا بالرصـاص دون رحمة بعد أن وقعوا فى الأسر او بعد أن استسلموا انما هم فى حكم أسرى الحرب ، ولا يجـوز — والأمر كذلك — أن تسفك دماؤهم • ان الرجل الأيرلندى الذى يلجأ الى السـلاح ليحقق استقلال بلاده لايفعل سـوى مايفعله الانجليز لو أن سوء الطالع حكم عليهم بأن تكون بلادهم عرضـة لغزو الألمـان وفتحهم • والحقيقة التى يدركها أن أعداءه لن يقيموا وزنا لحقوقه اذا ماقبضوا عليه ، وأنه ينبغى له — والأمر كذلك — أن يحارب والحبل حول عنقه ، مما يزيد من مخاطره ، الا أنه يضاعف بنفس القيمة من عظمته فى أعين مواطنيه وفى أعين المعجبين به المشغوفين بالوطنية فى جميع أنحاء العالم • ان الايرلنديين الذين قتلوا رميا بالرصـاص سوف يحتلون مكانتهم الى جوار شهداء ايميت ومانشستر فى ايرلنده ، والى جانب أبطال بولنده والصرب وبلجيكا فى أوروبا • وما من شىء فى السماء أو على الأرض بقادر على أن يحول دون ذلك ! (١) •

« لقد تأيد هذا القـول تاريخيا تأييدا مطلقا ، الا ان حكامكم عمى لا يفقهون • ومن ذا الذى يعلم ؟ فلربما أعمى الله بصائرهم لكى ينزل عليهم نقمته فى حينها جزاء ما أراقوا من الدم والدمع أنهارا فى بلدنا وفى غير بلدنا •

« انكم أيها الطغاة لن تفهموا روح الرجال الأحرار الذين يواجهون الموت كما واجهه دوف جرونر ورفاقه — بأنشودة منبثقة من أعماق قلوبهم • ولعلكم لن تفهموا ذلك أيضا فأنا يهودى صغير أواجه حكمكم على بالاعدام وقد وجهت قلبى الى ربى فحمدته شـاكرا اذ اختصنى بالمعاناة نيابة عن بلدى ،وقلت من أعماق قلبى : شكرا لك يا الهى ،يامالك الملك ،الذى أحييتنا وحفظتنا وأبقيتنا لهذه المناسبة ! (٢) •

---

(١) خطاب الى « الديلى نيوز » فى ١٠ مايو سنة ١٩١٦ •

(٢) صلاة « شيهيشيانو » التى يتلوها اليهود فى الاحتفالات والمناسبات السعيدة •

وقدم رفيقه « ماثير ناكار» تعليقا قاسيا على الموقف السياسى لحكومة الانتداب البريطانية :

« لقد أفلس الحكم البريطانى فى أرض اسرائيل ٠٠ حكومة يقعد موظفوها فى معازل تحوطها الأسلاك الشائكة ٠٠ هل هذه حكومة ! حكومة تنفق حوالى نصف ميزانيتها على الشرطة ، ومع هذا تظل لاحول لها ولاقوة فى وجه غضبة الشعب المتمرد ٠٠ هل هذه حكومة ؟ » ٠

وتحدث «يعقوب فايس» ٠ الذى أنقذ مئات اليهود من أيدى النازيين فى المجر ، عن المعاملة البربرية التى لقيها الجرحى من سجناء ارجون فى عكا ، وحذر السلطات من مقابلة الشر بالشر ، فقال : « ولو أننا لن نضارعكم فى سوء معاملة الجرحى وفى التلذذ بالقسوة والشذوذ ، الا أنكم سوف تنالون ماتستحقون كاملا غير منقوص » ٠

ثم استطرد يقول : « اننا سوف نقابل بالازدراء تهديداتكم بالقتل ، لاننا ندرك أنه ستكون هناك نتيجة واحدة لهذا القتال : سوف يحصل شعبنا على حريته وسوف يختفى مستعبدوه من الأرض ، وذلك هو سبب هدوئنا ، بل أكثر من هذا ، سبب سعادتنا ، فما من سعادة أعظم من أن نقدم أرواحنا من أجل المثل الأعلى ، ومن أن نعزف ، ونعرف بصفة محققة، اننا فى عداد أولئك الذين يعملون على تحقيق هذه الحرية بصفة مباشرة ٠
« وفى السادس عشر من شهر يونيو سنة ١٩٤٧ وضع ثلاثة من الضباط البريطانيين قبعاتهم على رؤوسهم وأعلن أحدهم الحكم على « حبيب » و « وتكار » و « نايس » : ستشنقون من الرقبة حتى تموتوا » ٠

فأنشد الثلاثة « هاتيكفاه » !

وفى ذلك اليوم بالذات بدأت لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين عملها ٠ وليس من شك فى أن الرؤساء السياسيين لهؤلاء القضاة الثلاثة دبروا توافق صدور الحكم فى ذلك اليوم لكى يثبتوا انه سواء أكانت هناك لجنة للتحقيق أو لم تكن فان البريطانيين هم سادة البلد على أية حال !

رفعنا مذكرة الى اللجنة ذكرناها فيها بقرار الدورة غير العادية للجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة الذى يدعو الأطراف المعنية في مشكلة فلسطين الى الامتناع عن أعمال العنف أو التهديد باستعمال العنف ٠ كررنا التصريح الذى سبق أن أدلت به منظمات المقاومة تؤكد فيها احترامها لنداء المنظمة الدولية اذا مافعلت الحكومة البريطانية ذلك ٠ لقد كانت

بريطانيا طرفا فى النزاع ، ومن ثم كان نداء الأمم المتحدة منطبقا عليها • ان أحكام الاعدام وتنفيذها عمل من أعمال المعاداة والعنف وكان حتما على الحكومة أن تمتنع عنه كما طالبنا أخيرا بتدخل اللجنه نيابة عن المحكوم عليهم وفقا للسابقة التى جرت فى اليونان فى نفس الفترة وتحت نفس الظروف •

وتسهيلا لعمل اللجنة أرسل اليها خطاب من والدى المحكوم عليهم بالاعـدام • جادل أغلب أعضـاء اللجنة ـ كما أبلغنى فيما بعد الدكتور « جرانادوس » العضـو الجواتيمالى ـ بأن نداء الأمم المتحدة ينطبق على بريطانيا أيضا • ولقد شعرت اللجنة بالحظ من قدرها لأن الحكومة اختارت اليوم الذى بدأت عملها فيه للنطق بأحكام الاعدام • كانت المناقشات فى اللجنة عاصفة ، وناضل الدكتور « جرانادوس » ، والبروفسور«فابريجات» من اورجواى ، والدكتور « برابلى » من يوغوسلافيا ، بكل ما أوتوا من قوة فى سبيل اقناع زملائهم بطلب ابطال الأحكام •

وبعد أن عقدت اللجنة خمسة اجتماعات خاصة ، أرسلت البرقية التالية الى سكرتير عام الأمم المتحدة :

« نظرا لأن أغلبية أعضاء اللجنة أعربوا عن قلقهم ازاء الوقع غير المرضى المحتمل الذى قد يحدثه تنفيذ أحكام الاعدام التى أعلنتها محكمة القدس العسكرية يوم ١٦ يونيو ـ وهو اليوم الذى بدأت فيه اللجنة اجتماعها الأول فى القدس ـ على تحقيق الواجب الذى كلفت به اللجنة ، وبعد التدبر فيما ارتآه هؤلاء الأعضاء من حيث مجال القرار الذى أصدرته الجمعية العمومية يوم ١٥ مايو ، فان اللجنة تقرر أن يرسل الرئيس الى سكرتير عام الأمم المتحدة صورة من هذا القرار مع الخطاب الذى تلقته من أقارب الأشخاص المحكوم عليهم لتوجيههما الى سلطة الانتداب « • وقد أفرج عن هذه البرقية للنشر على الفور فكانت الاجابة الجافة من رئيس سكرتارية حكومة فلسطين « جيرنى » •

اقتداء بالسابقة التى خلقتها قضية مخاربى العصابات اليونانية ، ركزنا على طلبنـا من اللجنة أن تتدخل نيابة عن الرجال المحكوم عليهم وتستدعيهم للحضور أمامها لسماع أقوالهم • وفى يوم ٢٣ يونيو كتبنا الخطاب الرسمى التالى الى اللجنة :

« فى مذكرة سـوف نرفعها الى اللجنة خلال الأيام القليلة القادمة سنتناول من ماتتناوله من موضوعات ، بيان الجرائم التى ارتكبتها الحكومة البريطانية ضد شعبنا فى أرض الوطن وفى الدياسبورا على حد سواء •

وسوف تجدون ضمن كشف الجرائم الطويل جريمة تعذيب السجناء وقتل الجرجى منهم مع سبق الاصرار · وتعتبر هذه الجريمة طبقا لتعريف محكمة نورمبرج الدولية واحدة من الجرائم التى لاتتفق مع الانسانية ، بل انها أخطر جريمة ترتكب ضد الانسانية ·

« وليس يخالجنا ادنى شك فى ان اللجنة التى عينت للاعراب عن وجهة نظرها فى اسلوب نظام الحكم القائم فى بلدنا ، فضلا عما تراه فى شأن نوع نظام الحكم الذى ينبغي أن يحل محله ، سوف لاتغفل هذا الاتهام الخطير ضد الحكام البريطانيين . ونفترض ، من جهة اخرى . أن اللجنة سوف لا تقنع بمجرد سماع الاتهامات بل انها تمشيا مع طبائع الأمور سوف ترغب فى ارساء الحقائق الخليقة بتاكيد الاتهام او اغفاله ، ولذا نقترح أن تستمع اللجنة الى الشهود ذوى الأهلية القادرين على تقديم المادة الحقيقية والذين تستطيع اللجنة ان تستجوبهم لكى تدعم صدق ما يقولون .

« ان الشهود القادرين على أن يقدموا للجنة اهم الحقائق المرتبطة بهذا الاتهام ضد الادارة البريطانية هم يعقوب فايس و مائير ناكار وابشالوم حبيب الذين شهدوا السلوك الاجرامى لقوات الأمن البريطانية ازاء السجناء الجرحى ، والذين مروا هم شخصيا بهذه التجربة .

« ان هؤلاء السجناء الثلاثة موجودون حاليا فى غرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام فى سجن عكا . لقد حكمت باعدامهم محكمة عسكرية بريطانية ، وهم يواجهون خطر اعدامهم المحدق · وقد نود حكومة الاحتلال ان تستعجل تنفيذ اعدامهم لكى تحول دون مثولهم أمام اللجنة ، ومن ثم كان أمر استدعائهم للادلاء بشهادتهم لا يحتمل أى ابطاء .

« ونتقدم الى اللجنة باقتراح مطالبة حكومة الاحتلال البريطانية برفع التهديد بالقتل عن السجناء الثلاثة واحضارهم كشهود امام اللجنة لاقامة دعاوى سوء معاملة السجناء وقتل الجرحى ·

« وتنبغى الاشارة الى ان ذلك الاقتراح لا يقصد به ان يكون بديلاً لالتماسنا السابق الذى تقدمنا به الى اللجنة ــ فهو لا يزال قائما ــ لاتخاذ الاجراءات الضرورية لالغاء أحكام المحاكم العسكرية غير الشرعية .

المخلصون

ارجون تسفاى ليومى فى أرض اسرائيل »

الا أنه ما كان لنا أن نعتمد على اللجنة ، وبخاصة عندما رأينا كيف أن الحكومة البريطانية كانت مهتمة بتقديم البيان العملى على أن سلطانها فوق سلطان اللجنة ، وكيف أنها أغفلت قراراتها ، التى كانت ـ على حد ايضاح رئيسها القاضى « ساند ستروم » ـ مجرد توصيات غير ملزمة ، لذلك تابعنا جهودنا للقبض على البريطانيين · حاولنا العثور على ضباط · وكم من مرة ، فى القدس وفى « هرتسليا » ، كان على وشك الوقوع فى قبضتنا « اشخاص غاية فى الأهمية » ، الا أنه حال سبب أو آخر دون اتمام القبض عليهم · وكان فى « ناتانيا » فقط أن نجح رجالنا أخيرا فى القبض على عاملين فى خدمة المخابرات البريطانية ، الا أن رتبتهما لم تكن كبيرة ، فقد كانا برتبة « رقيب » ·

فرضت الحكومة الاحكام العرفية على ناتانيا فورا ، وأعلنت بكيفية جازمة أن لابد من العثور على الاسيرين ·تعاونت الهاجاناه فى بذل الجهود للعثور عليهما ، واستمر التفتيش من منزل الى منزل لعدة أسابيع وكان تفتيشا محكما شاملا ، الا أنه لم يكتب له النجاح ·

فى الثالث والعشرين من شهر يوليو سيق « حبيب » و « ناكار » و « فايس » الى المشنقة ·

أما كيف ذهبوا الى المشنقة فيصفه ، يوم ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٧ ، شاهد عيان هو « ناتان » الذى كان سجينا وقتئذ :

« ذهب هذا الصباح ثلاثة من رفاقنا الى المشنقة بصورة بطولية ، وكنا قد علمنا فى الليلة الماضية بما سيحدث فيما بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة صباحا · وبمجرد أن علمنا ، وقفنا وراء القضبان الحديدية ونحن لانستطيع التقاط انفاسنا ، ولاحول لنا ولاقوة ، نرقب ماذا كان يجرى حول غرفة سجنهم · كان الرائد تشارلتون قد غادر المكان عصرا ولم نره ثانية · وفى المساء وصلت جماعة من الجلادين من الشرطة والجيش فبدلت جميع حاجيات الرجال المحكوم عليهم بالاعدام بعد ان قامت بتفتيش دقيق ، ثم أخرجت عزيز مزراحى ·· وهو رجل رابع محكوم عليه بالأعدام ـ من غرفة سجنهم ، وبعد ذلك دخل عليهم بعض من الضباط البريطانيين وأبلغوهم بأنهم سوف يعدمون بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة صباحا ، فكانت اجابتهم أن اخذوا ينشدون بقوة أنشودة (هاتيكفاه) وانشودة (على المتاريس) وغيرهما ، ثم

صاحوا بنا قائلين ان الشنق سيبدأ فى الساعة الرابعة صباحا بهذا الترتيب : حببب ، ناكار ، فايس • ثم أردفوا قائلين : اثأروا لدمنا !

فرددنا عليهم القول صائحين : كونوا أقوياء فكلنا معكم ، آلاف الشباب اليهودى معكم عن طيب خاطر •

أجابوا : شكرا ••

ثم استمروا فى الغناء !

وفى الساعة الثانية صباحا جاء حاخام سفاردى لم نتميزه على البعد فبقى معهم فى غرفة سجنهم حوالى خمس عشرة دقيقة •

« وفى الساعة الرابعة صباحا بدأ ابشالوم يغنى (هاتيكفاه) ، وشاركناه فى الغناء بينما كنا ملتصقين بالقضبان الحديدية • وعلى الفور وصلت داورية مسلحة من داوريات الشرطة الى حاجز الزائرين القريب من غرفة سجننا ، وفى الساعة الرابعة وثلاث دقائق شنق ابشالوم • وفى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرين هزنا غناء مائير القوى . ومع أننا كنا نتنفس بصعوبة بالغة الا أننا اشتركنا معه فى الغناء • وفى الساعة الرابعة والدقيقة الثامنة والعشرين شنق مائير • وفى الساعه الخامسة كان صوت يعقوب وحده ينفذ الى غرفة سجننا ينشد (هاتيكفاه) فاشتركنا معه فى الغناء مرة أخرى ، وبعد دقيقتين شنق يعقوب • ظلت كل جثة معلقة لمدة عشرين دقيقة ، ثم أخرجت الجثث من غرفة السجن . كل على حدة •

« كان على رأس الجلادين هاكيت مأمور السجون والنقيب كلو مأمور سجن نابلس الذى شنق دوف ورفاقه • ومع طلوع الفجر ابلغنا ضابط السجن بمعرفة الضابط العربى أننا لن نكون مسئولين عن حياة أى انجليزى يأتى الى الفناء ، وأعلنا الصوم ثم قمنا للصلاة • ولما جاء الصبح وجدنا كتابة على حائط غرفة سجن المحكوم عليهم بالاعدام : (انهم لن يرهبوا الشباب العبرى فى أرض الوطن بالشنق ان الآلاف سيقتفون أثرنا) •

« كما ظهرت شارة ارجون والأسماء الثلاثة بترتيب اعدامهم ونرفق جانبا من مفكرات ابشالوم التى كتبت فى غرفة السجن ، وكان قد طلب منا فى بدء المحاكمة أن نستكملها ان هو لم يعش حتى يتمها ، وسوف يتحقق طلبه » •

في اليوم التالى شـنق البريطانيان • وهكذا عاملنـا العدو بنفس معاملته لقد حذرناه ثم حذرناه مرارا وتكرارا . فأغفل تحـذيرنا بصـلابة واجبرنا على أن نرد فعلا على المشنقة بالمشنقة •

الا أن الأيام كانت حالكة ، أشبه بليل عديم النجوم •

لماذا يقوم البريطانيون بتنفيذ أحكام الأعدام التى لامعنى لها رغما عن تحذيراتنا ورغما عن التماسات الآخرين ؟ لعل ايعاز تشرتشل لايزال يتردد فى اسماعهم بأن « يتصرفوا كرجـال » وأن « يسـلكوا سـبيل القانون » !

من المحقق ان السبب الأساسى لذلك كان سببا سياسيا ، فقد كان قرار الشنق والاستمرار فى الشنق ملازما لمخطط المشانق الذى أعدته الحكومة البريطانية •

كان مخططا رسميا وضع فى لندن ، فقد ظنت الحكومة البريطانية انها اذا حطمت العمود الفقرى لأسرى الحرب فانها بذلك تحطـم ظهـر المقاومة العبرية ، فكان الشنق الشنق ثم المزيد من الشنق ! الا أن المسألة كانت ـ كما وصفها « لينين » مرة ـ من يحطم من ؟ ليس من شك فى أنه لو أننا لم نثار لانفسنا لاقيمت صفوف ممتدة على الجانبين من المشانق فى فلسطين ، ولقامت سلطة أجنبية بالحكم فى بلدنا حتى يومنا هذا • ان أعمال الانتقام المخيفة التى فرضت علينا فى ناتانيا لم تنقذ عشرات الشبان اليهود من المشنقة فحسب ، ولكنها حطمت ظهر الحكم البريطانى •• وعندما تتكسر أعواد المشانق فلا مفر من أن يتحطم نظام الحكم القائم عليها •

وقد تأيد ذلك بالعبارة غير المبهمة التى أدلى بهـا العقيد « ارشـار كاست » كبير امعاونين السابق لرئيس سكرتارية الحكومة البريطانية فى أرض اسرائيل ، اذ قال فى محاضرة له بجمعية الامبراطـورية الملكيـة : « ان شـنق الرقيبين البريطانيين أدى أكثر من اى شىء آخـر الى اخراجنا » (١) •

عندما تصحو أمة من جـديد ، يكون أبناؤها مسـتعدين لتقديم أرواحهم من أجل تحريرها • وعندما تهدد الامبراطوريات بالانهيار فانها تكون مستعدة للتضحية بضباط صفها !

(١) مجلة الامبراطورية المتحدة . نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٩٤٩ •

الفصل الثانى والعشرون

مقابلات فى الخفاء

(١)

العزلة شرط لايمكن اجتنابه فى المقاومة · كان على طوال سنوات التمرد أن أحرم نفسى من لذة الأحاديث الودية واللقاءات مع الأصدقاء أو المعارف أو الأقرباء · ان قانون المقاومة يمنع اللقاءات « غير الضرورية »، وانما جاء الأشخاص القلائل الذين قابلتهم لغرض المناقشة فى عمل المنظمة أو فى علاقاتنا بالدول المختلفة او فى المسائل المتعلقة بنضالنا ·

كان أهم لقاءاتى السرية هو اللقاء مع ممثلى الأمم المتحدة ، ولم نتخذ نحن المبادأة بهذا اللقاء من ناحيتنا ، بل اتخذها أعضاء اللجنة أنفسهم ، الا أن المؤسسات اليهودية الرسمية تزعم ــ كما سبق أن ذكرت ــ أن كل شيء قمنا بعمله قبل وصول اللجنة مباشرة أو أثناء وجودها ، انما عمل لمجرد تسليط الأضواء علينا واجبار اللجنة على الالتقاء بنا والتفاوض معنا · وقد زعمت هذه المؤسسات هذا الزعم أيضا فيما يتعلق بالعملية التى وضعنا خطتها ضد « سيتروس هاوس » · ومن ثم يصبح من المرغوب فيه أن نقص قصة ذلك النفق الشهير على حقيقتها ·

يقع « سيتروس هاوس » فى « منطقة الأمن » البريطانية فى تل أبيب · وكان يؤوى الشرطة العسكرية ومقر الرئاسة المدنى لجميع المناطق التى تتوسطها المدينة · وسيتروس هاوس ــ مثل جميع المنشآت التى على شاكلته ــ صار ابان التمرد قلعة حصينة تحرسها

أوكار الرشاشات وتحيط بها الأسلاك الشائكه ، تلقى الرعب فى قلوب السكان • وكم من المارة الأبرياء تعرضوا للرصاص الذى كان يطلق من هذه القلعة من غير ما اكتراث •

تقوم فى مواجهة سيتروس هاوس دار صغيرة بها قبو يصلح لأن يكون مخزنا • دفى يوم من أيام صيف سنة ١٩٤٧ زار واحد من التجار الوجهاء ذوى اليسار صاحب تلك الدار وعرض عليه أن يستأجر القبو لتخزين البطاطس وتعبئتها • واستحوذ التاجر الأشيب الأصلع على ثقة مالك الدار باعتباره مستأجرا نزيها مرغوبا فيه ، وأمضى عقد الايجار • ووصل التاجر ومعه عـربات محملة • لم يبذل الحمالون . الذين كانوا يقومون بحمل أول دفعة من أكياس البطاطس . العنـاية الواجبـــة فى عملهم فتبعثرت البطاطس فى الشارع • انتهر التاجر ــ الذى لم يكن فى الحقيقة سوى « اليكس » عضو منظمة ارجون ــ الحمالين وقام بتأنيبهم على ما بدر منهم من اهمال ، وان كان قد وافق ــ عن طيب خاطر ــ على السماح لبعض الجيران بالتقاط البطاطس والاحتفاظ بهـا لأنفســهم • نقلت محتويات الأكياس الباقية سليمة الى داخل المنزل •

بدأ العمل فى القبو • ملئت الغرارات (الزكائب) ثم حملت على العربات • ازدهرت تجارة البطاطس بصورة تدعو الى الفخر والمباهاة • كانت الغرارات التى تحمل خارجة من الدار تحتوى على التراب المستخرج من تحت أرضـية القبو حيث بدأ الحمالون فى حفـر نفق الى سيتروس هاوس • استمرت عملية الحفر طبقا لخطة محكمة تحت حس ونظر حراس سيتروس هاوس • كان الحفر بطيئا ولكنه كان يمضى أكيدا ، ولم تمض أيام كثيرة قبل أن يصل عمال الحفر الى نقطة تحت منتصف الشارع ، وما هى الا أيام قلائل أخرى حتى يصلوا الى هدفهم •

ماذا كان الهدف ؟ أفاد مراسلو الصحف الأجنبية فيما بعد بأننا كنا بصدد تنفيذ خطة لنسف قلعة الحكومة للانتقام اذا ما شنق حبيب و ناكار و فايس • وكان هناك جانب من الصحة فى هذا الافتراض ، الا أنه ــ كما سبق أن أكدت ــ لم تكن سياستنا الحربية العامة سياسة انتقام . أما من حيث الشنق فاننا كنـا قد عقـدنا العزم منذ البداية على تطبيق قانون الأخذ بالثأر تطبيقا تاما ودقيقا •

كانت لخطة سيتروس هاوس تضمينات بعيدة الأثر ، وقد وضعت الخطة بصورة مفصلة لدرجة عظيمة • اقترحنا أن ندخل فى النفق ــ الذى

كان مصمما بحيث يمتد الى أساسات القلعه ـ كمية من المواد الناسفة مزودة بجهاز زمنى يفجرها بعد ثمان وأربعين أو اثنين وسبعين ساعة ، على أن يقفل النفق بعدئذ بحيث لايهتدى أحد الى اكتشاف مدخله ٠ وكان علينا أن نحذر القاطنين فى المنطقة المجاورة ، فى الوقت الملائم ، ليغادروا منازلهم لفترة قصيرة ٠ أما عن المبانى المجاورة فان الشحنة الناسفة التى اقترحنا استخدامها لم تكن لتحدث بها أضرارا أكثر من تحطيم بعض نوافذها ٠

كان فى حكم المقرر أن ننشر رسالة خاصة الى السلطات قبل الموعد المحدد للانفجار بثمان وأربعين ساعة ، نبلغها فيها بأنه فى تلك الساعة من ذلك اليوم سننسف كل « مناطق الأمن » التابعة لها ، ونخطرها باخلائها دون ابطاء ٠

سيكون لسلطة الانتداب أن تختار بين الامتثال لتحذيرنا أو اغفاله ، وعليها تقع مسئولية القرار الذى ستتخذه ٠ وقد حدت بنا خبرتنا الى التكهن بأنها سوف تستجيب الى التحذير ٠ فى تلك الأيام كانت مبانى ومكاتب نظام حكم الاحتلال تخلى على عجل لمجرد أن يمزح شخص بالتليفون فيقول : « هناك قنابل فى عمارتكم » ، وكان كثير من المكاتب الحكومية والعسكرية مزودا بسلالم اضافية قائمة فى أماكن ملائمة لتسهيل عملية اخلاء الطوابق العليا ، فقد كان لدرس « فندق الملك داود » أثره ٠ يضاف الى ذلك أن التحذير فى هذه المرة سوف ينشر باسمنا تحت شعارنا الرسمى ، وكانت السلطات البريطانية تعلم أن الارجون لاتقدم انذارات فارغة ٠

حقيقة ، انه بانتهاء مهلة الثمانى والاربعين ساعة ستنسف « منطقة أمن » واحدة ، هى تلك الموجودة فى تل أبيب ، الا أنه لم يكن هناك من شك فى أن السلطات لن تعود الى أى من مناطقها خشية أن تحدث انفجارات أخرى فى أماكن أخرى ٠ ولذا كانت خطة « سيتروس هاوس » موضوعة بهذه الطريقة لتتسبب فى زلزال حقيقى تحت أساسات نظام الحكم الذى لن يكون قادرا على أن يعرف من أين تقع الضربة التالية ٠

كان ذلك ـ ولا أقل من ذلك ـ هو مجال عملية « سيتروس هاوس » التى أفلحت الهاجاناه فى احباطها بعد أن أبلغها واحد من عملاء مخابراتها فى المنطقة المجاورة بوجود نشاط ليس له ما يبرره فى قبو تاجر

البطاطس . وفي ذات ليلة عندما غادر رجالنا الدار ، جاءت جماعة من الهاجاناه وقفلت النفق .

ان نظرة الى الوراء توضح أنه لم يكن هنـاك سبب كبير للأسف على عدم نسف « سيتروس هاوس » ، فان هذا المبنى الجميل يخـدم دولة اسرائيل الآن ، فقد ارتحل نظام الحكم البريطانى عن بلدنا وانتهى حكمهم نتيجة لسلسلة ممتدة من عمليات أخرى . الا أن هناك عديدا من الأسباب التى تدعو الى الحزن على فقد عضو الهاجاناه الشاب الذى قتل فى النفق الملغم ، لأن رؤساءه وقد أفزعهم الكابوس صمموا على أن يحولوا دون توجيـه ضربة كان من المحتمل أن تـكون حاسـمة ، مهما كلفهم ذلك الأمر .

ان دعوى المؤسسات اليهودية الرسـمية بأن هذه العملية لم تكن تستهدف البريطانيين ، بل انهـا كانت مدبرة بحيث تشـد انتباه لجنة الأمم المتحدة الينا ، تبدو أكثر غـرابة فى ضوء ما قالته هذه المؤسسات نفسها عنا للجنة ، فلقد صورتنا وكأننا أى شىء الا أن نكون عاملا حاسما فى الموقف الذى نشأ فى الاقليم . وقد نشر الدكتور «جارسيا جرانادوس» فى مذكراته ، المحضر السرى الكامل لاجتماع تم ، بناء على طلب الهاجاناه ، بين القاضى « ساندستروم » رئيس اللجنة وبين وفد مكون من خمسة أعضاء من الهاجاناه سأل ساندستروم فى ختام الاجتماع : « هل لديكم ماتضيفونه » .

وكانت اجابة المتحدث باسم الهاجاناه : « ان الارهاب شىء جـد خطير ولا يمكن استئصاله بمعرفة الحكومة البريطانية . ان أوجه النشاط الارهابى دليل على أن اليهود يجدون متنفسا لمشاعرهم القوية . وتعتقد الهاجاناه أنها قادرة على أن تجابه النشاط الارهابى اذا ما سـمح باطلاق حرية الهجرة اليهودية والاستعمار اليهودى فى فلسـطين . ان احساس يهود فلسطين هو أن هذا هو الوقت الذى ينبغى أن يتقـرر فيـه مصير فلسطين » .

الا أن الزعم الأحمق بأن ارجون ، التى عمت شهرتها أركان الدنيا الأربعـة . كانت تحـاول من وراء عملية « سيتروس هاوس » أن تثبت وجودها ، تنقضـا نقضـا قاطعا الاشـارة الى تواريخ العملية ومواقيتها فلقد وضعت خطة « سيتروس هاوس » قبـل مجىء اللجنـة الى أرض اسرائيـل بوقت طويـل ، بينما تم الاجتماع بين ممثلى اللجنة وارجون

تسفاى ليومى يوم ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٧ أى بعد وصول اللجنة الى أرض اسرائيل بثمانية أيام فقط ٠

كان الوسيط هو « كارتر ديفيدسون » رئيس مراسلى « الأسوشيتيدبرس » . وهو رجل صغير السن جم النشاط ، لم يبد تحيزا نحو السلطات البريطانية ، ولست ادرى ما اذا كان يحب اليهود . الا اننى أبلغت ، فيما بعد ، أثناء الحرب مع العرب ، بأنه لم يبد تعاطفا ظاهرا نحو اليهود ٠ وعلى اية حال فقد لاحظنا ، فى ذلك الوقت ، أن الصحافة الأمريكية كلها حادت عن طريقها لتؤكد قوة العرب وانتصاراتهم ، ولتسرف فى تمثيل الهزائم اليهودية ، حقيقية كانت أو خيالية ، ومهما كان من أمر فقد حدث فى فترة التمرد أن أولى « كارتر ديفيدسون » مزيدا من الاهتمام بعمليات ارجون ، وتميزت تقاريره عنها بالفطنة والفهم ٠ وقد طلب منا غير مرة أن نسمح له بمشاهدة واحدة من عملياتنا فوعدناه بذلك ، بل لقد عزمنا فى مرحلة من المراحل على دعوته لحضور الهجوم على قلعة عكا ، الا أننا اذ أعدنا النظر فى ذلك الأمر أخبره « فريد » (وهو الاسم الذى كان يطلقه ديفيد سون على « يوائيل ») بأننا لن نأخذه معنا الى أية عملية حربية مالم تبد زوجته موافقتها على ذلك ، فاحتج ديفيد سون على ذلك ، ولكننا تمسكنا بقرارنا ، وعوضا عن دعوته ليشهد عملية حربية رحبنا بخدماته فى عملية ديبلوماسية : اللقاء مع القاضى « ساندسترو م » ٠

أبلغنا القاضى « ساندستروم » رئيس لجنة الأمم المتحدة انه سيصطحب الدكتور « فيكتور هو » مساعد سكرتير عام الأمم المتحدة ورئيس سكرتارية اللجنة فوافقنا على الفور، وفى آخر لحظة سأل ديفيدسون ـ نيابة عن ساندستروم ، عما اذا كنا نوافق على حضور الدكتور « رالف بانش » سكرتير مجلس وصاية منظمة الأمم المتحدة والساعد الأيمن للدكتور « هو » فى اللجنة ، فوافقنا على ذلك أيضا ٠ ومن ناحيتنا، طلبنا أن يدعى المستر « ليسيكى » العضو التشيكى فى اللجنة للحضور فوافق القاضى ساندستروم ، الا أنه ـ كما أوضح لنا فيما بعد ـ لم يتمكن من الاتصال بالمستر « ليسيكى » فى الوقت المناسب ، وقال لنا انه كان من الصعوبة بمكان أن يفعل ذلك ، خاصة وأنه كان عليه هو ورفاقه أن « يفلتوا » من جماعتهم لكى يصلوا الينا سرا ٠

تم اللقاء فى منزل الشاعر الدكتور « يعقوب كوهين » ، وقد احضر

« يوثيل » الضيوف وكان في صحبتهم ديفيد سون بناء على اتفاق الجانبين • والعادة أننا نتحاشى الترتيبات المظهرية المعقدة كلما استقدمنا أحداً للالتقاء بنا في المقاومة وكان ضيوفنا على اختلافهم يدهشون لبساطة الاسلوب الذى كنا نتبعه • الا أنه فى هذه الحالة بالذات كان علينا أن نتخذ احتياطات غير عادية ، فقد كان أعضاء اللجنة محاطين بعملاء الحكومة البريطانية الذين يقومون ، صوريا ، بحراستهم • بذلت السلطات كل ما فى وسعها لكى توجد انطباعا عنا بأننا « ارهابيون مريعون » • وبأن حياة أعضاء اللجنة وكان من بينهم عدة أصدقاء لشعبنا ، يخشى عليها من خطرنا • والواقع أن عملاء الأمن البريطانى كانوا مهتمين بجعل المحققين الأجانب تحت رقابتهم • أحضر « يوثيل » ومساعده ضيوفنا عبر شوارع تل أبيب فى سيارة ، بينما كانت تسير خلفها سيارة أخرى لتتأكد من أنهم كانوا غير متابعين • وامعانا فى اجراءات الأمن كان على يوثيل ومساعده أن يغيرا السيارتين فى الطريق •

فى منزل يعقوب كوهين كنا ــ أبراهام وصمويل وأنا ــ فى استقبال الضيوف ، وقد قدمت اليهم نفسى باسمى الحقيقى • أجلسنا القاضى « ساندستروم » على رأس المائدة • بدا واضحا ان ضيوفنا كانوا قد أعدوا أنفسهم لهذا الاجتماع • وكان رئيس اللجنة قد وضع الأسئلة الافتتاحية كتابة ، وكانت هذه الأسئلة عبارة عن الأسئلة التى يضعها المرء عادة للشهود فى التحقيق • كان هناك جانب من المرح عندما سألنى عما اذا كنت أحمل رتبة « جنرال » ، وكان على أن أوضح أننى لا أحمل أية رتبة رسمية على الاطلاق •

كان كل من الرجال الثلاثة الجالسين فى مواجهتنا من طراز مختلف عن الآخرين فأحدهم قاض سويدى ، والثانى ديبلوماسى صينى ، والثالث رجل دولة أمريكى زنجى ، وكانوا ثلاثتهم شخصيات جذابة • كنا قد حصلنا على معلومات عن ساندستروم ، وكان من شأن هذه المعلومات ألا توحى الينا بالثقة فى دوافعه ، فقد كان لسنوات عديدة رئيسا للمحاكم المختلطة فى مصر ، وقيل انه كان متأثرا بالحكومة البريطانية • ومع هذا فان هذه الحقائق ــ كما تبيناها فى أول الأمر ــ لم تؤكد مخاوفنا • لم يبد ساندستروم أى حماس خاص نحو قضيتنا ، فهو انسان غير عاطفى ، الا أنه لم يكشف عن أى تحيز ضدنا على السواء • وقيل ان الدكتور « هو » ــ وكان أبوه سفيرا للصين فى موسكو ــ رجل ذو مقدرة خارقة • ومع أنه لم يكن عضوا فى اللجنة التى عين فيها عن طريق

سكرتارية الأمم المتحدة ، الا أنه كان بمثابة الروح الموجهة للجنة • أما الدكتور بانش فقد اكتسب شهرة ذائعة فيما بعد كوسيط بالنيابة عن منظمة الأمم المتحدة ، وهو ـ من غير شك ـ ذو عقل راجح •

استمرت المحادثات بين الرجال الستة أكثر من ثلاث ساعات فى اللقاء الأول بين المتحدثين باسم المقاومة وبين ممثلى المنظمة الدولية • كانت هناك لحظات من الأحاسيس العميقة ، كما كانت هناك ، بطبيعة الحال ، لحظات من الضحك والمزاح • وبينما كنت أتكلم عن الحقوق التاريخية لشعبنا فى أرض فلسطين تذكرت ، غير طائع ، محادثة أخرى كانت قد جرت فى لوكيشكى فأثر ذلك فى نفسى تأثيرا عميقا • هكذا مرت سنوات قلائل وهانحن قد وصلنا الى هذه المرحلة المتقدمة من مراحل كفاحنا • واظن أننى رفعت صوتى عندما تناولت مسألة معاملة الحكومة البريطانية لأسرى ارجون ـ معاملتها لآرشر تراتز ، ومعاملتها لجرونر ورفاقه ، ومعاملتها للثلاثة الذين كانوا ينتظرون فى هذه اللحظات تحت ظل المشنقة • ومامن شك فى أن ضيوفنا ابدوا تعاطفا نحو مشاعرنا ، الا أن القاضى ساندستروم كان قلقا الى حد ما ، بل لقد عبر عن مخاوفه من أن يكون صوتنا مسموعا خارج المنزل ، فاعتذرت له وطمانته ، ولعله أن يكون قد استنتج أن المنزل كان محوطا بجموع من رجال ارجون المسلحين ، والحقيقة انه لم يكن هناك أى شخص خارج المنزل سوى قلائل من الصبية والبنات ، غير المسلحين بطبيعة الحال •

ومن ناحيتنا نحن فقد فهمنا مشاعر ضيوفنا ، اذ كان هذا أول لقاء لهم مع « الارهابيين » • وكم من قصة مروعة سمعوها عنا ! ومع هذا فاننا لو وقعنا فى الأسر اثناء مناقشتنا فلن يكون لنا أن نخشى شيئا البتة لأننا سنؤخذ ونحن مجتمعون مع ممثلى لجنة منظمة الأمم المتحدة . اما هم فلن يقبض عليهم معنا •

فى مرات عديدة كان « ساندستروم » يوجه « أسئلة رائدة » مثل : « ماذا يحدث لو أن العرب هاجموكم بعد انسحاب البريطانيين من الاقليم ؟ ولقد كنت أعلم أن وقوع حرب عربية يهودية هو موضوع المجادلة الرئيسى الذى كانت تستخدمه الحكومة البريطانية دائما ضد أى اقتراح باجلائهم عن الاقليم ، فأشرت الى أن العرب لن يهاجمونا ما لم يشجعهم ويعاونهم على ذلك طرف ثالث ، ولكننى أكدت أننى كنت مقتنعا أنهم لو هاجمونا فاننا سوف نضربهم ـ ذلك لأن نتيجة الحرب

الحديثة لاتقررها الكثرة العددية وانما يقررها العقل والروح القتالية ٠ ولم أكن فى حاجة الى أن أسهب فى الحديث عن العقل ، وأما عن الروح القتالية فقد قلت : « لقد سمعتم عن مهاجمى قلعة عكا ، وسمعتم عن الرجال الذين ذهبوا الى المشانق ، ولى أمل أن تروا الرجال المحكوم عليهم الآن بالاعدام وأن تتحدثوا اليهم » ٠

سأل ساندستروم : « هل كان دوف جرونر ضابطـــا كبيرا فى ارجون ؟ » ٠

قلت : « كلا ، لقد كان دوف جرونر جنديا عاديا » ، فلم يستطع القاضى العجوز أن يخفى دهشته ٠

أثناء المناقشة سأل الدكتور « هو » : « بفرض أنكم ستحصلون على فلسطين على جانبى نهر الأردن كدولة يهودية ، وأنكم سوف تستقدمون عدة ملايين من الناس ، فماذا أنتم فاعلون فى مشكلة تزايد السكان . ان الاقليم صغير نماذا عسى أن يحدث بعد ثلثمائة سنة ؟ » ٠

لقد كنت أوجه نفس هذا السؤال الذى سأله « هو » لكى أبرز حمق مشروع اقامة دولة يهـــودية صغيرة فى جزء من الاقليـــم ، الا ان « هو » حصل على الاجابة الرئيسية من « صمويل كاتس » الذى قال له : ان هذه مشكلة عالمية ، فماذا تظن أنت فيما عسى أن يحدث فى الصين بعد ثلثمائة سنة » ؟ ، فغير الدكتور « هو » مجرى المناقشة ٠

وكان الدكتور بانش يدون الملاحظات طوال الاجتماع الطويل وكان يكتبها كتابة عادية ، أى أنه لم يكن يستعمل أسلوب الاختزال ، الا أنه كان يكتب بسرعة مدهشة ، وبينما كان يكتب كان يضع أسئلة سديدة يهمس بها من وقت لآخر الى ساندستروم ٠ وعندما أبدى « هو » ، الذى كان رئيسه بصفة رسمية ، اقتراحا حول طريقة تدوين الملاحظات ، رد عليه بانش من فوره : « ان لى طريقتى الخاصة ! » ٠

ولقد عجبت ما اذا كانت هذه الاجــابة تشـير فقط الى الدكتــور « هو » أو الى وزارة الخارجيــة الأمريكيــة أيضا ٠ كان على أن أعبر عن شكرى للدكتور بانش على انهماكه ومثابرته فى اعداد تقرير عن الاجتماع بين ممثلى لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين وبين قائد وممثلى ارجون تسفاى ليومى ـ ذلك التقرير الذى بعث به الينــا بعــد ثلاثة أيام لكى نصدق عليه ٠

سجل الدكتور بانش فى هذا التقرير ، بكل أمانة ، الكثير من الأسئلة التى وجهت الينا وتفسيرنا لخلفية كفاحنا وأهدافه ووجهات نظر ارجون بشأن مستقبل أرض اسرائيل ٠

وكان نص الجزء الأخير من هذا التقرير كما يلى :

« سئل قائد ارجون عما اذا كان يوضح أسباب مقاومة البريطانيين بالأساليب التى تستخدمها ارجون . وهل كان ذلك لاجبارهم على سحب قواتهم أو لاطلاق سراح السجناء اليهود أو لأية أغراض أخرى ؟ ، فأجاب بأن ما تستطيع ارجون أن تحصل عليه ما هو الا أعمال تتناسب مع حجم القوات . وقال : (ان لدى البريطانيين أكثر مما لدينا ، ولكنهم يدركون أنه لايمكن تحطيمنا بسهولة ٠ ان ما نريد أن نحققه هو جلاء البريطانيين، وازالة الحكم البريطانى ، واقامة حكومة مؤقتة ، وخلق دولة يهودية)، ثم قال ان البريطانيين سبق أن أعلنوا على الملأ أنهم ليسوا هنا لحماية اليهود من العرب ، الا أن الجنرال دى ٠ آر ٠ سى قال للجنة الانجليزيه الأمريكية انه لو ان البريطانيين غادروا الاقليم فان اليهود سوف يسيطرون عليه فى أربع وعشرين ساعة ــ وهكذا أوعز بأن البريطانيين يجب عليهم البقاء لكى يحموا العرب من اليهود ٠ « واستجابة للتصريح ، سأل القائد السؤال التالى : (كيف نستطيع أن نقف فى وجه الأعداد الكبيرة من رجال الشرطة والجيش البريطانى ما لم نكن متمتعين بتأييد الشعب اليهودى ؟ اننا مقتنعون بأنه يجب علينا أن نحارب والا هلك اليهود ٠ اننا لسنا محاربين محترفين ، ولانستسيغ أن نطلق الرصاص على أحد . كما لايسرنا أن يطلق أحد الرصاص علينا ٠ ولتذكروا أننا فقدنا ستة ملايين من الأنفس ، ومن ثم فان كل نفس يهودية غالية لدينا ، ولكننا نحارب فى سبيل هدف ! لتجنب الاستعباد والفناء) ٠

« أشار القائد الى أن قتال منظمته كان سببا فى متاعب لحقت باليهود ــ حظر التجول ، والقيود ، والانتقام ٠٠ الخ ٠ الا أن المعاناة كما يعرفها جميع الناس الذين حاربوا هى جزء لايتجزأ من الكفاح من أجل الاستقلال ، ثم أضاف : (اننا لسنا مجرد فئة من المتعصبين ٠ ان انا كياننا ، واننا نزداد قوة حتى ولو جلبنا المتاعب للشعب اليهودى) ٠

« لم يكن هناك شك فى أن أغلبية اليهود الساحقة كانت فى صف الكفاح ، وكلما وجدوا فرصة لاظهار تاييدهم ــ مما لم يكن ممكنا على الدوام ــ فعلوا ذلك ٠ وعلى سبيل المثال ، أشار القائد الى أنه عندما

انضمت الهاجاناه الى الكفاح لفترة وجيزة استغل اليهود الفرصة للترحيب بالكفاح ٠

« أثار القائد نقطة قانونية فقال انه حتى تحت سلطة الانتداب لايحق لمحكمة عسكرية بريطانية أن توجد فى فلسطين ، وقال ان الانتداب فرق بين القوات التى تشكل فى فلسطين وبين القوات البريطانية فاعتبر الثانية قوات أجنبية ، ويتبع ذلك أن المحكمة العسكرية البريطانية لايحق لها أن تقوم هنا حتى على أساس الانتداب ٠ وقد أكد أن هذه النقطة لاتؤثر على الكفاح الذى سيستمر على أية حال ، الا أنها قد تهم اللجنة ٠

« وقال القائد ان أعضاء ارجون يعتبرون أنفسهم محاربين شرعيين منهمكين فى قتال مشروع ، وانهم يعتبرون وجود البريطانيين هنا وجودا غير شرعى ٠ كما قال ان ارجون فقدت كثيرا من رجالها بين قتيل وجريح وانها تسلم بذلك كنتيجة لامفر منها فى عملياتها ٠ وقال ان البريطانيين أعدموا أربعة من الأعضاء ، ومع هذا لم توقف ارجون نشاطها نتيجة لذلك ، بل انها زادت منه وأوقعت بالعدو خسائر جسيمة وان كان لم يدفع الثمن بعد ٠ وذكر أن حادث حصن عكا قد وقع بعد تنفيذ أحكام الاعدام ، ثم قال ان عملية عكا هذه لاتعد انتصارا يسيرا ، وسيستمر القتال ٠ ان اقتراح البريطانيين بأنهم قد يبدون الاستعداد لأن يتنازلوا عن اعدام أعضاء ارجون اذا ما أوقفت أرجون القتال ما هو الا ابتزاز سخيف ٠

« وقال القائد : (اذهبوا الى عكا واسألوا الأعضاء الثلاثة المحكوم عليهم بالاعدام عما اذا كانوا على استعداد لانقاذ حياتهم فى مقابل ايقاف كفاحنا ٠ لقد أرسلوا لى خطابات ، تماما كما فعل دوف جرونر ، ولكنهم يقولون : استمروا فى القتال مهما حدث !) ٠ وأضاف : (اننا جميعا مستعدون لتقديم أرواحنا) ، ثم قال : (وما من عضو فى ارجون يطلب الرحمة) ٠

« سئل القائد عن وجهة نظر ارجون ازاء نداء الجمعية العمومية للأمم المتحدة بمراعاة الهدنة أثناء فترة تحقيق لجنة الأمم المتحدة ٠ فأجاب بأنه فيما يتعلق بهذا النداء فقد أرسلت ارجون الى اللجنة وثيقة مسببة ، وأوضحت علانية أنها مستعدة لايقاف العمليات أثناء هذه

الفترة ، على شرط أن توقف بريطانيا أعمال القمع أثناء هذه الفترة كذلك٠ ولايضاح ذلك استرعى القائد انتباهنا الى استخدام بريطانيا القوات الجوية والبحرية فى التعرض للسفن التى تحمل اليهود الراغبين فى الهجرة الى فلسطين ، والى اصدار أحكام الاعدام ، والى تفتيش المنازل ، والى فرض حظر التجول ، وقال ان هذه هى أعمال القمع التى يجب على بريطانيا أن توقفها حتى توافق ارجون على الهدنة ٠ وأعلن القائد أن ايقاف العمل من جانب واحد أمر مستحيل ٠

« أعرب القائد عن الأمل فى أن تذهب اللجنة الى أوروبا لترى اليهود فى معسكرات الاعتقال حيث ظلوا بها نحو سبع أو ثمانى سنوات ــ أولا أيام ألمانيا النازية والآن فى ((معسكرات التحرير) ، ثم أضاف أن المعسكرات فى أوروبا ليست هى المشكلة بحذافيرها وانما هى مجرد جزء منها فقط ، ولكنها تعكس المشكلة فى صورتها المروعة ٠

« أبدى القائد مخاوفه من ان الجمعية العامة للامم المتحدة سوف لا يكون لديها الوقت الكافى فى شهر سبتمبر لتناول هذه المشكلة ، وقد يدعو الأمر الى تعيين لجنة ثانية توفد الى فلسطين مرة أخرى ، وانه خلال هذا الوقت سيبقى الرجال والنساء والأطفال فى حالة من الوهن والذبول بمعسكرات الاعتقال فى أوروبا ٠

« وذكر القائد صراحة انه اذا أعدم البريطانيون رجال أرجون فان أرجون سوف تعدم الرجال البريطانيين شنقا كذلك ٠ وقال ان رجال أرجون محاربون حقيقيون ثم ان أرجون مقتنعة تماما بأنها لا تحارب من أجل استقلال فلسطين فحسب ، بل ومن أجل حقوق الانسان الحر ٠

« وأجاب القائد ــ ردا على سؤال عما اذا كانت اللجنة الانجليزية الأمريكية لم تجر أى اتصال مع أرجون ــ فقال ان أرجون أرسلت مفكرة الى أعضاء اللجنة الأمريكيين ، ولكنها لم ترسم هذه المفكرة الى الأعضاء البريطانيين ، وأضاف أن بعضا من الأعضاء الأمريكيين فى اللجنة الأنجلو أمريكية حاولوا بصفة شخصية أن يتصلوا بأرجون الا أن ذلك لم يكن مستطاعا فى ذلك الوقت لأسباب متعلقة بالأمن ٠

« شرح القائد ان جماعة شتيرن انبثقت أصلا من منظمة أرجون ، وذكر أن أعضاءها محاربون كذلك ، وانها ظهرت كجماعة مستقلة فى سنة ١٩٤٠ نتيجة لانشقاق ارجون لأسباب متنوعة ٠ ثم قال ان الاعتقاد الذى كان سائدا حينئذ عن سبب الانشقاق هو ان ابراهام شتيرن ، الذى

كان عضوا فى قيادة أرجون العليا وقتئذ ، عارض فكرة اعلان هدنة ابان الحرب ضد هتلر ، وذلك غير حقيقى ، اذ ان شتيرن كان قد وافق على تلك الهدنة ــ شأنه شأن بقية أعضاء قيادة أرجون ــ وانما حدث الانشقاق بعد انقضاء عام كامل من ذلك الوقت • وقال ان العلاقات بين الجماعتين طيبة الآن ، كما قال ان أرجون أكبر ولكنه لم يقل انها أفضل •

« واجابة على سؤال عما عسى أن يكون الأثر على شباب المستقبل اليهود من جراء تنشئتهم على عدم احترام القانون ، قال القائد ان أعضاء أرجون يتدربون على معارضة ما تسميه الحكومة البريطانية قانونا لأنه قانون احتلال وقمع ، الا أنه يرى ان التوافق مع دولة يهودية لن يكون معضلا بالنسبة لهم ، وقال انه ربما كان ذلك سببا فى مشكلة ، الا أنها مشكلة صغرى فى الدولة اليهودية حيث يكون هناك الكثير من العمـل البناء الذى ينتظر الشباب ويستغرقهم •

« وسأل القائد عما اذا كان هناك احتمال لأن تتخذ اللجنة رأيا ايجابيا ازاء طلب أرجون فى الخطاب الذى أرسلته الى اللجنة باستدعاء بعض رجال أرجون المسجونين فى عكا للادلاء بشهادتهم ، فأجاب المستر ساندستروم بصراحة : (ان ذلك احتمال ضئيل ، فلقد عملنا كل ما يمكن عمله ، ونستطيع أن نسأل : لماذا كان هؤلاء الرجال الثلاثة هم أصلح الرجال لتقديم الدليل على الهول فى المعسكرات ؟) •

« قال القائد ان الاجابة على هذا السؤال الأخير هى أن هؤلاء الرجال وقفوا أمام محكمة عسكرية ، وانهم أنفسهم تعرضوا لسوء المعاملة وشهدوا سوء معاملة اخوتهم وزملائهم • وأضاف أن اللجنة كانت مضطرة الى النظر فيها اذ أنهـا موكلة بالنظر فى كل مشاكل فلسطين • والحقيقة أن حكومة الانتداب تعامل المساجين بوحشية • وتستطيع الارجون أن تحضر شهودا بخـلاف هؤلاء الثلاثة اذا ما اتسـع وقت اللجنة لسـماعهم • ان الارجون تتهم الحكومة البريطانية بسوء معاملة المساجين •

ولاحظ المستر ساندستروم أن المسألة تتبلور فى توفر الشهود عن سوء المعاملة ، الأمر الذى اعترض عليه القائـد متعللا بأن هؤلاء الثلاثة يشكلون حالة خاصة ، فهم يتحدثون عن رجال قتلوا وجرحوا بعد القبض عليهم اثر هروبهم من سجن عكا ، كمـا تحـدثوا عن مصابين قتلوا وهم منطرحون أرضـا وآخرين ماتوا لعـدم حصولهـم على المعالجة الطبية الضرورية •• أو حتى الماء •

وأجاب القائد بأنه غير واثق من جدوى تدخل اللجنة •

وفى نهاية الاجتماع ذكر رئيس اللجنة النقاط التى أمكن الاتفاق عليها ، وأن أكد بأن الاجتماع سوف يبقى طى الكتمان ٠

وأجاب القائد بأن الارجون التزم دائما بالسرية وبحفظ العهود ٠٠ سل البريطانيين وسوف يؤكدون لك ذلك ٠ ووافق رئيس اللجنة على ألا يكشف عن الاتفاق الذى تحقق الا فى الوقت المناسب ٠

ولم يتضمن تقرير المستر بانش الخاتمة غير الرسمية عن الاجتماع ٠ وقال الدكتور ساندستروم انه يأسف لأن أعضاء اللجنة الآخرين لم يستمعوا الى القائد ، كما وعد بأن يخطرهم بمضمون التقرير وان كان هناك فرق كبير بين أن تسمع وأن ترى بنفسك ٠

وتركنا الدكتور « هو » قائلا : الى لقاء قادم فى فلسطين المحررة ٠

ولكن الدكتور بانش كان أكثرهم حرارة ٠ فبعد أن صافحنى قال ٠٠٠ اننى أفهمك ، فأنا أيضا من أقلية مطحونة ٠

ولم يكن أحد فى سعادة كارتر دافيد سون مندوب الاسوشيتدبرس اذ نجح فى الحصول على سبق صحفى عن هذه المقابلة السرية بين الارجون ومندوب الامم المتحدة ٠ ولم يكن هو الصحفى الوحيد الذى علم بهذه المقابلة السرية ، بل كان أيضا أحد شهودها ٠

ولكن أحد سكرتيرى الاجتماع أفسد عليه سبقه الصحفى العظيم ، اذ نقل خبر المقابلة الى شخص آخر ، أثناء جلوسه فى مقهى بيلز٠٠واسترق بعض الصحفيين السمع وطيروا البرقيات المثيرة للعواطف على الفور ٠ وبدلا من أن ينال مراسل الأسوشيتدبرس المديح الذى كان حريا بأن يناله لو أنه استغل سبقه الصحفى ، تلقى تحريا مستغربا من رئاسة صحيفته ٠

سارع ديفيدسون الى ساندستروم وطالبه بأن يأذن له فى ارسال تقرير كامل لصحيفته ، الا أن « ساندستروم » اتخذ قرارا بنشر تكذيب للقصة من أولها الى آخرها ، وكانت لديه مبرراته ، وانى لعلى يقين بأن مبرراته هذه كانت نبيلة ، فقد كان على ساندستروم أن يداوم الاتصال بكثير من الموظفين البريطانيين طالما بقى فى أرض اسرائيل ، ثم انه قطع وعدا بأنه لن يميط اللثام لأى انسان عن اى وصف لى أو لرفاقى ، فلقد رأى اننا أوليناه ثقتنا كاملة ٠ أخبرته باسمى الحقيقى ، وبالتالى لم يشأ أن يوضع فى مركز حرج بتأكيده ــ حتى ولو كان ذلك التأكيد بالصمت ــ انه قد عقد اجتماع بيننا ، فان البريطانيين فى هذه الحالة كانوا لابد

ان يسألوه عني : « كيف يبدو ؟ هل تستطيع أن تميز آثار عمليـــات تجميل ؟ ما لون شعره الآن ؟ أي رباط رقبة يلبس ؟ » • وانى موقن ان ساندستروم ما كان ليجيب على هذه الأسئلة ولكنه كان يفضل أن يتحنب توجيهها اليه ـ وفى اليوم التالى أصدر المكتب الصحفى للجنة تكذيبا شديد اللهجة لتقرير الصحف عن عقد هذا الاجتماع •

بعد انقضاء يومين ، أبلغنا أعضاء أرجون فى منشور « سرى للغاية » ان الاجتماع قد تم بالفعل • ونادرا ما نضع درجة سرية معينة عـلى وثائقنا فهى جميعها « سرية » • والرأى عنـدى أن اســـتعمال المكاتب الحكومية الدائم لدرجات السرية (« سرى للغاية » و « سرى جـــدا » و « سرى ») غالبا ما يؤدى الى التقليل من قيمتها •

كتبنا فى منشورنا :

« ان الاجتماع الذى تم بناء على طلب اللجنة استغرق ثلاث ساعات ونصف الساعة ، ولم نكن نتوقع ، بطبيعة الحال ، من اللجنة أن تسلم بمطالبنا السياسية • ان الجو الودى الذى ساد هذه المحادثات ، ووقع كلماتنا ، لا يعميانا عن الحقائق • ومع ان الجو كان طيبا ، ومع ان ممثلى اللجنة أعربوا عن أسفهم لأننا لم نستطع أن نتحدث الى أعضاء اللجنة جميعا عن دستور أرجون ، الا أن هناك اختلافا كبيرا بين تكوين انطباع طيب وبين اتخاذ وجهة النظر السليمة •

« وبناء على طلب أعضاء اللجنة تعهد المتحدثون باسم أرجون بعدم نشر أى بلاغ رسمى قبل أن تنشر اللجنة نفسها بيانا فى جنيف ، ولذا فان هذه المعلومات لمجرد معلومية أعضاء أرجون فقط » •

وفيما عدا هذا البيان الداخلى الموجز التزمنا الصمت • لقد كنا مرتبطين بالا نقول الحق بشأن الاجتماع • ولم نكن مرتبطين ، بأية صورة لكى نقول اى شيء غير الصدق ، فلم نقل شيئا قط • كان مركزنا أسهل من مركز ممثلى منظمة الأمم المتحدة • لقد كنا نمثل مقاومة ، أما هم فكانوا فى فندق « كاديما » • والحياة فى المقاومة ليست حياة سهلة ، الا أنها تتميز بفضيلة ، فانك فى المقاومة ترى الاشخاص الذين تريد ان تراهم فقط ، أما فى خارج المقاومة فانك ، أساســـا ، ترى الناس الذين يودون أن يروك • ان النوع الأول من اللقاء مع أنه قد لا يكون مثيرا غالبا الا أنه نافع دائما ، أما النوع الثانى فله خواص مضادة • اننا نستطيع

أن نلوذ بالصمت فيما يتعلق بمكنون قلوبنا فلا يستطيع أحد أن يسألنا أسئلة محيرة ٠

الا أننا تعلمنا ، مرة آخرى ، من هذا الحادث كيف يمكن الاعتماد على التكذيبات المؤكدة ٠ انها دائما تؤكد الشيء الذى تهدف الى انكاره بتكذيبه ٠

ومهما كان من أمر فقد استطاع « كارتر ديفيدسون » أن يجد بعض العزاء لا فى تكذيب ساندستروم فحسب ، بل وفى سخط السلطات البريطانية التى استشاطت غضبا من الاجتماع . وتعرضت لأسئلة مؤذية فى البرلمان البريطانى ٠

قيل : « لقـد كنا نبحث عنه طوال خمس سـنوات ولم نفلح فى الاهتداء الى اثره ، ومع ذلك فانه يبدو أن رئيس لجنـة منظمة الامم المتحدة قد عثر عليه بمنتهى السهولة » .

شعرت بالأسف لخدمة المخابرات البريطانيـة عنـد قراءة هـذه الانفعالات ٠ يالى من شـخص غير متعاون اذا لم أقع فى قبضتهـم طوال خمس سنوات كاملة !

كيف أستطيع ان استقبل « ساندستروم » و « هو » و «بانش» فى الخفـــاء ، ومع ذلك أرفض أن يستقبلنى « باركر » و « جيرنى » و « جيلز » ؟

(٢)

تسببنا فى فضيحة دولية ثانية عندما قابلنا اعضاء امريكا الجنوبية فى اللجنـة الدكتـــور « جراندوس » من جواتيمـالا ، والبروفســور « فابريجات» من اورجواى . كان اللقاء وديا فعلا ، فان «فابريجات» و « جراندوس » رفيقا سلاح ، بمفهوم هـذه العبارة . لقـد أخبرانا فى مستهل الاجتماع عن حياتهما فى المنفى وفى المقاومة ابان الحرب ضـد البغى فى بلديهما . كان « جراندوس » ابن واحـد من ابطال جواتيمالا الوطنيين ، تمثاله محط المسيرات الشعبية السـنوية ، ومع هـذا كان الابن محكوما عليه بالاعدام من حكام الشعب الذين ساعدهم ابوه على التحرر ٠ وقد اضطر أن يتنقل من مخبأ الى مخبأ آخر هربا من أعدائه ٠ وبعد سنوات عديدة من المعاناة عاش ليشهد تغيير نظام الحكم فى بلده وليصبح سفيرا لبلده فى الولايات المتحدة ومندوبهـا فى منظمـة الأمم

المتحدة . وليس من شك فى أن « جراندوس » كان متأثرا بالنضال العبرى للتحرر لأنه كان نضالا من أجل التحرير ولأنه كان موجها ضد بريطانيا بالذات ، وليست بريطانيا محبوبة فى قارة امريكا الجنوبية التى ظلت ، لعدة أجيال ، تستغلها الاحتكارات البريطانية . لدى جواتيمالا الصغيرة سبب خاص لكراهية بريطانيا ، فان المستعمرة البريطانية التى مازالت قائمة حتى يومنا هذا فى نصف الكرة الغربى ينظر اليها على أساس انها تحتل أرضا جواتيمالية . وهكذا ساعدنا الله حتى عن طريق هندوراس .

كان فابريجات هو الآخر صديقا طبيعيا لقضيتنا ، فقد كان فى المنفى بالبرازيل عددا من السنين قبل أن يرى ثمار عمله ومكابدته . وأورجواى — كما شهدتها بنفسى فيما بعد — واحدة من أكثر دول الأرض حرية ، ويعتبر نظام التأمين الاشتراكى الذى ادخله الرئيس فاجو العظيم واحدا من احسن النظم التقدمية فى العالم . ان للدول الكبرى أن تتعلم بعض الشىء من هذا الشعب الصغير القائم على شواطىء نهر سيلفر ، والذى اختصه الله بقاب من الذهب . ان « ارتيجاس » محرر اورجواى عضو فى زمرة محررى امريكا الجنوبية العظماء « سان مارتن » و « بوليفار » و « تيرادنتاس » و « او — هيجنز » ، الا أن كتب التاريخ الانجليزية تشير بصفة خاصة الى « ارتيجاس » باعتباره « رئيس قطاع طرق » ، ومن مونتفيديو ، الى تل أبيب يستخدم الماكيلانز نفس القاموس .

ان شعوب أمريكا الجنوبية تعرف كيف تحب وكيف تكره . انهم كرماء مضيافون . وان حربنا ضد الحكم البريطانى التى ابلغت انباؤها الى القارة من قاصيها الى دانيها ووصلت اصداؤها الى كل كوخ منعزل من أكواخ الرعاة ، استرجعت الذكريات القديمة ، ذكريات التمرد ضد « مدريد » . وتنظر الشعوب الامريكية الى تمردنا نظرة عطف غير خافية ، ولقد شهدت ذلك بنفسى عندما قمت بزيارة دولها الفسيحة التى لا يدخل ثراؤها تحت حصر كما لمست من « جراندوس » و « فايريجات » عندما أخبرانى بتجربتهما وكفاحهما .

انتزع « جراندوس » اعجابنا كمحارب سياسى فائق ، أما « فابريجات » فهو انسان بكل ما فى هذه الكلمة من آيات النبل . لقد كان لتحرى « فايريجات » عن أحوال الأطفال فى « ناتانيا » ، التى كانت واقعة وقتئذ تحت وطأة الأحكام العرفية ، أبلغ الأثر فى نفسى .

« الا يتضور الأطفال جوعا فى ناتانيا ؟ هل يحصلون على اللبن اللازم لهم ؟ » اعتقد ان حب الأطفال هذا هو معيار المحبة الانسانية . وقد كان « فابريجات » فى تحرياته فى أرض اسرائيل وفى أوروبا يرى الأطفال أول ما يرى .

تم الاجتماع بيننا فى منزل صديقنا « اسرائيل واكنر » ، وقد دبر « يوئيل » جولة فى شوارع تل أبيب قبل احضار الزائرين الى واحد من « المخابىء السرية » للمقاومة التى لم تكن فى الواقع سوى غرف عادية وضعها الأصدقاء الشجعان تحت تصرفنا . كان الجو مفتقرا الى الشكليات التى ميزت الجزء الأول على الأقل من اجتماعنا مع السادة « ساندستروم » و « هو » و « بانش » . تكلم « جراندوس » نيابة عن الاثنين ، وكانت معرفة فابريجات باللغة الانجليزية معرفة ضئيلة فتكلم فى حماس باللغة الاسبانية التى ترجمها « جراندوس » الى الانجليزية الرائعة ، كان معى « اليكس » و « صمويل » ، وأحيانا ما كان صمويل يتكلم نيابة عنا .

تناقشنا مع « جراندوس » مناقشة سياسية . حاولت أن اقنعه بضرورة مطالبتهما ؛ هو « وفابريجات » باعتبارهما صديقين لشعبنا ، لا بتصفية الانتداب البريطانى فحسب ــ فقد كان ذلك أساسا عاما ــ بل بجعل الاقليم كله دولة يهودية .

قلت مستحثا : « ان العرب والبريطانيين لهم فى اللجنة من يتكلم بلسان حالهم أما شعبنا فلا ناطق بلسانه ، فينبغى لكما ، انتما الاثنين اللذين لا تخفيان مشاعركما ، أن تتقدما بطلب مضاد للطلب الذى ينادى بجعل فلسطين عربية أو بريطانية ، فتطالبا بضرورة جعل فلسطين يهودية . فاذا ما اتفقت اغلبية اللجنة على حل وسط كان ذلك شأنا آخر ، ولكن ليرتفع صوت مندوب أو مندوبين دوليين بمطلبنا العادل . وحتى اذا ما رضيتما بمشروع التقسيم حلا عادلا . فان الواضح الجلى انه اذا ما اقترحتما ــ وانتما الصديقان المخلصان ــ ذلك المطلب ستكون النتيجة حلا وسطا بين اقتراحكما وبين الاقتراح العربى ــ البريطانى الذى ينكر حقنا فى هذا الاقليم كلية انكارا تاما » .

رد « جراندوس » بأنه لا يستطيع أن يعد بالتسليم بمطلبنا ، وقال انه يلمس ان اغلبية اعضاء اللجنة يميلون الى التوصية بتصفية الحكم البريطانى ؛ الا انهم يدخلون فى الاعتبار الوجود العربى فى فلسطين .

انهما لا يستطيعان « الانحياز » الى جانب واحد . ثم قال «جراندوس» وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة : « ولسوف يبدو مستغربا اذا ما طالبنا ، فابريجات وانا ، بأكثر مما طالب به المستر شيرتوك . كما انك تعلم ، كما نعلم نحن ، أن الوكالة اليهودية تقترح التقسيم » .

حاول ثلاثتنا العودة الى هذه النقطة . قلنا انه بينما لا نستطيع نحن ان نتكلم عن الوكالة اليهودية الا اننا نشعر بأنها لن تنظر نظرة غير راضية الى اقتراح فى اللجنة باقامة دولة يهودية فى ارض اسرائيل جميعها ، ومع هذا ذهبت جهودنا عبثا . ومع ان « جراندوس » لم يكن متحمسا للقيادة اليهودية الرسمية ــ وكان لدبه من عبارات التهكم ما يستطيع ان يقوله عنها ــ الا أنه كان متفقا تماما مع وجهة نظرها فيما يتعلق بالتقسيم . وكان علينا أن نعترف فيما بيننا وبين أنفسنا بأن مجادلته الأخيرة زلزلت الأرض تحت أقدامنا . ما من أجنبى مهما كان صديقا ، يستطيع أن يطالب لأمة ما باكثر مما يطالب به ممثلوها الرسميون . تكررت هذه المجادلة التعسة بعد عدة اشهر فى دورة الجمعية العمومية للامم المتحدة ــ تكررت هذه المرة على لسان «تسارابكين» . وفى هذه الظروف يكمن الدليل على الكثير من التطورات على أرض اسرائيل فى جيلنا .

تطورت المحادثة الى مناقشة ، محزنة ومشجعة معا ، عن فتيتنا الثلاثة المحكوم عليهم بالاعدام . حدثنا « جراندوس » عن الجهود التى بذلها هو و « فابريجات » لتوجيه اللجنة الى صالحهم فاعربت لهما عن مدى امتناننا ، وزعم الاثنان ان ليس هناك ما يدعو الى الامتنان ، فهما انما قاما بواجبهما الانسانى ، ثم أضافا قائلين : « والواقع اننا نحن اللذان ينبغى لنا أن نشكركم على استقدامنا الى فلسطين » .

استطرد جراندوس ليقول : « ان مواطنا يهوديا أخبرنا انه غير غاضب على المقاومة بسبب المضايقات التى سببتها اعمال رجالها له ، اذ كانت نتيجة هذه الأعمال ان شكلت لجنة منظمة الامم المتحدة . واننا نظن انه مصيب » .

وأضاف « فابريجات » : « لقد دعيت الى حفل استقبال أقامه الجنرال ماكميلان الا انى اجبت بأنى لا أستطيع الحضور بسبب احكام الاعدام . » .

يا له من امين فاضل ، فابريجات هـذا ! ان الزعماء اليهـود لم يظهروا شيئا من مثل هذا الاباء فى وجه سفاحى الباغى القضائيين .

وكان ظهور « يوئيل » اشارة الى نهـاية المحـادثة . تصافحنـا بالايدى فى حرارة زائدة كاعضاء فى اسرة واحـدة ، اسرة المحـاربين فى سبيل الحرية . وعندما كانا يهمان بالانصراف ، قال لى «جراندوس» : « هلا اخبرتنى مع من كنا نتحدث الليلة ؟ اننا نود ان نطمئن الى اننـا قابلنا ممثلين مفوضين من ارجون . » .

لقـد كان على حق ، فاننا لم نقل شيئا فى بداية المحـادثة لمجرد اننا افترضنا أن « يوئيل » كان قد اخبرهما بانى ساكون حاضرا. وعلى اية حال ، لم أستطع الافصاح عن اسماء رفاقى فى ذلك الاجتماع .

والظاهر ان « يوئيل » قد لاحظ قواعد المقاومة حرفيا . وطـوال المحادثة لم يكن الزائران متاكدين من شخصية اللذين كانا يتكلمان معهم. وقد حاول « جراندوس » ان يكتشـف ذلك فى حـذق . بدا أنه كان يتخيل ان « الرئيس » هو « اليكس » اكبرنا سنا . وكلما دخنا ، كان « جراندوس » بعرض ان يشعل سيجاره « اليكس » ، الا انه ــ وقد كان فى شبابه عضوا فى « لجنـة الطلبة » ــ كان يبعـد السـيجارة عن فمه ، ثم ياخذ الولاعة أو الثقاب من « جراندوس » فيشعل سيجارة جراندوس ، ثم سـيجارتى فسـيجارة صـمويل ، واخيرا يشـعل سيجارته . ربما كانت كل هذه المناورات من قبيل التـادب من جانب الأفراد المتمدينين . الا أن « اليكس » خيل اليه أن « جراندوس » كان يريد أن يكتشف شيئا ما دون أن يعرف بالتحديد ماذا كان ينشـد اكتشافه .

لم اجـد من الاسـباب ما يدعو الى أن أخفى عن « جراندوس » و « فابريجات » ما كشفنا عنه النقاب لساندستروم .

اجبت « جراندوس » : « اننى لا استطيع أن اخبرك باسـماء زملائى ، كما ان اسماءهم المستعارة لن تعنى شيئا بالنسبة لك ، أما اسمى أنا فهو معروف ولن اخفيه عنكما . » .

علمت حينئذ الى اى مدى كانت المقاومة تلهب الخيال ، حتى ولو انها لم تتضمن شيئا خارقا للعادة اللهم الا التـاهب للمكابدة والموت فى سـبيل قضية عادلة . فعنـدما اخبرت « جراندوس » باسمى ياخذ خطوة الى الوراء ثم قال فى صوت عال : « هل هو انت ذلك الرجل ؟ »

وإذ فوجئت بتلك النغمة الرنانة التى فاه بها هذه الكلمات ، وإذ لم اجد من الكلمات ما أجيب به ، فقد ضحكت. لم يضحك « فابريجات » ولكنه احاط كتفي بذراعيه واحتضنني كما يحتضن المرء أخاه الأصغر ثم قال شيئا ما باللغة الاسبانية .

قلت ، عندما استرجعت صوتي : « اننا اخوة فى السلاح ، وأن محاربى العالم من أجل الحرية يكونون اسرة واحدة . » .

وبعد مزيد من المصافحة بالأيدى ومزيد من تعبيرات الصداقة ، تحرك الزائران بخفة مع « يوئيل » .

الفصل الثالث والعشرون

اجتماعات في الظلام

ابان فترة المشاركة فى العمل بين الوكالة اليهودية والسلطات البريطانية ضد ارجون تسفاى ليومى ، قابلت « آرثر كويستلر » . وكان كويستلر ، الذى كرس نفسه لشعبه خاصة من الاداب مما يستطيع المرء أن يطلق عليه اسم « السيكولوجية السياسية » ، قد جاء الى ارض اسرائيل لدراسة الأحداث على الطبيعة ولتجمع المادة اللازمة لكتبه . حاول اجراء اتصالات فورية بالمقاومة ، فقابل « فريدمان - بللين » من جماعة شتيرن والح بصورة عاجلة لدرجة ما فى مقابلتى .

كان اسمى « اسرائيل ساسوفر » فى ذلك الوقت ، وكان البريطانيون واليهود يطاردوننا على السواء . كنا مجبرين على أن نكون حذرين ، ومن ثم كان زملائى فى شك مما اذا كان ينبغى لى أن اقابل كويستلر فى مثل هذه الظروف ، وقد اخبرنا انه قضى وقتا طويلا فى «المجتمع »البريطانى . ومع أن أحدا لم يكن ليلقى أى شك على كويستلر ، الا أن هذه المعلومات كانت كافية لاثارة الخوف من أنه قد يبوح ، سهوا ، بشىء ما بينما هو فى ذلك « المجتمع » . ولذا عقدنا العزم على أن نبلغ كويستلر ، بأسلوب مهذب ، أننا نأسف لعدم امكان ترتيب هذا اللقاء . الا أن كويستلر لم يكن ليفرط هكذا بسهولة فى المادة الضرورية لسيكولوجيته السياسية . وقمت أنا بمساعدته .

بحسب طبيعة الأشياء ، كنت أنا أقل من زملائى اهتماما بالمسائل

المتعلقة بسلامتي الشخصية ، كما كنت مهتمـــا بالحديث مع كويستلر باعتبار أنه رجل يحب أن يغوص فى أعماق الأمور ، ولذا بذلت ما فى استطاعتى لعقد الاجتماع • ووافق زملائى مترددين ، ولكنهم اشترطوا شرطا واحدا : أن يتم الاجتماع فى الظلام ، فيجب أن ترى لحية « اسرائيل ساسوفر » ! وكان يساورنى الشك فيما يتعلق بهذا الشرط • ان الحديث فى الظلام ليس من الأمور السارة ، ثم لماذا نضايق كويستلر ؟ الا أن زملائى تمسكوا بشرطهم • واحسرتاه ، آه من لحيتى التعسة ! لقد أذعنت لشرطهم •

كان تصرف كويستلر وديا ، واغلب ظنى كان يرمش عندما دخل الى الغرفة المظلمة وهو يقول : « مناحم ! » •

ولكنه لم يرنى أرمش اذ أجبت : « نعم ، شالوم عليك ! تفضل بالجلوس » •

جميل أن يطلب منك أن تتفضل بالجلوس ، ولكن كيف تجـــد مقعدا فى الظلام الدامس ؟ لقد تعود أبراهام ورويفين على الظلام الذى فرضاه علينا ، فاجلسانا نحن الاثنين • وهكذا بدأنا نتحدث كل على صوت الآخر •

اخبرنى كويستلر أنه كان هناك ، فى الدوائر البريطانية « الصديقة للصهيونية ، ميل الى التوصية بفترة انتقالية مدتها عشر سنوات بعد الحرب حيث يسمح فى غضونها لمائة الف يهودى بالدخول الى الاقليم » وربما كان هناك تقسيم بعد نهاية هذه الفترة • أجبت باننا لا نؤمن « بفترات الانتقال » ، على اختلافها ، تماما كما أننا لا نؤمن بصـــداقة « الدوائر الصديقة » • إعترض كويستلر على عدم ايمانى ، وذكر من امثلة هذه الدوائر العناصر الشابة فى حزب العمال البريطانى ، واختص بالذكر « ميشيل فوت » •

انتقل حديثنا من موضوع الى موضوع • سألنى كويستلر عما اذا كنا ننوى الاستمرار فى استخدام « فى ــ ٣ » •

سألت مستغربا : « ما هو فى ــ ٣ ؟ » •

« انه كما تعرف ، مدفع الهاون الذى يعمل كهربائيا ،والذى وجد على مقربة من فندق الملك داود • ان البريطانيين هنا يطلقون عليه اســـم فى ــ ٣ » •

ضحكت . لا شك ان اختراع « جيدى » كان بالغ الاهمية ، ولكن هل كانت هناك أية مسميات للمواد المتفجرة ؟ ان لدى السلطات بطبيعة الحال ، من الأسباب ما يبرر تسميته « فى ـ ٣ » ، الا أن كل ما أفلحوا فيه ـ فى الوقت الذى يصبون فيه لعناتهم علينا ـ هو امتداحهم لقوة اختراق ارجون .

كلما استمرت محادثتنا كان انطباعى أن كويستلر كان مهتما بالأشياء التى لا يستطيع ان يراها أكثر من اهتمامه بالاستماع الى ما يقال . كنا نحن الاثنين ندخن كثيرا ، ولعلنا كنا نظن أن التدخين قد يعمل على تبديد الظلام ، الا أن اشعال سيجارة فى مثل هذه الظروف لم يكن أمرا هينا ، فقد عقد زملائى العزم على عدم انتهاك الظلام ، فلا ينبغى أن يكون هناك بصيص من نور خارج الغرفة ، كما لا ينبغى أن يكون هناك شىء من هذا فى الداخل قطعا . يا لها من لحية تعسة ! كان اشعال سيجارة يستدعى فروضا طقسية خاصة من « النور فى الظلام » . فقد كان على أن أتحسس الطريق الى الغرفة المجاورة لأشعل سيجارتى. وفى ذلك الوقت كان ابراهام أو رويفين يذهب الى كويستلر ليشعل سيجارته . واذا ما اشتعلت سيجارتانا ودخنا كفايتنا استطعنا أن « يرى » أحدنا صوت الآخر !

الا أن كويستلر (١) ما كان له أن يغض النظر بسهولة عن المادة الضرورية لسيكولوجيته السياسية ، فقد بدأ يدخن سجايره بشدة غير مألوفة . كان يجذب « نفسا » طويلا ثم ينفث الدخان ليجذب نفسا آخر ، وهكذا ، حتى لا يبقى شىء . وقد لا حظت استهلاك السجاير استهلاكا ، سريعا باهتمام زائد ، وشعرت بالأسف لا على السجاير فان مصيرها الفناء فى التدخين ، بل على كويستلر . لقد أخطأ القيمة الاستراتيجية للشعلة ، فذهب عناؤه عبثا ، ولم يقدم له توهج سيجارته الزائد أية مساعدة لرؤيتى ، بل ، على العكس ، مكنتنى ومضات الضوء التى جاءت من مقعده من أن ألمح طرف أنفه ، وكان ينبغى له أن يطلب

---

(١) ان « كويستلر » ، الذى أحيانا ما ابدى نزوات غريبة متقلبة الأطوار ، سرورا وغضبا ، من تلك الظاهرة التى استرعت اهتمامه ، انتهز الفرصة فيما بعد ليهزأ من اجراءات من ارجون كلما قارنهـا باغفال احتياطات الأمن من لدن جماعة شتيرن اثناء احاديثهم معه . ولسوف يدرك قارىء هذه المذكرات أن انتقاد كويستلر هذا الامر ربما كان نابعا من جهله الظروف اكثر من الاستياء غير اللائق .

.سى ان أجذب « النفس » من سيجارتى بكل قوتى لئلا يستطيع أن يرى طرف أنفى ، بل ربما لمح لحيتى ! واذا لم يتقدم بهذا الطلب فاننى لم أجهد نفسى ، وكان هناك ظلام حالك ٠

انتهينا ، فيما بعد ، الى الرأى بأن اللقاء مع كويستلر دعم شائعة أننى أجريت عملية تجميل . وهى شائعة كانت ذائعة بين السلطات البريطانية ٠ وأعتقد أن هذه السلطات هى نفسها التى ابتدعت هذه الشائعة لكى تفسر سبب فشل خدمة مخابراتها فى القبض على رغم التفتيش ورغم المكافآت الموعودة ورغم التعقب والتتبع ٠ وقد ألقى يعقوب ميريدور الضوء على هذه النظرية عندما سأله ضابط المخابرات الذى استجوبه فى سجن القاهرة يوما : « هل أجرى بيجين عملية تجميل حقيقة ؟ » فأجاب يعقوب فى فزع وارتباك غير خافيين : « وكيف علمتم ذلك ؟ لا ، لا ، ليس هذا حقيقيا ! » ٠

اغتبط ضابط المخابرات ، فقد ظن أنه استخلص السر من يعقوب ٠

والظاهر ان كويستلر أضاف « لبنة » أخرى الى (بناء » الشرطة الخيالى ، فلم يكن بالطبع تحت أى التزام بعدم اماطة اللثام عن الصورة التى لا أبدو عليها ٠ لقد كان مندهشا اذ استقبلته فى الظلام ، وكان قد قابل رئيس الجماعة شتيرن وجها لوجه ٠ قبل أن يقابلنى بعدة أيام ٠ فلماذا لا أقابله كذلك ؟ انه لم يكن يدرك حينئذ أنه كان لدى أرجون من الأسباب الخاصة لمراعاة أقصى درجات الحيطة ما لم يكن لدى جماعة شتيرن ، كما أنه لم يكن يعرف أننى كنت المرشح المرتقب لوظيفة مساعد ثان للراعى الثالث لمعبد شارع يوشع بن نون وان اللحية كانت مؤهلا هاما لهذه الوظيفة ٠ ولعله ، وهو يتحرى أسباب اللغز ، أن يكون قد انتهى الى الرأى بأن هناك شيئا من الصحة فى التقارير القائلة بأنى موهت الدمامة الطبيعية بالجمال الصناعى ، أو ربما كان ذلك هو الاستنتاج الذى توصل اليه الناس الذين أخبرهم بأنى تحدثت اليه على ضوء سيجارة مشتعلة ٠

ومهما كان من أمر فقد ظهر طوفان جديد من القصص فى الصحافة البريطانية ، ومنها انتشرت فى جميع أنحاء العالم ، عن عملية التجميل تلك ؛ ولقد سرنا ذلك الأمر بالغ السرور ، بل ان سرورنا كان أعظم عندما طالعنا فى صحيفة بريطانية معروفة أننى أجريت اربع عمليات تجميل لا عملية واحدة ٠ وعندما تركت المقاومة وسألنى رجال الصحافة ـ

الأمريكيون بصفة خاصة - عن مدى صدق هذه القصص ،شعرت بأنى اريد أن أجيب : « حقا ، أجريت لى أربع عمليات تجميل ، الا أنه قبيل أن يرحل البريطانيون مباشرة أجريت عملية خامسة لاعادة وجهى الى ماكان عليه أصلا » ٠

يجب أن أستميح آرثر كويستلر العذر اذ جعلته يجلس فى الظلام نحو ساعتين وهو يسرف فى التدخين ٠ ولى أمل أنه سوف يصفح عنى كما سيصفح عنى صديقنا الحميم « ايفان جرينبرج » (١) الذى قابلته هو الآخر فى الظلام ووعدت بمقابلته مرة أخرى فى النور ، وكان هناك نور !

ذلك هو التناقض الظاهرى فى حياة كل شخص يحارب من أجل قضية عادلة ٠ انه يحمل نيرا ثقيلا ، أحيانا ما يكون بالغ الثقل ، لكى يتخلص من نير غيره ٠ انه يحارب حتى يكون هناك سلام ، وهو يعاقب نفسه حتى لا تكون هناك معاناة ٠ انه يستخدم القوة الجسمانية ولكنه يؤمن بالقوة الروحانية ٠ انه يريق الدم حتى لا يراق الدم بعد ، وهو يهجر اسرته المحبوبة حتى لا تتحطم حياة الأسرة ، وهو يضحى بحياته لكى يضمن الحياة ٠ انه يحقن نفسه بالجراثيم لكى يجد العلاج ، ثم انه يعيش فى الظلام لكى يعم النور ٠

ذلك هو حال الدنيا : طريق مفجع تحفه الأهوال ، ولا طريق غيره !

فى أواخر عام ١٩٤٦ وصل أرض اسرائيل المستر « كلارك بولدوين » وهو عضو من أعضاء الكونجرس الأمريكى ، وكان المستر « ترومان » قد وافق على زيارته لبريطانيا والشرق الأوسط ٠ وقد قابل ، وهو فى طريقه ، المستر « آتلى » كما قابل وزراء غيره ؛ طلب المستر بولدوين ، الذى أعرب عن عطفه على كفاحنا ، أن يقابلنى ، ومرة أخرى ثارت الشكوك المألوفة والاقتراحات المعتادة للجلوس من وراء ستار او الجلوس فى الظلام ، الا أننى تمردت هذه المرة واستقر الرأى على أن أستقبل السياسى الأمريكى فى « المقاومة العلنية » ٠

(١) فى هذه المناسبة ، اذ اعتذر المستر « بيجين » لى عن الظلمة على سبيل الحيطة ، استرجع ما قاله « يابوتنسكى » عندما حاول مرة أن يخبره ببعض أسرار ارجون ، « لا تقل لى ، لا تقل لى ٠ ان ما لا اعرفه استطيع ان اعتمد على نفسى فى عدم افشائه حتى ولو كان ذلك تحت وطأة التعذيب ! » ٠ (على لسان جرينبرج)

كان مقررا أن يتم اللقاء فى شقة « أليكس » ، وكانت هذه الشقة، هى الأخرى عرضة للتفتيش البريطانى، فبعد انفجار فندق الملك داود وصلت جماعة من الجنود البريطانيين الى شقة المستر « سلومنيكى » ، الذى خرج لملاقاتهم وهو يلبس فوطة بيضاء لوقاية ثيابه (مريلة) ، ويمسك فى يده سكين مطبخ كبيرة ، وكان صاحب الشقة المبجل يشغل الفراغ الذى فرضه عليه حظر التجول بممارسة أعمال الطبخ ، ولذا كان الاستجواب موجزا ، فقد اختضره ، « أليكس » شخصيا اذ قال : « عفوا أيها السادة ، فانى أطهو بعضا من البطاطس وأخشى أن تحترق» فترك الجنود الطباخ يمضى فى الطهو ، وانصرفوا من حيث أتوا ، فقد كان واضحا أن ليس هذا بالمكان الذى يجرى فيه البحث عن الارهابيين وفى غرفة بداخل الشقة كان رجل فى مقتبل العمر ينام نوما عميقا بعد جهد ليلة حرم فيها من النوم ـ ذلك هو « جيدى » .

فى هذه الغرفة بالذات ، التى تشبعت بأسرار المقاومة وبالكثير من أتراحها وأفراحها ، قابلت « كلارك بولدوين » ، ولسوء حظى أننى مرضت ليلة الاجتماع . ولما كان مقررا أن يغادرنا بولدوين بعد يوم أو يومين فقد كان على أن أستقبله وأنا فى فراشى .

كان مستر بولدوين ودودا جدا . أخبرنا عن اجتماعه مع رجال الدولة البريطانيين ، وأكد لنا ادراكه التام لكفاحنا ، بل انه شرب نخب الدولة اليهودية المستقلة التى كانت على وشك النهوض . وقد طلب منا ما اذا كنا نستطيع أن نوقف عملياتنا بصفة مؤقتة على أمل أن تتخذ الحكومة الأمريكية الخطوات لضمان فتح أبواب أرض اسرائيل . كانت اجابتنا واضحة ، الا أننا وقد جعل المستر بولدوين طلبه علانية فيما بعد ، ولكى نتحاشى أى سوء تفاهم ، اضطررنا ـ بدورنا ـ لنشر اجابتنا . ونوجز هذه الاجابة فيما يلى :

« لذلك نأسف أننا لا نستطيع الاستجابة لهذا الطلب . اننا لا نعول بعد ، على الوعود مهما كان مأربها مخلصا . ان ما يريده شعبنا المعذب هو العون الصادق . واذا لم يكن هذا العون حالا فليس هناك من طريق آخر الا أن ينهض أبناء هذا الشعب ليكونوا فى عون أنفسهم، وأن يعتمدوا على روحهم القتالية وعلى روح التضحية الذاتية .

« وسوف نحظى فى هذا الكفاح العادل ، يقينا ، بتأييد المحبين للحرية ، رجالا ونساء ، فى بلدكم العظيم وفى جميع أرجاء العالم » .

واذ عاد المستر بولدوين الى الولايات المتحدة ، رفع تقريرا مفصلا الى الرئيس ترومان ، نشره فيما بعد • وقد تعلمنا من هذا التقرير كيف يكون تصرفنا في المقاومة • كتب المستر بولدوين أنني ، لكي أخفي معالم وجهي ، ثبت لحية الى ذقني واستلقيت في الفراش لكي أخفي طولي • ولم تطرأ لنا هذه الأفكار البارعة من قبل • أن المقاومة تلهب خيال الناس في خارجها ، وحتى المرض العادي يمكن أن يرى على أنه خدعة ، أما عن اللحية فانها لابد أن تكون لحية كاذبة • لقد عفوت عن المستر بولدوين بالشك الذي ساوره حول مرضي ، الا أنه يصعب علي أن أعفو عنه لحطه من قيمة لحيتي •

قابلت قليلا من الصحفيين في المقاومة ، وكان في مراحل المقاومة الأخيرة فقط أن التقيت ببعض المراسلين • كان « ريتشارد مور » لطيفا جدا ، فلقد أصيب في انفجار فندق الملك داود ، وكنت قد بعثت اليه بخطاب وهو في المستشفى لأعبر له عن أسفنا لاصابته ، ولأوضح له اننا لم تكن لدينا اية رغبة في أن يصاب هو أو أي شخص آخر • ومع أنه كابد عدة أشهر ، الا أنه لم يكن يحمل لنا ضغينة أو غلا • لم يكن موافقا على كل ما فعلناه ، ولكنه لم يكن واقعا تحت تأثير حملة الهمس ضدنا • كان يقدر كفاحنا ، حتى لقد كتب أننا لم نكن ارهابيين ولكننا محاربون من أجل الحرية ، وكنا نحارب وعيوننا مفتوحة •

أظهر « بترنر » مراسل صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون شجاعة عندما نسف مبنى بريد فلسطين ، فقد اندفع وسط اللهب والدخان غير مبال بالخطر لكي يعاون في انقاذ الأشخاص الذين حاصرتهم النيران • وعندما قابلته بعد ذلك كان واضحا أنه لم يكن متأكدا من أنني كنت الشخص الذي وعد بلقاء معه ، فلم يكن لديه أية أوصاف لي ، بل كان كل ما هناك أنه رأى صورة الشرطة البريطانية ، ولكنه ـ شأنه شأن الآخرين ـ كان قد رسم لي صورة ذهنية ، فعندما رآني صرخ في مزيج من الدهشة واليأس قائلا : « لقد تخيلتك رجلا ضخما ! » •

سألت : « بشارب ضخم وقرنين كبيرين ؟ » •

ضحكنا كلانا على حد سواء • ان للخيال أجنحة ، وليست للحقيقة قرون •

واظهرت « لوريتا ليندسي » الكاتبة ، عطفا شديدا ، أقرب الى

عطف الأم منه الى أى شىء آخر ، نحو جنود ارجون ، فقد صدمت هى نفسها من المأساة ، اذ أن ابنتها التى انضمت الى الفرنسيين الأحرار قتلت قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بيوم واحد • لقد أخبرتنى بالكثير عن ابنتها التى كلمتها عن رجالنا وعن حبهم للحرية ، فكان احساسنا المتبادل بالأحزان داعيا لتقاربنا بعضنا من البعض ، وأصبح اللقاء حديثا وديا • كنت أتكلم مع أم ، وكانت هى تفهم كل شىء •

قابلت الكاتب « روبرت سان جون » مرتين بعد حادث « التالينا » • كتب فأسهب عن « التالينا » وعن أحاديثه معى فى كتابه بعنوان « شالوم يعنى السلام » • وسوف لا أتناول كتابه بالبحث والتعليق ، فليست هذه الفصول بالمجال الملائم للنقد الأدبى ، الا أنه ينبغى أن أقول هذا : « لقد أدركت معنى اثارة العواطف عندما قرأت وصفه • لقد كتب سان جون — على سبيل المثال — أنه عند دخوله الى غرفتى رأى حارسين ممن يمكن أن يكونا من رجال الخدمة الخاصة ، فساءلت نفسى : ما هو الغرض من هذه الفكرة المهينة ؟ وكان فى مقدورى أن افسر ذلك برغبته فى اثارة المشاعر • وفضلا عن ذلك فمن أين جاءته فكرة الحراس على بابى ؟ ومع ذلك فان سان جون ماكان ليستطيع أن يرى حراسا على بابى ، لسبب بسيط ، هو أنه — كما سبق أن أوضحت — لم يكن لدى حراس قط • ان كتب الأدب التى تحاول أن تخلق مؤثرات تقشعر منها الأبدان انما تحقق مآربها على حساب قيمة الفكرة ، بل انها دائما ما تحققها على حساب الصدق والحقيقة » •

قابلت « كوينتين رينولدز » بعد فتح يافا ، وكان صديقا قديما من أصدقاء رجال المقاومة وواحدا من أشد مؤيدى جامعة الدول الأمريكية لفلسطين الحرة ، فأبديت ملاحظة بأنى شديد الأمل فى أنه لن يأسف على المساعدة التى قدمها لنا بظهوره ، بصفة خاصة ، فى تمثيلية « بن — هيشت » المسماه « مولد علم » •

هز رينولدز رأسه الجميلة وأجاب : « اننى فخور بها » وبناء على طلبه قدمنا له ، فرحين ، بندقية « ستن » مصنوعة فى مصنع أسلحة ارجون ، كتذكار ، وقد نقشت على مؤخرتها عبارة مناسبة • واخذ رينولدز البندقية معه طوال تجواله وهو فى طريق عودته الى أمريكا •

فى أيام التمرد الباكرة ، قابلت ضابطا من ضباط الهاجاناه البارزين ، هو « موشى ديان » الذى كان قد اقترح تبادل وجهات النظر • واذ سمعت أنه كان واحدا من « العاملين » فى الهاجاناه فقد وافقت على

مقابلته . حدثني كثيرا عن أعماله الباهرة في سوريا التي اخترقها أيام حكومة فيشي للقيام بأعمال تخريبية ضد المنشآت العسكرية الهامة . لم يفاخر ، ولكنه من خلال وصفه الواقعي كان واضحا أنه لا تعوزه الشجاعة . لقد فقد عينا من عينيه في الحرب في سوريا ، ولكنه لم يفقد شيئا من جرأته .

تكلمت وإياه عن كفاحنا وعن فحواه السياسي . وقد وجدنا نفسينا على وفاق حول كثير من النقاط ، في المحادثة في أية حال . وفضلا عن هذا فانه أبدى بعض ملاحظات مشجعة ، فقال انه بعد عملياتنا بدأ العمال ينظرون الى ارجون نظرة تقدير ومحبة ، كما أبدى أننا عملنا كل ما في استطاعتنا لتجنب الأضرار باليهود لدرجة أنه أصبح واضحا له حينئذ كما وضح لكثير غيره، أن عملياتنا كانت موجهة ضد نظام الانتداب البريطاني فقط . لم يدخل « ديان » في تقييم النتائج السياسية المترتبة على كفاحنا ، بل قال في هذا الشأن انه كانت هناك دائما فكرتان ، الا أنه قيم ما كنا نعمله من أجل الدروس المستفادة من عملنا بصفة خاصة ، فقد كنا نقدم البرهان للشباب اليهودي عامة على أنه كان من المستطاع، بكيفية بارزة ، أن نقرع السلطات الحاكمة .

ابان فترة « حركة المقاومة » التقيت لقاء وجيزا بالزعيم الصهيوني الأمريكي الشهير الدكتور « أبا هيلل سيلفر » .

التقينا في غرفة على مقربة من شاطىء البحر كان يستأجرها « اليكس » بصفة مؤقتة . قضيت في هذه الغرفة عدة أيام في أعقاب التقارير المزعجة عن المنطقة التي تجاور « يوشع بن ـ نون » وكنت مستأجرا من الباطن غير شرعي ، وكان الشخص الذي استأجرت منه مستأجرا شرعيا من صاحبة الغرفة ولكنه كان غير شرعي بالنسبة للسلطات . وقد تعهد اليكس بألا تراني صاحبة الغرفة . كان علينا أن نغادر الغرفة كل صباح ونذهب لبعض شئوننا ، ولكن أين يستطيع مستأجران غير شرعيين أن يذهبا في وضح النهار ؟ لقد كان يتعذر علينا أن نتجول في الشوارع المزدحمة بالمارة ، واذ لم يكن هناك أي خيار فقد كنا نذهب الى أقرب « مخبأ » لنا ، وهو شاطىء البحر ، وكان بهيجا قطعا . كنا في أيام الحماسين ، وكان الرجل ذو اللحية والرجل الأصلع يأخذان « حمام مقاومة » كانت اللحية سببا في المصاعب ـ ذلك لأنه لم يسبق لي أن استحممت في البحر وأنا مطلق لحيتي . لم أكن أعرف ماذا أفعل في القلنسوة التي كانت تغطي رأس اسرائيل ساسوفر »

بصفة دائمة ٠ ان أنا حلعتها فقد يكون ذلك داعيا لاثارة بعض التعليقات: لحية بلا قلنسوة (١) وان أنا أبقيتها على رأسى فقد تتقاذفها الأمواج ٠ انها مشكلة جد خطيرة ٠ استطعت أخيرا أن أحل هذه المشكلة على طريقة الشخص الساذج الذى يحل معضلته الاجتماعية ٠ اذا ما جلس الى مائدة رسمية وضعت عليها مجموعة مختلفة من الشوك والسكاكين لا يستطيع أن يميز بينها فلا يدرى كيف يبدأ ،فانه يلاحظ جيرانه عندئذ ، مختلسا النظر اليهم ليرى ماذا هم فاعلون ٠ لبست القلنسوة ، وضعت يدى فوقها وصرت أجيل الطرف فيما حولى على الشاطىء ، ومن حسن حظى أن كان هناك أشخاص ملتحون ٠ ولم يكتف هؤلاء بخلع قلنسواتهم بينما كانوا يستحمون فى البحر وحسب ، بل انهم كانوا يخلعونها أيضا وهم يستمتعون بحمامات الشمس ، أى أنهم كانوا لا يلبسونها الا عندما يذهبون لتناول الطعام ٠ قلدتهم فلم استرع أى التفات خاص ٠ كان هذا هو الشىء الأساسى فى المقاومة ٠ اذا افلحت فى ذلك فانك تستطيع أن تجعل الشمس تلفحك فى وقار ٠ قد تحضر خدمة المخابرات البريطانية بحثا عنك تحت الأرض بينما تكون أنت مستمتعا ، فى سلام بمسرات شاطىء البحر ! ٠

قابلت الدكتور « سيلفر » فى غرفة اليكس ، وكان حديثنا جد خطير ٠ وقد استمر الانطباع الذى أحدثه الدكتور سيلفر فى نفسى زمنا طويلا ٠

واذ كانت لدى ميزة الاتصال عن كثب ، لفترة ، بفالديمير يابوتنسكى العظيم فلم يكن من السهل أن تجرفنى الشخصيات البارزة٠ ولا أستطيع أن أخبرك — بل ربما لا يستطيع أى شخص أن يعرف — ما هو المقصود بالرجل « العظيم » الا أننى أدرك أنى كنت أحس فى كل كيانى بأن يابوتنسكى كان عظيما ، وبأنه كان بعيد النظر ، يستطيع أن يربط بين نبل الروح وقوة المنطق ٠ ومنذ هذه الفترة وانا لا أتأثر بالأشخاص لمجرد أنهم معتبرون « عظماء » بصورة مألوفة ، كما أننى لا أتأثر يقينا بالأشخاص لمجرد أنهم يشغلون وظائف هامة ٠ الا انه ينبغى لى أن أقول أن سيلفر ترك فى نفسى أثرا عظيما منذ ذلك اللقاء الأول حتى لقد أخبرت زملائى بأنه « شخصية » ٠

---

(١) ينطلب التقليد اليهودى أن تكون الراس مغطاه كدليل على الاحترام عندما تتلى الصلوات أو تلتمس الدعوات ، وغالبا ما يغطى اليهود الارثوذكس المتشددون رؤوسهم ٠ الا أن هناك درجات متفاوتة من الأرثوذكسية اليهودية ٠

كان الدكتور سيلفر أول زعيم صـــهيونى سمعت منه عبارات التشجيع لكفاحنا بدلا من عبارات التشهير والتنديد المألوفة عن «المنشقين» • وقد أعرب عن الأمل فى اســـتمرار وحدة القتال التى حققتها « حركة المقاومة » • كان الرأى العام الأمريكى متعاطفا مع المقاتلين لأنهم ، كما قال ، « كان عليهم ، هم الآخرون ، أن يحـاربوا البريطانيين بوســـائل غير شرعية بصورة خارقة للعادة » •

يقال ان الدكتور سيلفر لم يكن ثابتا بل متقلبا ، ولا أعرف مدى صحة هذا القول • الا أننى أعرف أنه فى تقديره للتمرد كعامل من عوامل التحرر ظل ثابتا رغم الضغط من جهات مختلفة • وعندما زرت الولايات المتحدة الأمريكية أوعزت اليه أوساط كثيرة أن يشارك فى بيان يدين « المنشقين » نيابة عن مجلس الطوارىء الصهيونى ، كما ضغطت هذه العناصر نفسها على الشاعر العظيم « زلمان شنوير » ليتنحى عن لجنـــة الاستقبال (أصدر شنوير احتجاجا مؤثرا) الا أن سيلفر رفض جميع هذه الاقتراحات للتشهير بى رفضا قاطعا ، كما حال دون قبولها من لدن الهيئة الصهيونية • وقد قال أثناء المناقشة ، لأولئك الذين كانوا يحطون من قدرنا :

« ان ارجون ستذكر فى التاريخ كعامل من العوامل التى ما كان لدولة اسرائيل أن تقوم بدونها » •

الفصل الرابع والعشرون

الطريق إلى النصر

نجحنا ، خلال فترة من الزمن أقصر ممـــا كان يتوقع كثيرا من اعضائنا ومؤيدينا المتحمسين ، فى تمهيد السبيل لانهيار نظام حكم الاحتلال الذى كان يوصف ـ بالدقة العلمية ـ بانه « افلاس الحكم البريطانى فى فلسطين » . ولم تكن دورة أحداث التاريخ نتيجة لعملية مفردة بعينها ، ولكن مهدت لها النتائج المتراكمة لسلسلة شاملة من أعمال المقاومة .

وسوف لا أحاول ، فى هذا الموجز ، ان أنهمك فى التحليل ، ولكنى سأدع الوثائق ، وبخاصة الوثائق البريطانية ، تتكلم عن نفسها ، فهى تميط اللثام صراحة عن كيفية محاولة الحكومة البريطانية تعزيز قبضتها على دولتنا فى المرحلة الأخيرة من مراحل التمرد ، وكيف نجح المتمردون العبريون ، خطوة بخطـوة ، فى احباط جهـــودهم ، وكيف أجبرنا البريطانيين على الالتجاء الى الأمم المتحدة ، ثم على الرحيل آخر الأمر .

بعد أن رفض اقتراح مشروع « الاتحاد الفيدرالى مع الاســتقلال الذاتى » (مشروع موريسون) من جـــانب كل من العرب واليهود على السواء اقترح « بيفن » مشروعا « جديدا » لحل مشكلة فلسطين . عرض هذا المشروع فى العاشر من شهر يناير سنة ١٩٤٧ اثناء المؤتمر الثلاثى حول فلسطين فى لندن . اطلق البريطانيون على هـــذا المشروع اسم « التقسيم الى مقاطعات » . اقترح « بيفين » أن يقسم الاقليم الى عدد من المناطق يمكن منحها استقلالا ذاتيا واسع النطاق فى الشئون الداخلية تحت اشراف حكومة مركزية ، على أن تظل فترة الانتقـــال مدة خمس

سنوات • ويمكن السماح لمائة الف يهودى بالدخول الى المنطقه اليهوديه خلال سنتين ، بحيث تكون الحصة الشهرية من شهادات الهجرة حوالى ٤٠٠٠ شهادة • بعد ذلك تصبح الهجرة خاضعة لما يقرره المندوب السامى البريطانى •

رفض العرب المشروع الجديد ـ كما رفضوا مشروع موريسون « الأصلى » ـ بدون تحفظ • لم يوافقوا على مزيد من الهجرة اليهودية ، كما أنهم لم يوافقوا على تقسيم فلسطين ، وانما طالبوا بفلسطين مستقلة ، وعلى الفور • ورفضت الوكالة اليهودية المشروع أيضا • واذ فشل البريطانيون فى الحصول على موافقة « الجانبين كليهما » على مقترحات « الجانب الثالث » انهار المؤتمر •

قيل لنا أن الوكالة لم ترفض المشروع من حيث المبدأ ولكنها رفضته لأنها لم ترض بحجم المنطقة التى كانت مخصصة لليهود ، كما انها لم توافق على مشروعات الهجرة ، فقد الحت الوكالة على أن يعهد اليها توزيع تصاريح الهجرة بهذه التعديلات كانت الوكالة على استعداد للتسليم « بالتقسيم » تحت الاشراف البريطانى •

شرح المستر « شرتوك » لمؤتمر صحفى يوم ١١ فبراير سنة ١٩٤٧ ان الوكالة اليهودية طلبت : أولا منطقة يهودية كافية ذات سلطة تامة ، وثانيا هجرة الى هذه المنطقة ، وثالثا اعترافا نهائيا بالاستقلال اليهودى فى جزء ، على الأقل ، من أرض اسرائيل • ولم يشرح شرتوك ماذا كان المقصود بمنطقة « كافية » ، ولكنه ، من ناحية أخرى ، أوضح المقصود بالسلطة اليهودية « التامة » • وكان شرطه الثانى ينص على « اتفاقية » للهجرة الى المنطقة ، ولكن اذا كان مفروضا ان تكون السلطة اليهودية « تامة » فيما ضرورة موافقة بريطانيا على الهجرة ؟ •

وكان موريسون قد قال ان اقتراحه اقامة اتحاد فيدرالى قد يتحول آخر الأمر الى تقسيم نهائى بين « دولة عربية » و « دولة يهودية » • لقد أنقذنا عناد عدونا • لم يوافق بيفين على تسليمنا شهادات الهجرة الأربعة الآلاف شهريا ، أما من جهة العرب فقد قالوا : « ان فلسطين كلها لنا ، حتى تل أبيب » ! •

ولولا عناد العرب والبريطانيين ـ أو العناد الانجليزى العربى ـ لكنا نحن يهود فلسطين نعيش اليوم فى « معزل موريسون » ، مالم نكن نحن المتمردين قادرين على احباط هذا المشروع أيضا •

فى الرابع عشر من شهر فبراير سنة ١٩٤٧ انتهت أعمال مؤتمر لندن ، واخبر بيفين العرب بانه طالما أن الطرفين لم يبديا أى استعداد للحل الوسط فان المسألة الفلسطينية سوف تعرض على الأمم المتحدة ٠

أدلى بيفين ببيان مطول فى مجلس العموم عن رفض كل من العرب واليهود للاقتراحات البريطانية ، وعن قراره طرح المسألة أمام هيئة الأمم المتحدة في شهر سبتمبر ، وأهاب بيفين « بجميع الاطراف » أن تحافظ على السلام في فلسطين الى أن تتخذ الأمم المتحدة قرارا بشأنها ، وأعلن أن الهجرة اليهودية سوف تظل بمعدل ١٥٠٠ شهريا ٠

نهض تشرشل للاحتجاج ضد « الابطاء الطويل الأمد » ، فسأل عما اذا كان ذلك يعنى أن بريطانيا ستظل تتحمل أعباء صيانة ١٠٠٫٠٠٠ جندى فى فلسطين سنة أخرى مما يكلفها من ٣٠ الى ٤٠ مليونا من الجنيهات ٠ وقال ريتشارد كروسمان أن المفروض أنه لا يمكن التوصل الى أى قرار قبل انقضاء سنتين على الأقل ٠

كان الجميع يفهمون أن بيفين يريد كسب الوقت ٠ وفى ٢٥ فبراير أوضح وزير المستعمرات أن الالتجاء الى الأمم المتحدة لا يعنى أن بريطانيا بسبيل التخلى عن الانتداب، وانما هى تنشد نصيحة الامم المتحدة فيما عسى أن تتخذه لادارة الانتداب ٠

الا أنه فى يوم السبت الموافق أول مارس عبثت ارجون تسفاى ليومى بكل تقديرات بيفين أيما عبث ، اذ بدات موجة جديدة من الهجمات واسعة فى مداها ، سديد وعميقة فى نفاذها ٠ ففى القدس اخترقنا « منطقة أمن » الجيش البريطانى ، ونسف نادى الضباط المحاط بالأسلاك الشائكة وبمواقع المدافع الرشاشة ٠ تقدمت جماعة الاختراق دون ما عقبه ، وأظهرت جماعة السفر (التغطية) بقيادة أبشالوم حبيب مهارة وبسالة غير مألوفتين حتى لقد حطمت مقاومة العدو بدرجة مؤثرة قبل أن يبدأ الهجوم الرئيسى ٠ اشتبكت داورية من داوريات الشرطة البريطانية فى عرباتها المدرعة فى المعركة مع رجالنا ، الا أن قوة اقتحامنا خرجت من القتال منتصرة وتكبدت خسائر قليلة ، بينما كانت خسائر البريطانيين فادحة ٠

بعد مضى عدة ساعات ، مساء يوم السبت هذا ، قامت قوة اقتحامنا بما يزيد عن عشر هجمات فى أرجاء الاقليم ، بما فى ذلك معسكر البحرية فى حيفا ومعسكرات الجيش فى بيت ليد وبارديس حنا وراحابرتد

والحملات الميكانيكية العسكرية في مناطق طولكرم وبيتاح تيكفاه وكفار سيركين وقرية حاييم • وقد استمرت هذه العمليات صباح يوم الأحد ، وكللت جميعها بالنجاح ، حتى لقد أدهشت هذه الضربات العنيفة العدو نفسه •

كتب مراسل صحيفة ها آرتز من لندن : « كان الهجوم في القدس بمثابة صدمة نزلت بلندن في عطلة نهاية الاسبوع • خرجت صحف المساء بأعداد ملحقه تحمل عناوين ضخمة لكل تقرير جديد تلقته • وتؤكد الصحف أن هذه هي المرة الأولى التي قام فيها الارهابيون بالهجوم في يوم سبت ، وأبرزت ان الهجوم قد تم في داخل منطقة الأمن • وكرست صحيفة صاندى اكسبريس مقالتها الافتتاحية لأعمال الارهاب الأخيرة في فلسطين ، وذكرت صراحة أن « بريطانيا يجب عليها أن تخرج من فلسطين وأن تبقى بعيدة عنها » ، واستطردت قائلة أن « بريطانيا – خلافا لألمانيا النازية – لا تستطيع أن ترد على أعمال الارهاب بأعمال ارهابية مضادة ، ولكننا نستطيع أن نقيم العدل بالقوة والتصميم ، وأننا ينبغي أن نفعل ذلك من غير ما ابطاء • ويجب علينا كذلك أن نعلن على الملأ فورا عقدنا العزم عليه من التخلي عن المسئولية بمجرد أن نستطيع اجلاء قواتنا عن الاقليم ، ولابد من اجلائها على الفور » •

على الرغم من مزاعم صاندى اكسبريس ، أجابت السلطات البريطانية على الارهاب « بارهاب مضاد » ، وفي خلال أربع وعشرين ساعة من هجماتنا أعلنت الأحكام العرفية التي كانت تهددنا عدة شهور ، ودخلت الخطة التي كانت قد أعدت – بناء على تصريح صدر في لندن – بمعرفة الفيلد مارشال « مونتجومرى » ، مرحلة التنفيذ في اليوم الثاني من شهر مارس • كم من الناس يدركون ما تعنيه الأحكام العرفية ؟ فلنتدبر المواد الأساسية للخطة البريطانية :

١ – وضعت جميع المناطق التي شملتها الأحكام العرفية تحت سيطرة الجيش ، وقد اعتمد المندوب السامي القائد العسكري لكل منطقة بمثابة حاكم عسكري في منطقته •

٢ – أغلقت جميع المكاتب الحكومية وعطلت خدماتها المتعلقة بالجمهور •

٣ – عطلت جميع المحاكم •

٤ – اعلن الحاكم العسكري قيام محكمة عسكرية •

٥ ــ خول الحاكم العسكرى سلطة تعطيل المصارف والبنوك ٠

٦ ــ عطلت الخدمات البريدية ٠

٧ ــ قصرت خدمة التليفون على قائمة محدودة معتمدة من الحاكم العسكرى ٠

٨ ــ منعت التحركات من والى جميع المناطق ، فيما عدا نقل الضرورات الجوهرية بموجب تصريحات خاصة يصدق عليها الحاكم العسكرى ٠

٩ ــ خول الحاكم العسكرى سلطة مصادرة الأرض والبيوت ووسائل النقل ٠

١٠ ــ اخضعت الشرطة لقيادة الحاكم العسكرى ٠

١١ ــ خول لكل جندى سلطة القبض باعتباره عضوا فى قوة الشرطة ٠

١٢ ــ خول للحكام العسكريين سلطة اقامة المحاكم للمحاكمات العاجله ٠

١٣ ــ منعت تحركات الاومايبوسات وجميع وسائل النقل الميكانيكية الأخرى فى داخل المناطق الا بموجب تصريح خاص ٠

وفى الثالث من شهر مارس استمع مجلس العموم البريطانى الى بيان جديد ألقاه وزير المستعمرات عن « الفوران » فى فلسطين ٠ وأوضح المستر « كريتش جونز » أن الحكومة البريطانية صدقت على فرض الأحكام العرفية فى مناطق معينة ، ثم اضاف أن « السلطات الفلسطينية سوف تلقى التأييد التام من الحكومة فى أية اجراءات اضافية قد تدعو اليها الضرورة » ٠

نهض المستر تشرشل ليسأل : « لماذا يظن أن الاجراءات المقترحة الآن خليقة بأن تكون أكثر فعالية من الاجراءات التى اتخذت فى فترات مختلفة بعد الاعتداءات المشابهة ، ابان الاثنى عشر شهرا الماضية ؟ » ٠

أجاب وزير المستعمرات بأن ما حدث آنئذ هو اعلان الأحكام العرفية الدستورية ، أى أن الأمر لا يقتصر على حصر المناطق جميعها فحسب ، بل تجرى عمليات تفتيش واسعة النطاق بالاضافة الى ذلك ، كما أوقف العمل بالقانون المدنى فى الوقت الحاضر ٠

طالب المستر « سيمور كوكس » الوزير بالتدبر فى موقف مواز لهذا الموقف كان قد حدث فى أيرلندة قبل ذلك الوقت بسبع وعشرين سنة ، فأجاب الوزير بأن ذلك الأمر كان فى حسبان الحكومة فعلا ٠

الا أن هذه الأسئلة والاجابة عليها لم تكن مثل أهمية المناقشة فى مجلس العموم التى جاءت نتيجة لضرباتنا يوم أول مارس ٠ لقد ضرب ونستون تشرشل فى الصميم فى وستمنستر ، كما أصيب الهدف فى ليك سكس بالأمم المتحدة ٠ وبناء على تقرير رويتر عن المناقشة التاريخية فى البرلمان :

« كان المستر ونستون تشرشل يصيح غاضبا ويدق على صندوق الرسائل الموضوع أمامه وهو يطالب فى مجلس العموم ، اليوم ، بأن يعرف الى متى ستظل حالة الحرب الدنسة هذه فى فلسطين قبل أن يمكن التوصل الى قرار بشأنها ٠ وقال انها تتكلف من ثلاثين الى أربعين مليونا من الجنيهات الاسترلينية سنويا ، بالاضافة الى ابقاء مائة ألف رجل انجليزى بعيدا مع القوات العسكرية » ٠

اجاب المستر كريتش جونز ، الذى كان قد قدم لتوه بيانا عن أعمال الشغب يوم السبت حيث قتل ثمانية عشر وأصيب ثمانية وعشرون ، بأن الحكومة تقدر الموقف الخطير فى فلسطين وأنها ستتخذ كل الخطوات لانهاء ذلك الموقف المفجع باسرع ما يمكن ٠ ثم قال ان التصرف الفورى فى أيدى القائد العسكرى بعد التشاور مع المندوب السامى ٠وذكر ان الحكومة تقدر الحاجة الملحة الى ايجاد مخرج من هذه المعضلة ٠

لم يقتنع المستر تشرشل الذى سأل قائلا : « الى متى سيظل الحال هكذا ؟ » ٠ وكرر السؤال بصوت أعلى ثم قال : « ألا توجد وسيلة لاستعجال النداء الى الأمم المتحدة ، أم هل أننا سنكتفى بمجرد الانسياق على غير هدى شهرا بعد شهر مع هذا الشغب المفزع والاجراءات المضادة غير المرغوب فيها وان كانت واجبة ضرورية رغم أنها مؤلمة ؟ الى متى سنبقى على هذا الحال ؟ ألا يمكن عمل أى شىء لاستعجال النداء ؟ » ٠

أجاب المستر كريتش جونز بأن تلك مسألة مختلفة ، وأن الحكومة تقدر اهمية استعجال الأمر ، وأنها اتخذت بالفعل الخطوات المناسبة لنرى ما اذا كان فى الامكان استعجال الأمر بالنسبة الى اجراءات الأمم المتحدة ٠

الا أن المستر تشرشل كان لايزال غير مقتنع : « متى يتوقع أن

يكون الوزير فى موقف يعلن فيه أن الأمم المتحدة ستكون قادرة على أن تولى هذا الأمر الملح عنايتها التامة ؟ » ·

أجاب المستر كريتش جونز : « أنا لا أستطيع الاجابة فى هـــذه اللحظة ، ولكنى استطيع أن أؤكد أننا نتابع تحرياتنا فى نيويورك بمنتهى ما يمكننا من سرعة وآمل أن تمكن فى خلال أسبوع من اعلان مدى التقدم الذى حققته تحرياتنا » ·

المستر تشرشل : « هذا اذا وجهت السؤال فى خلال اسبوع » ·

كريتش جونز : « سأبذل كل ما فى وسعى للاجابة » ·

وهكذا يتضح ان جنود قوة اقتحام أرجون بضرباتهم التى ضربوها فى أول مارس سنة ١٩٤٧ استطاعوا أن يدفعوا العجلات البريطانيـــة والدولية البطيئة الى التحرك · طالبت الصحافة البريطانية جميعها الحكومة باستعجال اتصالها بالأمم المتحدة · وفى الرابع من شهر مارس أعلن فى لندن أن بريطانيا أرسلت مذكرة عاجلة الى المستر « تريجفى لى » تقترح تشكيل لجنة خاصة من الأمم المتحدة لمناقشة المشكلة الفلسطينية قبل حلول دورة الخريف للجمعية العامة ·

لم يعط المستر تشرسل الحكومة أية فرصة للراحة ، حتى لقـــد أشار ، فى المناقشات الخاصة بالهند ، الى مسألة فلسطين وكرر فى اصرار وجهات النظر التى كان قد أعرب عنها فى مناسبات كثيرة سابقة ·

قال فى يوم ٦ مارس : « فى فلسطين الصغيرة هذه ، علينا أن ننفق كل ما فى خزائننا ونحتفظ بمائة ألف رجل يمشون هناك فى ظروف مؤلمة ، بينما ليست هناك أية مصلحة لنا فى المسألة » · ثم اضاف أنه كان قد حث الحكومة منذ وقت مضى لكى تعيد موضوع انتدابها الى الأمم المتحدة وترجو مساعدتها اذا لم تكن قادرة على حفظ القانون والنظام فى فلسطين ·

كانت السلطات البريطانية ، فى غضـــون ذلك ، لا تزال تحاول الحفاظ على ماء وجهها · استمرت الأحكام العرفية المفروضة على القـــدس ومنطقة تل أبيب « بتاح تيكفاه » خمسة عشر يوما ·

ويجب أن يذكر أنه فى هذه الأيام العصيبة أظهرت جموع الناس شجاعة شعبية عجيبة · بدا الزعماء الرسميون فى حالة حرج وحيرة ، لكن روح الشعب كانت عالية : منعتهم السلطات البريطانية من السفر

فى الامنيبوسات فاستخدموا العربات التى تجرها الدواب كما استعملوا الدراجات ، بل انهم كانوا يسافرون مشيا عـــلى الأقدام ، مستهزئين بالحكومة · لم يعد هناك محل للخوف ، فكنت ترى الرجـــال والنساء يضحكون من وراء حواجز الأســلاك الشائكة ، كما كان الأطفال يتغنون بصوت عال : « شقائق النعمان ، شقائق النعمان » ، وهى الأغنية التهكمية الشعبية عن الفرقة السادسة المحمولة جوا ·

وقامت المقاومة ، كما ذكرت آنفا ، بدورها هى الأخرى عندما فرضت الحكومة الأحكام العرفية وكان لها من وراء ذلك هدفان متقابلان ، « هدف أقصى » و « هدف أدنى » · وكان الهدف الأول هو الأمل فى رؤية المقاومة تتحطم وتتحلل فينشق قادتها ويعتقل جنودها فى اللطرون ، وسرعـــان ما تبخر هذا الحلم · حينئذ راود الحكومة الأمل فى أن ينبتوا ان الاجراءات الجديدة خليقة بأن تؤدى الى شلل المقاومة · وانه لانجاز كبير لو أن الأحكام العرفيه استطاعت أن تمنع الارهابيين من القيام بمزيد من الهجمات ! عقدنا العزم على ان نبذل كل ما فى جهدنا لاحباط مشروع مونتجمرى بهدفيه « الأقصى » و « الأدنى » ، وخلال هذين الأسبوعين الحرجين ضربت قوة اقتحام أرجون ، مع قوة شتيرن ، العدو بلا هوادة ومن غير ما توقف · ولم يكن البريجادير « ديفيز » هو الوحيد الذى تكلم فى معسكر «سكنيلر» الحربى عن قوة « الكوماندوز الضاربة » ، بل ان الصحافة البريطانية والأمريكية وصفت هجوم « الكوماندوز اليهود فى القدس » وصفا رائعا مسهبا ·

والحق ان قوة اقتحام أرجون كانت قوة فدائية ممتازة قل أن يوجد لها نظير · فى هذه الفترة غيرنا أساليب معيشة رجالها فلم يسمح لهم بالعودة الى بيوتهم أو أعمالهم بعد اشتراكهم فى أية عملية هجومية ، بل كانوا يبقون ويتفرقون فى جماعات صغيرة تنتشر فى الحقـــول وفى بساتين البرتقال وفى الغابات ، وكانوا يفاجئون العدو فى الأماكن التى كان لا يتوقع وجودهم فيها ·

عندما رفعت الأحكام العرفية ، التى لم تحقق شيئا لأولئك الذين فرضوها اللهم الا المزيد من المهانة ، شعرنا بانتصار حقيقى · ولما جاء « جيدى » لمقابلتى ــ وكان متعبا بعد ليال من العمل المتواصل ، وان كان سعيدا ــ أطلقت العنان لمشاعرى للمرة الأولى · وقف جيدى ، طبقا للمادة المرعية فى المقاومة ، فى وضـــع « انتبـــاه » ، منتظرا أن أفتتح المحادثة ، الا أننى ألقيت عبء « القائد » الثقيل عن كاهلى جانبا ، فأحطته بذراعى

وتمتمت قائلا : « لقد انتصرت يا جيدى ، لقد انتصرت ، وانتصر رجالنا » ٠

كان الجيش البريطانى يقلد الأسلوب الألمانى فى تخصيص أسماء كوديةعكسية للعمليات الحربية ، فكانت عمليات الأحكام العرفية فى القدس وتل أبيب تسمى « الفيل » و « فرس البحر » ـ وفى ذلك ايعاز بتحطيم المقاومة تحت وطأة الأقدام الهائلة ٠ الا أن الأحكام العرفية باءت بالفشل الذريع وتمخض « الفيل » و « فرس البحر » عن فأر ! ومرة أخرى تأيدت شكوك تشرشل ٠

فى أعقاب الطلب الذى تقدمت به بريطانيا الى المستر «تريجفى لى» لاستعجال المناقشة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، جرى تبادل وجهات النظر الدبلوماسية بين لنــدن وواشنطن و « ليك سكس » وباريس و « تشنج كنج » وروسيا السوفيتية ودول أخرى ، فاتفق على معارضة فكرة تعيين لجنة للتحقيق بصورة آلية ، ورؤى عقد دورة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة لمناقشة « المسالة العاجلة جدا » ٠ وفى أوائل ابريل أرسل المستر تريجفى لى مذكرة بريطانيا العاجلة الى جميع اعضاء الأمم المتحدة فكانت الاجابات فورية ، وأعلن ان الأمم المتحدة ستناقش المسألة الفلسطينية فى جلسة خاصة يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ وليس فى دورة سبتمبر العادية ٠

الفصل الخامس والعشرون

مفترق طرق التاريخ

(١)

يجب أن نقف هنا لحظة ، فنحن على عتبة نقطة تحول حتمية فى تاريخ أرض اسرائيل • ان تصريح « بيفين » العنيد بأنه لا يرى كيف تستطيع الأمم المتحدة أن تتناول مشكلة فلسطين قبل حلول شهر سبتمبر لم يكن مجرد ملاحظة غير متعمدة • لقد كان يحاور ، انه يريد ان يكسب بعض الوقت ، سنة ان أمكن ، يستطيع خلالها أن يجرى اتصالات مع حكومة الولايات المتحدة ومع حكومات أخرى • ولعله يستطيع ايضا أن يتوصل الى اتفاق مع الولايات المتحدة بشأن أرض اسرائيل لو أتيح له مزيد من الوقت • والشىء المؤكد هو أنه كلما أتيح مزيد من الوقت ازدادت قوة العرب زيادة عظيمة فى السلاح وفى المدربين على السواء • فماذا اذن ، يكون موقفنا عند بدء الغزو ؟

قد يثور جدل بأن اليهود أيضا سوف يستغلون الوقت لتقوية استعداداتهم الحربية • ويؤسفنى أن أقول ان أساس هذا الفرض أساس غير سليم • ان أخطاء الزعماء الصهيونيين لا تنشأ من البغضاء ، ولكنها تنجم عن التفكير الدال على الرغبة والتمنى وعن الظواهر الكاذبة • لقد خدع الزعماء أنفسهم فى الاعتقاد بأن التقسيم سوف يتحقق « دون ما ارباك غير لائق » • وحتى فى يناير سنة ١٩٤٨ عندما كان الاقليم يعانى من آلام الغزو العربى ، أخبرنى عضو بارز فى الوكالة اليهودية ،

كما اخبر رفاقى : « اننا لسنا متأكدين مما اذا كان البريطانيون معنا أو ضدنا ! » . وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٤٧ كان المستر بن جوريون يجادل فى خطاب طويل بأن طلب اقامة دولة يهودية فى كل أرض اسرائيل الغربية انما هو مطلب نظرى آنئذ ، وأننا يجب علينا — والأمر كذلك — أن نطالب بدولة يهودية فى جزء من أرض اسرائيل ، تاركين الانتداب فى الباقى . كما توهم هؤلاء الزعماء ظاهرة أخرى ، هى انشاء قوة دولية بوساطة الأمم المتحدة لكى تفرض التقسيم وتمكنها من المحافظة على السلام فى أرض اسرائيل أثناء فترة الانتقال .

أيدت الوكالة اليهودية فى مذكرتها الى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة اقتراح لجنة التنفيذ الفاشلة الذى كان يقضى بتنظيم قوة دولية لتنفيذ التقسيم . وفى يناير سنة ١٩٤٨ عندما كانت الحرب العربية المحلية على أشدها قدم المستر بن جوريون للصحافة تصريحا صيغ باتقان، قال فيه :

« اننا نطلب معونة الأمم المتحدة فهى حقنا ، واذ نفعل ذلك فانما نفعله دون ما مطمع » .

أما من حيث أنها « حق » فذلك أمر مسلم به .. لكن « المطمع » ؟

كان هؤلاء الزعماء يتخبطون فى بحر لجى من الأوهام ، وذلك هو السبب الذى من أجله لا يمكن افتراض أنه على مدى سنة أخرى — سنة سلام — مع السيطرة البريطانية المحكمة فى القدس ، كان اليهود ، تحت زعامة ضالة عمياء ، يستطيعون أن يدعموا استعداداتهم الحربية بحيث تتناسب مع الاستعدادات التى يتخذها البريطانيون فى نابلس وعمان وبغداد ودمشق وبيروت . ولسوف يعلم الأحفاد أننا فى يوم السبت الوضاء ، الموافق أول مارس سنة ١٩٤٧ ، مهدنا السبيل لنقطة التحول فى تاريخ بلدنا وشعبنا . لقد حرمنا العدو من الوقت لاستعداداته السرية ، كما استعجلنا الأحداث سنة كاملة . ان اى انسان يستطيع أن يقدر ماذا عسى أن تعنى هذه السنة لنا ، ويستطيع أن يدرك أن الشعب اليهودى يدين بالشكر لأبنائه فى قوة اقتحام أرجون تسفاى ليومى . لقد بدأت هذه القوة يوم أول مارس هجومها على « جولد شميدت هاوس » فى القدس وانتهت فى اليوم الثانى فى « بتاح تيكفاه » — وهكذا وجهت ضربة ترددت فى لندن وليك سكس ، وفى واشنطن وموسكو وباريس .

أى نـوع من التوجيهات سيتسلح به المندوبون البريطانيون لدى ظهورهم أمام الدورة الخاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة عن فلسطين ، التى ينتظر افتتاحها فى الثامن والعشرين من شهر أبريل ؟ لقد كانت الحكومة فى حالة استسلام واضح « للارهابيين » . كان بيفين يرجو مناقشة فى شهر سبتمبر فأجبرته ارجون على أن يبدأ المناقشة فى شهر أبريل . فرض مونتجمرى وماكميلان الاحكام العرفية . فضربت المقاومة كلا من الفيلد مارشال والجنرال على حد سواء . رفع باركر سوط عذابه فجلدنا ضباطه . لقد جعل حكم الحكومة البريطانية من نفسه هدفا للتهكم واللوم والسخرية ، فتساءل الناس بلغات كثيرة : « اى نوع من أنواع الحكومة هـذا ؟ كيف تستطيع حكومة كهـذه أن تبقى فى ادارة شئون فلسطين ؟ » . وماذا قال « كريتش جونز » نفسه ؟ لقد أخبر البرلمان البريطانى لدى رفع الأحكام العرفية فى صراحة مفاجئة : « اننا لم نكن نتوقع البتة أن تضع الأحكام العرفية حدا للارهاب » .

انها خلفية جد محزنة للقضية التى كانت معروضة أمام « قضـاء العالم » ، ولذا عقدت السلطات البريطانية العزم على أن تتصرف . لقد خسرت المعركة ، الا ان المشنقة كانت لا تزال تحت تصرفها . وهكذا قررت السلطات ــ فى لندن وليس فى القدس ــ أن ترفع من هيبة حكمها المتداعية عن طريق حبل الجلاد . وفى الصباح الباكر من يوم ١٧ أبريل سـنة ١٩٤٧ شنق جرونر وريزنر والكوشى وكاشانى . نفذت الحكومة هـذه الأحكام فى سرعة محمومة . ويتضح اليوم لماذا سارعت وراوغت ، ولماذا نقضت وعدها العلنى بانتظار حكم مجلس البلاط الملكى . لم يكن لدى الحكومة فسحة من الوقت ، ففى الثامن والعشرين من أبريل ستفتتح الدورة الخاصة للأمم المتحدة ، وينبغى أن تسوق المشنقة الدليل الى العالم بأن ذراع الحكومة الأيمن لا يزال قويا فعالا ، ولابد أن يلقى جبروت السلطة البريطانيـة الأضواء على المشـهد الذى أعدته عندما يرتفع الستار عن موكب الجمعية العامة . وعلى أية حال ، فان توقيت تنفيذ اربعة احكام بالشنق بينما تجرى الجمعية مناقشة مسألة فلسطين بالفعل هو توقيت سيىء .

وهكذا عندما التقى مندوبو الأمم لمناقشة المسألة الفلسطينية بعـد انقضاء عشرة أيام ، لم يستطع أحد منهم أن يقول ان نظام حكم بيفين قد أذعن للارهابيين ، وانه أضعف من أن يحكم فلسطين . ولم تكن أحكام

الاعدام الأربعة هذه هي كل ما هنالك على أية حال ، بل كان هناك مزيد منها فى طريقه الى التنفيذ ، فهناك « فاينشتين » و « برازانى » ، وقد تحدد لاعدامهما الخامس والعشرون من شهر أبريل · ماذا كان يطالب به « أوليفر ستانلى » فى فلسطين ؟ « سلطة قوية نافذة » كوسيلة لفرض سياسة الحكومة ، فأقيمت المشانق تشهد على « السلطة القوية النافذة » ·

لكن فى الرابع من شهر مايو ، بينما كانت الجمعية العمومية للأمم المتحدة تناقش ما اذا كانت تدعو الممثلين اليهود للظهور أمامها أم لا ، استطعنا أن نقلب خطط بيفين رأسا على عقب ، فاخترقت قوة اقتحامنا قلعة عكا ·

وفى اليوم التالى كتب مراسل صحيفة ها آرتس فى لندن :

« قوبل الهجوم على سجن عكا هنا باعتباره ضربة قاصمة للهيبة البريطانية ، وذلك بعد أن قدم تنفيذ أحكام الاعدام شنقا أمسية اجتماع الأمم المتحدة بيانا عمليا عن سيطرة بريطانيا القوية على الموقف · وتصف الدوائر العسكرية الهجوم بأنه عمل عسكرى رائع ! وقد تكلمت مع عدد من رجال الشارع الذين قالوا : لقد حان الوقت لنا لكى نخرج منها » ·

« ولا تظهر أنباء اجتماعات الأمم المتحدة فى الصحافة ، فيما عدا التايمز ومانشستر جارديان · أما حادث عكا فيشغل نصف الصفحة الأولى فى كل صحيفة مؤيدا بالصور والخرائط ، وتصفه بعض الصحف بأنه أعظم عملية اقتحام سجن فى التاريخ ، وتضيف أن السلطات كانت تعتبر سجن عكا سجنا منيعا · وتفيد برقيات رويتر أن السلطات الفلسطينية غارقة فى الفوضى والحيرة بسبب هروب كثير من الارهابيين · لقد ذهبت جهود الشهور الطويلة فى العمل والتفتيش والقبض والمحاكمات والتحريات عبثا ، ودعمت ارجون بعدد من المتعصبين » ·

وفى السادس من شهر مايو أفاد مراسل صحيفة ها آرتس فى الدورة الخاصة للأمم المتحدة بقوله : « لقد سببت الحوادث فى عكا احساسا هائلا هناك » ·

وقعت الدوائر السياسية فى لندن فى حيرة ، ففى مجلس العموم قال أحد الأعضاء : « لم يسبق قط أن حدث شىء مثل هذا فى تاريخ الامبراطورية البريطانية » · وفى الثالث عشر من شهر مايو استرعى الميجور « راينر » انتباه الحكومة الى تهديدات ارجون للجنود البريطانيين

« كان يشير الى بياننا بأن أى جندى بريطانى يقع فى أيدينا سوف يحاكم أمام مجلس عسكرى ميدانى » ، وأجاب الناطق بلسان وزارة الحربية أن السلطات الفلسطينية قد ابلغت وزارة الحرب بهذه التهديدات . وأنه أصدر نداء فوريا الى اليهود للمساعدة . ثم قال : « وأنا متأكد من أن جميع اليهود المسئولين سوف يرغبون فى أن يبرئوا انفسهم نهائيا من هذا التهديد . وسوف تتخذ أشد الاجراءات لمحاكمة الارهابيين الذين يحاولون اختطاف او قتل البريطانيين الذين يباشرون واجباتهم » .

كان لهذه التهديدات ان توضع موضع الاختبار .

وفى ظل عملية عكا ـ أعظم عملية اقتحام سجن فى التاريخ ـ انتهت الدورة الخاصة للجمعية العمومية للامم المتحدة ، وعينت لجنـــة تحقيق خاصة . وقبل نهاية الدورة قدم المستر « جروميكو » المبعوث السوفييتى خطابه الشهير الذى أبرز التغيير الحاسم فى مسلك السوفييت ازاء اليهود الذين يكافحون من أجل استقلالهم الوطنى ، كما أكد جروميكو فى حديثه افلاس نظام الحكم البريطانى فى أرض اسرائيل فقال : « يتضح هذا أيضا من الاحداث الدامية فى فلسطين التى تزداد أكثر فأكثر بصفة دائمة ، كما اتضح من واقع احالة الحكومة البريطانية المسألة الفلسطينية الى الامم المتحـــدة » .

وفى اليوم الرابع من شهر يونية تأكد افلاس نظام حكم الانتداب فى أرض اسرائيل من مصدر بريطانى رسمى ، فقد نشر فى ذلك اليوم تقرير المندوب الســامى البريطـانى عن الهجوم على عكا . كتب الجنرال « كننجهام » :

« ان مجرد وجود أعداد من الجنود أو رجال الشرطة لا يضمن الأمن ضد الهجوم على المبانى والكبارى والمنشآت العامة مثل مكاتب البريد ومئات الأميال من الطرق والسكك الحديدية وخطوط أنابيب البترول ، كما أن الدفاع الكامل عن هذه المنشآت ضد الهجمات المنظمة التى قد تحدث فى أى مكان وفى أى وقت من الليل أو النهار ليس اقتراحا عمليا بطبيعة الحـال .

« وان وضع المتفجرات فى حوائط المبانى تحت ستر النيران أسلوب ألمانى استخدم بنجـاح فى سنة ١٩٤٠ ضـد أقوى المواقع الحصينة فى أوروبا . وهو خليق بأن يتم فى أى الظروف اذا ما أجرى بمهارة وتصميم ودون ما اكتراث للخسائر . وتزداد فرص نجاح هذه الهجمات فى اقليم

مثل فلسطين حيث تصمم الفئات التى تحترم القانون ، لأسباب سياسية محضة ، على ألا تبقى بمعزل عن المهاجمين الذين يظهرون تبعا لذلك من بين السكان المدنيين ويحتفظون بالمبادأة التـــامة وبكل ميزات العمليات الحربية ·

« وكما اكدت سابقا ، تعمل الشعبة الخاصة تحت ظروف قاهرة ، ظروف تعانى فيها من نواحى العجز فى الوضع الحالى بفلسطين · اننى لا أسلم بالرأى القائل بأن خدمة المخابرات فشلت فشلا ظاهرا ، أو بانه يمكن مقارنة الموقف هنا بما حدث فى البنغال فى الثلاثينات كما اوعز بذلك مؤخرا · ويجب الا يغيب عن البال ان المنشقين فى فلسطين مدربون على تكتيكات المقاومة التى كان يستخدمها رجال المقاومة فى أوروبا خلال الحرب الأخيرة » ·

استخدمت الحكومة حبل الجلاد مرة أخرى بغية زيادة هيبتها التى وصلت الى نقطة الصفر بعد الهجوم على عكا · أعدم ثلاثة من المهاجمين على عكا ، فشنق ابشالوم حبيب ومائير ناكار ويعقوب فايس فى التاسع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٤٧ · ومرة اخرى حاول نظام حكم بيفين أن يتبت أنه لا يزال محتفظا « بالسلطة القوية » على الرغم من الهجوم على عكا ، وذلك بمحاولة سحق النشاط غير المشروع « بكل الوسائل الموجودة تحت تصرفه » — على حد تعبير صحيفة ديلى تلجراف ·

لكن خاب فال رجال نظام حكم بيفين ، فاتضح لهم أن ما حسبوه أملا لم يكن سوى شرك قاتل · لقد زرعوا المتاعب فحصدوا المشانق · وفى يوم ٣٠ يوليو وقد وضعنا تحذيرنا بالشنق المضاد موضع التنفيذ ، أصيبت الامبراطورية البريطانية كلها برجفة شديدة ، ووسط اللعن والسباب اللذين انصبا على « الارهابيين الأوغاد » انبعثت صرخة مدوية فى بريطانيا أن « اخرجوا · يجب أن نخرج من فلسطين ! أخرجوا جنودنا من فلسطين ! » · اشترك قليل من المشاغبين البريطانيين فى أعمال عنف متفرقة امتدت من تل أبيب الى جلاسجو ، الا أنها لم تؤد الا الى زيـــادة متاعب « السلطة المتمدينة » ·

فشلت سياسة « السلطة القوية » عن طريق حبل الجلاد ، وتسبب الاعدام المشروع فى العقاب ·

وأخيرا أدرك الشعب البريطانى مغبة معارضة مولد الدولة ·

وبعد مضى ستة أسابيع ذهب المندوبون البريطانيون الى جمعية الأمم المتحدة ترافقهم جلبة الراى العام البريطانى . و بان في ر ند ب المستر « كريتش جونز » فى رحلته الى نيويورك النغم المتوافق الصادر من الصحافة البريطانية ان « اخرجوا من فلسطين ! » . وفى الثانى عشر من شهر سبتمبر أعلن وزير المستعمرات البريطانى فى صراحه انه اذا لم تجد الأمم المتحدة حلا مقبولا من « الطرفين كليهما » ، العرب واليهود ، فان البريطانيين سوف يسحبون قواتهم وادارتهم من فلسطين . وفى اليوم التالى افادت الصحافة العالمية ان اعلان الانسحاب هذا قوبل من الشعب البريطانى عامة « بالارتياح والرضا » .

وتلك أيضا حركة تكتيكية بالطبع ، ترجو الحكومة البريطانية من ورائها أن تؤثر على الولايات المتحدة وعلى الدول الاخرى ، فضلا عن التأثير على اليهود والعرب . لماذا لا نسعى الى حل متفق عليه ؟ لماذا لا تحاول تحقيق المساهمة الأمريكية في المسئولية ؟ الا أن المناورة كانت غير مجدية ، فقد قبلت كلمة « الانسحاب » العجيبة ، واستحال التخلص من تاثيرها السحرى .

يعرف فقهاء الشريعة « قانون الحياة » الفطرى للتشريع . ان أى قانون ما هو الا ثمرة فكر الانسان وعمله ، ولكن ما أن يسن القانون حتى ينطلق متحررا من الذين شرعوه ، تماما كما ينطلق الذى يبلغ سن الرشد من سيطرة والديه ، فيبدا القانون يحيى حياته الخاصه ، واحيانا ماتكون عواقبه مختلفة تماما عن تلك التى قصدها المشرعون . وتنطبق هذه القاعدة انطباقا تاما على التصريحات السياسية التاريخية ، فهذه التصريحات — عندما وضعت أو أعلنت لأول مرة — كان ينظر اليها من زوايا معينة ولأهداف معينة ، ولكنها — بعد أن ظهرت فى حيز الوجود — قد تحرك قوى لم يكن يتوقعها أولئك الذين ابتدعوا هذه التصريحات . فاذا قررت الحكومة البريطانية اعلان انسحابها عن أرض اسرائيل فانها كانت تفكر فى عدة أهداف بعينها ، الا أن كلمة « الجلاء » فى حد ذاتها بدأت من فورها تثبت وجودها المستقل ، وما من شيء يستطيع الآن أن يرد المد الذى أحدثته . كانت همة السلطات البريطانية فى أرض اسرائيل كليلة جدا ، فلم تتمكن من ممارسة اللعبة من جديد : لعبة الارهاب بالنهار والخوف بالليل ، لعبة المعزل (الجيتو) والمعتقل ، لعبة الهجوم المفاجيء والجلد والشنق ، فانتشر وهن العزيمة المترتب على الجلاء المرتقب بين عشرات الآلاف من الجنود في جيش الاحتلال . لقد كانوا يجلسون على «العقارب»

عددا من السنين ، ومن ثم كان سرورهم بالغا بالأنباء الطيبة لرحيلهم الباكر ـ تلك الانباء التى بعثت فيهم الارتياح المادى والمعنوى ٠ كيف يمكن استرجاع الروح المعنوية لجيش واهن العزيمة كهذا ؟ حدث نفس رد الفعل فى الجزر البريطانية ، حيث ابتهج الناس هناك للانباء الطيبة ، انباء انسحاب « الاولاد » ٠ وكان من المتعذر حينئذ ان يطلب من ملايين البريطانيين ، المهتمين مباشرة أو عن طريق غير مباشر بمصير « الأولاد » فى الجيش البريطانى ، أن يهيئوا أنفسهم بتجديد « حربهم الدنسة » اليائسة ٠

استمرت وزارة الخارجية البريطانية تمارس المناورة ، وترددت حكومة الولايات المتحدة عدة مرات ، فطلبت دعوة دورة أخرى للجمعية العمومية للأمم المتحدة حيث اقترح نظام « للوصاية » بدلا من التقسيم ، وأوعزت الولايات المتحدة بأن تكون بريطانيا هى الوصية ٠ الا أن هذه المناورة لم تفلح فى انقاذ الموقف ٠ وأدركت الحكومة أنه مهما أطلق من المسميات على نظام حكمها فانه لن يطاق ، ولسوف تعمل المقاومة على تهشيمه بصفة مستمرة ، ولسوف تستمر الحلقة المفرغة فى دوامة تجلب الدوار والدمار ٠ لم يعد هناك ، بعد ، أى مطمع فى « سلطة قوية نافذة» ٠

فى الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٨ استقل المندوب السامى البريطانى سفينة حربية بريطانية بعد أن أدى له التحية حرس شرف ، كما أدى التحية للعلم وهو نازل من ساريته ٠٠

وانتصر التمرد !

الفصل السادس والعشرون

تهديد جديد

أثناء انعقاد دورة الأمم المتحدة في خريف سنة ١٩٤٧ ، بدأنا نحذر شعبنا من المخطط السرى « لاستمالة » عملية غزو تقوم بها الدول العربية • فى ذلك الوقت كان كثير من الناس ـ حتى فى خارج الزعامة الرسمية ـ يميلون الى الاعتقاد بأن الحل الوسط الذى يقوم على التقسيم سوف يتحقق بين طرفيه بسلام ، أو عن طريق « السلطة العليا » للأمم المتحدة • ومع هذا كنا نرى أخطارا جسيمة فى هذا التفاؤل الساذج • لم تسيطر علينا الأوهام ازاء نوايا الحكومة ، كما أننا كنا لا نحس بالوهم ازاء وجود « فرق » المستر « تريجفى لى » الخيالية • الا أن هذين الوهمين ـ اللذين سيطرا لفترة معينة على أذهان كثير من اليهود الرسميين وغير الرسميين ـ تراكما فى الأفق وقوضا التصميم وأديا الى أخطر الكوارث •

ربما بدا هذان الوهمان محيرين فى هذا الوقت وعلى ضوء الأحداث المتعاقبة ، محيرين حقا لدرجة يصعب معها أن ندرك كيف أنهما كانا يتعايشان فى الأذهان التى كانت توصف بالذكاء ، الا أن الدهشة الطبيعية لا تغير شيئا من واقع الحقيقة التى ظهرت • والواقع أن ارجون تسفاى ليومى اضطرت الى تعبئة كل وسائل التثقيف المتاحة للمقاومة فى محاولة لتبديد هذه السحب ، سحب التفاؤل الساذج • ولا يجوز أن يقال ان سعينا كان عبثا ، الا أننى لا أستطيع ، من ناحية أخرى ، أن أزعم أننا نجحنا نجاحا تاما ، وانما كانت الأحداث المريرة ، التى أكدت تحذيراتنا، هى التى أوضحت رؤية الأفق بينما كان يزداد احمرارا من النار والدم •

في أول اكتوبر سنة ١٩٤٧ ، قدمنا في « صوت صهيون المحارب » تحليلا لاعلان المستر كريتش جونز عن عزم الحكومة البريطانية على الجلاء ، واحتمال تشكيل قوة دولية لتحقيق التقسيم ، فأخبر مذيع راديو المقاومة الناس أن :

« بريطانيا تعلم أن الامم المتحدة ليس لديها قوة عسكرية خاصة بها ، وأن أقصى ما تستطيع الجمعية العمومية ان توصى به هو اقامة نظام حكم دولى وقوة بوليس دولية • الا ان هناك شيئا واحدا مؤكدا ، هو أن قرار الجمعية العمومية لا يمكن أن يستبعد الاتحاد السوفييتى من الاسهام فى القوة الدولية • لقد اســتبعد الاتحاد السوفييتى من اللجنة الخاصة للأمم المتحدة بشأن فلسطين بالقرار التمويهى الذى نص على عدم اشراك اى من الأعضاء الدائمين بمجلس الأمن فى هذه اللجنة • ان اتخاذ قرار مشابه فيما يتعلق بالقوة العسكرية الدولية أمر غير معقول ، الا أنه اذا اتخذ قرار من هــذا القبيل فلن يمنع من مساهمة دول مثــل بولنده أو يوغوسلافيا أو تشيكوسلوفاكيا • وفى تقدير بريطانيا ان هذا ما لاتسمح به الولايات المتحدة مهما كان • وبعبارة أخرى ، يتعذر اتخاذ قرار بتشكيل قوة دولية دون أن تشارك فيها روسيا ، ولن ترضى الولايات المتحــدة بتشكيل قوة تسهم فيها روسيا » ! •

وفى الثانى عشر من شهر أكتوبر سمع الصوت المحذر مرة أخرى من راديو المقاومة •

قال : « ان مؤامرة الحكومة البريطانية واضحة ، يراها الجميع • ان العدو يحاول اليوم أن يجعلنا نسلم بمشروع بيفين • سينسحب جيش الاحتلال من المناطق المتاخمة للدول العربية لكى يمكن عصابات كريسلنج من اعداد القبضة المسلحة ضد شعبنا ، وسيستمر الحصار البحرى » •

وفى السادس عشر من شهر نوفمبر ، أى قبل أن تتخذ الأمم المتحدة قرار تقسيم أرض اسرائيل بأسبوعين ، أطلقنا الانذار مرة أخرى من اذاعة « صوت صهيون المحارب » :

« ان الجمهور يقع تحت طائلة ثلاثة أوهام تبناها زعماؤه :

الوهم الأول — أن تقسيم الاقليم اذا حصل على أغلبية ثلثى الأصوات فى الجمعية العمومية للأمم المتحدة فانه سوف يطبق بالوسائل السلمية •

والوهم الثانى — انه اذا نشبت الحرب فى أرض اسرائيل كنتيجة

بهجوم يديره عملاء الحكومة البريطانية فان لجنة الأمم المتحدة المتمركزة فى القدس سوف تعمل على اعادة السلام بأسرع ما يمكن ٠

والوهم الثالث ـ انه اذا أخفق ممثلو الأمم المتحدة فى مهمتهم كرسل للسلام فان مجلس الأمن سوف يتدخل ، ويصدر الأمر ، ثم يوقف الحرب باشارة من يده ٠

« ان هذه الأوهام كلها جد خطيرة ، فالتفاؤل الرسمى الذى يرتبط بمأساة تقسيم الاقليم التاريخية لايقوم على أساس من الحقيقة ٠ ولما كان من طبيعة البشر أن يعتقد المرء أن كل شيء سيكون على ما يرام بدلا من أن يجابه الحقائق ببصيرة متفتحة ، فان هناك خطرا من أن تعجز الأيدى ، ومن أنه عندما تتخطانا الأحداث الحاسمة فاننا لن نكون على أهبة الاستعداد معنويا وتنظيميا لمقابلتها ٠

« لذا كان من الجوهرى أن نحطم هذه الأوهام ٠ ان من الجوهرى أن نخبر الشعب بالحقيقة ٠ ان من الجوهرى أن يطلب من الشعب أن يعدوا أنفسهم للحرب وليس للراحة ، وان يعدوا أنفسهم للمعارك والتضحيه لا للمواكب والاحتفالات ٠ وليكن ذلك واضحا تماما ، أن مشروع التقسيم ليس مشروع سلام ، على الرغم من التخلى الكامن عن الأرض ـ ذلك التخلى الذى يفتقر الى الصلاحية الشرعية ٠ ان مجرد انشاء هذا « الحى اليهودى » فى أرض وطننا سوف ينفذ وسط ألسنة اللهب وأنهار الدم » ٠

وبعد مضى يومين عاد « صوت صهيون المحارب » الى التحذير من جديد : « ان هذه الدولة الكاريكاتيرية يجب أن ندفع من أجلها غاليا من الأرواح من خيرة أبنائنا ٠ ان من المحقق أن الدم الذى سيراق فى الأيام القادمة لكى تفرض التقسيم لن يكون أقل مما ينبغى لنا أن ندفعه من أجل تحرير أرض الوطن كلها » ٠

وفى الثالث والعشرين من شهر نوفمبر تناولنا المخطط البريطانى من جديد ، فقال « صوت صهيون المحارب » :

١ ـ سيستمر الحصار البحرى ٠

٢ ـ سوف لا يسمح بدخول العائدين أو الأدوات الحربية الى الوطن ٠

٣ ـ سوف تترك حدود الأرض مفتوحة يتدفق منها العرب المسلحون بالأسلحة البريطانية لمهاجمة مدننا وقرانا ٠

٤ – سيظل جيش الاحتلال محتفظا بالمواقع الاستراتيجية الحاكمة ، وسوف يحد من حرية تصرف القوات اليهودية » ٠

وبعد عدة أيام ، أوضحنا فى صحيفتنا الداخلية «دانيم» (الأوراق) :
« سوف تتطور المقاومة العربية ، يؤيدها البريطانيون ، بوسائل شتى ٠ لن يقيم العرب أية حكومة فى المنطقة التى ستخصص لهم بموجب قرار الأمم المتحدة ، لأن اقامة مثل هذه الحكومة تعنى موافقة عملية على خطة التقسيم ، ويحتمل ألا يستطيع عبد الله اقامة مثل هذه الحكومة أيضـا ٠ ففى المقام الأول لن يسمح له نصيره البريطانى بعمل ذلك ٠ ومن ناحية أخرى ، فانه لا يود ، بل انه لا يستطيع ، أن ينصب نفسه ، ضد دنيا العرب جميعها (ومعظمها لا يدين له بالحب) ، حليفا للصهيونيين ، يساعدهم على تنفيذ مشروع التقسـيم ٠ واذا ما قام الفيلق العـربى بالعمل خلال الأشهر القادمة فانه سوف يكلف بأعمال التخريب والتدمير التى تظهر عبد الله بصفة المدافع عن اخوانه العرب » ٠

لعل من المناسب أن نقارن هذا التحليل بعبارات المستر بن جوريون الذى أعرب فيما بعد عن اعتقاده فى النوايا السلمية للملك عبد الله ، « الحاكم العاقل » ٠

فى التاسع والعشرين من شهر نوفمبر ، وافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة على اقتراح باقامة دولة يهودية ودولة عربية فى أرض اسرائيل، وربط الدولتين فى اتحاد اقتصادى ، مع فصل القدس ، «المدينة الدولية»، عنهما كلتيهما ٠ كان سرور شعبنا زائدا ، الا أن ارجون ذكرت بأن « أرض الوطن » قد قطعت ، كما حذرت من أن الحرب تدق على الأبواب ٠ وقد أكدنا عقيدة محاربى المقاومة لأول وهلة ، فقلنا :

« ان تقسيم أرض الوطن اجراء غير شرعى ولن يعترف به البتة ٠ ان توقيع الأفراد والمؤسسات على اتفاقية التقسيم باطل ولن يكون ملزما للشعب اليهودى ، فلقد كانت القدس ، وستبقى أبدا ، عاصمتنا ، ولابد أن تعود أرض اسرائيل الى شعب اسرائيل ، كلها ، والى الأبد » ٠

ثم مضينا فى بياننا مرة أخرى فقلنا :

« ان التقسيم لن يحقق السلام فى بلدنا ٠ هناك احتمالان من وجهة النظر العربية : اما أنهم يريدون ، ويستطيعون ، أن يهبوا الى السلاح ضد الحكم اليهودى ، أو أنهم لا يريدون ولا يستطيعون ذلك ٠ ففى الحالة الأولى سيحاربون حتى ضد دولة التقسيم ، وفى الحالة الثـانية سوف

لا يحاربون ضد الحكم اليهودى حتى ولو امتد ذلك الحكم بحيث يشمل كل الاقليم •

« ان حلم ايجاد قوة دولية لفرض التقسيم باسم الأمم المتحدة أخذ في التبخر كما حذرنا منذ عدة أشهر • وينبغى أن نقف وحدنا فى الحرب القادمة بلا ريب ، بينما تصدر الأمم المتحدة نداءات أكاديمية من أجل السلام ، وهى نداءات اختبرت قيمتها فعلا فى أماكن أخرى •

« الا أن من المحقق أنه عندما تنشب هذه الحرب ـ وسوف تبذل الحكومة البريطانية قصارى جهدها لترى أنها سوف تنشب ـ فانها سوف تكون حربا من أجل بقائنا ومستقبلنا ، وسوف تتحد كل القوى اليهودية فى تلك الحرب • ان هذه الحرب خليقة بأن تغير كل شىء » •

وفى ذلك اليوم بالذات أصدرنا بيانا خاصا بالحالة السائدة الى جميع جنود ارجون تسفاى ليومى : « ان مفاهيم الدولة والحكومة والجيش التى اذعناها سنوات عديدة فى وجه التكذيب والاستهزاء من قبل أولئك الأشخاص الذين يبدون اليوم وقد أسكرتهم فكرة الدولة ، قد أصبحت حلم شعب اسرائيل الغالى • وعندما قيل للشعب ان هذا الحلم قد تحقق كان طبيعيا أن يغمرهم السرور •

« ولا ينبغى لنا أن نلوم الشعب •

« لكن فلنمض مرفوعى الرأس ، ولنقل لهم : اننا نحن الذين قدمنا أرواحنا ليوم الفداء لسنا مبتهجين ، لأن أرض الوطن لم تتحرر ولكنها شوهت • ان الدولة التى كافحنا من أجلها منذ أيام الشباب ، الدولة التى ستمنح الحرية للشعب وتضمن مستقبل أبنائه ـ تلك الدولة لا تزال هدف جيلنا هذا ! » •

رفع قرار الأمم المتحدة الصادر يوم ٢٩ نوفمبر من حرارة التفاؤل فى أرض اسرائيل • حقيقة ، انه فى اليوم التالى لصدور هذا القرار قام العرب بهجمات فتاكة فى المدن وعلى الطرق ، الا أن العامة والزعماء الرسميين كانوا يواسون أنفسهم بأن ذلك لم يكن يعدو «فورانا تظاهريا» • كان التصور العام هو أنه لم يكن هناك سبب للخوف من قيام حرب على مستوى خطير • ظل صوت ارجون الذى يحذر من الحرب والذى ازداد شدة ، ثم انتهى بالغزو الذى قامت به الجيوش العربية النظامية ، هو الصوت الوحيد الذى يصرخ فى القفار •

أمن زعماء الوكالة اليهودية ايمانا صبيانيا بالجدول الزمني المدون فى قرار الأمم المتحدة ، واحتضنت الحكومة البريطانية هذا الاعتقاد ، فتكلم مندوبها فى «ليك سكسس» سير « الكساندر كادوجان » ووزير مستعمراتها المستر « كريتش جونز » فى دقة متناهية عن « قبول حكم المؤسسة الدولية العليا » ٠

وحتى فى ديسمبر سنة ١٩٤٧ أخبرنا زعماء الوكالة اليهودية بأنهم يعتقدون انه فى أول فبراير سوف يفتح لنا مرفأ طبقا للتوصيات التى تضمنها قرار ٢٩ نوفمبر ٠ وفى براءة ، كانت الوكالة مقتنعة بأنه عن طريق هذا المرفأ ، الذى سيكون تحت تصرفنا نهائيا ، سوف يسمح لنا باحضار كمية ضخمة من الأسلحة والعتاد ٠ حاولت ارجون جاهدة ان تقنع الوكالة بخطئها ، فأوضحنا لها أن البريطانيين ان هم فتحوا لنا مرفأ فان ذلك يعنى تقديمهم معونة مباشرة لنا فى كفاحنا مع العرب ، بينما واقع الأمر أن المساعدة الوحيدة التى يريد البريطانيون أن يقدموها لنا هى أن يمسكوا بنا بينما نحن غارقون ليطمئنوا الى غرقنا ٠ ولم تفلح مجادلتنا فى تحطيم الأوهام الجميلة التى كان يتعلق بها الزعماء ٠

ترتب على ذلك أنه فى خلال شهرى ديسمبر ويناير لم تبذل الجهود الضرورية للحصول على الأسلحة والعتاد رغم أن فرص احرازها كانت جد عظيمة ٠ كان هذان الشهران حاسمين ، وكان الثمن الذى دفعناه نظير ضياعهما غاليا بصورة مفجعة ، فقد صرح أحد ممثلى المؤسسات الأهلية ، مخلصا ، لمندوب ارجون تسفاى ليومى : « كان هذا اهمالا مريعا ، ولابد أن يقدم المسئولون عنه الى المحاكمة » ٠

فى مستهل ديسمبر نشرنا نداء الى الشعب اعتبرناه واحدا من أهم ما نشرته ارجون ، وكان عنوانه « اننا نحذر » ، ذكرنا فيه :

« ان الخطر الأعظم الذى يتهددنا هو أننا لا ندرك فى الوقت المناسب جسامة الخطر المباشر الذى يكتنفنا ٠ يجب أن يعرف الشعب الحقيقة ، لأن ذلك فقط هو الكفيل بأن يحول دون وقوع الكارثة ٠

« سيستمر الحصار البحرى خمسة أشهر ، ولن يسمح البريطانيون بأية تعزيزات فى الرجال أو فى المواد الحربية ٠ سيراق الدم اليهودى ، وستؤخذ الأسلحة وتستهلك الذخيرة ، وسيلقى القبض على المحاربين والمدافعين اليهود أو يقتلون بأيدى المشاغبين المحرضين ، وسوف يقوض اقتصادنا ان لم ينهر ، وستشل المواصلات ٠

« سيظل الحال على هذا المنوال طوال خمسة اشهر ، وبعدئذ ، وفى ليلة الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٨ ، مع نهاية الحكم البريطانى ، ستسقط نقط الحدود الأرضية لبلدنا • لن يكون هناك حرس يهودى على الحدود ، لأن معظم هذه الحدود فى المناطق المخصصة للدولة العربية بموجب مشروع التقسيم المدمر • سيجىء عبر هذه الحدود ـ التى ستزول صفتها الدولية ـ وقتئذ ـ آلاف من السفاحين المزودين بالأسلحة البريطانية •

« يجب علينا ، اذن ، أن نستعد بينما لا تزال هناك فسحة من الوقت • يجب علينا أولا ، وقبل كل شىء ، أن ننهى موقفنا الدفاعى ، ويجب أن نلجأ الى الهجوم • يجب ان نهاجم قواعد القتلة •

« ان ما ينبغى لنا أن نعده ليس خططا دفاعية محلية ، وانما هو مخطط استراتيجى ممتد لصد الهجمات وللتحضير للهجوم الذى سيتعهده جيش التحرير العبرى • يجب أن تعـد التحضيرات فى الخارج ، ويجب تنظيم دورات تدريب جديدة للمحاربين المتمرسين •

« يتم كل هذا بوساطة القوات المتحدة • ان كلا منا ، بلا استثناء ، سوف يواجه نفس الأخطار ، فالموقف خطير للغاية ، وستكون الحرب شاقة، تتطلب تضحيات باهظة ، ولكن يجب ألا نفزع ، فاذا نحن أدركنا جميعا ما ينبغى لنا أن نفعله استطعنا أن نوجه الضربة الى العدو » •

لم نكتف ، كعادتنا ، باصدار هذا النداء فحسب ، بل أتبعنا النداء ، الذى ايدته الأحداث ، بالعمل • وبعد أسبوعين من هجمات العرب بدأ جنود ارجون أول هجوم مضاد شنته القوات اليهودية • وطوال أيام ثلاثة فى المدة من ١١ الى ١٣ ديسمبر ، ضربت وحداتنا مراكز تجمع المشاغبين وقواعد هجومهم • هاجمنا حيفا ويافا ، وهاجمنا طيرة وياتسور ، وهاجمنا القدس مرارا وتكرارا • ذهبنا الى قرية العدوان ـ قرية « شعفات » على طريق الجامعة العبرية • نفذنا الى « يهودية » وقضينا نهائيا على عصابة مسلحة كانت قد اتخذت من تلك القرية قاعدة لهجماتها • كانت خسائر العدو من القتلى والجرحى جسيمة •

فيمت صحيفة هاآرتس هذه الهجمات كما يلى : « حدث تغيير جذرى فى الموقف بسبب العمليات التى قامت بها ارجون على نطاق واسع » • كان التغيير جذريا بالطبع ، ففيما مضى كانت القوات اليهودية جميعها ـ بما فى ذلك وحداتنا ـ متمركزة فى مواقع دفاعية محلية • انك تستطيع أن « تتمركز » فقط فى المواقع الدفاعية الا انك لا تستطيع أن تغزو

منها • ان الاجراءات الدفاعية لا تحول دون وقوع الخسائر ، ولكنها تخول للعدو الاحتفاظ بالمبادأة ، كما أنها تعرضـــك للهجمات المفاجئة • انها تدعم روح العدو المعنوية وتحط من معنويات المدافعين بصورة آلية • وليس من شك فى أن الهجوم هو وسيلة الدفاع المؤثرة • وقد أثبت « خط ماجينو » هذه النظـرية أكثر مما أثبتته الكتب الموضـــوعة عن الاستراتيجية فى العالم •

اعاد هجومنا المضاد ، الشامل فى مجاله ، والمركز فى فاعليته ، الى العرب الشعور بالتناسب ، وأعاد الثقة فى نفوس شعبنا ، كما أنه علم المراقبين الاجانب ألا يتعجلوا فى استنتاجاتهم عن « ضعف اليهود » •

كان التغيير جوهريا ، ففى أعقاب هجومنا المضاد انتقلت القوات اليهودية جميعا الى الهجوم على قواعد العدو • وحتى المستر بن جوريون استطاع ان يجد عبارات المديح لعملياتنا ، ولو أنه ــ بالطبع ــ عندما أعرب عن ذلك لم يكن يعرف أننا نحن الذين قمنا بهـــذه الهجمات ، فأخبر الصحفيين فى اليوم التالى لهجومنا على طيرة : « هلا ترون كيف ان فتيتنا قادرون ؟ » • ولقد كانت تغلب عليه فكرة أن ذلك الهجوم قام به أعضاء من الهاجاناه •

عندما رأينا الصـــدام الوشيك الوقوع بيننا وبين القوات العربية يقترب أكثر فأكثر ، عكفنا على العمل فى اعادة تنظيم هيئتنا المحاربة • بدأنا فى تحويل هيكل المقـــاومة لوحـــداتنا ، وشكلنا وحـــدات نظامية للمعركة • فتحنا صفوفنا للمتطوعين الذين بدأوا يتدفقون علينا بالآلاف • أنشأنا وحدة تخطيط خاصة يراسها « جيدى » • أقمنا أول معســكر حربى لنا فى بساتين البرتقال فى بتاح تيكفاه ورامات جان • غيرنا أساليب تدريبنا ، انتقلنا من التدريب على الهجمات المحلية بوحدات صغيرة الى التدريب على المعارك المفتوحة • وكان يخيم على كل هذه الاستعدادات الاهتمام بامداد الأسلحة • وخلافا للمؤسسات اليهودية الرسمية ، ما كان لنا أن نتهم أنفســنا بالاهمال ، لقد كنا نحول كل ما تيسر لنا من المال الى أسلحة ، واستطعنا ، بالكمية الصغيرة التى كانت تحت تصرفنا ، أن نمضى سنوات عدة فى كفاحنا من أجل التحرير ضد جيش الاحتلال القوى • كان تحت تصرف المؤسسات اليهودية الرسمية مبالغ هائلة •

فى شهر أغسطس ١٩٤٦ ، اقرت الهاجاناه بعجزها ، بعـد تسعة أشهر من الكفاح ضد البريطانيين • كانت سنوات التمرد بالنسبة لها

سنوات طمأنينة ممتدة وسنوات تدريب سلمى واستعداد . الا أنه عندما
حان يوم الحساب انكشف هذا « الاستعداد » بكل ما فيه من عقم وجدب
كانت الهاجاناه ، التى عبأت لتسليحها جميع موارد الشعب اليهـودى
المالية وكل جهوده ، لا تمتلك سوى القليل من البنادق والرشاشات ،
وبضع عشرات من قنابل الهاون . وبطبيعة الحال ، حارب أعضاء الهاجاناه
ـ مثلهم مثل أعضاء ارجون وشتيرن ـ ضد العرب بشجاعة نادرة . وثبت
الشباب اليهودى باسلحته الهزيلة فى وجه الدبابات والمدافع. لكن ما أكثر
ما كان يمكن انقاذه من الأرواح ، وكم من أجزاء غالية من أرض الاقليم
كان يمكن استرجاعها ، لولا الرضا أيام « الاستعداد » ، أو الاهمال الذى
نجم عن الافتقار الى الرؤية السياسية افتقارا يرثى له !

الفصل السابع والعشرون

معنى الحرية

تركز جل اهتمامنا فى الحصول على الأسلحة لمحاربى ارجون ، فلقد شهدنا روحهم القتالية ونحن نعض على أنيابنا مع الغيظ لعدم استطاعتنا وضع الأسلحة الضرورية فى أيديهم . كان العملاء والجنود البريطانيون يترصدون لأعضاء ارجون وكان علينا أن نحذر كلما خطونا خطوة ، مع هذا بذلنا جهدا عظيما لتطوير ورش صناعة أسلحتنا . ان انتاج ذخيرة الحرب عملية صناعية معقدة ، وما أشد ما كابدنا من حبوط المسعى قبل أن يتاح لنا اطلاق أول رشاش صنع بأيدى ارجون ! وما أشد ما عاناه رجالنا من قنوط كلما أرسلوا الى جبهة القتال وهم لا يحملون فى أيديهم سوى بنادق « ستن » ! ومع هذا نجحنا خلال أشهر قلاقل فى انتاج عدة آلاف من الرشاشات القصيرة ، وآلاف كثيرة من القنابل اليدوية ، وكمية من مدافع الهاون « ٣ بوصة » المؤثرة . لكن انتاج القنابل كان لايزال فى المهد ، وكان الاستيلاء على حمولة قطار من القنابل لا يزال فى طى الغيب .

تطلب انتاج هذه الأسلحة ، كما تطلبت صيانة المعسكرات ، مبالغ أضخم مما كان تحت تصرفنا . وبعد التدبر فى ذلك الأمر عقدنا العزم على التقدم بنداء الى الشعب للاسهام فى مجهود أرجون الحربى . ولم يكن اتخاذ ذلك القرار بالأمر الهين ، فلقد كان يعنى كشف شخصية مئات كثيرة من رجال المقاومة ، كما كان يعنى ، تبعا لذلك ، نبذ السرية إطلاقا . وكان علينا أن نتدبر فيما اذا لم يكن ذلك الأمر سابقا لأوانه .

وما كان لنا أن نختار • لقد فضلنا أن نتجشم هذا الخطر على أن ننهى العمل فى ورش ارجون ، فتلك خطوة تنطوى على تهديد أكبر للشعب اليهودى الذى يستعد للقتال • هكذا ، ولأول مرة ، قدم مندوبو المقاومة أنفسهم للشعب الذى كان لا يرى منهم فيما مضى سوى عيون لا صقى الاعلانات •• طلبنا مساعدة الجمهور فى تدبير « صندوق الحديد » لارجون ، فكانت استجابة الشعب جد مدهشة ، لا بالنسبة لنا فحسب بل بالنسبة لخصومنا كذلك •

مع هذا ، حمل التحريض الذى أوعزت به الخسة ثماره ففى « الميدان المغربى » فى قلب تل أبيب ، أمر ضابط من ضابط الهاجاناه جنوده بالقاء قنابل يدوية على حشد كبير من الجماهير ممن اجتمعوا للاستماع الى اذاعة محلية كانت ارجون قد رتبتها للدعوة الى « اعتماد الحديد » • أصيب عدد كبير من الناس وكانت اصابة بعضهم خفيفة ، كما كانت اصابة البعض الآخر خطيرة • غضب الجمهور غضبا شديدا ، وأخذوا يتساءلون : أمن أجل هذا أعطيت الأسلحة للهاجاناه ؟

خرجت فى تلك الليلة الى طريق اللنبى ، وكانت هذه هى المرة الأولى منذ عدة سنوات التى خرجت فيها للفسحة من أجل الفسحة رغم مافى ذلك من انتهاك صارخ لقواعد الحيطة المألوفة • لم أصطحب أحدا معى ، وربما استطاع كثيرون أن يتعرفوا على •• كان البريطانيون لا يزالون يحكمون الأقليم •

اتصلت فى تلك الليلة اتصالا مباشرا ، وان كان من جانب واحد ، بالآلاف من المواطنين العبريين • وقفت بين عشرات من الجماعات التى كانت تتناقش • هنا وهناك تبينت النظرة المندهشة المتسائلة من رفيق نعرف على ، الا أن الأعين سرعان ما كانت تتحول عنى وكأنها لم تر شيئا • أما بالنسبة للباقين فقد كنت مجرد عابر سبيل غريب أراد أن يسمع ما يقال عما حدث فى « الميدان المغربى » ••

فى تلك الليلة اكتشفت معنى الحرية التى أنعشت شعبنا • لم تزعجهم القنابل اليدوية التى ألقيت على الجموع الكبيرة ولكنها أغضبتهم • لم يكن الذين يتناقشون فى الشارع كلهم أصدقاء ارجون ، الا أن كل واحد منهم كان يستنكر ذلك العمل الارهابى الجبان • هل كانوا يظنون أنهم يستطيعون أن يكمموا فم أى أحد فى اسرائيل بقنبلة يدوية ؟ لقد

كان السؤال البليغ يوضع باهتمام على حد سواء من يهود ألمانيا المتبلدين ومن يهود اليمن ذوى المزاج الحاد .

كما رأيت تلك الليلة أن هذا الشعب لن يتحمل الاضطهاد من الخارج وان يطيق الطغيان من الداخل . انه شعب شديد المراس ، تجرى الحرية فى دمه .

حدث المشهد البشع فى « الميدان المغربى » بينما كانت المفاوضات جارية مع ممثلى الوكالة اليهودية لعقد اتفاق فى العمليات بين الهيئات المحاربة . بدأت المفاوضات فى منتصف ديسمبر ، واستمرت عدة أشهر . كان محركها الرئيسى . المستر « اسحاق جرينباوم » ، وقد اشترك فيها بالاضافة الى المستر « جرينباوم » كل من « موشى شبيرو » وكان تأييده للاتفاق نشيطا للغاية ، والحاخام « فيشمان » (الذى سبق أن قابلته مرة واحدة فقط عندما كنت صبيا فى العاشرة من عمرى ورحبت به لدى زيارته لمدرستى فى « بريست ليتوفسك ») ، والمستر « ديفيد ريميز » وهو من زعماء الماباى والهستدروت الذى صعد فى وجه معارضة المستر « بن جوريون » ليؤيد الاتفاقية ، والمستر « بينكوس » أحد زعماء « مزراحى » وهو الذى جرت المحادثات الممتدة فى منزله والحاخام الأكبر الدكتور لويس رابينوفيتس » من جنوب أفريقيا الذى وصل فى الأيام العصيبة ، أيام « صندق الحديد » وحادث « الميدان المغربى » . ومثلت أنا أرجون فى المفاوضات ، مع « صموئيل » و « ابراهام » .

كان كل المفاوضين يشعرون بمسئوليتهم الجسيمة ، وكانت الهجمات العربية تتزايد يوميا حقيقة ، ان زعماء الوكالة فى هذه المرحلة لم يكونوا ، بعد ، متأكدين من وجود « الخطة البريطانية » ، الا أنهم سرعان ما أدركوا أن توقعاتنا السياسية كانت صحيحة بالحرف الواحد . أغفلت فقرات الجدول الزمنى الموضوع فىقرار الأمم المتحدة الصادر فى ٢٩ نوفمبر فقرة فى اثر فقرة لم يفتح أى مرفأ فى أول فبراير سنة ١٩٤٨ ، لأن الحكومة البريطانية رفضت أن تفتحه .. لم تشكل مجالس الحكومة المحلية للدولتين المستقلتين المقرر تشكيلهما بمعرفة لجنة التنفيذ التابعة للأمم المتحدة ، لأن العرب ـ بناء على نصيحة الممثلين البريطانيين ـ رفضوا تشكيل هذا المجلس ، ولأن الحكومة البريطانية كانت مصممة على الا تستقبل لجنة التنفيذ فى أرض اسرائيل . واخيرا أدركت الوكالة اليهودية أن « البيشوف » لن تبقى مالم ـ على حد تعبير صحيفة المقاومة

« حيروت » ــ نسق الصلب العبرى ، وتعزز قواتنا ، ونبنى مستقبلنا بقوة سواعدنا · ومع أن ظلال حملة الاضطهاد والتشهير التى أعلنتها الأحزاب السياسية ضد أرجون كانت تحلق فوق المفاوضات ، الا أننا لم نتردد فى أن نمد أيدينا مرة أخرى الى خصومنا السياسيين ، اذ بدا لنا أن تأسيس جبهة مقاتلة متحدة كان أمرا حيويا للغاية · ومع هذا فان المفاوضات هددت بالتوقف فى منتصف يناير ليحل محلها كفاح مهلك ، فقد اختطفت وحدة من الهاجاناه واحدا من خيرة ضباطنا فى حيفا هـــو « يديديا سيجال » ·

و « يديديا » ابن أسرة رائدة قديمة ، جمعت بين الأرستقراطية الروحية والاعتماد الدينى المخلص فى الكفاح من أجل الحرية · اختطف « يديديا » بعد أسبوعين من الوعد الذى قطعه رئيس الهاجاناه شخصيا لاعضاء الوكالة اليهودية الذين كانوا يتفاوضون معنا بأنه لن يكون هناك أى اختطافات أخـــرى · وقد أعطى هذا الوعد الى المستر « جرينباوم » والمستر « شبيرو » على أثر اختطاف واحد من أعضائنا ·

بناء على تحذيرنا ، كان على أعضائنا أن يأخذوا بالثأر ، فاحتجزوا واحدا من روساء مخابرات الهاجاناه فى حيفا ، ولم تفلح الجهود التى بذلتها الهاجاناه فى العثور عليه ·

وفى الثانى عشر من شهر يناير تلقى « عمون » قائد ارجون فى حيفا خطابا من قائد هاجاناه المحلى يقترح تبادل الاسرى ، فوافـق « عمون » وأطلق سراح رجل مخابرات الهاجاناه الذى أبلغ رؤساءه بأنه كان يعامل معاملة طيبة ، وأخلى سـبيل عضـو أرجون من أيدى الهاجاناه وعاد الى مقره ، وبناء على مساعدة رجال الهاجاه أفرج عن الرجل الثانى الذى كان لا يزال تحت قبضتهم ، الا انـه لم يرجـع الى مقره أو الى داره · والواقع أنه لم يعد اطلاقا : ذلك هو « يديديا سـيجال » الذى وجدت جثته فى قرية « طيرة » العربية التى تبعد مسافة طويلة عن المكان الذى كان محتجزا فيه ·

ظلت أمه التى كانت تجهل مصيره تبحث عنه ، فكانت ، لمدة ثلاثة أيام ، تتنقل من عامل الى آخـــر ، ومن قائد من قواد الهاجاناه الى قائد آخر ، وكلهم يخبرونها بأنه أخلى سبيل « يديديا » ، الا أنهم ما كانـوا ليستطيعوا أن يخبروها لماذا لم يعد الى منزله ·

وفى السادس عشر من شهر يناير أصدرت الهاجاناه بيانا توضح

فيه أن « يديديا » كان قد هرب من معسكر الاعتقال وأنه قتل بأيدى عرب « طيره » ٠

وقعنا مرة أخرى فى ورطة ٠ لم نكن نعرف ، بعد ، تفاصيل قتله ، وكانت الدعوة الى الأخذ بثأره عامة ، وعلى حين فجاة وجدنا أنفسنا ـ كلا منا ـ على شفا هاوية كان الشعب اليهودى يحارب من أجل بقائه ، وكان كل يوم يأتى بقائمة كبيرة من الضحايا ، وكان الغزو العربى متربصا على الافق كما علمنا . هل كتب علينا أن يقتتل اخواتنا فى مثل هذه الساعة ؟

هبت الأم الثكلى لمساعدتنا ، فقالت : « أنا لا أريد أن تكون اراقة دم ابنى سببا فى حرب أهلية » ٠

ومرة أخرى وقفنا على حافة الكارثة ، فقد عادت المرحلة المفجعة التى حتمت مصير القدس المحاصرة منذ تسعة عشر قرنا من الزمان ٠

لكننا أخبرنا زعماء الوكالة اليهودية بأننا لن نمضى فى التفاوض ما لم تشكل لجنة تحقيق عامة لتحدد مسئولية القتل ٠ وبعد أن تقدمنا بهذا الطلب شكلت لجنة من الحاخام « فيشمان » « والمستر » « جرينباوم » والمستر « شبيرو » ٠

كانت اجراءات اللجنة بطيئة جدا ٠ وبعد انقضاء أربعة أشهر ، أى فى الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٨ ، لم تتوصل اللجنة الى رأى نهائى ٠ وبسبب الغزو بقى المستر « جرينباوم » فى القدس وعطلت أعمال اللجنة ٠ وكان فى نهاية شهر يونيه أن أخبرنا « جرينباوم » بأنه يرى ، شخصيا ، أن الهاجاناه لم يقتلوا « يديديا سيجال » ٠

الفصل الثامن والعشرون
الاتفـــاقيـــة

بتشكيل لجنة التحقيق استؤنفت مفاوضاتنا مع الوكالة اليهودية ، ولم تكن الصعوبات العملية بأقل من الصعوبات السيكولوجية خطرا ٠

كنا نرى جبهتين لا جبهة واحدة ٠ كان الهدف الأساسى لتمردنا وهو تصفية الحكم البريطانى واجلاء جيش الاحتلال ، على وشك أن يتحقق ، الا أنه فى تلك اللحظة كانت القوات البريطانية بسبيل طرح التحفظ ٠٠ كانت الهجمات متكررة ، وكنا نثأر كما أخذنا بثأر قتل المدنيين الجماعى فى انفجار شارع بن يهودا ٠ رأينا الخطر الشديد ـ السياسى أيضا ـ فى احتمال تصور القوات البريطانية أنها تستطيع أن تطرح الردع طالما أنها كانت بسبيل مغادرة البلاد ، ومن ثم كان اصرارنا على مبدأ مقابلة الشر بالشر بالنسبة لكل الهجمات ٠

وافقنا على أن يستمر جنودنا فى الانضمام الى مراكز الدفاع الثابتة المحلية تحت القيادة المباشرة لضباطهم وتحت القيادة الشـاملة لقـادة الهاجاناه المحليين ٠ الا أننا لم نوافق بأية حال من الأحوال على سياسـة عدم مقاومة القوات البريطانية عندما تجيء للتفتيش عن الأسلحة اليهودية ونقلها ٠ وكانت الهاجاناه قد تابعت سياسة تسليم الأسلحة للبريطانيين (فقد كان الزعماء الرسـميون يشـعرون دائما بمركبات النقص ازاء البريطانيين) قرابة سـتة أشهر ٠٠ ومنذ بداية الهجمات العربيـة حتى

تصفية الادارة البريطانية استولى البريطانيون على مئات الأسلحة من أعضاء الهاجاناه ٠

نزع البريطانيون سلاح ثمانية أعضاء من الهاجاناه كانوا متمركزين فى مصنع « هايوستوك » بالقرب من تل أبيب وتركتهم من غير وسيلة للدفاع عن أنفسهم فى مواجهة قوة كبيرة من المهاجمين العرب الذين أجهزوا عليهم من فورهم ٠ وحدثت حوادث مشابهة فى القدس وفى عدد من الأماكن الأخرى ٠

ولم يكن ليطرأ على بالنا أن يسلم رجالنا أسلحتهم طائعين ، فقد استطاعوا فى عديد من الحالات أن يهربوا الأسلحة من المواقع قبل اجراء التفتيش المرتقب ٠ وحدث ذات مرة أن عكسوا الآية ، فأخذوا عدداً من البنادق والرشاشات من جماعة بريطانية كانت قد جاءت لتنزع سلاحهم ٠ كنا نعرف ، عن خبرة ، أنه اذا ما علمت السلطات البريطانية أن أية محاولة لنزع سلاح اليهود ستقابل بالرصاص وأنهم سيدفعون ثمنها دما ، صرفوا النظر عن هذه المبادلة غير المربحة ٠ ولذا طالبنا بأن تغير الهاجاناه ، هى الأخرى ، سياستها وتصدر أوامرها صراحة لأعضائها بأن يقاوموا ، وسألنا عما حدث فى أمر مبدأ « دفاع الدفاع » ٠ الا انه الم تكن هناك استجابة ولم يطرأ أى تغيير حتى أمسية الغزو العربى ٠ ومع هذا ، أصررنا على ضرورة الاتفاق صراحة بأن يقاوم جنود ارجون أية محاولة بريطانية لنزع سلاحهم ٠

وأصررنا ، بالمثل ، على مبدأ مصادرة الأسلحة البريطانية ما استطعنا الى ذلك سبيلا كما كان الحال أيام « حركة المقاومة » ٠ ولقد عرفنا أنه على الرغم من توقيع الاتفاقية ، وقبول ارجون قوة مقاتلة « معترفا بها » ، فاننا لن نتلقى من الاعتماد العام أية أسلحة أو أموال لشراء الأسلحة ٠ لذلك طالبنا بأن يكون لنا ، على الأقل ، مطلق الحرية فى الاستيلاء على الأسلحة من جيش الاحتلال المزود بها تزويدا كافيا ٠

لم تخلق مسألة الكفاح المشترك ضد المعتدين العرب أية صعوبات لا مبرر لها ٠ واذ انتقلت الهاجاناه ، هى الأخرى ، الى مبدأ الدفاع الهجومى ، فقد قبلنا أسلوب « حركة المقاومة » الذى كان يقضى بأن نقدم خطط عملياتنا الى قيادة الهاجاناه للتصديق عليها وأن نقوم بتنفيذها بموافقتها أيضا ٠

وعلى هذا الأساس ، وبعد مفاوضات مضنية ، أمكن التوصل الى اتفاق بين الوكالة اليهودية بوصفها السلطة العليا للهاجاناه وبين ارجون تسفاي ليومي • وقالت صحيفة « هاآرتس » انه عندما أصبح التوقيع على الاتفاقية مغلوما شربت القوات فى المواقع الدفاعية بجميع انحاء الاقليم نخب الوحدة القتالية •

وهذه نصـــوص الاتفاقية السرية بين الهاجاناه وارجون تسفاى ليومى :

١ ــ تخضع مواقع أرجون الدفاعية لقائد القطاع الذى تعينه الهاجاناه ، والذى يصدر أوامره الى ضباط هذه المواقع عن طريق ضابط تعينه ارجون تسفاى ليومى •

٢ ــ تخضع خطط الهجوم على الجبهة « أ » (الجبهة العربية) ، وكذا خطط الردع على الجبهة «ب» (البريطانيين) ، للتصديق المسبق (من الهاجاناه) ويتفق على التفاصيل المتعلقة بالهدف والتوقيت فى اجتماعات المندوبين والخبراء الفنيين • يضاف الى ذلك أن ارجون ستكون على أهبة الإستعداد للقيام بالخطط التى تخصص لها •

٣ ــ يرتبط أعضاء ارجون بمبدأ مقاومة المحاولات لنزع أسلحتهم • وفى ظروف خاصة معينة ينبغى لأعضاء ارجون فى المواقع الدفاعية أن يدخلوا فى الاعتبار موقف مواقع الهاجاناه القريبة من مواقعهم •

٤ ــ لا تجرى عمليات مصادرة الأموال فى المناطق التى يتولى فيها اليهود أعمال الشرطة • ومن جهـة أخرى ، لا يجوز ازعاج ارجون وهى بسبيل جمع الاعتمادات • وسوف تؤكد المؤسسات الأهلية فى الوطن وفى الدياسبورا على حد سواء أن ارجون لا تحصل على أية مخصصات من حملات الاعتمادات التى تدعو اليها احتياجات الأمن العامة (١) •

---

(١) عكست هذه المادة شكاوى خطيرة جاءت من عمال ارجون فى الدياسبورا مؤداها أن موظفى المنظمات الصهيونية المعنية بجمع التبرعات كانوا يشنون حربا أثيمة ضد أولئك الذين كانوا يجمعون الأموال لارجون • كان السلاح الفعـال الذى استخدموه ضد الذين يجمعون الأموال لارجون هو الأنباء غير الصادقة يتهامسون بها فيقولون أن ارجون كانت تتلقى المعونات من الاعتمادات الصيهونية ، ومن ثم كان قيامها بجمع الأموال على حدة عملا ضارا وغير ضرورى : ففى بريطانيا طالب بعض اليهود الوطنيين ، ممن كانوا أعضاء فخريين فى اللجنة المشتركة لاغاثة فلسطين ، بأن يعرفوا ما اذا كانت ارجون تتلقى فعلا حصة من =

٥ ـ ترسم خطط الاستيلاء على الأسلحة بعد التشاور المتبادل ، وتنفذ بالاتفاق المشترك ".

٦ ـ هذه الاتفاقية ، من حيث المبدأ ، خاضعة لا يضاح التفاصيل قبل أن تصبح نافذة المفعول • وسوف يتعهد المندوبون والخبراء الفنيون ايضاح هذه التفاصيل •

كان أشخاص « بارزون جدا » يؤيدون قبول نصيحة الجنرال « مارشال » التى كانت تشير بعدم اعلان قيام حكومة يهودية وبقبول « مشروع الوصاية » بدلا من ذلك • وقد صادف المستر بن جوريون ، الذى كان فى صف قيام حكومة يهودية ، صعوبات خطيرة فى داخل حزبه « ماباى » •

عقدنا العزم على أن نرمى بثقلنا فى الميزان ". لم يكن يشغل بالنا من الذى سيرأس الحكومة ، ولا كيفية تأليفها ، بل اننا كنا نعلن يوميا تقريبا ستقوم حكومة عبرية ، وحتى لو لم تشكلها الزعامة الرسمية فانها سوف تقوم • » •

فى هذه الأيام العصيبة جاءنى المستر « اليتبسر ليبنشاين » ، وهو واحد من معاونى المستر بن جوريون ، فأخبرنى أن المستر بن جوريون « يقدر » اعلاناتنا التى تطالب باقامة حكومة يهودية ، وقال انها ساعدته فعلا فى التغلب على المعارضة من الدوائر المختلفة ، ولكنه طلب منا أن نؤكد فى بياناتنا القادمة النقطة الايجابية أنه فى حالة قيام حكومة يهودية فاننا سوف نؤيدها بكل قوتنا •

= الأموال التى كان اليهود يكتتبون بها على أساس أنهم يفهمون ان ارجون تحصل فعلا على نصيب منها • وقد تلقى هؤلاء اجابة من عضو فى الوكالة بانه ! لا يمكن أن يتصور أن الوكالة اليهودية لا تقدم معونة الى الرجال الذين كانوا يدافعون عن اليشوف فى ساعة محنتها » • وربما قدمت هذه الاجابة المضللة بامانة ، ولعلها أن تكون قد جاءت من فلسطين ـ ذلك لأن اجابات مماثلة قدمت فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى جنوب افريقيا •

حافظ ممثلو ارجون مخلصين على تعهدهم باحترام سرية الاتفاقية التى وردت نصوصها فى هذه الصفحات ، ولما أن أوضح الدكتور « اسرائيل ليفشيتز » الموقف نائبا عن ارجون للدكتور « أبا هيلل سيلفر » فى الولايات المتحدة غضب هذا الأخير مما حدث ، وأعطاه خطابا للنشر احتوى على نص العبارات الواردة بالفقرة « ٤ » ، الا أن ضررا بليغا كان قد أصاب عملية جمع التبرعات لارجون فى الدياسبورا وقتئذ • وما أكثر الفتية الشجعان الذين راحوا ضحية عدم تسليحهم تسليحا كافيا نتيجة لهذه المناورة السياسية « البارعة » التى قام بها بعض الصهيونيين الذين كانوا يقومون بعملهم الوطنى تحت ظروف أقل بطولية لدرجة ما

أذعنت لهذا الطلب دون أى تردد · وبعد هذا الحديث ببضعة أيام، نشرنا البيان التالى :

« سوف تقوم الحكومة العبرية بكل تأكيد ، وليس هناك شك فى أنها ستقوم · واذا ما شكلها الزعماء الرسميون فاننا سوف نؤيدها بكل قوتنا ، ولكن اذا استسلموا للتهديدات أو سمحوا لأنفسهم بأن يداهنوا فسوف تكون قوتنا وقوة أغلبية الشـــباب المقاتلين من وراء حكومة حرة تقوم من أعماق المقاومة لتتولى قيادة الشعب الى النصر فى الحرب من أجل الحرية · » ·

نشرت ارجون تسفاى ليومى هذا البيان فى مستهل شــــهر مايو ١٩٤٨ ·

الفصل التاسع والعشرون

فتح يافا

(١)

في الأشهر التي سبقت الغزو العربي ، وبينما كانت الدول العربية الخمس (مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن) تجرى تحضيرات العدوان المدبر ، كنا دائبين على عمل هجمات في المنطقة العربية . وفي أوائل سنة ١٩٤٨ كنا نوضح لضباطنا ورجالنا أن هذا لم يكن كافيا . ان الهجمات من هـذا النوع ، التي تقوم بها أيـة قوات يهوديـة ، كانت ذات أهمية سيكولوجية كبرى ، كما كان لأثرها العسكرى قيمته من حيث انها زادت الجبهة العربية اتساعا وأجبرت الأعداء على أن يلتزموا سياسة الدفاع ؛ الا أنه كان معلوما لنا أن أشد هذه الهجمات جرأة لن يقدر له أن يقرر نتيجة المسألة . وقد تركز أملنا في السيطرة على الأرض .

في نهاية شهر يناير سنة ١٩٤٨ ، في اجتماع قيادة ارجون الذى شارك فيه قسم التخطيط ، حددنا أربعة أغراض استراتيجية : (١) القدس و (٢) يافا و (٣) سهل اللد ـ الرملة و (٤) المثلث (١) .

واذ حددنا هذه الأغراض بأنفسنا ، كنا نعرف أن تحقيقها سوف

---

(١) الاسم المستعمل عادة للمنطقة الآهلة بالعرب في وسط ارض اسرائيل الغربية والتي تقع في مثلث رؤوسه هي المدن الثلاث نابلس وجنين وطولكرم ، وتشكل معظم المنطقة غير الصحراوية غرب الأردن الموجودة الآن خارج دولة اسرائيل .

يتوقف على عوامل كثيرة ، ولكنهــا تتوقف أساسا على القــوة فى الرجال والسلاح مما يجب أن يكون تحت تصرفنا • وبالتالى قررنا أن نتناول هذه الخطط على أنها « بديلات » بمعنى أننا ننفذ منها ما نستطيع أن ننفذه • وكما حدث فانه لم ينفذ من الجوانب الأربعة للخطة الاستراتيجية سوى الجانب الثانى تنفيذا كاملا •

استطعنا أن نسجل بعض الانجازات فى ميدان المعركة فيما يتعلق بالجانبين الأول والثالث •

أما عن الجانب الرابع فلم تتح لنا الفرصة لكى نبدأ العمل فيه ، الا أن فتح يافا يبرز كحدث بالغ الأهمية فى الكفاح من أجل الاستقلال العبرى •

عندما عقدنا العزم على « الفتح الاستراتيجى » لم يكن لدينا من الأسلحة ما يكفى لأية عملية استراتيجية من أى نوع • وبينما كنا لا نحتكم على أوقية واحدة من المواد المتفجرة فى شهرى فبراير ومارس ، نجحنا فى شهر ابريل فى صناعة بضعة أطنان من مادة قوية جدا • وفى مارس كان لدينا عدد لا يذكر من الرشاشات ، الا أننا فى أبريل قمنا بعمليتى مصادرة بدلت موقف امداد وحداتنا • لقد أشبعنا لدرجة أن قوة نيراننا من قنابل الهاون فى ذلك الوقت كانت أشــــد كثيرا من قوة نيران الهاجاناه •

وفى الرابع عشر من شهر أبريل سنة ١٩٤٨ ، وجه « جيدى » وحدة اقتحاما تحت قيادة « يوشع » المباشرة الى المعسكر الحربى البريطانى رقم ٨٠ على مقربة من « بارديس حنا » حيث كان يعسكر آلاى مدفعية مضــادة للدبابات • تطورت هذه العملية الى هجوم بالمواجهة ضـــــد آلاى من آلايات الدرجة الأولى فى المدفعية البريطانية ، فحارب بضع عشرات ضد مئات وكسبوا المعركة •

أحاطت جماعة المقدمة بالحرس المسلح على بوابة المعسكر وفتحت طريقا لباقى الوحدات ، وكانت فى معاونتها سيارتان مدرعتان ، استولينا على واحدة منهما من الجيش البريطانى ، والثانية من الشرطة البريطانية • تعهدت واحدة من السيارتين جناح المعسكر الأيمن ، وتعهدت الثانية الجناح الأيسر ، وكان الهجوم المفاجئ وجيزا • وسرعان ما أصبح المعسكر بأسره فى أيدينا ، ووقع آلاى المدفعية المضادة للدبابات فى أسرنا •

فتح مستودع الأسلحة والذخيرة ، وبدأ التحميل . كان هناك بنادق ورشاشات قصيرة ورشاشات برن ومدافع مضادة للدبابات وذخيرة ، الا أن قوات العدو خارج المعسكر قامت بهجوم مضاد مفاجيء . حملت القوات المهاجمة ، تؤيدها عربة مدرعة بجنزير، على رتلنا الرئيسى . كان الخطر جسيما ، ينذر بتطور الموقف تطورا بالغ الأثر ، الا أن رجلا واحدا أنقذ الموقف ــ ذلك هو « جاكسون » الشجاع ، الذى غالبا ما استخدم لهجته الاسكتلندية لفائدتنا . قذف جاكسون بنفسه الى جانب العربة المدرعة ذات الجنزير وفتح بابها باستعمال المادة الناسفة وأحدق براكبيها .

وبذا حصل على عربة مدرعة أخرى لأرجون . فى غضون ذلك بدأت التعزيزات القوية تتوالى على خصومنا الذين اتبعوا الهجوم المضاد من فورهم بالمدفعية والمدرعات الثقيلة . ومع هذا ، كانت طلقاتهم طائشة واستطاع رجالنا أن يعطلوا دبابة شيرمان . فقد أعداؤنا ضابطا برتبة العقيد وسبعة رجال قتلى ، بالاضافة الى عدد من الجرحى . ولكن بينما كانت المعركة مستعرة كانت عملية تحميل الأسلحة مستمرة . وكان الصيد ثمينا ، وبخاصة فى البنادق ورشاشات البرن والذخيرة . كان هناك أيضا كمية صغيرة من طلقات بيات الخارقة للدروع ، التى استخدمت فيما بعد فى تعطيل عدد من دبابات العدو على جبهة يافا ، ولو أننا كنا قد حصلنا على مزيد منها .

بعد مضى أسبوعين زرنا منطقة « يارديس حنا » مرة أخرى . كان هدف « جيدى » هذه المرة قطار ذخيرة بريطانيا فى طريقه من حيفا الى المثلث ، يحمل أطنانا من الأسلحة والذخائر النفيسة الى قوات القاوقجى زعيم العصابات العربية . لم يصل القطار الى محطة الوصول ، بل أوقف عند الكيلو ٤١ بين الخضيرة وبنيامينا ، واستولينا على كمية من الأسلحة والذخيرة قررت مصير يافا فيما بعد ، بل وأكثر .

لكنها لم تكن عملية سهلة اطلاقا .

انفجر لغم خفيف صمم بحيث يوقف القطار دون أن ينسفه ، بينما كان القطار يقترب من النقطة التى كانت وحدة اقتحامنا تنتظر عندها . كانت التقديرات دقيقة جدا . اهتز القطار ، ولم يحدث أى شىء أكثر من هذا ، واندفع رجالنا الى الأمام .

كانت عملية ايقاف القطار أسهل بكثير من عملية الاستيلاء عليه . ففى اللحظات الاولى وقعت قنبلة هاون على سيارة اللاسلكى فأصابت عدة رجال وعطلت الاتصال بالجماعات المنتشرة فى منطقة واسعة .

رجالنا على النيران ، الا أنهم لم يحدثوا أثرا يذكر فى مدرعات العدو ، فقد اجتمعت للعدو كل المزايا · كان محتميا في موقع حصين مرتفع ، بينما كان رجالنا معرضين تماما فى أرض مستوية مكشوفة ·

فشلت المحاولات المتكررة لمهاجمة القطار ، وفى نفس الوقت كنا بصدد ضياع أثمن سلاح : الوقت · وكانت فى المناطق المجاورة معسكرات حربية بريطانية ، وقد وصلت تعزيزات فورية ، وسرعان ما نجبر على الاشتباك مع قوات تفوقنا على جميع الجوانب · وهكذا بدا وكأننا خسرنا كل شيء :

لكن « جيدى » لم يكن بالرجل الذى يصرف النظر عن قطار مملوء بالأسلحة والذخيرة · كيف يمكن التفريط فى مثل هذه الفرصة ؟ بينما كان جيدى يزحف بين الرجال وجد ، لدهشته ، ان جماعة منهم أسرت جنديا بريطانيا ، والظاهر أنه قفز من القطار عندما انفجر اللغم فوقع فى أيديهم على الفور · طرأت على جيدى فكرة سريعة خاطفة : ان « تومى » هذا يستطيع أن يساعده فى الاستيلاء على القطار · قال جيدى للجندى البريطانى الأسير : « اننا سنطلق سراحك · اذهب الى قائدك وقل له ان وحدة مقاتلة من أرجون تسفاى ليومى تحيط بالقطار من جميع الجهات ، وقل له انى أعطيه مهلة خمس دقائق ليسلم الأسلحة · اذا أذعن فلن يصيبه أو رجاله أى ضرر ، أما اذا رفض فاننا سوف ننسف القطار وكل من عليه · اننا مزودون بأسلحة مضادة للدبابات » ·

جرى « تومى » الذى لم يكن يحلم البتة بأنه سيستخدم فى مهمة سلمية مثل هذه ، الى القطار ·

فاتت دقائق · انتظر جيدى ، ولم تصل اليه أية اجابة · ان أسوأ ما فى الأمر أنه لا توجد لديه أية وسيلة للرد على صمت الرائد البريطانى فلم تكن عنده أسلحة مضادة للدبابات ، ولم تكن لديه أية مواد ناسفة ·

لم ينتظر جيدى حتى تنتهى مهلة انذاره النهائى ، بل اقترب من عربات القطار المدرعة معرضا نفسه للخطر ، وفجأة ألقى بنفسه على الرمل والحصباء · كان جندى بريطانى ينشن على رأسه فأخطأته الطلقة قيد شعرة ومرت الرصاصة من فوقه ·

اتخذ جيدى موقعا آخر أكثر ملاءمة ، وصاح بكل قوته : أنصتوا الى ! هنا قائد وحدة أرجون تسفاى ليومى يتحدث اليكم · انكم محاصرون

برجالى من كل جانب . اننا ننوى مصادرة الأسلحة التى يحملها القطار ، ولا نقصد ايذاءكم . أخرجوا من عربات القطار وارفعوا أيديكم فوق رؤوسكم . اذا استسلمتم أمكنكم العودة الى وحداتكم ، أما اذا استمرت مقاومتكم فلن يبقى منكم أحد . لسوف أصدر الأمر بنسف القطار ، سننسف القطار اذا لم تستسلموا ؛ ذلك هو انذارى الأخير » .

أثبت السلاح النفسى فعاليته : خرج الضباط والجنود من القطار ، والتقط جيدى أنفاسه .

كان هناك ثلاثة من رجالنا قتلى ، مستلقين فى الرمال . وهكذا ، مرة أخرى دفعنا الدم ثمنا للحديد . وكان من بين القتلى « أبتالبون » الذى كان قد أسر عام ١٩٤٤ فى عملية من عمليات المقاومة وعذب تعذيبا بشعا ، ثم أطلق سراحه من السجن فيما بعد على أيدينا .

بدأ الرجال فى تحميل الذخيرة على عربات كانت قد استدعيت الى الكيلو ٤١ . كان الواجب شاقا طويلا ، وكان الوقت متأخرا .

عمل رجالنا ، جريا على عادتهم فى مثل هذه الظروف ، بنشاط زائد ، الا أنه على الرغم من ذلك ما كان لهم أن يستطيعوا شحن الأطنان الكثيرة من الذخيرة النفيسة بالسرعة الكافية . قرر جيدى أن يستعين بمساعدة الأسرى البريطانيين ، فنادى رقيبا بريطانيا : « اجمع رجالك فانى فى حاجة الى مساعدتكم » . وكان الرائد خائفا يتوقع الشر .

سأل الرائد : « هل تريد قتلهم ؟ » .

فكانت اجابة جيدى اللاذعة : « لا تكن أحمق . اننا محاربون عبرانيون ولسنا بربريين . اننا لا نقتل الأسرى ، وقد وعدنا ألا نؤذيكم . ان رجال أرجون تسفاى ليومى يحافظون على وعدهم دائما . لن يصيب رجالك أى أذى . اننى فى حاجة اليهم للعمل فقط » .

دهش الضابط وبدا عليه الاطمئنان . حقيقة ، انه لاحظ ان الخدمة الطبية للارهابيين ضمدت جراح رجاله ، بل انها أخذت أحدهم الى المستشفى لأن جراحه كانت خطيرة . الا أنه كان يتصور ان الارهابيين قد يغيرون سلوكهم فى أية لحظة .

طوال أربع ساعات ساعد الجنود البريطانيون فى تحميل الأسلحة على عربات أرجون . عملوا بهمة جنبا الى جنب مع جنود أرجون . انه

لواجب شاق جدا • كان عليهم أن ينقلوا ما يقرب من عشرين طنــا من الذخائر • وقد سمح لهم جيدى كل ساعة بفترة راحة لمدة خمس دقائق يتناولون فيها البرتقال • لقد عملوا بجد وأمانة • شحنوا صندوقا فى اثر صندوق وحملوا عربة بعد عربة الى أن تم العمل •

انطلقت العربات ، وأودعت القنابل فى تلك الليلة ، بصفة مؤقتة ، فى أقبية نبيذ « زيخرون يعقوب » وفى مساكن عائلة « هارونسون » (١) • وانى لأعجب ما اذا كان البارون الفاضل « روتشيلد » يحلم بأن الجنود العبريين قد يحولون القنابل يوما الى أقبيته بدلا من النبيذ !

أطلق سراح الأسرى البريطانيين • وسرعان ما أحيطت المنطقة بعد ذلك بالوحدات المدرعة البريطانية التى كانت تبحث بحثا جادا عن الأسلحة وعن الذين صادروها ، الا أن البحث لم يكن مثمرا • كان سكان بنيامينا وزيخرون يعقوب وبارديس حنا قلقين الى حد ما ، هل سيفرض حظر التجول ؟ هل ستوقع عقوبة جماعية ؟

وجهت هذه الأسئلة الى الضابط قائد قوة المطــاردة البريطانية ، وكانت أجابته تعبيرا عن الروح البريطانية : « لن تكون هناك عقوبة ، لقد كان قتالا عادلا » •

(٢)

كان المعسكر رقم ٨٠ ، وقطار الذخيرة ، وانتاجنا للأسلحة ــ كل ذلك عوامل أتاحت لنا امكانية شن الهجوم على يافا • تمت الخطة فى غضون شهر أبريل ، وصار اختيار الوحدات • وخلال أيام عيد الفصح ، أى قبل قيام دولة اسرائيل بثلاثة أسابيع ، خرجنا لانقاذ تل أبيب •• وكثير غيرها ــ من التهديد بالدمار •

كان أساس خطتنا الهجوم على يافا فى عنق الزجاجة الضيق الذى يربط المدينة الأصلية بحى المنشية الذى يتجه شمالا أشبه بشبه جزيرة

---

(١) نظم « هارون » و « سارة هارنسون » جماعة « نيلى » ، وهى جماعة المخابرات اليهودية فى الحرب العالمية الأولى ، التى قدمت مساعدات قيمة للقوات العسكرية البريطانية فى تخطيط حملتها ضـــد الأتراك • وقعت « سارة هارونسون » فى أسر الأتراك وقتلت نفسها من سوء ما عانت من التعذيب •

الى تل آبيب اليهودية • كان الهدف التكتيكى هو كسر عنق الزجاجة والوصول الى البحر لقطع معظم المنشية عن يافا • كان الهدف الاستراتيجى هو اخضاع يافا وانقاذ تل ابيب انقاذا تاما من الغدارة المعمرة الموجهة الى قلبها •

قبل بدء هجومنا كانت تل أبيب قد تعرضت لعقاب شديد من يافا المعتدية ، وبخاصة من حى المنشية • وفى غضون الأشهر القليلة الأولى من أعمال الشغب العربية قتل وجرح قرابة ألف يهودى ما بين رجل وامرأة وطفل فى الهجمات التى وجهت من مسجد حسن بك والمنطقة المجاورة له فى حى المنشية • استطاع القناصة العرب أن ينتقوا الضحايا فى كثير من الأجزاء الهامة فى تل أبيب ، ولم تفلح النقط الدفاعية والاغارات الكثيرة فى منعهم من اضافة مزيد من الضحايا يوميا الى قائمة القتلى اليهود فى شوارع المدينة الرئيسية • وكتبت الصحافة الأجنبية عن المعارك فى « شارع روتشيلد » • كانت يافا تتحدى تل أبيب وظلت تل أبيب فى وضع دفاعى ، وارتبط الآلاف من أبنائها بالجبهة الثابتة التى كانت تدافع عنها •

وفى ليلة ٢٥ أبريل خرجنا لوضع نهاية لهذا الموقف المخزى الخطر • وتجمعت وحدات المعركة والخدمات المساعدة فى المعسكر المسمى باسم دوف جرونر ، « معسكر دوف » فى رامات جان • وطوال النهار ، عبئت حوالى مائة عربة بالطريقة الوحيدة التى كانت فى متناول المقاومة منذ بدء التمرد ـ طريقة المصادرة المؤقتة • لم تكن طريقة سارة ، الا أن أصحاب العربات كانوا يعرفون من تجربة غيرهم أننا دائما كنا نبذل كل ما فى وسعنا لاعادة عرباتهم اليهم بعد انتهاء العملية أو دفع تعويض فى حالة تلفها ، كما انهم كانوا يعرفون قبل كل شىء ان عرباتهم انما أخذت لأغراض حرب واجبة ، بل ان كثيرا منهم كانوا يسلمون عرباتهم أو سياراتهم عن طيب خاطر • لم تكن لدينا أية وسيلة أخرى • ان المقاومة لا تستطيع ، بل انها لا تجرؤ ، أن تستخدم نفس العربة بصفة دائمة • ان العجلات تترك أثرا • ومن أين لنا بالمال الكافى لشراء حاجتنا من العربات ؟

فى ليلة ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٨ كان هناك رتل ممتد من العربات ينتظر على طريق تل أبيب ـ رامات جان • كان بعض هذه العربات مصادرا من السلطات البريطانية ، وبعضها الآخر مصادرا بصفة مؤقتة من أصحابه اليهود ، وكان البعض مستعارا من الأصدقاء • وعلى مقربة

من الطريق بمعسكر دوف كان مئات من جنود أرجون ينتظرون الاشارة للدخول في المعركة ٠

لكن الاشارة تأخرت ٠

كان هناك مؤتمر فوق سطح المنزل الصغير الذى اتخذت فيه رئاسة المعسكر مقرها ، فلقد جاء السعاة بأنباء مقلقة من المدينة ٠ قالوا ان الهاجاناه أعلنت حالة التأهب وانها كانت على أهبة الاستعداد لمنعنا من تنفيذ العملية ٠ اقترح شخص ما أن يؤجل الهجوم يوما أو يومين ٠ كانت المناقشة جادة وممتدة ، وأخيرا اتخذ قرار بالهجوم فى تلك الليلة ٠

كان الرتل ينتظر فيما وراء الفناء ، أول رتل علنى قوامه ستمائة ضابط وجندى من أرجون ٠ لقد انتهت أيام الهجمات فى الخفاء وبدأت أيام الهجوم العلنى ٠ لم تعد هنالك مقاومة سرية بعد ٠

كانوا يقفون هنالك صفا بعد صف ٠ انهم المتمردون خارجين الى المعركة بمركباتهم الميكانيكية وخدمتهم الطبية ومواصلاتهم الميـــدانية وخدمة تموينهم ، وفوق كل شىء بايمانهم المطلق ٠ انها لساعة عظيمة ٠

ذهبت مع « جيدى » الى القلعة المشكلة من الرجال لأوجه اليهم بعض الكلمات قبل أن يخرجوا الى المعركة ٠ كان ذلك بعد انقضاء ثمانى سنوات منذ آخر خطاب عام ألقيته ٠ وربما كانت تلك هى المرة الاولى فى حياتى التى عانيت فيها من ذعر « المنصة » الشديد ٠ لقد كان أغلب الرجال لا يعرفون عنى الا اسما ورمزا ٠ قلت لهم :

يا رجال أرجون ! أنتم ذاهبون لفتح يافا ٠ اننا خارجون الى معركة من المعارك الحاسمة من أجل استقلال اسرائيل ، فلتعرفوا من الذى يقف أمامكم ولتذكروا من هم أولئك الذين تتركون وراءكم ٠ ان أمامكم عدوا غليظ القلب هب للقضاء عليكم ، ومن ورائكم آباؤكم واخوتكم وأبناؤكم ٠ اضربوا العدو بلا هوادة ، أحكموا التصويب ، واقتصدوا فى ذخيرتكم ، ولا يشهدن العدو منكم فى المعركة رحمة أكثر مما يقـــدم لشعبنا ٠ لا تقتلوا النساء والأطفال ٠ ان من يرفع يديه مستسلما فكأنما أنقذ حياته فلا تؤذوه ٠ سيتولى قيادتكم فى الهجوم الملازم جدعون ٠ ان وجهتكم وجهة واحدة فقط ، هى الأمام » ٠ أضاف جيدى تعليماته ، فأكد ، بصفة خاصة ، على ضرورة الاقتصاد فى الذخيرة ، التى لا نستطيع الحصول على مزيد منها ٠ وصفا فى اثر وصف ، سار الرجال فى سكون الى الطريق العــام ٠

تحرك رتل العربات الممتد فى اتجاه تل أبيب ، ثم سلك طريقه صوب يافا • دخلنا تل أبيب فى النوبة الليلية الثالثة ، وكانت الشوارع المؤدية الى يافا مهجورة • فتحنا مركز رئاستنا فى مبـــانى مدارس « اليانس » المخربة ، وفى مستشفى « فرويد » المهجور أقمنا مستشفى الميدان ، ونزل الجنود بالمنازل المجاورة •

كانت خطتنا الأصلية أن نشن الهجوم ليلا ، الا أن المشاورات الواجبة فى معسكر « دوف » استنفدت وقتا طويلا • وهكذا أدى التأخير الى تأخير آخر ، فكان من المستحيل أن نقوم بالهجوم بمجرد أن وصلنا ، فقد كان هناك مزيد مما ينبغى عمله • كان من الضرورى أن تحصى الوحدات ، وكان لزاما أن يعطى قادتها توجيها نهائيا • كما كان حتما أن تقام المواصلات التليفونية الميدانية ، وأهم من ذلك كله كان ينبـــغى اقامة مدافع الهاون فى مواقعها •

كان لدينا مدفعان هاون عيار ثلاث بوصات ، اثنان فقط ، وكانا من صنع بريطانيا ، وكنا قد استعرناهما فى عملية « مصادرة » منذ سنتين أو أكثر ولم نستخدمهما البتة لأنه لم يكن عندنا طلقات تناسبهما ، والهاون بدون قنابل كالقلم بدون حبر •

ظل هذان المدفعان فى مخازننا « كالأفيال البيضاء » لمدة عامين ، الا أننا الآن فى الخامس والعشرين من شهر أبريل ، ومنذ أسبوع مضى استولينا على قطار حربى وكنا « مكتئبين » للحاجة الى القنابل ، والقنابل ، ثم المزيد من القنابل ، أما الآن فقد زال عنا ما كان بنا من اكتئاب ، فقد زاوجنا مدافع الهاون بقنابلها • مدفعان حقيقة ، الا أن قنابلهما كانت تعد بالآلاف •

قد تتزاوج الهاونات والقنابل فى السماء ، الا انها ، هى الأخرى ، فى حاجة الى قسها ، وهو المدفعى الذى يعقد قرانها • كان عندنا ثلاثة مدفعيين على جبهة يافا ، وقد ظلوا بعد ساعة ويوما بعد يوم يطلقون دون أن تنال أيديهم قسطا من الراحة • فليس من عجب ، اذن ، أن تطلب الهاجاناه مساعدتهم •

ففى اليوم الثالث من أيام المعركة طلبت منا قيادة الهاجاناه تحويل مدافعنا الهاون الى منطقة « تل العريش » لتمكين وحـــدة من وحدات الهاجاناه من الانسحاب وبعد معركة يافا أقرضنا مدفعى الهاون والمدفعيين الذين يعملون عليهما للهاجاناه لكى تنظف قرية « سلامة » السيئة السمعة

التى وقعت حينئذ فى أيدى الهاجاناه دون اطلاق طلقه واحـــدة ودون ما اصابات ٠

من نافذة مركز الرئاسة شاهدت الرجال وهم ذاهبون الى المعركة : أولا ، « الرتل » الذى يقوده « يوشع » الصامت ، يليه « الرتل » الذى يقوده « ايلى » وهو ضابط متمرس ، ثم فصيلة « كابتسان » (أى « المعدم ») الذي كان اسمه مناسبا من حيث المعنى الاقتصادى ولو أنه كان غنيا فى الشجاعة المنقطعة النظير وفى الحب الذى يحمله له رجاله ٠ ومرت الوحدات ، وحدة فى اثر وحدة وطابور بعد طابور ٠ لم يكن لليلة التى أمضوها ساهرين أى أثر يذكر ، فقد كانوا منتعشين نشطين ، وكانوا يغنون أغنية المعركة وهم ذاهبون ٠ وبينما كنت أشهد الشباب العجيب وأسمع أغانيهم صليت صلاة صامتة وسألت الله أن يمنحهم النصر وأن يردهم سالمين غانمين ٠

بدأت معركة يافا ٠

بدأت نيران مدافع الهاون الموجهة الى مؤخرة العدو ـ بدأت تبذر بذور القنوط وراء خطوطه ٠ وفى عنق الزجاجة نفسه كانت المعركة نزالا بين الرشاشات أساسا ٠ قامت رشاشاتنا البرن بدورها خير قيام ، الا أن صوتها لم يكن هو الصوت الوحيد فى ايقاع المعركة ٠ ما هذا ؟ لقد عرف « جيدى » هذا من فوره ، فقد كان العدو يستعمل رشـــاش سبانداو ، وقوة نيران هـــذا الرشاش أكبر بكثير من قوة نيران رشاش برن ، كما ظهر ان العدو لم يكن يبالى بالذخيرة ، دفعة اثر دفعة ٠ كانت النيران تنصب بلا توقف على رجالنا ٠ وكان للعدو ميزات أخرى ، ففى عنق زجاجة « المنشية » تعلمنا ماتعلمته كل الجيوش فى الحرب العالمية الثانية : كانت هناك مواقع دفاعية أفضل من صف المبانى الخربة ، فقد خربت كل المبانى فى المنطقة الأمامية ٠ كانت هذه المبانى ، أثناء أشهر الاضطرابات ، واقعة فى المنطقة الحرام ٠ كان العدو متحصنا بداخل هذه المبانى الخربة وعلى أسطحها ، وكان فى حوزته عدد كبير من الرشاشات الثقيلة وكميات غير محدودة من الذخيرة ٠ كانت خطوط يافا الدفاعية كثيفة وممتدة بالعمق ، وكان ظاهرا ان العرب عملوا طبقا لمشورة خبراء مهرة ، فان مواقعهم محصنة بمهارة وقد أقاموا الأسوار الدفاعية بالعمق ٠

وفيما وراء الخط الأمامى الثلاثى أو الخماسى فى كثافته ، لم يكن هناك محاربون عراقيون وعرب فقط ، بل وقفت من ورائه قوات بريطانية

بدباباتها ومدفعيتها الثقيلة • اتخذت هذه القوات مواقعها لتمنع المهاجمين من الوصول الى المنطقة •

بدأنا نعانى من اصاباتنا الأولى ، وكان من بينها « صادوق » فى نقطة المراقبة العليا ، وقد اصيب في رأسه ، كما جرح كثيرون • كان على الخدمة الطبية ـ وربما كانت أشق خدمات الحرب ـ جهد مضن • كانت أيدى رجالها منهمكة فى العمل وفى الدم : « موشى عتليت » الشديد التدين مزودا بمهماته ومسلحا بمسدسه ، يجرى هنا وهناك ليسعف الجرحى ، ترافقه « توبسى » الفتاة اليمنية التى كانت قد صاحبت الرجال فى هجومهم على مطار اللد ، والى جانبها « نيتزا » من عائلة شهداء الخليل • كان هؤلاء وكثير غيرهم يندفعون الى ومن خط النار ، حاملين النقالات وعليها رفاقهم الجرحى •

لم يستطع رجالنا أن يخترقوا دفاعات العدو ، وضد هجومنا فى الصدام الأول بالمواجهة • استولينا على مواقع هامة ، لكننا لم نكسر خط العدو ولم نحز اى تقدم ذى قيمة • لم نتمكن من كسر رقبة الزجاجة ، وقد يهز خبراء الاستراتيجية النظريون رؤوسهم : « طبعا ، لماذا ورطتم أنفسكم فى عنق الزجاجة حيث تتوقعون النيران من الشمال ومن الجنوب ؟ ان أى جيش يجبره الحظ السيء على الوقوع فى عنق زجاجة يحاول جاهدا أن يخرج منه ، ومع ذلك فأنتم ، أيها المحاربون ، قد ألقيتم بأنفسكم فى عنق زجاجة بمحض ارادتكم ، فكيف تتوقعون أن تنجحوا ؟ » •

مهلا أيها الاستراتيجيون ، لا تتعجلوا !

مع احترامنا للكتب والنظريات ، فانكم لا تعرفون همة جنود أرجون !!

(٣)

صار تلخيص الموقف فى مؤتمر من الضباط : لم ننجح • قدرنا ميزات العدو ، وقوة نيرانه ، بأقل من حقيقتها ، المنطقة محصورة • امكانيات التحرك محدودة • لم تتمكن سياراتنا المدرعة من الالتفاف على جوانب العدو ومهاجمة مؤخرته • ان الهجوم بالمواجهة مع استخدام أعداد كبيرة لا يؤدى الى حدوث عملية اختراق • كان علينا أن نسحب قوتنا الأساسية ، تاركين القوات الضرورية فقط لاحتلال المواقع التى

استولينا عليها ، مع استنباط أسلوب آخر للهجوم • لم يكن الأسلوب الآخر أسلوبا جديدا • انه تكتيك أرجون الأنموذجي : جماعات الاختراق والستر (التغطية) ، والتقدم الخاطف بجماعات صغيرة تحمل المواد الناسفة ثم الانسحاب المؤقت السريع ، ونسف موقع العدو ، والاستيلاء على الموقع ، واستمرار التقدم •• عملية نسف أخرى ، فانسحاب فتقدم •

قد تكون الطريقة بطيئة ، الا انها كانت فعالة فى قتال المقاومة ضد قوات الحكومة • كان كل ما هو مطلوب حينذاك هو سيطرة وقتية كافية لتدمير الهدف الذى هو غرض الهجوم • أماهنا ، على جبهة يافا ، فقد كان الموقف مختلفا : لم يكن علينا أن نهاجم وندمر فحسب ، بل كان علينا أيضا أن نستولى ونحتفظ بما استولينا عليه •• هل يمكن أن تفلح تكتيكاتنا فى مثل هذه الظروف ؟

لم يكن هناك مجال للاختيار • أعاد « جيدى » تنظيم قواته ، وبعد استراحة استعد للمعركة من جديد ، وفى غضون ذلك كانت المدفعية تضرب يافا نفسها بالقنابل • شكرا لله ، فقد كان قطار الذخيرة قطارا طويلا ، وفى نصف يوم أعطينا يافا ما أعطى لتل أبيب فى شهور • وكان تقديرنا أن القنابل التى ألقيت عليها لابد وأن تكون قد سببت شللا فى خطوط مواصلات العدو وفى وسائل اتصاله بالخطوط الأمامية • ارتفعت روحنا من جديد •

استؤنفت المعركة عصرا فى عنف أشد • خرج المهندسون حينئذ يحملون صفائح المتفجرات المضيئة ، كان فى عنق الزجاجة عدد من المواقع الناتئة المحصنة تحصينا شديدا ، وقد عملت هذه المواقع على سد طريق التقدم ، فلو أن المهندسين نجحوا فى تدميرها ، اذن لأمكن فتح ثغرة ضيقة يمكن أن تتسع فيما بعد •

الا أن العدو كان يقظا ، وكانت الدبابات البريطانية ورشاشات العرب « سبانداو » تغطى المنطقة كلها بنيران كثيفة ، وقد قذف البريطانيون فى المعركة بأسلحة مضادة للدبابات ، وكنا نفتقر الى هذه الأسلحة • لم يعد عنصر المفاجأة فى جانبنا ، وكان علينا أن ندفع الثمن لكل شبر من الأرض •

كان علينا أن نستعمل أيدينا على الخط الأمامى : الرجال بدلا من المدافع ، الشجاعة والتضحية الذاتية بدلا من « التسكين » بالقنابل • كان كل شيء يكلفنا الدم : كلفنا احراز الأسلحة من أجل المعركة الدم ، وكلفتنا

المعركة نفسها الدم ، النغرة الأولى كلفتنا الدم ، وحتى « التسكين » الذى يكلف الجيوش الأخرى العرق فقط كان يكلفنا الدم . لقد كان مذبح الرب يتطلب تضحيات بغير حساب . كنا نقدم في ذلك الوقت أحسن أبنائنا ضحية لعيد الفصح لكي نضمن أن أيامنا سوف تتجدد كما كانت من قديم الزمان .

أضفنا الى زئير الهاون وقعقعة الرشاشات المواد المتفجرة . هل أنجز المهندسون عملهم ؟ هل دمرت مواقع العدو الرئيسية ؟ حدث انفجار فى اثر انفجار ، ولكن هل تم فتح الثغرة بالفعل ؟ هل كان الطريق مفتوحا لهجوم القوات الأساسية ؟ سرعان ما ظهر ان موقعا واحدا فقط من مواقع العدو وهو الذى دمر ، بينما لم تمس النقطة القوية الأساسية التى تسيطر على المنطقة بأسرها . لقد انفجرت المواد بعيدا جدا فلم تحدث اى عطب فى المبانى الضخمة الحصينة . بذل المهندسون كل ما فى وسعهم تحت النيران الفتاكة ، الا أنهم ما كانوا ليستطيعوا أن يتقدموا الى أبعد من تلك النقطة حيث استطاعت متفجراتهم أن تمس حوائط الموقع فقط . انها لم تستطع أن تزعزع الموقع .. وصد هجومنا للمرة الثانية .

مشاورات اخرى بين الضباط . جلسنا على مقاعد المدرسة فى أحد فصول مدرسة « اللايانس » لعمل الملخص اليومى . كان ضرب القنابل على يافا نفسها مؤثرا ، ليس فى ذلك شك . أطلقنا مئات من القنابل ، وأبلغنا المراقبون بحدوث اصابات مباشرة بعثرت مركبات العدو ، وشلت مواصلاته ، وأحدثت الارتباك بين قواته . لم يؤد هجومنا بالمواجهة الى أية نتائج متناسبة مع الجهد المبذول ، الا أنه كان علينا أن نمضي قدما . ليس هناك من سبب لقطع الأمل . مازالت المعركة فى بدايتها . حقيقة ، لقد فشل هجومنا الأول ، الا أنه يجب أن نحاول مرة أخرى ، وأن ننجح . سوف نعيد تنظيم قواتنا . الرجال فى حاجة ملحة الى الراحة الليلة . سنهجم من جديد فى اليوم التالى ، وسوف نستولى على مواقع العدو .

كانت هذه خلاصة الآراء العامة التى ترددت تلك الليلة فى مؤتمرنا بمركز الرئاسة : أوضح « جيدى » ضرورة « تكسية » مواقعنا الأمامية ، أى تحصينها بأكياس الرمل .. الخ ، وضرورة تكسية كل موقع جديد نستولى عليه كلما تقدمنا ، فان ذلك خليق بأن يهىء للرجال أدنى حماية ممكنة على الأقل من نيران العدو ، كما أنه يمكنهم من التقدم قريبا ، ما أمكن ، من مواقع العدو الحاكمة التى ينبعث منها الموت والدمار .

انتهى المؤتمر .. وامتلأت قلوبنا ثقة متجددة بعد اتخاذ القرار .

ذهب رجال المعسكر للنوم . استراح الجنود المنهكون ، بعضهم فى الشوارع والأفنية ، وبعضهم فى المبانى شبه الخربة . افترشوا الأرض فكانت بالنسبة لهم حشية كافيه . لم يسبق قط أن ذاق رجالنا الرفاهية فما أكثر ما ناموا على بلاط السجن ، الذى يملأ القلب حسرة ، قبل أن يتمتعوا بميزة النوم تحت السماء والنجوم وأسلحتهم الى جانبهم .. والحق يقال ، انهم كانوا سعداء ، أما عن نتيجة المعركة نفسها فانه لم يكن يساورهم أدنى شك . كان اليوم فاشلا ، الا أن الغد سيأتى بالنصر . لم يكن هناك أى تفكير فى التراجع .

نام رجال أرجون نوما عميقا هادئا ، أما كبار الضباط فلم تغفل لهم عين ، اذ كانوا طوال الليل فى شغل شاغل بالتخطيط لمعركة الغد .

(٤)

صدرت الصحف مع طلوع الفجر .

عندما قرأناها اظلمت الدنيا فى أعيننا ، فقد نشرت احدى الصحف « هجوم فاشل تشنه أرجون على يافا » ، وأنذرت صحيفة أخرى « بهجوم استعراضى » تقوم به أرجون على يافا ! وأعلنت ثالثة : « هجوم عقيم لأرجون على يافا » .. « استعراضى » ، و « فاشل » و « عقيم » : تعبيرات متشابهة بكيفية عجيبة . ان شخصا ما قد أعطى الصحف « توجيها » رسميا .

نشرت قيادة الهاجاناه نفسها بلاغا اختفى فى التعبيرات المتشابهة نفسها : « فاشل » و « عقيم » ، الا أنها جاوزت هذا الحد فأبلغت الصحف — بما فى ذلك مراسلو الصحف الأجنبية — ان أرجون سحبت القوات من جميع أنحاء الاقليم لتشن هجوما على يافا ، فكان ذلك بمثابة افشاء المعلومات للعدو .

لم يكن ذلك هو كل ما هناك ، فقد انحدر واضعو البيان الى درك سحيق ليوحوا بأن أرجون كانت أقل اهتماما بالاستيلاء على طريق « بسطروس » فى يافا منها بطريق « اللنبى » فى تل أبيب (١) .

---

(١) « طريق اللنبى » اسم آخر لأصوات الانتخاب فى تل أبيب . ابان السنوات التى سبقت قيام الدولة اليهودية طور زعماء حزب العمل الأشتراكي اليهودى فى فلسطين (ماباى) تنظيمهم السياسى بطريقة أكثر فعالية الى ان وطدوا أنفسهم كمجموعة مسيطرة =

قرأنا بيان الهاجاناه من جديد فاتضح لنا التهديد المضاف في ذيله : « الهاجاناه لن تسمح ٠٠ الخ » ٠ ثم قرأنا مقالات الصحف التى كتبت لتفسر وتبرر الكلمتين « فاشل » و « عقيم » الواردتين فى العناوين ، قرأناها بعناية فخفقت قلوبنا للفكرة المفزعة ، فكرة أنهم كانوا يتمنون أن نهزم فعلا ! هناك ، فى الصفوف الخلفية ، قعد الصحفيون اليهـود والقادة اليهود ينتظرون ، وكلهم أمل ، أن يهزم الفتية اليهود الذين خرجوا ـ بعد ما كابدت مدينتهم اليهودية العظيمة من القناصة والقنابل والقتل ستة أشهر ـ خرجوا ليحاربوا معركة الشعب اليهودى ضـد عدو لا يرحم ٠ وهنا ، على الجبهة ، يراق دم رجالنا من أجل شعبهم ومن أجل خلاصه ومستقبله ٠ هنا ، على الجبهة ، نحارب لكى يستطيع شعبنا (والكادحون فى جملته) أن يعيش وأن يعمل فى سلام بالنهار ، وينام ملء جفونه مطمئنا بالليل ٠

ومع هذا ، قعد هناك ، فى الخلف ، أعضاء من شعبنا ، بعد اليوم الأول من هجومنا ، يتشدقون « بفشل أرجون » ٠ هل يمكن أن يكون هناك سلوك أكثر تمردا من هذا السلوك ؟ أليس هذا مثلا آخر من « كراهية الذات » المخزية التى ابتلينا بها نحن اليهود منذ ألفى سنة عندما نفينا من بلدنا ؟

تحدثت مع بعض الفتية الذين كانوا قد بدأوا يتأهبون لاستئناف المعركة ، وكانوا قد قرأوا بيان الهاجاناه وتقارير الصحف ٠ الا أن الغريب أنه لم تبد عليهم أى علامات للغضب ٠ انهم الذين كانوا يتقدمون الى الخطوط الأمامية ، الى حيث يحتمل أن يموتوا فى الاشـتباك ، قد قبلوا الاساءة وكأنما هى رسائل الشكر والرضا ٠

= فى حكومة اسرائيل ٠ ودائما ما كان ينظر هؤلاء الرجال ، فى سعيهم القانونى للعمـل السياسى ، الى أرجون باعتبار انها تهديد خطير لنفوذهم السياسى ٠ وهكذا ، بينما كانت أرجون غارقة فى الأحلام ، تتابع وتعلم المثل العليا وتضحى على مذبح الرب ، كان الرجل الذين يسيطرون على الوكالة اليهودية ، وبالتالى حكومة اسرائيل ، يتكلمون لغة مختلفة ـ لغة الشؤون السياسية اليومية ٠ ومالم يمكن ادراك هذا « التـكلم والتفكير فى الأغراض المتعارضة » فان القارىء قد يؤدى به التفكير الى غبن زعماء ماباى (« الزعماء الرسميين » ، « قادة الهاجاناه » ، المؤسسات اليهودية » ، كما يعبر عنهم المؤلف بتعبيراته المتنوعة) ، زد على هذا أنه بدون هذا الادراك المسبق فان كثيرا من الأحداث التى يرويها المؤلف مثل وجهة النظر » الرسمية » لارجون فى معركة يافا قد يبدو للقارىء غير العليم ببواطن الامور وكانها خيالية ان لم يكن لا يمكن تصديقها ٠

كانت النتيجة الوحيدة للمهاترة هي تقوية ارادتهم للنصر ·

من الأعماق كرمت عظمة هذه الأسرة المحاربة · لقد ذهبوا طائعين لكى ينفذوا الى « عنق الزجاجة » ـ ذلك الخانق الأخلاقى والتكتيكى ·· نيران العدو أمامهم وافتراء شعبهم من ورائهم · أى جيش فى التاريخ حارب وصمد فى مثل هذه الظروف ؟

ربما نكون قد اعتدنا وقتئذ على هذا النوع من الهجوم المزدوج : هجوم الرصاص ، من جهة ، وهجوم السباب ، من جهة أخرى ·· فكم تعرضنا طوال سنوات التمرد للشتائم والمعارضة من الدوائر « الرسمية » ، الا أننا واصلنا القتال ·

وليس من غير الطبيعى ، ازاء هذا التشهير « الرسمى » المؤلم ، أن يسأل فتيتنا رفاقهم : « لماذا ادت بنا قيادتكم لنا الى هذا ؟ لماذا نفعل ذلك ؟ لمن نقدم أرواحنا ؟ ألا يوجد ما يبرر قولهم ان هم قالوا : « ان هذا الشعب لا يستحق تضحياتنا · فليتقدم هؤلاء الأبطال من الخلف الى الصف الأمامى وليعرضوا صدورهم لرصاص العدو · لماذا تتصدى نحن لرصاص العرب وقنابل البريطانيين لا لشىء الا لمجرد أن يصيبنا اللعن اليهودى ؟ » ·

الا أن أحدا منهم لم يسأل أيا من مثل هذه الأسئلة · لقد قرأوا صحف تل أبيب ثم إبتسموا وجدوا على أنيابهم · كان رد فعلهم اجماعيا : « سوف نحارب وسوف نكسب رغما عن العدو ، ورغما عن اليهـــود الخائفين الذين يتمنون لنا السوء » ·

وفى صباح يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٨ المفجع أظهرت زمرة من محاربى أرجون على جبهة يافا شجاعة باسلة وهمة عالية بغير نظير ، على ما أعتقد ، فى قصة البأس البشرية ·

لكن دعنى أسارع فاسجل أنه ، فى ذلك اليوم ، وجدت هذه الزمرة عوضا لها عن حزنها الصامت ، فى موقف جمهور سكان تل أبيب ، ففى ذلك اليوم والأيام التالية صار واضحا جليا أن قدح الصحافة والهاجاناه الحاقد « الموعز به » كان أبعد ما يكون عن مشاعر الشعب الحقة ، كما كان بعيدا عن الحقيقه ·

(٥)

بينما كانت هذه الأحداث تتكشف فى تل أبيب ، بدأ « جيدى » الهجوم المجدد على يافا · صب مدفعا الهاون مئات القنابل التى حددت مراميها تحديدا دقيقا من واقع الخريطة وبارشاد نقط الملاحظة · كان لدى المدفعيين أوامر خاصة باجتناب ضرب المستشفيات ودور العبـــادة والمبانى التى ترفع أعـــلام الدول الأجنبية · وفى اليـــوم السابق ، زار القنصل الفرنسى مركز رئاستنا وطلب منا تحاشى القاء القنابل عـــلى المؤسسات الخيريه المتنوعة التى ترعاها فرنسا فى يافا ، ووافقنا بالطبع ، مع اصرارنا على أن ترفع هذه المؤسسات العلم الفرنسى · وحذت مؤسسات أخرى حذو مؤسسات فرنسا ، وقد أجيب طلبها بالمثل ·

كان ضرب القنابل أشد تركيزا وأكثر تأثيرا من ذى قبل · بعدئذ اندفعت وحداتنا الى الأمام فهاجمت مواقع العدو فى عنق الزجاجة · ظل الكفاح عدة ساعات الى أن أرخى الليل سدوله ، وكان قصف القنابل أشد منه فى اليوم الأول ، وتحت ضغط قواتنا المتزايد اضطر العـــدو للانسحاب من عدد من المواقع ثم بدأ يتقهقر بصورة مضطربة ·

الا أن القوات البريطانية جاءت مرة أخرى لانقاذه · وكان ضابط بريطانى فى يافا قد طلب ، فى اليوم الأول ، من بعض الدوائر اليهودية أن « تؤثر علينا » حتى لا نهاجم القوات البريطانية التى كانت لا تزال متمركزة فى يافا ، فى محطة السكة الحديدية وفى منطقة الأمن ، وكان قد وعد بأنه اذا نحن لم نهاجم القوات البريطانية فانها سوف « تظـــل على الحياد » ، الا آن هذا الوعد قد نقض نقضا سليطا فى اليوم الأول بالذات · كان « الحياد » من نوع خاص : وجه جنازير الدبابات البريطانية وضغط على زنادات الرشـــاشات والمدافع ، ونشر الموت « المحايد » بين صفوف القوات اليهودية · وفى اليوم الثانى من أيام المعركة صار هذا « الحياد » العجيب أكثر غرابة ، فقد أخبر المقيم البريطانى فى منطقة اللد (التى تضم يافا) عمدة تل أبيب ان الجيش البريطانى مصمم على منع غزو يافا بالقوة اذا استدعى الأمر ، وانه اذا لم توقف المؤسسات اليهودية هجوم أرجون فان الجيش البريطانى سيشتبك مع رجال أرجون ·

والحق ، بطبيعة الحال ، هو أن القوات البريطانية ما كان ينبغى لها أن تشتبك ، ولقد كانت مشتبكة بالفعل بصفة مستمرة · الا أن التغيير الوحيد الذى طرأ هو أن القوات البريطانية زادت من نشاطها ضدنا فى

اليوم الثانى لكى تحول دون انهيار الجبهة العربية الذى كان متوقعا ، ولكى تحتفظ بيافا من أجل الخطة الشاملة المقرر وضعها موضع التنفيذ فى الخامس عشر من شهر مايو .

لذا صارت المعركة شاقة علينا بكيفية غير محدودة ، ولكن الضغط الذى بذله جنودنا المصممون على أن يكسبوا المعركة كان شديدا جدا ، مما اضطر العدو الى التراجع ، فاكتسح كثير من مواقعه . الا أنه قبل أن يتمكن رجالنا من التعزيز شنت القوات المختلطة الانجليزية والعربية هجوما مضادا عنيفا تؤيده المدفعية الثقيلة فأجبرتنا على الانسحاب . وبهذه الكيفية تبادلنا احتلال المواقع مرارا وتكرارا ودارت معارك ضارية .

تكبدنا خسائر فادحة مرة أخـــرى ، الا أننا استعضنا كل رجل سقط على أرض المعركة . وقد برزت أحداث فردية اخترقت ضباب المعركة وحفزت الهمم ، فعندما رأت الفتاة « نيتزا » حاملة النقالات ان واحدا من رجال الرشاش البرن قد قتل ، قفزت فى مكانه وصارت تطلق الرشاش الى أن حل محلها مدفعى آخر . هجمنا مرة أخرى وأمكننا احتلال مواقع العـدو ، وتقدمنا ثانية ، الا اننا لم نتمكن من اختراق خطوطه . بعدئذ تكشفت ظاهرة غريبة أمام ناظرينا : الفرار الجماعى من يافا ، فعلى حين فجأة بدأ العرب المدنيون وجمع مختلف من « المحاربين » يغادرون المدينة وقد استبد بهم الخوف .

والظاهر انه كان هناك سببان لهذا الفرار الوبائى : أولهما اسم المهاجمين والسمعة التى أفاضتها الدعاية عليهم ، فقد أبرق مراســـل يونيتدبرس فى بيروت انه عندما وصلت الى بيروت أول سفينة تحمل اللاجئين العرب من يافا قالوا ان المعلومات التى وصلت اليهم تفيد بأن أرجون هى التى كانت قائمة بهذا الهجوم وألقت بالسكان فى حالة من الذعر الخسيس . وكان السبب الثانى هو قوة التدمير التى سببتها قنابل الهاون . ولست أدرى بالضبط كم قنبلة قذفناها على يافا ، الا أن « ايجال يادين » (١) أخبرنى فيما بعد أننا لم نراع الاقتصاد فى قنابلنا الثمينة . خرجنا جميعا ، وكان علينا أن نختار بين اخضاع يافا وتدمير تل أبيب ، وصح عزمنا على أن نقدم أرواحنا للحيلولة دون تدمير تل أبيب .

جعل ضربنا يافا بالقنابل حركة قوات العدو مستحيلة ، وأجبره على البحث عن ملاجىء مشكوك فيها فى العمارات ، كما أنه شل المواصلات التليفونية وقطع أسلاك الكهرباء وخرب موارد المياه وعم الارتباك والفوضى

(١) الذى أصبح فيما بعد رئيس أركان حرب جيش اسرائيل .

المدينة ، وقد زاد منهما ضجيج المعركة الدائرة على مقربة من وسط المدينة ؛ وهكذا تحطمت روح العدو المعنوية وبدأ الهرب الاكبر ، بالبحر وبالبر ، على العجلات ومشيا على الأقدام . بدأ الهرب بالالوف . ولكن سرعان ماعم طوفان الفزع عشرات الآلوف . أبلغت المصادر البريطانية عن ضحايا كثيرة من العرب فى جميع أرجاء المدينة ، واصيب مركز تجمع « للمتطوعين العراقيين اصابة مباشرة فقتل وجرح أكثر من مائة شخص . لم ينل العدو أى راحة ولم يجد أى ملجأ .

حاولت السلطات العسكرية البريطانية أن تهدىء من روع العرب . كانت يافا فى فوضى شاملة : الشوارع غارقة ، البيوت متداعية ، وقد تفشى النهب والقتل . لم تكن هناك أية سلطة تستطيع أن تحول دون اخلاء المدينة اخلاء تاما .

لم يحمل الهرب الجماعى من يافا السكان المدنيين فحسب ، ولكنه جرف معه المحاربين أيضا ، لا من يافا وحدها ، بل ومن كل ما جاورها . فى أعقاب هجومنا على يافا وقعت منطقة « أبى كبير » فى أيدينا دون أن نطلق طلقة واحدة . وقد أخبرنى ضابط الهاجاناه فيما بعد أن « أبا كبير » كانت محصنة تحصينا قويا بحيث كانت تستطيع الصمود الى أجل غير مسمى .

(٦٠)

بينما كانت المعركة دائرة على أشدها فى يومها الثانى ، ذهبت أنا و « ابراهام » ، بدعوة من الوكالة اليهودية والهاجاناه ، لمقابلة « جاليلى » و « ايجال يادين » لايضاح « بعض تفاصيل » يتوقف عليها تطبيق اتفاقيتنا مع الهاجاناه . واذ تأخر هذا الاجتماع كثيرا ، واذ كانت نهاية الحكم البريطانى تقترب سريعا ، لم يكن هناك كثير مما يستحق أن يوضح . اقترحنا ان الفقرة التى تشير الى الاستيلاء على الأسلحة البريطانية لا ينبغى أن تلغى بموجب عدم التصديق المسبق التلقائى ، بل يجب أن تنفذ بالتشاور والاتفاق المتبادل ، كما ناقشنا أيضا خطط العمليات ضد العرب . كان هذا أول اجتماع لى مع « ايجال يادين » . وبعد سقوط يافا بعدة أيام رتبت لقاء بينه وبين « جيدى » . انجذب ضابطا العمليات الصغيران أحدهما الى الآخر لأول وهلة . ويقول لى جيدى فى مجال مديح يادين : « انه صغير السن ، يعزف ما يريده ، وهو ممتلىء

حيوية · انه أشبه بواحد منا » · كما كان يادين معجبا بجيدى ، هو الآخر ، حتى لقد قال : « اذا وضع جيدى خطة لعملية ما فانها لا تقل مثقال ذرة عن أى خطة أضعها أنا · اننى أعتمد عليه اعتمادا مطلقا » ·

فى ذلك الاجتماع الأول ناقشنا الموقف · لقد أصبح الهجوم على يافا ــ الذى بدأ فى عاصفة من الشتائم أثارتها الأوساط الرسمية ــ عملية « معتمدة » من الهجاناه ·

رجعت الى مركز رئاستنا بينما كان اليوم الثانى من أيام القتال يقترب من نهايته · لقد حققنا نجاحا فى ذلك اليوم حيث استولينا على عدد من رؤوس الكبارى توطئة لعملية الاختراق · كان ضباطنا ورجالنا قد تعلموا كيف يعرفون العدو وكيف يعرفون الأرض ، كما تعلموا أيضا أن يتجنبوا أخطاء اليوم السابق · الا اننا لم نتمكن من الوصول الى الهدف · لم « تفتح » يافا بعد ولم نتمكن من الوصول الى البحر · لم يتحطم عنق الزجاجة ·

عقدت مؤتمرا للضباط أبلغتهم فيه بما حدث فى الاجتماع مع رؤساء الهاجاناه وكيف أنهم وافقوا على استمرار الاقتحام اذا كانت هناك فرصة لاختراق خطوط العدو خلال أربع وعشرين ساعة ·

قلت للضباط : « لكننى لا أرى أن نستمر فى تحطيم رؤوسنا على هذه المواقع الحصينة التى تحميها الدبابات البريطانية على أية حال ·· لقد بذلنا كل ما فى وسعنا طوال يومين ، وفى مثل هذه الظروف ليس هنالك خزى ــ حتى بالنسبة لارجون ــ فى ارجاء الاقتحام المباشر · سوف ندافع عن الخط الذى استولينا عليه بوحدة قوية ، وستنسحب باقى قواتنا » ·

صار الجو متوترا فى غرفة الخرائط · ظل « جيدى » صامتا وقتا طويلا ، وأبدى الضباط الآخرون آراءهم فى اقتراحى ، فأيده بعضهم وعارضه كثير منهم · وأخيرا كان القرار الذى اتخذناه هو سحب معظم الوحدات ، وترك قوة محدودة فى قاعدة مدرسة « اللايانس » · وكان هذا يعنى ارجاء الاقتحام المباشر ·

مع هذا ، حدث شىء غريب تلك الليلة · « ثار » جنود ارجون لأول مرة فى تاريخهم · رفضوا صراحة أن ينفذوا الأمر بالانسحاب · بدأ « المفوضون » يفدون الى غرفة الخرائط · كانوا يتكلمون بأسلوب مختلف ، الا أنهم كانوا يهدفون الى نفس الغاية : « لن نهجر الميدان ، دعنا نحاول

مرة أخرى ، نعدكم بأننا سنهزمهم هذه المرة ، اننا لم نضعف وسنضربهم بما فيه الكفاية » ٠

عاد « جيدى » بعد جولة ممتدة على الخطوط الأمامية ، وكان وجهه ممتقعا ٠ وقف أمامى وهو مغطى بالوسخ والتراب من كثرة ما زحف على يديه وعلى ركبتيه ، ولكن عينيه الجميلتين كانتا متوقدتين بالايمان المجدد ،

قال : « لقد وجدت بعض نقط ضعيفة جديدة فى مواقع العدو ، وانى واثق من أننا نستطيع اختراق خطوطه فيها ٠ » ٠

من الخط الأمامى ، جاء ضجيج الرشاشات والقنابل ــ هدوء عاصفة المعركة ٠ جلست فى غرفة الخرائط المظلمة أتأمل المشهد العجيب ، مشهد المناقشة بين القائد ورجاله ٠

انتهت المناقشة ٠ نجحت « ثورة » الرجال ٠ لن يكون هناك تقهقر وسيستأنف الهجوم ٠

(٧)

كان الوقت متـــأخرا ليلا ٠ كان ينبغى أن يكون الرجال نيـاما ليستعيدوا قليلا من النشاط للغد ، الا أنه لم تكن هناك راحة فى المعسكر فى تلك الليلة ٠ فاضت قوة جديدة ــ بصورة تشبه الاعجاز ــ فى العضلات التى كانت منهكة تماما ٠ انكب الضباط على خرائطهم يضعون تفاصيل الخطة ٠ سيتقدم « يوشع » من هنا و « ايلى » من هنـــاك ٠ سـيحاول « كابيتسان » أن يخترق خطوط العدو من هنا ٠ وماذا عن المهندسين ؟ كنا فى حاجة الى المهندسين أو « المدفعية الحية » القادرة على نسف المبانى ، مبنى بعد مبنى ، وعلى تدمير النقط الحصينة ، نقطة فى اثر نقطة ٠ ان هذا لا يتطلب شجاعة فقط ولكنه يتطلب أيضـــا مهارة فنية ومثابرة خارقة للعادة ٠ كان هناك كثير من المتطوعين ، أوصى « كابتسان » بعدد منهـم على رأسهم « راحامين » ، وهو ضـــابط يمنى صغير ذو عينين سوداوين واسعتين وقوام ممشوق ، وهو هادىء ، جم الأدب ، كتوم لاتفارق الابتسامة الرقيقة شفتيه ٠

استمرت الاعدادات المحمومة فى ساعات الصباح ، الا أن المعركة لم تبدأ حتى العصر ٠ بدأ هزيم مدفعى الهاون مرة أخرى ، وأنبعثت من

فوهتيهما الساخنتين مئات القنابل · تأججت المعركة الفاصلة من أجل يافا لهيبا شديدا ·

تقدمت وحدات المعركة من المواقع التى سبق أن استولينا عليها وقمنا « بتكسيتها » بأكياس الرمل ، وكان المهندسون ، أو « المدفعية الحية » ، قد مهدوا لهم طريق تقدمهم · وبين حائطين من النيران ـ نيران العدو والنيران الساترة ـ زحف المهندسون واندفعوا يجلبون موادهم الناسفة الى مواقع العدو ، ويشعلون شريط الاشعال ، ثم ينسحبون ويتقدمون مرة أخرى · كان دوى الانفجار يصم الآذان · خطوة بخطوة ، وقدما بقدم ، ارتد العدو من مواقعه ·

لم تتمكن المعاونة البريطانية ونيران دبابات البريطانيين من صد التقدم هذه المرة · والواقع أن خطنا تعرض لنيران شديدة ، الا أنه صمد · وأخيرا ، وقعت فى أيدينا نقط العدو القوية الأساسية التى كانت تسد طريقنا الى البحر طوال يومين ·

وكما لو كانوا محمولين بقوة خفية ، انطلق « راحامين » هو وزملاؤه من نقطة الى نقطة ، ومن انفجار الى انفجار ، ليفتحوا طريق النصر لرفاقهم · لكن طريق الاختراق لم يفتح بالمتفجرات وحدها ، بل أدخل « سلاح » جديد فى المعركة : المعاول ! كانت المعاول والعتلات هى الأسلحة التى استخدمها الرجال لعمل ممرات عبر المبانى المخربة · أطاع « جيدى » القاعدة الكلاسيكية فى الاستراتيجية الحديثة : احفر وعزز كل موقع يتم الاستيلاء عليه ·

امتد داخل « النفق » الذى أنشىء عدد من « الممرات » ، ممر للهجوم يشمل المهندسين والجنود ، وممر ثان للجرحى وأفراد الخدمة الطبية ، وثالث للتموين يشمل حملة الذخائر والمهمات والمياه ، ورابع للخنادق ـ حملة أكياس الرمل و « عمال التكسية » · تشابكت الممرات ، فأحيانا كان يذهب عمال التكسية للمشاركة فى المعركة ، وأحيانا كان أفراد الاسعاف يعملون على رشاشات البرن ، والعكس بالعكس · لكن الممرات لم تنقطع ، بل اتصلت حلقاتها من ثغرة الى ثغرة ، ومن موقع منسوف الى موقع محتل ، ومن مبنى الى مبنى ، ومن زقاق الى زقاق كانت الحلقات داخلة فى ميدان ضرب الرشاشات · لم يكن على جبهة يافا « أرض ميتة » ، أى المناطق التى يمكن عبورها دون التعرض للخطر ، واذا ما سقطت حلقة أوجدت حلقة غيرها فى الثغرة ··

وفجأة نفدت أكياس الرمل ٠ وفي تلك الليلة وقعت « سرقات » غير مألوفة في تل أبيب ٠ كسرت المخازن والمحال ، ولكن لم يسرق منها ذهب ولا فضة ٠ لم يؤخذ منها شيء سوى الأكيـــاس ، وكان « السارقون » أغرب ٠ لقد كانوا رجال الشرطة اليهود حماة القانون والنظام ٠ أكياس ، أكياس ، آلاف وآلاف من الأكياس لجبهة يافا !

وهكذا مدت سلسلة النار والدم والعمل والرمل ، سلسلة المعركة والفتح ، نفسها الى الأمام ٠ بدأت هذه المرحلة من المعركة عصر يوم الثلاثاء وانتهت صباح الأربعاء ٠ خمس عشرة ساعة عمل متصل دون أية راحة : التقدم بين حائطين من النيران ٠ « نفق » وسط النيران ، نفق مظلم خارق ٠ أسلوب جديد من القتال في الشوارع ٠ جهد رائع فكري وجســـدي وروحي ٠ لم تنقذ الحواجز الدفاعية العدو ، ولم تنقذه ميزاته الاستراتيجية أو قوة نيرانه الكاسحة ٠ ضغطنا على العدو فارتد الى البحر شمالا وجنوبا ، تطايرت مواقعه في الهواء ٠ وفوق الأنقاض والدخان جاء المهندســـون والمقاتلون ، لقد كانوا يعترفون بوجهة واحدة فقط : الى الأمام ، وبهــدف واحد فقط : البحر ، وكان يغمر قلوبهم تطلع واحد فقط : النصر ٠٠ وهكذا انتصروا !!!

كانت الساعة التاسعة صباحا ، وقد وصل الرجال أخيرا الى شاطئ البحر تاركين وراءهم خطوط تحصينات العدو المحطمة ٠ كان « جيدي » المنتصر على رأسهم ، وكان البحر جميلا ، هادئا ، ساكنا ، وكانت الأمواج الخفيفة تتعانق عناقا رقيقا من باب التحية !

عندما وصل رجالنا كانت فرحتهم جامحة ، كانوا يرقصون ويغنـون ويلوحون بأيديهم ويطلقون ذخيرتهم في الهـــواء ٠ كان لهم العـــذر في ابتهاجهم بعد كل ما احتملوه وكابدوه وبعد كل ما أنجزوه ٠ والآن تجثو يافا أمامهم على ركبتيها ، لا حول لها ولا قوة ٠

كان « جيدي »هو الوحيد الذي لم ينجرف ٠ انه قدر هو الآخر أنه جاء وفتح وانتصر ، ولكنه كقائد معركة كان يعرف أنه على الرغم من تحطيم خط العدو ، وعلى الرغم من هزيمته ، فان المعركة لم تكن قد انتهت بعد ، وأن هجوما مضادا قد يقع في أية لحظة ٠

جاء الهجوم المضـــاد أكيدا ، واســتمر يومين كاملين ، ولم يكتف البريطانيون هذه المرة بمساعدة العرب ، لقـد بدأوا « يتصـــدرون » ، فقذفوا بالدبابات والرشاشات الثقيلة ، ومدافع الهاون ٢ بوصة ، والمدافع ،

بل وحتى الطـــائرات فى المعركة لكى يغتصبوا منا ثمار النصر ، ولكى يحولوا دون الاستيلاء على يافا كما حذر المقيم البريطانى فى منطقة اللد اليهود ، وكما وعد العرب • كان الهجوم المضاد « هجوما دفاعيا » كذلك • ففى يوم الخميس ، وهو خامس أيام معركة يافا ، قصفت القوات البريطانية مواقعنا بالقنابل ، فقتـــل كثير من رجالنا وجرح كثيرون • كان الملازم « يوشع » ، وهو واحد من أكفأ قادة المعركة ، من بين أولئك الذين مزقتهم القنابل البريطانية اربا ، بحيث تطايرت أشلاؤه ولم نستطع أن نجمعها • وكان من بين الذين قتلوا برصـــاص البريطانيين الملازم « عورى » قائد تل أبيب المحـلى ، وهو الضابط المقدام الذى اندفع الى الأمام لينسف أحد المبانى لكى يسد الطريق أمام سيارة مدرعة فصرعه رصاصها •

بعد الضرب بالقنابل والهجوم أعلنت السلطات البريطانية رسميا أنه لم يكن فى نيتها أن تهاجم تل أبيب وانما كانت تريد « منع أى تقدم آخر لارجون تسفاى ليومى فى يافا » • من وجهة النظر العسكرية ، سقطت « يافا العربية » فى أيدى ارجون تسفاى ليومى صباح الثلاثاء الموافق ٢٧ أبريل ، الا أن الاستيلاء الفورى عليها حالت دونه « يافا البريطانية » بمدافعها ودباباتها وهاوناتها وطائراتها ، وتهديدها بتدمير تل أبيب • لكن الفتح اليهـــودى النهائى ليافا ما كان ليحول دونه أى حائل بعد • حقيقة ، ان القوات البريطانية منعت ، بقوة السلاح ، المزيد من تقدمنا فى المدينة التى أصبحت آنئذ مدينة ميتة ، الا أن السلطات البريطانية كانت تريد أكثر من ذلك ، كانت تريد اعادة « المنشية » تحت سيطرتها • تمسكنا طوال يومين بخطنا الجديد ، وقمنا بصد موجة بعد موجة من هجمات العدو المضادة فلم ينكسر خطنا قط •

بينما كان الهجوم المضاد لايزال جاريا ، بدأت وحداتنا فى تطهير « المنشية » نفسها فسقطت محطة شرطة المنشـــية دون أن تطلق طلقة واحدة • صادفنا جيبا من جيوب المقاومة فى مسجد حسن بك ، الا أنه استسلم بسهولة ، ولم يصب المسجد بأى تلف • رفعنا علم اسرائيل على مئذنته العالية ، وقد رآه كل سكان تل أبيب جميعا صباح يوم الأربعاء هكذا • وقفت الجموع الهائلة تقر أعينها بذلك المشهد ، فلقد ظلت هذه المئذنة ستة أشهر تقتنص القتلى فى شوارع المدينة ، والآن جاء الخلاص آخر الأمر •

حدث حادث خطير أثناء عمليات التطهير ، فقد رفع جماعة من العرب أيديهم مستسلمين ، وبينما كانت وحدتنا تقترب من هذه الجماعة سنحب

واحد من العرب بمسدسه وأردى قائد الوحدة قتيلا • قتـل العربى على الفور ، الا أن دم رجالنا كان يغلى غضبا ، ولم يكن من السهل كبح جماحهم دون أن يصبوا نقمتهم •

(٨)

دعونا لعقد مؤتمر صحفى فى غـرفة الخرائط بينما كنـا نجمع الأسرى ، وبينما كانت المناطق المحاصرة بسـبيل التطهير ، وبينما كان البريطانيون يشنون هجوما مضادا • كان ذلك أول مؤتمر صحفى بعد عدة سنوات من التمرد والحرب ، وكان رجال الصحافة المحلية والأجنبية ، على حد سواء ، لا يفتأون يوجهون الينا الأسئلة بلا انقطاع طوال أيام المعركة ، فقد كانوا يريدون أن يحصلوا على المعلومات • سقطت قنبلة هاون فى الفناء على بعد عشرات من الياردات من غرفة الخرائط ، وكان الهجوم المضاد بالغا ذروته ، فطلب منا بعض الضيوف اختصار الشرح •

لدى افتتاح المؤتمر لم أتمالك مقاومة اغراء « الهجوم المضاد » على نفسى •

قلت : « أيها السادة ، لقد دعوناكم لتشاهدوا نتائج هجوم ارجون تسفاى ليومى الاستعراضى العقيم الفاشل ••

فشاهدوا وتعجبوا ! » •

كانت تل أبيب فى بهجة ، ملأت الجموع الضخمة شـوارعها لكى يحيوا المنتصرين ، وقد شاع بينهم شعور غامر بزوال خطر داهم قاتل — خطر على رجل وكل امرأة وكل طفل • لن تستطيع يافا أن تهاجم تل أبيب بعد الآن • ان آلاف اللاجئين الذين كانوا يعيشون فى الممرات وتحت السلالم يستطيعون العودة الى دورهم •

أعلنت القيادة العامة البريطانية فى الشرق الأوسط أن هجوم ارجون تسفاى ليومى على يافا ، الواقعة خارج المنطقة المخصصة لليهود بناء على قرار الأمم المتحدة ، أدى الى تغيير جذرى فى الموقف ، مما استلزم اعادة توزيع القوات البريطانية فى المنطقة • وأضافت هيئة الاذاعة البريطانية أن القوات البريطانية التى أرسلت بطريق الجو بصفة عاجلة من قبرص ومالطة نزلت فى يافا لكى تحول دون وقوع المدينة فى أيدى اليهود •

كان القصد من هذه البيانات ارهاب اليهود وتشجيع العرب ، الا أنها كانت ، هى الأخرى ، بغير طائل •

أجبنا على تهديدات السلطات البريطانية الضمنية بايماءة خاصة :
« لا يزال فى حوزة ارجون آلاف من قنابل الهاون ، ولا تزال هنـــاك معسكرات بريطانيـــة فى أرض اسرائيـــل ، وأننا ندرك أن البريطانيين يتطلعون الى اتمام جلاء قواتهم بسلام ودون مزيد من الخسائر • فليتدبر البريطانيون فى الأمر • » •

كانت المؤسسات اليهودية غير مستعدة لقبول مشورتنا ، الا اننا ساعدناها بأساليب أخرى • باستخدام شحنة هائلة من المواد الناســفة أحلنا محطة شرطة المنشية ، التى كان البريطانيون يطالبون بها لأنفسهم ، الى كومة من الأنقاض • وبنسف المنازل على جانبى الشــارع الرئيسى ، منزلا بعد منزل ، جعلنا ذلك الشارع غير صالح للمرور الى تل أبيب • واذ عاد الى البريطانيين شعورهم بالمذهب الواقعى والقول بحقيقة الأشياء ، وافقوا على « خط جديد » ، هو الخط الذى ثبته جنود ارجون ، وقد سلم هذا الخط تسليما فى الوقت الملائم الى الهاجاناه •

هكذا أصـــبح مصـــير يافا محتوما • وبعد عدة أيام طلبت « لجـــنة الطوارىء » التى تمثل بقية السكان ، معرفة « الشروط » • وفى أوائل مايو — فى أمسية الغزو الذى قامت به الدول العربية الخمس — وقعت لجنة الطوارىء اجراءات استسلام المدينة ، وتسلمها قائد الهاجاناه المحلى فى تل أبيب ، واشتركت وحـــدات من الهاجاناه وارجـــون فى احتلال المدينة •

(٩)

قد يبـــدو أن الاستيلاء على يافا لايرتبط بثورة اليهود ضد الحكم البريطانى ، الا أنه ، فى الواقــع ، جزء منه من الوجهة السياســـية والتاريخية — ذلك لأنه لم يكن لمجرد الصدفة أن أرادت الحكومة البريطانية الاحتفاظ بيافا بأى ثمن •• ان يافا ، وهى بمثابة اســـفين فى قلب تل أبيب ، كانت تخدم خطة الانتداب ، « خطـــة الخروج ثم الدخـــول من جديد » • كان الغرض من الاحتفاظ بيافا هو تهديد تل أبيب بعد ١٥ مايو بصفة خاصـــة ، فهى قادرة على شل حركة تل أبيب وتثبيت قوات يهودية كبيرة • كانت يافا أداة — ولعلها الأداة الرئيسية — فى محاولة اخضاع اليهود وجعلهم يطلبون « الوساطـــة » البريطانية و « الرعاية » .

البريطانية • الا أن الخطة أحبطت ، وقد أحبطناها فى الوقت المناسب ، فى نهاية ابريل •

خلال الأسابيع الثلاثة الباقية قبل غزو جيوش الدول الخمس العربية كان فى استطاعة العرب ، تحت الادارة العسكرية البريطانية ، أن يجمعوا فى يافا مزيدا من القوات ومزيدا من الاسلحة والمدافع الثقيلة لقصف تل أبيب ، ولم يكن فى حكم المؤكد أن تترك القوات البريطانية يافا فى الخامس عشر من شهر مايو فقد بقيت فى أجزاء أخرى من الأقاليم حتى منتصف شهر يوليو •

لكن دعنا نفترض أن الحكومة البريطانية حافظت على وعدها وانسحبت من يافا فى الخامس عشر من شهر مايو ، فانه سيكون لزاما علينا فى ذلك الوقت الا نعمل ضد قوات العدو المدعمة فقط ، بل يجب أن نعمل أيضا تحت ظروف مختلفة نهائيا ، فابتداء من صباح الخامس عشر من شهر مايو كان القصف المصرى لتل أبيب من الجو ، الذى شل حركة المدينة جميعها • كانت هذه هى الظروف التى كان يجب علينا فيها أن نحرك قواتنا ونجلب امداداتنا وتموييناتنا وطعامنا وذخيرتنا الى الجبهات الكثيرة المحيطة بتل أبيب والمحيطة بيافا على حد سواء •

ليس هذا هو كل ما فى الأمر ، فان غزة لا تبعد كثيرا عن يافا بحرا • وهكذا ، فان القوات المصرية التى نزلت فى غزة كانت قادرة على أن تنزل فى يافا بنفس السهولة • لم يكن لدينا يوم ١٥ مايو بحرية يهودية أو سلاح جوى يهودى • لقد أنقذت معجزة « الاختلاف فى الرأى » شعبنا مرة أخرى • ان هجومنا على يافا فى الساعة الحادية عشرة لم ينقذ تل أبيب من الدمار المحقق فحسب ، بل ان هجومنا « السابق لأوانه » ، الذى جعل يافا الصياحة تخر راكعة قبل أن تستطيع أن تنهض لتدمرنا ، قد أنقذ الجبهة اليهودية جميعها من أن تتحطم • لقد كان فتح يافا واحدا من الأحداث الخطيرة فى حرب الاستقلال العبرية •

الفصل الثلاثون

الفجر

في العاشر أو الحادي عشر من مايو سنة ١٩٤٨ ابلغني رئيس الهاجاناه أن اغلب المؤسسات « الرسمية » افلحت اخيرا في التغلب على شكوكها الكثيرة ، واتفقت على اعلان حكومة عبرية مؤقتة فور انسحاب نظام حكم الانتداب . قلت لمحدثي اننا سوف نعترف بالحكومة المؤقتة ونمنحها تأييدنا بغض النظر عن كيفية تكوينها ، لكنني أضفت هذا التحذير الخطير : « اذا ما أعلنت الحكومة اليهودية يوم الجمعة ١٤ مايو فسوف **تكون أولى طائرات العدو فوق تل ابيب صباح السبت** » .

تركزت افكارنا في تطوير المعركة من أجل استقلالنا ومن أجل بقائنا ـ تركزت على الجبهات الكثيرة التي كانت على وشك ان تفتح في الشمال وفي الجنوب وفي الشرق ، في الجو وفي البحر . ومع هذا كان من المستحيل الا نسهب في شرح الحدث العجيب العظيم الذي حدث أمام ناظرينا . لقد انهار نظام حكم كان قائما على مائة الف سونكي ، وان نظام حكم جديد على وشك ان يقوم مقامه وعلى انقاضه . ان أمة كانت بسبيلها الى الحياة ، امة قديمة جدا وتردت في حفرة الدمار ، على وشك أن تولد من جديد !

ليس من شك في أن بعث الاستقلال الوطني العبري للحياة في جيلنا حدث فريد بغير نظير في تاريخ الانسان . لقد اخرجت أمة من

أرضها بعد ضياع حريتها وبعد الفشل التام الذى أصاب ثوراتها ، وأخذت تتجول عن وجه الأرض قرابة ألفى **عام وكان تجوالها منقوعا فى الدم** • والآن فى الجيـــل الحادى والسبعين من منفاه يعود هذا الشعب المتجول الشارد الى أرض **الوطن من جديد** • لقد انتهت الرحلة العلمانية وقفلت **دائرة الطواف** ، وعادت الأمة الى وطنها •

صاحبت معجزة العودة معجزة البعث الى الحياة ، اذ تكشــفت فى الشــعب اليهودى ، خــلال جيل واحد ، القوة لحمل الســلاح والثورة فى وجه الحكم الأجنبى للتخلص من نير الاضطهاد . كم كانت طويلة ســنوات التشــتت والمهانة والدمار ، وما أقصر ســنوات الانتعاش وتجديد القوى والثورة المسلحة ، مقارنة بتلك السنوات ! ما من شىء يعدل التاريخ فى تسجيلاته .

فى ليلة السبت ١٥ مايو ذهبت الى محطة اذاعة ارجــون تسفاى ليومى السرية التى تواجه « مائير بارك » فى قلب تل أبيب . لم أشعر وقتئذ بهيبة المنصة . كنت بين أصــدقائى فى « دارى » ، فى محطة الاذاعة التى انبعث منها صوت التمرد والحرية الى كل مدينة وكل قرية فى أرضنا • الا أن جلال الساعة ارهبنى .

قلت لمستمعى :

« بعد ســنوات طويلة من حرب المقاومة ، سنوات عديدة من الاضطهاد والمعاناة الروحية والجســدية ، يقف المتمردون على الطغيان أمامكم الآن وآيات الشــكر على السنتهم ، والصلوات الطيبات ملء قلوبهم . ان آيات الشــكر هــذه قديمة قدم الزمن ، فهى التى كان يرددها آباؤنا وأجدادنا تحية للأعياد المقدسة ، وبها كانوا يتلـوقــون الثمار لأول مرة فى موسم الفاكهة . واليوم يوم عيد مقدس حقا ، وها هى ذى ثمرة جــديدة ماثلة أمــام ناظرينا • ان التمرد العبرى فى الســنوات ٤٤ ــ ١٩٤٨ قد كلل بالنجاح ، وهو أول تمرد منذ ثــورة الحشمونيين التى توجت بالنصر ، هزم حكم الطغيان فى بلدنا واقتلعه من جذوره . انهار هذا الحكم الباغى الذى حكم فى بلادنا . لقد هزم وانهار وتفرق وهبت دولة اسرائيل فى معركة دامية ، وبذا رسم طريق العــودة الشاملة الى صهيون .

« لقد وضع الأســاس ــ مجرد أساس فقط ــ للاستقلال الحقيقى . انتهت مرحلة من مراحل المعركة من أجل الحرية ومن أجل عودة شعب

اسرائيل قاطبة الى ارض الوطن ، معركة اســترجاع أرض اسرائيل المقدسة الى أصحابها الذين وعدهم الله بها . وما تلك الا مرحلة واحدة فقط .

« هبت دولة اسرائيل وهبت معها أسطورة (هكذا فقط) : (١) بالدم والنار ، بيد ممتدة وذراع قوية ، بالمعاناة والتضحية . وما كان لها ان تقوم بغير ذلك . ومع هذا ، وحتى قبل ان تكون دولتنا قادرة على ان تنشىء مؤســساتها الوطنية المعتادة ، فان عليها ان تحارب — او ان تستمر فى حربها — ضد أعداء شياطين وضد مرتزقة متعطشين للدماء عليها ان تحارب على الارض ، وفى الجو ، وفى البحر . وتحت هـذه الظروف فان التحذير الـذى وجهه الرئيس الفيلسوف مازاريك الى الدولة التشيكوسلوفاكية عندما حصلت على حريتها بعد أن لبثت ثلثمائة سنة • ترسف فى اغلال العبودية ، كان تحذيرا له مغزاه فى نظرنا .

« فى عام ١٩١٨ ، عندما خرج مازاريك الى محطة سكة حديد ويلسون فى براغ حذر مواطنيه الفرحين المتهللين المستبشرين فقال : (انه من الصعب أن تقام دولة ، بل ان أصــعب من هـذا ان نحافظ على بقائها •) • ان عشرات الأجيال وملايين الجائلين من أرض الاضطهاد والمذابح الى أرض أخرى كان مصيرهم أمرا ضروريا بالنسبة لنا . كان من الضرورى ان يكون هناك منفى ، وان يكون هناك احراق على قائمة الحرق وتعذيب فى غياهب الســجون المظلمة . كان علينا أن نكابد من الأوهام والآمال الكــاذبة المؤلمة . لقد كنا فى حــاجة الى التحذيرات والانذارات ولو أنها غالبا ما كانت تذهب هباء فلا يؤبه لها — انذارات الأنبياء والرسل . كنا فى حاجة الى العرق والعمل ، عرق الأجيال من الرواد والمؤسسين وعملهم . وكان علينا أن نقوم بالتمرد لسحق العدو كان لزاما أن نتعرض للمشانق ، وللنفى فيما وراء البحار والسجن فى ظلمات السجون والحبس فى متاهات الصحراء — كل ذلك كان ضروريا لكى نصل الى المرحلة الحالية ، حيث يوجد ستمائة الف يهودى فى أرض

---

(١) « هكذا فقط » هى الأسطورة وراء شارة ارجون تسفاى ليومى ، وهى ذراع يمنى مرفوعة تقبض على بندقية بها سونكى • منح هـذا الرمز لارجون من مؤسسها « فلاديمير يابوتنسكى (الذى علم اليهود ، رغما عن المقاومة الشديدة من الدوائر الصهيونية «الرسمية» • أن عليهم أن يحاربوا من أجـل حريتهم الوطنيـة التى ينبغى لهم أن يحققوها « هكذا فقط » ! وقد تحققت نبوءته بدرجة كافية •

الوطن ، وحيث أمكن طرد الطغيان المباشر من جزء ، على الأقل ، من اقليم كله ملك لنا .

« كان من الصعب ان نقيم دولتنا ، الا ان المحافظة على بقائها أصعب من اقامتها . اننا محاطون بالأعداء الذين يتمنون هلاكنا . ان الباغي الذى هزمناه هزيمة مباشرة يحاول هو نفسه ، بطريق غير مباشر أن يجعلنا نستسلم ، بمساعدة المرتزقة من الجنوب ومن الشمال ومن الشرق . ان دولتنا البالغة من العمر يوما واحدا تقوم فى أوار المعركة ولهيبها ، ولذا فان أول عمد دولتنا يجب أن يكون النصر النهائى فى الحرب الدائرة فى جميع أرجاء الاقليم . الا آن هذا النصر الذى لا تتحقق حريتنا بدونه ، والذى لا يكون لنا وجود بغيره يتطلب أسلحة . انه يتطلب أسلحة من جميع الأنواع لكى نضرب الأعداء ، ونشتت شمل الغزاة ، ونحرر البلاد — على طولها وعرضها — من أولئك الذين يعملون على تحطيمها .

« الا ان كل واحد منا فى حاجة الى سلاح من نوع آخر بالاضافة الى هذه الأسلحة المادية — سلاح روحى ، سلاح التحمل الذى لا تزعزعه الهجمات من الجو ، سلاح تكيد الخسائر القادمة ، سلاح الصمود أمام الكوارث المحلية والهزائم الوقتية ، سلاح المقاومة الراسخة فى مواجهة التهديدات والمداهنة فاذا استطعنا خلال الأسابيع والأيام القادمة أن نتحلى بهذه الدروع ، دروع الأمة الثائرة ، فاننا سنحصل فى نفس الوقت على الأسلحة المادية المطلوبة التى نستطيع بها أن نطرد العدو ونجلب الحرية والسلام لوطننا .

« لكننا لو خرجنا من هذه الحملة منتصرين — وسننتصر قطعا — فسوف يكون علينا أن نبذل جهدا خارقا للعادة لكى نحرر بلدنا ونحافظ على استقلالنا . يجب علينا ، قبل كل شىء ، أن ندعم القوى المحاربة فى اسرائيل ، فبدونها لن تكون هناك حرية ولن يكون بقاء لأرض الوطن .

« سنكون فى حاجة الى سياسة خارجية حكيمة لكى نحرر بلدنا ونحافظ على دولتنا . يجب ان نجعل اعلان استقلالنا حقيقة واقعة ويجب أن ندرك انه طالما وجد عسكرى بريطانى أو أجنبى واحد على تراب أرضنا فان سيادتنا المستقلة سوف تبقى مجرد أمل ينبغى لنا لكى نحققه أن نكون على أهبة الاستعداد للحرب ، ليس فى أرض المعركة وحسب ، بل فى المضمار الدولى أيضا . كما يجب علينا ان نقيم مبدأ المعاملة بالمثل فى علاقاتنا بدول العالم وان نحافظ على هذا المبدأ ، فلا ينبغى ان تكون

هناك مهانه ذاتية ؛ بل لا ينبغي أن يكون هناك استسلام أو محاباة ، وانما يجب أن تكون هناك معاملة بالمثل ، نعادى من يعادينا ، ونعاون من يعاوننا، ونقدم ثمن الصداقة صداقة مثلها .

« يجب ان نوثق الصداقة ونؤكد التفاهم بيننا وبين جميع الدول ، كبيرها وصغيرها ، قويها وضعيفها ، قريبها أو بعيدهـــا ، التى تعترف باستقلالنا والتى تساعد نهضتنا الوطنية وتهتم ــ اهتمامنا ــ بالعدالة الدولية وبالسلام بين الأمم .

« ولا تقل عن ذلك اهمية سياستنا الداخلية . واول عمد هذه السياسة العودة الى صهيون . السفن ! بحق السماء لتكن عندنا سفن ! لن ندع القصور يسمم أفكارنا ، ولن نتفوه بتلك الكلمات الجوفاء عن سعة الاستيعاب ، ولن نضع القيود من أجل هذا الذى يطلقون عليه اسم القانون والنظام . بل سنمضي سريعا ، سريعا ! فان أمتنا ليس لديها الوقت ! ولنستفد من مئات الآلاف ، فنحن الآن فى حرب من اجل البقاء ، ويتوقف غدنا وغـــد القادمين على تجمع المشردين من أمتنا بأسرع ما نستطيع .

« وفى داخل وطننا يجب ان تكون العدالة هى الحاكم الأعلى ، الحاكم الذى يحكم الحاكمين أجمعين ، فلا ينبغى أن يكون هنـــا بغى أو طغيان ، بل يجب ان يكون الوزراء والموظفون خدام هذه الأمة لاسادتها . ولا يجوز أن يكون هنا استغلال ، وينبغى الا يكون فى بلدنا اى رجل ــ سواء كان مواطنا أو اجنبيا ــ مضطرا الى القوت ، او محتاجا الى مأوى يؤويه ، أو مفتقر الى التعليم الأولى : « (تذكروا اذ كنتم غرباء فى أرض مصر !) . يجب ان يضىء لنا هذا المبدأ السامى طريقنا فى علاقاتنا مع الغرباء فى أرضنا : العدل ! يجب أن تسلكوا سبيل العدل ، ويجب أن يكون العدل هو المبدأ الذى نسترشد به فى علاقاتنا فيما بين انفسنا ان ارجون تسفاى ليومى قد تركت المقاومة داخل حدود الدولة العبرية المستقلة . لقد بدأنا المقاومة تحت حكم الطاغى لكى نضرب البغى ونطيح به ، فضربناه ضربة شـــديدة . والآن وفى هذا الوقت بالذات تحكمنا حكومة عبرية فى جزء من وطننا . وطالما كان هناك قانون عبرى فى هذا الجزء ــ وذلك هو القانون الشرعى الوحيد فى هذا الاقليم ــ فلا حاجة بنا ، بعد ، الى مقاومة عبرية . سنكون جنودا وبنائين فى دولة اسرائيل وسوف نحترم حكومتها لأنها حكومتنا .

« لقد قامت دولة اسرائيل ، ولكن يجب ان نذكر أن اقليمنا لم يتحرر بعد ، وستستمر المعركة ، وها أنتم ترون الآن أن كلمات محاربى

ارجون لم تكن عبثا . ان الأسلحة العبرية هى التى ستقرر حدود الدولة العبرية . هكذا كان الحال فى هذه المعركة » وهكذا سيكون فى المستقبل ان الأرض التى وعدنا الله بها ارض موحدة ، وان اية محاولة لتمزيق اوصالها ليست جريمة فحسب ، بل انها كفر وضلال . ان من لا يعترف بحقنا الطبيعى فى اقليمنا بأجمعه لا يعترف بحقنا فى اى جـزء منه ، وسوف لا نتنازل عن هذا الحق الطبيعى ، وســـوف نظل عاملين على توطيد تطلعاتنا الى الاســـتقلال التام . يا مواطنى دولة اسرائيل ، وياجنود اسرائيل ، اننا فى وسط المعارك ، وان امامنا اياما شاقة .

« لا يمكن أن نشترى السلام من أعدائنا بالمصالحة . ان هناك نوعا واحدا من السلام يمكن أن يشـــترى ـ انه ســـلام المقبرة ، ســـلام (تريبلينكى) . واتكونوا شجعانا فى هممكم ، مستعدين لمزيد من الابتلاء، ولسوف نصمد وسوف يكون الله فى عوننا ،يحفظ الشباب العبرى الباسل، ويعين الأمهات العبريات على تقديم أولادهن ـ كما فعلت (حنا) ـ الى مذبح الرب . وانتم يا اخوان الأسرة المحاربة هل تذكرون كيف بدانا ؟ لقد كنتم وحدكم مضطهدين منبوذين محتقرين ، بل كنتم فى عداد الآثمين المخطئين المعتدين ، ولكنكم حاربتم بايمان راسخ فلم تولوا الأدبار . ولقد عذبتم ولكنكم لم تستسلموا ، والقى بكم فى غياهب السجن ولكنكم لم تخضعوا ، وأرسلتم الى المنفى ولكن همتكم لم يعترها أى وهن ، وأخذتم الى المشانق فتقدمتم اليها وانتم تغنون . لقد كتبتم صفحة خالدة فى التاريخ . انكم لن تذكروا آلام المـــاضى ، ولن تطـــالبوا بالجزاء وفاق اعمالكم . لكن دعونا نفكر حاليا فى المعركة لأن ناتج هذه المعركة هو الذى سيقرر مصيرنا ومستقبلنا .

« سوف نمضى قدما فى طريقنا الى المعركة ، جند الله ، تلهمنا ارواح ابطالنا الاقدمين من غزاة (كنعان) الى متمردى (يهوذا) وترفرف علينا أرواح هؤلاء الذين بعثوا أمتنا بعثا جديدا بعد مواتها : زيف بنيامين هرتزل ، وماكس نوردو ، وجوزيف ترمبلدور ، وأبو البطولة العبرية الثائرة زيف يابوتنسكى . ولسوف تكون فى رفقتنا أرواح دافيد رازيل أعظم قواد اليهود فى ايامنا ، ودوف جرونر احد الجنود العبريين الأبطال كما ستكون فى صحبتنا الى المعركة ارواح ابطال المشانق وغزاة الموت ، وسترافقنا كذلك أرواح الملايين من شهدائنا ومن أسلافنا الذين ذاقوا العذاب وحرقوا فى سبيل ايمانهم ، ومن آبائنا الذين قتلوا وأمهاتنا اللائى ذبحن واخوتنا الذين قتلوا واطفالنا الذين خنقوا . سوف نحطم العدو

فى هذه المعركة ونخلص شعبنا الذى قاسى فى افران التعذيب متعطشا الى الحرية ، ومتحرقا الى العدل والانصاف .

خرجت ليلا ، كانت شوارع تل أبيب مهجورة ، وكانت المدينـــة قد تعرضت فى ذلك الصباح لقصف جوى .

أخبرنى رفاقى أن كل بيت يهودى به جهاز راديو قد استمع الى خطابى . وكم كنت شاكرا اذ علمت ان كلماتى ساعدت على تشجيع الشعب . كان كل ما حولنا ظلاما فى ظلام ، انه الاظلام التام ، لم يكن هناك بصيص من نور ، وسوف تستمر الظلمة وسيراق الدم . ولكن فيما وراء الأحزان والظلام ، كان فجر مزهر بسبيله الى أن يطلع . لقد انتقلنا من الاستعباد الى الحرية ، ولسوف تشرق الشمس فى الغد !

وسيضحك الأطفال اليهود مرة أخرى !

الفصل الحادى والثلاثون

إننا نحنى رؤوسنا

ليس هذا الذى قدمته تاريخ التمرد اليهودى ضد حكم الانتداب فى أرض اسرائيل . لم يبدأ التمرد ــ التمرد السياسى والروحى ، لا التمرد المسلح ــ فى سنة ١٩٤٤ ، فان المشهد التاريخى يظهر التمرد وكأنه بدأ فى سنة ١٩٢٠ عندما أطلق « يابوتنسكى » الطلقة الأولى دفاعا عن مدينة القدس القديمة . ومع ان الهدف المباشر لتلك الطلقة كان المشاغب العربى ، الا انها أصابت نظام الحكم بطريقة غير مباشرة ، اصابت نظام الحكم ومخططاته التى تقوم الاحكام الوحشية التى حكم بها على « يابوتنسكى » وأتباعه شاهدا عليها . وخلال ربع القرن الذى تلا ذلك كان هناك عديد من المظاهر الثورية فى أرض اسرائيل وفى الخارج على صورة أنشودة وعمل ــ فى الفكر وفى البيانات العملية بالمحراث وبالبندقية ــ حتى قام التمرد بكل قوته . وفى السنوات بين سنة ١٩٤٤ وسنة ١٩٤٧ ، تطور التمرد الى ثورة مسلحة ضد الحكم البريطانى .

وليس هذا تاريخ ارجون تسفاى ليومى . لقد قامت منظمة المقاومة للتحرير ، التى تسمى « ارجون تسفاى ليومى » ، فى أرض اسرائيل قبل قيام التمرد المسلح المباشر بعدة سنين . ويمكن معرفة متى بدأت ارجون تسفاى ليومى من الأسطورة اليهودية التى وضعها « يابوتنسكى » و « جوزيف ترمبلدور » ابان الحرب العالمية الأولى . وكان المنهل الذى ارتوت منه ارجون هو « بيطار » .

وفى سنة ١٩٣٨ عندما نظم بعض العرب ، بتشجيع من السلطات ، هجمات ضد اليهود ، قامت ارجون تسفاى ليومى . تحت القيادة العليا « لنلاديمير يابوتنسكى » وتحت القيادة المباشرة « لدافيد وازيل » بعمل حاسم • تمردت ضد ارث « الدياسبورا » فنبذت سياسة ضبط النفس ، وخرجت للهجوم • وقد تميز المحاربون الأوائل ، الذين مهدوا الطريق للمتمردين فى السنوات التالية ، بالبطولة والتضحية بالذات •

لم اكتب تاريخ التمرد أو تاريخ ارجون ، كما اننى لم اكتب تاريخ الثورة المسلحة نفسها ، بل اننى لم آتنـاول العوامـل التى أوجدت التمرد أو أولئك الذين شاركوا فيه • ان هناك أسماء كثيرة لم أذكرها ، الا انها أسماء ينبغى ان تنقش فى ذاكرة شعبنا . وحتى الأسماء التى ذكرتها غالبا تحت أسماء المقاومة المستعارة كتبت النزر اليسـير فقط من الأمور العجيبة التي يجب أن تقال عن أصحابها وعن أعمالهم • اننى لم أكتب تاريخا ، ولا أزعم أنى رسمت صورة عامة ، ولكننى فقط قدمت فصولا قليلة عن أهم الأحداث التى حدثت فى تلك الفترة كما تنعكس فى ذاكرتى أنا شخصيا •

ان التاريخ الكـامل للتمرد ، وتاريخ ارجـون ، وتاريخ الثورة المسلحة ضد حكم الانتداب لم تكتب بعد . حقيقة ، ان كل ما قدم من عمل فى سبيل تحرير شعبنا ينبغى • أن يسجل وينبغى أن تعيه الذاكرة وحقيقة ، ان كل شخص عمل بطريقة او بأخرى فى انشاء القوى العبرية التى خلقت خلقا جديدا ، وفى استخدامها فى الكفاح من أجل التحرير يجب أن يحمل فى الذاكرة . وهذا الذى نسميه تاريخا فيه غبن كبير ، ان التاريخ ، وبخاصة تاريخ انباء الحرب والتمرد ، يسجل اسماء قليل ممن كانوا فى المواقع الرئاسية ، والحق ان العمل الأساسى انما يتم غالبا على أيدى « الصناع » وعلى أيدى الدهماء والرتب الأخرى ، وعلى أيدى الجنود المجهولين ، فلا يجوز — والأمر كذلك — ان نذعن لهذا الغبن التاريخى • ان أنباء الكفاح اليهودى فى سبيل التحرر يجب أن تكتب فى جملتها ، فلا يجوز أن يتعرض أولئك الذين قاموا بالتعهدات او الجنود المجهولون ، لمصير الرجل « العاقل المسـكين » (١) الذى صـوره « كوهيلت » .

اننى على يقين من أن البيان الكامل عن التمرد سوف يكتب فيما

---

(١) اشارة الى سفر الجامعة « من التوراة » . الاصحاح التاسع ، ١٤ و ١٥ .

بعد • ولعل من الاهمية بمكان ، بالنسبة لشعبنا ، ان يكون هناك تاريخ محكم ، وان يضرب به المثل في اقامة العدل • ولعله أن يكون بالغ الأهمية كذلك بالنسبة للمستقبل فيعلم النـــاس حكمة الحياة أحرارا . اننا نعيش فى عالم من العنف ، فى عالم من القسوة ، حيث لا تشعر الأمم الكبيرة نفسها بالاطمئنان على استقلالها . فكيف ، اذن ، ينبغى للأمم الصغيرة أن تحافظ على استقلالها ؟ اننا امة صغيرة وضعت اســاس حريتها ، وان أعداءنا كثيرون وأصدقاءنا قليلون • من ذا الذى يدرى ماذا يخبئه لنا الغد ، وما اذا كانت هناك محاولات لاخضاعنا ؟

ان تاريخ التمرد وانتصاراته سوف يرشدنا فى المستقبل المجهول وسوف يعلمنا الا نياس حتى في ظروف استعبادنا ، لأن الأمة المستعبدة المشتتة المنهزمة التى تقف على شفا الهلاك السحيق تستطيع أن تقـــوم بالتمرد ضد مصيرها ، وهكذا تعود الى الحياة من جديد . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ! الضعيف ضد القوى . المطارد والمعزول ، المنبوذ والمهجور — ماذا عن كل أولئك ؟ لا أسلحة ؟ ان الأسلحة يمكن احرازها — من الاعداء اذا دعت الحاجة الى ذلك . لاقوات ؟ بل يمكن ان تشكل القوات لا استعدادات ؟ ان الكفاح نفسه سوف يتعهد التعليم والتدريب والاستعداد ان همة الانسان وحدها هى التي يجب ان تكرس نهائيا للمثل الأعلى ، وينبغى له ان يكون مســـــتعدا لتقديم حياته من اجله ولعل ذلك أن يكون هو الشرط الوحيد وأما ما عداه فانه يأتى تلقائيا . اذا كنت تحب الوطن وتعشق الحرية فانك ولاشـــك سوف تجد الحديد الذى تصنع منه الأسلحة لكفاحك .

تلك هى حكمة التمرد . لقد عرفتها كل الشعوب المتحررة ، وان شعبنا لفى حاجة اليها أكثر من أى شعب آخر . اذا تعلمنا كيف نتذكر فلسوف نتغلب على كل أعدائنا ، ولن يفلحوا فى استعبادنا مرة أخرى ، وحتى لو اجتاحونا فلسوف نتخلص من نيرهم • واذا لم تكن لدينا أسلحة فلسوف نصنعها ، وان لم تكن لدينا اية قوة فلسوف نخلقها . انهم لن يتغلبوا علينا . ان حكمة التمرد وروح الحرية خليقتان بالمحافظة علينا نحن وأبنائنا .

واذا كانت هذه الفصول تصلح ، بطريقة ما ، لاثارة تلك الروح وتعميق ايمان الانسان بقدرته على تحطيم قيوده ، فان فى ذلك الجزاء الوفاق للمؤلف •

الا ان المؤلف يدرك انه ليس بالشخص الذى احرز هذه الانجازات، أن واجبه ـ والأمر كذلك ـ هو أن يكرم أولئك الذين حققوا هذه الانجازات كل أولئك قدموا أرواحهم من أجل شعبنا ومن أجل تجديد أيامنا بالصورة التى كانت عليها فى غابر الزمان .

وأملى وطيد أن يسمح لى ، فى ختام هذه الفصول ، بأن أكرم أبطال وشهداء ارجون تسيفاى ليومى تكريما خاصا .

لقد كانت حياتهم كفاحا ، وكان موتهم استبسالا .. كانت تضحياتهم قدسية ، وكانت ذكراهم أبدية !

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٨/٤٢٧٩

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٥٨٨ ٩



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرشا